

الشريف العبقري

دون كихوتي دي لامانشا
الشهير بين العرب باسم "دون كيشوت"
القسم الثاني

مكتبة بغداد

تأليف

ميجيل دي ثربانتس سايدرا

ترجمة: سليمان العطار



المركز القومي للترجمة
تأسس في أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2084
- الشريف العبقرى: دون كيخوتي دى لامانشا (ج٢)
- ميغيل دى ثريانتس سابيدرا
- سليمان العطار
- اللغة: الإسبانية
- الطبعة الأولى 2016

هذه ترجمة كتاب:

DON QUIJOTE DE LA MANCHA
Por: MIGUEL DE CERVANTES SAAVEDRA

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة
شارع الجبلية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Galalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

<https://telegram.me/maktabatbaghdad>

الشريف العبقري
دون كىخوتى دى لامانشا
الشهير بين العرب باسم "دون كيشوت"
(القسم الثانى)

تأليف : ميغيل دى ثرانتس سايدرا

ترجمة : سليمان العطار



2016

بطاقة فهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

سابيدرا، ميجيل دى ثربانتس
الشريف العبقري دون كيخوتي دى لامانشا الشهير بين العرب
باسم "دون كيشوت" (القسم الثاني) / تأليف: ميجيل دى ثربانتس
سابيدرا، ترجمة: سليمان العطار،
ط ٢ - القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٦
٨١٦ ص، ٢٤ سم
١ - القصص الإسبانية.
(أ) العطار، سليمان (مترجم)
(ب) العنوان
٨٦٣

رقم الإيداع: ٢٠١٥/ ٢٥٦٧٦
التزقيم الدولي: 2 - 0493 - 92 - 977 - 978 - I.S.B.N
طبع بالهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

- 13 - تقديم المترجم
- 15 - إهداء إلى الكونت دي ليموس
- 17 - مقدمة للقارئ (كتبها ثربانتس)
- الفصل الأول: حول ما قام به القسيس والحلاق مع دون كيخوتى فيما يتعلق بمرضه
- 21
- الفصل الثانى: عبارة عن المشاجرة العظيمة التى أقامها سانشو بانثا مع أمة دون كيخوتى وابنة أخته مع أمور أخرى مليحة
- 37
- الفصل الثالث: عن الحديث المضحك الذى جرى بين دون كيخوتى وسانشو بانثا وحامل البكالوريا شمشون كارأسكو
- 45
- الفصل الرابع: حيث يرضى سانشو بانثا فضول حامل البكالوريا شمشون كارأسكو حول شكوكه وأسئلته، مع وقائع أخرى جديدة بأن تعرف وتحكى
- 59
- الفصل الخامس: عن الدردشة الذكية والظريفة التى دارت بين سانشو بانثا وزوجته نيريزا بانثا، ووقائع أخرى جديدة بالذكرى السعيدة
- 67
- الفصل السادس: عما حدث لدون كيخوتى مع ابنة أخته وأمه وهذا الفصل واحد من الفصول المهمة فى كل الرواية
- 77

85 ذائعة الشهرة	الفصل السابع: ما حدث لدون كихوتى مع خادمه، فضلاً عن وقائع
95 سيدته دولثينيا دل توبوسو	الفصل الثامن: حيث يحكى ما حدث لدون كихوتى فى ذهابه لرؤية
106	الفصل التاسع: حيث يحكى فيه ما فيه سوف يُرى
113	الفصل العاشر: حيث تحكى الحيلة التى حاكها سانشو لسحر السيدة دولثينيا وأحداث أخرى مثل ما هى حقيقة هى سخيفة
127	الفصل الحادى عشر: عن المغامرة الغربية التى حدثت لدون كихوتى الشجاع مع قفص أو عربة بلاط الموت
137	الفصل الثانى عشر: عن المغامرة الغربية التى وقعت لدون كихوتى الجسور مع فارس المرايا الشجاع
149	الفصل الثالث عشر: حيث نواصل مغامرة فارس الغابة مع الحوار الذكى والجديد والناعم الذى دار بين الخادمين
159	الفصل الرابع عشر: حيث تستمر مغامرة فارس الغابة
175	الفصل الخامس عشر: حيث ينكشف الغطاء وتحكى الأنباء عن فارس المرايا وخادمه صاحب الأنف الأنفاء
179	الفصل السادس عشر: عما حدث لدون كихوتى مع فارس لامانشا الفطن
193	الفصل السابع عشر: حيث انكشفت النقطة الأخيرة والحدود القصوى لما وصلت واستطاعت الوصول إليه شجاعة دون كихوتى فى مغامرة الأسود ذات النهاية السعيدة

- 207 **الفصل الثامن عشر:** ما حدث لدون كيوخوتى فى بيت فارس الرداء الأخضر أو قلعته مع أشياء مما يستغرب
- 221 **الفصل التاسع عشر:** حيث يحكى مغامرة الراعى العاشق مع أحداث أخرى فى الحقيقة طريفة
- 231 **الفصل العشرون:** حيث يحكى زفاف كاماتشو الثرى مع قصة باسيليو الفقير
- 245 **الفصل الحادى والعشرون:** حيث تتواصل إجراءات زفاف كاماتشو مع أحداث أخرى طريفة
- 255 **الفصل الثانى والعشرون:** حيث تحكى المغامرة المهولة لكهف مونتيسينوس الذى يقع فى قلب دى لامانشا، تلك المغامرة التى وصل بها إلى القمة الهمام دون كيوخوتى دى لامانشا
- 267 **الفصل الثالث والعشرون:** عن الأشياء العجيبة التى حكاها دون كيوخوتى (الصلب العود) عما رآه فى الكهف العميق مونتيسينوس من أشياء مستحيلة ومهولة تجعلنا نأخذ هذه المغامرة على أنها مختلفة
- 283 **الفصل الرابع والعشرون:** حيث يحكى ألف تفاهة سفيهة باعتبارها ضرورية لفهم هذه القصة العظيمة
- 293 **الفصل الخامس والعشرون:** حيث تسجل مغامرة النهيق وطرافة لاجب العرائس مع التنبؤات الخالدة الذكر للقرود العراف
- 307 **الفصل السادس والعشرون:** حيث تتواصل المغامرة اللذيذة للاعب العرائس مع أشياء أخرى فى الحقيقة شديدة الطرافة

- 319 الفصل السابع والعشرون: حيث سندرك من كان الأسطى بدرو وقرده،
مع الواقعة الحزينة التى حدثت لدون كىخوتى فى مغامرة النهيق، والتى
لم تأخذ النهاية التى أحبها
- 327 الفصل الثامن والعشرون: عن أشياء يقولها ابن إنجيلين، سوف يعرفها
من يقرأ إذا قرأ بإمعان
- 335 الفصل التاسع والعشرون: عن المغامرة المشهورة للسفينة المسحورة ...
الفصل الثلاثون: ما راضت به دون كىخوتى صيادة جميلة للحيوانات
البرية
- 345 الفصل الحادى والثلاثون: يحكى أشياء كثيرة وعظيمة
- 353 الفصل الثانى والثلاثون: عن الإجابة التى نطق بها دون كىخوتى على
من أنبه ولامه مع أحداث أخرى جادة وطريفة
- 367 الفصل الثالث والثلاثون: عن الدردشة اللذيذة التى دارت بين الدوقة
ووصيفاتها وبين سانشو بانثا، الأمر الجدير بالقراءة والتقدير
- 397 الفصل الرابع والثلاثون: الذى يحكى خبراً يضم كيفية فك سحر من لا
نظير لها دولثينيا دل توبوسو، وتلك واحدة من أشهر مغامرات هذا
الكتاب
- 408 الفصل الخامس والثلاثون: حيث تتم متابعة خبر فك سحر دولثينيا الذى
تلقاه دون كىخوتى، ووقائع أخرى مدهشة

- 421 الفصل السادس والثلاثون: حيث تحكى المغامرة الغربية والتي لم يسبق
لخيال تصورهما عن القهرمانه المقهورة الشهيرة بالكونتيسة تريفالدى، مع
رسالة كتبها سانشو بانثا لزوجته تيريزا بانثا
- 429 الفصل السابع والثلاثون: حيث تستمر المغامرة المشهورة للقهرمانه
المقهورة
- 433 الفصل الثامن والثلاثون: حيث يحكى عما حكته القهرمانه المقهورة من
سوء سير أمورها.....
- 443 الفصل التاسع والثلاثون: حيث تواصل تريفالدا قصتها الفخيمة العظيمة.
- 447 الفصل الأربعون: عن أشياء ترتبط وتمس هذه المغامرة والقصة
العظيمة.....
- 455 الفصل الحادى والأربعون: عن ضمادة مقناخشيف (كلاييلينيو) مع نهاية
هذه المغامرة المؤجلة
- 471 الفصل الثانى والأربعون: عن نصائح دون كيخوتى لسانشو قبل ذهابه
لحكم الولاية، مع أشياء أخرى ذات اعتبار كبير
- 479 الفصل الثالث والأربعون: حول النصائح الثانية التى قدمها دون كيخوتى
لسانشو بانثا
- 487 الفصل الرابع والأربعون: كيف تم حمل سانشو بانثا إلى الحكومة
والمغامرة الغربية التى وقعت لدون كيخوتى فى القلعة
- 503 الفصل الخامس والأربعون: كيف تبوأ السلطة سانشو بانثا الأكبر،
الطريقة التى بدأ بها الحكم

- 513 **الفصل السادس والأربعون:** عن الخوف المرعب الأجراسى والقططى
الذى استقبله دون كيخوتى خلال مجرى غراميات ألتسيدورا العاشقة ..
- 521 **الفصل السابع والأربعون:** حيث تتم حكاية كيف كان سانشو بانثا
يتصرف فى حكومته
- 535 **الفصل الثامن والأربعون:** ما وقع لدون كيخوتى مع دونيا رودريجيث
قهريمانة الدوقة مع أحداث أخرى تستحق كتابتها وتخليدها إلى أبد
الأبدين.....
- 547 **الفصل التاسع والأربعون:** ما حدث لسانشو بانثا فى جولة ليلية لتفقد
ولايته
- 563 **الفصل الخمسون:** حيث يعلن عن السحرة والجلاد الذين جلدوا
القهرمانه، وقرصوا وخمشوا دون كيخوتى، مع الواقعة التى شهدها
الخادم الذى حمل الخطاب إلى تيريزا سانشا زوجة سانشو بانثا
- 571 **الفصل الحادى والخمسون:** تطور حكومة سانشو بانثا، مع أحداث أخرى
متنوعة
- 587 **الفصل الثانى والخمسون:** حيث تحكى مغامرة القهرمانه المقهوره
الثانية، أو القهرمانه (المتعوسة)، باسم آخر، هو دونيا رودريجيث
- 597 **الفصل الثالث والخمسون:** عن النهاية المرهقة والختام لحكومة سانشو
بانثا.....
- 605 **الفصل الرابع والخمسون:** عبارة عن أمور تتعلق بهذه القصة، وليس
بأية قصة أخرى

- 615 **الفصل الخامس والخمسون:** عن أشياء حدثت لسانشو في الطريق، وأحداث أخرى ليس علينا إلا مشاهدتها.....
- 625 **الفصل السادس والخمسون:** عن المعركة الهائلة التي لم يشهد لها مثيل، التي دارت بين دون كيخوتى دى لامانشا والخادم توسيلوس، فى الدفاع عن ابنة القهرمانه دونيا رودريجيث
- 633 **الفصل السابع والخمسون:** عبارة عن كيف ودع دون كيخوتى الدوق، والذي حدث مع ألتسيدورا الذكية هادئة الخاطر وصيفة الدوقة.....
- 641 **الفصل الثامن والخمسون:** عبارة عن كيفية هطول مغامرات غزيرة على دون كيخوتى، حتى إن عددا منها لم يكن يسمح بفراغ للعدد الآخر.
- 657 **الفصل التاسع والخمسون:** حيث يحكى الحدث غير العادى الذى يمكن أعتبره مغامرة وقعت لدون كيخوتى
- 669 **الفصل الستون:** ما حدث لدون كيخوتى فى طريقه لبرشلونة
- 687 **الفصل الحادى والستون:** عما حدث لدون كيخوتى عند دخول برشلونه، مع أشياء أخرى صدقها أكثر من ألمعيتها.....
- 691 **الفصل الثانى والستون:** عبارة من مغامرة الرأس المسحور، وصيبيانيات أخرى ليس من الممكن التوقف عن أن تحكى
- 709 **الفصل الثالث والستون:** عما أصاب سانشو بانثا مع سوء عند زيارة المراكب، والمغامرة الجديدة للموريسكية الجميلة
- 721 **الفصل الرابع والستون:** عبارة عن المغامرة التى أحزنت دون كيخوتى أكثر من كل حزن أصابه فى كل ما وقع له قبل ذلك من مغامرات
- 727 **الفصل الخامس والستون:** حيث تتم معرفة فارس القمر الأبيض مع تحرير دون جريجوريو، ووقائع أخرى

- 735 **الفصل السادس والستون:** عبارة عما سيراه من يقرأه، أو ما يسمعه من
 ينصت لمن يقرأه
- 743 **الفصل السابع والستون:** حول قرار دون كيوخوتى بأن يصير راعياً
 ليواصل حياة العراء حتى يمر عليه الحول الذى وعد به، مع بعض
 الحوادث الحقيقية اللذيذة والمسلية
- 751 **الفصل الثامن والستون:** عن المغامرة الخنزيرية التى وقعت لدون
 كيوخوتى
- 759 **الفصل التاسع والستون:** عن الواقعة النادرة والجديدة إلى الغاية، والتى
 خلال كل مجرى هذه القصة العظيمة لم يحدث لدون كيوخوتى ما هو أندر
 منها وأجدد
- 769 **الفصل السبعون:** الذى يواصل التاسع والستين، وهو عبارة عن أشياء لا
 أحتاج عليها من أجل إيضاح هذه القصة
- 779 **الفصل الحادى والسبعون:** ما حدث لدون كيوخوتى مع خادمه سانشو بانثا
 فى الطريق لقريتهما
- 787 **الفصل الثانى والسبعون:** عن كيف وصل دون كيوخوتى وسانشو إلى
 القرية
- 795 **الفصل الثالث والسبعون:** التطير الذى أصاب دون كيوخوتى عند دخول
 القرية، مع حوادث أخرى تزين وتعطى مصداقية لهذه القصة العظيمة..
- 803 **الفصل الرابع والسبعون:** عن كيف سقط دون كيوخوتى مريضاً،
 والوصية التى عملها، وموته

تقديم المترجم

تأخر ثريانتس جدا في إصدار القسم الثاني من روايته "دون كيخوتي"، وكان قد وعد بإصداره حتى يؤس الناس من وفائه بوعده، ويستغل هذا التأخير مؤلف غير معروف ويصدر رواية أطلق عليها "القسم الثاني من دون كيخوتي".

عمل مستقبح أفسد الصورة الرائعة للعمل، هذا المؤلف اسمه ألونسو فرناندث دى أبيانيدا، وعلى غلاف المؤلف ذكر أنه من سكان قرية تورديسياس، وأنه من مواليد ترأجونا، وفي هذه المدينة نشر هذا الكتاب الماسخ عام ١٦١٤. لكنه كان بركة كبيرة، فقد حفز ثريانتس على كتابة القسم الثاني تحت ضغط الجماهير التي خدعها هذا المؤلف السيئ، وتحت ضغط الرغبة فى الدفاع عن الذات، وفوق ذلك، فإن الكاتب دخل فى صلب الرواية فى القسم الثانى، حيث يغضب دون كيخوتي غضباً شديداً من مؤلف الكتاب، ويبتعد عن مدينة سرقسطة، حتى لا يعطى مصداقية للمؤلف الخبيث، بل إنه يحس عند موته بالذنب، لأنه دفع هذا الرجل لكتابة حماقاته السخيفة؛ قضية بديعة تكشف عن القمة التى وصل إليها ثريانتس فى معالجة الواقع الحى، والساخن جمالياً.

ولم لا؟ أليس هو حفيد ابن شهيد الذى كان وراء "التوابع والزوابع" إنها نفس الحوافز، كما أنها عالجت بنفس السخرية الواقع الساخن الذى يمس ذات المؤلف. وفى ظل هذا نفهم عبارات المؤلف التى تركز أيضاً على ذلك "الدون كيخوتي" الآخر. كاد ثريانتس يتحد ببطله دون كيخوتي، الذى يعيش فى بيته مع امرأتين، مشكلاً عائلة بانسة، هى عائلة ثريانتس نفسها. بين السلاح والأدب عاش ثريانتس

وكانت مشكلة دون كيخوتي، بل سانتشو حاكمًا يرتدى حلة نصفها لأديب والنصف الآخر لقبطان عسكري. نجح ثريانتس في أن يسخر من كل شيء حتى الكنيسة والتفتيش في سحر يضعف سلطان هذه المؤسسة الدينية الطاغية . إنها السخرية التي تحفر حدودًا بين الزيف والحقيقة، و يطلقون عليها المفارقة التي تحول السخرية دائمًا إلى نكتة فضحكة فسعادة. إليكم القسم الثاني من دون كيخوتي الذي استهلك آخر شمعات النور في هذا المؤلف العظيم والتي بعد إصدار القسم الثاني هذا كانت بقاياها تتلألأ فيما يشير إليه من وعود إلى الكونت دي ليموس، حيث سيكون سيجسوندو آخر أعماله. يموت ثريانتس في نفس العام الذي مات فيه شكسبير، فرسا رهان، ما زال كلاهما الأول يتصدر عالم الرواية والثاني عالم المسرح، وكلاهما بموته بدأت حياته، بل حياة الجمال في فنين من أهم أقاليم مملكة ذلك الجمال الفني.

إهداء إلى الكونت دي ليموس

عند إرسالي إلى فخامتكم فى الأيام الماضية مسرحياتى الكوميديية المطبوعة والممثلة، وإذا كنت حسن الذاكرة فإنى قلت إن دون كيخوتى يعد العدة للذهاب لتقبيل يدي فخامتكم، والآن أقول إنه قد أنهى استعدادة، وأخذ الطريق، فإذا وصل إلى هناك، فمن الممكن أن أكون قد قمت ببعض الخدمة لفخامتكم، لأن السرعة الكبيرة التى حفزت إليها من كل اتجاه لإرساله، حتى أزيل التهديد والغثيان الذى سببه دون كيخوتى آخر، والذى تتكرر تحت اسم القسم الثانى، وسار فى كل مسار بالفلك؛ ومن أبدى رغبة أكبر فى إرساله إليه كان إمبراطور الصين، والذى أرسل إلى خطابًا باللغة الصينية منذ شهر تقريبًا طالبًا منى، أو قل متوسلاً أن أرسله إليه، حيث يريد تأسيس مدرسة تقرأ فيها اللغة القشتالية، وأحب أن يكون دون كيخوتى هو الكتاب الذى يُقرأ، وبجانب ذلك طلب منى أن أكون مدير تلك المدرسة. سألت حامل الرسالة عما إذا كان جلالته قد أعطاه من أجلى مساعدة لتكاليف ذلك، أجابنى بألا يرد ذلك على تفكيرى. وهكذا أجبتة: "إنن أيها الأخ يمكنك العودة إلى صين فخامتكم عشرات أو عشرينات (أى كل يوم عشر أو عشرين فرسخاً)، أو ما كان من خطوك عند القدوم، لأن صحتى لا تسمح لى بهذه الرحلة الطويلة، فضلاً عن أمر مرضى، فإنى خالى الوفاض جدا من النقود، وإمبراطور مقابل إمبراطور، ومملك مقابل ملك، عندي فى نابولى الكونت دي ليموس الأعظم، الذى دون لف ودوران حول مدارس ومدراء ليقيم أودى، ويقدم لى الملاذ، وينعم على أكثر مما تصيب رغباتى. وبهذا صرفته، وبهذا أستودعكم الله، مقدماً لفخامتكم أعمال لسوس

برسيلس، وسيجسمونديو، وهو كتاب سأنهيه في أربعة أشهر. ذلك الكتاب الذي سوف يكون إما الأسوأ أو الأحسن مما أُلِّفَ في لغتنا، أود القول بين كتب التسلية، وأقول إنى أندم لقولى "الأسوأ"، لأنه طبقاً لرأى أصدقائى، ينبغى أن يكون قد بلغ أطراف الحسن الممكن. متعمك الله بالصحة، حيث سيكون لوس برسيلس على وشك تقبيل يديكم، وأنا قدامكم، خادماً لفخامتكم.

مدريد آخر أكتوبر ١٦١٥

خادم فخامتك

ميجيل دى ثريانتس سايدرا

مقدمة للقارئ (كتبها ثربانتس)

ليرحمنى الله! كم ينبغى أن تكون منتظرًا بشوق كبير الآن، أيها القارئ النابه هذه المقدمة، أو لعلك تريدها مقدمة طويلة اللسان، معتقدًا أن تجد فيها ثارات ومشاحنات وإهانات لمؤلف دون كيخوتى الثانى، أعنى، ذلك الذى يقولون إنه قد نشأ فى تورديسياس، وولد فى تراجونا! مع ذلك، فلن أهبك هذا الرضا، على الرغم من أن الاعتداءات توظف حمى الغضب فى أكثر الصدور حلمًا، فصدرى فى هذا يعد استثناء للقاعدة. هل تود أن أصفه بالجش والمخبول والمتجرى؟ لكن لا يمر بتفكيرى ذلك، ولتعاقبه جريرتة، وليمضغها مع خبزه، وليجد ذاته هناك. لكن مالم أستطع ألا أحزن له أن يصفنى بالعجوز والعاجز اليد، كما لو كان فى يدى إيقاف الزمن، حتى لا يمر تياره فى كينونتى، وكما لو كان عجزى قد ولد فى حانة، وليس فى أسمى مناسبة رأتها العصور الماضية والحاضرة، ولا تتوقع أن تشهد مثلها العصور القادمة. وإذا لم تشرق جروحي فى عيون من ينظر إليها، فعلى الأقل يقدرها من يعرفون أين أصبت بها، والجندى الذى ينجو بالهرب ميت وإن عاش، والآن لو اقترحوا علىّ، وسهلوا لى بطريقة ما مستحيلًا هو النجاة، لاخترت مرة أخرى أن أوجد فى تلك الموقعة الحربية المعجزة، دون سلامتى الآن من جروحي المشروطة بالأأكون قد شهدتها محاربًا. والجروح يظهرها الجندى فى الوجه والصدر نجومًا تهدى إلى سماء الشرف والتشؤف للثناء المستحق، وينبغى العلم أيضًا بأنهم لا يكتبون بشعراتهم البيضاء، وإنما بالمعيتهم التى اعتادت النمو والتحسن بمر السنين. واحفظنى أيضًا أن يطلق علىّ الحسود، وباعتباره جاهلاً

يصف لى الحسد، وواقع الحقيقة، غير شينين لا أعرف، هما حسن النية فى التقوى، وحسنا فى النبالة، وإذا كان الأمر كذلك فليس على أن أطارد أى قسيس (للاعترا ف بأثام لم تقع)، خاصة ممن ينتسبون للتفتيش الكنسى، وإذا كان قالها على لسان من يبدو أنه قالها، فقد خدع نفسه تماما، مع أننى أجل عبقريته وأعجب بأعماله، وانشغاله المستمر والحقيقى^(*). لكن بالفعل، أشكر لهذا السيد المؤلف قوله إن رواياتى ساخرة أكثر منها مثالية، لكنها جيدة؛ ولا يمكن أن تكون كذلك إذا لم تضم كل شىء (يعطى الجودة).

يبدو أنك تقول لى إننى أسير فى محدودية، وإننى أنطوى على نفسى كثيرا بألفاظ تواضعى، عارفاً أنه لا ينبغى أن يضاف الضعف للضعيف، وما يجب أن ينال هذا السيد - دون شك - عظيم، فهو لا يجرؤ على الظهور فى ميدان مكشوف، وتحت سماء كاشفة، متسترا على اسمه، مدعيا موطنه، كما لو كان قد ارتكب خيانة عظمى ضد الوطن والإنسانية. وإذا بالصدفة توصلت لمعرفة، قل له من طرفى، بأننى لا أعد نفسى قد اعتدى على، فأنا أعرف جيدا إغراءات الشيطان، وواحدة من أكبر هذه الإغراءات تأليف كتاب وطبعه، يكسب من ورائه شهرة عظيمة ومثل ذلك من النقود، وكثرة المال توهم بقدرها شهرة، ولتدعيم ذلك أحب فى ملاحظة وظرف أن أحكى هذه الحكاية:

كان فى إشبيلية مجنون، صنع واحدة من ألطف الترهات والمواضيع التى يمكن لمجنون فعلها فى العالم، حيث صنع أنبوبا من الغاب حاد الطرف مجوفاً، وعند إمساكه بكلب فى الشارع أو فى أى مكان، يمسك بقدمه قدم الكلب ويرفع

(*) يشير إلى الكاتب المسرحى "لوبي دى بيبا"، ولقد تكررت إشارته إليه فى هجوم بكشف عن ملاحظة بينهما، ويبدو أن ذلك المؤلف المجهول قد انتقص من شأن ترابنتس مستعملا كلمات وربما شتائم قالها معاصره "دى بيبا" ضده.

الرجل الأخرى ويريح الأنبوب بإدخاله فى الثقب بينهما، وبالنفخ فى الأنبوب ينفخ الكلب، فيتكور ويصير فى استدارة الكرة، ثم يضرب بكفه مرتين على بطنه ويطلقه، قائلاً للمحيطين به، وكانوا دائماً جمهرة من الناس غفيرة: هل تعتقدون فخامتكم الآن أن نفخ كلب يكلف من الجهد الكثير؟ والآن هل تعتقد فخامتكم أن عمل كتاب يكلف من الجهد الكثير؟

وإذا لم يستوعب هذه القصة قل له أيها القارئ الصديق بنفسك هذه القصة الأخرى عن مجنون وكلب أيضاً:

كان فى قرطبة مجنون آخر، وكان من عادته أن يحمل فوق رأسه (شقيقة) من المرمز، أو حصوة ليست من النوع الخفيف، وعندما يصادف كلباً خالى البال، يقترب منه، ويلقى فوقه حمولته الحجرية، والكلب مطحوناً يطلق النباح والعواء، ولا يتوقف عن الجرى قبل ثلاثة شوارع، وكان من بين الكلاب التى ألقى عليها حمولته كلب صانع قبعات، وكان هذا يحب كلبه كثيراً. ومرة ألقى بحصاته فوق رأسه، وصرخ الكلب المطحون، وراه صاحبه وأحس به، فأمسك بقضيب قياس، وخرج إلى المجنون ولم يترك به عظمة سليمة، وكلما أنزل به ضربة كان يقول له: كلب، لص، أزد جروى؟ ألم تر أيها القاسى، أن كلبى كان جرواً؟ وكرر عليه اسم الجرو مرات كثيرة، ثم تركه مضعضاً. تأدب المجنون وانسحب، وأكثر من شهر لم يخرج إلى الشارع، وفى نهاية الشهر عاد باختراعه، وحمولة حجرية أكبر، واقترب من الكلب، وظل ينظر إليه خائفاً، دون رغبة فى التجروء على إلقاء حجره قائلاً: "هو جرو؛ حاسب". وبالفعل كلما التقى بأى كلب آخر مهما كان نوعه كان يقول عنه إنه كان جرواً، وهكذا لم يطلق حجارته. وربما نفس المصير يحدث لهذا القصاص، الذى لن يجروء أكثر على إطلاق سدّ عقبريته فى كتب، لكونها رديئة، وهى أكثر صلابة من الحجارة.

قل له أيضًا إن تهديده لي بأنه سيحرمني من مكاسب (بيع كتابي) بكتابه، لا يعينيني قدر أئمة، ومعتمدًا على العمل القصير الهازل (انتريمس) المشهور "المبهرجة"، أجيبه: يحيا لي منصب نائب البلدية، والله مع الجميع. من ثم يحيا الكونت العظيم دي ليموس، الذي عرفت عنه تقواه وكرمه فهو أكسير ضد ضربات حظي القليل الذي أتعثر به. وعاش لي البر الأسمى لألمعي طليطلة العظيم دون برنادو دي ساندوبال إي روخاس، حتى لو لم تكن هناك مطابع في العالم، وحتى لو طبعت ضدى كتب أكثر، تحوى كل حروف كوبليها مینجو ريبالجو (الهجائية). هذان الأميران، دون أن يتغيّهما المدح من طرفي، أو أى نوع آخر من التهليل لهما، فقط لسماحهما، حملا على عاتقهما الإنعام على وإكرامى، ما أراه كل السعد والغنى أكثر مما لو كان أسعفنى الحظ بالطريق العادى لوضعى فى الذروة. والفقير يمكن أن يمتلك الشرف والكرامة لكن لا يمتلكهما الفاسد، ويمكن للفقير أن يضرب النبالة، لكن لا يلقى عليها بظلام كامل، ومثلما أن الحق يعطى بعض النور لذاته رغم كل الحواجز، وحاجات ضيق الحال، ومن هنا ينال تقدير الأرواح السامية والنبيلة، وبالتالي كرمها. لا تقل أكثر من ذلك، وأنا لا أود أن أقول لك شيئاً أكثر، غير أن تضع فى اعتبارك أن هذا القسم الثانى من دون كيخوتى قد تم قصه وتفصيله بنفس صنعة ونسيج القسم الأول، وفيها أقدم له دون كيخوتى مبسطاً ومبسوطاً، وأخيراً ميتاً ودفيناً، حتى لا يجرؤ أحد أن يبعثه بشواهد جديدة، وقد كفى ما مضى منها، ويكفى أيضاً أن رجلاً شريفاً قد أخبر عن هذه الجنونيات العبقريّة، دون أن يرغب فى العودة للدخول فيها من جديد، فإن الإسراف فى الأشياء (حتى لو كانت طيبة)، يفقدها اعتبارها، والندرة (حتى فى الأشياء القبيحة) قد تنال تقديراً بطريقة ما. وقد نسيت أن أقول لك انتظر (البرسيلس)، فإنى على وشك الانتهاء منه، بجانب القسم الثانى من (جالاتيا).

الفصل الأول

حول ما قام به القسيس والحلاق مع دون كихوتي

فيما يتعلق بمرضه

يحكى سيدى حامدى بن إنجيلين فى القسم الثانى من هذه القصة، والخروج الثالث لدون كихوتى، أن القسيس والحلاق، قضيا شهراً تقريباً دون أن يرياها، حتى لا يجددا لذاكرته الأشياء الماضية، ومع ذلك لم يتجنبا من أجل هذا زيارة ابنة أخته، وأمة بيته، بعد أن حملاهما مسئولية تدليله، وتقديم طعام منعش ومناسب للقلب والمخ، وهما مصدر سوء حظه طبقاً للرأى الراجح. وهما قالتا إنهما سوف تتفان ذلك، بطيب خاطر، وبكل العناية الممكنة، لأنهما لاحظتا أن سيدهما يبدى للحظات دلائل على كمال قواه العقلية، وقد أسعد ذلك الرجلين، لما بدا لهما من أنهما أحسنا فعلاً بإحضاره مسحوراً فى عربة الثيران، كما سبق حكايته فى الفصل الأخير من القسم الأول من هذه القصة العظيمة والمفصلة. وهكذا قررا زيارته وتجربة تحسنه، وإن استقر لديهما استحالة ذلك التحسن، وقد اتفقا ألا يشيرا بأى حال من الأحوال إلى الفروسية المشأاة، حتى لا يعرضا غرز جرحه التى مازالت طرية للتمزق من جديد.

وفى النهاية، قاما بزيارته، ووجداه جالساً على السرير مرتدياً قميصاً من الصوف الوبر، وعلى رأسه طاقيية حمراء من صنع طليطلة، وكان مجففاً مقدداً، لا يظهر عليه إلا أنه مخلوق من لحم محنط. أحسن استقبالهما، سألاه عن صحته،

وهو تحدث عن نفسه وعن صحته في راحة عقل، وبكلمات بالغة الرشاقة، وخلال الدردشة عالجوا الموضوع الذي يطلق عليه المصالح العليا للدولة ونظم الحكم، مقومين ذلك الإفراط، وشارعين في إدانة ذلك، مصلحين إحدى العادات، نافين أخرى، صانعًا كل واحد من ثلاثتهم من نفسه مشرعًا جديدًا، و(ليكورجو) آخر، أو (سولون) العصر، وبهذه الطريقة جددوا العالم، كما لو كانوا قد وضعوه في فرن صهر، وأخرجوه خلقًا جديدًا من ذلك الفرن، وتكلم دون كيخوتي في كل المسائل المثارة بكل ذكاء حتى إن الممتحنين الاثنتين اعتقدا دون شك، أنه كان بكامله في خير، وفي كامل قواه العقلية.

حضرت تلك الدردشة ابنة الأخت والأمة، ولم يشبعا من حمد الله وشكره لرؤية سيدهما بهذا التعقل الكامل؛ لكن القسيس غير اتفاهه الأول، في عدم الإشارة بأى حال من الأحوال إلى الفروسية، راجبًا في حسم التجربة بشكل قاطع، عما إذا كان شفاء دون كيخوتي كان زائفًا أو حقيقيًا، وهكذا، في استدرج غير مباشر، بدأ يحكى بعض الأخبار التي وردت من البلاط، ومن بينها قال إنه من المؤكد أن الأتراك قد هبطوا ببحرية جبارة، لا يعرف مقصدها، وأنها ستمطر وابل سحائبها، وأمام هذا الخطر الذي يهددنا تقريبًا في كل الأعوام، وهو خطر يتعرض له كل العالم المسيحي، أمر جلالة الملك بتحسين شواطئ نابولي وصقلية وجزيرة مالطة بالإمدادات، وعلى هذا أجاب دون كيخوتي:

- جلالة الملك قد فعل ما ينبغي أن يفعله المحارب كثير الحذر، بتحسين ولاياته في الوقت المناسب، حتى لا يفاجئه العدو على غفلة، لكنه لو أخذ بنصيحتي لنصحته باتخاذ إجراء وقائي، بعيد في اللحظة الراهنة تمامًا عن ذهن جلالتة.

ما إن سمع ذلك القسيس حتى قال لنفسه: "وضعك الله بين يدي عنايته، أيها المسكين دون كيخوتى؛ فالظاهر لى أنك تتسنىم ذروة جنونك حتى الهاوية العميقة لبلاهنك!" لكن الحلاق، الذى فكر فى نفس الشىء الذى فكر فيه القسيس، سأل دون كيخوتى عن ماهية نصيحته بذلك الإجراء الوقائى الذى قال إنه من الخير اتخاذه، والذى من الممكن إضافته إلى قائمة النصائح الكثيرة الصفيقة التى تعودوا تقديمها للأمرء.

قال دون كيخوتى:

- نصيحتى أيها السيد الحلاق، ليس من الصفاقة عرضها، إنما من اللياقة.

أجاب الحلاق:

- لا أقول ذلك مبالغاً، إنما لأن التجربة أظهرت أن كل أو معظم المشروعات التى تعرض على جلالته إما مستحيلة وإما مهاترات، أو تؤدى إلى إيقاع الضرر بالملك أو بالمملكة.

أجاب دون كيخوتى:

- نصيحتى ليست مستحيلة، ولا هى من المهاترات، وإنما هى الأسهل، والأكثر ضبطاً ويسراً واختصاراً، مما لا يرد على بال أصحاب المشاريع.

قال القسيس:

- كم تتأخر فى قول فكرتك أيها السيد دون كيخوتى!

قال دون كيخوتى:

- لا أحب قولها الآن وهنا، - حتى لا يأتى عليها الغد وقد ذاعت بين أسمع المستشارين، فينال آخرُ حمدَ جهدى وجانزته.

قال الحلاق:

- بالنسبة لي، أعطى كلمتي أمامكم، وأمام الله، ألا أقول ما ستقوله فخامتكم لصغير أو كبير، ولا لأي رجل على وجه الأرض، وهو قسم تعلمته من رومانث القسيس، الذي خلال الصلاة أبلغ الملك باسم اللص الذي سرق منه مائة دينار، وبغلته الجوّالة.

قال دون كيخوتى:

- لا أعرف هذه الحواديت، لكن هذا القسم مقبول، تحت إيماني بأن السيد الحلاق رجل بر وصدق.

قال القسيس:

- وإذا لم يكن، فإني أضمنه وأشهد عليه، في أنه لن يتكلم في هذا الأمر مثل الأخرس، وتحت عقوبة دفع ما يحكم به عليه إن تكلم.

قال دون كيخوتى:

- وفخامتكم، من يضمنك؟

أجاب القسيس:

- مهنتي، وهي عبارة عن حفظ الأسرار.

عند هذا قال دون كيخوتى:

- عفواً! هل يوجد أكثر من أن يرسل جلالته منادياً عاماً يدعو كل الفرسان المشائين الذين يتجولون في إسبانيا إلى البلاط في يوم محدد، حتى إنه لو لم يحضر منهم أكثر من نصف دسته، ولن يحضر أقل؛ فهم يكفون لتدمير

جبروت الأسطول التركي؟ ولينتبه فخامة كل منكما وتابعاني. وهل بالصدفة يعد جديدًا أن يقضى فارس مشاءً واحد على جيش مكون من مائتي ألف رجل، كما لو كانوا جميعًا لهم حنجرة واحدة، أو قضيب واحد من بلح الشام؟ وإذا لم يكن كذلك، قولوا لي: كم من القصص ملئ بهذه العجائب؟ كان من الواجب - في هذه اللحظة الحرجة عندى ولا أحب أن أقول عند غيرى - أن يعيش الآن ذلك الشهير دون بليانس، أو أحد نسل أماديس دى جاوولا ممن لا حصر لهم، حتى إنه لو كان واحد من هؤلاء يعيش اليوم، وواجه الأتراك، ما خاب قال الملك! لكن الله سوف ينظر إلى شعبه بعين رعايته، وسيمن عليه ببعضهم، ممن إن لم يكونوا في شجاعة من سبق من الفرسان المشائين، فعلى الأقل لن يكونوا أقل حماسًا، والله وحده يعلم ما أقول، ولن أقول أكثر.

فى تلك اللحظة صاحبت ابنة الأخت:

- آى! اقلونى إذا لم يكن سيدى يجب أن يعود الفارس المشاء من جديد!

وعلى هذا أجاب دون كيخوتى:

- لن أموت إلا فارسًا مشاءً، وليهبط أو يصعد الأتراك ماشاءوا، أو ما استطاع جبروتهم، إلا أنى أقول مرة أخرى، الله وحده يعلم ما أقول.

وهنا قال الحلاق:

- أتوسل لفخامتكم أن تعطونى إذنا بقصّ حكاية مختصرة، قد وقعت فى إشبيلية، لمناسبتها للمقام أو ذُ حكايتها.

أعطاه دون كيخوتى الإذن، ومعه القسيس، والباقون أعطوه آذانهم، وهو قد

بدأ بهذه الطريقة:

- في دار المجانين ياشيلية، وجد رجل وضعه أقرباؤه هناك لجنونه، وكان قد تخرج من جامعة أسونا في القانون اللاهوتي، ولكن حتى لو كان قد تخرج من جامعة سلمنقة نفسها، حسب رأى الكثيرين، فما كان ذلك سيغير من الأمر شيئاً. هذا الخريج، بعد عدة سنوات من إيداعه دار المجانين، أفهم الآخرين أنه عاقل، وفي كامل العقل، وبهذا التصور، كتب إلى القمص راجياً له كثيراً في عبارات موفقة أن يرسل من يخرج من البؤس الذي يعيشه في تلك الدار، حيث إنه قد استعاد عقله بفضل الله ورحمته، لكن أقرباءه حتى يواصلوا التمتع بثروته، يستبقونه هناك، وضد ما عليه من عقل، يودون أن يظل مجنوناً حتى الموت. وقد اقتنع القسيس القمص مع كثرة رسائله العاقلة والموفقة، وأرسل القمص أحد مساعديه من القساوسة حتى يستعلم من مدير الدار، عما إذا كان ما كتب به الخريج إليه حقيقياً، ويتكلم في نفس الوقت مع المجنون، وإذا بدا له أنه عاقل، عليه أن يخرج من هناك، ويطلق سراحه. وهكذا فعل رسول القمص، فقال له المدير إن ذلك الرجل مازال مجنوناً، وعلى الرغم من أنه في أحوال كثيرة يتكلم باعتباره إنساناً عاقلاً، فإنه بعد ذلك يطلق الحماقات التي تساوى في درجة حماقتها، ما سبق من درجة الجنون، وأنه يستطيع اختبار ذلك بالحديث معه. وبالفعل تكلم معه ساعة، أو بعض ساعة، وخلال كل ذلك الوقت لم يتفوه المجنون بعبارة واحدة بعيدة عن الصواب أو بها حماقة، بل تحدث في يقظة، حتى إن القسيس اقتنع أنه عاقل، ومن بين أشياء كثيرة قالها المجنون، ما قاله من أن المدير سيئ النية نحوه، حتى لا يفقد الهدايا التي يقدمها له أقرباؤه، ولهذا يقول عنه إنه ما زال مجنوناً حتى الآن، وإن تعقله متقطع تشوبه فترات من الجنون، وإن عدوه

الأكبر في نكته عظم ثروته، ومن ثم فإن أعداءه للاستمتاع بها يغشون، ويشككون في النعمة التي أنعم بها ربنا عليه من تحويله من دابة إلى إنسان. في النهاية، تحدث بطريقة جعلت القسيس يشك في المدير باعتباره إنساناً طماعاً، وفي أهله باعتبارهم قوماً بلا رحمة، وفيه بأنه عاقل فطن، فقرر أن يحمله معه، حتى يراه القمص ويلمس بنفسه هذا الشأن. ومع هذا الاعتقاد الطيب، طلب القسيس من المدير أن يأمر بإعطائه الملابس التي دخل بها ذلك الخريج الجامعي الدار، والمدير من ناحيته طلب من القسيس التروى لأن الخريج ما زال مجنوناً.

لم تتفع في شيء تحذيرات المدير ومخاوفه في منع القسيس من حمله؛ فأطاع المدير ما دام ذلك أمر القمص، وارتدى الخريج ملابسه، وكانت جديدة ومهذبة، وما إن رأى نفسه مرتدياً ثياب العقلاء، وعارياً من الجنون، رجا القسيس أن يعطيه إذناً أن يذهب لتوديع زملائه المجانين من باب البر بهم. قال القسيس إنه يود صحبته في ذلك، وصعدوا إليهم، وعندما اقترب الخريج من قفص كان به مجنون عنيف، وإن كان هادئاً في تلك اللحظة ومطمئناً، وقال له:

- أيها الأخ، انظر فيما لو توصيني بشيء، فأنا عائد إلى بيتي، فقد شاء الله تعالى بكرمه ورحمته أن يعيد إلى عقلي، وإن لم أستحق منه كل هذا الكرم، إلا أنه تعالى لا يستحيل عليه شيء. املاً قلبك أملاً وثقة فيه، فكما أعادني إلى حالتى الأولى سيعيدك أيضاً. وأنا سأهتم بإرسال بعض الهدايا إليك، فكُلها، كُلها على أى حال، وأعلمك أنني أتصور - طبقاً لما مر بي - أن جنوننا بسبب المعدة الخالية من الطعام، والعقول المليئة بالهواء. فَتَقَوْ، فإن هبوط الروح المعنوية في النكبات، يهد الصحة، ويستجلب الموت.

استمع إلى كل هذه العبارات مجنون في قفص آخر، ملتصق بقفص المجنون العنيف، ونهض من فوق حصير كان يستلقى عليه عارياً تماماً، وسأل من الذى كان يمضى صحيحاً، وعاقلاً. أجابه الخريج:

- إنه أنا أيها الأخ الذى أمضى من هنا، فلم تعد لى حاجة أكثر للبقاء هنا، الأمر الذى من أجله أحمد السموات وما حبتى من نعمة كبيرة.

أجاب المجنون:

- انظر فيما تقول، أيها الخريج، ولا تترك الشيطان يضللك، رويدك، وابق هادئاً فى بيتك، مدخراً العودة.

أجاب الخريج:

- أنا أعلم أنى بخير، ولن يوجد سبب كى أعود لأقضى مزيداً من السنين هنا.

قال المجنون:

- أنت بخير؟ إذن، اذهب بسلامة الله، أسلمكم إلى المريح إله الحرب، والذى أمثل عظمته فى الأرض، ومن أجل الإثم الذى ترتكبه إشيلية اليوم ياخراجكم من هذه الدار، واعتباركم عاقلاً، سأوقع عقوبة عليها، وستبقى خالدة مخلدة لذكراها على مر دهر الدهور، آمين. ألا تعرف أيها الخريج الضئيل المنحوس، ما أستطيع عمله، وأنا ظل جويتير على الأرض، ويىدى الأشعة المحرقة، والى أستطيع، بل أعتاد أن أهدد بها، وأدمر العالم؟ لكن بشىء واحد فقط أريد أن أعاقب هذه المدينة الجاهلة، وهو ألا أمطرها مع كل ما يتبعها من إقليم، لمدة ثلاثة أعوام كاملة، والى يمكن حسابها من لحظة

إصدارى هذا التهديد فصاعداً. أنت حر، أنت صحيح، أنت عاقل، وأنا مجنون، ومريض ومقيد؟... هكذا أفكر أن أمطر كما أفكر أن أشنق نفسى.

استمع الحضور لصرخات وعبارات المجنون، لكن خريجنا التفت إلى قسيسنا، وممسكاً له من يده، قال:

- لا تخزن نيافتكم، ياسيدى، ولا تُعِر ما قاله هذا المجنون التفاتاً، فإذا كان هو جوبيتر ولا يجب أن يمطر، فأنا نبتون، والد وإله المياه، سوف أمطر كلما اشتهيت، وكلما كان ضرورياً.

وعلى هذا أجاب القسيس:

- ومع كل ذلك يا سيدى نبتون، ليس من الطيب إغضاب السيد جوبيتر، فخامتكم ستبقى فى الدار، وفى يوم آخر، عندما تكون الظروف أطيّب، سنعود فى طلبك.

ضحك المدير والحضور، وشاركهم فى ضحكهم القسيس، وعروا الخريج، وبقي فى الدار، وانتهت القصة.

قال دون كىخوتى:

- إذن، هذه هى القصة، أيها السيد الحلاق، التى تناسب المقام هنا، والذى لم تستطع تجنب حكايتها؟ آه، أيها السيد الحلاق! أيها السيد الحلاق، كم هو أعمى الذى لا يرى مع كثرة النواخذ! وهل من الممكن ألا تعرف فخامتكم أن تشبّه عبقرية بعقرية، أو قيمة بقيمة، أو جمال بجمال، أو نسب بنسب، هو أمر حاقّد وسىّ الاستقبال دائماً؟ أنا، أيها السيد الحلاق، لست نبتون، إله المياه، ولا أسعى أن يعتربنى أحد من الأذكىاء العقلاء، إن لم أكن كذلك،

فقط يرهقني إفهام العالم، الخطأ الذي يقع فيه، بعدم تجديده الزمن الأسعد حيث كان يبرز للقتال نظام الفروسية المشاءة. لكن لا يستحق عصرنا الفاسد التمتع بالخير العميم، الذي تمتعت به العصور التي شهدت الفرسان المشائين عندما أخذوا على عاتقهم، وألقوا على كواهلهم الدفاع عن الممالك، وتقديم الملاذ للصبايا، ونجدة اليتامى والتلاميذ، وعقاب المغرورين، ومكافأة المتواضعين. ومعظم الفرسان الموجودين حاليًا، قبل كل شيء، يرفلون في الحرير الدمقسى، والإستبرق، وناعم الملبس الذى يرتدون، وهو الفخ الذى به يتسلحون؛ فلم يعد بعد من فارس ينام فى العراء، ملتصقًا بقسوة السماء، مسلحًا بكل نوع من السلاح من القدمين إلى الرأس، ولا يوجد من يبقى دون أن ينزع قدميه من ركاب فرسه، شاهراً رحمه، و فقط يحاول أن يجتث من رأسه النوم، كما كان يفعل الفرسان المشاءون. لقد انتهى وجود ذلك الذى يخرج من هذه الغابة للدخول فى ذلك الجبل، ومن هناك يطأ شاطئاً قفراً وعقيماً يطل على البحر، الذى هو فى أغلب الأحيان عاصف وغازب، ليجد هناك قارباً صغيراً دون مجاديف، ولا شراع ولا أى جبال، وبقلب لا يهاب يلقي نفسه فيه، مسلماً نفسه إلى الأمواج العاتية للبحر العميق، التى تصعد به للسماء، ثم تهبط به إلى الهاوية، وهو يعرض نفسه للعاصفة التى لا تقزم، فى اللحظة التى لا يتوقعها فيها، ليجد نفسه على بعد ثلاثة آلاف وبضعة فراسخ بعيداً عن مكان إبحاره، وواثباً إلى أرض بعيدة وغير معروفة، تحدث له أشياء جديدة بأن تكتب وتسجل، ليس على رقايع وإنما على ألواح من البرونز. لكن الآن ينتصر الكسل على السعى والاجتهاد، وفضول العمل والسهاد، وإدمان الفضيلة والسداد، وفخار القوة والاعتداد، وممارسة السلاح والعتاد، التى عاشها وأضاء بها العصر الذهبى

الفرسان المشاءون. وإذا لم يكن كذلك قولوا لي: من أكثر شرفاً وقوة من الشهير أماديس دي جاولا؟ أو من أكثر فطنة من بالميرين دي إنجلترا؟ أو من أكثر وثوقاً وتآلفاً مع الأحداث من تيرانقى الأبيض؟ أو من أكثر شجاعة من ليسوارتى دي اليونان؟ أو من أكثر طعناً واستقبالاً للطعنات من بليانس؟ أو من أكثر إقداماً من بربون دي جاولا؟ أو من أكثر اقتحاماً للأخطار من فيلكسمارتى دي أركانيا؟ أو من أكثر إخلاصاً من إسبلنديان؟ أو من أكثر اندفاعاً من دون ثيرينخيليو دي ترانثيا؟ أو من أكثر جسارة من رودا مونقى؟ أو من أكثر دهاء من الملك سوبرينو؟ ومن أكثر فتوة من رينالدو؟ أو من أكثر استحالة للهزيمة من رودان؟ أو من أكثر خيلاء أو أدباً من روخيرو الذى ينحدر من نسله اليوم دوق ودوقة فييرا، طبقاً لتورين فى كتابه كوزموجرافيا؟ كل هؤلاء الفرسان، وآخرون غيرهم كثير، ممن يمكن ذكرهم، أيها السيد القسيس، كانوا فرساناً مشائين، ونوراً ومجداً للفروسية. أحب أنا أن أنتمى إلى هؤلاء، أو ماشابهم، وحين كوى كذلك، فإن جلالته سيجد نفسه وقد أحسنت خدمته، موفراً نفقات كثيرة، وسيبقى الأتراك لتنت ذقونهم، وهذا أحب أن أبقى فى بيتى، فلا يخرجنى منها القسيس رسول القمص، وإذا لم يطر جوبيتير، كما قال الحلاق، فهأنذا هنا سوف أمطر عندما أهوى؛ أقول هذا حتى يعرف السيد الحلاق (باثيا) أنى أفهمه.

قال الحلاق:

— فى الحقيقة يا سيد دون كيخوتى، لم أقل ما قلته رامياً بعيداً إلى هذا الحد، وليعنى الله على كشف حسن نيتى، ولا ينبغى لفخامتكم أن تأخذ على خاطر ك.

وعلى هذا علق القسيس:

- مع أنني لم أنطق بكلمة حتى الآن، لا أريد أن أبقى مع شك يشك ويخدش ضميري، تولّد عما قاله الآن السيد دون كيخوتي.

أجاب دون كيخوتي:

- السيد القسيس من أجل قول أشياء أخرى، أصرح له بالكلام، وهكذا بإمكانه أن يذكر شكوكه، لأنه ليس من الطيب أن يستمر الإنسان مع ضمير مثقل بالشكوك.

قال القسيس:

- إذن، مع هذه الموافقة، أقول إن شكى هو أنني لا أستطيع أن أقنع نفسي أن هذه الزمرة من الفرسان المشائين الذين أشرت إليهم يا سيد دون كيخوتي، كانوا حقاً وفعالاً أشخاصاً من لحم وعظم عاشوا فوق هذا العالم، بل أتصور أن كل هذا خيال قصصي، وحواديت، وأكاذيب، وأحلام يحكيها رجال مستيقظون، أو بعبارة أدق: نصف نائمين.

أجاب دون كيخوتي:

- هذا خطأ آخر وقع فيه الكثيرون، بعدم الاعتقاد بأن هؤلاء الفرسان لم يوجدوا في العالم؛ وأنا في مرات كثيرة، مع أناس متعددة ومناسبات مختلفة، حاولت أن أبدو هذا الاعتقاد الخادع شبه العام بين الناس، على ضوء الحقيقة، لكن في بعض الأحيان لم أنجح في تحقيق قصدي، وفي أحيان أخرى أفلحت، مؤسساً تلك الحقيقة على أكتاف الحق والصدق، فتلك الحقيقة يقينية، أي

أود القول إنني بعينى هاتين رأيت أماديس دى جاولا، وكان رجلاً طويل القامة، أبيض الوجه، مهندم اللحية مع سوادها، وتراوح شعرها بين الصلابة واللين، حاسم العبارات، صبوراً قبل أن يغضب، ومتعجلاً في كظم الغيظ إذا غضب، وبنفس الطريقة التي وصفت أماديس دى جاولا، أستطيع فيما أرى، رسم ووصف كل من كان فارساً مثلاً، ممن يمشون في الحكايات، وفي العالم، ومع فهمى بأنهم قد كانوا، كما تحكى عنهم القصص، وبنفس الأجداد التي أقاموها، والظروف التي عاشوا فيها، يمكن استخراج ملامحهم وألوانهم وقاماتهم، بشيء من التفلسف الذكى.

سأل الحلاق:

— أى حد يبلغه عظم حجم المارد مورجانتى؟

قال دون كيخوتى:

— فيما يتعلق بالمرءة توجد آراء متباينة، عما كانوا قد وجدوا من أساسه، أو لم يوجدوا في العالم، لكن الكتاب المقدس الذى لا يمكن أن يأتيه الباطل من بين يديه، ولو ذرة واحدة، يثبت لنا أنهم وجدوا عندما حكى لنا عن ذلك المارد فيليستيانو دى جولياس، والذى كان طوله سبع أذرع ونصف، وذلك الطول هائل. أيضاً في جزيرة صقلية عثروا على عظام سوق وظهر عظيمة الطول، والذى يعلن عظم طولها أن أصحابها كانوا مرءة كبار الحجم، مثل أبراج؛ وهو أمر يحسمه علم الهندسة. لكن مع كل هذا، لا أستطيع القول بيقين، أى حجم كان لمورجانتى، مع أننى أتصور أنه ما كان ينبغي أن يعلو طوله كثيراً، ويحفظنى على هذا الرأى ما ذكرته القصص في أنه في حديثهم

عن أفعاله، كان ينام مرات كثيرة تحت سقف، وهذا يعني وجود بيت يتسع له، وبالتالي فعظم طوله لم يكن متجاوزاً الحد.

قال القسيس:

– هكذا كان بالفعل.

وعلى هذا الحال أعجبهم سماع تلك الترهات، فسأله القسيس عن أشكال وجوه رينالدوس دي مونتالبان ودون رودان، وباقي الاثنى عشر نظائر فرنسسا، فكلهم كانوا فرساناً مشائين.

أجاب دون كيخوتي:

– بالنسبة لرينالدوس، أجرؤ على القول إنه كان عريض الوجه، ولون خدوده أشقر ضارب للحمرة، وعيونه راقصة وثاقبة، وكان منضبطاً وذا حمية بشكل زائد، صديقاً للصوص وللناس الضائعة. وفيما يتعلق برودان أو (رونالدو) أو (أورلاندو)، وكلها أسماء تطلقها عليه القصص، رأي، بل أؤكد أنه كان متوسط القامة، عريض الكتفين، معوج الساقين قليلاً، أسمر الوجه، أحمر اللحية، كث شعر الجسم، ومنظره مخوف مهذّب، قصير العبارات، لكن شديد التهذيب، حسن التريية.

أجاب القسيس:

– إذا كان رودان رجلاً بكل هذا الأدب والكياسة كما تقول فخامتكم، أليس عجيباً أن السيدة (إنخليكا الجميلة) تغضب عليه، وتركه من أجل حسن الأسير وبريقه وملاحظته، ذلك الصبي الذي لم تنبت لحيته، والذي أسلمت

نفسها له، ومضت فطنة تعشق طراوة مدورو(*)، مولية ظهرها لخشونة رودان؟

أجاب دون كيوخوتى:

- إنخليكا هذه، أيها السيد القسيس، كانت صبية ذاهلة عن نفسها، ومتجولة، وذات هوى ونزوات إلى حد ما، وتركت العالم يغص بصفاقاتها وبشهرة جمالها معاً؛ لقد ازدرت ألف سيد، واكتفت بغلام خادم، دون ثروة أخرى ولا اسم، يمكن أن تهبها تلك الصداقة التي حفظتها لهذا الغلام صديقها. والمعنى العظيم المتغنى بجمالها، الشهير أريوستو الذى لم يجرو، أو لعدم رغبته فى التغنى بالذى حدث لهذه السيدة بعد استسلامها للبائس، (وهى أشياء لا ينبغي أن تكون شريفة جدا) تركها حيث قال:

وكما من (الكاتاي) تسلمت الصولجان

ربما يأتى شاعر آخر قد يتغنى بمضرب أفضل لقيثارته

ودون شك كان ذلك مثل نبوءة، لأن الشعراء أيضاً يسمّى الواحد منهم (متنبى)، أى صاحب نبوءات.

وتأمل هذه الحقيقة الواضحة، لأنه بعد هذا، جاء هنا شاعر أندلسى، تغنى بدموعها، وشاعر آخر قشتالى(**) تغنى بجمالها.

فى هذه اللحظة قال الحلاق:

- قل لى، يا سيد دون كيوخوتى، ألم يوجد شاعر كان قد هجا هذه السيدة إنخليكا، بين كثير من أثنوا عليها؟

(*) مدورو، اسم الصبى المعشوق.

(**) لويس باراووما مؤلف إنخليكا ١٥٨٦.

أجاب دون كيخوتي:

– أعتقد أنا، أنه إذا كان ساكريبانتى أو رودان شاعرين، لكنا قد تملقنا لنا الصبية، لأن ذلك خصيصة للشعراء المهجورين والمطرودين من سيداتهم، فى تصنع أو فى جد، وبالفعل، فإن عمل قصائد هجاء أو تقريع ضد سيداتهم اللاتى اختاروهن سيدات لأفكارهم وتفكيرهم، نوع من الانتقام غير جدير بهذه الصدور الكريمة، لكن حتى الآن لم يصل أى خبر أو شعر هجائى ضد السيدة إنخليكا، قلب الدنيا أو أثار انتباه العالم.

قال القسيس:

– معجزة!

وبينما هم فى هذا، سمعوا الأمة وابنة الأخت، اللتين كانتا قد هجرتا هذا الحوار، تصرخان فى الفناء بصرخات عالية، جعلت الجميع يهرعون نحو ذلك الضحيج.

الفصل الثانى

عبارة عن المشاجرة العظيمة التى أقامها سانشو بانثا مع أمة دون كيخوتى وابنة أخته، مع أمور أخرى مليحة

تحكى القصة أن الصرخات التى سمعها دون كيخوتى والقسيس والحلاق، كانت صادرة عن ابنة الأخت والأمة اللتين كانتا تصرخان فى وجه سانشو بانثا، الذى يقاتل من أجل الدخول لدون كيخوتى، وهما كانتا تسدان الباب:

– ماذا يريد هذا الغبي من هذا البيت؟ اذهب أيها الأخ، إلى بيتك، وليس إلى مكان آخر، فأنت الذى تذهل سيدى، وتحمله إلى تلك القفار.

وعلى هذا أجاب سانشو:

– أمة الشيطان! المذهول والمحمول إلى تلك القفار هو أنا، وليس سيدك. هو حملنى إلى تلك العوالم، وأنتما تحذعان نفسيكما عند نصف الثمن العادل، هو أخرجنى من بيتى بأوهام، واعدًا لى بجزيرة، أنتظرها حتى الآن.

أجابت ابنة الأخت:

– أغرقتك الجزائر الشريرة، سانشو اللعين. وما تكون الجزر تلك؟ هل هى شىء يؤكل، أيها النهم للحلوى، الأكل؟

أجاب سانشو:

– ليست شيئاً يؤكل، بل هى شىء يحكم ويعلو على أربع بلديات، وأربعة قضاة لمحكمة.

قالت الأمة:

- ومع كل هذا، لن تدخل هنا، يا جوال الشرور، وكيس (البلاوى). اذهب لحكم بيتك، وزراعة أرضك، واترك الجزر إنائها وذكورها.

امتلاً القسيس والحلاق بالطرب من سماع شجار الثلاثة، لكن دون كيخوتى خوفاً من أن يفتق سانشو ويكشف كوماً من السخافات السيئة، التى لن تكون فى صالح مصداقيته، نادى عليه، وأسكت الاثنتين، أمراً لهما بأن يتركاه يدخل. ودخل سانشو، وودع القسيس والحلاق دون كيخوتى، وقد يؤسا من صلاح صحته عند رؤيتهما كيف كان منغمساً فى أفكاره الثابتة، وكم هو غارق فى سذاجة فروسيته المنحرفة، وهكذا قال القسيس للحلاق:

- ترون، أيها الصديق، أنه من حيث لا نتوقع سوف يخرج مرة أخرى شريفنا مهوِّماً على الشواطىء.

أجاب الحلاق:

- لا أشك فى ذلك، لكن لا أعجب كثيراً من جنون الفارس ولا سذاجة خادمه، الذى يمتلى يقيناً من أمر الجزيرة، حتى إنى أظن أنه مهما تعددت الإجابات فلن ينزعوها مطلقاً من رأسه.

قال القسيس:

- فليشفهما الله، وها نحن نراقب، ولننظر فى مجرى ترهات هذا الفارس والخادم ومرساها، ويبدو أنهم صهروهما الاثنتين من نفس الفص، وأن جنون السيد دون حماقات الخادم ما كانت تساوى قيد أمثلة.

قال الحلاق:

- هذا هو الشأن، وإن كان يطرب كثيراً معرفة ما سيدور بين الاثنين الآن.

أجاب القسيس:

- إني واثق أن ابنة الأخت أو الأمة سوف تحكيه لنا بعد ذلك، فإن ظروفهما لا تسمح لهما بعدم الإنصات إليهما.

وخلال ذلك أغلق دون كيخوتى عليه وعلى سانشو الغرفة، وعندما بقيا وحدهما، قال له:

- يثقل علىّ، سانشو، كثيراً أنك تقول بأنى أخرجتك من بيتك، وأنت تعرف أننى لم أبق فى بيتى، فقد خرجنا معاً، وذهبنا معاً، وتجولنا معاً، حظ واحد وقسمة واحدة نالتنا نحن الاثنين، وإذا كانوا قد تقاذفوك بالبطانية مرة واحدة، فقد طحنونى مائة مرة، وهذا ما أتفوق عليك به من سبق.

أجاب سانشو:

- هذا له منطقته، حسب قول فخامتكم، فإن الفرسان المشائين ألصق بالنكبات من خدم دروعهم.

قال دون كيخوتى:

- تخدع نفسك سانشو، فطبقاً للمثل^(*) quando caput dolet....etcetera.

أجاب سانشو:

- لا أفهم لغة أخرى غير لغتى.

(*) مثل لاتينى سوف يترجمه دون كيخوتى فى الفقرة التالية.

قال دون كيخوتى:

— أود القول "عندما تحس الرأس بألم، تتداعى لها سائر الأعضاء بالسهر والحمى"، وهكذا كوني مالك أمرك وسيدك، وأنت جزء مني، حيث إنك خادمي، فكل سوء يلم بي أو يحتمل أن يلم بي، لا بد أن يؤلمك، كما يؤلمني أملك.

قال سانشو:

— هكذا كان ينبغي أن يكون، لكن عندما تقاذفوني بالبطانية باعتباري عضواً منك، كانت رأسك خارج الأسوار تنظر إليّ وأنا أطيّر في الهواء، دون الإحساس بأى ألم، فإذا كانت الأعضاء ملزمة بالتألم لألم الرأس، كان على الرأس أن تكون ملزمة بالتألم لألم الأعضاء.

أجاب دون كيخوتى:

— هل تحب القول الآن، سانشو، إنه لم يكن يؤلمني رؤيتك وهم يتقاذفونك بالبطانية؟ وإذا تقول بذلك، فلا تعد لقلوبه أو حتى التفكير فيه، فقد كنت في ألم روحي أكثر من أملك الجسمي. لكن لندع ذلك الآن جانباً، فسيأتي وقت حسابه، ووضعه في موضعه، وقل لي، سانشو أيها الصديق، عما يقولون عن هذه القرية. ما رأى العامة فيّ، والأعيان والفرسان؟ ماذا يقولون عن شجاعتي وعن أمجادى وعن خلقي المهذب؟ وماذا يتحدثون عن شروعي في إحياء نظام الفروسية المشاة، وإعادةها إلى العالم؟ أخيراً أود، سانشو، أن تخبرني حول كل ما وصل إلى مسامعك، وهذا عليك بقوله لي دون أن تترك شراً أو تضيف إليّ خيراً، فالأتباع ذوو الولاء، من طبعهم قول الصدق إلى سادتهم فيما يدور حول كينونتهم وشخصهم، دون أن يتكاثروا بالثناء، أو يتضائل الاحترام المفقود، وأحب أن تعرف، سانشو، أنه إذا كانت الحقيقة

تصل إلى آذان الأمراء عارية، دون ثياب المداهنة والتملق، لجرت أزمان،
وقامت عصور كانت ستعتبر أقوى من عصرنا، الذى يطلقون عليه حسبما
أفهم العصر الذهبى، فلتستفد من هذا التحذير، سانشو، حتى تضع فى أذنى
الحقيقة التى تعرفها عما سألتك عنه، فى كياسة، وعن قصد لا يميل.

أجاب سانشو:

- هذا ما سأفعله عن طيب خاطر، بشرط ألا تغضب فخامتكم مما أقول، مادمت
ترغب فى أن أقوله عارياً على اللحم، دون إلباسه ملابس تحالف ما وصل إلى
علمى من إخباريات.

أجاب دون كيخوتى:

- لن أغضب بأى حال من الأحوال. إذن، تستطيع، سانشو، أن تتكلم بحرية،
دون لف أو دوران.

قال سانشو:

- إذا أول ما أقول، إن العامة تعد فخامتكم مجنوناً أكبر، وأنا لا أقل عنك خبلاً.
والأعيان يقولون إنك لا تقصر نفسك داخل دائرة (الأعيانية)، بوضعك
لقب (دون) قبل اسمك، والهجوم على الفروسية بأربع عرائش كروم، وبضع
عشرات من الهكتارات، مع يد وراء، مع يد قدام. ويقول الفرسان إنهم لا
يودون أن يقرن الأعيان أنفسهم بهم، أولئك الأعيان ذوو مظهر الخدم، ممن
تدخن أحذيتهم ويرقعون جواربهم السوداء بحريير أخضر^(*).

(*) طبقة الفرسان أعلى من طبقة الأعيان وأغنى، أما الحديث عن المظهر، فهو إشارة إلى فقر
الأعيان ومحاولتهم إخفاء هذا الفقر دون جدوى.

قال دون كيخوتى:

- هذا لا علاقة له بي، حيث أتحرك دائماً حسن الملبس، ولم أرقع ملبساً ممزقاً قط، ما عدا الممزق بفعل السلاح، وليس بفعل الزمن.

قال سانشو:

- وفيما يتعلق بالشجاعة، والأدب، والأجماد، وشئون فخامتكم، توجد آراء مختلفة. البعض يقول "مجنون لكن ظريف"؛ وآخرون "شجاع لكن منكوب"؛ وفريق ثالث "مؤدب لكن صفيق"، ومن هنا يمضون مستأنفين قول أشياء كثيرة، حتى إنهم لا يتركون في فخامتكم ولا في شخصى عظمة واحدة سليمة.

قال دون كيخوتى:

- انظر، سانشو، حيث توجد الفضيلة بدرجة رفيعة تكون مطاردة. ولم يفلت بجلده من الإصابة بقول السوء إلا قليل بل لا أحد من المشهورين. يوليوس قيصر كثير الحمية والذكاء والشجاعة بوصفه قائداً، أطلق عليه مناقب الطموح، وعدم النظافة كثيراً في ملابسه وعاداته. والإسكندر، الذى أعطته أمجاده لقب (الأكبر)، قالوا عنه بأنه كانت تبدو عليه مخايل السكر. وعن هرقل، صاحب الإنجازات الكثيرة والجهد، قالوا إنه شبق ولين العود، وعن دون جالوار، شقيق أماديس دى جاولا، يشيعون أنه كان عرييداً فوق الحد، وعن أخيه بأنه كثير البكاء. أوه سانشو! هكذا بين كثير من المصائب الغزيرة لهؤلاء الأجماد، يمكن التجاوز عن مصائبى، إذا لم تكن أكثر مما قالوا.

أجاب سانشو:

- هنا تكمن النكتة، وليرحم الله أبى!

سأل دون كيخوتى:

- وهل هناك أكثر؟

قال سانشو:

- حتى الآن بقى سلخ الذيل، ما قيل حتى هذا فهو "تورته"، وكعك منقوش، لكن إذا كان فخامتكم تريد أن تعرف كل شيء حول (المصايب)، التى وضعوها لك، أنا أحضر لك وهنا فى الحمال من يقولها لك جميعاً، دون أن ينقص منها ذرة، فقد وصل بالأمس ابن بارتولوميه كارأسكو، والذى يأتى من دراسته فى سلمنقة، بعد أن نال البكالوريا، وعندما ذهبت إليه للترحيب بمقدمه، قال لى إنه انغمس فى كتاب عن تاريخ فخامتكم، يحمل عنوان "الشريف العبرى دون كيخوتى دى لامانشا"، ويقول إنهم يذكرونى فيه بنفس اسمى سانشو بانثا، ويذكرون السيدة دولثينيا دل توبوسو، مع أشياء أخرى عشناها وحدنا، لدرجة أنى صلبت مفزوعاً؛ كيف تمكن المؤرخ الذى كتبها من معرفتها؟

قال دون كيخوتى:

- أوكد لك، سانشو، أنه يجب أن يكون حكيماً ساحراً ذلك المؤلف لقصتنا، فعلى هؤلاء لا يخفى شيء مما يودون كتابته.

قال سانشو:

- كيف يكون حكيماً وساحراً؟ فطبقاً لما يقول حامل البكالوريا شمشون كارأسكو، (الذى يسمى هكذا) مؤلف التاريخ يسمى سيدى حامدى باذنجان!

أجاب دون كيخوتى:

- هذا الاسم لعربي.

أجاب سانشو:

- قد يكون كذلك، لأنه معظم الوقت كنت أسمع أن العرب أصدقاء للبادنجان.

قال دون كيخوتى:

- لا بد أنك، سانشو، قد أخطأت في اللقب، أما معنى (سیدی)، بالعربية (السيد).

أجاب سانشو:

- من الممكن ذلك، لكن إذا رغبت فخامتكم أن أجعله يحضر، فسوف أذهب إليه على أجنحة الطير.

قال دون كيخوتى:

- سوف يلذ لي كثيراً، أيها الصديق، فما قلته لي يتركني مبهوئاً، ولن أكل لقمة واحدة، وأنت تعرفني جيداً، حتى أراي وقد أعلمني بكل شيء.

أجاب سانشو:

- إذا سأذهب لإحضاره.

وعندما ترك سيده ذهب للبحث عن حامل البكالوريا، والذي عاد معه بعد مرور قليل من الوقت لخروج سانشو في طلبه، وبين الثلاثة دار حديث عامر بالظرف والطرافة.

الفصل الثالث

عن الحديث المضحك الذي جرى بين دون كيخوتى وسانشو باتشا وحامل البكالوريا شمشون كاراسكو

بقى دون كيخوتى متفكرًا أكثر من اللازم فى انتظار حامل البكالوريا (كاراسكو)، والذي كان يتوقع أن يسمع منه أخبارًا عن نفسه، قد سطرت فى كتاب، كما قال سانشو. لم يستطع أن يقنع نفسه بوجود مثل هذه القصة، إذ يودون أن تذيع مطبوعة بين الناس فروسيته العظيمة بينما لم يجف بعد على صفحة سيفه دم من قتل من أعدائه. ومع كل هذا، تصور أن أحد الحكماء، إما صديق أو عدو كان قد قدمها إلى المطبعة مستخدمًا فن السحر، وإذا كان صديقًا فيكون قد فعل ذلك لتعظيم فروسيته، وإعلانها فوق الفروسية الأكثر ذكرًا لفارس مشاء؛ وإذا كان عدوًا، فلتصفيتها، ووضعها دون أتفه أعمال خادم دارع مغمور ممن ظهروا فى الكتب، رغم أنه (كان يقول لنفسه) لم يحدث قط أن كتبت أعمال خادم دارع، ومن ثم، إذا كان مثل هذه القصة يوجد حقا، فلكونه فارسًا مشاء بالقوة، ينبغي أن تكون (القصة) فصيحة وسامية ومشهورة وعظيمة وحقيقية. وبهذا تعزى بعض الوقت، لكن أفقده هذا العزاء كون مؤلفها عربيًا، طبقًا لهذا الاسم (سيدى)، ومن العرب لا يمكن أن ينتظر أى حقائق، لأنهم كلهم أصحاب مقالب، ويهزون ويغترون بالوهم. وخاف ألا يكون قد عالج غرامياته بتهديب، مما يشيع ويشهر بشرف سيده دولثينيا دل توبوسو، وقد ود لو كان قد تحدث عن إخلاصه، وما يكنه لها دائمًا من تبجيل، فمن أجلها ازدرى ملكات وإمبراطورات، وصبايا من كل نوع بهيج، كابحًا كل حافز لدوافعه الطبيعية وغرائزه. وهكذا، ملفوفًا ومضطربًا فى هذا، وغيره من

التخيلات الأخرى الكثيرة، ظهر سانشو وكارأسكو، الذى استقبله دون كيخوتى بأدب جم.

ومع أن حامل البكالوريا كان يسمى شمشون، فلم يكن كبير الجسم، وإن كان كبير الخبث والسخرية؛ صاحب اللون؛ لكن فى ذكاء فائق، ويدور عمره حول الرابعة والعشرين، مستدير الوجه، أفتس الأنف، واسع الفم، وكلها إشارات على شقاوته، وعلى أنه صاحب ملاحظة ومزاح، كما أثبت ذلك عند رؤيته لدون كيخوتى، إذ ركع أمامه على ركبتيه قائلاً:

– أعطنى يديك، عظمتكم أيها السيد دون كيخوتى دى لامانشا؛ فبحق رداء سان بدرو؛ الذى أرتديه، (مع أنى لم أتلق تعليمات كنسية أخرى أكثر من الأربعة الأولى للتعميد)، لأنت أشهر الفرسان المشائين الذين وجدوا فى كل استدارة الأرض، ويوجدون أو سوف يوجدون. وأقر الله عين سيدى حامدى ابن إنجيلين، الذى ترك لنا قصتك مكتوبة، ومرة أخرى أقر الله عين الفضولى الذى اعتنى بترجمتها إلى عاميتنا القشتالية للتسلية العمومية لعموم الناس.

أنهضه دون كيخوتى، و قال:

– بهذا الكلام إذن، حقيقى أن هناك تأريخاً لى، وكان عربياً وحكيماً الذى كتبه؟

قال شمشون:

– إنه حقيقى جداً، يا سيدى، وأنا أعرف أنه اليوم يوجد مطبوعاً أكثر من اثنى عشر ألف نسخة من هذا التأريخ؛ وإذا لم تصدق سوف تؤكد لك البرتغال، وبرشلونة، وبلنسية، حيث تم الطبع، وأيضاً هناك أخبار أن القصة تطبع فى أمبريس، وإنى أتوقع أنه لن تبقى أمة أو لغة دون أن تترجمها.

قال دون كيخوتى:

- واحدة من الأشياء التى تعطى سرورًا أكثر لرجل فاضل وشهير، أن يرى نفسه فى حياته يمشى باسم طيب عبر لغات مختلف الناس، مطبوعًا ومعلمًا. وأقول (باسم طيب)، لأنه لو كان العكس، فلا موت يعدل ذلك.

قال حامل البكالوريا:

- نعم إنك تمضى باسم طيب، وشهرة عطرة، و فقط فخامتكم تحرز قصب السبق على كل الفرسان المشائين؛ لأن العربى فى لغته، والمسيحى فى لغته، حرصا على أن يرسموا لنا رسمًا حيا شجاعة فخامتكم، والروح العظيمة فى خوض الأخطار، والصبر على الأعداء، والشرف والحيلة فى الغراميات شديدة الأفلاطونية، بينك وبين سيدتى دونيا دولثينيا دل توبوسو.

عند هذه النقطة سانشوبانثا:

- لم أسمع قط أحدًا يطلق لقب (دونيا) على سيدتى دولثينيا، فقط يقولون السيدة دولثينيا دل توبوسو، وفى هذا تخطئ القصة.

أجاب كارأسكو:

- هذا اعتراض لا أهمية له.

أجاب دون كيخوتى:

- لا، حقيقة لا أهمية له، لكن قل لى فخامتكم، أى أمجاد لى تطربها القصة أكثر؟

أجاب حامل البكالوريا:

- في هذا تتعدد الآراء والأذواق، البعض يفضل مغامرة طواحين الرياح، التي بدت لفخامتكم (برياربوس) ومردة، وآخرون مغامرة مطارق النسيج، وفريق ثالث، أعجبهم وصف الجيشين، اللذين ظهر بعد ذلك أنهما قطيعان من الغنم؛ وفريق رابع، يعلى شأن مغامرة الميت الذي كانوا يحملونه للدفن في سقوية، وغير هؤلاء يقولون إن المغامرة التي تفوق الجميع هي تحرير أشقياء سخرة الأسطول، وآخرون غير هؤلاء وهؤلاء ، يقولون لا توجد مغامرة تعادل مغامرة العملاقين المسافرين في ملابس الرهبان، مع مبارزة البيشكاوى الشجاع.

قال عند هذا سانشو:

- قل لي أيها السيد بكالوريا، تدخل هنا مغامرة (اليانجويسيين)، عندما شاء جوادنا الطيب روئينانتي طلب المستحيل عند نساء خيلهم

أجاب شمشون:

- لم يبق للحكيم من حبر في محبرته، فهو يقول كل شيء، ويسجل كل شيء، حتى أولئك الأشقياء الذين أرجحوا سانشو الطيب في البطانية في حركات بهلوانية.

أجاب سانشو:

- لم أقم بحركات بهلوانية في البطانية، قفز في الهواء نعم حدث، بل حدث أكثر مما كنت أود أن أقفز.

قال دون كيخوتى:

– ما أتخيله، لا توجد قصة إنسانية دون صعود وهبوط، وبصفة خاصة قصص الفروسية، التى لا يمكن أن تكون عامرة بأحداث رفاهة.

– ومع كل هذا، يقول بعض من قرأ القصة، بأنه كان سيسعدهم أن ينسى مؤلفوها بعض ضربات العكاكيز والنبايت اللانهاية التى أنزلوها فى منازل مختلفة بالسيد دون كيخوتى.

قال سانشو:

– بما تدخل القصة إلى حيز الصدق والحقيقة.

قال دون كيخوتى:

– وأيضًا كان يمكنهم الصمت عنها بتحكيم الضمير قبل العدل، فالأحداث التى لاتعدل، ولا تغير القصة لا داعى لكتابتها، إذا كانت ستدور حول الزراية يبطل القصة. وأقسم أن إنياس لم يكن بكل هذا البر الذى رسمه فيرجيل، كما أن أوليسيس لم يكن بكل هذه الفطنة التى وصفها هوميروس.

أجاب شمشون:

– هذا حق؛ لكن أحدهم يكتب باعتباره شاعرًا والآخر باعتباره مؤرخًا، والشاعر يستطيع أن يحكى الأشياء ويتغنى بها، لا كما كانت ولكن كما ينبغى أن تكون، بينما المؤرخ، يكتبها ليس كما ينبغى أن تكون، وإنما كما كانت؛ دون أن يضيف أو يحذف من الحقيقة أى شىء.

قال سانشو:

- إذا كان هذا السيد العربي يسير في طريق قول الحقيقة، فمن المؤكد أن ضربات النبأيت ضد سيدى، هى ضربات ضدى؛ لأنه قط لم يحدث أن قاسوا أكتاف أو ظهر فخامته بها، دون أن يقيسوا كل جسمى، ولكن ليس فى ذلك ما يدعو للعجب، فطبقاً لما يقول سيدى، إن ألم الرأس ينبغي أن تشاركه فيه الأعضاء.

أجاب دون كىخوتى:

- سانشو، أيها الخبيث، قسماً أنه لا تنقصك الذاكرة كلما أحييت أن تستخدمها.

قال سانشو:

- كلما رغبت فى نسيان ضربات النبأيت، التى أنزلوها على، لا يوافق على ذلك أثرها، الذى مازال حتى الآن طازجاً فى ضلوعى.

قال دون كىخوتى:

- اصمت، سانشو، ولا تقاطع السيد بكالوريا، الذى أرجوه أن يواصل حديثه لى، عما يقال عنى فى القصة المذكورة.

قال سانشو:

- وأيضاً عنى؛ حيث يقولون عنى إنى أحد شخصياتها الرئيسية.

قال شمشون:

- شخصيات لا، بل شخصيات، سانشو أيها الصديق.

قال سانشو:

- هل لدينا لؤامة آخر لطريقة كلامي؟ فلتمضوا في هذا، ولن تنتهى طول الحياة.

أجاب السيد بكالوريا:

- لعنى الله، سانشو، إذا لم تكن الشخصية الثانية فى القصة، ويوجد من يقدر

قيمة سماعكم تتحدثون عن أنفسكم أكثر من كل ما أحسنوا رسمه فيها، رغم

أنه يوجد أيضاً من يقول عنكم أنكم قد تجاوزتم الحد فى اعتقاد إمكانية أن

يصير حقاً لكم حكم تلك الجزيرة التى عرضها عليكم السيد دون كيوخوتى،

الحاضر معنا الآن.

قال دون كيوخوتى:

- حتى الآن مازال فى الوقت متسع، فكلما أدرج فى العمر سانشو أكثر، واكتسب

تجربة السنين، سيصير أكثر ألفة وقدرة ليصير حاكماً، عما هو عليه الآن.

قال سانشو:

- بحق الله، فالجزيرة التى لا أستطيع حكمها مع مالى من عمر الآن، لن أحكمها

حتى مع بلوغ عمر (ماتوسالين). والعيب أن هذه الجزيرة الآن تلهو، لا

أدرى أين، رغم أنه لا تنقصنى الموهبة لحكمها.

قال دون كيخوتي:

- اترك أمرها لله؛ فسيخرج كل شيء على أطيب ما يكون، وربما أفضل مما تتصور؛ فلا تتحرك ورقة على غصن شجرة دون إرادة الله.

قال شمشون:

- هكذا يكون الحق؛ فإن شاء الله، لن يفوت سانشو ألف جزيرة ليحكمها، فما بالنا بجزيرة واحدة.

قال سانشو:

- لقد رأيت هناك بعض الحكام، وحسب رأي، لا يصلون إلى كعب حذائي، ومع ذلك ينادونهم (صاحب السعادة)، ويخدمونهم على أطباق من فضة.

أجاب شمشون:

- هؤلاء ليسوا بحكام جزر، إنما حكام حكومات أكثر بدائية، ومن يحكم الجزر، فعلى الأقل عليه معرفة النحو.

قال سانشو:

- مع التَّح أتنتحنج جيداً، فالأمر يمضي لصالحى، أما واو هذه الكلمة (النحو)، فلا أحشر نفسى فى ذلك الأمر، لأننى لا أفهم معناها. لكن تاركين موضوع الحكومة بين يدى الله، أعود إلى ما يخصنى، وأقول أيها السيد بكالوريا شمشون كارأسكو، إننى طربت بلا حدود من أن مؤلف القصة قد تكلم عنى بطريقه تجعل ما حُكى عنى من أشياء لا يغضب، لكن قسماً من خادم دروع

ذى شأن، إذا لم يكن قد تكلم عنى بما يليق بمسيحي قديم مثلى، كانت سوف
تسمعنا الصم^(*).

أجاب شمشون:

- لو حدث هذا يكون من المعجزات.

- معجزات أو لا معجزات ليس الشأن، إنما كل واحد عليه أن يتروى فيما
يقول أو فى كيف يكتب عن غيره من الأشخاص، فلا يضع (خبط لزق)
أول ما يرد على باله.

قال السيد بكالوريا:

- واحدة من العيوب التى يلصقونها بالقصة، أن مؤلفها وضع بداخلها رواية
عنوانها " الفضولى الصفيق ". وليست تلك الرواية سيئة أو ضعيفة التعبير،
وإنما لأنها لا علاقة لها بقصة فخامته السيد دون كيخوتى.

أجاب سانشو:

- أنا أراهن أن ابن الكلب قد خلط (الشامى بالمغربي).

قال دون كيخوتى:

- الآن أقول إن مؤلف قصتى لم يكن حكيماً، إنما أحد الجهال الثرثارين، شرع
فى كتابتها تخميناً ودون روية، وليخرج ما يخرج، كما كان يفعل أوربانيخا
رسام (أبيدا)، الذى كان عند سؤاله ماذا يرسم، كان يجيب: " ما يخرج ".
وربما يرسم ديكاً بهذا الشكل، وضعيف الشبه بالديك، حتى صار ضرورياً أن

(*) يقصد أنه كان سيتشاجر معه حتى ترتفع أصوات الشجار لتسمع الصم، ورد شمشون يتجاهل

المعنى المجازى، لأنه يرى فى سماع "الصم" معجزة!

يكتب بحروف كبيرة بجوار الرسم "هذا ديك". ومثل هذا لا بد أن يكون من ثم، حتى إنما تحتاج لتعليق عليها لفهمها.

أجاب شمشون:

- هذا لا؛ لأنها شديدة الوضوح لدرجة ألا عائق بها لفهمها، فالأطفال يتحسسونها، والصبيان يقرأونها، والكبار يفهمونها، والعواجز يحتفلون بها، وأخيراً، فهي شائعة على الألسن، ومقروءة من الكثرة، ويعرفها كل جنس من الناس، فعند رؤيتهم لحصان نحيف، قصير القوائم، صغير الجسم يقولون "ها هو روثيناتي". والذين تفرغوا لقراءتها هم الغلمان، ولا توجد قاعة استقبال لأحد السادة دون نسخة من (دون كيخوتي)، بعضهم يستلمها إذا تركها البعض الآخر، وهؤلاء يتسولونها، والآخرون يطلبونها. وفي الآخر، هذه القصة هي الأكثر إطراباً، والتسلية الأقل ضرراً التي رآها الناس حتى الآن، لأنه في كل ثناياها لا توجد كلمة رذيلة أو فكرة غير تقية، ولو على سبيل التلميح.

قال دون كيخوتي:

- الكتابة بأية طريقة أخرى لن تكون كتابة للحقائق بل الأكاذيب، والمؤرخون الكذابون ينبغي حرقهم، مثل من يزيفون النقود، وأنا لا أدري ماذا دفع الكاتب إلى إقحام قصص وروايات غريبة بينما لديه الكثير ليكتبه عن شئوني، ومما لا شك فيه فإن هذا يصدق عليه المثل (التبن جنب الدريس، في معدة التيس). فالحقيقة، هي أن التعبير فحسب عن أفكارى، وتنهدياتى، ودموعى، وרגائى الطموحة، ومعاركى يمكن أن يصنع مجلداً كبيراً، يمكن أن

يعادل جميع أعمال (التوستادو)^(*). وبالفعل، أيها السيد بكالوريا، لتأليف قصص وكتب، مهما كان نوعها، من الضروري، توافر عقل راجح، وفهم ناضج. قول اللطائف، وكتابة الطرائف من العبقرية بمكان مكين: فالشخصية الأكثر فطنة في الكوميديا هي "العبيط" لأنه لا ينبغي أن يكون المرغوب هو الإفهام بأنه بسيط وساذج. والتاريخ كما لو كان شيئاً مقدساً، لأنه يجب أن يكون حقيقياً، وفيما يتعلق بالحقيقة، فهي ترى الله حيث وجدت؛ لكن هناك من لا يعوقهم ذلك، ويؤلفون الكتب من عقولهم كما لو كانت عجائن يلقونها في زيت القلى.

قال السيد بكالوريا:

— لا يوجد كتاب بهذا السوء، إلا وبه شيء مفيد.

أجاب دون كيخوتى:

— لاشك في ذلك؛ لكن في أحيان كثيرة، الذين بلغوا شهرة كبيرة مكتسبة عن جدارة كتاباتهم، يحدث عند تسليمها للمطبعة، أن يفقدوها جملة، أو تمسبط قيمتها في أحد جوانبها.

قال شمشون:

— السبب في ذلك، هو أنه حيث تقرأ الكتب المطبوعة ببطء، ترى أخطأها بسهولة، وعلى الأخص عندما يكون مؤلفوها ذوى شهرة كبرى حيث يتم فحصها أكثر. والرجال المشهورون بعبقرياتهم، والشعراء الكبار، والمؤرخون اللامعون دائماً، أو في أغلب الأحيان، يكونون منفساً عليهم من هؤلاء

(*) ألونسو دى مادريجال، قصص أبيلا الذى عاش في القرن الخامس عشر، كتب أعمالاً كثيرة في خصوصية صارت مثلاً، وحتى الآن يقال لمن يكتب كثيراً، إنه يكتب أكثر من التوستادو.

الذين يحكمون، للمزاج الخاص أو للتسلية، على الكتابات الخاصة بالآخرين، دون أن يكونوا كتاباً أو قدموا للعالم شيئاً مكتوباً.

قال دون كيخوتي:

- هذا لا يثير الدهشة، لأن كثيراً من رجال الدين ليسوا صالحين للمنابر، لكنهم في غاية الصلاحية لمعرفة أخطاء من يعظون أو سقط قلوبهم.

قال كارأسكو:

- كل هذا صحيح، لكني أود أنا لهؤلاء الرقباء، أن يكونوا أكثر رحمة، وأقل شكاً، وألا يعيبوا من الورد الأحمر حمار لونه، وعندما يجدون غفلة للكاتب، عليهم أن يضعوا في اعتبارهم كما تيقظ الكاتب حتى يخرج أضواء عمله بأقل ظلال ممكنة، فربما ما بدا لهم ظلاً يقلل من إشرافة العمل ليس إلا خالاً يزيد حسن الوجه الذى يحتويه مرات؛ وهكذا أقول إن المخاطرة التى يتعرض لها من يطبع كتاباً كبيراً، للاستحالة المستحيلة تأليفه بشكل يرضى ويسر كل من يقرأه.

قال دون كيخوتي:

- والكاتب الذى يعالجنى، قد يكون سر القليل.

- على العكس، فكما أن عدد المغفلين لا حصر له، فإنه لا حصر لهم، من سرقم القصة. والبعض شوه ذكرى المؤلف بوضع أخطاء له وشيء من التسديس، فقد نسى أن يذكر اسم اللص الذى سطا على حمار سانشو، فلا يعلن هذا الاسم في قصته، ولم يمض على السرقة القليل حتى رأينا سانشو على حماره،

مع أن الحمار المسروق لم يكن قد ظهر بعد^(*). أيضًا يقولون إنه نسي أن يحكى ماذا فعل سانشو بالمائة دينار التي وجدها في الحقيبة بسييرا مورينا، فلم يعد لذكرها بعد ذلك قط، وهناك الكثير الذى يود أن يعرف ماذا فعل بها، أو فى أى شيء صرفها، وتلك نقطة جوهرية مما تفتقد الرواية.

أجاب سانشو:

— أنا، أيها السيد شمشون، لست الآن بقصد تقديم حسابات ولا حوادث، فقد ماعت معدتى مرة لإصلاح لها بعدها ولو حتى بجرعتين من معتق النييد، فاعترائى الهزال والضعف. وفى بيتى أعانى، وزوجتى ترعانى؛ وفى كل مرة انتهى من الأكل أتقياً ما أكلت، وهذا قد يرضى فضولك، وفضول كل العالم حول كل ما يرغبون فى السؤال عنه، تمامًا مثل ضياع الحمار، ومصير المائة دينار.

ودون انتظار إجابة أو فتح فمه بكلمة انصرف إلى بيته.

دون كيخوتى طلب من السيد بكالوريا ورجاه أن يبقى كى يكفراً عن جوعهما معاً، قبل البكالوريا الدعوة. أضاف دون كيخوتى لمائدته المعتادة فرخين من الحمام، وتحدثا على المائدة عن الفروسية، وواصل كاراسكو مزاحه وسخريته. انتهت المائدة، وناما قيلولتهما، وعاد سانشو، ليتجدد ما مضى من حديث.

(*) حسب محققى النص فإن ثريانتس قد سها، ونسى أن الحمار قد سُرق، قبل أن يظهر اللص والحمار، وهنا ثريانتس نفسه يتبته لذلك، وكأنه يقول إنه فعل ذلك عمدًا، وعمومًا تم تدارك هذا السهو فى القسم الأول من ترجمتنا، اعتمادًا على اجتهاد الدكتور الأهوانى فى ترجمة للفصول الستة والعشرين الأولى من ذلك القسم.

الفصل الرابع

حيث يُرضى سانشو بانثا فضول حامل البكالوريا شمشون كاراسكو حول شكوكه وأسئلته، مع وقائع أخرى جديدة بأن تعرف وتحكى

عاد سانشو إلى بيت دون كيخوتى، وعاد ما انقطع من حديث، قال:

- بالنسبة لما يريد أن يعرفه السيد شمشون (حسب ما قال) حول من أو كيف أو متى سرق همارى، مجيباً أقول، فى نفس ليلة هربنا من الأخوة المقدسة، دخلنا فى جبال سييرا مورينا، بعد المغامرة غير المخطوطة للأشقياء المتوجهين للسخرى فى الأسطول، والمغامرة الأخرى الخاصة بالميت الذى كانوا يحملونه إلى سقوية، وهناك أنا وسيدى توغلنا فى وعر الجبال، حيث مضى سيدى محتضناً رمح وأنا فوق همارى، مطحونين ومتعبين من المشاجرات التى مررنا بها، وهكذا شرعنا فى النوم كما لو كان تحت كل واحد منا أربع (مراتب) من ريش النعام، وخاصة أنا حيث اعترائى نوم عميق، حتى إنه لو جاء أحدهم وعلقتى فوق أربعة صوار، غرزها من النقاط الأربع لبردعة، ليركنى معلقاً فوقها ويسحب الحمار من تحتى، ما أحسست بما يحدث.

- هذا سهل جدا، وليس حدثاً جديداً، فقد وقع نفس الأمر لساكريبانتى، عندما كان فى سيرك البرقة، وبنفس هذه الحيلة سحب اللص المشهور برونيلو الجواد من بين رجليه.

واصل سانشو:

- وأصبح الصباح، وبمجرد أن تحركت، في اهتزاز بسيط، خالي الذهن عن الصواري، وقعت في سقطة مفاجئة على الأرض، ونظرت باحثاً عن الحمار، ولم أره، فاهتلت دموع عيني، وبدأت في الندب، وإذا لم يكن قد وضع ذلك الندب المؤلف لقصتنا، فليعلم أنه قد فاته شيء جيد وفي نهاية لا أدرى كم من الأيام، وخلال صحبتنا للأميرة ميكوميكونا، تعرفت على حمارى، قادمًا فوقه في ثياب غجري، ذلك الشقى، والشهير الكبير، المدعو خينس باسامونتي الذى حررناه من قيود السلسلة، أنا وسيدى.

- خطأ المؤلف ليس في هذا، وإنما في قوله إن سانشو كان يمضى راكبًا الحمار المسروق، قبل عثور سانشو عليه.

قال سانشو:

- على هذا لا أدرى بما أجيب، فإما المؤلف يخدع نفسه سهواً، أو هو إهمال من الناشر.

قال شمشون:

- لا بد أن الأمر كذلك، ولاشك؛ لكن ماذا وقع لمائة الدينار؟ هل تم صرفها؟

- لقد صرفتها على نفسى، وعلى زوجتى وأولادى، وكان ذلك سبباً في صبر امرأتى على تفرقى في الطرق والسبل التى سلكتها في خدمة سيدى دون كيخوتى؛ فإنه إذا عدت بعد غياب وقت طويل خالى الوفاض، حارماً بيتى طول ذلك الوقت من الحمار وكرائته، لكان سيكون في انتظارى فمار أسود، وإذا كان هناك المزيد الذى تود معرفته عنى، فهأنذا هناك، وسوف أجيب

على الملك نفسه شخصيا، ولا أحد له الحق أن يقحم نفسه فيما حملت معى أو ما لم أحمل، وفيما صرفت أو ما لم أصرف؛ لأن ضرب النباييت التى أنزلوها على جسمى خلال هذه السفريات، لو تم دفع نقود مقابلها، حتى لو كانت التعريفة أربعة دراهم مرابطيه مقابل كل ضربة نبوت، فما كان مع مائة دينار أخرى التعويض الكافى عن نصف ما أصابنى، وعلى كل واحد أن يقصر يده عنى، ويترك الحكم على الأبيض والأسود، وعلى الأسود بالأبيض؛ فكل واحد منا على الهيئة التى خلقه الله عليها بل أسوأ.

قال كارأسكو:

- سوف أهتم بإبلاغ المؤلف، أنه فى إعادة طبعه للقصة، عليه ألا ينسى ذلك الذى قاله سانشو الطيب، على أن يبرزه أكثر من الحقيقة ولو ببعض (شبر).

سأل دون كيخوتى:

- هل هناك المزيد فى قصتك مما يحتاج إلى إصلاح، أيها السيد بكالوريا؟

أجاب هو:

- نعم لا بد من وجود ما يحتاج إلى إصلاح، لكن لا شىء من ذلك فى مثل أهمية ما سبق ذكره.

قال دون كيخوتى:

- وبالصدفة، هل يعد المؤلف بتقديم جزء ثان من القصة؟

أجاب شمشون:

- نعم يعد، لكنه يقول إنه لا يعرف من عنده القصة، وإنه لم يعثر على هذا الجزء حتى الآن، وهكذا فنحن فى شك، هل سيظهر الجزء الثانى أم لا. ويعلق

البعض على الأمر: "لم يحدث قط أن تكون الأجزاء الثانية طريفة"، وآخرون: "فيما يتعلق بأشياء دون كيخوتى يكفى ما كتب". ويشك في جدوى جزء ثان، لكن المتفائلين المرحين "فلتأت كيخوتات أكثر، وليهاجم دون كيخوتى ويثرثر سانشو بانثا، وليحدث ما يكون، فهذا نظرب".

– وماذا يعطل المؤلف؟

أجاب شمشون:

– عندما يجد ما يجده من القصة سينشره، وها هو يبحث عنها في مسعى غير عادى الجهد، محمولاً بمصلحته، غير منتظر لثناء على عمله.

وعلى هذا علق سانشو:

– إنها النقود والمصلحة ما يحرك المؤلف؟ ستكون معجزة أن يصيب؛ فلن يكون سوى سلقها، وسيقها مثل الخياط في عشية العيد، فالأشياء التي تعمل على عجل لا تبلغ الكمال قط. فليهتم هذا السيد العربي أو أياً كان، بالتروى فيما يصنع؛ فأنا وسيدى سوف نضع بين يديه ما يفيض عن حاجته من مادة المغامرات، والأحداث المتعددة؛ مما لا يصلح فحسب لتأليف جزء ثان بل مائة جزء. ذلك الرجل الطيب لا بد أنه يفكر الآن – ودون شك – في أننا نائمون في التبن هنا، بينما نحن لنا قدم دربة، وسوف يرى عما إليه نحن عارجون. والذى أعرف قوله، إذا أخذ سيدى بنصيحتي، أننا الآن يجب أن نكون في تلك الحملات نحو إساءات من أسئ إليهم، وصد العدوان عمّن اعتدى عليه، كما هو المعتاد والمألوف من الفرسان المشائين الأضلاء.

لم يكد سانشو ينتهى من هذه العبارات، حتى وصلت إلى أسماعهم أصوات صهيل روئينانتى، وهذا الصهيل أخذه دون كيخوتى كفال حسن، وقرر إنجاز خروج جديد بعد ثلاثة أو أربعة أيام تبدأ من تلك اللحظة، وأعلن عن نيته إلى حامل البكالوريا، وطلب منه النصح عن أى مكان يبدأ منه موسم نشاطه الجديد، وهذا أجابه بأن رأيه أن يذهب إلى مملكة أراجوان، وبالذات لمدينة سرقسطة، فهم بعد مضى أيام قليلة سوف يقيمون بعض المسابقات الفروسية احتفالاً بسان خورخى، وفيها يمكنه أن يكسب فرسان أراجون جميعاً، محققاً شهرة عليهم، وبهذا تفوق شهرته كل فرسان العالم. وأثنى على قراره لما يتسم به من الشرف والقوة، ورجاه أن يسير فى المخاطر بكل حذر؛ لأن حياته ليست ملكه، وإنما هى ملك كل أولئك الذين يحتاجونه كي يجيرهم وينقذهم فى نكباتهم.

وعلى هذه النقطة الأخيرة قال سانشو:

- هذا ما أستكره، يا سيد شمشون؛ فسيدي يهاجم مائة رجل مسلحين، مثلما يفعل صبي منهم مع نصف دسنة من البطيخ. يا للهول، أيها السيد بكالوريا! نعم، هناك أوقات للكر، وأوقات للفر، إذا ينبغي ألا يكون الكر والفر فى آن، ولينصر سانتياجو إسبانيا^(*)! وأكثر من ذلك، فقد سمعت، وأظن، من سيدي نفسه، إذا لم تحنى الذاكرة، إن نصف الشجاعة هى أقصى درجات الجبن والخوف؛ وإذا كان الأمر كذلك فلا أحب مثل هذا الموقف لسيدي، إذا لم يوجد سبب قوى، ولا أحب أن يهاجم عندما تحتاج مواجهة الكثرة إلى أسلوب آخر. لكنى أعلم سيدي، قبل كل شيء إذا كان عليه أن يحملنى

(*) صيحة لقديس إسبانيا سانتياجو، وسانشو يريد بها صعوبة الكر والفر، حتى يحتاج الأمر لعون

القديسين.

معه، فلى شرط هو ألا أجبر على أى شىء سوى النظر فى أمور خدمته من نظافة وتديلل لشخصيته، وهذا سأفعله على خير وجه، لكن التفكير فى أن أضع يدى على السيف، حتى لو كان ضد السفلة من رعاى القلنسة والفأس، هو تفكير خارج اللعبة. فأنا، أيها السيد شمشون، لا أفكر فى اكتساب شهرة الشجاع، إنما شهرة أخلص وأفضل حامل دروع لسيدى، مثلما لم يحدث قط لحامل دروع فارس مشاء؛ وإذا كان سيدى دون كىخوتى، مضطرًا أمام خدماتى الكثيرة والطيبة، قد أحب أن يعطينى جزيرة من الجزر الكثيرة التى يقول فخامته إنه سوف يصادفها هناك، سوف أستقبل ذلك منه باعتبارى فضلًا كبيرًا، وإذا لم يحدث، فالتعيس تعيس بحكم ميلاده، والرجل لا ينبغى أن يعيش على الثقة فى آخر، وإنما عليه أن يثق فى الله وحده، وفوق ذلك سوف أعيش بخير وربما أفضل، وسيكون للخبز طعم ألد، فى حال عدم قيامى بالحكم من قيامى به؛ وأنا أعرف بالصدفة أن الشيطان فى هذه الحكومة يعد لى فخًا يسبب لى (المقص)، حيث أتعر وأسقط على وجهى فاقدًا أسنانى؟ لقد ولدت سانشو، وأفكر أن أموت سانشو، لكن مع كل هذا بين النعمة والنعمة، ودون إسراف فى الطلب، ودون مخاطرة، إذا وهبتنى السماء جزيرة أو شيئًا آخر مشابهاً، لست أبله إلى حد رفضها، فأيضًا يقولون: "إن قدموك، تقدم"، "وإن رزقت نعمة، فاحفظها فى بيتك".

قال كاراسكو:

— أنت، أيها الأخ سانشو، قد تحدثت بوصفك إنسانًا جامعيا، لكن مع كل هذا، ثق فى الله، وفى السيد دون كىخوتى، الذى لا بد وأن يعطيك مملكة، وليس فقط جزيرة.

أجاب سانشو:

- تتساوى السراء والضراء؛ مع أنني كفيل بالقول إلى السيد كارأسكو بأن سيدي حين يعطيني مملكة فلن يلقيها في جوال مثقوب، فقد حفزت نفسي، وأجدني في صحة لأقوم على ممالك، وأحكم جزراً وحكومات، وهذا في مرات سابقة رددته على مسامع سيدي.

قال شمشون:

- انظر سانشو، المناصب تغير العادات، ومن الممكن حال رؤيتك حاكماً، ألا تعرف نفس الأم التي ولدتك.

أجاب سانشو:

- حينذاك، عليك فهم هذا مع الذين لم يعرفوا لأنفسهم أصلاً، وليس مع الذين تنقت أرواحهم بأصالة المسيحي القديم، مثلي. فلست بجاحد للجميل، اللهم إلا إذا لم تعرف معدني!

قال دون كيخوتي:

- الله أعلم، وسيكتشف كل شيء عندما تأتي الحكومة، وأكاد أراها على مرمى البصر.

وعند قوله هذا، رجا حامل البكالوريا، إذا كان شاعراً، فليفضل عليه، بتأليف بعض الأبيات، التي يفكر أن يجعلها في وداعة من سيده دولثينيا دل توبوسو، وأن يحرص أن يضع في أول كل بيت حرفاً من حروف اسمها حتى يقرأ في آخر الأبيات عند جمع حروفها الأولى: دولثينيا دل توبوسو. حامل البكالوريا

قال له، رغم أنه ليس من شعراء إسبانيا المشهورين، والذين يقولون إنهم ليسوا إلا ثلاثة شعراء ونصف، فهو لن يتجنب نظم الأبيات المطلوبة مهما لاقى من عقبات فى نظمها بسبب أن الحروف التى تكون الاسم سبعة عشر حرفاً، فإذا نظم أربع رباعيات طبقاً للوزن القشتالى الثمانى المقاطع زادت حروف الاسم على عدد الأبيات حرفاً، وإن صنعه على عشرى المقاطع نقصت الأبيات فى عددها عن عدد حروف الاسم ثلاثة حروف، لكنه مع كل ذلك سيحاول تقليص أحد الحروف حتى يستوعب كلما أمكن النظم القشتالى الثمانى اسم دولثينيا ديل توبوسو.

قال دون كيخوتى:

– هكذا ينبغي أن يكون على أى حال، لأن أى امرأة إذا انتقص منها جزء، فلن تظن أن الأبيات نظمت من أجلها.

واتفقوا على هذا، وعلى أن الخروج سيكون بعد ثمانية أيام. وحمل دون كيخوتى حامل البكالوريا مسئولية كتم السر خصوصاً عن القسيس والأسطى نيكولاس، وعن ابنة أخته والأمة، حتى لا يفسدوا عزمه الشريف والجسور. وعد كاراسكوا بهذا. وهنا انصرف كاراسكو طالباً من دون كيخوتى إبلاغه بكل شىء، كان خيراً أو شراً فيما يقع له من أحداث، وذلك كلما أمكنه، وودع الجميع بعضهم بعضاً، وذهب سانشو كى ينظم أمر الموسم الجديد للخروج.

الفصل الخامس

عن الدردشة الذكية والظريفة التي دارت بين سانشو باتشا وزوجته تيريزا باتشا،

ووقائع أخرى جديرة بالذكرى السعيدة

عندما وصل مترجم هذه القصة إلى كتابة الفصل الخامس، يقول إنه ينظر إليه باعتباره شيئاً مختلفاً، ففيه يتحدث سانشو بأسلوب آخر يتجاوز ما يعد به ذكاؤه المحدود، ويقول أشياء دقيقة الفطنة ليس من الممكن معرفته بها، لكنه لم يحب ترك ترجمته، حتى ينجز ما عليه إنجازَه بحكم المهنة، وهكذا واصل القول:

وصل سانشو إلى بيته متلهلاً، ومبتهجاً، حتى إن زوجته اكتشفت بهجته بنظرة خاطفة كالسهم مما أرغمها ذلك على سؤاله في الحال:

– ماذا تحمل، سانشو صديقي، حتى تقدم بكل هذا الابتهاج؟

وعلى هذا أجابها:

– يا امرأتى، إذا شاء الله، كان يهيجنى ألا أكون مبتهجاً كما يبدو علىّ.

أجابت هى:

– لا أفهمك، ولا أدرى ماذا تريد القول بهذا إنه يهيجك، حسب علم الله، ألا

تكون مبتهجاً، ومع أنى بلهاء لكن لا أدرى عمن يطرب ألا يطرب.

أجاب سانشو:

- أنا مبتهج لأنني عزمت على العودة إلى خدمة سيدي دون كيخوتي، الذي يريد الخروج للمرة الثالثة، بحثاً عن المغامرات؛ وأنا سأعود للخروج معه؛ لأن حاجتي تتطلب ذلك، بجانب الأمل، في أن أسر بالعثور على مائة دينار أخرى، مثل تلك التي صرفناها، رغم أنه يجزني البعاد عنك، وعن أولادي، وإذا شاء الله أن يرزقني لقمة العيش دون عبور البحر، وأنا مقيم في بيتي، دون حملي إلى الوعورة ومفارق الطرق، لكان خروجي بأقل ثمن، حيث يكون لا أكثر من مجرد أنني أحب فعله، بالطبع كانت بهجتي ستكون أكثر تماسكاً وصدقاً من تلك البهجة المختلطة بأحزان تركك وحيدة، وهكذا أحسنت القول حين قلت: "إذا شاء الله، كان يبهجني ألا أكون مبتهجاً".

أجابت تيريزا:

- انظر، سانشو، بعد أن صرت عضواً من فارس مشاء، وأنت تلف وتدور في الكلام، حتى لا يوجد من يفهمك.

أجاب سانشو:

- يكفي أن الله يعلم ما بنفسى، وهو العالم بكل شيء، ولنقف بهذا الأمر عند هذا الحد، واحرصي، أيتها الأخت، أنه يناسبك العلم في هذه الأيام الثلاثة ضرورة الاهتمام بالحمار، فإنه على وشك الدخول في الحرب، ضاعفى له الوجبات، وقومى بإصلاح بردعته، لأننا لن نذهب لحفلات زفاف، وإنما لمنافحة العالم، والكر والفر مع المردة، والجنيات والجن في البر والبحر، والاستماع إلى صفيير، وخرير، وزئير، وكل صوت مرعب نكير، وكل هذا يهون، إذا لم يكن علينا التفاهم مع الرعاة اليانجويسيين، ومع العرب المسحورين.

أجابت تيريزا:

- وأنا اعتقد جيداً أن حملة الدروع المشائين لا يأكلون عيشهم عبثاً، وهكذا
سأبقى في ضراعة إلى ربنا، أن يخرجك سريعاً من هذا البلاء المبين.

أجاب سانشو:

- أقول لك يا امرأة، إذا لم تفكرى في رؤيتي حاكماً لجزيرة قبل مضى وقت
طويل، قد أقع هنا ميتاً من الحسرة.

قالت تيريزا:

- هذا لا، يا زوجي، فلتحيا الدجاجة ولو حاملة لطاعونها، ولتحيا أنت،
ولتذهب كل الحكومات الموجودة في العالم إلى الشيطان فقد خرجت من بطن
أمك دون حكومة، كما عشت حتى الآن دونها، وستعيش في القابل دون
حكومة، ودونها ستدخل قبرك، عندما يشاء الله. وكل هؤلاء دون حكومة،
ولا يتركون العيش، ويحسبون في عداد الناس. وأحسن صلصة في العالم هي
الجوع؛ ولأن هذا لا ينقص الفقراء أبداً، فهم يأكلون دائماً بشهية مفتوحة.
لكن انظر، سانشو، إذا رأيت نفسك يوماً مع حكومة فلا تنساني أنا
والأولاد. ولتعلم أن سانشو الصغير قد بلغ خمسة عشر عاماً كاملاً، وهذا
سبب كاف لإرساله إلى المدرسة، إذا سمح له عمه رئيس الدير. وانظر أيضاً
في أن ماري سانشا، ابنتك، قد تموت إذا لم تزوجها، فهي هي تهدى لى عن
رغبتها العارمة للحصول على زوج مثلما ترغب أنت في رؤيتك حاكماً
لحكومة، وفي نهاية النهايات، ابنة سيئة الحظ في الزواج، خير منها باثرة من
رجل لرجال في معراج.

قال سانشو:

- قسماً، إذا وهبني الله بعض حكومة، لأزوجن، يا امرأتى، ماري سانشا خير
زوج، حتى لا تسمع في أذنها إلا مناداتها بصاحبة السعادة.

أجابت تيريزا:

- هذا لا، سانشو، لأن تتزوج بمن يساويها أكثر صواباً، فأخرجها من الخف
الفلاحى إلى الكعب العالى، ومن الخيش إلى الحرير، ومن مخاطبتها بأنت يا
مارى كالعادة، إلى صاحبة السعادة، ستقع في ألف خطأ يكشف حقيقتها
على الملأ.

قال سانشو:

- اخرسى أيتها البلهاء، لسوف تتعود في سنتين أو ثلاث سنوات، وبعدها يأتى
السمو والجديدة داخل القلب، وإذا لم يحدث، ماذا هم؟ لتكن صاحبة
السعادة، وليحدث ما يحدث.

أجابت تيريزا:

- قس الأمور، سانشو؛ لا تتطلع لفوق، وتعلم من المثل "نظف أنف ابن جارك،
وضعه في دارك". من المؤكد، أنه سيكون طريفاً أن تزوج ابنتنا ماريبا إلى
كونت شاب أو فارس، وحينما يخلو له، يعاملها باعتبارها مستجدة، مطلقاً
عليها، فلاحه، ابنة فلاحين أجراء، وبؤساء! ليس وأنا على قيد الحياة، أيها
الرجل! هل ربيت أنا ابنتى من أجل هذا؟! احضر أنت نقوداً، سانشو،
واترك الزواج على كاهلى؛ فهناك لوبى توتشو، ابن خوان توتشو، فتى ممتلى،
وصحيح البدن، ونعرفه، ولا ينظر إلى الصبية بغير احترام، وبهذا، وهو مساوٍ

لنا، ستكون موفقة الزواج، وستكون تحت أعيننا دائماً، وسنكون جميعاً،
آباءً، وأبناءً، وأحفاداً، وأصهاراً، في (لمة)، وسيجى بيننا السلام والبركة من
الله، من ثم، فلن تأتى الآن وتزوجها في هذه البلاطات، وفي تلك القصور
الضخمة، حيث لا يفهمونها، ولا تفهمهم.

أجاب سانشو:

- تعالى هنا، أيتها الدابة، زوجه بارأباس: لماذا الآن، دون سبب أو مبرر، تودين
إعاقتي عن تزويج ابنتي مع من يعطيني أحفاداً يطلق عليهم أصحاب السعادة؟
انظري تيريزا: دائماً سمعت ممن يكبرني قولهم "من لم يستمتع بالحظ حينما
يأتيه، فإن ما فاتته لا ينبغي أن يبكيه". وليس من الخير الآن، والحظ يطرق
بأنا، أن تغلق هنا الباب في وجهه: دعينا نسير مع تلك الريح المواتية التي
هب علينا رخاء.

لهذه الطريقة في الكلام، ولما سيأتى تحت هذا الكلام مما يقول سانشو، قال
المترجم لهذه القصة بأنه يرى أن هذا الفصل مختلف.

واصل سانشو:

- ألا يبدو لك، أيتها الحيوانة، أنه من الخير أن أنغمس في حكومة مثمرة،
تستخرج القدم من الوحل؟ وأزوج ماري سانشا لمن أحب أنا تزويجها له،
وسوف ترين كيف ينادونك مع اللقب "دونيا تيريزا بانثا"، وسوف تجلسين
في الكنيسة على القטיפه، والحشايا والطنافس، على الرغم من سيدات أعيان
القرية، وغيظهن، ولا تبقى العمر كله في كينونة واحدة، دون زيادة أو
نقصان، مثل دمية أطفال. وحول هذا فلنغلق الكلام، فإن سانشا الصغيرة
يجب أن تكون كونييسة، مهما أفضت في القول والحجاج.

- هل ترى (يا زوجي) مدى قولك؟ فمع كل هذا أخاف أن يكون في لقب الكونتيسة لابنتي الضياع لها. افعل ما شئت، واجعل منها دوقة أو أميرة؛ لكن أعرف أن أقول لك ذلك، لن يكون يرادتي وموافقتي. فيا أيها الأخ، لقد كنت دائماً نصيرة للمساواة، وحينذاك لن أتمكن من رؤية الأمور دون الأسس التي عليها أكون. فعند تعميدي سموني تيريزا، اسم مقشور وموجز دون كسور، ودون إضافات من زينة الكساء أو ألقاب الدونات والدونيات، وسماوا أبي كاسكاخو، وأنا لكوني زوجتك صرت تيريزا بانشا (وكان عليهم لأسباب وجيهة مناداتي تيريزا كاسكاخو، لكن هناك ملوگًا حينما شاءوا سنوا قوانين للسلوك)، وبهذا الاسم أنا راضية، دون أن يضعوا لقبًا فوقه، مما يتقل عليّ كثيرًا، حتى لا أستطيع حمله، ولا أحب إعطاء الفرصة للقول (من يراني أسير في ثوب كونتيسة أو حاكمة): انظروا كيف تسير في الخبز والحريير تلك المرأة التي كانت في نظافة الحنيرير! بالأمس لم أكن أشبع من مط الأسمال، وأنا أذهب للكنيسة مغطية رأسي بذيل قميصي، بدلاً من الدثار والخمار، واليوم أذهب في أفخر الثياب والحلي، وفي سمو، كما لو كنا لا نعرف بعضنا جميعًا. وإذا حفظ الله لي حواسي السبع أو الخمس أو أي عدد منها لي، لا أفكر في إعطاء الفرصة لأن أراني في هذا الضيق. وأنت، أختي، اذهب واعمل حكومتك أو جزيرتك، وترفه ماشاء مزاجك، أما أنا وابنتي، بحق شيخوخة أُمي، لسنا بصدد الانتقال خطوة بعيدًا عن قرينتنا: فالمرأة الشريفة رجلها مكسورة، عن الشارع مقصورة، إنها لبيتها؛ والصية الأمينة، شغل البيت، وطبخ العجينة. اذهب مع صاحبك دون كيخوتي إلى

مغامراتكما، واتركانا مع حظنا السيئ، والله سيصلحه لنا بقدر تقوانا، وأنا لا أدري من وضع له لقب (دون) وهو مالم يحمله آباؤه ولا أجداده.

أجاب سانشو:

- الآن أقول إن جسمك يسكنه عفريت تألفينه. فليغفر لك الله، آه من المرأة، فكم نظمت من أشياء بعضها في بعض، وهي لا أقدام لها ولا رأس! فما علاقة الكاسكاخو والحلى، والأمثال والترف بما أقول؟ تعال هنا، أيتها المخبولة والجاهلة، فهكذا يمكنني أن أناديك، حيث لا تفهمين ما أقول وتسعين هرباً من السعادة: إذا كنت أقول أن تلقي ابنتي بنفسها من أعلى برج إلى أسفل، أو تضل في الأرض على غير هدى، كما أحببت أن تفعل ولية العهد الأميرة أوركاكا^(*)، فمعك الحق أن تعارضيني، لكن إذا كنت في هبة ريح، وفي أقل من طرفة عين، أضع لك لقب "دونيا"، وصاحبة السعادة معه، وأخرجه لك من هشام الحصاد، مع السلطة والجاه، وعلى محفة موحدية من مراکش، لا تحملين نفسك على الموافقة، وحب ما أحب؟

أجابت تيريزا:

- تعرف لماذا، يا زوجي؟ بسبب المثل الذي يقول: "من يتغطي مصيره إلى انكشاف". الكل ينظر للفقير دون اهتمام، وعيناه على الغني تقفان، فإذا كان هذا الغني من قبل فقيراً، فهناك الهمز واللمز، والأسوأ ديمومة اللاعنين الذين توجد أكوام منهم بهذه الشوارع مثل أسراب التحل.

(*) في رومانث إسبانيا يتحدث عن هذه الأميرة التي تركت وراثته العرش وسارت بوصفها امرأة ضالة على غير هدى، وهي ابنة فرناندو الأول، ويلاحظ في هذا الفصل أن ثريانتس غير اسم زوجة سانشو من خوانا إلى تيريزا.

أجاب سانشو:

- اسمعى، تيريزا، انصتى لما أود قوله لك الآن، فربما لم تسمعيه طوال أيام حياتك، والآن لا أتحدث من عندى، وإنما كل ما أفكر فى قوله لك، هو من أقوال الأب الواعظ، الذى وعظ فى صوم الأربعين الكبير الماضى فى هذه القرية، والذى إذا لم تخنى الذاكرة، قال إن كل الأشياء الحاضرة التى تتمثل للعين حين النظر إليها، توجد، وتستحضر فى ذاكرتنا أفضل بكثير، وأكثر تماسكاً من الأشياء الماضية.

كل هذه الأقاويل التى يرددها سانشو هى ثانى الأدلة التى من أجلها يقول المترجم بأنه يرى أن هذا الفصل مختلق؛ لأنها تتجاوز مقدرة سانشو، الذى مضى يقول:

- عندما نرى شخصاً حسن الهيئة، بملابس ثرية المظهر، وفى وسط فخامة موكب خدمه، يولد ذلك الشخص من حيث يظهر، وبالقوة يحركنا ويدعوننا أن نكن له الاحترام، على الرغم مما يتمثل للذاكرة فى تلك اللحظة من تواضع حاله، الذى رأيناه عليه، ذلك التواضع الذى يفقد اسمه كان ما كان من نسب أو فقر، فقد فات، ولم يعد كائناً، فقط يكون ما نراه حاضراً. وإذا كان هذا، الذى أخرجه الحظ من مسوودة تواضعه (استعمل نفس عبارات الأب) إلى علياء رخائه، حسن التربية، كريماً، ومؤدباً مع الجميع، ولا يدخل فى حواديت مع هؤلاء الذين هم نبلاء قدماء، خذيها كلمة ثقة، تيريزا، لن يوجد من يتذكر ماذا كان، وإنما يبجلون ما هو عليه، إذا لم يكونوا من الحاسدين، الذين لا ينجوا منهم كل ذى حظ مزدهر.

أجابت تيريزا:

- أنا لا أفهمك، يازوجي، افعل ما تحب، ولا تكسر رأسي أكثر بخطبك الحربية، وبلاغتك. وإذا كنت احترت أن تفعل ما تقول...

قال سانشو:

- اخترت، هذا ما ينبغي قوله، وليس احترت.

أجابت تيريزا:

- زوجي، لا تتجادل معي. أنا أتكلم كما يحب الله، ولا أحشر نفسي في هذه الرسومات، وأقول إنك معاند في الحصول على حكومة، من ثم احمِل ابنك سانشو معك حتى تعلمه من الآن كيف يحكم؛ لأن الأبناء يرثون الآباء، ويتعلمون منهم.

قال سانشو:

- حال قيامي بالحكم، سوف أرسل في طلبه بالبريد، وسوف أرسل لك نقودًا، حيث لن تنقصني؛ لأن الذين يحكمون لا ينقصهم قط من يقرضهم إذا نقصتهم النقود، وألبسني حتى يخفي حقيقته، ويبدو في الصورة التي ينبغي أن يأخذها ابن حاكم.

قالت تيريزا:

- أرسل أنت النقود، وسوف ألبسه أنظف الملابس.

قال سانشو:

– بالفعل، لنفقد على أن تكون ابنتنا كونتيسة.

أجابت تيريزا:

– اليوم الذى أراها فيه كونتيسة، سأقوم بما يلزم لدفنها، لكن مرة أخرى أقول لك، افعل ما تشاء، فقد ولدنا نحن النساء لحمل مسئولية طاعة الأزواج حتى لو كانوا أبعد الخلق.

وعند هذا بدأت فى البكاء بكل صدق، كما لو كانت قد رأت سانشا الصغيرة ميتة، وتم دفنها. سرى عنها سانشو قائلاً لها إذا كان عليه أن يعملها كونتيسة، فسوف يؤخر ذلك ما أمكنه. وعند هذا انتهت الدردشة بينهما، وعاد سانشو لرؤية دون كيخوتى حتى يتم تنظيم الرحيل.

الفصل السادس

عما حدث لدون كيوخوتى مع ابنة أخته، وأمه، وهذا الفصل واحد من الفصول المهمة فى كل الرواية

بينما كان سانشو وزوجته نيريزا كاسكاخو ينهيان درشتهما الصفيقة التى سبق ذكرها، لم تكن فى بطالة ابنة أخت دون كيوخوتى وأمتها، اللتين بألف إشارة أحستا أن سيدهما يود الانطلاق للمرة الثالثة، والعودة لممارسة ما كانتا تسميانه الفروسية السيئة السير والسلوك، وكانتا تحاولان بكل السبل الممكنة إبعاده عن مثل هذا التفكير، لكن كان كل ذلك وعظاً فى الصحراء، وسبكاً لحديد بارد. مع كل هذا، وبين أحاديث كثيرة دارت معه، قالت له الأمة:

– إذا لم تثبت قدميك باستواء الأرض، وتبقى فى بيتك، وتترك المسير فى الجبال وعبر الوديان، مثل الأرواح الهائمة، بحثاً عن تلك الأشياء التى يقولون إنها تسمى مغامرات، والتى أسميها نكبات، ففى الحقيقة يا سيدى ليس أمامى إلا الشكوى فى جهورية وصراخ إلى الله، وإلى الملك، كى يضعوا علاجاً للأمر.
وعلى هذا أجاب دون كيوخوتى:

– أيتها الأمة ما سوف يجيبك به الله على شكواك لا أعرفه، ولا ينبغى على الملك أن يجيبك، وأعرف فحسب أنى لو كنت ملكاً لاستمحت لنفسى عذراً بعدم إجابة ما لا يحصى بكثرة من طلبات صفيقة تقدم إلى جلالته كل يوم، حتى إن أحد الأعمال الكبرى للملوك بين أعمال أخرى كثيرة، هو اضطرارهم الاستماع للجميع، وإجابة الجميع، وهكذا، فلا أود أنا أن تثقل بعض أشيائى على الملك.

وعلى هذا قالت الأمة:

– أخبرنا، يا سيدى: ألا يوجد فى بلاط الملك فرسان؟

أجاب دون كيخوتى:

– نعم، وكثيرون، وسبب وجودهم هو تزيين أهبه الأمراء، وفخار الجلالة الملكية.

أجابت هى:

– ألا تكون فخامتك واحداً من الفرسان الثابتين الذين يخدمون ملكهم وسيدهم،

لو وُجدت فى البلاط؟

أجاب دون كيخوتى:

– انظرى أيتها الصديقة، لا يستطيع كل الفرسان أن يخدموا البلاط، وليس كل

فرسان البلاط يمكنهم أو يجب عليهم أن يكونوا فرساناً مشائين، ينبغى أن

يوجد فى العالم فرسان من كل صنف، ومع أننا جميعاً فرسان، هناك فرق كبير

بين كل صنف وصنف، لأن فرسان البلاط دون أن يخرجوا من محادعهم، أو

يتجاوزوا عتبات البلاط، يتزهون بكل أنحاء العالم ناظرين إلى خريطة،

دون أن يكلفهم ذلك فلساً واحداً، ودون معاناة الحر والبرد، أو البقاء تحت

قسوة السماء، ليلاً ونهاراً، راجلين أو ركباناً، ولسنا فقط، نحن المشائين نعرف

العدو مرسوماً، وإنما نلتقى بشخصه، وفى كل الأوقات والظروف نهاجمه،

دون التروى فى تلك الصيانيات، ولا القوانين الخاصة بالمبارزة، كأن يحمل

أو لا يحمل رمحاً أقل طولاً أو سيفاً غير موافق، أو يرتدى تحت ملابسه بعض

الدروع المخفية، وعما إذا كان لابد من قسمة أرض المعركة شطرين

متساويين في استقبال نور الشمس، أو عدم قسمتها، مع شعائر أخرى من هذا النمط، والتي تستعمل في المبارزات الفردية بين شخصين، مما لا تعرفين، وأعرف أنا. وعليك أن تعرفي أكثر أن الفارس المشاء الشجاع لا يخاف بأى شكل لو رأى مرده لا تلمس رءوسهم السحاب فحسب، بل تعلقوا عليه، ولكل منهم برجان كرجلين، وذراعان يشبهان دوحتين أوسفيتين جبارتين، وكل عين مثل عجلة عظيمة لطاحونة، أكثر تضمرًا من قرن من زجاج، ومع كل هذا يهاجمهم ويلتحم بهم في هيئة أنيقة، وقلب جسور، ولو أمكن يتغلب عليهم ويدمرهم في لحظة قصيرة، حتى لو كانوا قد جاءوا مسلحين بمحار نوع من السمك، يقولون عنه إنه في صلابة الماس، وبدلاً من السيوف، يحملون سكاكين قاطعة من الصلب المرصع، وهراوات مغطاة بالحديد، وسنها أيضاً من الصلب، مثلما رأيتها أكثر من مرتين، كل هذا قلته - يا أمتي - حتى ترى الفرق بين فريق من الفرسان وفريق آخر منهم، وليكون سبباً لتلا يوجد أمير لا يقدر الفريق الثاني حق قدره، أو في عبارة أخرى النوع الأصلي من الفرسان المشائين، الذين طبقاً لما نقرأه في قصصهم، كان يقع على عاتق الواحد ليس فحسب سلامة مملكة واحدة بل ممالك.

في هذه اللحظة دخلت ابنة أخته:

- آه ، يا سيدى! اعلم أن كل ما تقوله عن الفرسان المشائين ليس إلا (حدوتة خرافية)، وأكذوبة، وقصصهم، التي لم ينتهوا من حرقها، عليهم أن يلقوا عليها رداء التفتيش للتائبين، أو أية شارة يتعرف عليها باعتبارها وصمة، وللتعريف بأنها تمحو كل عادة طيبة.

قال دون كيخوتي:

- بحق الله الذي يرزقني، لو لم تكوني حقاً ابنة أختي، التي كانت ستعاقبك بما لم أعاقبك به، للإفك الذي ذكرت، ليكون فضيحة عالمية. كيف يمكن لصيبة في المهدي مثلك لا تكاد تحتال بتحريك دسته من إبر التطريز، أن تجرؤ على إطالة لسانها، وفرض رقابة على قصص الفرسان المشائين؟ ماذا كان سيقول السيد أماديس لو سمعك؟ لكن تأكيداً، كان سيعفو عنك؛ لأنه كان أكثر الفرسان تواضعاً وأدباً في عصره، وفوق ذلك، المأوى العظيم للصبايا، لكن إذا سمعك آخر، لما حدث لك ما يرضيك منه، لأن الجميع ليسوا مهذبين، ولا يحسن الناس فيهم الرأي، فالبعض أشرار وغير مهذبين. وليس كل من يسمون فرسانهم فرساناً مكملين متممين، فالبعض من ذهب والبعض الآخر من معادن زائفة البريق، والجميع يظهرون فرساناً، لكن الجميع لا يمكنهم أن يكونوا على الحد الصارم للحقيقة. رجال منحطون عليهم الاستقتال ليظهروا فرساناً، ورجال في سمو عليهم التظاهر عمداً في استقتال للظهور متواضعين؛ فهؤلاء ينهضون إما بالطموح أو الجدارة، وأولئك يهبطون إما بالضعف أو انعدام الجدارة. ومن الضروري أن نستفيد من المعرفة الحقيقية لنميز هاتين الطريقتين للفرسان، شديدي الشبه تسمية، وشديدي البعد في أفعالهم.

قالت ابنة الأخت:

- الله لي! كم تعرف الكثير يا خال، حتى لو كان ضرورياً عند الاحتياج، يمكنك صعود المنبر، والذهاب للوعظ في الشوارع، ومع كل هذا، تدخل في عمى

عظيم، وسفه صار مشهوراً، حتى تحاول الظهور بأنك قوى، وأنت شيخ هرم، وان لديك من القوة ما ينفيه مرضك، وإنك ترد العدوان، وأنت في عمر استهلك سنواته، وعلى الأخص، تقول إنك فارس، وأنت لست بفارس، مع أنه من حق الأعيان أن يكونوا فرساناً، لكن ليس الفقراء منهم (أمثالك).

أجاب دون كيخوتى:

— معك أكثر الحق يا ابنة أختي، فيما تقولين، وأنا أقول لك أشياء حول الأنساب، مما يدهشك، لكن حتى لا أخلط الإلهي بالإنساني لن أقولها. انظرا، صديقتي، إلى أربعة حظوظ من الأنساب (وكونا لي متبتهتين) يمكنها تلخيص كل ما يوجد في العالم، وهي تلك: آحاد كانت لهم بدايات متواضعة، ومضوا يتسعون ويصابرون حتى يصلوا إلى عظمة كاملة، وآحاد آخرون، كانت لهم بدايات عظيمة، ومضوا يحافظون عليها، ويحفظونها ويقون عليها بالشكل الذي بدأوا به، وفريق ثالث، مع أنهم كانت لهم بدايات عظيمة انتهوا إلى سنّ ضئيل مثل سن الهرم، لتضاؤلهم، وتصفية بداياتهم حتى يقفوا عند العدم، أو سن الهرم الذي ليس بشيء عند مقارنته بقاعدته وعند اتخاذ قاعده، وفريق رابع (وهو الغالب)، لم تكن لهم بدايات طيبة ولا متوسطة، وهكذا ستكون نهايتهم، دون اسم أو نسب من العامة والخاصة. وعن الأولين، الذين كان لهم أصل متواضع، وارتقوا إلى العظمة التي يحتفظون بها الآن، ويصلح بوصفه مثلاً لكما البيت العثماني، الذي كان بيت رعاة متواضعاً ومنحطاً، ها هو في القمة التي نراها. وعن النسب الثاني كانت بداياته عظيمة، وحافظ عليها دون زيادة، سيكون المثل عدداً كبيراً

من الأمراء بالوراثة، ويقون حيث هم دون زيادة أو نقصان، مكتفين بإقطاعهم أو دولهم عند حدودها في سلام. وعن الذين بدأوا عظاماً وانتهوا بسن الهرم، هناك آلاف الأمثلة، لأن كل فراغة مصر وبطالمتها، وقياصر روما، مع كل عشيرتهم (إذا صح على أتباعهم) من الأمراء الذين لا حصر لهم، والملوك، والسادة، والميديين، والفرس، واليونانيين، والبربر، وكل هذه الانساب والسيادة، انتهت بالسن، وبالعدم، هم ومن أعطوا لهم تلك البدايات، فليس ممكناً الآن العثور على أحد من نسلهم، وإن وجدناه سيكون في حال من التواضع والانحطاط بمكان. وعن نسب الغوغاء والعامة أقول إنه مجرد زيادة عدد للأحياء؛ دون شهرة أو فخار. من كل ما قلت أحب أن تستدلا، يا حمقوى^(*)، أن الخلط في الأنساب عظيم، ومن يبدو عظيماً أو لامعاً، فقط تظهره فضيلته، وثروته وكرمه. قلت فضيلة وثروة وكرم لأن العظيم الفاسد، هو فاسد عظيم والثرى غير الكريم هو بخيل شحاذ، وأن مالك الثروات، لا يسعده امتلاكها، إلا بصرفها، وليس صرفها كيفما كان، وإنما عليه أن يعرف أين مصارفها. أما الفارس الفقير، فلم يبق له طريق كى يسلكه سوى طريق الفضيلة، بأن يكون بشوشاً حسن التريبة، مهذباً، مؤدباً، ومحترماً لفروسيته، ليس مغروراً، ولا متكبراً، ولا ثرثاراً، وفوق كل شيء، باراً؛ بقليل ماله وبروحه الباش في وجه الفقير، وسيكون في نفس كرم من يعطى صدقة مجلجلاً جرساً، جريح الجرس، ولن يعدم من يراه متزيناً بالفضائل التي ذكرتها، وحتى إن لم يعرفه، يتجنب الحكم عليه أو اعتباره طيب الأصل، وإن لم يكن كذلك فتلك معجزة، ودائماً في المقابل الثناء هو جائزة الفضيلة، والفضلاء لا يستطيعون تجنب الثناء عليهم. هناك طريقتان، يا

(*) مثنى حمقاء، مضاف إلى بياء المتكلم.

ابنتي، حيث يستطيع الناس السلوك للوصول للثروة والشرف: الأول هو طريق الآداب. والآخر، طريق السلاح. وأنا لدى السلاح أكثر من الآداب، تحت راية مارس إله الحرب، وهكذا، فأنا تقريباً مضطر لسلوك هذا الطريق، وفيه أصمم على السير رغم أنف العالم كله، وسيصير دون جدوى إتعاب أنفسكما في إقناعي بألا أحب ما أرادته السماء، وما أمر به الحظ، ويتطلبه المنطق، وفوق كل ذلك، ما ترغبه إرادتي، وكما أعرف الجهود التي لا حصر لها، الملتصقة بالفروسية المشاة. أعرف أيضاً الثروات الطائلة الممكن بلوغها عن طريقها؛ وأعرف أن شعب الفضيلة ضيق جداً، وطريق الانحراف عريض وواسع الفضاء، وأعرف أن نماياته ومواقفه مختلفة، لأن مصير الانحراف المؤجل والمتسع ينتهي بالموت، ومصير الفضيلة الضيق، والجهد ينتهي بالحياة، وليست تلك الحياة الفانية، وإنما الحياة التي لا نهاية لها، وأعرف، كما يقول الشاعر العظيم، شاعرنا القشتالي^(*) أن:

في هذه الوعورة يسلكون

من الخلود مقعد صدق

عنه هناك لا المخدار قط

قالت ابنة الأخت:

- آى، ما أتعسنى؛ فسيدي أيضاً شاعر! يعرف كل شيء، ويدرك كل شيء؛ وأنا أراهن أنه لو شاء أن يكون (بتاً) يعرف بناء بيت في دقة القفص (لفعل).

(*) جارتيلاسو دى لا بيجا فى المرثية الأولى.

قال دون كيوخوتى:

- أعددك يا ابنة أختى، أنه لولم تكن أفكارى الفروسية قد حملتنى وراءها بكل حواسى، ما تركت شيئاً دون أن أمارسه، ولا فضول يخرج عن ملك يمينى، خاصة الأقفاص ومساويك الأسنان.

فى هذا الوقت طرقت الباب، وسائلين من كان، أجاب الطارق أنه سانشو بانثا، وبمجرد أن عرفته الأمة، جرت للاختباء حتى لا تراه؛ لفرط كراهيتها له. فتحت له ابنة الأخت، وخرج للقاءه سيده دون كيوخوتى بذراعين مفتوحتين، وأغلق الاثنان عليهما المخدع، حيث دار بينهما حوار لا يفوقه فى الحسن ما سبق بينهما من حديث.

الفصل السابع

ما حدث لدون كيخوتى مع خادمه فضلاً عن وقائع ذائعة الشهرة

مجرد أن رأَت الأمة إغلاق الغرفة على سانشو بانثا مع سيدها أدركت اتفاقهما، متخيلة أن تشاورهما سيؤدى إلى قرار الخروج الثالث، فارتدت ملامعتها مليئة بالغضب والحزن، وذهبت للبحث عن حامل البكالوريا شمشون كارأسكو، حيث بدا لها أنه لبلاغته ولأنه صديق طازج لسيدها، فى إمكانه إقناعه بترك هذا الهدف الذى لا يتحول عنه. ووجدته يتمشى فى فناء بيته، وعندما رأته ركعت تحت قدميه يسيل عرقها وغبطها، وعندما رأها كارأسكو مع دلائل الألم والفرع، قال لها:

- ما هذا أيتها السيدة الأمة؟ ماذا حدث لك حتى يكاد يخرج الروح من جسدك؟

أجابت هى:

- لا يخرج إلا من باب جنونه. أريد القول يا سيد بكالوريا، وسيدى، أنه يريد الخروج مرة ثانية، وبها يصير الخروج الثالث، للبحث فى ذلك العالم عما يسميه هو (غامرات)، ولا أفهم كيف يعطونها هذا الاسم. فى المرة الأولى أحضره لنا ملقى على حمار دون حس، مطحوناً بالنبايت. فى المرة الثانية جاء فى عربة ثيران، موضوعاً فى قفص مغلق عليه، حيث كان يظن أنه مسحور، وكان المسكين قد جاء فى هذه الهيئة الحزينة، حتى تعجز أمه التى ولدته عن التعرف عليه؛ أصفر ناحل، والعيون غائرة فى أعماق تجويف المخ، وحتى أعيده إلى بعض كيانه أنفقت ستمائة بيضة، كما يعلم الله، وكل العالم، ودجاجاتى التى لا تدع لى فرصة للكذب.

أجاب حامل البكالوريا:

- هذا أصدقه تماماً، فدجاجاتك طيبة، وفارحة وحسنة التربية، ولا يمكن أن تقول شيئاً مكان شيء، حتى لو سقطت (فطيسة). بالفعل، أيتها السيدة الأمة، لا يوجد شيء آخر، أو أى إشارة، أكثر من الخوف مما يود السيد دون كيخوتي فعله ؟

أجابت هي:

- لا يا سيدى.

أجاب حامل البكالوريا:

- إذا لا تحملى همًا. فقط اذهبي مع الحظ السعيد إلى بيتك، وجهزي لى الغداء أكلة ساخنة، وفي الطريق إلى هناك امضى مرودة صلاة القديسة أبولونيا، إذا كنت تعرفينها، وفي الحال سألحق بك، وسوف ترين العجائب.
قالت الأمة:

- ما أكثر اكتئابي! تقول لى فخامتك أن أصلى لسائنا أبولونيا؟ هذه الصلاة مخصصة لوجع الضروس، وسيدى لا تؤلمه ضروسه، وإنما مرضه فى محه.
أجاب كاراسكو:

- أنا أعرف ما أقول، أيتها السيدة الأمة؛ عودى إلى بيتك ولا تجادلينى، فأنت تعرفين أننى بكالوريا من سلمنقة، ولا توجد بكالوريا أفضل.
وعند هذا ذهبت الأمة، ومضى حامل البكالوريا فى الحال للبحث عن القسيس، ليبلغه بما سيقال فى وقته المناسب.

وفيما كان داخل الغرفة المغلقة على دون كيخوتى وسانشو، وقعت بينهما العبارات التي ترويها الحكاية فى دقة وصدق. قال سانشو لسيدته:

- لقد أنرت زوجتى على معنى من الذهب مع فخامتك إن شئت أن تحملنى .
قال دون كيخوتى:

- عليك أن تقول سانشو (أصرّت)، وليس أنرت.

أجاب سانشو:

- مرة أو مرتين، إذا لم تخنى الذاكرة، قد التمسيت من فخامتك ألا تعدل مفردات كلامى، إذا كنت تفهم ما أحب قوله بها. وإذا لم تفهم قل لى " سانشو أو الشيطان، لا أفهمك"، فإذا لم أفصح، عندها يمكنك التعديل، حيث إننى (وهل)....

قاطعته دون كيخوتى

- لا أفهمك سانشو، ولا أدرى عما إذا كنت تريد القول إننى (سهل).

قال سانشو:

- وهل، هذا ما أحب قوله، فأنا هكذا جداً.

أجاب دون كيخوتى:

- الآن أفهمك أقل.

أجاب سانشو:

- إذن، إن لم تستطع فهمى، لا أدرى كما أقولها، لا أدرى أكثر، وليكن الله معى.

أجاب دون كيخوتي:

- لا تخزن، لقد وقعت على ما تريد قوله: أنت تريد القول أنك (كسهل) سلس القيادة، طيع، سوف تأخذ بما أقوله لك، وستخرج بما أعلمك إياه.

قال سانشو:

- أراهن على أنك منذ الابتداء قد صفتني، وفهمتني، لكنك فقط أردت تعكير صفوى بسماعى أقول مائتين من الترهات الأخرى.

أجاب دون كيخوتي:

- قد يكون. لكن بالفعل ماذا تقول تيريزا؟

قال سانشو:

- تيريزا تقول أن أملاً يدي جيداً من فخامتك، وأن نتكلم بالأوراق وليس بالبقاق^(*)، وأن الاتفاق يمنع الخناق، وعصفور في اليد خير من عشرة على الشجر، وأن نصيحة المرأة خائبة، ومن يأخذ بها تأخذه نائبة.

أجاب دون كيخوتي:

- وأنا أقول بما تقول سانشو، قل أيها الصديق، واستمر في الكلام، فأنت اليوم تقول لآلى.

أجاب سانشو:

- وذلك هو الحل، فكما تعرف فخامتك كلنا معرضون للموت، وقد نكون اليوم، وفي الغد لا نكون، وحالاً يختفى الحروف ولا يبقى الكبش، ولا أحد

(*) جمع بق، فم. وسانشو يتحدث بالأمثال.

يضمن حياته ساعات أكثر مما يشاء الله أن يقيه، لأن الموت أصم، وعندما يطرق أبواب حياتنا يسرع دائماً في عمله، ولا توقفه توسلات أو سلطان أو صولجان أو تيجان، طبقاً لما هو معروف بين العموم ومشهور، وما فوق المنابر يدور.

قال دون كيخوتى:

- كل هذا صدق، لكنى لا أعرف أين تريد الوصول.

قال سانشو:

- أريد أن أصل إلى أن تشير فخامتكم لى بمرتب محدد، تدفعه لى كل شهر على مدى الوقت الذى أخدمك فيه، وأن ذلك المرتب يدفع من أملاكك، ولا أريد البقاء تحت رحمة نعم، قد تصل متأخرة، أو دون المستحق، أو لا تصل أبداً، وبحقى ومستحقى فليعنى الله. فى النهاية، أريد أن أعرف ما أكسبه، كثيراً أو قليلاً، وتزيد عن الحاجة بيضة واحدة تضعها الدجاجة، والقليل بعد القليل إذا كثر تردده يصير الكثير، وبينما الواحد يكسب شيئاً، فلا يخسر شيئاً. وليكن إذا حدث (مما لا أظنه ولا أنتظره) أن فخامتكم أعطاني الجزيرة الموعودة من طرفكم لى، فلست بجاحد، ولا آخذ الأشياء من أطرافها حتى أستولى على كل دخلى من الجزيرة قبل خصمه من مرتبى، فلا أقبض إلا (الفار) بينهما.

- سانشو أيها الصديق، أحياناً يكون من الطيب أن يعتاد أن يكون القط مثل الفار!

قال سانشو:

- هأنذا أفهم، أراهن أنني كان يجب أن أقول (الفارق) بينهما، لكن لا يهم،
ففخامتكم قد فهمتني.

أجاب دون كيخوتى:

- جداً، حتى إنى فهمت قعر تفكيرك، وأعلم الهدف الذى تصوّب عليه، بسهام
أمثالك. انظر، سانشو، كنت سأعلن لك مرتباً، لو كنت قد وجدت فى قصة
من قصص الفرسان المشائين أى مثال يفتح لى ويرز عبر أى نافذة صغيرة
أنهم تعودوا إعطاء مرتب شهرى أو سنوى، لكنى قرأت كل التواريخ
والقصص أو معظمها، ولا يوجد أى فارس مشاء كان قد عين مرتباً لخادم
دروعه، فقط أعرف أن جميعهم كانوا يخدمون فى انتظار إنعام، قد يصلهم
عندما لا يحظر بياهم نواله، وإذا سادهم حالقهم الحظ، يجازونهم بجائزة
الجزيرة أو أى شىء يساويها، أو على الأقل يحظون بالألقاب ومراتب
السيادة. وإذا كنت أنت سانشو تعجبك هذه الآمال ولوازمها عد إلى
خدمتى، محموداً مشكوراً، إما أن تفكر فى خروجى على مألوف الفروسية
المشاة، فهو تفكير باطل. وهكذا، صديقى سانشو عد إلى بيتك، وأعلن
تريزا مستشارتك بنواياى، فإذا أعجبك وأعجبها أن تبقى فى انتظار إنعامى
كان خيراً، وإلا، سبقى بنفس صداقتنا السابقة، ومادامت مصيدة الحمام لا
تخلو من الطعم، فلن نعدم الحمامات. واعلم، يا بنى، أن أملاً طموحاً خير من
شىء فإن تملكه فى يدك، و"شكوى صادقة خير من أجر ضئيل". وأقول هذا
بتلك الطريقة حتى تعرف، سانشو، أننى قادر على إلقاء الأمثال كالمطر،

وأخيراً، أود القول، إذا لم ترد أن تأتي معي في انتظار الإنعام، يجرى عليكم ما يجرى لى من حظ، فليبق معك الله، وليصنع منك قديساً، وبالنسبة لى لن ينقضى خدم لدروعى أكثر طاعة، وأكثر طموحاً، دون أن يكونوا فى قلة حدقك، وكثرة ثرثرتك.

عندما سمع سانشو قرار سيده الصارم، غامت فى وجهه السماء، وسقطت عن قلبه الأجنحة، لأنه ظن أن سيده لن يخرج دونه ولو مقابل كل أملاك الدنيا، وهكذا بقى مبهوتاً، متفكراً، وفى نفس اللحظة دخل شمشون كارأسكو، وابنة الأخت، فى رغبة لسماع أية عبارات سوف يلجأ إليها لإقناع سيدهم بعدم العودة للبحث عن المغامرات. وصل شمشون، المنقذ المشهور، حيث احتضنه مثل المرة الأولى، وبصوت مرتفع قال له:

- أوه يا زهرة الفروسية المشاءة! أوه، أيها الضوء المنير للسلاح! أوه، يا شرف الأمة الإسبانية ومرآتها. تضرع إلى الله أحكم الحاكمين، أن يطيش سهم (كل من يضع عقبة أو يحول بينك وبين الخروج الثالث) فى نحره وألا يتحقق له قصده.

ثم التفت إلى الأمة، وقال لها:

- أيتها السيدة الأمة، لم يعد هناك ضرورة لصلاة القديسة أبولونيا بعد ذلك، فأنا أعلم أنه قرار حاسم للأفلاك، أن يعود السيد دون كينخوتى إلى وضع أفكاره السامية موضوع التنفيذ، وأنا سوف يتقل على ضميرى جداً ألا أتقرب إلى هذا الفارس وأقنعه ألا يبقى وقتاً أكثر فى تعطيل وحبس لقوة ذراعه الشجاعة، وبر نفسه الباسلة، لأنه إن فعل فذلك غش وخدلان، بالتأخر فى

رد حق المظلوم، وإجارة اليتيم، والحفاظة على شرف الصبايا، وحماية المتزوجات، وأشياء أخرى من هذا القبيل، تتصل وتعلق وتلتصق بنظام الفروسية المشاءة. إيه، يا سيدى دون كيخوتى، أيها الجميل والباسل، اليوم قبل الغد، فخامة عظمتكم، اشرع فى اتخاذ الطريق، وإذا ينقصك شىء لوضع هذا موضع التنفيذ، هأنذا لإمدادات ما ينقصك بشخصى ومالى، وإذا كان من الضروري أن أخدم باعتبارى خادماً لدروعك، سأفعل ذلك وأكون به محظوظاً.

وفى هذه اللحظة، التفت دون كيخوتى إلى سانشو، وقال:

- ألم أقل لك، سانشو، إننى سوف يفيض عن حاجتى الخدم؟ انظر من يتطوع أن يصير خادماً لى، إنه ليس أقل من حامل البكالوريا الذى لا نظير له، شمشون كارأسكو، التحفة الخالدة، وبهجة أفنية مدارس سلمنقة، صحيح فى شخصه، خفيف فى حركته، يتحمل الحر مثل البرد، كما يتحمل الجوع والعطش، وبكل تلك المزايى التى تجعل منه حامل دروع فارس مشاء. لكن لن تسمح السماء أن ينهار وينسرخ عمود الآداب، وكوب العلم، وجذع النخلة الباسقة، للفنون الكريمة والسّمحاء، بسبب متابعة أهوائى وإرضائى. ليبق شمشون الجديد فى وطنه، مشرفاً له، وتشريفه يشرف معه الشعيرات البيضاء لوالديه الهرمين، فأنا سأكون راضياً مع أى خادم آخر، لأن سانشو لا يشرف بالذهاب معى.

- نعم أشرف!

كانت إجابة سانشو، وقد رق قلبه وامتألت عيونه بالدموع، وواصل:

— هذا لا يقال عنى يا سيدى، الخبز مأكول، والود منسول؛ نعم، فأنا لم أنحدر من أصل جحود، وكل العالم يعرف، وخاصة أهل قريتى، من هم آل بانثا، وعمن أنحدر، وأكثر من ذلك فأنا أرى أن إنعامك الموعود موضوع اعترافى وتصديقى من كلامك الطيب وأفعالك البارّة، وإذا كنت قد وضعت أمر مرتبى موضع الاعتبار، فقد كان لإسعاد زوجتى، التى عندما تضع فى رأسها إقناعى بشىء، فلا توجد مطرقة تشد الطوق على برمىل، مثلما تفعل هى للضغط علىّ لأفعل ما تحب. لكن بالفعل، على الرجل أن يكون رجلاً، والمرأة امرأة، وعليه، فأنا رجل حيثما كنت، الأمر الذى لا أستطيع تجاهله، وأيضاً أحب أن أكون كذلك فى بيتى، فلا شىء ينبغى عمله الآن، غير أن فخامتكم تعمل وصيتك وملحقاتها، بطريقة لا يمكن (اكتساحها)، وفى الحال فلنبداً الطريق، حتى لا يعانى السيد شمشون، الذى يقول إن ضميره (يملى) عليه، بأن يقع فخامتكم بالخروج للمرة الثالثة إلى ذلك العالم، وأنا من جديد أتطوع لخدمة فخامتكم بإخلاص وشرعية، وبأفضل ما فعل خدم فى خدمة الفرسان المشائين فى كل الأزمان الماضية والحاضرة.

وبقى حامل البكالوريا متعجباً من سماع لغة سانشو وطريقته فى الكلام، ومع أنه قرأ القصة الأولى لسيدته، فلم يعتقد قط أنه بمنزلة ذلك الظرف الذى يرسمون عليه شخصيته هناك، لكن مستمعاً إلى قوله الآن: (وصيتك ... بطريقة لا يمكن اكتساحها) بدلاً من (وصيتك ... بطريقة لا يمكن إبطالها)، أعتقد فى كل ما قرأه، وثبت له فى شخصه صورة أحد أكثر المخبولين تفرذاً فى عصرنا. وقال لنفسه: إن هذين المجنونين سيذاً وخادماً لا نظير لهما فى العالم. وأخيراً، دون كيخوتى وسانشو تعانقا، وبقيا صديقين، وأمام انبساط كارأسكو الهائل، الذى كان حينذاك

هاتف الوحي لهما، اتفقا على أن يكون الرحيل بعد ثلاثة أيام منذ تلك اللحظة؛ خلالها يتم إعداد العدة للرحلة، من البحث عن خوذة ذات غطاء مطرز للوجه، التي قال دون كيخوتي إنه عليه بحملها بأية حال من الأحوال. وقد عرض شمشون تقديمها له، حيث إن صديقاً له يملكها، ولن يبخل عليه بها، وإنها كانت داكنة بالصدأ وأثار القدم أكثر منها نظيفة لصلبها الصقيل. اللعنات التي أنزلتها ابنة الأخت والأمة على حامل البكالوريا ليس لها حد، شدتاً شعريهما، وخربشتنا وجهيهما، وبطريقة الندابات ندبتا الرحيل كما لو كان موت سيدهما. وقصد شمشون من إقناعه بالخروج مرة أخرى، كان ما سوف تحكيه القصة بعد قليل، وكان طبقاً لنصيحة القسيس والحقاق، اللذين أبلغهما من قبل عن كل شيء.

باختصار، في تلك الأيام الثلاثة تزود دون كيخوتي وسانشو بما بدا لهما مناسباً؛ وعندما انتهى سانشو من إخماد غضب زوجته، ودون كيخوتي من تهدئة ابنة أخته وأمه، عند حلول المساء، دون أن يراهما أحد غير حامل البكالوريا، الذي أحب أن يصاحبهما نصف فرسخ بعد الخروج من القرية، طرقتا السبيل المؤدى إلى التوبوسو، دون كيخوتي فوق روثينانتي الطيب، وسانشو فوق حماره القديم، وقد تزود الخرج بالزوائد، والكيس بالنقود التي أعطاهما له دون كيخوتي لصرفها فيما يعرض من شئون. احتضنه شمشون، ورجاه أن يمهده بما يقع له من حظ سيئ أو طيب، حتى يفرح بهذا ويأسى لذلك طبقاً لقوانين الصداقة. وعده دون كيخوتي بذلك، وعاد شمشون إلى القرية، واتجه الاثنان إلى طريق المدينة العظيمة التوبوسو.

الفصل الثامن

حيث يحكى ما حدث لدون كيخوتى فى ذهابه لرؤية سيدته دوثلينيا دل توبوسو

تبارك الله العزيز!- قال حامدى بن إنجيلين فى بداية هذا الفصل الثامن -
تبارك الله! تبارك الله! مضى يكررها ثلاث مرات، وهو يقول إنه يطلق تلك
التسبيحات لرؤية الحملة التى يقوم بها دون كيخوتى وسانشو، وإن قراء قصته
الطريفة، يمكنهم إدراك أنه منذ هذه اللحظة تبدأ أمجاد دون كيخوتى وخادمه سانشو
مع طرائفها المليحة، وعليهم أن يقنعوا أنفسهم بنسيان ما مضى من فروسيات
الشريف عين الأعيان العبقري، وأن يضعوا أعينهم على فروسياته القادمة، فمنذ
الآن فى الطريق إلى التوبوسو سوف تبدأ كما بدأت فى مروج مونتييل، وليس ما
يطلبه بالكثير مقابل ما يعد به، وهكذا يواصل حكايته:

بقى دون كيخوتى وسانشو وحدهما، ومجرد أن انفصل عنهما شمشون بدأ
روثينانتى فى الصهيل، والحمار فى الشهيق والنهيق، وفيما بينهما، فارس وخادم،
أخذوا ذلك باعتبارها إشارة حسنة، وقال خير عميم، وإذا كان ينبغى أن يحكى الحق،
فإن شهيق الحمار الأعلى من صهيل روثينانتى المسكين، هو الذى دفع سانشو أن
يخمن أن حظه سوف يغطى على حظ سيده ويعلوه، بانبا ذلك على تتجيم قدرى
كان يعرفه، مع أن القصة لا توضحه؛ فقط سمعوه يقول إنه عندما يتعثر أو يسقط،
يبهجه أن ذلك يحول بينه وبين الخروج من البيت، حيث لن ينال منه غير حذاء
ممزق، او ضلوع مهشمة، ومهما كان (عبيطاً)، فلن يخرج مع هذه الإشارة إلى
الطريق خارج بيته. قال دون كيخوتى:

- سانشو، أيها الصديق، الليل يدخل علينا مع حث السير، ومع ظلام أكشف، لن يتاح رؤية التوبوسو على ضوء النهار إلا مروراً بهذا الليل، فتلك المدينة هي وجهتي المقررة قبل الدخول في أى مغامرة، وهناك سأحصل على مباركة وإذن التي لا نظير لها دولثينيا، و بهذا الإذن الميمون أفكر وأثق في إنجاز وتحقيق ذروة سعيدة لكل مغامرة خطيرة، لأنه لا شيء في الحياة يقوى الفارس المشاء أكثر من رؤية نفسه يتلقى إنعامات سيده عليه.

أجاب سانشو:

- هذا ما أعتقد؛ لكنى أرى صعوبة أن تستطيع فخامتكم التكلم معها، أو رؤيتها، أو حتى تستطيع جزئياً، على الأقل استقبال إنعاماتها، إذا لم تلقها إليك عبر سور الحظيرة، حيث رأيتها أول مرة، عندما حملت إليها الخطاب الذى كان يحمل أخبار الحماقات والأفعال المجنونة التي بقيت فخامتكم تقوم بها في قلب جبال سيرامورينا.

قال دون كيخوتى:

- هل كانت تلك حسب وهمك أسوار حظيرة حيث رأيت تلك التي لا يستوفيتها مطلقاً أى مديح لظرفها وحسنها؟ ما كان ينبغي أن تكون إلا قاعات أو ممرات أو أروقة أو كما تسميها، لقصور منيفة وملكية.

أجاب سانشو:

- كل شيء في إمكان أن كان ، لكن بدت لى أسوار حظيرة، إذا لم تخنى الذاكرة.

رد على ذلك دون كيخوتى:

- ومع كل هذا، فلنذهب إلى هناك، فحيث أراها تتساوى عندى الأسوار أو النوافذ، أو فجوات في الجدار، أو قضبان سياج حديقة، فأى شعاع من شمس

جمالها يصل إلى عيني، سوف يضيء فؤادي، ويقوّي قلبي، حتى أصبح الأوحـد
إلهاماً وقوة.

أجاب سانشو :

– في الحقيقة ياسيدي، عندما رأيت شمس السيدة دولثينيا دل توبوسو تلسك، لم
تكن مشرقة إلى حد بث أي شعاع، ولا بد أنه كان بسبب أن سعادتها كانت
تغربل القمح، ذاك الذي سبق وذكرته لك، حتى إن السحابات التي
أخرجتها من غباره الكثيف غطت على وجهها، وأظلمته.

قال دون كيخوتي:

– حتى الآن تصر، سانشو، في القول والفكر والاعتقاد والعناد أن سيدتي
دولثينيا كانت تغربل القمح، مع كون ذلك من فعل وضرورات تصل عما
يجب أن يفعله الأشخاص أولاد العز والجاه، الذين تم تكوينهم وادخارهم
لأفعال وتسال تكشف على مرمى البصر عن عزهم وجاههم. إنك تسيء
تذكر، أوه سانشو! تلك الأشعار لشاعرنا^(*) حيث يرسم لنا الأعمال التي
تمارسها في منازلهن الزجاجية العرائس الأربع، اللاتي أخرجن رءوسهن من
فهر التاخو المحبوب، وجلسن يعملن في المرج الأخضر تلك الأنسجة البديعة،
التي يصفها لنا هناك الشاعر العبقري، والتي كانت كلها من الذهب
والإستبرق، ولآلي منصودة ومنسوجة. وبهذه الطريقة كان ينبغي أن يكون
ما رأيت من عمل سيدتي حين رأيتها، لكننا الحسد الذي يوغر صدر أحد
السحرة الشريرين لا بد وأن بدّل وحوّر كل أشياء التي تسرنى إلى صور

(*) غارثيلاسو دي لابيكا.

أخرى مخالفة؛ وهكذا، أخشى عما إذا كان مؤلف قصة أجمادي (المطبوعة والمتداولة بين الناس) ساحراً من أعدائي، وقد وضع الأشياء بعضها مكان بعضها، خالطاً الحقيقة بألف أكذوبة، متسللاً بحكي أحداث أخرى خارجة عما يتطلبه سياق قصة حقيقية. أوه، أيها الحسد أصل الشرور اللانهائية العدد، وقرضة الفضائل! كل الشهوات الضارة تجلب معها مما لا أدرى من اللذة، إلا شهوة الحسد، فهي لا تجلب إلا انقباض النفس، والأحقاد، والغيط تلو الغيط.

أجاب سانشو:

— هذا ما أقوله أنا أيضاً، وأظن أنه في تلك الأسطورة أو القصة (التي حدثنا عنها كارأسكو حامل البكالوريا، والتي رآها تدور حولنا) يسير شرفي ملطخاً في وحل الخنزير أو مكنوساً به الشوارع هنا وهناك، لا يقر له قرار. مع أنني بصدق لم أقل أي سوء عن أي ساحر، وليس لدى ممتلكات حتى أصبح موضعاً للحسد، وإن كنت شريراً بعض الشيء، وأعيش على حدود كينونة الخبيث، لكن كل ذلك تستره سذاجتي، حيث أؤمن دائماً في يقين ورسوخ بالله، وفي كل ما تراه الكنيسة الكاثوليكية الرومانية وتؤمن به، كما أني عدو فتاك لليهود، ولذا على المؤرخين أن يكونوا رحماء معي، مع حسن معاملتي فيما يكتبون. لكن ليقولوا ما يقولون، فقد ولدت عارياً، وأعيش عارياً، ولن أخسر أو أكسب، حتى لو وجدت نفسي موضوعاً في كتب تجول في العالم من يد إلى يد، ولن يهمني أبداً أن يقولوا عني ما يجوبون.

قال دون كيخوتي:

— هذا يبدو لي، سانشو، شبيهاً بما حدث لشاعر مشهور في عصر من تلك العصور، والذي عند انتهائه من نظم قصيدة هجاء خبيثة ضد كل السيدات

الأرستقراطيات، ولم يضع فيها أو يسمى إحدى السيدات اللائى يتردد الإنسان فى هجائهن، هذه شكت للشاعر، قائلة له ماذا رأى فيها حتى لا يضعها فى عداد الأخريات المهجوات، وأن عليه أن يوسّع قصيدته لتشملها إذا أراد أن يتجنب شرّاً مستطيراً. وهكذا فعل الشاعر، ووضعها فى أسفل سافلين، وبقيت راضية لرؤية نفسها مشهورة، ولو بسوء السمعة. ويتفق مع هذا أيضاً ما يحكونه عن ذلك الراعي الذى أشعل ناراً وأحرق معبد ديانا المشهور، والذى يعد إحدى عجائب الدنيا السبع، و فقط حتى يبقى اسمه فى العصور الآتية محفوراً، مع أنه أوصى ألا يذكر أحد هذا الاسم لفظاً أو كتابة، حتى لا يحقق رغبته، ومع ذلك عرف أنه كان يسمى أروسطراط. وفوق ذلك، يشير إلى نفس القضية، ما حدث للإمبراطور العظيم شارل الخامس مع أحد الفرسان فى روما. لقد أحب الإمبراطور أن يرى ذلك المعبد المشهور الخاص بكل الآلهة، والآن يسمى معبد كل القديسين (وهو لقب أفضل فى القداسة)، وهو المبنى الذى بقى كاملاً مما شيده قوة روما، وهو الذى يحتفظ أكثر بشهرة عظيمة وسمو من شيده، ويأخذ شكل نصف برتقالة بالغة الضخامة حتى المدى، وهو كثير الإضاءة دون دخول نور إليه إلا عبر نافذة، أو بالأحرى، طاقة مستديرة فى ذروته حيث كان ينظر منها الإمبراطور إلى المبنى، وبجانبه الفارس الرومانى المذكور، وكان يشرح له تفاصيل وأسرار هذه العمارة الخالدة، وبمجرد أن أداروا ظهرهم للطاقة قال للإمبراطور: "ألف مرة، يا صاحب الجلالة المقدسة، مرت . لى الرغبة فى أن أحتضنكم، ثم ألقى بنفسى من هذه الطاقة إلى أسفل، حتى أترك شهرتى بين يدى الخلود". أجاب الإمبراطور: "أشكرك لعدم وضعك هذه الفكرة موضع التنفيذ، ومن الآن فصاعداً، لن أعطيك الفرصة للعودة لتجربة ولائك؛

وهكذا آمرك ألا تكلمنى أبداً، وألا توجد حيث أوجد". وبعد انتهائه من هذه الكلمات غمره يانعامه. أحب أن أقول، سانشو، إن الرغبة في اكتساب الشهرة ذات حمية نشيطة بطريقة عظيمة. ماذا تفكر أنت فيما ألقى بهوراسيو من القنطرة إلى القاع، مسلحاً بكل الأسلحة ليستقر في أعماق نهر التيريرى؟ ومن أحرق ذراع ويد موثيو؟ ومن دفع كورثيو إلى إلقاء نفسه في الهاوية العميقة الملتهبة التي ظهرت في وسط روما؟ ومن الذي جعل الروبيكون يعبر إلى يوليوس قيصر رغم كل النبوءات التي أظهرها له ضده؟ وبأمثلة أكثر حداثة، من ثقب السفن، وترك عطاشى ومعزولين أولئك الإسبان الشجعان الذين كان يقودهم شديد التهذيب (كورتس)^(*) في العالم الجديد؟ كل هذه الأعمال البارزة، وغيرها أكبر وأكثر اختلافاً، كانت وتكون وستكون من أفعال الشهرة، التي يبحث عنها القانون باعتبارها جائزة، وباعتبارها شرطاً من الخلود الذي تستحقه أعمالهم المشهورة، على الرغم من أن المسيحيين، كاثوليكاً أو فرساناً مشائين علينا أكثر البحث عن المجد في العصور القادمة، ذلك المجد الأبدى في ملكوت الأثير والسماء، وذلك دون زهو الشهرة في هذا الدهر الحاضر والفانى، فتلك الشهرة مهما عمرت سوف تنتهى بنهاية العالم نفسه، الذى يحمل شارة نهايته، وهكذا، سانشو! فإن أعمالنا لا ينبغي أن تخرج عن حدود الدين المسيحى الذى به نتدين. علينا أن نقتل في المردة الغرورَ والحسدَ، وفي الكرم والصدر الرحب الغضبَ، وفي الهيئة المطمئنة وراحة البال الشراهة والنومَ، وفي الأكل القليل الذى نأكل والسهر الكثير

(*) الكاتب يلعب بالكلمات على طريقة البديع دون مبرر حقيقى سوى الزينة، وإبراز خطابية دون

كيخوتى لأن اسم (كورتس) معناه مهذب cortesismo cortes

الذى نسهر الشهوة والغلمة، وفي الولاء الذى نحفظه لمن جعلناهن سيدات
لأفكارنا الكسل، وبالمشى فى كل أنحاء العالم بحثًا عن الفرص التى تجعلنا
بالإضافة إلى كوننا مسيحيين، فرسانًا مشهورين. انظر فى هذا، سانشو،
الوسائل التى بها يدرك أقصى الشاء، والذى يجلب معه الشهرة الطيبة.
قال سانشو:

- كل ما قلته لى، حتى هنا، قد فهمته جيدًا، لكن مع كل هذا أرجو أن تبدل لى
شكًا، قد ورد على ذاكرتى الآن.

قال دون كيخوتى:

- (تبدد) هذا ما تريد قوله سانشو، قل موفقًا؛ فسوف أجيئك بما أعرف.

واصل سانشو:

- قل لى سيدى: هؤلاء اليوليوسات، والأغسطسات، وكل هؤلاء الفرسان
الأجماد الذين ذكرتهم، هل هم أموات؟ وأين هم الآن؟

أجاب دون كيخوتى:

- الوثنيون دون شك فى النار، والمسيحيون إذا كانوا مسيحيين أتقياء، إما فى
الأعراف أو فى الجنة.

قال سانشو:

- هذا طيب، لكن هل يمكن أن نعرف الآن قبور أجساد هؤلاء الأجماد؟ وهل
أمامها مصباح من الفضة، أو أن مصلى كل منهم حليت جدرانها بالصولجان

والأكفان، والشعر المستعار، وبأرجل وعيون من الشمع؟ وإذا لم تكن محلاة
بهذا، فبأى شىء زينت؟

وعلى هذا أجاب دون كихوتى:

- مقابر الوثنيين كانت فى أغلب الأحيان معابد هائلة، ورماد جسم يوليوس
قيصر وضع فوق هرم من الأحجار فى حجم هائل، ويسمى اليوم فى روما
"مسلة سان بدرو"، وبالنسبة للإمبراطور أدريانوس، استخدمت قلعة كبيرة فى
مساحة قرية كبيرة قبراً له والذى أطلقوا عليها (موليس هادريانى)، وهى الآن
قلعة القديس الملاك بروما، والملكة أرتيميسيا دفنت زوجها فى مقام به قبر يعد
من عجائب الدنيا السبع. لكن أى من هذه القبور لم تزود بأكفان أو قرابين
أخرى أو أى دليل على أن المدفون بها قديس حيث إن كلهم من الوثنيين.

رد سانشو:

- والآن أريد أن أعرف الآن: أيهما أصعب بعث ميت أو قتل مارد؟

قال دون كихوتى:

- الإجابة واضحة: بعث ميت.

قال سانشو:

- والآن أغلب بنقطة. إذن شهرة من يبعث الموتى، ويرد بصر الأعمى، ويصلح
رجل الأعرج، ويشفى المرضى، وتلتهب أمام مدفنه مصابيح من فضة،
ومصلاة مليئة بأناس ورعين راكعين يقدسون رفاته، ستكون شهرته أفضل فى

هذا العصر وكل عصر من شهرة كل إمبراطور شجاع وفارس مشاء ممن وجدوا على ظهر الأرض.

أجاب دون كيخوتى:

- وأيضاً أعترف بهذه الحقيقة.

أجاب سانشو:

- إذن هذه الشهرة والفضل في تجدد، كما يحدث لأجسام وبقايا القديسين، مع موافقة وإذن كنيسةنا الأم المقدسة، ولها مصابيح، وشموع، وأكفان، وصولجان، وصور، وشعر مستعار، وعيون، وأرجل، وبها تزداد التقوى وتعظم الشهرة المسيحية. وأجسام القديسين ورفاقهم، تحملها الملوك على أكتافهم، ويقبلون رميم عظامها، ويزينون ويثرون بهم مصلاهم، ومذابح كنائسهم الثمينة.

قال دون كيخوتى:

- ماذا تريد الوصول إليه، سانشو، بكل ما قلت؟

قال سانشو:

- أحب القول إن علينا التوجه لنكون قديسين، وسنحصل قريباً أكثر على الشهرة الطيبة التي نسعى إليها، ولتعلم يا سيدى أنه بالأمس، أو أول أمس، وطبقاً لما قل مما بقى قوله عن هذه الطريقة، لقد قننوا تقيناً مقدساً أو توجوا اثنين من الرهبان الحفاة قديسين، ويقبلون ويلمسون تبركاً سلسلتى الحديد اللتين بهما كانا يحزمان ويعذبان جسميهما، وهما الآن - حسبما قلت - يلقيان احتراماً أكثر من سيف رودان الذى يوجد فى مخزن أسلحة الملك،

سيدنا، حفظه الله. وهكذا ياسيدى: أن يكون الإنسان راهباً صغيراً متواضعاً أفضل من أى نظام كان من شجاعة أو فروسية مثاءة، والأفضل الخضوع لله في دستة اجتهادات من ألف ضربة رمح، سواء وجهت لمردة أو عفاريت غابات أو بحار.

أجاب دون كيخوتى:

– كل هذا كما تقول، لكننا لن نستطيع جميعاً أن نكون رهباناً، وكثيرة الطرق التى يحمل بها الله أتباعه إلى الجنة: الدين هو الفروسية، وفي الأجماد السماوية هناك فرسان قديسون.

أجاب سانشو:

– نعم، لكنى سمعتهم يقولون بأن هناك فى الجنة رهباناً أكثر من الفرسان المشائين.

أجاب دون كيخوتى:

– هذا صحيح، لأن عدد الرهبان أكبر من عدد الفرسان المشائين.

قال سانشو:

– كثيرون هم المشاءون؟

قال دون كيخوتى:

– كثيرون، لكن قليلاً منهم يستحق لقب الفارس.

مضت ليلتهما فى هذه المحاورات وفى غيرها، وفى اليوم التالى لم يحدث لهما شىء يحكى، وقد أُنقل هذا على دون كيخوتى ليس بالقليل. فى النهاية، يوم

جديد، وعند دخول ليله اكتشفوا المدينة الكبيرة التوبوسو، وعند رؤيتها ابتهجت روح دون كيخوتى، واكتأبت روح سانشو؛ لأنه لم يكن يعرف بيت دولثينيا، بل لم يره طوال حياته، كما لم يره سيده؛ حتى إن أحدهما من أجل أن يراه، والآخر من أجل ألا يراه أصابهما الاضطراب، ولم يعرف سانشو ماذا عليه أن يفعل عندما يرسله سيده للتوبوسو. أخيراً، أمر دون كيخوتى بدخول المدينة عند الليل، وحتى وصول هذه الساعة بقيا داخل غابة من الحور قريبة من التوبوسو، وعند اللحظة المحددة دخلا المدينة، وحدثت لهما أشياء تحمل إلى أشياء.

الفصل التاسع

حيث يحكى فيه ما فيه سوف يرى

كان منتصف الليل عند السيف^(*) أكثر أو أقل قليلاً، عندما ترك دون كيوخوتى وسانشو الغابة، ودخلا إلى التوبوسو. كانت المدينة فى صمت هادئ، لأن كل سكانها كانوا نائمين، ومستريحين بتمديد أرجلهم، كعادتهم فى القول. كان الليل فاتح الظلام، رغم أن سانشو كان يتمنى أن يكون قائم السواد، حتى يغطى بظلامه حماقته. لم يسمع فى أنحاء المدينة سوى نباح الكلاب الذى كان يتوج قلب دون كيوخوتى ويعكر صفو قلب سانشو. ومن وقت لآخر كان ينهق حمار أو يدمدم خنزير أو تموء قطة، هذه وتلك بأصواتها المختلفة التى كانت تزداد علوًا مع صمت الليل، فسرها الفارس العاشق بأنه فأل سوء، ومع كل هذا قال لسانشو:

- سانشو أيها الابن، قدنى إلى قصر دولشينا، ربما أمكن أن نجدها مستيقظة.

قال سانشو:

- إلى أى قصر ينبغى على أن أفودك، فبحق الشمس إنى لم أر عظمتها إلا فى بيت صغير جدا.

أجاب دون كيوخوتى:

- ينبغى أن يكون أحد أقسام قصرها، حيث كانت تتمايح وحدها فى صحبة وصيفاتها، كما هو شائع ومعتاد بين السيدات ذوات المقام الرفيع والأميرات.

(*) بيت شعر من رومانث.

قال سانشو:

- سيدى، فخامتكم تريد على الرغم منى أن يكون بيت سيدتى دولثينيا قلعة، فهل هذه الساعة، بالصدفة، ساعة وجود الباب مفتوحاً؟ وهل من المستحسن طرق الباب الآن فيسمعونا ويفتحوا لنا، واضعين كل الناس فى جلبه واضطراب؟ وهل يصلون ويظرقون ويدخلون فى أى ساعة مهما تأخرت تلك الساعة؟

أجاب دون كيخوتى:

- فلتعثر أولاً فى هدوء على القصر، وساعتها سأقول لك، سانشو، ما يحسن أن نعمله. واعلم، سانشو، إما أننى قليل الرؤية أو أن ذلك الطيف والظل الذى يكشف عن نفسه من هنا يجب أن يشكل قصر دولثينيا.

أجاب سانشو:

- إذن، قدنا فخامتك، فربما يكون كذلك؛ مع أننى حتى لو رأيتُه بعينى، ولمسته بيدي، سوف أعتقد بوجوده اعتقادى أننا الآن بالنهار.

وقاد دون كيخوتى، وبعد السير حوالى مائتى خطوة اصطدم بالشبح الذى كان ينشر الظل، ورأى برجاً عظيماً، وعندها عرف أن ذلك المبنى ليس بالقصر وإنما الكنيسة الرئيسية للبلدة. وقال:

- لقد تعثرنا بالكنيسة، سانشو.

أجاب سانشو:

- أنا أيضاً أراها، واضرع إلى الله ألا نتعثر بقبرنا؛ وليس السير فى المقابر دليل خير فى مثل هذه الساعات، وأكثر، فقد قلت لفخامتكم، إذا لم تخنى الذاكرة، إن بيت السيدة ينبغى أن يكون فى زقاق سد.

قال دون كيخوتى:

- لعنك الله أيها الأحمق! متى كانت عندك القصور والقلاع الملكية تشيد في أزقة مسدودة؟

أجاب سانشو:

- سيدى لكل أرض عادتها، فرما عادة التوبوسو تشيد القصور والمباني العظيمة في أزقة، وهكذا أتوسل إلى فخامتكم أن تتركنى أبحث في تلك الشوارع أو الأزقة التى تقابلنى، ومن الممكن فى أحد الأركان أن نصادف هذا القصر الذى أراه أنا قد فُشسته الكلاب، وهكذا يجذبنا منهكين و مطاردين.

قال دون كيخوتى:

- تكلم، سانشو، باحترام عن أشياء سيدتى، وليمر حفلنا فى سلام، ولا نلقى بكل شىء إذا ضاع منا شىء واحد.

أجاب سانشو:

- سأكبح جموح نفسى، لكن كيف أصبر على إرادة فخامتكم فى أن أعثر على بيت سيدتنا مجرد أنى رأيته مرة واحدة، مع أن فخامتكم لم تعشروا عليه، ومن المفروض أنكم رأيتموه آلاف المرات؟

قال دون كيخوتى:

- أنت سوف تصيبنى باليأس، تعال هنا أيها الضال عن سبيل الله، ألم أقل لك ألف مرة، إنه فى كل أيام حياتى لم أر التى لا نظير لها دولثينيا، ولم أعبر قط عتبات قصرها، وأنى فحسب عشقتها بالسماع، وبالشهرة العظيمة لحسنها وفطنتها؟

أجاب سانشو :

– الآن أسمعك، وأقول إن فخامتكم لم ترها ولا أنا.

رد دون كيخوتي:

– هذا غير ممكن، فأنت على الأقل قلت لى إنك رأيتها تغربل القمح، عندما أحضرت إجابة الخطاب الذى أرسلته إليها معك.

أجاب سانشو :

– لا تقف عند هذا ياسيدى، لأننى أحيطك علمًا أنه أيضًا كان بالسماع الرؤية والإجابة التى أحضرتها لك، لأننى أعرف من تكون السيدة دولثينيا، مثلما تلمس كفى السماء.

أجاب دون كيخوتي:

– سانشو، سانشو، هناك أوقات للمزاح، وهناك أوقات أخرى يصير فيها سيئًا، ومن سقط القول؛ فليس لقولى بأننى لم أر ولم أكلّم سيّدة الروح منى، تقول أنت أيضًا إنك لم تكلمها ولم ترها، مع أن الأمر عكس ذلك كما تعرف.

وبينما الاثنان على هذا الحال من الجدل، رأيا أنه فى سبيله للمرور بهما أحد الناس مع بغلتين، وبسبب الضجة التى يحدثها المحراث مجرورًا على الأرض، حكما عليه بأنه لا بد أن يكون فلاحًا، قد بكر فى الخروج قبل طلوع النهار للذهاب إلى عمله، وكانت تلك هى الحقيقة، وكان الفلاح قادمًا يغنى ذلك الرومانث الذى يرددونه:

لقد كان سوء مآل لكم أيها الفرنسيون

فى وقعة رونسفال تلك.

وعند سماع هذا قال دون كيخوتى:

- فليقتلونى لو يحدث لنا شىء طيب هذه الليلة، ألا تسمع ما يعنيه هذا القروى
قادمًا نحونا؟

أجاب سانشو:

- نعم أسمع، لكن ماذا تصنع لهدفنا عملية صيد رونسفال؟ وهكذا يمكن غناء
رومانث كاليينوس، الأمر واحد بالنسبة لنا، خيرًا تقع الأمور أو شرًا.

هنا وصل الفلاح، والذي سأله دون كيخوتى:

- هل تعرف أن تقول لى، منحكم الله السعد، أين تكون فى هذه النواحي قصور
الأميرة غير ذات النظر دونيا دولثينيا دل توبوسو؟

أجاب الفتى:

- سيدى، أنا غريب، ومنذ أيام قليلة أنا موجود فى هذه البلدة فى خدمة مزارع
غنى فى شغل الحقل، وفى ذلك البيت المتطرف يعيش القسيس والشماس لهذه
البلدة، وكلاهما سيعرف أن يعطيك ما تريده عن تلك السيدة الأميرة، لأنهما لديهما
قائمة كل سكان المدينة، مع أنى أرى أن فى كل أنحاء هذا المكان لا تعيش أية أميرة،
سيدات كثيرات نعم، مهمات، وكل واحدة منهن فى بيتها أميرة.

قال دون كيخوتى:

- إذن، بين هؤلاء السيدات، يا صديقى، هل توجد من سألتك عنها؟

أجاب الصبى:

- من الممكن، ووداعاً، فالفجر قادم.

ودافعا إلى الأمام بغلتيه لم يرد على أسئلة أكثر. سانشو، الذى رأى سيده حائراً وغير راضٍ، قال له:

- سيدى، مع مزيد من السر يطلع النهار، وليس من الصواب أن تعثر علينا الشمس فى الشارع، والأفضل أن نخرج من المدينة، وفخامتكم تكمن فى الغابة القريبة من هنا، وأنا أعود بالنهار، ولن أترك ركنًا فى هذه البلدة دون أن أبحث عن البيت أو القلعة أو القصر الذى تعيش فيه سيدتى، وسأكون تعيشاً بما يكفى إن لم أجده، وعندما أجده سأتكلم مع فخامتها، وسأقول لها أين وكيف تبقى فخامتكم فى انتظارها، حتى تصدر لك أمراً وحيلة لرؤيتها، دون المساس بشرفها وسمعتها.

قال دون كيخوتى:

- لقد قلت ألف حكم اختصرت فى دائرة كلمات قليلة، والنصيحة التى أعطيتها الآن تعجبني، وأستقبلها فى تشوق كبير. تعال، أيها الابن، لنبحث عن مكان أكن فىه، وأنت ستعود كما تقول، للبحث عن سيدتى ورؤيتها والتكلم إليها، التى أنتظر من كياستها ودمائها أكثر من إنعام معجز.

كان سانشو يستشيط شوقاً لإخراج سيده من المدينة، حتى لا يتحرى عن حقيقة كذبة الإجابة التى حملها من طرف دولثينيا إليه فى جبال سييرا مورينا، وهكذا استعجل الخروج، والذى تم فى الحال، وقد وجدا غابة صغيرة على ميلين من المدينة، حيث كمن دون كيخوتى خلال عودة سانشو إلى المدينة للتكلم مع دولثينيا، وفى سفارته هذه حدثت أشياء تتطلب عناية جديدة، ومصداقية مستحدثة.

الفصل العاشر

حيث تحكى الحيلة التى حاكها سانشو لسحر السيدة دولثينيا وأحداث أخرى، مثل ما هى حقيقية هى سخيفة

عندما وصل مؤلف هذه القصة إلى حكى ما يحكيه فى هذا الفصل، يقول إنه وَدَّ أن تمر أحداثه فى صمت دون أن يحكيها، خوفاً من ألا تصدق، لأن جنون دون كيوخوتى تجاوز نهاية الجنون الأكبر الذى يمكن تخيله بشرطة، بل مرتين قدر مدى السهم فيما وراء الجنون الأكبر. وأخيراً، رغم هذا الخوف وذلك المحذور، كتب ذلك الجنون بنفس الطريقة التى ارتكبه بها، دون أن يضيف إلى القصة أو يحذف ولو ذرة واحدة من الحقيقة، و دون أن يهتم بأن ينظر إليه مثل الكذاب، وكان معه حق، لأن الحقيقة قد تنقص الوزن، لكنها لا تهشم العظم، ودائماً تمضى فوق الكذب كما يطفو الزيت فوق الماء. وهكذا، واصل قصته ويقول:

—وهكذا كمن دون كيوخوتى فى غابة البلوط قرب توبوسو الكبرى، وأمر سانشو أن يعود للمدينة، وألا يرجع إليه حتى يكون تكلم على لسانه لسيدته، طالباً منها —حفظها الله— أن تترك فارسها الأسير يراها، حتى تباركه فينتظر وقائع عظيمة السعادة لكل أحداث حياته، ومهامها الصعبة، وتعهده سانشو أن يفعل ما أمره به، وأن يحضر له إجابة طيبة للغاية كما أحضر له الإجابة الأولى.

وعلق على ذلك دون كيخوتي:

- اذهب، أيها الابن، ولا تنزعج عندما ترى نفسك أمام نور شمس الجمال، التي سوف تضيء للبحث عنه. وما أسعدك أكثر من كل خدم فرسان العالم! و اشحن ذاكرتك، ولا يفوتك شيء عن كيفية استقبالها لك، وعمّا إذا كانت سفارتك لي عندها تغير الألوان، وعمّا إذا كانت يفارقها الهدوء، ويلازمها الانزعاج عند سماع اسمي، وعمّا إذا كان لا ينساب إبداء الرضا، وعمّا إذا كنت ستجدها جالسة على عرش سلطتها، وعمّا إذا كانت واقفة على قدم، هل تريخ رجلاً وتثنى الأخرى، وعمّا إذا كانت تكرر لك إجابة مرتين أو ثلاثاً، و إذا كانت تتغير من اللين إلى الشدة، أو من الجفاء إلى الود، وعمّا إذا كانت ترفع يدها إلى شعرها لتنسيقه، حتى لو كان منسقاً؛ أخيراً، أيها الابن، تأمل في كل أفعالها وحركاتها، لأنك لو رسمتها لي كما وقعت، سوف أستخرج منها ما هو محبباً في مكنون أسرار قلبها، فيما يتعلق بواقع غرامياتي لها. وعليك أن تعرف، سانشو، إذا لم تكن تعرف، أنه بين المحبين الأفعال والحركات الخارجية التي يظهرون، عندما تكون متعلقة بعشقتهم، هي يريد أكيد يستجلب أخبار ما هو أبعد مما يمر بالخاطر. اذهب، أيها الصديق، وليرشدك حظ أسعد من حظي، ولتعد بوقائع أفضل مما أبقى خائفاً من انتظاره، مترقباً في هذه الوحدة المريرة التي تتركني فيها.

قال سانشو:

- سأذهب، وأعود حالاً، وفخامتكم كن في مجبوحة بعيداً عن هذه الهاجسة التي تمر بك الآن، وهي ليست أكبر من بندقة، واعتبر مما اعتادوا قوله من أن قلباً منبسّطاً يكسر سوء الحظ، وحيث لا يوجد شحم الخنزير لا يوجد سواك، وأيضاً يقال: ومن حيث لا يحظر على البال، يظهر الأرنب البري قافراً (أمام الصياد). أقول هذا لأننا في الليلة المنقضية إذا كنا لم نجد قصور سيدتي أو

قلاعها، فالآن نحن بالنهار، وأفكر في العثور عليها من حيث لا أدري، وعند ذلك دعوني وشأكما.

قال دون كيخوتى:

- من الأكيد، سانشو، أنك دائماً تستحضر أمثالك غير ذات البال فيما نعالجه من أن يعطيني الله حظاً أوفر حول تحقيق رغباتي.

وعند قوله هذا، أدار سانشو ظهره، وألهب حماره بعصاه، وبقي دون كيخوتى راكباً مستريحاً فى الركاب متكئاً على رمح، مليئاً بالأحزان والخيالات الحائرة، حيث سوف نتركه، ذاهبين مع سانشو بانثا، والذي لم يكن أقل حيرة وفكراً من سيده؛ وبمجرد خروجه من الغابة، أدار رأسه ورأى دون كيخوتى قد اختفى عن ناظره، نزل عن حماره، وجلس عند جذع شجرة، وبدأ يكلم نفسه ويقول لها:

- نعرف الآن، أيها الأخ سانشو، أين تتجه فخامتك. هل تذهب للبحث عن حمار فقدته؟

- لا، بالتأكيد.

- إذن، تذهب للبحث عن ماذا؟

- أذهب للبحث، كما لم يقل أحد شيئاً، عن أميرة، وتبحث فيها عن شمس الجمال، والسماوات السبع.

- وأين ستجد كل هذا الذى تقوله سانشو؟

- إلى أين؟ فى المدينة الكبرى دل توبوسو.

- هذا طيب، من طرف من أنت ذاهب للبحث؟

- من طرف الفارس المشهور دون كيخوتى دى لامانشا، الذى يزيل العنت، ويعطى الطعام للعطاشى، والشراب للجوعى.

- كل هذا طيب جدا وهل تعرف بيتها، سانشو؟
 - سيدى يقول يجب أن تكون قصورًا ملكية، أو بعض القلاع الشامخة.
 - وهل رأيتها في أحد الأيام، ولو بالصدفة؟
 - لا أنا، ولا سيدى، قد رأيناها قط.
 - وهل يبدو لكما مصيياً، ومن حسن الفعل إذا عرف أهل التوبوسو أنكما تمضيان بنية مرافقة أميرآقا ومخاللتهن، ومضايقة سيداتهما، وجاءوا، وطحنوكما طحناً يهشم العضلات، بعضى نقية، ولم يتركوا بكما عظمة سليمة؟
 - في الحقيقة سيكون عندهم الحق، عندما لا يعتبروننى مجرد رسول وأن:
- أنت رسول أيها الصديق
- فلا تستحق الذنب والضيق
- لا تتق في هذا، سانشو، لأن أهل لامانشا عندهم حمية شديدة بنفس قدر ما عندهم من شرف، ولا تسامح في أن يلمسهم أحد ولو على سبيل الدغدغة أو المزاح. وليحيا الله إذا اشتموا رائحة شيء، ثق في سوء الحظ.
 - بخ بخ، أيها المومس! أبعد الله عنك الشر وأصاب به عدوك! وليس الأمر إلا البحث عن ثلاثة أرجل للقط من أجل عيون الغير! وأكثر، فالبحث عن دولثينيا في التوبوسو مثل البحث عن مآفون في راينا أو جامعى في سلمنقة^(*). الشيطان هو الذى ورطنى في هذا، وليس غيره.

(*) رابينا Rabena مشهورة بكثرة المآفونين واللواط، وسلمنقة بكثرة الجامعيين، ويعنى أن هناك ألف امرأة يمكن أن تصدق عليها خصائص الاسم المخترع (دولثينيا). أما وصف لامانشا بالغيرة والشرف فلأن مدينة التوبوسو من بلاد لامانشا.

هذا الحوار مع النفس قام به سانشو مع ذاته، والذي استخرجه منه جعله

يعود للقول لنفسه:

- والآن هذا طيب، كل الأشياء لها علاج، إلا الموت، الذى سوف نخضع لنيره جميعًا، وما أسوأ أن يتقل علينا انتهاء الحياة. هذا الذى هو، سيدى، وبألف دليل وإشارة، قد رأيت أنه مجنون العقل، وحتى أنا أيضًا لست متأخرًا عنه فى هذا، حيث أنا أكثر اختلالاً منه، مادمت أتبعه وأخدمه، وإذا كان صحيحًا المثل الذى يقول: "قل لى عمن تصحب، أقل لك من أنت". والآخر: "لست مع من ولد معك، لكن مع من ترعى معه". وحال كونه مجنونًا، وهو بالفعل مجنون يأخذ أحيانًا بعض الأشياء على أنها أشياء أخرى، ويحكم على الأبيض أنه أسود، وعلى الأسود أنه أبيض، كما حدث له وقال إن طواحين الرياح عبارة عن مردة، وعلى بغال رجال الدين بأنها خيول، وعلى قطعان الغنم بأنها جيوش متعادية، وأشياء كثيرة على هذه النغمة سارت، من ثم فلن يكون صعبًا للغاية جعله يعتقد أن إحدى الفلاحات، والأولى التى سوف يتصادف مرورها من هنا، هى السيدة دولثينيا، وعندما لا يصدق سوف أحلف له، وإذا حلف هو سأعود أنا لأحلف من جديد، وإن عاند فسوف أعانده أكثر، بطريقة تجعلنى أتشبث برأى دون تراجع طول الوقت، وليحدث ما يحدث. وربما بهذا العناد أصل إلى أن أحول بينه وبين عودته لإرسالى فى مثل هذه المهام، رائيًا الجواب السيئ الذى تنتهى به، وربما يفكر، كما أتصور، فى أن أحد السحرة الشريرين (الذين يقول عنهم إنهم يجبون إيقاع الأذى به) قد حول صورتها ومسحها حتى يسبب له حزنًا وألمًا.

عندما فكر سانشو في هذا بقى هادئاً هدوءاً شمل كل جوانب نفسه، واعتبر أن مهمته قد انتهت أفضل نهاية، متوقفاً مترقباً هناك حتى المساء، كى يقنع دون كيخوتى أنه ذهب إلى التوبوسو وعاد خلال ذلك الوقت، ووقعت له الأمور موقعاً طيباً، حتى إنه عندما نهض لركوب الحمار، رأى ثلاث فلاحات يقدمن من التوبوسو فى اتجاهه يمتطين ثلاثة حمير أو ثلاث حمارات (حيث لم يوضح المؤلف الجنس، مع احتمال أكبر للظن أنها كانت إناثاً، لكون الركوبة المعتادة للفلاحة هى الحمارة، ولأن الأمر لا علاقة له كبيرة مع سير القصة، فلن نتوقف للتحرى عنه بدقة). وباختصار، كما أن سانشو رأى الفلاحات فى مرورهن العابر عاد للبحث عن سيده دون كيخوتى، ووجده يتنهد، وقائلاً ألف بكائية غرامية، ومجرد أن رآه دون كيخوتى قال له:

- ماذا لديك، سانشو، أيها الصديق؟ هل نعلم هذا اليوم بصخرة بيضاء أو سوداء؟

قال سانشو:

- بل الأمر أفضل، فخخامتك يمكن أن تعلمه بألوان البهجة ولافتات النصر، حيث يشتقن كثيراً إليك من سوف يرينك.

أجاب دون كيخوتى:

- بهذا تأتى إلى بأخبار طيبة.

أجاب سانشو:

- طيبة إلى حد أن ليس على فخخامتك أن تفعل أكثر من حث روئيناتى، والخروج إلى فضاء الطريق لترى السيدة دولثينيا دل توبوسو، التى تقدم لرؤية فخخامتكم مع صبيتين وصيفتين.

قال دون كيخوتى:

- يا إلهى القدوس! ماذا تقول، سانشو، أيها الصديق؟ لا تخدعنى، إن لم تكن فحسب تحب إهراج أحزاني الحقيقية بهجة مزيفة.

أجاب سانشو:

- ماذا يعود علىّ بالفائدة من خداع فخامتكم، وخاصة أنك أقرب ما تكون لكشف ما أتيتك به من حقيقة. انخر روثنانتى، وتعال، سوف ترى قدوم الأميرة سيدتنا فى أبهى الملابس والزينة، فى النهاية، تقدّم بما ينبغى أن تكون عليه الأميرات. وصيفتاها وهى معهما ثلاثهن مثل هالة مضيئة من الذهب، وكلهن أكؤس من اللؤلؤ، وكلهن من الماس، وكلهن من اليواقيت، وكلهن من الدمقس والإسترق، وقد أثقلهن بريق خيوط الذهب والفضة، والشعر ينساب على ظهورهن، وهو من شعاع الشمس مغزول، ويمضى ملاحبًا الريح، وفوق كل هذا يأتين فوق أمهرات نبيلات مزينات بما يليق بمطايبا الأميرات، وليس هناك ما هو أجمل لمراى البصر.

قال دون كيخوتى:

- تريد أن تقول، سانشو (مهرات)، وليس أمهرات.

قال سانشو:

- ما أقل الفرق بين (مهرات) و(أمهرات)، لكنهن يأتين ممتطيات ما يمتطين، ويأتين كأرشق ما ترغب العين من سيدات، وخاصة الأميرة دولثينيا، سيدتى، التى تذهل كل الحواس.

أجاب دون كيخوتى:

- هيا، سانشو، أيها الابن، ومع هذه البشرى، غير المتوقعة من الأخبار الطيبة سأمرك بأفضل غيمة سوف أكسبها فى أول مغامرة أقع عليها، وإذا كان

هذا لا يرضيك، سآمر لك بالثلاث مهرات التي سوف تلدها الأفراس
الثلاث هذا العام، والتي تعرف أنني قد تركتها للولادة في مرج مجلس قريتنا.

قال سانشو:

- أكتفى بالمهرات الثلاث، لأنه ليس من المؤكد كثيرًا أن تكون طيبة غنائم أول
مغامرة.

وبينما هما في هذا خرجا من الغابة قريبًا من القرويات، مدّ دون كيخوتي
بصره على مدى الطريق نحو التوبوسو، وكما لم ير سوى القرويات الثلاث
قرويات، تعكر صفو كل شيء عنده، وسأل سانشو عما إذا كان قد تركهن وراءه
وقد خرجن من المدينة؛ أجاب سانشو:

- كيف خارج المدينة؟ وهل بالصدفة لا توجد عيونك في محاجرهما، حتى لا ترى
أفهن هؤلاء اللاتي يقدمن نحونا هنا، في بريق مثل الشمس نفسها في رابعة
النهار؟

قال دون كيخوتي:

- أنا لا أرى، سانشو، سوى ثلاث قرويات يركبن ثلاثة حمير.

أجاب سانشو:

- الآن، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم! كيف يمكن أن تبدو ثلاث مهرات، أو
لا أدرى كما تسمى، في نصاعة الثلج، لفخامتكم وكأنها ثلاثة حمير؟ وليحيا
الرب، ولأنتف شعرات تلك اللحية إذا ما كان ذلك غير الحقيقة!

قال دون كيخوتي:

- ومع ذلك، أقول لك، سانشو صديقي، إن ما أرى ثلاثة حمير أو ثلاث حمارات
وأن ذلك حقيقي مثلما أنا دون كيخوتي، وأنت سانشو بانثا، أو على الأقل
هكذا تبدو لي الحمير.

قال سانشو:

- تفضل بالسكوت، سيدى لا تقل مثل هذا الكلام، فقط برش عيونك، وهيا لتقديم فروض التبجيل لسيدة أفكارك، والتي تقترب.

وعند قوله هذا، تقدم لاستقبال القرويات الثلاث، وهبط عن حماره، وأمسك بشكيمة حمار واحدة من الفلاحات، وراكعًا على ركبتيه فوق الأرض، قال:

- يا ملكة الجمال وأميرته ودوقته، بوركت سموك وعظمتك لاستقبال فارسك الأسير بفيض ظرفك وبهائك، ذلك الفارس الذى صار هناك حجرًا من المرمر، كامل الاضطراب ومتوقف النبض، حين رأى نفسه أمام حضورك الفخيم. وأنا سانشو بانثا خادمه، وهو الفارس المنك دون كيخوتى دى لامانشا، ويطلقون عليه اسمًا آخر هو الفارس صاحب الصورة الحزينة.

فى هذه اللحظة وضع دون كيخوتى نفسه راعًا بجوار سانشو، وكان ينظر بعيون ممزقة ونظرات مضطربة، إلى من كان يسميها سانشو ملكة وأميرة، ولم يكن يرى فيها إلا صبية قروية، وبوجه ليس طيب المرأى، لأنه كان مستديرًا بأنف مقلطحة، وهكذا ظل حائرًا ومندهلاً، دون أن يجرؤ على فتح شفتيه. والفلاحات كن مبهوتات عند رؤية هذين الرجلين الشاذين فى مظهرهما راعين على الأرض، ويحولان دون تقدم ثالثتهن فى الطريق، لكن هذه فجرت الصمت فى تقل دم وغضب، وقالت:

- ابتعدا، بس الساعة مرآكما، ودعاني أمر فحن على عجل.

وعلى هذا أجاب سانشو:

- أوه، أيتها الأميرة، والسيدة الأولى فى التوبوسو! كيف لا يرق قلبكم العظيم عند رؤية عمود الفروسية المشاءة وسندها راعيًا أمام حضرتكم الفخيمة؟

وعند سماع واحدة من الاثنتين الآخرين لهذا قالت:

- لكن، أى نعيم يدغدغك، (ياحمارة حمايا!). انظروا بماذا يأتي هؤلاء السادة
فتيان العلاء للسخرية من القرويات، كما لو كنا هنا لانعرف أيضاً المسخرة
- مثلهم! اذهبا في طريقكما واتركانا لشأننا، وهذا سيكون الأفضل لكما.

قال دون كيخوتى عند هذا:

- أهض، سانشو؛ فإننى أرى أن إلهة الحظ لا تشبع من إيدائى، وتسد كل الطرق
التي قد يأتي منها السرور لهذه النفس المسكينة التي أودعت بين جنبيّ.
وأنت، أوه، قمة النعيم المرغوب، ونهاية الرقة الإنسانية، والعلاج الوحيد لهذا
القلب الضعيف الذي يعبدك!، لقد انتهى، فإن الساحر الشرير يطاردنى،
ويضع سحبات من المياه القاطرة تغشى بصرى، الذي فقط هو، دون كل
البصر، يراك وقد تغير وتحول جمالك الفريد ووجهك إلى وجه فلاحه فقيرة، إذا
لم يكن وجهي أيضاً قد تحول بالنسبة إليك إلى وجه عفريت حتى يصير كريها
أمام بصرك، وحتى لا تنظرى إلىّ في رقة وحب، بينما استوحش بهذا الخضوع
والركوع صورتك الأخرى للحسن، مقدماً لها ذلتي مع روحى التي تعبدك.

أجابت القروية:

- يا أبته، النجدة! النجدة! يا صاحبتى إنى أسمع غزلاً! ابتعدا، ودعانا نمر،
وسنكون لكما شاكرات.

ابتعد سانشو وتركها تذهب، وقد بلغ به السرور مداه لنجاح خدعته وتدبيره.
وما إن رأت القروية التي مثلت صورة دولثينيا نفسها حرة، حتى غمرت (أمهرتها)
بإبرة فى سن عصا تحملها، فانطلقت ترمح فى المرح أمامها. وكما أن الحمارة
كانت تحس بسن الإبرة، والذي كان يزعجها أكثر من المعتاد، فإنها بدأت تتوثب

حتى. أَلقت بالسيدة دولثينيا على الأرض. وهذا عندما رآه دون كِيخوتي، هرع لإنهاضها، وسانشو لوضع البردعة وعدلها، والتي كانت قد سقطت على كرش الحمار. وعندما تم تعديل وضع البردعة، وأراد دون كِيخوتي إنهاض سيده المسحورة بين ذراعيه لوضعها على الحمار، حررته السيدة من هذا الجهد عند وقوفها، حيث تحركت مسافة إلى الخلف، وقفزت في الهواء واضعة يديها على فخذى الحمار وألقت بجسمها، أخف من صقر، فوق البردعة، مفرشة رجليها، كما لو كانت رجلاً، وهنا قال سانشو:

- فليحيا روكي، فإن سيدتنا أخف من طائر القطا، وتستطيع تعليم أقوى فارس قرطبي أو مكسيكي الوثوب على الجواد الطائر؛ لقد صارت فوق مؤخرة السرج بوثة واحدة، وجعلت المهرة ترمح دون مهاميز كما لو كانت حماراً وحشياً، ومثلها وصيفتاها فهما لم يتأخرا عنها، وجميعهن يجربن في سرعة الريح.

وكان هذا هو عين الحقيقة، فالقروبتان الأخريان بمجرد أن رأتا دولثينيا وقد ركبت حمارتها غمزا حمارتيهما خلفها، واندفعن في الرّمح، دون أن يدرن الرأس للخلف إلا بعد أن قطعن نصف فرسخ. تابعن دون كِيخوتي ببصره، وعندما رأى اختفاءهن عن نظره، انفتت إلى سانشو، وقال:

- سانشو، ماذا يبدو لك مدى ما يلحق بي من السحرة؟ وانظر إلى أي حد تبلغ شرورهم، وحسد هم عليّ، فقد أحبوا حرمانى من السرور الذى يمكن أن تمنحه لى سيدتى. وبالفعل فقد ولدت لأكون مثلاً للمنكوبين، ولكى أكون هدفاً ومسرّحاً حيث ينظرون ويصوبون نحوى سهام الحظ السيئ. وعليك أيضاً أن تعلم، سانشو، أن هؤلاء الخونة لم يكتفوا بتحويل سيدتى دولثينيا

وتغيرها، وإنما في صورة شديدة الانحطاط والقبح، مثل تلك القروية، وعلى وجه التحديد سحبا منها ما هو ملك لها من خصائص السيدات العظيمات، وهو الرائحة الحلوة بسبب أنها تعيش في جو من العنبر والزهور. لأني أود أن أعرفك، سانشو، أنه عندما اقتربت لإنهاض السيدة دولثينيا ووضعها على مهرقها (طبقاً لما تقول أنت، فبالنسبة لي كانت حمارة) هبت عليّ رائحة الثوم النبي، مما حرز في نفسي وأغاظها.

وفي هذه اللحظة صاح سانشو:

- يا للسفالة! يا للسخرة الملاعين سيئي النية، والذين أدعو أن أراهم وقد انتظموا من خياشيمهم في حبل من الخوص مثل مشكاك سردين. أنتم تعرفون الكثير، وتستطيعون الكثير، وتعلمون الكثير. ينبغي أن تتوقفوا، أيها الأشرار، لقد حولتم لآئي عيون سيدتي إلى خياشيم فلينية، وشعرها ذا الذهب الخالص إلى شعرات ذيل عجل غليظة ذات لون أحمر طوبي، وأخيراً، كل ملامحها من الحسن إلى القبح، دون أن تنسوا حتى الرائحة، التي كان من الممكن أن نستنتج من عطرها ما تحت تلك القشرة القبيحة مغطى من حسن؛ مع أننا حتى نقول الحق، أنا لم أر قبحها قط، اللهم إلا حسنها، الذي ارتفع به إلى الذروة. خال كان يأخذ على يمين شفتها العليا شكل الشنب، بسبع شعرات أو ثمان شقر، كخيوط من ذهب، وبطول يتجاوز الشبر.

قال دون كيخوتي:

- بالنسبة لهذا الخال، فإن التناسب بين الوجه والجسم ينبغي أن يفرض على دولثينيا خالاً آخر على صفحة الفخذ في نفس جانب خال الوجه، لكن تلك الشعرات طويلة بالنسبة لخال، من ثم، هي شعرات العظمة، هذا ما عانيت بقولك.

أجاب سانشو:

– أنا أعرف أن أقول لفخامتكم إن تلك الشعرات قد بدت كما لو كانت وليدة.

رد على هذا دون كيخوتى:

– هذا ما أظنه، لأن لا شيء لم تضعه الطبيعة في دولثينيا دون أن يكون كاملاً، وجيد التشطيب، وهكذا لو كان لها مئة خال، فلن تكون إلا أقماراً ونجوماً مشرقة، لكن قل لى، سانشو، ذلك الشيء الذى بدا لى بردعة كان سرج فارس أم مقعد هودج؟

أجاب سانشو:

– لم يكن إلا سرج فارس، غطاؤه يساوى نصف مملكة، متناسباً مع ثرائها.

قال دون كيخوتى:

– لأى سبب لم أر كل هذا، سانشو! والآن أعود للقول، وسأقول ألف مرة، إبنى أكثر الرجال تعاسة.

كان سانشو الداهية يبذل مجهوداً متخماً حتى يتجنب الضحك، مستمعاً إلى سفاسف سيده، التى كانت تحت خداع دقيق، وأخيراً، بعد عبارات أخرى كثيرة مرت بين الاثنين، عادا لامتطاء دابتيهما، وواصلا الطريق نحو سرقسطة، حيث فكرا فى الوصول فى الوقت المناسب، كى يستطيعا الحضور فى بعض حفلات الفروسية التى تعوداً على إقامتها بهذه المدينة المقصودة. لكن قبل وصولهما إلى هناك حدثت لهما أشياء، كثيرة وجلييلة وجديدة، تستحق أن تكتب وتقرأ، كما سنرى فى الفصل التالى.

الفصل الحادى عشر

عن المغامرة الغريبة التى حدثت لدون كيخوتى الشجاع مع قفص أو عربة بلاط الموت

متفكرًا أكثر من اللازم مضى دون كيخوتى فى طريقه إلى الأمام متأملًا المزحة الشريرة التى لعبها معه السحرة، محولين سيدهته دولثينيا إلى الصورة القبيحة للقروية، ولم يكن يتصور أى طريقة يتبع لإعادتها إلى كينونتها الأولى، وهذه الأفكار أخرجته من نفسه إلى فراغ، حتى إنه ودون أن يحس، أطلق عنان روثنانتى، والذى عندما أحس بالحرية، كان يتوقف فى كل خطوة ليرتعى الحشائش الخضراء لهذه المروج المزدهرة. وقد أخرجته من فتنة عقله سانشو بانثا قائلاً:

- سيدى، الأحران لم تخلق للدواب، وإنما للرجال، لكن الرجال إذا أحسوا بها أكثر من اللازم، يتحولون إلى دواب، فاكبح جماح نفسك، وتنبه، وأمسك بعنان روثنانتى، وعد إلى حيويتك واستيقظ، وأظهر تلك الشجاعة المناسبة التى يمتلكها الفرسان المشاءون. أى شياطين ذاك؟ وأى أهيار هذا؟ أنحن هنا أم بفرنسا؟ ليحمل الشيطان كل دولثينيا فى هذا العالم، حيث تساوى صحة فارس مشاء واحد أكثر مما يساوى كل تحول وسحر على وجه الأرض.

أجاب دون كيخوتى فلم يكن بالغ الإغماء:

- اسكت، سانشو، أقول اسكت، لا تنطق بإهانات ضد تلك السيدة المسحورة؛ فأنا وحدى مسئول عن نكبتها وسوء حظها، فبسبب الحسد الذى يكنه لى الشريرون ولد مصيرها السيئ.

أجاب سانشو:

- هذا ما أقوله أنا، فمن رآها ثم يراها الآن، أى قلب لا يبكي؟

رد دون كيخوتى:

- هذا، سانشو، ما تحسن عن غيرك قوله، فلقد رأيتها في كمال حسنها، حتى إن السحر لم يمتد إلى تعكير بصرك، أو تغطية جمالها دونك، فقط دونى ودون عيني تكتمل في عملها قوة سمومه. لكن، مع كل هذا، وقعت، سانشو، على شيء، وهو أنك رسمت لى جمالها بشكل سيئ، حيث، إن لم تخنى الذاكرة، قد قلت لى بأن عيونها من لؤلؤ، والعيون التى تشبه اللؤلؤ هى لأسماك المرجان وليس للسيدات، وعلى حسب اعتقادى، فإن عيون دولثينيا يجب أن تكون من زمرد أخضر، متسعة، مع قوسين سماويين يعملان كحاجبين، أما هذه اللآلى فاسحبها من العينين، وحوها إلى الأسنان، فدون شك قد اختلط عليك القول، سانشو، مستبدلاً بالأسنان العينين.

قال سانشو:

- كل شيء ممكن، لأنه أيضاً عكر نظرى جمالها كما عكر نظرك قبجها، لكن فلنترك الأمر كله لله؛ فهو العالم بالأشياء المكتوب حدوثها في وادى الدموع هذا، وفي هذا العالم السيئ الذى نعيش فيه، حيث لا يوجد شيء دون أن يختلط به الشر، والخبث، والخذية. وشيء يثقل على، يا سيدى، أكثر من أى شيء آخر: هو التفكير فى أى إجراء ستخذ عندما تهزم فخامتكم مارداً أو فارساً آخر، وترسله للذهاب للمثول أمام حسن السيدة دولثينيا، أين عليه أن يجدها ذلك المارد المسكين أو هذا الفارس البائس المهزوم؟ يسدو لى

كأني أراهم وقد تحولوا إلى دمي رجال مسلحين، يبحثون عن سيدتي دولثينيا، لا يتعرفون عليها حتى لو رأوها في منتصف الشارع أكثر من تعرفهم على المرحوم أبي.

أجاب دون كيخوتي:

- ربما، سانشو، لن يمتد السحر إلى الحرمان من التعرف على دولثينيا من جانب الفرسان والمردة المهزومين المائلين أمامها، ومع واحد أو اثنين من أول المهزومين، نجرى تجربة بإرسال المهزوم إليها، وإصدار أمر إليه بالعودة وتقديم تقرير لي عما يكون قد حدث له.

رد سانشو:

- وأنا أقول بأنه يبدو لي أمر طيب ما قلته فخامتكم، وبهذه الحيلة سوف نعرف ما نرغب في معرفته، فإذا كانت تخفي فقط رؤيتها على فخامتكم ستكون النكبة أكبر لفخامتكم منها للسيدة، لكن مادامت السيدة دولثينيا بصحة وسرور، نحن هنا نتصالح مع أنفسنا ونمضي الوقت بأفضل ما نستطيع، باحثين عن مغامراتنا، تاركين للزمن أن يقوم بعمله، فهو خير طبيب لهذه ولغيرها من أعظم الأمراض.

أراد دون كيخوتي أن يجيب سانشو بانثا، لكن منعه ظهور عربة قادمة من الاتجاه المضاد للطريق، ومشحونة بشخوص وتصاوير بأكثر ما يمكن تخيله من التعدد والغرابة، أما الذي كان يقود البغال ويعمل حوزياً فقد كان شيطاناً رجيماً. كانت العربة تأتي بدون سقف. أول صورة شخص ظهرت لدون كيخوتي كانت للموت نفسه، بوجه آدمي، وبجوارها كان يوجد ملاك بأجنحة كبيرة ومطالية

بالألوان، وفي جانب كان هناك إمبراطور بتاج، يبدو من الذهب، فوق رأسه، وتحت قدمى الموت كان الإله الذى يسمونه كيوبيد، دون ضمادات على عينيه، لكن بقوسه وسهامه، وأيضاً ظهر فارس مسلح مشهراً أسلحته دون غطاء للرأس حربى أو خوذة، وإنما بقبعة ينبعث منها ريش متعدد الألوان، ومع هذه التصاوير ظهر أشخاص بملابس ووجوه مختلفة. عندما رأى دون كيخوتى كل هذا فجأة، بطريقة ما أصيب بالاضطراب، وملى قلبه سانشو بالخوف، لكن بسرعة ابتهج دون كيخوتى، لأنه اعتقد بأن مغامرة جديدة وخطيرة كانت تعترضه، وبهذا التفكير، ومع روح عالية لاهتمام أى خطر، اعترض طريق العربية، وبصوت عالٍ ومهدد قال:

- حوذى أو سائق العربية أو الشيطان، أو ما كنت، لا تتأخر فى أن تقول لى من أنت، وإلى أين تذهب، ومن تحمل من الناس فى عربتك، والتي تشبه سفينة قارون أكثر منها عربية عادية.

وعلى هذا أجاب بخضوع الشيطان موقفاً العربية بقوله:

- نحن ممثلو الفرقة المسرحية (الزاوية الشريرة)؛ وقد أقمنا فى تلك القرية السقى خلف ذلك التل، هذا الصباح، العمل الثامن لفرقتنا، وهو المسرحية الدينية (بلاط الموت)، وعلينا أن نمثله هذا المساء فى القرية التى تظهر مبانيها هناك من هذه البقعة، ولأنها قريبة جداً من القرية التى كنا فيها، أردنا أن نعفى أنفسنا من التعرى من ملابس المسرحية وإعادة لبسها، وهكذا نمضى بنفس الملابس التى سنمثل بها. ذلك الصبح يمثل دور الموت، والآخر الملاك، وتلك المرأة، وهى زوجة المؤلف، تمثل دور الملكة، والآخر جندى، والبعيد الإمبراطور، وأنا الشيطان، وأعد من الشخصيات الرئيسية للمسرحية الدينية، لأنى أقوم فى هذه الفرقة بالأدوار الأولى. وإذا أراد فخامتكم معرفة

شيء آخر عنا أسألني عنه، وسأعرف أن أجيبك بكل دقة، فلأني شيطان أستطيع إدراك كل شيء.

أجاب دون كيخوتي:

- بقسم الفارس المشاء، فقد تصورت عندما رأيت هذه العربة أننى أعرض مغامرة عظيمة، والآن أقول إنه من الضروري دائماً لمس الأمور عياناً باليد حتى نعرف خداع البصر. سيروا بسلامة الله، أيها الناس الطيبون، وأقيموا حفلكم، وانظروا عما إذا كنتم تأمرون بشيء في إمكاني، وسأقوم به من أجلكم عن طيب خاطر، ونفس رضية، لأننى كنت أهوى منذ صباى الوجوه التنكزية للمثلين، وكانت عيوني تطارد دائماً الفرقة المسرحية المشهورة في الكوميديا "فاراندولا".

وبينما هم في هذا الحوار، شاء الحظ أن يقترب أحد أفراد الفرقة في ملابس كوميدية لمهرج، مليئة بأجراس صغيرة وفي سن عكاز علق ثلاث حويصلات بقرية منفوخة. وعندما اقترب هذا الكوميدي من دون كيخوتي بدأ بإشهار العكاز نحوه، وهز الحويصلات على الأرض، دافا الأجراس، وقد اضطرب روئينانتي من شكله الغريب، ودون أن يمتلك دون كيخوتي القدرة على إيقافه، شد العنان بين أسنانه، وانطلق يجرى في المرح أسرع مما يسمح به هيكله العظمى، وسانشو، الذى وضع فى اعتباره الخطر الذى يتعرض له سيده من السقوط من فوق الحصان، أطلق الحمار بأقصى سرعة، واتجه لمعاونته، لكن عندما أدركه كان قد انتهى الأمر وصار سيده ملقى فوق الأرض، وبجانبه روئينانتي، الذى وصل مع سيده إلى الأرض فى نفس الوقت. نهاية عادية، ومصير طراوة روئينانتي وجسارته.

لكن مجرد أن هبط سانشو من على حماره كى يهرع إلى دون كيخوتي،

الشیطان الراقص صاحب الحویصلات قفز فوق الحمار، ضارباً له بها، وأدى الخوف والضجة بجانب ألم الضربات، بالحمار إلى الانطلاق نحو القرية التي يقيمون بها الحفل. وعندما رأى سانشو السباق الذي انطلق فيه حماره، وسقطة سيده لم يعرف إلى أي الأمرين يهرع أولاً، لكن بالفعل، ولأنه خادم مخلص، سيطر عليه حب سيده أكثر من غرامه بحماره، حتى إنه في كل مرة يرى ارتفاع الحویصلات وسقوطها مع العكاز على فخذتي الحمار، أحس بخيبة وفزع الموت، وود لو كانت هذه الضربات تنزل على إنسان عينه، ولا تمس أصغر شعرة من ذيل حماره. وبهذا الوضع الحائر اقترب من دون كيخوتي الذي كان أكثر دغدغة مما كان راغباً فيه، وعندما ساعده على امتطاء روثينانتي، قال له:

- سيدي الشيطان حمل الحمار.

سأل دون كيخوتي:

- أي شيطان؟

أجاب سانشو:

- شيطان الحویصلات.

رد دون كيخوتي:

- إذن سأجعله يدفع ثمن ذلك، حتى لو حبست معه في الزنزانة الأكثر ظلاماً وعمقاً في الجحيم. اتبعني، سانشو، فالعربة تسير ببطء، وبيغال العربة سأعوض فقدان الحمار.

أجاب سانشو:

- لا يوجد سبب للقيام بهذا المسعى، اكبح غضب فخامتكم، فعلى ما يبدو فإن الشيطان ترك الحمار، وها هو يعود.

وكان ذلك صحيحًا، لأن الشيطان مجرد أن سقط ومعه الحمار إلى الأرض
محاكيًا دون كيخوتى وروثينانتى، ذهب الشيطان على قدميه إلى القرية، وعاد
الحمار إلى صاحبه.

قال دون كيخوتى:

- ومع هذا، سيصير من الخير معاقبة هذا الشيطان على قلة أدبه، ولو كان
الإمبراطور نفسه.

أجاب سانشو:

- انزع هذا من محك، وخذ بنصيحتي، فلم يحدث قط أن تقاتل أحد مع
كوميديين، لأنهم أناس محظيون؛ فقد رأيت مثلاً أسره اثنان من الموتى وخرج
حرا دون أى ضرر. واعرِف فخامتكم لأنهم قوم مرحون، ويقدمون للناس
السرور، فإن الجميع يناصرهم، والكل يجيرهم، ويساعدهم، ويقدرهم، وهذا
يكون أكثر لأنهم فرقة ملكية مرخصة، وكلهم أو أغلبهم فى حللهم وهيتهم
يشبهون الأمراء.

أجاب دون كيخوتى:

- ومع هذا، فلن أذهب للشيطان المستخرة مادحًا حتى لو ناصره كل بنى البشر.
وعند قوله هذا، عاد نحو العربة، والتي كادت تصل إلى القرية، وانطلق
يصرخ قائلاً:

- توقفوا، أيتها الزمرة المتبهجة السعيدة، أحب أن أفهمكم كيف تكون معاملة
الحمير والوحوش، التي تستخدم مطايا لخدم الفرسان المشائين!

كانت صيحات دون كيخوتى مدوية حتى سمعها وفهمها أهل العربية، وحاكمين من كلماته على نواياه، قفز فى لحظة من العربية الموت، وخلفه الإمبراطور والشيطان الحوذى، والملاك، ولم يبق ولا حتى الملكة والإله كيوبيد، والجميع شحنوا أيديهم بالحجارة، وشكلوا من أنفسهم صفا فى انتظار استقبال دون كيخوتى فى تحفز. أما دون كيخوتى فعندما وجدهم فى تنظيم كتيبة عسكرية، وأذرعهم مرفوعة على استعداد لإطلاق الحجارة، أوقف روئينانتى، وتوقف يتأمل كيف يهاجم مع تعرض شخصه لخطر أقل. وعند توقفه، وصل سانشو، ووجده فى هيئة المهاجم ضد هذه الكتيبة جيدة الإعداد، قال له:

- سيكون من الجنون الزائد محاولة تنفيذ هذه المهمة، ولتعتبر فخامتكم فى أن من يرمونه بالحجارة ليس أمامه أى سلاح وقائى فى العالم، سوى أن يحشر نفسه داخل فراغ جرس من البرونز، وأيضاً يجب أن يكون موضع اعتبار أن مهاجمة رجل وحيد لجيش حيث يوجد الموت، ويقاوم بشخصه إمبراطوريات، ويساعدهم ملائكة شريرون وطيبون هو قهراً أكثر منه شجاعة، وإذا كان هذا الاعتبار لا يدفعه إلى التوقف، لا بد أن يدفعه لذلك المعرفة الأكيدة أنه مع ظهورهم أمراء وإمبراطورات لا يوجد بينهم فارس مشاء واحد .

قال دون كيخوتى:

- الآن نعم، لقد أصبت الهدف، سانشو، مما يمكن ويجب أن يغير موقفى الذى كان قد تقرر بقوة، فأنا لا أستطيع ولا يجوز أن أشهر سيفى، كما قلت لك مرات كثيرة فى السابق، ضد من لم ينصب فارساً. والدور عليك، سانشو، إذا أردت الثأر ضد العدوان الذى وقع على حمارك، وأنا من هنا سوف أساعدك بالهتافات والتشجيع.

أجاب سانشو:

- لا يوجد سبب للانتقام من أحد، فليس من عمل المسيحيين الورعين الانتقام ضد الأذى من جانب أى شخص كان، وسوف أتفق مع همارى على أن يضع ثأره بين يدي إرادتي، وهى العيش مسالماً مادامت متعتنى السماء بالحياة.

رد دون كيخوتى:

- إذن، ذلك عزمك، سانشو، أيها الطيب، سانشو، أيها الفطن، وسانشو، المسيحي، وسانشو المخلص، فلنترك تلك الأشباح، ولنعد للبحث عن مغامرات أفضل وأكثر جودة، حيث أرى أن هذه الأرض غنية ولن تنقصها مغامرات كثيرة، بل ومعجزة.

وفى الحال أدار عنان الفرس، ومضى سانشو لأخذ حماره، والموت مع كتيبته المتفجرة عادوا إلى العربية، وواصلوا رحلتهم، وهكذا أخذت هذه المغامرة المخوفة لعربة الموت نهاية سعيدة، بفضل النصيحة الصحيحة التى أعطهاها سانشو بانثا لسيده، والذى وقعت له فى اليوم التالى مغامرة مع فارس مشاء وعاشق، وليست أقل إدهاشاً من سابقتها.

الفصل الثانى عشر

عن المغامرة الغريبة التى وقعت لدون كيخوتى الجسور مع فارس المرايا الشجاع

الليلة التالية التى أعقبت معركة الموت قضاها دون كيخوتى وخادمه تحت أشجار عالية ذات ظلال، وكان دون كيخوتى قد أكل تحت إغراء من سانشو، وذلك من (الزوادة) التى يحملها الحمار، وخلال العشاء قال سانشو:

- كنت، يا سيدى سأكون عبيطاً إذا اخترت عندما جئتك بالبشرى غنائم أول مغامرة تخوضها فخامتكم دون المهرات الثلاث! وبالفعل (فعلاً)، عصفور فى اليد خير من نسر يطير فى السماء.

أجاب دون كيخوتى :

- لكن إذا كنت، سانشو، قد تركتني أهاجم، كما كنت أحب، لنالك، على الأقل، هناك التاج الذهبى للإمبراطورة، والأجنحة المطوية لكوييد، التى كنت سأنزعها عن جنبيه وأضعها بين يديك.

أجاب سانشو بانثا:

- لم يحدث قط أن صولجانات وتيجان الإمبراطورات الكوميديات كانت من الذهب الخالص، وإنما من صفيح نحاس أصفر أو من صفيح خالص.

أجاب دون كихوتى:

- هذا حق، لأنه لم تكن زينة الكوميديا ثمينة قط، وإنما مصطنعة وصناعية، مثل العمل الكوميدي نفسه، ومع هذا أحب، سانشو، أن تأخذ الكوميديا مأخذاً جميلاً، ونفس الأمر مع ممثليها ومؤلفيها، لأنهم جميعاً أدوات لصنع الخير للبلاد، واضعين لكل واحد منا مرآة في مواجهته مع كل خطوة، حيث تتم رؤية أحداث الحياة الإنسانية حية، ولا يوجد تشبيه أفضل من التشبيه الحى، والذي يمثل كينونتنا كما هي، وكما ينبغى أن تكون، مثل الكوميديا والكوميديين. وإذا لم يكن كذلك، قل لى، ألم تر أنت تمثيل إحدى الكوميديات حيث يدخلون ملوكاً، وإمبراطورات، وبابوات، وفرساناً، وسيدات، وشخصاً أخرى عديدة؟ واحد يأخذ دور القواد، وآخر الكذاب، وهذا التاجر، وذاك الجندى، وواحد غيرهم الفطن الساذج، وثانٍ العاشق البسيط، وعندما تنتهى الكوميديا ويتعرى الممثلون من ملابسهم، يصيرون جميعاً سواسية .

أجاب سانشو:

- نعم رأيت .

قال دون كихوتى:

- إذن يتطابق ما يحدث فى الكوميديا وما يحدث فى هذا العالم، حيث يقوم أفراد بدور الإمبراطورات، وآخرون بدور البابوات، أخيراً، كل الصور والأدوار التى يمكن إدخالها فى إحدى الكوميديات، لكن عند وصول النهاية، لحظة انتهاء الحياة، ينزع الموت عن الجميع ملابس التمايزات، ويبقون سواسية فى القبر.

قال سانشو :

- تشبيه جسور، وإن لم يكن جديدًا تمامًا؛ إذ سمعته مرات عديدة وكثيرة، مثل تشبيه الشطرنج، فبينما يدور اللعب كل قطعة لها مهنة خاصة، وعندما ينتهي اللعب، تخلط كل القطع متجاورة متساوية، وتلقى في علبة كما تلقى الحياة المنتهية في القبر.

قال دون كيخوتى:

- كل يوم، سانشو، تصبح أقل سذاجة، وأكثر ذكاء.

أجاب سانشو:

- نعم، حيث يصيبني شيء من ذكاء فخامتكم، فأرض ذكائى العقيمة والجافة، عند تسميدها وزراعتها، تتقدم فى إعطاء ثمار طيبة، أود القول بأن الحديث مع فخامتكم هو السماد البلدى الذى أضيف للأرض العقيمة لعبقريتى الجافة، وبزراعتها، ومع مرور الوقت الذى أخدمها فيه، وأتصل بها ؛ أتوقع أن أثمر منى ثماراً مباركة، لا تنحرف ولا تضل عن التربة الطيبة، التى صنعها فخامتكم لذكائى الضيق.

ضحك دون كيخوتى من عبارات سانشو المؤثرة، وبدا له ما يقول حقيقياً عن تغييره، لأنه من وقت لآخر كان يتكلم بطريقة تدهشه، على الرغم من أنه فى كل المرات أو فى معظمها، عندما كان يحاول أن يتعالم، أو يتحدث مثل رجال البلاط، كان ينتهى منطقته بإعمال جبل سذاجته إلى عمق جهله، وبما كان يظهره لبقاً وجيد الذاكرة باجترار أمثال، وافقت أو لم توافق فى شىء موضوع حديثه، كما شوهد ولوحظ خلال خطاب هذه القصة.

وبينما هما في هذا الحديث، مضى عنهما الشطر الأكبر من الليل، وسانشو أراد أن يترك ستائر العين تنزل، كما كان يقول عندما يحب أن ينام، وأهمل حماره تاركاً له حرية الحركة مع الحشائش الغزيرة. ولم ينزل عن روئينانتي السرج طبقاً لتوصية صريحة من سيده، ماداما هما في حملة أو لا ينامان تحت سقف، أيضاً لم يحرر روئينانتي، عادة قديمة يحافظ عليها الفرسان المشاءون، بنزع العنان وتعليقه على قربوس السرج، لكن بنزع سرج الجواد، ياالله!! وهكذا فعل سانشو، وأعطاه نفس الحرية التي أعطاها لحماره، الذي صارت صداقته مع روئينانتي وحيدة فى نوعها، شديدة الميثاق، لها شهرة علاقة الأب بالابن طبقاً لتراث هذه العلاقة، حتى إن مؤلف هذه القصة الحقيقية أفرد فصلاً خاصة حولها، لكن للمحافظة على الخلق المهذب والاحترام الذى ينتمى لهذه القصة البطولية، لم يضمنها هذه الفصول، رغم أنه فى بعض الأحيان فى غفلة عن هذا الهدف، يكتب كيف أن هساتين الدابتين تلتصقان، وتهرع إحداهما لحك جلد الأخرى، وبعد ذلك، من الإرهاق والرضا يضع روئينانتي رقبته على رقبه الحمار فى هيئة صليب (حتى إن عنق روئينانتي يعبر بحوالى نصف قصبه رقبه الحمار)، بينما تنظر الاثنتان باهتمام إلى الأرض، وقد كان من عادتهما البقاء على هذا الحال ثلاثة أيام، أو على الأقل طوال الوقت الذى يتركانهما فيه معاً، أو مادام لا يجبرهما الجوع على البحث عما يقيم الأود. وأقول إنهم يقولون بأن المؤلف فيما ترك مكتوباً شابه بين صداقتهما وصداقة كل من (نيسو) و(أوريالو) وكل من (بيلادس) و(أوريستس)؛ ولو كان ذلك كذلك، يمكن ملاحظة (لدهشة العالم كله) كم كانت وطيدة ينبغى أن تكون قد كانت صداقة هذين الحيوانين المسالمين، ولحيرة البشر الذين يعرفون بشكل سيئ المحافظة على الصداقة بين بعضهم بعضاً؛ لهذا قيل:

لا يوجد صديق لصديقه

الشعرات البيض تعود رماحًا

والآخر الذى غنى:

من صديق لصديق إير ودبايس ...

ولا يبدو للبعض أن المؤلف خرج عن الطريق المستقيم عندما قارن بين صداقة هذين الحيوانين وصداقة بنى البشر، إن الإنسان من صداقة الدواب يستقبل العلم الغزير، ويدرس أشياء مهمة كما هي بالضبط: من اللقلق الحقنة الشرجية، من الكلاب، الاستنطاق والشكر ومن الكركى المراقبة والسهر، ومن النمل العناية ومن الأفيال الشرف والأمانة والولاء من الجواد. أخيرًا، سقط سانشو نائمًا تحت سفح شجرة فلين، ودون كيخوتى يعوس تحت شجيرة بلوط، لكن لم يمر وقت طويل حتى أيقظه ضجيج أحسه خلفه، وناهضًا فى قفزة، شرع فى النظر والتصنت عن مكان قدوم الضجة، فرأى رجلين راكبين، وأن أحدهما تاركًا نفسه يسقط عن السرج، قال للآخر:

- انزل، صديقى، وانزع عن الجوادين عنافهما، حيث يبدو لى أن هذا المكان يغص بالحشائش لهما، وبالصمت والوحشة الضرورين لتأملاتى الغرامية.

تم قول ذلك والتمدد على الأرض فى وقت واحد، وعند الاستلقاء على الأرض أحدثت الأسلحة ضجيجًا، إشارة واضحة إلى أنه يأتى مسلحًا، مما جعل دون كيخوتى يدرك أنه ينبغى أن يكون فارسًا مشاء، فاقترب من سانشو، وشد ذراعه، ولم يكن بالجهد القليل الذى بذله سانشو لإعادة ذراعه حيث كان، وبصوت خفيض قال له:

- سانشو، أيها الشقيق، لدينا مغامرة.

أجاب سانشو:

– فليبارك لنا الله فيها، لكن أين فخامتكم من هذه السيدة المغامرة!

رد دون كيخوتى:

– أين، سانشو؟ أدر عينيك وانظر، وسوف ترى هناك فارساً مشاءً ممدداً على الأرض، وعلى ما أتوقع أنه ليس مبتهجاً بما يكفى، لأننى رأيته يلقي بنفسه من على الجواد، ويستلقى على الأرض مع بعض علامات الغضب، وعندما سقط صلصلت أسلحته.

قال سانشو:

– وكيف يجد فخامتكم فى ذلك المغامرة المنتظرة؟

أجاب دون كيخوتى:

– لا أود القول بأن هذه مغامرة من مجاميعه، وإنما هو بداية للمغامرة، لأنه من هنا تبدأ المغامرات. لكن أنصت، فعلى ما يبدو، هاهو يدندن عوداً أو قيثاراً، كما أنه يبصق وينظف صدره، وهذا يعنى أنه يعد نفسه لغناء شىء.

أجاب سانشو:

– قسماً إن الأمر لكذلك، لا بد أنه فارس عاشق.

قال دون كيخوتى:

– لا يوجد فارس مشاء دون أن يكون عاشقاً، فلننصت إليه، فإنه بتتبع الخيط سنصل إلى بكرة أفكاره، فإذا كان يغنى، فإن فيضان القلب ينطق اللسان.

أراد سانشو أن يعلق على قول سيده، لكن صوت فارس الغابة الذي لم يكن
بالغ السوء ولا بالغ الحسن، عاقه، وهنا بقي الاثنان في غاية الانتباه، وسمعا ما
غنى فيما يلي:

سونيتا

أعطيني، سيدتي، طريقاً أتبعه
وليكن حكم إرادتكم الصارمة
وسيصير هكذا موضع تقديري
ولن أخالفه أبداً أصغر مخالفة

*

وإذا أردت أن أصمت قلقي

اعتبريني منتهياً، ولأمت

وإذا أردت الاستماع سمعت خوارق
الحب نفسه سوف أنطقه فيقول عنى

*

فأنا معدٌّ لاستقبال الشيء ونقيضه

لأن من يعجمني يراى من شمع وألماس

*

على قوائين الحب أضبط نفسى
لينا كنت أو صلبا، أهدى صدرى
وعليه خطيَّ أو اطبعى ما يروق لك
ولك القسم، أن أحتفظ بهذا الأثر
إلى الأبد

ومع آهة انتزعت من القلب أنهى فارس الغابة غناءه، وبعد قليل قال بصوت
متألم وحزين:

- أوه، أيتها المرأة الأجل والأكثر جحودًا على وجه الأرض! كيف يصير ممكناً
بكل هذا الهدوء، كاسيلديا باندياليا، أن توافقي على أن تستهلك الأسفار
وتقضى على فارسك الأسير في مجاهدات خشنّة وقاسية؟ ألا يكفي أن جعلت
كل الفرسان يعترفون بين يدي أجمل نساء العالم، كل فرسان نابارة، وكل
فرسان ليون، وكل فرسان الأندلس، وأخيراً كل فرسان لا مانشا.
هنا قال دون كيخوتي:

- هذا لا، فأنا من فرسان لا مانشا، لم أعترف قط، ولا أقدر على الاعتراف، ولا
ينبغي أن أعترف بأمر يلحق ضرراً بليغاً بجمال سيدتي؛ وهذا الفارس كما
ترى أنت، سانشو، يخزف، لكن لنسمع، فلعله يعلن شيئاً آخر.

رد سانشو:

- نعم سيفعل، فأى نهاية لشكوى شهر متواصل!

لكن لم يكن الأمر كذلك، لأن فارس الغابة عندما سمعها يتكلمان قريباً منه، قال بصوت جهورى ومهذب، قاطعاً ندبه وشكواه بعد أن نهض واقفاً:

– من هناك؟ من أنتم؟ وهل بالصدفة أنتم من أهل السرور أو أهل الأحزان؟

أجاب دون كيخوتى:

– من أهل الأحزان.

قال فارس الغابة:

– إذن، اقترب منى، وستدرك أنك تقترب من نفس الأحزان، أو من المعاناة نفسها.

وعندما سمع دون كيخوتى إجابته شديدة الود والتهديب اقترب منه وسانشو، حذو القدم بالقدم.

الفارس الندابة أمسك دون كيخوتى من ذراعه، قائلاً له:

– اجلس أيها الفارس المشاء، ويكفى لفهم أنكم فارس مشاء، ممن يمارسون الفروسية المشاءة، أن توجد بهذا المكان في صحبة الوحدة والهدوء، وهما المهد الطبيعى، والمقام المميز للفرسان المشائين.

وعلى هذا أجاب دون كيخوتى:

– أنا فارس، وأنتمى للممارسة التى عنها تتكلم، ومع أن الأحزان والنكبات وسوء الحظ تتخذ من قلبى منزلاً فإنه لم تهرب من هذا القلب الشفقة نحو نكبات غيرى. ومن غنائك القليل أحسب أن نكبات غرامية، أريد القول، بسبب حب تلك الحسناء الجاحدة، التى ذكرت اسمها فى تأوهاتك.

وعندما كان يحدث كل هذا، كانوا قد جلسوا معاً على الأرض الخشنة، فى طيب صحبة وسلام، كما لو كان انفجار شمس يوم جديد، لا ينبغي أن تنفجر لها الرعوس.

قال فارس الغابة لدون كيوخوتى:

- بالصدفة، أيها السيد الفارس، هل أنت عاشق؟

- لسوء حظى، نعم! مع أن الآلام التى تولد من الأفكار الراسخة فى الفؤاد ينبغي أن تجلب السرور قبل سوء الحظ.

رد فارس الغابة

- حقيقى، هو كذلك، إذا لم يعكس صفونا العقل، وفهم غطرسة الخبوبة، التى تشبه الانتقام للمبالغة فيها.

أجاب دون كيوخوتى:

- لم تغطرس على سيدتى قط.

قال سانشو، وكان قريباً منهما هناك:

- لا، يقيناً لم يحدث، لأن سيدتى مثل الحمل الوديع، وهى أكثر طراوة من الزبدة.

سأل فارس الغابة:

- هل هذا تابعكم؟

أجاب دون كيخوتى:

- نعم، إنه هو.

قال فارس الغابة:

- لم أر تابعا قط يجروء على أن يتكلم بينما يتكلم سيده، على الأقل، يوجد هناك تابعى، ضخم فى حجم أبىه، وليس مسموحاً أن يفتح شفثيه بينما أنا أتكلم.

قال سانشو:

- إذن، قسماً، لقد تكلمت، وأستطيع الكلام أمام أى آخر مهما... وأكثر، قف عند هذا، فالأسوأ تجاوزه.

تابع فارس الغابة، أمسك ذراع سانشو قائلاً:

- فلنذهب نحن الاثنان معا حيث نستطيع الحديث حيث إننا خدم معاً حول كل ما نحب، تاركين هذين السيدين يتصارحان بحكاية قصص غرامهما، فمن المؤكد أن يومهما سينقضى فيها، دون أن تنقضى تلك القصص.

قال سانشو:

- على الرحب والسعة، وسوف أقول لفخامتكم من أنا، حتى تعرف أننى أستطيع مناظرة دسنة من الخدم الأكثر ثرثرة.

وعلى هذا ابتعد الخادمان، حيث دار بينهما حوار شديد الظرف واللطافة، كما كان حوار سيديهما بالغ الخطورة والجدية.

الفصل الثالث عشر

حيث نواصل مغامرة فارس الغابة مع الحوار الذكي والجديد والناعم الذي دار بين الخادمين

وهكذا انقسم القوم إلى فريقين، الخادمان يحكيان قصة حياة كل منهما، والسيدان يحكى كل منهما للآخر غرامياته. لكن القصة تروى أولاً حديث الصبيين ويتلوه حديث السادة، وبانفصال الخادمين، قال خادم فارس الغابة لسانشو:

– ما نمر به ونعيشه نحن خدم الفرسان المشائين هو حياة قاسية، نأكل العيش بعرق الوجه، إنما لعنات صباها الله على آباءنا الأولين.

أضاف سانشو:

– أيضاً يمكن القول بأننا نأكل بثلج أجسامنا، فمن يعاني حرّاً أكثر وبرداً أكثر من خدم المشائين الفرسان؟ ويكون أقل سوءاً لو أكلنا، فالبارزات مع الخبز أقل ألماً، لكن ربما يمر علينا اليوم أو اليومان دون أن نفطر، اللهم إلا من الرياح التي تهب.

قال خادم فارس الغابة:

– كل هذا يمكن تحمله ومعاناته، على أمل الجائزة، لأنه إن لم يكن الفارس المشاء منكوباً أكثر من اللازم، فإنه على الأقل سيرى خادمه نفسه وقد كوفئ بعد قليل بحكومة جميلة لأية جزيرة أو بمقاطعة مع لقب كونت، وحسن مظهر.

رد سانشو :

- لقد سبق لي القول لسيدى بأني أكتفى بحكومة أية جزيرة، وهو نبيل وكريم جدا، حتى إنه وعدني بها مرات كثيرة ومتعددة.

قال الآخر:

- أنا مع وظيفة في الكنيسة سأصير راضياً نظير خدماتي، وقد أوصى لي بها سيدى، فما ترى!؟

قال سانشو :

- لا بد أن سيد فخامتكم فارس كنسى، وهكذا يمكنه تقديم هذه الإنعامات لخدمة الطيبين، لكن سيدى مجرد فارس علماني، مع أنني أتذكر، عندما أحب أن ينصح بعض الأشخاص ذوو الفطنة، وإن كانوا على ما يبدو لي سيئى النية، بأن يصير مطرئاً، استقرت إرادته على أن يصير إمبراطوراً، وقد كنت أرتعد من أن تميل إرادته لخدمة الكنيسة، حتى لا أجدني مستفيداً بما يكفى منها، لأتني على الرغم من كوني إنساناً، فإنني دابة لو خدمت الكنيسة.

قال خادم فارس الغابة:

- إذن أنت تضر فخامتكم، مع أن كل الحكومات الجزائرية ليست بعامة ذات جدوى طيبة، يوجد بعضها صعب المراس، وبعضها فقيراً، وبعضها الآخر مجزئاً، وأخيراً، أفضلها يجلب معه حملاً ثقيلاً من الفكر والقلق الذى يضع على عاتقكم الشقاء مما يناسب حظك. والأفضل كثيراً لنا، نحن من نمارس هذه الخدمة، أن ننسحب إلى بيوتنا، وهناك نكرس جهدنا لممارسات أكثر نعومة، ويمكن القول عن صيد الحيوان أو السمك، وأى خادم مهما بلغ فقره

لا يتقصه حصان عمل، أو زوج من كلاب الصيد، أو صتارة لصيد السمك،
مما نتسلى به في قرانا؟

أجاب سانشو:

- بالنسبة لى لا يتقصنى شىء من هذا مع أنه فى الحقيقة لىس لى جواد عمل،
لكن عندى هماراً يساوى مرتين جواد سىدى، ولیمنحنى الله عیداً من الحزن،
ولیکن أول عید قادم، إذا قاىضته به، حتى لو أعطونى فوفه أربعة أجولة من
الشعیر. وقد تأخذ ما أقول عن قيمة البنى، والبنى هو لون همارى، على سبیل
المزاح. أما كلاب الصيد، فلن تنقصنى، لزیادتها عن الحاجة فى قریتى، وأكثر،
سیصیر الصيد الأكثر لذة، مادام يتم على حساب الكلاب.

أجاب الآخر:

- حقیقى وواقعى، أیها السید التابع، فأنا عازم على ترك حیاة السكر هذه
لهؤلاء الفرسان المشائین، والانسحاب إلى قریتى، وتربیة أولادى، حیث
عندى ثلاثة مثل اللؤلؤ الشرقى.

قال سانشو:

- وأنا عندى اثنان، یمکن تقدیمهما للبابا شخصیا، وخاصة التى أربیها لتكون
كونتیسة، وتبارك الله فیما خلق، حتى لو كان ذلك ضد إرادة أمها.

سأل الآخر:

- وكم عمر هذه الصببة التى تربى لتصیر كونتیسة؟

- خمس عشرة سنة، عامان أكثر أو أقل، لكنها مستقیمة العود مثل الرمح، وفى
طراوة الصباح فى شهر أبريل، وفى قوة همالى الأثقال.

قال خادم فارس الغابة:

- وإنما لسمات طيبة، لا تصلح فحسب لكونتيسة، وإنما لعروسة الغابات
الخصراء. ابنة الداعرة! أى قوة تملكها هذه الملعونة!

أجاب سانشو بشيء من الغضب:

- لا هى داعرة، ولم تكن أمها من قبل داعرة، ولن تكون أيا منهما، بمشيئة الله،
مادمت أنا حيًا، وتكلم أكثر تهديبًا، فكونك نشأت بين فرسان مشائين، وهم
الأدب نفسه، لا يبدو لى شيء من التوفيق فى كلماتك.

أجاب خادم فارس الغابة:

- أوه، كم فهمت خطأ ما قلت من طريقة فى المدح، فخامتكم أيها التابع المشاء،
كيف لا تعرف أنه عندما يحقق مصارع الثيران هجمة جميلة على الثور، أو
عندما يقوم أحدهم بعمل جيد، فإن العامى يقول: "يا ابن الداعرة الداعر،
كم هو جميل ما فعل!"؟ وذلك الذى يبدو سبأبًا، بهذه الصيغة، هو ثناء هائل،
وهل تنكر، يا سيدي، حق الأبناء والبنات، الذين لا يقومون إلا بأعمال
تنوج آباءهم بغار مماثل؟

أجاب سانشو:

- نعم أنكرك، وبهذه الطريقة، وتلك العبارة، التى أمكن لفخامتكم توجيهها إلى،
وإلى أبنائى وإلى زوجتى، ملقيًا فوقنا كل الدعارة، فكل ما يفعلون هو فى قمة
ما يستحق الثناء بغير هذا، وحتى أعود لمراهم، أدعو الله أن ينقذنى من كبائر
الذنوب، ومن هذه المهنة الخطرة التى تورطت فيها للمرة الثانية، مأسورًا

ومخدوعًا بكيس به مئة دينار ذهبًا، وجدته في جبال سيرامورينا، والشيطان يضع أمام عيوني هنا وهناك، هنا لا، إنه فيما وراء هناك، جوالاً مليئاً بالدنانير الذهبية، يبدو لي أنني ألمسه مع كل خطوة بيدي هاتين، وأحتضنه ويحتضني، وأحمله إلى بيتي، وأجلس أحصى ما فيه، واستثمره بأجل الفوائد، وأعيش مثل أمير؛ والوقت الذى أقضيه مع هذه الفكرة يجعل كل ما أقوم به وأعانيه من أعمال مع هذا الجنون لسيد، والذى أعلم أنه مجنون أكثر منه فارسًا، أقول يجعل كل ما أقوم به في غاية السهولة والإمكان.

أجاب تابع فارس الغابة:

- ولهذا يقولون إن الطمع أقل ما جمع، وإذا تحدثنا عن جنون الفرسان، لا يوجد أكثر جنونًا في العالم من سيدى، لأنه من هؤلاء الذين يقال عنهم: "حرص الآخريين صرع الحمار"؛ حيث إن فارسًا آخر يقبض ثمن عقله الذى فقده، ويصير هو المجنون، ويمضى باحثًا عما لا أدرى إذا كان بعد أن يجده، لا بد أن يخرج من حلقومه.

- وهل بالصدفة هو عاشق؟

قال تابع فارس الغابة:

- نعم لواحدة اسمها كاسيلديا دي بانديليا، وهى السيدة النيئة والمشوية الأعظم على سطح الأرض، لكنه لا تعرج قدمه من عدم نضجها، مثل ما يدمدم في أحشائه من أكاذيب كبرى، وقبل مضى ساعات كثيرة سيكشف ذلك عن نفسه.

رد سانشو :

- لا يوجد طريق بمثل هذا الاستواء دون عشرة كبرى أو حفرة عميقة، وفي بيوت أخرى يطبخون الفول، وفي بيتي أيضاً، والجميع تفصص به أو انيهم، فصحة الفرسان وخدمتهم جنون أكثر منها عقلاً. لكن إذا كان حقيقياً ما يقولون من أن الحصول على رفقاء في العمل يخفف عن الإنسان، فمع فخامتكم يمكنني أن أتسلى، حيث تخدم سيدياً في مثل بلاهة سيدي.

أجاب خادم فارس الغابة:

- أبله، لكن قوى، إلا أنه سافل أكثر منه أبله أو قوياً.

أجاب سانشو:

- هذا لا ينطبق على سيدي، فليس به ذرة من سفالة، فهو نقى النفس، لا يعرف عمل السوء ضد أحد، وإنما الخير لكل الناس، فليس به أدنى خبث، والطفل يستطيع إقناعه بأن الليل هو رابعة النهار، وهذه البساطة أحبه، لا أنزع لتركه مهما ارتكب من ترهات.

قال خادم فارس الغابة:

- مع كل هذا، أيها الأخ والسيد، إذا قاد الأعمى أعمى آخر، سيعاني كلاهما خطر السقوط في الحفرة. الأفضل أن ننسحب بالخطوة السريعة للقدم، ونعود إلى شئوننا؛ فإن من يبحثون عن المغامرة لا يجدونها دائماً مثمرة.

كان سانشو يبصق كثيراً، وفيما يبدو أنه كان بصاقاً للعاب لاصق، وجاف إلى حد ما، الأمر الذي لاحظته خادم الغابة العطوف، فقال:

- فيما يبدو لي أن ما قلناه يجعل لساننا يلصق بالخلق، إلا إنني معي دواء مهدئ في خرج جوادى، وهو جيد.

ونهض ليعود بكيس جلدى كبير من النبيذ، وفطيرة محشوة كبيرة، وليس هذا بالثناء، لأنها بالفعل محشوة بأرنب أبيض كبير، حتى إن سانشو عندما لمسها، فهم أنها جدى كبير وليس حملاً صغيراً، مما جعله عند رؤية هذا يقول:

- وهذا تحمله معكم يا سيدى؟

أجاب الآخر:

- وماذا تفكر؟ هل أنا بالصدفة خادم ماء وصوف^(*)؟ إنني أحمل معي أفضل زوادة فوق فتخدى جوادى، مما تعود على حملة أى جنرال كلما بدأ طريق سفر.

أكل سانشو دون استئذان، وكان يلتهم فى الظلام مثلما تلتهم المواشى البرسيم عند إطلاق قيودها فيه. قال:

- فخامتكم، نعم إنك خادم مخلص وقانونى، وقوى وعادى، وعظيم وفخيم، كما تظهر هذه الوليمة، التى تبدو وكأنها إن لم تأت من فعل السحر فكأنها كذلك. لست مثلى، فأنا مسكين سيئ الحظ، و فقط فى خرجى قليل من الجبن الجاف، يمكن بها شجُّ رأس مارد، ومعها بضعة أصابع من الخروب، وبعض المكسرات، بفضل ضيق يد سيدى، وطبقاً لما يرى من رأى فى أن الفرسان المشائين عليهم ألا يقيموا أودهم أو يتغذوا إلا بالفاكهة الجافة أو حشائش الأرض.

(*) يقصد: هل أنا خادم قليل الأهمية؟

أجاب خادم فارس الغابة:

— حسبما أعتقد فإن معدتي ليست معدة للأشواك أو لعنب الديد، ولا قلقاس الجبال البرى، وعليهم أن يجدوا ذلك هناك فى آراء وقوانين فروسيتهم من نسميهم سادتنا، وليأكلوا ما يوصون به، فأنا أحضر طعامى البارد وهذا الكيس من النيذ معلقاً فى سرج حصانى، ولا يعينى نعم أو لا، إنما الكيس مخلص لى وأحبه، ولا أمضى وقتاً طويلاً دون أن أهرع لتقبيله، مع ألف حزن.

وعندما انتهى من قول ذلك، وضع الكيس فى يد سانشو، الذى عندما اجتهد فى وضعه بفمه، كان ينظر للنجوم حوالى ربع ساعة، وعندما انتهى من الشرب سقط رأسه جانباً، وأطلق تنهيدة عظيمة وقال:

— يا ابن الداعرة يا سافل، وأكثر من هذا أنت كاثوليكي!

هنا قال الآخر مستمعاً إلى (ابن الداعرة) من فم سانشو:

— هل ترى كيف مدحت النيذ بوصفه بابن الداعرة؟

أجاب سانشو:

— أقول بأننى أعترف بأن القول لأى شخص بأنه ابن داعرة ليس سباباً، عندما تفهم على سبيل المدح، لكن قل لى يا سيدى بحق الله، هل هذا النيذ من لا ثيوداد ريال؟

أجاب الخادم الآخر:

— برافو، أيها الذواقّة، ففى الحقيقة هو لا ينتمى لأى مكان آخر، وقد مضى عليه عدة سنوات من التعتيق.

قال سانشو:

- ألسـت لهذا ؟ لا تتناول شيئاً إلا جئتنى أعطيك أصله وفصله. ألن يكون طيباً، أيها السيد التابع، أن تكون عندي غريزة التعرف على الأنبذة، حتى إلى مجرد شمهأ أعطى موطنها، ونسبها، وطعمها، ودرجة قدمها وتعتيقها، ودرجة تقليبها، مع كل الظروف التي تتعلق بالنيبذ؟ لكن لا يجوز التعجب إذا كان في نسبي من ناحية أبي أكبر اثنين من الذواقاة الذين عرفتهم، لامناشا، عبر أزمان متطاولة، ولإثبات ما حدث لهما سأذكر لك شيئاً عن اختبار لهما. أعطوهما نيبذ برميل لتذوقه، طالبين منهما رأيهما حول حالة النيبذ، أو جودته، طعمه، أو انحطاط جودته وذوقه. الأول ذاقه على طرف لسانه وقال إن له طعم الحديد، والآخر جعله يقترب من أنفه فحسب، وقال إن له طعم فروة الماعز. صاحب النيبذ قال إن البرميل كان نظيفاً، وليس به أى شائبة تعطيه طعم الحديد أو فرو الماعز. ومع هذا أصر الاثنان الذواقاة على تأكيد ما قالا، ومضى الوقت، واكتمل بيع النيبذ، وعند غسل البرميل وجد به مسمار صغير متعلق بخصلة من فرو الماعز. وانظر، من ينحدر من هذا العرق سيقدر على إبداء الرأي في مثل هذه القضايا.

قال خادم فارس الغابة:

- من أجل هذا، لنترك البحث عن المغامرات، أليس لدينا بعض الخبز، لم نبحت عن "تورتات" ؟ لنعد إلى أكواخنا، وبها يرعانا الله، إن شاء.

- حتى يصل سيدي إلى سرقسطة سأخدمه، وبعدها نتفاهم.

أخيراً، لقد تكلمنا كثيراً، وشربنا كثيراً، هذان التابعان الطيبان، حتى إن النوم احتاج لربط لسانيهما، وبعض التروية لعطشهما، الذي يستحيل تخلصهما منه؛ وهكذا ممسكاً كل منهما بالآخر عبر كيس النبيذ الفارغ الآن تقريباً، وبالجرعات مع بعض المضغ في الفم، انبعثا في نوم عميق، حيث سنتركهما في الوقت السراهن حتى نحكى عما حدث بين فارس الغابة، والفارس ذى الصورة الحزينة.

الفصل الرابع عشر حيث تستمر مغامرة فارس الغابة

بين عبارات كثيرة دارت بين دون كيخوتى وفارس الغابة، تقول الحكاية إن فارس الغابة قال لدون كيخوتى:

- وأخيراً، أيها السيد الفارس، أحب أن تعرف أن مصرى، أو بكلمة أدق اختياري، حملنى إلى عشق التى لا نظير لها كاسيلديا دى بانديا، وأطلق عليها "لا نظير لها" لأنها ليس لها نظير، هكذا فى امتشاق الجسد، تماماً كما فى كل شىء، حتى وصلت الغاية فى أحواها وحسنها. كاسيلديا هذه، التى أحكى عنها، دفعت مقابل نواياى الطيبة ورغباتى المهذبة، مثلما فعلت زوجة أب هيركلوس بهيركلوس، شغلتنى بأخطار كثيرة وعديدة، واعدة لى فى نهاية كل خطر أنه فى نهاية الخطر التالى سأصل إلى أملى، لكن هكذا مضت جهودى متسلسلة، التى لا تحصر، دون أن أعرف أيها سيكون الأخير الذى سوف يعطى بداية لإنجاز رغباتى الطيبة. مرة أرسلتنى لتحدى الماردة المشهورة لأشبيلية المسماة خيرالدا^(*)، والتى هى من الشجاعة، والقوة بمكان

(*) دوارة الريح (فى أعلى المنارة الضخمة التى شيدها المعتمد بن عباد) من البرونز، ولها أربعة عشرة قدمًا، وتديرها الريح لبيان اتجاه تلك الريح، هذا الفارس المزعوم يريد أن يقارن ذلك بمغامرات دون كيخوتى مع طواحين الرياح. والرياح الشمالية هو اتجاه الخيرالدا المعتاد. أما صخور غيساندو، فهى أشباح ضخمة من النحت البدائى، لايعرف على وجه الدقة تاريخها.

فهي مصنوعة من النحاس البرونز، وهي التي دون أن تغادر مكانها تعد الأكثر حركة واضطراباً بين نساء العالم، وصلت إليها، ورأيتها، وتغلبت عليها، وجعلتها تقف فيما وراء الوقوف، لأنه في أكثر من أسبوع لم تهب سوى الرياح الشمالية. ومرة أخرى حدث أن أرسلتني لوزن وحملها الصخور القديمة للثيران الضخمة في غيساندو، وتلك مهمة أقرب إلى عمل الحمّالين منها إلى عمل الفرسان. ومرة أخرى أرسلتني إلى هوة قمة حتى أعجل بها وأخضعها، وأن أحضر لها علامة عما يوجد بذلك العمق المظلم لهذه القمة. أوقفت حركة الخيل الدا، وحملت ثيران غيساندو، وتفرغت للهوة حتى أخرجت للنور ما هو مخبأ في هاويتها، ومع ذلك ظلت آملتي تسير من موت إلى موت بينما أوامرها وغطرستها من حياة إلى حياة. باختصار أخيراً أمرتني أن أتجول في كل أنحاء إسبانيا، وأجبر كل الفرسان المشائين الذين يضلون في شعابها على الاعتراف بأنها هي فحسب الأكثر تميزاً في الحسن عن كل النساء الأحياء، وأنى الأقوى، والأكثر عشقاً بين فرسان كوكبنا. ولتلبية طلبها مشيت في معظم أنحاء إسبانيا، ومن أجلها تغلبت على فرسان كثيرين ممن تجرأوا على معارضة. لكن الذي أعتز به وأفخر هو أني تغلبت في معركة فريدة على الفارس المشهور دون كيخوتي دى لامايشا، وجعلته يعترف أن سيدتي كاسيلديا أكثر حسناً من سيدته دولثينا، وبهذا الانتصار فقط أعلم أني أنتصر على كل فرسان العالم، لأن دون كيخوتي هذا قد انتصر على الجميع، وهزيعتي له، تحول مجده وشهرته وشرفه لي، وتجعلها من حقي شخصياً:

فالمنتصر أكثر تشريفاً

وهكذا صارت من ممتلكاتي الأجماد التي لا حصر لها لدون كيخوتي المشار إليه.

بقى دون كيخوتي مبهوراً مما سمع من فارس الغابة، وكان على وشك أن يقول له ألف مرة إنه يكذب، وقد صار تكذيبه على طرف لسانه، لكنه ضبط نفسه بأفضل ما يستطيع، حتى يجعله يعترف بنفس الفم واللسان بكذبه، وهكذا قال له بهدوء:

- فيما يتعلق بهزيمتك لكل فرسان إسبانيا أو العالم لا أقول شيئاً، يا سيدي الفارس، لكن ما يتعلق بهزيمتك لدون كيخوتي دي لامانشا هو أمر أشك فيه، ربما كان فارساً آخر يشبهه، رغم قلة من يشبهونه.

أجاب فارس الغابة:

- كيف لا؟ بحق السماء التي تظننا إنني تغلبت على دون كيخوتي في معركة، انتهت باستسلامه، وهو رجل طويل ذو جسم جاف الوجه، متوتر الأعضاء، مقفع، أشهب، بأنف لصقر، وبعض الشيء محدبة، بشوارب كثة، وسوداء ومتهدلة. يبارز تحت اسم (الفارس صاحب الصورة الخزينة)، ويرافق حاملاً لدروعه عامل زراعي اسمه سانشو بانثا، ويمتطي صهوة جواد اسمه روئينانتي، وأخيراً، سيدة إرادته هي دولثينيا دل توبوسو، التي كانت تسمى بعض الوقت الدونتا لورنثو، مثل سيدتي والتي لأن اسمها كاسيلدا، وهي من الأندلس، أطلق عليها كاسيلديا دي بانداليا. وإذا كانت كل هذه العلامات لا تكفي لتدعيم صدقي، هنا يوجد سيفي، وسوف يعطي مصداقية لهذه الحقيقة غير المصدقة.

قال دون كيخوتى:

— اهدأ، أيها السيد الفارس، وأنصت لما أحب قوله لك. عليك أن تعرف أن دون كيخوتى هذا الذى تذكره هو أكبر صديق لى فى العالم؛ حتى إنى أستطيع أن أحله محل نفسى، وبالعلامات التى أعطيتها لى بكل دقتها وبقينتيتها، لا أستطيع التفكير إلا أنه نفس الفارس الذى هزمته. من ناحية أخرى، أرى بالعنين، وأمس باليدين عدم إمكانية أن يكون نفس الفارس، وإذا سلمنا أنه لم يكن، فلأنه له أعداء كثيرون من السحرة (وخاصة واحد منهم اعتاد مطاردته)، ومن الممكن أن يكون قد أخذ أحدهم صورته، وترك نفسه ينهزم، حتى يجرمه بالغش من شهرته التى أحرزها بفروسيته الرفيعة، واكتسبها على سطح الأرض المكتشف (حتى الآن) جميعه. ولتأكيد هذا، أحب أيضاً أن تعرفوا أن هؤلاء السحرة أعداءه، منذ ما لا يزيد على يومين، قد مسخوا صورة الحسناء دولثينيا دل توبوسو وشخصيتها إلى قروية فظة ومتدنية؛ وهذه الطريقة من المحتمل أن يكونوا قد مسخوا صورة لدون كيخوتى. وإذا لم يكف كل هذا حتى تدرك تلك الحقيقة، فإنى أقول، هاهو ذا هنا دون كيخوتى نفسه، وعليك أن تدركها بسلاحك، على القدم أو راكباً أو بالطريقة التى تعجبك.

وعند قوله هذا نهض وأشهر سيفه، منتظراً قرار فارس الغابة، الذى أجاب بصوت هادئ فى نفس الوقت، وقال:

— من يحسن الدفع لا يؤلّه أن يقدم هدايا، والذى فى إحدى المرات، أيها السيد دون كيخوتى، استطاع هزيمتك ممسوخاً، لديه أمل طيب ممكن فى إخضاعكم

في كينونة شخصكم نفسها. لكن لأن الفرسان ليس طيباً أن يقوموا بمعاركهم في الظلام، مثل اللصوص وقطاع الطرق، لنتظر النهار، حتى ترى الشمس أعمالنا. ولا بد من شرط لمركتنا، وهو أن يخضع المهزوم لإرادة المنتصر؛ كي يصنع معه كل ما يريد، ويطيعه في تهذيب الفرسان.

أجاب دون كيخوتي:

- إنني بالغ الرضا لهذا الشرط، وتلك الموافقة.

وعند الانتهاء من قول هذا، ذهباً إلى حيث وجد الخادمان، ووجداهما في شخير، وفي نفس الوضع الذي فاجأهما عليه النوم. أيقظاهما، وأمرهما أن يعدا الخيل لتكون جاهزة للركوب، لأنهما عند طلوع الشمس عليهما أن يخوضا معاً كلاهما معركة دامية، وفريدة، لا تعادلها معركة أخرى، وعند هذه الأخبار الجديدة بقى سانشو حائراً، ومنذهاً، ومتشككاً في صحة سيده خائفاً عليها، بسبب عنف فارس الغابة طبقاً لما سمعه من خادمه، ودون نطق كلمة واحدة ذهب الخادمان للبحث عن الحيوانات، حيث كانت الخيول الثلاثة قد اشتمت الخبر مع الحمار، في تجمعها معاً.

في الطريق قال خادم فارس الغابة لسانشو:

- عليك أن تعرف أن مبارزى الأندلس لديهم عادة، أنهم عندما يكون الواحد منهم إشبينا لمشاجرة، لا يجلس عاطلاً يداً فوق يد، بينما يبارز الفارس الذي يتباه، أقول ذلك لأنه بينما يتبارز سيدانا، نحن الاثنين أيضاً علينا أن نتبارز، لنخرج بمحصول.

أجاب سانشو:

- هذه العادة أيها السيد التابع، يمكن أن تجرى هناك بين قوادين ومبارزين كما تقول، لكن مع خدم الفرسان المشائين، ولا حتى أفكر فيها. على الأقل لم أسمع من سيدي عن مثل هذه العادة، وهو يحفظ عن ظهر قلب كل عادات الفروسية المشاءة. وأكثر من ذلك فإنني أتعهد لو كان هذا حقاً وفعالاً من تشاجر الخدم أثناء تصارع السادة، بأنني لن أفي بهذا الواجب، مقابل دفع الغرامة التي قد تفرض على التابع المسلم، والتي أؤكد أنها لن تزيد على رطلين من الشمع، وأنا أحب دفع هذه الغرامة، وأعلم أنها قد تكلفني أقل من الضمانات التي يمكن أن أستعملها لعلاج رأسي، التي أراها وقد انشطرت نصفين. وهناك ما هو أكثر؛ يستحيل على المبارزة لعدم امتلاكى سيفاً، حيث لم أحمله قط في حياتي.

قال تابع فارس الغابة:

- لهذه عندي دواء ناجح؛ فمعي كيسان من الكتان من نفس الحجم، تأخذ أنت كيساً، وأنا آخذ الآخر، وتبارز وتتكيس بأسلحة متعادلة.

أجاب سانشو:

- بهذه الطريقة، على الرحب والسعة، لأن مثل هذه المشاجرة سوف تؤدي إلى تنفيذ ملابسنا من الغبار أكثر من إحداث الجروح.

أجاب الآخر:

- لا ينبغي أن تكون هكذا لأنه يجب حشو الأكياس بنصف دسنة من الحصى الجميل والأحجار، حتى لا يطير الهواء تلك الأكياس، والتي بهذا تصبح ثقيلة لكن ثقلاً متساوياً، وبهذه الطريقة نتكيس في المعركة دون جروح.

أجاب سانشو:

- انظر، اللعنة! نحشوها بفرو أو قطن مخلوج، حتى لا تطحن رءوسنا، وتتحول عظامنا إلى ذرات متناثرة! لكن حتى لو حشوناها بحجير، فأنا لن أتشاجر. ليتشاجر ويتقاتل سيدانا، وهناك يلقىان بعضهما، ونحن نشرب ونعيش، فإن الزمن يسرق منا الحياة والدنيا فانية، وليس من واجبنا تقديم مشهيات للموت، حتى يقضى علينا قبل الأوان، ولنترك أنفسنا ثماراً تسقط عند نضجها.

أجاب الآخر:

- ومع ذلك، علينا القتال، ولو لنصف ساعة.

أجاب سانشو:

- هذا لا، لن أكون أنا بهذه الوقاحة والجحود حتى أقاتل من أكلت معه وشربت، مهما كان الحد الأدنى من القتال، وخاصة أننا لا تعترينا حمى الغضب أو التناحر، أى شياطين تدفعنا للقتال على الناشف؟

قال خادم فارس الغابة:

- من أجل ذلك سأقدم علاجاً شافياً، فقبل بدء القتال أقرب أنا منك برشاقة وأصفحك ثلاث أو أربع، حتى تسقط على أثرها تحت قدمي، مما يوقظ فيك الغضب، حتى لو كان نائماً نوم الفأرة النائمة.

قال سانشو:

- ضد هذا النظام، لدى نظام آخر، ولن أكون في المؤخرة. فسوف ألتقط نبوتاً، وقبل اقترابك مني لإيقاظ الغضب، سأجعلك تنام بضربات النبوت، نومة لن

تستيقظ منها قبل وصولك للعالم الآخر، ليعرف أنني رجل لا أمس حدود أحد أو مصافع أحد. وعلى كل منا أن يرتب شئونه بما يملك من سهام، مع أن الأصوب أن يحاول كلانا تنويم غضب الآخر، فلا يعلم أحد ما بنفس الآخر، وقد "تأتى من أجل الصوف فتعود وبرك منتوف"، وقد بارك الله السلام، ولعن القتال؛ لأن قطاءً مقيداً، محبوساً، مضغوطاً عليه، قد يتحول إلى أسد. وأنا رجل، الله وحده يعلم إلى أى شىء قد أتحوّل. وهكذا، ومنذ الآن، أسر إليك، أيها السيد الخادم، أنك تتحمل تكاليف كل الشر والأذى الذى قد ينتج عن تشاجرنا.

أجاب خادم فارس الغابة:

- هذا طيب، فليصبح الله الصباح، والأمور سوف نسويها.

وخلال هذا بدأ ألف عصفور حسن الطلا فى التغريد فوق الأشجار، وفى غنائها البهيج ظهر أنها ترحب وتحبى الفجر المنعش، والذى مضى يكشف عن وجهه أمام الأبواب والبلكونات الشرقية، هازا شعره لتتناثر لآلى سائلة بأعداد لا نهائية، استحمت الحشائش فى عطرها الناعم، والتي بدت وكأنها فى نفس الوقت تتبثق وتمطر الأبيض والغزير من الجوهر، والصفصافات كانت تقطر ما لذ من المن والسلوى، بينما تضحك الينابيع، وتتمتم مسايل الوديان، وتبتهج الغابات، وتتوهج سروراً بمقدمها المروج. لكن مجرد ما تبدى وضوح النهار حتى ظهرت الأشياء للعيان وتميزت، وكان أول شىء تميز أمام عيون سانشو أنف خادم فارس الغابة، وكانت طويلة جداً، حتى إن ظلها انحدر على كل جسمه. ويحكى بالفعل أنها كانت أطول من اللازم، ذات ألوان وزوائد وانحناءات تقبّح وجهه، وما إن رآها سانشو حتى بدأ يرتعد من قدميه ومن يديه، مثل

طفل محموم، وخطر على فؤاده أن يتحمل متنى صفة قبل أن يقائل هذا الجنى. نظر دون كيوخوتى إلى خصمه فوجده مرتدياً خوذته، فلم يتمكن من أن يرى وجهه، لكنه لاحظ أنه رجل ممتلى، وليس بالغ الطول، وكان بجانب أسلحته يرتدى قميصاً من نسيج يبدو من الذهب الخالص، مزروعاً به كسر المرايا، مما جعله بطريقة فائقة بالغ الأناقاة ووسيمًا، وكانت تهبف فوق خوذته مزرعة من الريش الأخضر والأصفر والأبيض، وكان رمحه مستنداً على شجرة، وكان طويلاً جداً وغليظاً، وحافته من حديد صلب يتجاوز الشبر.

نظر دون كيوخوتى إلى كل هذا ولاحظه، وحكم على ما رأى بالقوة المتينة، لكن لم يخف من هذا مثل سانشو بانثا، بالعكس قال لفارس المرايا:

- إذا كانت رغبتك الشديدة فى القتال لم تستهلك أدبك وتهديك، أطلب منك زحزحة غطاء وجهك قليلاً، لأرى عما إذا كانت وسامة الوجه توافق وسامة اللباس.

أجاب فارس المرايا:

- سواء كنت غالباً أو مغلوباً، أيها السيد الفارس، فسيكون لديك وقت فائض لرؤيتى، وإذا كنت لا أشجع رغبتكم الآن، فلأنه يبدو لى أننى أعادى كاسيلديا دى بانداليا الحسناء، بتأخير اعترافك بما أدعيه، خلال الوقت الذى أزيل فيه غطاء الوجه.

قال دون كيوخوتى:

- إذن خلال ركوبنا الخيل، تستطيع أن تقول لى بشكل فهائى إذا كنت دون كيوخوتى الذى تكلمت عنه أم لا.

قال فارس المرابا:

- سأجيب عليك في هذا، حيث تشبه الآخر كما تشبه البيضة نظيرتها، لكن طبقاً لما تقول حول مطاردة السحرة لك، لا أستطيع تأكيد إذا كنت نفس محتوى الشكل الذي رأيت.

أجاب دون كيخوتي:

- هذا يكفيني حتى أعتقد في خديعتهم لك، وحتى نحسم الأمر بالفعل، هيا إلى خيلنا، فلن يمر إلا وقت قليل قبل كشف غطاء وجهك، وإن شاء الله وسيدتي وقوة ذراعي سوف أرى وجهك، وسترى أنت أننى لم أكن دون كيخوتي المغلوب الذى تظنون.

وبهذا، ولتوفير الكلمات، صعد كل منهما على جواده، وحوّل دون كيخوتي عنان روثنانتي للسيطرة على ميدان المعركة ثم العودة لملاقاة خصمه، وصنع نفس الشيء فارس المرابا، لكن لم يكد دون كيخوتي يبتعد عشرين خطوة، حتى سمع فارس المرابا ينادى عليه، وعند تقاسمهما المسافة بينهما، قال له:

- اعلم، سيدى الفارس، أن شرط معركتنا، أن المغلوب، كما ذكرت لك من قبل ، ينبغي أن يبقى تحت أمر وتوجيه الآخر.

أجاب دون كيخوتي:

- أعلم ذلك، لكن على شرط أن ما يؤمر به المغلوب لا يتجاوز حدود تعاليم الفروسية.

أجاب فارس المرابا:

- هذا مفهوم.

هنا ظهرت لعبون دون كيخوتى أنف تابع خصمه الغربية، ولم تدهش دون كيخوتى أقل من سانشو، حتى إنه تصوره مسخاً، أو نوعاً جديداً من البشر، من تلك السلالة التي لم نعتد على رؤيتها في العالم. وسانشو الذى رأى سيده يتراجع كى يبدأ انطلاقتة نحو خصمه، لم يحب أن يبقى وحده مع ذى الأنف المأنوف، خشية تلقى أنفه ضربة قاصمة من أنف هذا التابع الغريب فى مبارزة للعبة الأنوف، قد تحسم المعركة لصالح خصمه، حتى إن سانشو تصور نفسه وقد سقط ممدداً على الأرض بفعل ضربة الأنف أو الخوف، ومن ثم، جرى مع سيده بمحاذاة روثينانتى، وعندما رأى سيده يعيد الكر إلى الخلف، قال له:

– أتوسل لفخامتكم، سيدى، قبل أن تعود للقاء الفارس الآخر ساعدنى على صعود شجرة الفلين هذه، حيث أستطيع أن أرى أكثر من رؤيتى الأرضية لسيدى فى اللقاء الشجاع الذى ينبغي على فخامتكم القيام به مع هذا الفارس.

قال دون كيخوتى:

– على العكس، سانشو، أنت تحب الهرب، والصعود على منصة لرؤية مصارعة الثيران دون خطر.

أجاب سانشو:

– الحقيقة ما تقول، فإن الأنف المهائلة لهذا الخادم، تتركنى حائراً ومليئاً بالفزع، ولا أجرؤ على البقاء بجواره.

قال دون كيخوتى:

– هى كذلك تلك الأنف، وإذا لم أكن أنا من أكون، لملاثنى بالرعب، وهكذا، تعال، أساعدك على الصعود حيث تقول.

وخلال اللحظات التي تَوَقَّف فيها دون كيخوتي كي يصعد سانشو شجرة الفلين، استولى فارس المرايا على المكان المناسب من ميدان المعركة طبقاً لما بدا له ضرورياً، معتقداً أن نفس الشيء يفعله دون كيخوتي، ودون انتظار دقات الطبول أو أى إشارة أخرى، شد عنان فرسه (والذى لم يكن أخف من روئينانتى، ولا ذا مظهر أفضل)، ورمحه بأقصى سرعة، وكان رمحاً متوسطاً، ومضى لملاقاة عدوه، لكن عندما رآه مشغولاً يرفع سانشو لصعود الشجرة، أوقف الجواد فى منتصف السباق، مما حدا بالجواد إلى أن يصبح له من الشاكرين، بسبب أنه لم يكن قادراً بعد على الحركة. دون كيخوتي، الذى بدا له أن عدوه قادم فى طيران، ربت بمهاميزه على جانبي روئينانتى ومضى ينخره بها نخرًا بطريقة، تحكيها القصة، حتى إن هذه كانت المرة الوحيدة التى لا بد أن قد حدث شيء، إذ جرى بشيء من السرعة، ففى كل المرات كان يرمح رمحاً بطيئاً، هكذا بهذا الحماس لروئينانتى الذى لم يسبق أن رأى مثله اقترب من فارس المرايا الذى كان يطعن جواده بالمهاميز حتى الأزرار، دون أن يستطيع الحركة ولو مسافة إصبع، وبقى حيث أوقفه من قبل فارسه. فى هذا الوقت السانح، والقيد الذى وقع فيه العدو قابل دون كيخوتي خصمه مهموماً بجواده، ومشغولاً برمحه، الذى لم يصب قط أن يشرعه. دون كيخوتي، الذى لم يلاحظ هذه العقبات، ودون أى خطر، التحم بفارس المرايا بقوة عارمة، حتى جعله يسقط على الأرض من فوق فخذى جواده، حيث فى هذه السقطة دون أن يحرك يداً، أعطى دلائل على أنه ميت.

ومجرد أن رآه سانشو قد سقط، انزلق من فوق شجرة الفلين، وبكل السرعة لحق بسيده، الذى نزل من على روئينانتى، وانحنى على فارس المرايا، وكشف عن وجهه، ليرى عما إذا كان حيّاً أو ميتاً، وحتى يعطيه هواء للتنفس إذا كان

حيًا. وهنا رأى... من يستطيع أن يقول ماذا رأى، دون أن يسبب تعجبًا وذهولاً وفرعًا لمن يسمعه؟ رأى، كما تقول القصة، الوجه نفسه، نفس الصورة، نفس الشكل، نفس الملامح، نفس المثال، نفس المنظور لنفس حامل البكالوريا كارأسكو، هكذا عندما رأى ما رأى قال فى صرخات:

- تعال، سانشو، وانظر لما ينبغي أن تنظر إليه، ولن تصدق ما ترى، أيقظ نفسك، أيها الابن، واعلم بما يمكن للسحر، وما يستطيع السحرة الشريرون، وأصحاب الأعمال.

وصل سانشو، وكما كان الوجه لحامل البكالوريا كارأسكو، بدأ فى التصليب مصليًا ألف مرة، وخلال كل هذا لم يعط المهزوم أى دليل على أنه حى . قال سانشو لدون كيخوتى:

- أنا من رأي، بين نعم، و(لا)، أن تنجز فخامتكم سن السيف فى فم هذا الذى يشبه حامل البكالوريا شمشون كارأسكو، فلعلكم تقتلون فى شخصه ساحرًا من أعدائكم.

قال دون كيخوتى :

- لم تجانب فى قولك الصواب حتى نقلل من الأعداء.

واستخرج من الغمد سيفه حتى يضع نصيحة سانشو موضع التنفيذ، وهنا وصل تابع فارس المرايا، والآن دون الأنف، التى كانت تضفي عليه قبحًا شديدًا، وفى صرخات عالية قال:

- انظر، فخامتكم فىم تفعل، أيها السيد دون كيخوتى، فهذا الذى يتمدد تحت أقدامكم هو حامل البكالوريا شمشون كارأسكو، صديقك، وأنا خادمه.

وعندما رآه سانشو دون ذلك القبح الأول، قال له:

- والأنف؟

- إنها معي في جيبي هنا.

أدخل سانشو يده في يمين التابع، والتقط الأنف المعمولة من العجين والورنيش، وناظرًا إليه سانشو وبصوت متعجب وعال، قال له:

- يا للعدراء مرجم ! ياالله! أليس هذا تومى ثيشال، جارى وصديقي؟

أجاب الخادم الذى غدا منزوع الأنف:

- يقينًا نعم، إنه أنا! إنه تومى ثيشال، أيها الصديق والجار سانشو بانثا، وفي الحال

أقول لك عن المقالب، والأكاذيب، والحيل التى حملتنى إلى هنا، وبناء عليه،

أطلب، وأتضرع للسيد دون كيخوتى سيدك ألا يلمس، أو يسيء معاملة أو

يجرح ملك الشطرنج الميت فارس المرايا، الذى هو تحت قدميه ، لأنه دون

شك هو الجسور، وسىء الرأى حامل البكالوريا شمشون كارأسكو، بلدياتنا.

وهم على هذا الحال، أفاق فارس المرايا، وما إن رأى ذلك دون كيخوتى،

وضع فوق وجهه السن العارى لسيفه وقال له:

- ستكون الميت، أيها الفارس، إذا لم تعترف أن دولشينا دل توبوسو، التى لا

نظير لها، تتفوق على كاسيلديا دى بانداليا، وفوق هذا عليك أن تعد (إذا

أبقتك تلك المعركة، وتلك السقطة حيًا) بالذهاب إلى مدينة ألتوبوسو، وامثل

بين يديها من طرفى، كى تفعل ما ينبغى بإرادتك، وفي نفس الوقت عليك

بالعودة والبحث عنى (وأثر أمجادى سوف يخدمك كدليل، وسوف يملك
حيث أكون) والقول لى عما حدث طبقاً لما بيننا من شروط قبل معركتنا، لا
تخرج عن حدود الفروسية المشاءة.

قال الفارس الصريع:

- اعترف أن الخذاء المفكك الخياطة القذر للسيدة دولثينيا، يساوى أكثر من
اللحية سيئة التمشيط وإن كانت نظيفة لكاسيلديا، وأعد بالذهاب والعودة
من لدنهما إليك، وإعطائك حساباً كاملاً وخاصاً حول كل ما تطلب.

أضاف دون كيخوتى:

- أيضاً عليك بالاعتراف والاعتقاد أن ذلك الفارس الذى هزمته، لم يكن، وما
كان ممكناً أن يكون دون كيخوتى دى لامانشا، وإنما كان آخر يشبهه، كما
أعترف أنا وأعتقد، مع أنك تشبه البكالوريا شمشون كارأسكو، فأنت لست
هو، وإنما آخر يشبهه، وأهم وضعوك أمامى فى صورته من هم أعدائى، حتى
أتوقف ويعتدل غضبى، وحتى أستعمل فى لين قدرة انتصارى.

قال الفارس الصريع:

- أعترف بكل شىء، وأحكم وأحس بما تعتقد وتحكم وتحس، ودعنى أنهض، إذا
كانت تسمح بذلك الضربة التى أحدثها سقوطى، حيث قسم ظهرى فعلاً.

ساعده دون كيخوتى على النهوض، لم يسقط سانشو عينيه عن تابعه، سائلاً
له عن أشياء تخصه، حتى تصبح الإجابات علامات على أنه حقيقة هو تومى ثيثيال
الذى يدعى، لكن الاعتقاد الذى أودعه فى سانشو سيده عن أن السحرة غيرت

صورة فارس المرايا إلى صورة حامل البكالوريا كارأسكو، لم يدعه يصدق الحقيقة التي يراها بالعين. وأخيراً بقيا مع هذه الخدعة سيّداً وخادماً، أما فارس المرايا وتابعه، ففي حزن وكآبة تركا دون كيخوتى وسانشو، مع نية البحث عن مكان، حيث تدهن ضلوعه بالمراهم، وتجبر. دون كيخوتى وسانشو عادا لمواصلة الطريق نحو سرقسطة، حيث تتركهما القصة، حتى تكشف من كان فارس المرايا، وذلك الخادم المأنوف.

الفصل الخامس عشر

حيث ينكشف الغطاء وتحكى الأنباء عن فارس المرايا

وخادمه صاحب الأنف الأنفاء

فى رضا بلغ دون كىخوتى، الغابة فخوراً وممجداً لبلوغه الانتصار على الفارس القوى كما كان يتخيل، فارس المرايا، وانتظر، بناء على كلمته الفروسية الإنجاز، وهكذا يعرف، ما إذا كان سحر سيدته مستمراً، حيث كان إجبارياً أن يعود ذلك الفارس المهزوم، خشية عقوبة ألا يفعل، وذلك حتى يحكى عما حدث له معها. لكن كان تفكير دون كىخوتى فى وادٍ، وتفكير فارس المرايا فى وادٍ آخر، حيث لم يكن يفكر فى تلك اللحظة فى شىء سوى فى مرهم لدهان ظهره، كما قيل. من ثم، تقول الحكاية إنه عندما نصح حامل البكالوريا (شمشون كارأسكو) دون كىخوتى بأن يواصل فروسيته المهجورة، كان لأنه توصل إلى شىء آخر مع القسيس والحلاق، حول أى سبيل يتخذ لقصر دون كىخوتى عما هو فيه، ليبقى هادئاً مطمئناً فى بيته، دون أن تزعجه مغامراته التى يضل سبيله فى البحث عنها. وطبقاً لنصيحته تلك خرج بموافقة الجميع، وبرأى خاص من كارأسكو، أن يتركوا دون كىخوتى يخرج، فقد كان من الواضح أن إيقافه مستحيل، وأن يخرج عليه كارأسكو فى الطريق كفارس مشاء، ويفتعل معركة معه، حيث لم يكن تنقص الأسباب لمثل هذه المعركة، ثم يهزمه فيها، باعتبار تصوره أنه صيد سهل، على أن يتعاهد معه، أنه فى حالة هزيمة دون كىخوتى (المؤكد حسب تصوره) عليه أن يبقى تحت أوامر وتعليمات المنتصر، وهنا يأمره الفارس (حامل البكالوريا) بالعودة إلى بيته وقريته، وألا يخرج منها فى عامين، أو حتى أجل مضروب بينهما يأمره به، وما

كان واضحاً أن دون كيخوتي سوف ينجز في حالة هزيمته، لا ريب، حتى لا يعارض ويتجاوز قوانين الفروسية، ومن الممكن خلال زمن حبسه عن الخروج أن ينسى أو هامه، أو يتم العثور على دواء مناسب لجنونه.

قبل المهمة كارأسكو، وتطوع تومي ثيئال ليلعب دور التابع، وهو صديق وجار سانشو بانثا، وكان رجلاً مرحاً، فضولياً. تسلح شمشون كما أشير إليه من قبل، وغطى تومي ثيئال أنفه الطبيعي بأنف مصطنع وقناع على الوجه، كما سبق القول، حتى لا يعرفه صديقه سانشو عندما يراه، وهكذا واصلا نفس الرحلة التي كان دون كيخوتي يقوم بها، واقتربوا من أن يعثر أحدهما على الآخر عند مغامرة عربة الموت، وأخيراً أدرك شمشون وتابعه دون كيخوتي في الغابة، وحدث لهم ما قرأته فطنة القارئ. ولولا الأفكار غير العادية لدون كيخوتي، والتي أفهمته أن حامل البكالوريا ليس هو حامل البكالوريا، لما استطاع السيد حامل البكالوريا قط الحصول على الليسانس، بسبب أنه لم يجد عشاً واحداً، حيث ظن أنه سوف يعثر على عصافير. تومي ثيئال، الذي رأى قبح ما انتهت إليه أمانيه، والغاية السيئة التي حمله إليها الطريق، قال للسيد بكالوريا:

- يقيناً لقد نلنا ما نستحق أيها السيد كارأسكو؛ من السهولة بمكان التفكير في أي مهمة والقيام بها، لكن كم هو صعب في أغلب الأحوال الخروج منها بسلام. دون كيخوتي المجنون ونحن العاقلان، لكنه انصرف سليماً يضحك علينا، وفخامتكم قد بقيت مطحوناً، وحزيناً. من ثم، فلتعرف الآن من هو الأكثر جنوناً، الذي هو مجنون لأنه لا يستطيع أن يكون غير ذلك، أم المجنون يارادته؟ وأجاب شمشون على هذا:

- الفرق بين هذين المجنونين، هو أن المجنون بالقوة سيظل مجنوناً إلى الأبد، والمجنون بمزاجه سيغادر المجنون عندما يخلو له.

قال تومى ثيئال:

- فعلاً، الأمر كما تقول، وأنا كنت مجنوناً بإرادتى عندما رغبت أن أكون
تابعاً لفخامتكم، وبنفس الإرادة أود ترك الجنون والعودة إلى بيتى.

أجاب شمشون:

- يمكنك فعل ذلك، لأن التفكير فى أن أعود لبيتى دون أن أطحن دون كيخوتى
هو تفكير فى المستحيل، ولن تحملنى للبحث عنه الرغبة فى أن يستعيد عقله،
إنما الرغبة فى الانتقام، فإن الألم الكبير لضلوعى لا يمكننى من رحمة التعقل.

فى هذا سار الاثنان يتحادثان، حتى وصلا إلى قرية، حيث كان من الحظ
الطيب العثور على (مجبراتى) للعظام؛ وبفضله شفى شمشون المنكود، وعاد
تومى ثيئال إلى قريته تاركاً إياه، وبقي يحلم بالنار، والقصة سوف تعود للحديث
عنه عندما يحين وقت الكلام عنه.

الفصل السادس عشر

عما حدث لدون كيخوتى مع فارس لامانشا الفظن

بكل فخار وسرور، كما سبق القول، واصل دون كيخوتى يومه، مفكرًا بفضل النصر الذى حازه، أنه الفارس المشاء الأقوى فى العالم فى ذلك العصر، واعتبر أن كل المغامرات التى يمكن أن تمر به منذ تلك اللحظة وما يليها سوف تأخذ نهايات سعيدة وكان أمرًا مقضيًا. ولم يعر السحر والسحرة كبير اهتمام كما كان يفعل، ولم يعد يتذكر ضربات النبابت التى لا حصر لها، التى أوقعوها به خلال مجريات فروسيته، ولا الرجم بالحجارة الذى أفقده نصف أسنانه، ولا جحود أشقياء سخرة الأسطول الملكى، ولا جرأة اليانجسيين ومطر العصى التى أنزلوها عليه، وأخيرًا، كان يقول لنفسه، إنه إذا عثر على الفن أو الطريق أو الحيلة التى يفض بها سحر سيدته دولثينيا، فلن يحسد أكثر فرسان العصور الماضية المشائين على ما نال من حظ أكبر، ومضى كامل الانشغال بهذه الأفكار حين قال له سانشو:

- أليس طيبًا أننى أحفظ حتى الآن فى مثول لعينى بالأنف الهائل، والأكبر من نوعه لبلدياتى تومى ثيخال؟

- وهل تعتقد، سانشو، بالصدفة، أن فارس المرايا هو شمشون كاراسكو، وأن تابعه هو صديقك تومى ثيخال؟

أجاب سانشو:

- لا أدرى عما أقول بهذا الخصوص، فقط أقول إن كل الأمارات التي أعطاني إياها عن بيتي، وزوجتي وأولادي، لا يستطيع غيره معرفتها، والوجه بعد نزع الأنف، هو نفس وجه تومي ئيشيال، كما رأيته مرات غزيرة في قريتي، فما يفصل بيتنا مجرد جدار، ونغمة صوته هي هي.

قال دون كيخوتي:

- فلنتكلم عن ذلك، سانشو، تعال هنا؛ أي اعتبار يحمل حامل البكالوريا شمشون كاراسكو على أن يأتي في هيئة فارس مشاء، مسلحًا بأسلحة هجومية ودفاعية للقتال معي؟ هل كنت بالصدفة عدوًّا له؟ هل أعطيته مرة فرصة كي ينظر لي شزرًا؟ هل أنا خصمه المنافس؟ أو هو يمارس مهنة القتال حتى ينفس على الشهرة التي نلتها عبر ممارسة القتال؟

أجاب سانشو:

- ماذا نقول يا سيدي حول الشبه الأكبر بين هذا الفارس، كائنًا من كان، وبين حامل البكالوريا كاراسكو، مثل شبه خادمه لتومي ئيشيال، صديقي؟ وإذا كان الأمر أمر السحر، كما قال فخامتكم، ألا يوجد غيرهما في العالم حتى يمسخا فحسب على صورتيهما؟

أجاب دون كيخوتي:

- كله صنعة وغش من السحرة المشعوذين، الذين يطاردونني، والذين عندما توقعوا أنني لا بد أن أكون الغالب في الموقعة، احتاطوا بأن الفارس المهزوم

سوف يكشف عن وجه صديقي السيد بكالوريا، لأن الصداقة التي أكنها له سوف تعترض حدًا سيفي، وصلابة ذراعي، وسوف تهدئ من غضب فؤادي، وبهذه الطريقة يقفون على حياة من جاء بالحيلة والتزييف لنزع حياتي مني، وكدليل على ما تعرف من هذا، أوه سانشو! فإنه بالتجربة التي لا تدعك تنخدع أو يكذبون عليك، ما أسهل بالنسبة للسحرة تحويل صورة وجه إلى صورة وجه آخر، صانعين من الحسن قبيحًا، ومن القبيح حسنًا، ومنذ يومين قد رأيت بعينيك هاتين حسن التي لا نظير لها دولثينيا ورشاقتها وهي في حالة كمالها، واتساقها الطبيعي، وأنا رأيت القبح والضعف لفلاحة فظة، بماء أبيض على عينها، ورائحة عفنة من فمها. والآن، فإن الساحر المعادي الذي تجاسر على صنع هذا التحول البشع، أليس قادرًا على إعطاء الوجه صورة كارأسكو أو صورة صديقك، حتى ينزع من يدي مجد الانتصار؟ لكن مع كل هذا، يعزيني انتصاري على عدو لي، مهما أخذ من صور.

أجاب سانشو:

- الله يعلم حقيقة كل شيء.

وكما كان يعرف هو أن مسخ دولثينيا كان حيلة منه وخدعة، لم ترضه أو هام سيده، لكنه لم يحب أن يرد عليه، حتى لا تقلت منه كلمة تكشف خداعه له.

وبينما يتبادلان هذه العبارات أدركهم رجل كان خلفهم في نفس الطريق، يأتي على فرس بالغة الجمال زرزورية اللون، وكان يرتدى معطفًا من نسيج أخضر مطرز بالقطيفة الشقراء الداكنة، وقبعة من نفس القطيفة، وعدة الفرس ريفية، والسرج بين البنى والأخضر، ويحمل خنجرًا موريسكيًا في غمد عريض يتحزم به، لونه أخضر وذهبي، أما نعاله فهي من نفس جلد الحزام الغمدى، والمهاميز لم تكن مذهبة، لكنها مطلية بطلاء أخضر، مصقولة ولامعة، ولتفاعلها مع باقى ألوان الملابس

بدت كما لو كانت من الذهب الخالص. وعندما حاذاهم، حياهم ذلك الفارس بأدب، ونخز الفرس، فتجاوزهم بمسافة، لكن دون كيخوتى قال له:

- أيها السيد الباسل، إذا كان فخامتكم تأخذ نفس طريقنا، ولا يهملك أن تسرع، فأنعم علينا بصحبتك.

أجاب راكب الفرس:

- في الحقيقة ما كنت لأسبقكما لولا خوفاً من اضطراب حصان فخامتكم من مرافقة فرسى.

أجاب سانشو على هذا:

- من الممكن جيداً أن تطلقى عنان فرسك، لأن حصاننا هو أشرف ذكر، طيب السمعة في نظر كل الناس، ولم يرتكب قط أية حماقة في مثل هذه المناسبات، ومرة تجاوز حدوده كى يفعلها، فدفعنا ثمن فعلته، سيدى وأنا سبع مرات أكثر من المطلوب. أقول مرة أخرى أن فخامتكم يمكنه التوقف لصحبتنا إذا أحببت، فإنهم حتى لو قدموها له على طبق لقاموها.

شد العابر العنان، متعجباً من هيئة دون كيخوتى ووجهه، والذي كان يسير دون الخوذة (مكتشوف الوجه)، التي يحملها سانشو على السن الأمامى للبردعة مثل حقيية، وإذا كان رجل الأخضر ينظر كثيراً لدون كيخوتى، فإن دون كيخوتى لم يترك النظر إلى فارس الأخضر، وقد بدا له رجلاً بحق وحقيق. وعمره يكشف عن خمسين عاماً، الشعيرات البيضاء لا تزال قليلة، والوجه لنسر، ونظرته بين المرحاة والجادة، وأخيراً مظهره يدل على الثراء، وما تصوره رجل الأخضر عن دون كيخوتى دى لامانشا، أنه لم ير قط رجلاً من قبل يماثله؛ أدهشه طول رقبتيه،

وجسامة جسمه، مع نحافة وجهه واصفراره، بجانب أسلحته، وإشاراتِهِ وهَيْئَتِهِ. صورة وشخص لم ير قط مثله أزماناً طويلة في تلك البلاد. لاحظ دون كيخوتى جيداً الاهتمام الذى يوليه إياه العابر فى نظراته إليه، وقرأ فى دهشته رغبته، وكيف كان فى غابة الأدب والود الذى يعجب الجميع، وقبل أن يسأل عن شىء برز أمامه على الطريق قائلاً له:

- هذه الصورة التى رآها فخامتكم فى شخصى، لكونها جديدة جداً، وخارجة عن الشائع لصور الناس، فلن يدهشنى أهما أدهشتك، لكنك ستخرج من دهشتك إذا قلت لك ما أقول الآن، فأنا فارس من هؤلاء الفرسان، ممن تتحدث عنهم الركبان، فارس من إلى مغامراتهم يغدون دون توان.

خرجت من موطنى، ورهنت ممتلكاتى، وودعت دعة الحياة، وأسلمت نفسى لأحضان إلهة الحظ، حتى تحملنى إلى أبعد مراتب خدمتها. وددت إحياء الفروسية المشاءة التى اندثرت، ومنذ أيام طويلة، متعثراً هنا، وساقطاً هناك، ومكرساً جهدى فى مكان، وناهضاً فى مكان أبعد، أنجزت شطراً عظيماً من أمنيته، هارعاً لنجدة الأرامل، مسعفاً المتزوجات، واليتامى، والتلاميذ، ذلك العمل الأصيل والطبيعى للفارس المشاء، وهكذا استحققت المشى بهذه الصورة فى كل أو بين أغلب أمم العالم، محققاً أمجادى الباسلة الغزيرة النقية. وطبع من قصتى ثلاثين مجلداً، وهى فى طريقها لأن تُطبع بالآلاف ثلاثين ألف مرة إن لم يرحم الله. وأخيراً، حتى أقول كل شىء فى كلمات قليلة، أو حتى فى كلمة واحدة، أقول أنا دون كيخوتى دى لامانشا، الذى يحمل اسماً آخر هو الفارس صاحب الصورة الحزينة، وحيث إنه لا يمدح نفسه إلا الشيطان، إلا أننى مضطر أحياناً لمدح نفسى، عندما لا يوجد من يحل محلى فى مدحى. وهكذا أيها السيد المقدم لعمك من أنا، والمهنة التى أمتنها، لن تستطيع أن تتدهش من الآن فصاعداً بهذا الحصان، أو بذلك الرمح، أو بهذا الدرع أو حامله، ولا بكل هذه الأسلحة جميعاً، أو بصفار وجهى أو نحافته.

سكت دون كيخوتى منتهياً من قول ذلك، أما رجل الرداء الأخضر فقد تأخر فى الرد عليه كما لو كان لا يملك رداً، إلا أنه بعد فسحة من الوقت قال له:

- لقد أصبت، يا سيدى الفارس، فى كشف رغبتى من دهشتى، لكنك لم تصب نزع عجب أن رأيتكم، كما قلت عن أنه بمعرفة فخامتكم لن أعجب ، ولم يحدث الأمر هكذا، فقد بقيت مندهشاً ومتعجباً. كيف يكون ممكناً أن يوجد الآن فى العالم فرسان مشاءون، وأنه توجد قصص مطبوعة لفرسان مشائين حقيقيين؟ لا أستطيع إقناع نفسى أنه فى العالم يوجد الآن من ينجد الأرامل، ويحمى الصبايا، ويكرّم المتزوجات، ويؤوى اليتامى. لم يكن ممكناً أن أصدق ذلك لولا أن رأيتك بعينى. بوركت السماء، حيث توجد تلك القصة، التى تتحدث عنها فخامتك، ومطبوعة، عن فروسيتك الرفيعة والحقيقية، التى مسحت القصص التى لا تحصى عن فرسان مخترعين، كان العالم مليئاً بهم، حيث صارت تلك القصص ضد العادات الطيبة، وضد صالح القصص الطيبة وتصديقها.

أجاب دون كيخوتى:

- هناك الكثير مما يقال فى صالح أن تلك القصص مخترعة أو أنها ليست بتسااريخ للفرسان المشائين.

قال الأخضر:

- إذن، هل يوجد من يشك فى أن تلك القصص غير مزيفة؟

أجاب دون كيخوتى:

- أنا أشك، ولتترك الأمر عند هذا، وإذا طالت صحبتنا اليوم، أمل فى توفيق الله أن أفهم فخامتكم، بأنك قد أسأت عندما سرت مع التيار الذى يأخذ هذه القصص مأخذ العمل الخيالى، وكأن ذلك الأمر الأكيد.

عند تلك العبارة الأخيرة لدون كيوخوتى، أصابت العابر الهواجس من أن دون كيوخوتى مخبول العقل، وانتظر ما يصدر عنه بعد ذلك حتى يؤكد تلك الهواجس. لكن قبل التسلى بحوار آخر، رجاء دون كيوخوتى أن يحدثه عن نفسه وعمن يكون، حيث قد سبق وعرفه بنفسه، حاكياً له شطراً من فروسيته وحياته، وعلى هذا أجاب صاحب الرداء الأخضر :

- أنا، أيها الفارس صاحب الصورة الحزينة، أحد أعيان قرية نحن في الطريق إليها لنأكل معاً اليوم، إذا شاء الله. وأنا ترى أكثر من المتوسط، واسمى دون ديجو دى ميراندا، أفضى حياتى مع زوجتى وأبنائى وأصدقائى، وأمارس الصيد فى البر والبحر، لكنى لا أقتنى صقراً ولا كلب صيد، وإنما الأليف من الطير، أو الشقى من الحيوان الأليف. عندى حوالى ست دستات من الكتب، بعضها لقصص الرومانث، والآخر باللاتينية، مع بعض كتب التاريخ أو الدين، أما كتب الفروسية فلم تعبر حتى الآن عتبات دارى؛ أتصفح كتب الدنيا أكثر من كتب الدين، فهى تسلية شريفة، تلذ بلغتها، وتعجب وتدهش بإبداعها، مع أن مثل تلك الكتب قليلة فى إسبانيا. أحياناً آكل مع أصدقائى وجيرانى، ومرات كثيرة أدعوهم لطعامى؛ فهم ضيوفى النظار الطاهرين، وليسوا بالمعدمين، فأنا لا أحب النميمة، أو تفحص حياة الآخرين، ولست بالبصير بأعمالهم، وأحضر صلاة كل يوم، وأتقاسم ثروتى مع الفقراء، دون التفاخر بالبر، حتى لا أفتح باباً للنفاق والتباهى فى صدرى، وهما عدوان يسيطران فى يسر على أكثر القلوب احتراساً، وأحاول أن أقيم السلام بين من أعرف من المتنازعين، وأنا مخلص لسيدتنا العذراء، وأثق دائماً فى الرحمة اللانهائية لله ربنا.

كان سانشو فى غاية الانتباه لحكاية حياة وتسليية الأخضر، وبدت له طيبة
وقدسية، ومن يحياها لا بد أن تكون له كرامات، وهكذا قفز من فوق حماره،
وسريعاً أمسك بركابه الأيمن، وبقلب مخلص، وتقريباً بدموع تطفرف من عينيه، قبل
قدمه مرة بل مرات. وعندما رأى ذلك فارس الأخضر سأله:

- ماذا تفعل أيها الأخ؟ ما هذه القبل؟

أجاب سانشو:

- دعنى أقبل الأقدام، لأنه يبدو لى أن فخامتكم أول قدیس أراه على فرس فى
كل أيام حياتى^(*).

قال الرجل الأخضر:

- لست قدیساً، إنما أنا آثم كبير، أما أنت، أيها الأخ، نعم، لا بد أن تكون طيب
القلب، كما ترحى بذلك بساطتك.

عاد سانشو ليستقر فوق بردعة حماره، وكان يود أن تجلجل ضحكته لمشهد
التأثر الشديد على وجه سيده، والذي سبب عجباً جديداً لدون دييجو. سأله دون
كيخوتى عن عدد أولاده، وقال له إن واحدة من الأشياء التى تحدث عنها الفلاسفة
القدماء، الذين كانت تنقصهم المعرفة الحقيقية بالله، أن زينة الحياة الدنيا فى الصحة
الجيدة والمال، والبنين الطبيين، والأصدقاء الكثيرين.

(*) لا يوجد قدیس حى، حيث يتم تنصيب القديسين بعد موتهم بزمن، وكل ما يحتاج رؤيته من
القديسين تماثيلهم فى الكنائس، دون أن يكون هناك قط أى تمثال لقدیس على جواد. ومن هنا
نفهم بساطة سانشو، فالقدیس سواء كان تمثالاً أو حياً، هو حى بالنسبة إليه، ولذا، فهذا أول
قدیس على حصان. وهنا نكتة!

- أنا أيها السيد دون كيخوتي، عندى ولد، لو لم أرزق به، ربما حكمت علبىّ بأننى أسعد مما أنا عليه، وليس لأنه شرير، بل لأنه ليس بالجودة التى أحبها. عمره حوالى ثمانية عشر عامًا؛ قضى ستة منها فى سلمنقة، فى دراسة اللغة اللاتينية واليونانية؛ وعندما أحببت أن يدرس علومًا أخرى، وجدته منغمسا فى الشعر (إذا كنا يمكن أن نسميه علمًا)، الذى لا يمكن مقارنته بعلم القانون، الذى كنت أود أن يدرسه، كما لا يمكن أن يقارن بملك العلوم، وهو علم اللاهوت. كنت أود أن يكون تاج سلالة أسرته، حيث إننا نعيش فى زمن يقدم فيه ملوكنا بسخاء جوائز للآداب الفاضلة والجيدة، لأن آدابًا دون فضل هى لآلىء فى مزيلة. وطول اليوم، يقضى وقته فى التحرى عن بيت قاله هوميروس فى الإلياذة، وهل مارسيال كان أمينًا؟ أو لا فى ذلك المهجاء؟ وهل تفهم تلك الأبيات لفرجيل بهذه الطريقة؟ أو بالأحرى؟ فى النهاية، كل حواراته حول تلك الكتب لهؤلاء الشعراء، وحول كتب هوراسيو، وبرسيو، وجوفنال، وتيبولو، ولا يعير شعراء الرومانث المحدثون أى انتباه، ومع كل الود المفقود الذى يبرزه نحو الرومانث، يكاد يستهلك فكره الآن توشيح أربعة أبيات أرسلوها له من سلمنقة، وأظن أنهما من ذلك الأدب الخالص^(*).

(*) فعل glosar واسم glosa بالإسبانية يعنى نوعًا من الفن الشعرى، لا شك أن له أصولا أندلسية، ويشبه فن الإجازة عند العرب، وفن الإجازة يبدأ الشاعر بشطر أو بيت ويكمل عليه، بينما فن الـ glosa يبدأ الشاعر بعدد من الأبيات ذات الوزن الواحد، ويؤلف قصيدة مقطوعة تنتهى كل مقطوعة منها بأحد هذه الأبيات متبعة وزنه، وبهذا يعد هذا البيت خرجة أو قفلاً=

على هذا أجاب دون كيخوتى:

- الأبناء، أيها السيد، هم قطع من أحشاء آبائهم، وهكذا يجب حبهم، سواء أكانوا طيبين أم أشراراً، مثل حبنا للروح التي تهبنا الحياة. ودور الآباء دفعهم منذ الطفولة في طريق الفضيلة، والتنشئة الطيبة، والعادات الصالحة والتقوية، حتى يصيروا عكاز الأبوين في شيخوختهما، ومجدداً طريفاً يمتد بعد المجد التليد، أما إجبارهم على دراسة هذا العلم أو ذاك لا أراه مصيباً، مع أن إقناعهم لن يكون ضاراً، وعندما لا تكون الدراسة واجبة عليهم من أجل أكل العيش، لكون الدارس محظوظاً، لأن السماء أعطته آباء يتركونه يفعل ذلك، سيكون، طبقاً لرأى، عليهم تركه أن يمضى في دراسة العلم الذى يروونه يعيل إليه أكثر، ومع أن الشعر أكثر لذة وأقل جدوى، إلا أنه ليس من الأسباب التي اعتادوا رؤيتها ضد المروءة والشرف لمن يمتننه. والشعر، أيها السيد الشريف، حسب رأى، مثل فتاة رقيقة، صبية وهيلة إلى أقصى أطراف الجمال، عند من يهتمون بإغناء الفتيات الأخريات وجلسوهن وتزينهن، اللاتي هن العلوم الأخرى، وهى عليها أن تخدم جميع الفتيات، وجميعهن عليهن أن يفرضن سلطانهن عليها، لكن هذه الفتاة لا تحب أن يتلفوها، ويجرروها إلى الشارع، ولا أن يشهروها على النواصي بالميادين أو أركان القصور. إنها مصنوعة من الكيميا ذات هذه الفضيلة، حتى إن من يعرفها يحولها إلى ذهب بالغ النقاء ذى ثمن لا يقدر بمال، وعلى من يمتلكها أن

= من فن توشيحى. وسوف يأتى مثال لذلك فى الفصل الثامن عشر، المهم أن ذلك سبب ترجمتى له بتوشيح.

يتركها تبرق، ولا يدعها تجرى في الهجاء الأحمق، أو السونيات الخالية من الروح، وألا تكون قابلة للبيع بأى شكل، إذا لم تأخذ شكل القصائد البطولية، أو التراجيديا الحزينة، أو الكوميديا المرحية ذات الحيل الفنية، كما لا يجوز أن تترك للتعامل مع الأوغاد والجهلة من العامة الخشنين، غير القادرين على فهم الكنوز المرصودة في داخلها. ولا تفكر، يا سيدى، أنى هنا أسمى عامة من هم متدنون أو أسافل الناس المتواضعون الحال، إنما أطلقها على من لا يعرف حتى لو كان سيداً أو أميراً، فهذا يمكن أن يدخل في عداد العامة الخشنين بل يجب أن يكون أحدهم. وهكذا، الذى يتعامل مع الشعر أو يمتلكه بتلك الشروط التى ذكرتها سيكون مشهوراً في كل أمم العالم المتحضرة ومقدراً . وبالنسبة لما تقول، يا سيدى، عن أن ابنك لا يقدر كثيراً شعر الرومانث، فإننى أفهم أنه لم يصب كثيراً في ذلك، والسبب هو أن هوميروس العظيم لم يكتب باللاتينية، لأنه كان إغريقياً، وفيرجيل لم يكتب بالإغريقية، لأنه كان لاتينياً. باختصار، كل الشعراء القدماء كتبوا باللغة التى رضعوا لبنها، ولم يذهبوا للبحث عن لغات أجنبية كى يكشفوا عن سمو مفاهيمهم، ولكون ذلك كذلك، فهتمت كل الأمم تلك العادة، فلا يفقد التقدير الشاعر الألمانى لأنه يكتب بلغته، ومثله الإسبانى، بل والبيشكايينى إذ يكتب بلغته. لكن ابنك(حسبما أتصور أنا يا سيدى) لا بد أنه ليس مفتقداً للتقدير نحو شعر الرومانث، بل نحو شعرائه، دون امتلاك لغات أخرى، أو علوم أخرى تزين وتوقظ وتساعد مواهبهم الطبيعية، ومع ذلك فمن الممكن أن يكون فى ذلك خطأ، لأنه طبقاً للرأى الصحيح، الشاعر يولد، أى أنسه يخرج من بطن أمه، شاعراً بالطبيعة، وبذلك الميل الذى وهبته له السماء،

دون علم أكثر، أو حرفية فنية، فهو يؤلف أشياء تجعل ما قاله (أوفيديو) حقيقياً: إنه يسير في السحاب... إلخ أيضاً، أقول إن الشاعر الطبيعي الذى يعين نفسه بالصنعة قد يكون أفضل بكثير من الشاعر الذى لمعرفته أصول الصنعة أحب أن يمارسها، لأن الصنعة لا تتفوق على الطبيعة، وإنما تمنحها الكمال، وهكذا إذا خلطت الصنعة بالطبيعة، والطبيعة بالصنعة، سيخرج عنهما الشاعر الأكمل. ومن ثم، ختام حديثي، أيها السيد العين، عليك ترك ابنك يسير إلى حيث يناديه نجمه، ولكونه طالباً مجتهداً، وقد انتهى من معرفة أول حلقة في العلوم لحسن الحظ، وهي حلقة معرفة اللغات، فإنه سوف يصعد بنفسه إلى قمة الآداب الإنسانية، والتي ستبرز سيماها عليه في صورة الفارس الكامل المكمّل، وهكذا سوف تزيّنه، وتكرمه وتعظم من شأنه، وكأنها التاج على رأس الأسقف عند تنصيبه، أو إهاب القاضى على رأس محكمته. وفخامتك تناهض ابنك إذا نظم قصائد هجاء قد تلوّث شرف الآخرين، وذلك بعقابه وتمزيقها له، أما إذا كتب قصائد جليلة على طريقة هوراسيو، حيث يستنكر النقائص في عمومها بشكل أنيق، فلتمنحه الثناء، لأنه مشروع أن يكتب الشاعر ضد الحسد، وأن يكيل الهجاء في أشعاره للحاسدين، وهكذا لكل النقائص الأخرى، دون الإشارة إلى شخص بعينه، لكن يوجد شعراء، مقابل قوله شر، يتعرضون للنفي إلى جزر بونتو^(*). وإذا كان الشاعر طاهراً في عاداته سيكون كذلك في شعره، والقلم لسان النفس، مهما كانت المفاهيم التي تتولد فيها، ستكون كتابته مثلها، وعندما يرى

(*) يشير إلى أوفيديو.

الملوك والأمراء علوم الشعر المعجزة في أشخاص حصيفة، وفاضلة، وجادة، يكرموفهم، ويقدرورهم، ويشروهم، وأيضاً يتوجونهم بأوراق الغار التي لا تطولها الصواعق، إشارة إلى أن من يتوج بها لن يطوله أذى أحد.

بقى فارس الرداء الأخضر مذهولاً من منطق دون كيخوتى، وملقياً برأيه عنه بأنه مخبول. لكن في منتصف هذا الحديث، سانشو الذى لم يكن ما يقال داخلاً فى مزاجه، انحرف عن الطريق ليطلب قليلاً من اللبن من الرعاة الذين كانوا هناك يحلبون فى هذه اللحظة بعض الغنمات، وخلال ذلك كان الرجل العين يحاول تجديد الحديث، راضياً إلى أقصى حد عن خطاب دون كيخوتى اللبق وحسن التوجيه، عندما رفع دون كيخوتى رأسه ليرى فى الاتجاه المعاكس لطريقهم عربة قادمة تغص بالأعلام الملكية، واعتقد أنها ينبغى أن تكون مغامرة جديدة؛ من ثم، نادى على سانشو بأعلى صوته ليناوله الخوذة. وعند سماعه، غادر سانشو الرعاة، وبكل السرعة التقط حماره، ووصل إلى سيده الذى وقعت له مغامرة مخيفة خالية من الصواب.

الفصل السابع عشر

حيث انكشفت النقطة الأخيرة والحدود القصوى لما وصلت واستطاعت الوصول إليه شجاعة دون كيخوتي فى مغامرة الأسود ذات النهاية السعيدة

تحكى القصة أنه عندما نادى دون كيخوتي على سانشو بصوت عال بأن يحضر له الخوذة، كان هذا يشتري بعض اللبن السرسوب من الرعاة، ومطارداً بعجلة سيده الصارخة، لم يعرف ماذا يفعل باللبن وكيف يحمله، وحتى لا يفقده بعد أن دفع ثمنه، تذكر أن يصبه فى خوذة سيده، وبهذا الحل السعيد عاد ليرى ماذا يريد سيده، الذى بادره حال وصوله بقوله:

– أعطنى، يا صاحبى، هذه الخوذة، فأنا أدرى القليل عن القادم من المغامرات حيث أكتشف هناك واحدة منها قد تجربنى على الدخول فيها، وعلى وضع أسلحتى على أهبة الاستعداد.

صاحب الرداء الأخضر، عندما سمع ذلك، مد بصره إلى كل الاتجاهات، ولم يكتشف شيئاً سوى عربية قادمة نحوهم، بعلمين أو ثلاثة أعلام صغيرة، وأوحى له أن مثل هذه العربية لا بد أن تكون حاملة أموالاً لجلالة الملك، وهكذا قال ما يظنه لدون كيخوتي، لكنه لم يصدقه، ظاناً ومعتقداً دائماً أن كل ما يحدث يجب أن يكون مغامرات، ومغامرات وراء مغامرات، وهكذا أجاب الفارس العين:

- الرجل اليقظ المتنبئ يكسب نصف المعركة قبل أن تبدأ المعركة، ولا تخيب لى نبوءة، فأنا أعرف بالتجربة أن لى أعداء مرتين، وآخرين غير مرتين، ولا أدرى متى أو أين، ولا فى أى وقت، أو فى أى صورة متقمصة، سوف يهاجمونى.

والنفت إلى سانشو، وطلب الخوذة، والذي لم يجد وسيلة لتفريغ اللبن منها مضطراً أن يسلمها له على حالها. تناولها دون كيخوتى، ودون أن ينظر لما كان داخلها، وضعها على رأسه فى غاية السرعة فانضغط السرسوب وانعصر وبدأ يجرى الشرش السائل على كل وجه دون كيخوتى ولحيته، مما أصابه بالفزع، وقال لسانشو:

- ماذا يمكن أن يكون هذا، الذى يبدو وكأن رأسى تذوب أو محى يراق، أو أننى أتصعب عرقاً من القدمين إلى الرأس؟ وإذا كنت أعرق، فالحقيقة أنه ليس من الخوف، وإنما دون شك لا بد أن تكون المغامرة التى تريد الوقوع لى الآن مرعبة. أعطنى- إذا كان معك- شيئاً أنظف نفسى به، فإن العرق المغرق يعمى بصرى.

أعطاه سانشو منديلاً فى صمت، وأعطى معه إلى الله كل الحمد، لأن سيده لم يدرك الأمر. جفف دون كيخوتى نفسه، وخلع الخوذة، ليرى أى شىء ذلك الذى -حسبما رأى - كان يبرد رأسه، وعندما رأى تلك التخثرات البيضاء داخل الخوذة، قربها من أنفه، وعندما شمها، قال:

- وحياة سيدتى دولثينيا دل توبوسو إنها بقايا لبن سرسوب قد وضعتها هنا، أيها الخائن، الشقى، حامل الدروع سئى المرأى.

وعلى هذا أجاب سانشو بفتور وانزواء:

- نعم إنه لبن سرسوب، أعطه لى فخامتكم لآكله، لكن ليأكله الشيطان الذى لا بد أنه هو الذى وضعه هنا. وهل كنت أجرؤ على أن أصيب خوذة

فخامتكم بقذارة؟ أوتراني أجرؤ! أقسم، يا سيدي، حسيما وصل علمي
ياذن الله، أني ينبغي أن يكون لي سحرة يطاردونني باعتباري من صنعكم
وعضواً من فخامتكم، وقد وضعوا في الخوذة ذلك الشيء حتى يستفزوا
غضبكم عن صبره، فتطحن ضلوعي كعادتك. حقاً، لقد ضربوا في الهواء
هذه المرة، لأني أثق في رجاحة عقل سيدي، الذي كان لا بد أن يضع في
اعتباره أنني لا أعمل سرسوباً أو لبناً، أو أى شيء آخر نظيرهما، وإذا كان
لدى مثل ذلك لوضعت في معدتي بدلا من الخوذة.

أجاب دون كيخوتي:

- كل شيء ممكن.

كان العابر العين يتعجب من كل هذا، وخاصة بعد أن نظف دون كيخوتي
رأسه ووجهه ولحيته والخوذة، ثم وضعها على رأسه، وثبت نفسه في الركاب
وطلب السيف وأمسك بالرمح، وقال:

- الآن فليات ما يأتي، فإنا الآن بروح عالية للقتال مع الشيطان شخصياً.

وهنا وصلت عربية الأعلام، ولم يكن بها أحد غير الحوذى على البغال،
ورجل آخر في مقدمتها. اعترضها دون كيخوتي، وقال:

- إلى أين تتجهان أيها الأخوان؟ وأى عربية هذه؟ وماذا تحملون بها؟ وأى أعلام
تلك؟

وعلى هذا أجاب الحوذى:

- العربية ملكي، وما تحمله أسدان متوحشان في أقفاص، يرسلهما الجنرال دى
أوران إلى البلاط، هدية إلى صاحب الجلالة الملك، أما الأعلام فهي لمولانا
الملك، علامة على أن العربية تحمل شيئاً يخصه.

سأل دون كيخوتى:

- وهل الأسدان كبيران؟

أجاب الرجل الذى يجلس فى المقدمة على باب العربة:

- كبيران جداً، فلم يرد إلى إسبانيا من إفريقيا آساد أكبر منهما قط، وأنا مروض الأسود، وقد روضت غيرهما، لكن مثلهما لم يقابلنى مطلقاً. وهما أنثى وذكر، والذكر فى هذا القفص الأول، والأنثى فى القفص الذى خلفه، والآن هما جائعان لأنهما لم يأكلا اليوم، وهكذا تنحّ فخامتكم عن الطريق، فإنه من الضرورى أن نسرع إلى حيث نقدم لهما الطعام

وعلى هذا أجاب دون كيخوتى، مبتسماً قليلاً:

- أسدان ضدى؟ ضدى أسدان، وفى هذه الساعات؟ إذن، بالله، ينبغى أن يرى هؤلاء السادة الذين أرسلوهما، إذا كنت ذلك الرجل الذى يفزع من الأسود. ترجل، أيها الرجل الطيب، حيث إنك مروض الأسود، وافتح هذين القفصين، وادفع هذين الوحشين إلى الخارج، وفى وسط هذه الحملة سوف أعرفهم من هو دون كيخوتى دى لامانشا، على الرغم من السحرة الذين أرسلوهما إلى.

قال فى هذه اللحظة العابر العين ذو الرداء الأخضر:

- يا الله، إن البشائر تقول من هو فارسنا الطيب؛ إن السرسوب سرسب رأسه وأنضح بخره.

اقترب منه سانشو عند ذلك، وقال له:

- سيدى، بحق الله، لتجد فخامتكم طريقة تجعل سيدى لا يقاتل هذين الأسدين، فلو فعل سوف يمزقنا إربًا إربًا.

أجاب العين:

- إذن، سيدك مجنون إلى هذا الحد، حتى تخشى وتظن أنه سوف يقاتل هذين الحيوانين المتوحشين؟

قال سانشو:

- ليس مجنونًا، بل جسورًا.

أجاب العين:

- سأعمل على ألا يقع هذا.

واقترب من دون كيخوتى وهو يستعجل المروض أن يفتح القفصين، وقال له:

- أيها السيد الفارس، الفرسان المشاءون يدخلون المغامرات التى تعدهم بالخروج منها منتصرين، وليست تلك التى تنزع منهم تمامًا أى أمل فى الانتصار، لأن الشجاعة التى تدخل فى عداد التهور، تتسم بالجنون أكثر من اتسامها بالقوة. وبالأخص فإن هذين الأسدين لم يأتيا ضد فخامتكم، ولا يحلمان بذلك، فهما هدية لجلالة الملك، وليس من الطيب إيقافهما أو إعاقة رحلتهما.

أجاب دون كيخوتى:

- فلتذهب أيها السيد الشريف إلى طيورك الأليفة وحيواناتك الشقية، ودع كل واحد يمارس ما يخصه. تلك معركة، وأنا أعرف إذا كانا يأتيان ضدى أو لا. هذان السيدان الأسدان.

والتفت إلى المروض، وقال له:

- أقسم أيها السيد السافل، إذا لم تفتح في الحال القفصين، فإنني سأزرعك بهذا
الرمح في العربة.

عندما رأى الحوذى عزم هذا الشبح المسلح، قال له:

- سيدى، بوركت، ومن باب البر، اتركنى أحل البغلتين، وأنجو بنفسى معهما
قبل إطلاق الأسدين، لأنهما لو قتلاهنا لى أضعت كل حياتى، فليس لى من
ثروة غيرهما وغير هذه العربة.

أجاب دون كيخوتى :

- أيها الرجل قليل الثقة! اهبط وفك بغلتيك، وافعل ما شئت، وبسرعة سترى
أنك فعلت ذلك عبثاً، وكان يمكنك توفير جهدك.

هبط الحوذى، وفك البغلتين بأسرع ما استطاع، وقال مروض الأسود
بصوت مرتفع:

- لتكونوا جميعاً شهوداً، يا من أنتم هنا، إننى أفتح القفصين ضد إرادتى، ومجبراً
أطلق الأسدين، وعلى ذلك أحتج على هذا السيد، وإن كل شر أو ضرر
ترتكبه هاتان الدابتان سيجرى ويكون على مسئوليته، وفوق ذلك مرتباتى
وحقوقى. فخامتكم، أيها السادة، فلتحاطوا قبل أن أفتح، لأنهما لن يسببا
لى ضرراً شخصياً كما أنا واثق.

ومرة أخرى أغراه العابر العين ألا يرتكب مثل هذا الجنون، وأن فعل هذا
الهاء ضلال لطريق الله، وعلى هذا أجاب دون كيخوتى أنه يعرف ما يفعل، وأجاب
العين أن عليه أن يتروى جيداً، فهو يدرك أنه يخدع نفسه. رد دون كيخوتى:

- والآن، يا سيدي، إذا كان فخامتكم لا تريد أن تكون شاهدًا على هذا الذي حسب رأيكم لابد أن ينتهي إلى مأساة، التقط فرسكم، وإلى النجاة.

عند سماع سانشو هذا، رجاءه، والدموع في عينيه، التنازل عن هذه المهمة، والتي بالمقارنة معها تعد مغامرة طواحين الرياح، ومغامرة مطارق النسيج حلوى وفتائر، وأخيرًا كل ما ارتكب من أمجاد لا شيء أمام هذا الخطر. ردد سانشو:

- انظر، سيدي، هنا لا يوجد سحر أو ما يناظره، فقد رأيت من بين قضبان القفص ظفر أسد حقيقي، وأستنتج منها أن مثل هذا الأسد هو صاحب هذا الظفر، وهو أكبر من جبل.

أجاب دون كيخوتي:

- الخوف سوف يظهره لك، على الأقل، أكبر من نصف العالم. انسحب، سانشو، واطركني، وإذا مت فأنت تعلم اتفاقنا القديم، فسوف تمرع إلى دولثينيا، ولن أقول لك ما هو أكثر.

ولهذا أضاف عبارات أخرى، بها نزع الأمل في أن يترك الاستمرار في هذا العزم الأكيد. أحب صاحب الرداء الأخضر أن يوقفه بالقوة، لكنه وجد نفسه لا يعادله في السلاح، ولم يجد من الذكاء مقاتلة مجنون، كما بدا له دون كيخوتي بكل سبيل. وهذا عاد لاستعجال المروض مكرراً تهديده له، والعابر خلال ذلك نال فرصة امتطاء فرسه، وامتطى سانشو حماره، والحوذي سحب بغلتيه، محاولين جميعاً الابتعاد عن العربة بأقصى ما تبلغ بهم السرعة، قبل أن تنطلق الأسود. كان سانشو يبكي موت سيده، الذي كان يعتقده دون شك أمراً أكيداً في مخالب الأسدين، ومضى يلعن حظه، ورأى أنها ساعة نحس تلك التي قرر فيها العودة لخدمته، لكن

ليس الندب أو البكاء كانا سببًا يمنعه من حث حماره على الإسراع بالابتعاد عن العربة. وعندما رأى المروض أن من كانوا يهربون قد ابتعدوا تمامًا، عاد ليعلن دون كيخوتي ويطلب منه ما سبق أن أعلنه وطلبه، والذي أجاب بأنه يسمعه، وأن ذلك لن يثنيه، فكل شيء سيكون مكسبًا محضًا، وليس عليه إلا أن يسرع.

وخلال الفترة التي استغرقها المروض في فتح القفص الأول فكر دون كيخوتي أنه من الأفضل خوض المعركة راجلاً من خوضها راكبًا، وأخيرًا قرر خوضها على قدمه، خوفًا من فزع روثينانتي من مشهد الأسدين. ولهذا أطلق الحصان، وأشهر الرمح، واحتمى بالدرع، وأخرج السيف من غمده، وخطوة وراء خطوة، في رشاقة وزهو، وقلب قوى، راح ليضع نفسه أمام العربة، متوكلاً على الله من أعماق القلب ثم على سيده. وعند معرفة وصوله إلى هذه الخطوة، مضى مؤلف هذه القصة الحقيقية يصيح عجبًا ويقول: "دون كيخوتي دى لامانشا، أيها القوى، والشجاع الغالى، أيها المرأة حيث يمكن أن يروا أنفسهم كل شجعان العالم، أيها الدون مانويل دى ليون الثانى والجديد، والذي كان فخارًا لكل الفرسان الإسبانية! بأى كلمات سوف أحكى هذا المجد المخيف، وبأى عبارات أصوغها حتى تصدقها العصور القادمة، وأى ثناء يناسب أو يتسع لهذا، حتى لو صار مبالغة المبالغات؟ أنت على قدمك، أنت وحدك، أنت الجسور، أنت الأمجد، بسيف واحد فقط، وليس من السيوف القاطعات الكلبية،(*) وبدرع ليس شديد اللمعان أو جيد صقل الصلب، ها أنت تنتظر لتعالج الأسدين المتوحشين، اللذين لم تنشئ الغابات الإفريقية مثلها قط. أفعالك نفسها هي التي تثني عليك، أيها المانشاوى الشجاع، وأتركها عند هذه النقطة حيث تنقضى الكلمات التي بها أعلى من قيمتها".

(*) سيوف عريضة تحمل ماركة على صورة كلب.

هنا وقفت صيحة تعجب المؤلف، ومضى إلى الأمام مستأنفاً خيط القصة قائلاً: وعندما رأى مروض الأسود دون كيخوتي، وقد أخذ وضع القتال، لم يستطع تجنب إطلاق الأسد الذكر، تحت احتمال وقوع الفارس الغاضب الجسور في نكبة، ففتح باب القفص الأول على مصراعيه، حيث كان، كما سبق القول، الأسد الذكر، والذي بدا في حجم عظيم غير عادي وهينة مخيفة وقبيحة. أول ما فعل هو الاضطراب داخل القفص، حيث كان مخلبه مشهراً وممتدّاً، ثم تمطى بكليته، وفتح فمه بعدها وتناعب ببطء شديد، وتقريباً بشبرين من لسانه أخرجهما من فمه ومسح عينيه، وغسل وجهه، وعندما انتهى من ذلك أخرج رأسه من القفص، ونظر في كل اتجاه بعينين صارتا جمرتين، مرأى وإشارة كي يبث الخوف في الشجاعة نفسها. فقط دون كيخوتي، كان ينظر إليه في تيقظ، راغباً في أن يقفز من العربة، حتى يقع بين يديه ليمزقه إرباً.

حتى هنا، وصل إلى الطرف النهائي لجنونه الذي لم يُر مثله قط. لكن الأسد الكريم، المهذب أكثر منه المتعطر، والذي لا يعير الصيانيات ولا الشطحات أي انتباه، بعد أن نظر هنا وهناك، كما سبق القول، أعطى ظهره، وأبرز عجزته لدون كيخوتي، وبفتور عظيم ووداعة ألقى بنفسه في القفص، وعندما رأى ذلك دون كيخوتي، نادى على المروض حتى يضربه بسوطه، كي يستقره للخروج.

أجاب المروض:

- هذا لن أفعله أنا، لأنني لو استفزته، الأول الذي سوف يمزقه هو أنا نفسي. وفخامتكم، أيها السيد الفارس، يجب أن ترضى بما وقع، فهذا كل ما يمكن أن يقال عن جنس الشجاعة، ولا حاجة لإغراء الحظ من جديد. الأسد أمامه الباب مفتوح، وفي يده الخروج أو عدم الخروج، وهو لم يخرج حتى الآن مع ذلك، ولن يخرج طول اليوم. وجسارة قلبكم العظيمة تم إظهارها، ولا يوجد

أى مقاتل باسل (حسب علمي) مضطر إلى أكثر من تحدى عدوه، وانتظاره في حملة، وإذا العدو لم يهرع للقتال، فعليه يبقى العار، والمنتظر يكسب تاج الانتصار.

أجاب دون كيخوتى:

- هذا حق، أغلق، أيها الصديق، الباب، واشهد بأفضل ما تستطيع عما رأيتنى أفعله هنا، فمن المناسب أن يعرفوا كيف فتحت أنت الباب، وأنا انتظرته، وهو لم يخرج، وعدت لانتظاره، وعاود عدم الخروج، ثم اتكأ على أرض قفصه. ليس على أكثر من ذلك، وكل السحر أخذه الشر وطار، والله المستعان على الحق والصدق، وعلى الفروسية الحقيقية، وأغلق الباب كما قلت لك، وخلال ذلك أرسل إشارات إلى الهاربين، كى يعرفوا من فمك هذا الفعل الماجد لى.

وهكذا كان من المروض ومنه، الأول أغلق الباب، ودون كيخوتى رفع المنديل(الذى مسح به الوجه من مطر السرسوب) فوق رمحه، وبدأ فى مناداة الذين لم يتركوا طريق الهرب، ولم يتركوا أيضاً الالتفات خلفهم فى كل خطوة، وكل فى فريق يقوده العين الأخضر؛ لكن سانشو رأى فى المنديل الأبيض فوق الرمح إشارة سيده، فقال:

- فلتقتلوني، إذا لم يكن سيدى قد تغلب على الدابتين المتوحشتين، فهما هو ينادينا.

توقف الجميع، وعرفوا أن من يرسل الإشارات هو دون كيخوتى الذى كان ينادى عليهم. وأخيراً، عادوا إلى العربة، وعند عودتهم قال دون كيخوتى للحدوى:

- عد أيها الأخ لربط بغلتيك بالعربة، ولمواصلة رحلتك، وأنت سانشو أعطه دينارين من الذهب، من أجله، ومن أجل المروض، تعويضاً عن إيقافهما.
أجاب سانشو:

- سأدفع ذلك بكل رضا، لكن، ماذا فعل الأسدان؟ هل هما ميتان أو حيان؟

وهنا، قص مروض الأسود بتفصيل ووقفات نهاية الموقعة، مبالغاً بأفضل ما استطاع، وبأفضل ما عرف من شجاعة دون كيخوتي، الذى جبن الأسد عندما رآه، ولم يحب ولم يجرؤ على الخروج من القفص، على الرغم من إعطائه فسحة كبيرة من الوقت مع باب القفص المفتوح، ولأنه قال لهذا الفارس، إنه إغضاب الله استفزاز الأسد حتى يخرج بالقوة، كما أراد هو أن يستفزه رغم أنفه، وضد كامل إرادته، وهنا سمح له أن يغلق الباب.

قال دون كيخوتي:

- كيف يبدو لك ذلك سانشو؟ هل هناك سحر له قيمة ضد الشجاعة الحقيقية؟
يمكن للسحرة أن ينزعوا عنى الحظ، لكن الجهد والشجاعة أمر مستحيل.

أعطى سانشو الدينارين، وربط الحوذى البغلين، وقبل المروض يدئ دون كيخوتي لما أنعم عليه، وواعد أن يحكى هذا العمل الماجد للملك نفسه، عندما يراه فى البلاط.

- إذن، إذا سأل جلالة الملك كما يحتمل عمن فعل ذلك، قل له "فارس الأسود"، فمن الآن فصاعداً، أحب أن أغير وأقايض وأبادل بهذا اللقب، ذلك اللقب الذى احتفظت به حتى الآن وهو "الفارس صاحب الصورة

الحزينة"، وبهذا أتبع العادة القديمة للفرسان المشائين، الذين كانوا يغيرون أسماءهم عندما يريدون، أو عندما يطابق الاسم الجديد من أعمالهم.

واصلت العربة طريقها، ودون كيخوتى وسانشو وصاحب الرداء الأخضر واصلوا هم أيضاً طريقهم.

فى كل هذا الفراغ من الزمان، لم ينطق دون ديجو دى ميراندا بكلمة واحدة، مع يقظة كاملة وملاحظة لأقوال دون كيخوتى وكلماته، وبدا له أنه ذكى مجنون. أو مجنون ينشد التعلل. لم يكن وصل إلى علمه حتى تلك اللحظة القسم الأول من قصته، الذى لو كان قد قرأه لتوقف تعجبه من أفعاله وكلماته، من ثم كان سيعرف نوع جنونه؛ ولكن حيث إنه لا يعرفه، أخذ ماخذ العاقلين، وماخذ المجانين، لأن كلامه كان مصيباً، وأنيقاً، وحسن المنطق، وما كان يعمل يدخل فى مجال الترهات الجريئة والبلهاء. وكان يقول لنفسه: "أى جنون أكثر من لبس الخوذة مليئة بالسرسوب، مع تصور أن السحرة قد ألانوا أو أذابوا رأسه؟ وأى جسارة وبلاهة أكبر من الرغبة فى قتال الآساد عنوة؟

من هذه التصورات والحوار الداخلى مع الذات أخرجته دون كيخوتى، قائلاً له:

- من يشك، أيها السيد دون ديجو دى ميراندا، أن فخامتكم لا ترائى إلا رجل ترهات مجنون؟ وليس كثيراً أن يصدق ذلك لأن أعمالى لا يمكن أن تشهد بغير ذلك. ومع كل هذا، أحب أن تعلم فخامتكم أننى لست بهذا الجنون أو ذلك السفه، الذى لا بد أنه قد بدا لك. قد يبدو رائعاً أمام عيون مليكه، فارس شجاع فى وسط حلبة كبيرة، يغرز فى حفل سعيد رحمه فى ثور مصارعة، وها هو مسلح بأسلحة متألثة، يهتف بمنديله فى مبارزة بهيجة

أمام السيدات، وقد يبدو منظر كل أولئك الفرسان رائعاً في تمارينهم الحربية أو في مظهرهم البادى، يسلون ويهجون، وإذا أمكن القول، فهم يشرفون بلاطات أمرائهم، لكن فوق هؤلاء جميعاً يبدو الفارس المشاء، أفضل الذى عبر الصحارى، وعبر الوحدة والوحشة، وعبر معابر الطرق، وعبر الغابات، وعبر الجبال، يمشى باحثاً عن مغامرات خطيرة، بنية أن يصل بها إلى ذروة سعيدة وطيبة، فقط لنيل شهرة مجيدة وخالدة، وأقول يبدو أفضل، فارس مشاء ينجد أرملة في قفر، من فارس بلاط يغازل صبية في المدينة. وكل الفرسان لهم ممارستهم الخاصة، يخدم فارس البلاط السيدات، يجرس أبواب قصر مليكه، ويعين الفرسان الفقراء بالطبق الفضة على مائدته، وينظم المبارزات، ويعقد حلقات الألعاب، ويظهر العظمة والكرم والرفعة، تقى طيب قبل أى شىء، وبهذه الطريقة ينجز واجباته الدقيقة، لكن الفارس المشاء يبحث عن أركان الدنيا، ويدخل في أكثر مناطق التيه تيهًا، يهاجم في كل خطوة المستحيل، ويقاوم في القفار غير المعمورة أشعة الشمس في ذروة الصيف، والقسوة الصارخة للرياح في الشتاء، مع الجليد، لا تخيفه الآساد، ولا ترعبه العفاريت أو الجن، وهكذا البحث عن هذا، ومهاجمة ذاك، والانتصار على الجميع بممارسته المبدئية والحقيقية. فأنا، إذن، كما ناسب حظى أن أكون في عداد الفروسية المشاءة، لا أستطيع ترك خوض ذلك الذى يبدو لى داخلًا فى قانون مهنتى، وهكذا حدثت مهاجمة الآساد التى قمت بها الآن يحق لى وعلى، رغم معرفتى أنه جسارة طائشة، لأنى أعلم جيداً أن الشجاعة فضيلة موضوعة بين طرفين فاسدين هما الجن والجسارة، لكنه أقل سوءاً أن الشجاع يلمس ويصعد ذروة الجسور، ولا يهبط أو يمس ذروة

الجبان، وهكذا فإن المبدّر يمكن أن يصير كريماً، لكن البخيل لا، ومثله الأسهل أن يكون الجسور شجاعاً حقيقياً، لكن الجبان لا يرقى إلى الشجاعة. وحول خوض المغامرات، صدقني، دون ديجو، أنه أفضل أن تفقد أكثر من أن تفقد أقل، حيث يرى أفضل في الأذن قولهم "هذا الفارس جسور ومقدام" من قولهم "ذلك الفارس هيّاب وجبان".

أجاب الأخضر:

- أقول، أيها السيد دون كيخوتي، إن كل ما فعله أو قاله فخامتكم يمضي مستويًا مع صدق المنطق نفسه، وأنا أفهم أن كل تعليمات الفروسية المشاءة ومبالغاتها، التي ضاعت، توجد في صدر فخامتكم، كما لو كان نفس مستودعها وأرشيدها. وهيا نسرع، حيث يتأخر الوقت، ولنصل إلى قريري وبيني، حيث تستريح فخامتكم من العمل المنصرم، والذي إن لم يكن أرهق الجسم، فقد أرهق الروح، وهذا أمر تعود على الانعكاس على الجسم.

أجاب دون كيخوتي:

- أقبل العرض بكل امتنان للجميل، أيها السيد دون ديجو.

وحثوا الدواب، أكثر مما فعلوا حتى تلك اللحظة، فوصلوا عند الثانية مساءً إلى قرية وببيت دون ديجو، الذي أطلق عليه دون كيخوتي اسم الفارس ذي الثوب الأخضر.

الفصل الثامن عشر

ما حدث لدون كيخوتي في بيت فارس الرداء الأخضر أو قلعته مع أشياء مما يستغرب

وجد دون كيخوتي بيت دون ديجو دي ميراندا واسعًا مثل قرية كاملة، الأسلحة على باب الشارع، حتى لو كانت من الحجر الجيري، ومستودع النبيذ في الفناء، والكهف عند البوابة، ودنان كثيرة في صفوف دائرية، ولكونها مستوردة من التوبوسو، جددت ذكريات سيدته دولثينيا المسحورة في تحول للصورة، وهكذا تنهد ودون أن يتأمل ما يقول، ولا أمام من كان، قال:

أوه، أيتها الدنان الحلوة، لقد وجدت لآلامي

حلوة، ومبهجة، عندما يشاء الله، أنت!

أوه، أيتها الدنان التوبوسية، التي استحضرت لذاكرتي الدرة الحلوة لمراتي الكبرى.

سمعه يقول ذلك الدارس الشاعر ابن دون ديجو، الذي خرج مع أمه لاستقباله، والأم والابن بقيا متعجبين من صورة دون كيخوتي، الذي عندما ترجل عن روثينانتي مضى طالبًا يديها ليقبلها بأدب جم، وهنا قال دون ديجو:

- استقبلي، سيدتي، بترحيبك المعتاد، السيد دون كيخوتي دي لامانشا، والذي

تحظين بمرآه أمامك، فارس مشاء، وهو أشجع وأذكى من على وجه الأرض.

السيدة، والتي كانت تسمى دونيا كريستينا، استقبلته بدلائل حب كبير، وأدب كثير، ودون كيخوتي قدم لها فيضًا من الحكمة وعبارات المجاملة. ونفس العبارات تقريبًا استخدمها مع الدارس، الذي عند سماعه له رأى فيه نكاه وحدة فطنة.

وهنا رسم لنا المؤلف كل ظروف بيت دون ديججو، مصورًا لنا فى تلك الظروف ما يحتويه بيت فارس مزارع، وثرى، لكن مترجم القصة بدا له تجاهل هذه وتلك من التفاصيل الشبيهة، وصمت عنها لأنها لم تناسب غرض القصة الرئيسى، تلك القصة التى تستمد قوتها من الحقيقة، أكثر من الاستطرادات الباردة.

أدخلوا دون كيخوتى فى إحدى الصالات، وخلع سانشو عنه سلاحه ، وبقي فى سراويل فلمنكية، وصديرى من الجلد، فى غاية القذارة والتدهن بسبب وسخ السلاح، أما ياقاته التى انسدت على كتفه من قميصه، فكانت طلابية غير مُنشأة، ودون تطريز، أما الحذاء فقد كان بلحى اللون، يلمع بغشاء من الشمع. تحزم بسيفه الصقيل، الذى كان ذا حمالة من جلد ذئب بحرى، يرون أنه بقى سنوات كثيرة مريضًا بالكليتين، وألقى على نفسه عباءة برقبة دون طرطور يغطى الرأس من نسيج جيد بنى اللون. لكن قبل كل شيء، بخمس أباريق أو ست من الماء (هناك اختلاف فى حجم الأباريق) غسل رأسه ووجهه، وحتى انتهى ظل ماء الغسيل بلون الشرش، بفضل أطعمة سانشو الشهية وسرسوبه الذى طلى سيده باللون الأبيض. وبالملابس المذكورة، وبكل ملاحه مستطرفة ورشاقة، خرج دون كيخوتى إلى صالة أخرى، حيث كان ينتظره الابن الدارس ليخبره أن المائدة معدة، وبسبب وصول الضيف عظيم النبالة، السيدة دونيا كريستينا أحببت أن تظهر أنها تعرف وتستطيع أن تدلل من يحلون على بيتها ضيوفًا.

وخلال فسحة الوقت التى كان يخلع فيها دون كيخوتى سلاحه، تمكن دون لورنثو، وهكذا كان يسمى ابن دون ديججو، من أن يقول لوالده:

- ما نقول عن هوية هذا الفارس الذى أحضرته فخامتكم إلى البيت؟ فالاسم والشكل والقول أنه فارس مشاء، يذهلنى ويذهل والدتى.

أجاب دون دييجو:

- لا أدرى يا بنى ما أقول لك، فقط أستطيع القول إنى رأيتَه يقوم بأعمال أعظم
مجنون في العالم، وينطق بعبارات في غاية الفطنة، تمسح وتزيل أثر أفعاله.
كلمه أنت، وقس نبض معرفته، فأنت ماهر الذكاء، واحكم عليه بين الفطنة
أو البلاهة طبقاً للمنطق، ومع ذلك، كى أقول الحق، فأنا أراه مجنوناً قبل
رؤيتى لعقله.

وبهذا ذهب دون لورنثو لتسليّة دون كيخوتى، كما استقر القول، وبين
مسامرات أخرى، تبادلها كلاهما، قال دون كيخوتى لدون لورنثو:

- السيد دون دييجو دى ميراندا، والد فخامتكم، حدثنى عن المقدرة النادرة،
والعبقرية التى تتمتع بها فخامتكم، وفوق كل شىء أن فخامتكم شاعر عظيم.

أجاب دون لورنثو:

- شاعر، من الممكن، لكن عظيم، ولا يرد على تفكيرك. والحقيقة أنى مغرم
بالشعر كثيرا، وأقرأ الشعراء العظام، لكن ليس بالطريقة التى يمكن أن
تعطينى لقب "عظيم" الذى أطلقه علىّ والدى.

أجاب دون كيخوتى:

- لا يبدو لى هذا التواضع سيئا، لأنه لا يوجد شاعر دون أن يكون متغطرسا،
ويظن نفسه أعظم شاعر فى العالم.

أجاب دون لورنثو:

- لا توجد قاعدة دون استثناء، وقد يوجد الشاعر العظيم، دون أن يظن نفسه كذلك.

أجاب دون كيخوتى:

- قليل، لكن فخامتكم، أى أشعار بين يديكم الآن، كما قال لى والد فخامتكم، تتركك قلقاً ومتأملاً؟ فإذا كانت توشيحاً، فإننى أمتلك شيئاً من علل التوشيح، ويسعدنى معرفته، أما إذا كانت مسابقة أدبية، فحاول فخامتكم الحصول على الجائزة الثانية، لأن الجائزة الأولى هى فضل وامتياز شخص الإنسان نفسه، أما الثانية فهى مجرد العدل فى التحكيم، وهكذا فالجائزة الثالثة تكون الثانية، والأولى على هذا الحساب تكون الثالثة^(*)، على الطريقة التى تمنح بها الشهادات الجامعية، لكن مع كل هذا إنه شخص عظيم من يحمل اسم الأول.

قال دون لورنثو لنفسه:

- حتى الآن، لا أستطيع أن أحكم عليه بالجنون، فلنواصل!

وهكذا قال له:

- يبدو لى أن فخامتكم قد درست بالمدارس، فأى علوم درست؟

أجاب دون كيخوتى:

- علم الفروسية المشاءة، وهو علم فى جودة الشعر، بل أكثر جودة من الشعر بمسافة.

رد دون لورنثو:

- لا أدرى أى علم سيكون ذاك، فحتى الآن لم يصل إلى مسامعى ذكره.

(*) التعليم الجامعى ثلاث حلقات، ثالثها الدكتوراه، وعلى هذا تميز الإنسان وهو الجائزة الأولى فى رأيه - يعادل الدكتوراه (والأولى على هذا الحساب تكون الثالثة)، حيث إن الثالثة تحل محل الأولى، فتصير الثالثة الثانية (تعادل أيضاً الدكتوراه)... إلخ.

رد عليه دون كيخوتى:

- إنه علم يضم بداخله كل أو معظمها علوم العالم، حتى إن الذى يمارسه لا بد أن يكون فقيهاً فى القانون؛ وعالماً بقوانين عدالة التوزيع والاجتماع، لكى يعطى لكل واحد ما يخصه وما يناسبه، كما ينبغى أن يكون عالم لاهوت، حتى يستطيع أن يرضى قانون التقوى الذى يمارسه بشكل واضح ومتميز، حينما طلب منه ذلك، وعليه أن يكون طبيباً، حتى يعرف وسط القفار والصحارى الأعشاب، التى لها ميزة شفاء الجروح، فليس له أن يسعى كل لحظة باحثاً عن يعالجه، وينبغى أن يكون فلكياً، حتى يعرف عن طريق النجوم كم ساعة مرت من الليل، وفى أى جزء أو مناخ من العالم يوجد، كما يجب عليه معرفة الرياضيات، لأنه فى كل خطوة ستنبثق حاجته إليها، وتاركين جانباً ضرورة أن يتزين بكل فضائل الدين والأخلاق، هابطين إلى تفاصيل دقيقة أخرى، أقول إن عليه أن يعرف العوم، ويقولون إن نيكولاس أو نيكولاو^(*) الإنسان السمكة كان يعوم، كما يجب أن يعرف تركيب حدوده حصانه، وترتيب سرجه وعنانه وعدته. وعائدين فى الصعود إلى ما سبق، عليه أن يحافظ على إيمانه بالله، وعلى وفائه لسيده، وعليه أن يكون طاهر التفكير، عفاً اللسان، كريم الأعمال، شجاع الأفعال، يتحمل الجهد، يبر المضطرين، وأخيراً، ألا تأخذه فى الحق لومة لائم، حتى لو كلفه الدفاع عنه حياته. من كل هذه العناصر الكبرى والصغرى يتشكل الفارس المشاء، حتى ترى، فخامتكم دون لورنثو، عما إذا كان علماً هيناً، ذلك الذى

(*) إنسان أسطورى نصفه سمكة، ينتمى لأساطير القرن الرابع، كان يعيش فى البحر أكثر

من البر.

يدرسه الفارس ويمارسه، وعمّا إذا كان يمكن مساواته بما يدرس في العلم والمدارس من علوم ذات اتساع.

أجاب دون لورنثو:

– إذا كان كذلك، فإنّ أقول إنه يكسب كل العلوم الأخرى.

أجاب دون كيخوتى:

– كيف تقول إذا كان كذلك؟

قال دون لورنثو:

– ما أحب قوله إننى أشك أنه وجد أو يوجد فرسان مثّاءون بكل هذه الفضائل الغزيرة.

أجاب دون كيخوتى:

– مرات كثيرة قلت ما أعود لقوله الآن: إن معظم الناس في العالم يقفون مع الرأى أنه لم يسبق وجود فرسان مثّائين في ذلك العالم. وحسبما أرى إذا السماء لم توقع في وعيهم بمعجزة معرفة حقيقة أنه وجد ويوجد، فأقناعهم يضيع سدى (كما أظهرته تجربتى مرات عديدة)، ولا أريد التوقف الآن لإخراج فخامتكم من الخطأ الذى تقع فيه مثل كثيرين، وما أفكر في فعله هو التوسل للسماة أن تخرج منه، وتجعلك تعى كم هم كانوا مفيدين وضروريين للعالم هؤلاء الفرسان المشاءون في العصور الماضية، وكم هم مفيدون في الحاضر إذا مارسوا فروسيّتهم، لكن ينتصر الآن بسبب آثام الناس الكسل والبطالة والشرهة والتدلل.

قال فى هذه اللحظة دون لورنثو لنفسه:

- لقد هرب ضيفنا، لكن مع كل ذلك، هو مجنون باسل، وسأكون أنا مخبولاً
ضعيفاً إذا لم أعتقد ذلك.

وهنا أنهيا حوارهما، لأنهم نادوهما للطعام. سأل دون ديجوابنه عما استنتج
بنظافة من عبقرية الضيف. وعليه أجاب:

- لن يخرج من مستنقع جنونه أفضل ما يحتوى العالم من أطباء وحكماء، إنه
مجنون مختلط العقل مع لحظات متقطعة مضيئة.

ذهبوا للطعام، وكان الطعام كما ذكر دون كيخوتى فى الطريق مما تعود
تقديمه لضيوفه: طعام نظيف، وافر، شهى، لكن ما أسعد دون كيخوتى أكثر كان
الصمت العجيب الذى يغمر كل البيت، حتى إنه كان يشبه دير رهبان كرتوزيين.
وعند رفع المائدة، وحمد الله كل الحمد، الماء وانصاب يغسل اليدين، طلب دون
كيخوتى بالباح من دون لورنثو أن يذكر الأشعار الأدبية له، فأجاب أنه ليس من
الشعراء الذين إذا رجوهم ترتيل أشعارهم رفضوا، وعندما لا يطلبونها
يستفرونها، سوف أذكر قصيدتى فى التوشيح، ولا أنتظر عليها جائزة، فقط
نظمتها لممارسة هواى الشعرى.

أجاب دون كيخوتى:

- صديق لى ورجل ثقافة، كان رأيه أنه لا ينبغى إرهاق أحد فى نظم توشيح
شعرى، والسبب، كما كان يقول هو، أن البيت الموشح لا يصل إلى
الانسجام مع النص أو المقطوعة السابقة عليه أبداً، وفى مرات كثيرة، بل فى
أغلب المرات تخرج عملية التوشيح عن القصد الذى طلب من الوشاح
الوصول إليه، وأكثر من ذلك فإن قوانين التوشيح كانت شديدة الصرامة،

لا تحتتمل المساءلة أو ترديد قال أو سأقول، ولا استعمال أسماء من الأفعال، ولا تغيير المعنى، مع قيود أخرى وتضييق، حتى إن من يوشحون بمضون مقيدين، كما تعرف فخامتكم.

قال دون لورنتو:

- حقيقة، أيها السيد دون كيخوتي، إني لا أرغب أن أحمل فخامتكم إلى لا تينية ملحونة، ولا أستطيع، لأنها تنزلق من يدي مثل ثعبان الماء.

أجاب دون كيخوتي:

- لا أفهم ما تود فخامتكم قوله من (انزلاق) من يديك.

أجاب دون لورنتو:

- سوف أفهمك، والآن انتبه فخامتكم للأبيات التي سأوشحها ثم للتوشيح. الأبيات تقول:

(١) ويصير بذاتي "كان" إلى "يكون"

(٢) دون أن يكون هنا انتظار لـ "يكون"

(٣) وإما أن الزمن يجيء

(٤) من القادم فيما بعد

التوشيح

في النهاية، كل شيء يزول

وهكذا راح عني الطيب الذي أعطانيه

الحظ وقتًا لم يكن بالقليل

فقط بعدها ما أعادنيه
ليس بوفرة وليس بقليل
عصورًا عصراً بعد عصر تراني به
أيها الحظ أركع تحت قدميك (ذليل)
زمن المخطوظ أعدني له
فأصير إلى السعد والقبول
(١) ويصير بذاتي "كان" إلى "يكون"

*

لا أريد سرورًا آخر أو مجدًا
أو تصفيقًا أو غلبة
أو عزًّا أو نصرًا
فقط أعد السعد والقبول
فلا يبقيان فحسب أنقال الذكرى
إذا أعدتني هناك
أيها الحظ، كم هو معتدل
كل صارم من نيراني
إذا عاد الطيب في الحال أكثر
(٢) دون أن يكون هنا انتظار "يكون"

*

أطلب أشياء مستحيلة
أن يعود الزمن "يكون"
بعد أن صار "كان"
لا يوجد في الأرض سلطة
تتد يداها إلى هذا البعيد
يجرى الوقت، يطير، يروح
في خفة ولن يعود
وسوف يخطئ من يطلب
إما أن يذهب الزمن
(٣) وإما أن الزمن يجيء

*

الحياة في حياة مترددة
بين انتظار وترقب
هو موت معروف
والأفضل الموت
بمخًا عن مخرج للألم
تلك أشواقى أن

أنتهى لكن لا يكون

إذن مع تعقل الحياة قُبني الخوف

(٤) من القادم فيما بعد

*

وعند انتهاء دون لورنثو من ترتيل توشحه نهض دون كيخوتى على قدميه، وبصوت مرتفع، مثل الصباح، ممسكاً بيده يد دون لورنثو اليمين، وقال:

- لتحيا السماوات حيث هي في علاها، أيها الفتى الكريم، إنما أنت أفضل شاعر في كوكبنا، وإنك لتستحق أن تتوج بالغار، ليس على يد قبرص أو غايتا، كما قال أحد الشعراء (عفا الله عنه)، إنما على يد أكاديميات أثينا لو كانت توجد اليوم، وعلى يد الأكاديميات التي توجد اليوم مثل أكاديميات باريس وبولونيا وسلمنقة! لتكن صلاتك لله ألا ينزع عنك المحكمون الجائزة الأولى، وإلا فإن "فيبو" سوف يرشقهم بسهامه، ولن تعبر عرائس الشعر عتبات منازلهم، أسمعني يا سيدى بعض أشعار أعلى، حيث أحب أن أقيس حتى الأعماق نبض عبقريتك المعجبة.

أليس طريفاً أن يغتبط دون لورنثو أن رأى نفسه يستقبل ثناء دون كيخوتى مع أنه يراه مجنوناً؟ أوه، أيتها القوة العارمة للثناء، على من تمتدين إليه، وكم هي حدودك البعيدة هي حدود التشريع البهيج! هذه الحقيقة أعطاهها مصداقية دون لورنثو، حيث تنازل أمام طلب دون كيخوتى ورغبته، مرتلاً سونيتاً حول حكاية أو قصة بيرامو وتسبى:

السور يحطم الصبية الحسناء
التي فتحت لبيرو صدرها البهي
يغادر الحب قبرص، ويمضى إلى الأمام
حتى يرى الشرخ الضيق والمعجز

*

يتحدث الصمت هناك، لأنه لا يجزؤ
وال... صوت يدخل في ذلك المضيق الضيق
أما الأرواح فنعم، فالحب يعتاد الفعل:
يسهّل أصعب الأشياء

*

خرجت الرغبة في توافق، والخطى
للعدراء المندفعة العاشقة
وموقها سرورها، فلتروا كم هي حكاية!

*

ومعاً في انطباق النقطة على نفسها، أى حال عجيب!
أماقهما، وسترهما، وبعثهما
سيف، وقبر، وذكرى

- تبارك الله! (كانت صرخة دون كيخوتى عند سماعه سونيتا دون لورنشو، ثم واصل القول)، بين الشعراء اللامهايين المستهلكين الموجودين، قد رأيت شاعراً ارتقى للكمال، وهذا فخامتكم، سيدى أنا، هكذا أستببط من حرفيتكم الفنية!

بقى دون كيخوتى أربعة أيام مع التدليل الشديد فى بيت دون ديججو، وفى نهايتها طلب إذنًا للرحيل قائلاً له إنه شاكر للنعمة وحسن المعاملة التى استقبلها فى بيته، ولأنه لا يبدو طيباً أن الفرسان المشائين يقضون الساعات الطويلة فى البطالة والتدليل، فهو يود الذهاب حتى يمارس مهمته، باحثاً عن المغامرات التى لديه خبر أنها تكثر بهذه البلاد، حيث يفكر فى إزجاء الوقت حتى يصل يوم المبارزات فى سرقسطة، الذى كان يوم غلبته الشريفة. لكن عليه أولاً دخول كهف مونتي-سينوس، الذى كانوا يحكون عنه أشياء عجيبة وكثيرة، فى هذه المناطق، عالماً وطالباً فى نفس الوقت المنبع، والعيون الحقيقية للبحيرات السبع، المسماة عند العامة "رويديرا" دون ديججو وابنه امتدحا عزمه الشريف، وقالوا له أن يأخذ من بيتهما ومن مالهما كل ما يطيب له، وأنهما سوف يخدمانه بكل إرادة ممكنة، مما يدفعهما إليه شجاعة شخصه، ومهنته الشريفة.

وفى النهاية وصل يوم رحيله، السعيد بالنسبة لدون كيخوتى، وكثير الأحزان بالنسبة لسانشو بانثا، الذى كان فى خير حال مع وفرة بيت دون ديججو، وكان حرونا ضد العودة للجوع المعتاد فى المروج والقفار، ولضيق زوادة خرجه السيئ، ومع كل هذا ملأ الخُرج حتى فاض من كل ما هو أكثر ضرورة حسب رأيه، وعند الوداع، قال دون كيخوتى لدون لورنشو:

- لا أدري إذا كنت قلت لفخامتكم مرة أخرى، وإن أكن قلته، سأعود لقوله، عندما تود تقصير الطرق والجهد، للوصول إلى الذروة المحرمة لمعبود "الشهرة"، ليس عليك فعل شيء آخر غير ترك طريق الشعر، وهو ضيق إلى حد ما، واسلك الطريق الأكثر ضيقاً للفروسية المشاة، لكنه كاف لتصيبك إمبراطوراً في هذه المعمة للحياة.

بهذه العبارات انتهى دون كيخوتي من إغلاق عملية جنونه، لكنه زاد عندما أضاف قائلاً:

- الله يعلم أنني أود أن أحمل معي السيد لورنتو، كي أعلمه كيف ينبغي غفران النقص عند الناقصين، ومطامنة غرور المغرورين، فضائل لصيقة للمهنة التي امتهن، لكن لا يوافق ذلك عمره الفتي، ولاتوده أن يكون ممارساته المحمودة، و فقط أَرْضَى بِإِعْلَامِكَ أَنْ كُونَ فِخَامَتِكُمْ شَاعِراً، مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ تَكُونَ مَشْهُوراً، إِذَا وَجَّهْتَ نَفْسَكَ بِرَأْيِ الْآخِرِ أَكْثَرَ مِنْ رَأْيِكَ، لِأَنَّهُ لَا يَوْجَدُ أَبٌ أَوْ أُمٌّ يَبْدُو لَهَا قَبِيحَ أَبْنَائِهِمَا، وَفِي بَنَاتِ الْعَقْلِ تَحْدُثُ نَفْسُ الْخُدْعِ.

ومن جديد تعجب الأب والابن من العبارات المتقاطعة لدون كيخوتي، فمرة عاقلة وأخرى سفيهة، ومن إلحاحه على أن يهرع إلى مغامراته غير السعيدة، والتي وضعها هدفاً ونيشاناً للتصويب والرغبة، كرروا العرض والمجاملات، ومع التصريح الكريم لسيدة القلعة، رحل دون كيخوتي وسانشو، فوق روثينانتى السيد، وفوق الحمار التابع.

الفصل التاسع عشر

حيث يحكى مغامرة الراعى العاشق مع أحداث أخرى فى الحقيقة طريفة

لم يكن دون كيخوتى قد ابتعد كثيراً عن قرية دون ديبجو، عندما التقى اثنين من رجال الكنيسة أو من طلاب الكهنوت، أحدهما كان يحمل صرة من القماش الكتانى الخشن وقد تكورت، وعلى ما يبدو حوت بداخلها بعض الأزواج من الجوارب الغالية، أما الآخر فلم يكن يحمل شيئاً أكثر من سيفين جديدين لونهما أسود، كل منهما فى جرابه الذى تعودوا على حفظ سيوف لعب الشيش به. وكان مع الدارسين اثنان من الفلاحين يحملان من الأشياء ما يشير إلى أنهما قادمان من مدينة كبيرة، بعد القيام بعدة مشتريات لحملها إلى قريتهما. والأربعة على صهوات حميرهم وقعوا فى دهشة يقع فيها كل من يرى دون كيخوتى للمرة الأولى، وصارت رغبتهم لمعرفة هذا الرجل الخارق لمعتاد الرجال تحملهم إلى حد الموت شوقاً لذلك. حياهم دون كيخوتى، وبعد أن عرف أنهم يتخذون نفس طريقه عرض عليهم أن يصحبهم على أن يخفضوا من إيقاع خطى دوابهم التى كانت أسرع من جواده، وحتى يجبرهم على ذلك، ذكر لهم مهنته، وأنه فارس مشاء يبحث عن المغامرات فى كل أنحاء العالم. وقد أعلمهم أن اسمه دون كيخوتى دى لامانشا، وأن لقبه هو فارس الأسود، وكان هذا بالنسبة للفلاحين مثل الكلام باللغة الإغريقية أو فى عجمة الطير، لكن بالنسبة للدارسين لم يكن الأمر كذلك، من ثم فهما ضعف عقل دون كيخوتى، ومع ذلك نظرا إليه فى إعجاب واحترام، وقال له أحدهما:

- إذا كان فخامتكم لا تتخذ طريقًا محددًا مثلما اعتاد كل من يبحث عن المغامرات فلتأت معنا، لترى واحدًا من أفضل أنواع الزفاف وأكثرها ثراء مما لم يشهد مثله حتى يومنا هذا في كل أنحاء لامانشا وفي كل ما يحيط بها من جوار.

سأله دون كيخوتي عما إذا كان زفاف أمير من الأمراء حتى يستحق كل هذا الإطراء.

أجاب الدارس:

- لا، ليس لأمير، وإنما لفلاح وفلاحه، وهو أغنى أهل هذه المنطقة، وهي أجمل ما رآته عيون الرجال. ومسرح الزفاف غير عادي وجديد، لأنهم سيقومونه في مرج مترامي الأطراف بالقرب من قرية العروس، والتي يسمونها عن جدارة "كيتيريا الحسناء" أما العريس فاسمه "كاماتشو الثرى" وعمرها ثمانية عشر عامًا، وعمره اثنان وعشرون، فكل منهما خلق من أجل الآخر، ومع أن بعض الفضوليين ممن يعرفون بالذاكرة أنساب كل الناس يقولون بأن نسب "كيتيريا الحسناء" أعرق من نسب "كاماتشو" فإن أحدًا لا يضع هذا في اعتباره الآن، حيث إن الثروات لها من الجبروت ما يجبر كثيرًا من الكسور. وبالفعل، فإن "كاماتشو" هذا كريم، وقد قرر تغطية كل المرج وتزيينه حتى إن الشمس ستجد نفسها في مشقة إذا رغبت في زيارة الحشائش الخضراء التي تغطي الأرض. وقد أعد العدة لرقصة السيف ورقصة شخللة الأجراس المعلقة بأرجل الراقصين، تلك الرقصات التي يوجد في قريته من يجيدها بإحسان، بجانب المدعويين لرقصات الدق على وجه القدم بالأكف ممن لا أملك القول عنهم إلا أنهم على أهبة الاستعداد، لكن ليس لأى شيء مما

أشرت إليه أو لم أشر قيمة في جعل هذا الزفاف تذكاريًا إلا ما أتخيل ما سوف يفعله باسيليو الموتور. وإن هذا الباسيليو هو جار لكتيريا الحساء من نفس قريتها، وجدار بيته مشترك مع جدار بيت والديها، حيث أخذ العشق الفرصة لتجديد ذكرى حب بيرامو وتيسبي، فقد عشق باسيليو كيتيريا منذ سنوات طفولته، وهى كانت تستجيب لرغبته بآلاف من النعم الشريفة، حتى إن كل القرية كانت تتسلى بحكاية غراميات الطفلين باسيليو وكيتيريا. ومضى العمر يتقدم حتى تذكر والد كيتيريا ضرورة إعاقه تردد باسيليو على منزله، الأمر الذى كان مسموحًا به في الطفولة، وحتى يتجنب حياة الغيرة، وامتلاء قلبه بالشكوك أمر بزواج ابنته من "كاماتشو، الثرى"، حيث لم يظهر له الخير في زواج ابنته من باسيليو الذى لا يملك من الثروة شيئاً، ومع ذلك فلقول الحق دون حسد، هو الفتى الأكثر رشاقة في القرية، فهو من رماة الرمح، ومصارع لا يضارع، ولاعب عظيم بالكرة والصولجان، وإذا جرى يسبق الريح، وإذا قفز فالماعر تتقاذف، وإذا تلقف الكرة الخشبية بعد إطلاقها فذلك هو السحر، أما الغناء فيغنى تغريد العصافير، ويعزف القيثارة حتى يجعله يتكلم، ويلعب بالسيف كأمرّ اللاعبين.

وفى هذه اللحظة، قال دون كيخوتى:

- ولهذا السبب وحده يستحق ذلك الفتى ليس فقط الزواج من كيتيريا الحساء، بل من نفس الملكة خنيريا، لو كانت حية هذه الأيام، حتى لو كان سيحابه باعتراض لانثاروتى، وكل أولئك الذين كانوا يودون اعتراض طريقه.

قال سانشو بانثا الذى ظل صامتاً حتى تلك اللحظة ومنصتاً:

- بالنسبة لزوجتى فى هذا الأمر كان سيكون ما يقوله المثل عن زواج المتكافئين "كل غنمة مع كبشها"، لكن بالنسبة إلىَّ فإن باسيليو الطيب ذاك بدأ يدخل قلبى، ويجب أن يتزوج من السيدة كيتيريا بالرفاء والبنين (كنت سأقول: "مع الأجماد السماوية")^(*)، وليتزوج المتحابون.

قال دون كىخوتى:

- إذا تزوج كل من يتحابون حباً جماً، فإن هذا سيسلب الآباء حق تزويج أبنائهم فى الوقت المناسب ومن الزوج المناسب، وإذا كان الزواج طبقاً لإرادة البنات، فربما يخترن خدم آبائهن، وربما أول من يظهر لهن عابراً الشارع طبقاً لمظهره الوسيم والبراق، حتى لو كان تافهاً فى استعمال السيف، فالحب والهوى يعميان البصيرة بسهولة، والبصيرة ضرورية جداً لاختيار طريق المستقبل، والزواج وهو أمر خطر، الخطأ فيه محقق، من الحتمى يقظة شديدة وتوفيق عظيم من السماء للوصول فيه إلى الصواب. ومن يرغب فى القيام برحلة طويلة، فمن الفطنة قبل أن يشرع فيها أن يختار صحبة آمنة العريكة، إذن فلماذا لا يفعل نفس الشيء، ذلك الذى كتب عليه السير حتى الموت، وخاصة فى صحبة ترافقه على السرير وعلى المائدة وفى كل مكان مثلما يحدث للزوجة مع الزوج؟ والأمر بالنسبة للزوجة ليست بضاعة يمكن أن تسترد إذا ما بيعت كما أنها ليست مقايضة أو مبادلة، فالزواج حدث غير قابل للنقض، يستمر طوال الحياة، وهو رباط إذا

(*) دعاء للموتى.

أحاط مرة بالعنق يتحول إلى عقدة غليظة، إذا لم يجتثها منجل الموت لا يمكن فكها. وفي هذا الموضوع يمكن قول أشياء أخرى كثيرة، ما لم يعقني أن أسأل حامل الليسانس هل بقي شيء لم يحكه عن قصة باسيليوس؟

وعلى هذا أجاب الدارس حامل البكالوريا، أو حامل الليسانس كما سماه دون كيخوتي:

- ما بقي من كل القصة هو أن باسيليوس منذ عرف أن كيتيريا الحسنة سوف تنزوح من كاماتشو الثرى لم يره أحد قط يضحك أو يتكلم كلاماً واضحاً، ودائماً يمضى متفكراً وحزيناً يكلم نفسه، مما يعطى إشارات أكيدة وواضحة أنه فقد عقله، وهو يأكل القليل وينام القليل، وما يأكله هو بعض الفواكه، أما حين ينام، إذا نام، فهو ينام في الحقل على أرض خشنة مثل حيوان برى، وينظر بين الحين والحين إلى السماء، ومرات أخرى يدقق نظراته في الأرض، مع الجمود حتى يبدو. وكأنه تمثال يرتدى ملابس يحركها الهواء. وفي النهاية، هو يعطى دلائل على أن قلبه بالغ الحزن والكآبة، ونحن من نعرفه نعرف أنه من المسلم به أن إجابة كيتيريا الحسنة بنعم غدا حين تسأل عن موافقتها على الزواج من كاماتشو هي حكم الإعدام بالنسبة لباسيليوس.

قال سانشو:

- ربنا يلفظ، فالله كما يعطى المرض يهب الدواء، ولا أحد يعرف ما في الغيب، ومن هنا حتى الغد بقي من الساعات الكثير، وقد يلغى هذا الزواج في ساعة من تلك الساعات بل في لحظة، ولقد رأيت الدنيا تمطر في عزّ الشمس، والعكس قد ينام الإنسان في عزّ صحته، ويستيقظ مشلولاً. وقولوا

لى: هل يمكن أن يفخر من يكسب باختيار رقم على عجلة الحظ؟ لا، بالتأكيد، وبين ال (نعم) وال (لا) من فم امرأة، لا أجرؤ أنا على غرز سن دبوس، حيث لا مكان له. أعطوني يقيناً بأن كيتريا تحب باسيليو من أعماق قلبها وبحر إرادتها، وسوف أعطيه جوالاً من الحظ السعيد؛ فالحب، حسبما سمعتهم يقولون، يرى بنظارات تجعل من النحاس ذهباً، ومن الفقر غنى، ومن الزلط لؤلؤاً.

قال دون كيخوتى:

- أين سوف تتوقف، سانشو، لعنك الله؟ فعندما تبدأ فى نظم الأمثال والحكاوى لا يرجى منك خلاص إلا إذا اختطفك يهوذا بنفسه. قل لى أيها الحيوان، ماذا تعرف أنت عن الأرقام أو عجلة الحظ أو أى شىء آخر؟

أجاب سانشو:

- إذا لم تفهمنى، فليس من الغريب أن تصير أحكامى ترهات، لكن لا يهم؛ فأنا أفهم نفسى، وأعرف أننى لم أتفوه بتفاهات كثيرة فيما قلت، اللهم إلا أن فخامتكم مدرعى عام ضد كل أقوالى بل أفعالى.

قال دون كيخوتى:

- مدعى، هذا ما يجب أن تقول وليس (مدرعى)، أيها المفسد لصحة اللغة، أصابك الله بالخلط!!!

أجاب سانشو:

- لا تفضب فخامتكم منى، فأنت تعرف أننى لم أنشأ فى البلاط، ولم أدرس فى سلمنقة، حتى أعرف أنه على أن أزيد أو أنقص حرفاً من مفرداتى. نعم،

وليغفر لى الله، فلن يتكلم أهل الريف مثل أهل المدن، تمامًا كما لو قارنا
كلام أهل ساياجو بكلام أهل طليطلة، وبالتالي فإن أهل طليطلة لن يحتقروهم
لعدم الكلام المشدّب.

قال حامل الليسانس:

- هذا صحيح، بل إن أهل الضواحي فى طليطلة لن يستطيعوا لنشأتم، أن
يتكلموا مثل أولئك الذين عاشوا طول عمرهم فى وسط المدينة، وكلهم من
طليطلة، فاللغة النقية والأصيلة والرشيقة والواضحة توجد بين الأرسقراط
الأذكىاء، حتى لو ولدوا فى قعر الريف. وأقول أذكىاء لأن الذكاء عندى فى
هذه الحالة هو نحو اللغة الجيدة الذى يصحب استعمالها. وأنا، أياها السادة،
غفر لى الله، قد درست القوانين الكنسية فى سلمنقة، وبالتالي استفزت لقول
رأى بكلمات واضحة سهلة وذات مغزى.

قال الدارس الآخر:

- انظر أياها الخريج الجامعى، إذا كنت إستفزت نفسك أكثر لمعرفة هز السيف
أفضل من معرفتك هز لسانك، لكنك الأول على الخريجين، وليس الأخير .

رد الدارس حامل الليسانس:

- اسمع يا حامل البكالوريا، أنت واقع فى أكثر الآراء خطأ فى العالم فيما تعلق
بمهارتى فى اللعب بالسيف، ولست مثلك تحمل السيوف عبثًا.

أجابهُ كورثشويلو:

- بالنسبة إلى هذا ليس رأيًا، ولكنها حقيقة مؤكدة، وإذا أردت إثباتها لك
بالتجربة، فها أنت تحمل سيوفًا، وفى حالة من الراحة تناسب ذلك، وأنا لى
الدوافع والقوة اللذان يرافقان روحى المعنوية العالية، وهذا لى بالقليل

لدفعك للاعتراف بأن ما أقوله ليس خداعًا لنفسي. ترحل عن دابتك، واستعمل خفة حركة قدميك، وكرك وفرك، واتخاذ أوضاعك القتالية وعملك، حيث إنني أتوقع أن أجعلك ترى النجوم في الظهر بمهارتي الحديثة وخشونتي، وعليهما أمل بعد الله أنه لم يولد إنسان بعد يجعلني أغمد سيفي، ولا يوجد في العالم من لا أجعله يفقد الأرض التي يقف عليها.

أجاب الآخر:

- إغماد السيف أو إشهاره أمر لا يخصني، مع أنه مع أول حركة لقدميك سوف تحفر قبرك بنفسك، أود القول إنك سوف تصبح ميتًا في تلك اللحظة بغمطك مهارتي.

أجاب كورتشويلو:

- الآن سوف نرى.

وقفز في رشاقة من على حماره، وجذب أحد السيفين اللذين يحملهما الخريج الجامعي من جرابه.

قال دون كيخوتي في تلك اللحظة:

- الأمور لا ينبغي أن تسير هكذا، فأنا أحب إدارة هذه المبارزة، والقيام بدور الحكم لمثل هذا الأمر الذي لا يتم تحريه جيدًا في أحيان كثيرة.

وهكذا نزل عن روئينانتي، وأمسك برمحه، ووضع نفسه في منتصف الطريق، وفي اللحظة المناسبة قام خريج الجامعة في رشاقة جسم بديعة وتوافق إيقاعى لقدميه بمهاجمة كورتشويلو، الذي قام بدوره بهجوم مضاد مطلقًا - كما تعودوا القول - الشرر من عينيه. والفلاحان دون أن ينزلا عن دابتيهما مثلًا دور

المشاهدين فى التراجمى الأءلاقىة. ضربات السىف، وطفناته، هابطاً صاعداً، منقلباً على وجهيه، ممسكاً به بكلتا اللىدين، كان ينزلها كورنشويلو بلا حساب، أكثر كثافة من الكبد، وأغزر اندفاعاً من البرد. كان يهاجم مثل أسد مستفز، لكن كل ضرباته كان يتلقاها الجامعى بسيفه، ويجعله يقبلها كما لو كانت رفات قديس، ولكن ليس بكل الإءلاص الذى تعودوا تقبيل رفات القديس به. أخيراً الجامعى حامل الليسانس عدّ أزرار إهاب كورنشويلو الكنسى الذى كان يرتديه حتى وسطه بنزعها بسيفه، كما حول الثوب من أطرافه إلى شرائح تشبه أقدام الأخطبوط الذيلية الشكل، وأطار قبعته مرتين وأرهقه بطرىقة جعلته من فرط الغضب والغىظ والسخط يمك بسيفه من مقبضه ويلقى به فى الهواء بقوة هائلة حتى إن واحداً من الفلاحين الاثنىن المشاهدىن، وكان كاتباً عمومياً، بعد أن ذهب لإحضاره أعطى شهادة بأنه وجدّه على بعد ثلاثة أرباع فرسخ، وهى شهادة تفىء وأفادت المعرفة والرؤىة عياناً كيف أن القوة تهزمها المهارة والحرفىة والءلال.

جلس كورنشويلو تعباً، واقترب منه سانشو، وقال له:

– بكل إءلاص أىها السىء حامل البكالورىا، إذا أخذت فءامتكم بنصىحتى من الآن فصاعداً يجب ألا تتحدى أحداً فى مبارزة، لكن يمكن التحدى فى المصارعة أو رمى الرمح، حىء إن لك من الشىباب والقوة ما يعىنك على ذلك، فأنا أعرف أن الماهر فى لعب السىف سىستطىع أن يضع سنّ سىفه فى فتحة الإبرة.

أجاب كورنشويلو:

– ىرضىنى أنى سقطت من فوق حمارتى، وأظهرت لى التجربة الحقىقة التى كنت عنها فى غاية البعد.

ثم نهض واحتضن حامل الليسانس، وأصبحا صديقين أكثر مما مضى، ولم ينتظرا الكاتب العمومي حتى يحضر السيف، حيث بدا لهما أنه كان سيتأخر كثيراً، وهكذا قرروا مواصلة السير حتى يصلوا إلى قرية كيتيريا مبكراً، وهى قريتهم جميعاً أيضاً.

وفيما تبقى من الطريق كان حامل الليسانس يحكى لهم ميزات السيف الفخيمة، وبأدلة كثيرة قاطعة حتى بقوا مدركين فضل العلم، أما كورثشويلو فقد انكشبت حدة عناده ومكابرتة.

وحل المساء، لكن قبل الوصول إلى القرية بدت لعيون الجميع سماء قد رصعتها النجوم بوفرة. وسمعوا فى نفس الوقت أصوات عزف من آلات متفرقة مثل الناي والرق والقانون والمزمار والشخاليل والصنج، وعندما اقتربوا رأوا الأشجار عند مدخل القرية قد امتلأت بالشعلات التى لا تغضبها الرياح فتغض من ضوئها، حيث كانت الرياح هادئة لا تجرؤ على تحريك ورق الشجر. وكان الموسيقيون هم مثيرو بهجة الزفاف وحماسه، حيث كانوا يسرون فى تلك الأثناء الجميلة فى مجموعات بعضها يغنى والبعض الآخر يرقص، أما الباقي فكان يعزف الآلات على تعددها المذكور. بالفعل، لم يظهر شئ فى ذلك المرح سوى البهجة تتحرك لتملاً المكان، ولتتقافز به الرضا والحبور مع الكثير من الأفراد الذين كانوا يقيمون المنصات والمقاعد، والتى يمكن منها فى اليوم التالى رؤية التمثيل والرقص، مما يدفع بالملاحة فى زفاف كوماتشو والحفيظة فى قلب باسيليو. لم يحب دون كيخوتى دخول القرية رغم أن الفلاح وحامل البكالوريا قد طلبا منه ذلك، إلا أنه أعطى عذراً قوياً من وجهة نظره، وهو أن الفرسان المشائين لا بد أن يناموا فى العراء والغابات قبل أن يناموا فى المعمر، حتى لو كانت تحت سقوف من الذهب، وبهذا انحرف بعض الشئ عن الاستقامة بمفهوم سانشو الذى ترددت فى ذاكرته استضافة دون ديجو لهما فى قلعتة (أو بيته).

الفصل العشرون

حيث يحكى زفاف كاماتشو الثرى مع قصة باسيليو الفقير

لم يكد الإله "فيبو" المتلاكى النور - وقد أفسح الفجر له المكان - يغسل اللآلى السائلة لشعره بضرام أشعته الساخنة، حتى كان دون كىخوتى ينفذ الكسل عن أعضاء جسمه، لينهض على قدميه، وينادى على حامل دروعه سانتشو، الذى مازال يتعالى الشخير من أنفيه، وقد شاهده دون كىخوتى على هذا الحال قبل أن يوقظه ويقول له :

- أوه، إنك السعيد المنعم دون كل خلق الله الذين يعيشون على سطح الأرض،
فها أنت تنام دون حمل أحقاد على أحد، ودون أن يحقد عليك أحد، بل
نفسك هادئة ويسود السلام وروحك، لا يطاردك السحرة، ولا تفزعك
آلاعب السحر. تنام، وأقولها مرة أخرى بل مائة مرة، دون أن يأخذك
السهر مفكراً فى غضب سيدتك عليك، ولا ينزع عنك الأرق النوم
مفكراً فى دفع ديون عليك دفعها، أو مفكراً فى تدبير لقمة العيش فى الغد
لك ولأسرتك الصغيرة. فلا الطموح يقلقك، ولا الزهو العبثى للحياة الدنيا
يرهقك، ولا تتجاوز رغباتك رغبات حمارك، وكلها تلقى على عاتقى بسبب ما
ألقته الطبيعة والعادة من أثقال وأعباء على كل سيد. ينام الخادم ويبقى السهر
للسيد، مفكراً كيف يعوله ويُحسن أحواله، ويفضل عليه بالنعيم والأفضال،
والمهم عند رؤية السماء وقد اكتست ببرونز الشمس دون مد الأرض بجاحتها
من الندى لا يتقل على الخادم، وإنما على السيد، الذى يلتزم بإعالتة فى الأيام
العجاف وزمن الجوع، كما خدمه فى أيام الخصوبة، وزمن النعيم.

لم يجب سانشو على كل هذا لأنه كان نائمًا، وما كان ليستيقظ سريعًا ما لم ينفقه دون كيخوتي بسن الرمح حتى يعود إلى وعيه. استيقظ في النهاية منعوسًا كسولاً، وبعد أن قلب وجهه في كل اتجاه، قال:

- إذا لم أكن مخدوعًا، فإنه يخرج من ناحية تلك الأيكة روائح الشواء والشحم واللحم، وليست روائح الأسل والزعتر والخشب، وإن زفأفاً يبدأ بهذه الروائح حسب حدسى لابد أن يكون وافر الطعام والشراب.

قال دون كيخوتي:

- أغلق فمك أيها النهم الشره، ودعنا نذهب لنرى هذا الزفاف حتى نرى ماذا سيفعل باسيليو المتمرد..

أجاب سانشو:

- ليفعل ما يشاء إذا لم يكن فقيرًا وغير قادر على الزواج من كيتيريا، وهل من لا يملك غرفة من حقه أن يرغب في الزواج من السحاب؟ حسب اعتقادي يا سيدي، إن الفقير عليه الرضا بما يجد والاقتصار عليه، ولا يبحث عن السمك البلطي في المياه المالحة، وإنى أراهن بكل ما أملك أن كاماتشو يستطيع أن يكفّن باسيليو بالريالات. وإذا كان ذلك كذلك، وينبغي أن يكون كذلك، فإن كيتيريا ستكون بلهاء إذا فرطت في الهدايا والحلى التي لابد أن يكون كاماتشو قد أغرقها بها، ويستطيع الاستمرار في إغراقها بها. أما رمية رمح أو هزة سيف في لعبة شيش فلا تشتري كأسًا واحدًا من النبيذ في حانة. إنها مقدرات وفضائل غير قابلة للبيع، حتى لو امتلكها الكونت ديرلوس. لكن عندما تكون تلك الفضائل لمن يملك مالاً وفيراً، فهي الفضائل، فعلى أساس متين يقام البناء، وأحسن أساس وعمد النقود.

هنا قال دون كيخوتى:

- بحق الله، ضع نهاية لخطبتك الحماسية، فإنهم لو تركوك مستمراً فيما بدأت من حديث، لما وجدت وقتاً للنوم أو لتناول الطعام، ولاستهلكت كل الوقت في الكلام.

رد على هذا سانشو:

- لو كان عند فحامتكم ذاكرة قوية، عليك تذكر بعض بنود اتفاقنا قبل خروجنا في هذه المرة الأخيرة، وأحد هذه البنود أن تتركنى أتكلم كل الوقت الذى أحب، ما لم يكن كلامى غيبة لأحد أو ضد سلطة فحامتكم، وحتى الآن يبدو لى أننى لم أخالف هذا البند.

أجاب دون كيخوتى:

- أتذكر سانشو جيداً هذا البند، ورغم ذلك، أحب أن تسكت وتأتى، فهذا هى الآلات التى سمعناها بالأمس قد بدأت تملأ هذه الوديان بالبهجة، ومما لا شك فيه أن الزفاف سيتم فى طراوة الصباح، وليس فى حر المساء.

فعل سانشو ما أمره به سيده، وبعد وضع السرج على روثينانتى، والبردعة على حماره، وخطوة وراء خطوة مضوا فى اختراق الأيكة. وأول ما بدا لناظر سانشو كانت حمالة لشوآية تحترق تحتها شجرة دردار كاملة، وفوقها عجل كامل يتضرم حوله تل من الخشب الملطى، وفوق اللطى ست "حلل طبيخ"، ليست من طراز كل "حلل طبيخ العالم"، لأن كل واحدة منها فى حجم برميل ضخم يتسع للحوم مجزر كامل، وهكذا كانت متشربة ومحتوية بداخلها على كباش كاملة، تبدو لضخامة الإناء وكأنها ذكور حمام. أما الأرانب البرية المسلوخة والديكة المنتوفة الريش، والتى كانت معلقة فى الأشجار فى انتظار قبرها فى الحلل، فكان عددها

غير قابل للإحصاء، كذلك الطيور وحيوانات الصيد فكانت لانهائية الأعداد، وكلها معلقة في الأشجار حتى تتعرض للتبريد بالهواء، وعد سانشو أكثر من ستين زقًا ضخماً، وكلها مليئة ببيضاً اتضح بعد ذلك أنه من أنبل الأنبذة، وبنفس الطريقة ظهر الخبز شديد البياض في أكوام، كل كوم كأنه عرمة قمح في جرنها، والجبن مثل قوالب الطوب المتراسة التي تشكل حائطاً، وهناك غلايتان مملوءتان زيتاً، كل واحدة في حجم حوض صباغة، وذلك لقلى الفطائر التي يجرى إخراجها مقلية بمعلقتين، عملاقتين حيث تُلقى في غلاية أخرى مجاورة مليئة بعسل النحل. الطباخون والطباخت جاوزوا الخمسين، مظهرهم جميعاً نظيف، وكلهم دؤوب الحركة سمح الوجه. ومعدة العجل المنظفة حشيت بانثى عشر حملاً صغيراً طرى اللحم، ولكونها مسلوقة فإنها كانت تعطي العجل نكهة ونعومة لحم، أما الدهارات متعددة الأنواع فإنه قد بدا أنه لم يكن شراؤها بالرطل إنما بالكيلو، وكانت معروضة في صندوق ضخم. وفي كلمة، كل جهاز الزفاف اتسم بالخشونة الريفية، وإن كان يتسم بالوفرة، حتى إنه يمكن أن يقيم أود جيش بأكمله.

سانشو بانثا كان يحملق في كل هذا، ويتأمله، و يقع في هواه. فى الأول أسرت حلل الطبخ كل قلبه فى استسلام لفكرة أن ينتشل منها فى رضا وسعادة صدر عجل متوسط الحجم، ثم وقع فى غرام زقاق النبيذ، وأخيراً انهار أمام الحلوى وفاكهة القلى وهى تغط فى العسل، وهكذا دون مقدرة على معاناة كل هذا الهوى، ودون أن يملك فعل أى شىء آخر، اقترب من أحد الطباخين العاملين، وبعبارات مهذبة تتصور جوعاً رجاه أن يتركه يغمس قطعة خبز فى واحدة من تلك الحلل، وعلى هذا أجابه الطباخ:

- أحمى، هذا اليوم ليس هؤلاء الذين شرع لهم الجوع بفضل كاماتشو الغنى، ترجل عن حمارك واجمأ عن مغرفة واستخراج دجاجة أو دجاجتين، وبالهنأ والشفا.

أجاب سانشو:

- لا أرى هنا أى مغرفة.

قال الطباخ:

- انتظر، ويل لى، وأى وغد أنا، والمسألة أهون من ذلك!

وبعد قوله هذا أمسك بطاسة وأدخلها فى إحدى الحلل وأخرج بها ثلاث دجاجات وإوزتين. وقال سانشو:

- ليس لى إناء لحمها.

قال الطباخ:

- إذن اذهب بهذه الطاسة وما حوت، فثروة كاماتشو وسعادته تهب كل شىء.

وخلال حدوث ذلك لسانشو، كان دون كيخوتى يتأمل ظهور ما يقرب من اثنى عشر مزارعًا فوق أفراس بالغة الجمال، قد بزغت من إحدى نواحي غابة الأشجار. غطت الأفراس أطقم من السروج والعدد الريفية الثرية المظهر، وقد علق بها أجراس عديدة، وقد ارتدى المزارعون ثياب الأفراح والأعياد، ومضوا فى جلبه وزعيق يتسابقون المرة بعد المرة فى براح المرج وهم يهللون ويتصايحون قائلين:

- يحيا كاماتشو وكيثيريا، فهو فى قمة غناه مثلما هى فى قمة جمالها، بل هى أجمل نساء العالمين.

وعندما سمع ذلك دون كيخوتى قال لنفسه:

- هذا طيب! فهؤلاء معهم حق لأنهم لم يروا سيدتى دولثينا دل توبوسو، فلو كانوا رأوها لما تمادوا فى التغزل ومدح كيثيرياهم هذه.

ومنذ تلك اللحظة وما تلاها من لحظات بدأت الرقصات المتعددة تخرج من الغابة براقصيتها، ومن بينها رقصة السيف، التي قام بها ما يقرب من أربعة وعشرين شاباً في أحسن مظهر وأجمل بريق، وكلهم يرتدون ملابس كتانية بالغة الرقة والبياض، وعلى رعوسهم ربطوا مناديل متعددة الألوان من حرير وإستبرق، وقد قادهم في الرقص فتى شديد الخفة، سأله أحد راكبي الأفراس عما إذا كان قد جرح حتى الآن أحدًا من الراقصين، فأجابته:

- حتى الآن، ببركة الرب، لم يجرح أحد، وكلنا سالمون.

وبعد ذلك بدأ هذا الفتى في الاشتباك مع رفاقه في كر وفر ومهارة فائقة، حتى إن دون كيخوتي، رغم رؤيته مراراً هذه الرقصة، لم يشهد لها مثيلاً فيما رأى.

أيضاً بدت له رقصة أخرى هكذا، إنها تتكون من صبايا فائقات الحسن والجمال بجانب الفتوة والدلال، وكما ظهر، فإن كل واحدة منهن لا تقل في عمرها عن الأربعة عشر ولا تصل إلى الثمانية عشر، وكلهن يرتدين القטיפفة الخضراء، وشعرهن مضفر في جانب، وسائب طليق في جانب آخر، وكل صبية حملت إكليل غار من الياسمين والورد وأجمل الأزاهير، وكانت شقرة الصبايا تؤهلن للدخول في منافسة مع الشمس. كان يقود الصبايا شيخ مبجل، وعجوز مهيبة، لكنهما يرقصان في خفة وانسياب لا تنتمي لسنوات عمرهما، أما العزف فكانت تحرك الراقصين زامرة من ثامورا، وقد تبدى الشرف في الوجه والعينين لكل صبية، بينما تبدت في قدميها الشيطنة؛ لقد اثبتن أنهن أفضل راقصات في العالم.

وبعد هذه الرقصة دخلت رقصة جديدة للألعاب النارية، من الرقصات التي يطلقون عليها "الجنيات". كانت تتكون من ثمان جنيات بريات وبحريات، يتحركن في صفين، ويقود الصف الأول إله الحب كيوييد، ويقود الصف الثاني الإله إنترس

(الغاية)؛ وقد ارتدى كيوييد أجنحته متزيناً بها، وحمل قوسه وجعبة سهامه، أما إنترس فقد ارتدى ملابس متعددة الألوان من الذهب والحريير. الجنيات التي تتبع إله الحب وضعن على ظهورهن رقعة مكتوب عليها أسماءهن. كان اسم الأولى: الشعر، والثانية: الفطنة، والثالثة: الأصل، والرابعة: الشجاعة. وبنفس الطريقة كتبت أسماء راقصات الإله إنترس، الأولى: الكرم، والثانية: النعمة، والثالثة: كنز، والرابعة: الامتلاك السلمي. وأمام الجميع كانت تتحرك قلعة من الخشب يجرها أربعة رجال متوحشون، يرتدون ثوباً من الليف والتيل المصبوغ بالأخضر، حتى بدا وكأنهم تغطيهم أوراق الشجر، ومن ثم لم يعدم سانشو السبب عندما أثاروا فزعه، وعلى حواف القلعة وواجهاتها المربعة الأربعة كتب: قلعة الصون والعفاف. وكانت الرقصة على أنغام يعزفها أربعة عازفين حاذقون، يدقون الطبول والناي. بدأ كيوييد الرقصة، ولم يلبث بعد حركتين أن رفع عينيه إلى صبية كانت في شرفة القلعة، وصوب نحوها من قوسه أحد سهامه، وقال لها:

أنا الإله الجبار

في السموات والأرض

وفي عرض يضم البحر المائج

وعندما يضم الجحيم المفزع الهاوية

لن أعرف لحظتها ما هو الخوف

وكل ما أهواه أحصل عليه

وبكل إمكانية:

آمر، أحرم، أقرر، أ منع

وانتهى من الكوبليه مطلقاً سهماً من فوق القلعة، وعاد إلى وضعه السابق.
وهنا خرج الإله إنترس، وصنع حركتين أخريين، وسكت الطبالون ليقول:

أنا الذى أستطيع أكثر من استطاعة الحب

والحب هو الذى يقودنى

فأنا من خير أصل

ربته السماء على الأرض

فأصلى الأشهر والأفضل

وأنا "الغاية"

التي اعتاد القليل على تحقيقها

وأنا الذى سوف يكرس نفسه لك

دائمًا أبدًا، آمين!

وعاد إلى وضعه الأول، وتقدم الشعر إلى الأمام بعد حركتين راقصتين مثل
سابقه، وركز عينيه على فتاة القلعة:

الشعر الألد

في ألد مفاهيم ...

مفاهيم سامية وجادة وملاحه

يرسل إليك، أيتها السيدة، الروح

ملفوفة في ألف قصيدة مطربة

فإذا لم يزعجك

فإن إصرارى

على الصعود بك

فوق هالة القمر

سيصير مثار حسد حسناوات كثيرات.

وأفسح الشعر المكان، ومن جهة إنترس (الغاية) خرج الكرم، وبعد أن أدى

رقصته، قال:

يسمون الكرم

للعطاء الذى قمر

الحدود القصوى من أمامه

لفرط الندى والتبذير

دون ندم أو جدال

لكنى حتى أسمو بمكانتك وتعظيمك

فإننى منذ اليوم سأصير أكثر تبذيراً

ومع أن ذلك عيب، فإنه عيب شريف

ومن فرط العشق فى صدرى

سوف يكون العطاء ملحوظاً

وبهذه الطريقة تقدمت ثم انسحبت كل شخص اللوحتين الراقصتين، وكل واحد أدى حركاته الراقصة، وألقى بأشعاره، التي كان بعضها معجباً والبعض الآخر مثيراً للسخرية، و فقط سجل دون كيخوتي في ذاكرته (وكانت له ذاكرة عظيمة) كل ما سلف من أشعار، وما حدث بعد ذلك من اختلاط الراقصين في وصلات وفصلات بملاحة ورشاقة. وعندما مر الحب على القلعة أطلق من فوقها سهامه، لكن انترس (الغاية) حطم كراته الطينية المذهبة^(*)، وأخيراً بعد أن واصلوا الرقص فترة متسعة من الوقت، أخرج الإنترس كيساً ضخماً مصنوعاً من فروة قط روماني، يبدو وكأنه ملىء بالنقود، ثم ألقاه على القلعة؛ فداعت ألواحها تاركة الصبية هدفاً مكشوفاً بلا دفاع. اقترب إنترس مع فريقه ووضع في عنقها سلسلة من الذهب، ومثلوا دور القبض عليها وإجبارها على الاستسلام وأسرها، وعندما رأى الحب وفريقه ذلك قاموا بحركات راقصة تمثل عملية إنقاذها على أنغام دقات الطبول. واجه ذلك المتوحشون بروح مسالمة، حيث قاموا بسرعة بإعادة تركيب القلعة وأغلقوها على الصبية من جديد، وهنا انتهت الرقصة في جو من الرضا ساد جميع المشاهدين.

سأل دون كيخوتي إحدى الجنيات عن قام بتصميم الرقصة وإخراجها، أجابته أنه أحد المحترفين بتلك القرية، يتميز بموهبة خاصة في مثل هذه المخترعات.

قال دون كيخوتي:

— أنا أراهن أنه صديق لكاماتشو أكثر من باسيليو، وأنه موهوب في السخرية أكثر من موهبته في التقوى؛ لقد أدخل في الرقصة مقدرات باسيليو، وثروة وممتلكات كاماتشو!

(*) كانوا يصنعون كورا من الطوب النبي، يلعبون بها في مسابقات الفروسية، حيث يلقيها الفرسان في تبادل كل واحد ضد الآخر، وعلى الفارس أن يستقبلها بدرعه أو ترسه، والفوز لمن تتحطم كراته تماماً من شدة الرمية والاصطدام بالدرع والترس.

- سانشو بانثا الذى كان يسمع كل هذا، قال:

- أراهن على فوز الديك الملك، إننى أنضم لكاماتشو.

قال دون كيخوتى:

- فى النهاية، سانشو، من الواضح المفضوح أنك "واطى"، ممن يهتفون: يحيا المنتصر.

أجاب سانشو:

- لا أعرف من أى فريق أنا، لكنى أعرف جيداً أننى لن أستخرج من مطبخ باسيليو أبداً مثل هذا (المرق) الأنيق، الذى أخرجته من أواني كاماتشو.

وهنا أراه طاسة المرق بما فيها من إوزات ودجاجات، وقابضاً على إحداها بدأ يأكل باستمتاع مليح، وقال:

- مقدرات باسيليو ضحك على الذقون؛ فأنت تساوى بقدر ما تملك، وأنت تملك قدر ما تساوى! هناك سلسلتا نسب وحيدتان فى العالم، كما كانت تقول إحدى جداتى^(*)، نسب من يملك، ونسب المعدم، مع أنها كانت مضربة عن التملك، وهذا اليوم، فإن سيدى هو دون كيخوتى، لما سيدفع وليس لما يعرف، فحمار عليه سرج من ذهب خير من حصان عليه بردعة. وهكذا أعود للقول بأننى أنضم لكاماتشو، والذى تملئ أوانيهِ بالدجاجات والإوزات والأرانب البرية والأليفة داخل بحر من المرق، أما أواني باسيليو، إذا وقعت تحت اليد، مع أنها لاتقع إلا تحت القدم (!)، فليس بها إلا الماء المائع.

(*) طريقة سانشو المضحكة فى الكلام عند نطق "جداتى".

قال دون كيخوتى :

- هل انتهيت، سانشو، من خطبتك الحماسية؟

قال سانشو:

- علىّ أن أهيها، لأننى أرى استئفال فخامتكم لها، ولولا ذلك لاحتجت لثلاثة أيام لإهانتها.

رد دون كيخوتى:

- أدعو الله، سانشو، أن أراك أحرص قبل أن أموت من الغيظ.

أجاب سانشو:

- فيما نحياه معاً، قبل أن تموت فخامتكم، فإننى سأكون أمضع الطين دفين الأرض، وهذا قد يعنى أننى سأكون أحرص حتى نهاية العالم، أو إلى يوم الحساب.

علق دون كيخوتى:

- حتى لو كان ذلك كذلك، أوه سانشو! لن يصل صمتك مطلقاً حيث وصفت، فلا تملك إلا الثرثرة فى حياتك، وأكثر، فإنه من الطبيعى أن موتى سيصل أولاً قبل يومك؛ وهكذا، فإننى لن أراك أحرص مطلقاً، ولا حتى عندما تكون سكران أو نائمًا، وهو الأمر الذى أعتز به.

أجاب سانشو:

- بكل صدق، ياسيدى، لاينبغى التحدى فى موعد الموت، هذا ما أقول، وبنفس الطريقة فإن الموت حق على الحمل أو الكبش، وقد سمعت راعى كنيستنا

يقول: "بنفس القدمين يطأ قصور الملوك كما يطأ أكواخ الفقراء"^(*). والموت هو هذه السيدة التي لديها سلطة أكثر من الدلال والجمال، وليس عليها بالمنزل أشغال: تأكل ما تشاء وتحرك من تشاء، ومن صنوف الناس والأعمار والرفعة تتورم أكياس نقودها وثرائها، ومن يتمتع بنوم القيلولة ليس حصادًا إنما الحصاد من يحصد في كل الساعات، يقطع بمنجله الجاف والأخضر من الحشائش، ولا يبدو أنه يمضغ إذ يأكل، بل يتلع ويلتهم كل ما يوضع أمامه لأنه كلب الجوع، ولا يشبع من طعام مطلقًا، ومع أنه ليس له كرش إلا أنه يوقع في الفهم أنه "شرب" وعطش لشرب حياة كل من له حياة كما لو كانت الماء القراح^(**)

هنا قال دون كيخوتى:

- كفى، سانشو، كن لطيفًا، ولا تترك نفسك تقع في سقط الكلام. إن ما قلته عن الموت صحيح، ومع كلماتك الخشنة فإن واعظًا ممتازًا لا يستطيع القول أفضل، وأقول لك سانشو، إنك بما لك من فطرة طيبة وفطنة، تستطيع أن تجعل منبرًا في يدك، وتذهب به في أنحاء العالم واعظًا الوعظ الجميل.

أجاب سانشو:

- مدرستي الحياة، ولست بعالم كهنوت.

(*) عبارة هوراسيو.

(**) يريد القول أن الموت لا يفرق بين الشاب (الحمل) أو الشيخ (الكبش)، وأنه مثل سيدة ذات جبروت تفعل ما تشاء، أو مثل الحصاد الذى يحصد الأخضر واليابس، ويأكل كل شيء فى التهامه، وشرايه الحياة.

قال دون كيخوتي:

- وأنت لست في حاجة إلى كهنوت، وإن كنت لا أفهم كيف تعرف الكثير رغم أن أصل المعرفة هو مخافة الله وأنت تخاف من سحلية أكثر من خوفك لله.

رد سانشو:

- سيدي، احكم فخامتكم على فروسيتك، ولا تقحم نفسك في الحكم علي مخاوف الآخرين أو شجاعتهم؛ فإنني أخاف الله تمامًا مثل كل أبناء قرينتسا، ودعني فخامتكم أستمتع بزحلقة هذا "البهريز" في معدتي، فكل ما عدا ذلك كلمات باطلة، سيحاسبنا عليها الله في الحياة الأخرى.

ومنتهيًا من هذا الكلام بدأ من جديد السطو على محتويات الطاسة بنفس مفتوحة، حتى إنه أيقظ شهية دون كيخوتي من ثم، فمما لاشك فيه أنه سيهرع لمعاونته في السطو، ما لم تمنعه القوة القاهرة، مما سيقال فيما يلي.

الفصل الحادى والعشرون

حيث تتواصل إجراءات زفاف كاماتشو مع أحداث أخرى طريفة

عندما كان الحوار المشار إليه فى الفصل السابق يدور بين سانشو ودون كيخوتى سمعت أصوات عظيمة وضجة هائلة، وكانت لأفراس فى سباق طويل وتهليل، عند قيامها باستقبال العروسين، المحاطين بألف نوع من آلات واختراعات. وكانا يقدمان بصحبة القسيس، وأسرتهما، وكل أعيان القرى المحيطة، وكلهم بملابس احتفالية. وعندما رأى سانشو العروس قال:

- بصدق، وبكل الحقيقة، فإنها لم تأت بملابس فلاحه، وإنما فى هيئة جميلات القصور. بحق الإله فحسبما ألمح فإن شعار الصدر من الحرير الأخضر المزين بالمرجان و صورة العذراء، أما أسفل الفستان فمن القطيفة ذات الثلاثين زغبة^(*)، والحزام تتدلى منه أشرطة من تيل كوينكا الأبيض، لا، إنه أطلس. يا للهول، يداها مزينتان بجلى من الكهرمان الأسود! ولن أكون شيئاً إذا لم تكن الخواتم من الذهب، بل من الذهب جدا، وبها فصوص من اللؤلؤ الأبيض مثل اللبن المتخثر، وكل فص لا بد أن يثمن بعين من عيون الوجه. أوه، يا ابن الداعرة، أى شعر، إذا لم يكن مستعاراً، فأنا فى حياتى لم أر شعراً أكثر طولاً

(*) يعنى أن كل وبرة ثلاثون زغبة (أو شعرة)، وهى مبالغه شديدة للكشف عن جودة نسيج مدينة

كوينكا.

وشقرة! من يستطيع أن يرى فيها عيباً في البهاء أو في القوام؟ ولا تقارنوها
بنخلة هتمز محملة بعناقيد البلح، حتى لو بدت دقائق حليها في الشعر وحول
مهوى القرط مثل تلك العناقيد فوق القوام الفاره. أقسم من كل أعماقي أنها
صيبة فتانة الحسن؛ لو نامت على سرير لصار خشبه خشب الورد!

ضحك دون كيخوتي من الغزل الخشن لسانشو يانثا، وبدا له كأنه يتغزل بسيدته
دولثينيا دل توبوسو، فلم ير امرأة أجمل منها قط. وكانت كيتيريا الحسنة تبدو
مخطوفة اللون قليلاً، وينبغي أن يكون ذلك بسبب قضاء ليلة سيئة تعودت
العرائس على قضائها في تجهيز أنفسهن لليوم التالي حيث يقام الزفاف.
ومضى الموكب يقترب من مسرح كان في أحد جوانب المرج، قد زين
بالسجاجيد والزهور والغار، وذلك لإقامة شعائر الزواج، وللفرجة من فوقه
على الرقصات والصنائع، وفي لحظة وصولهما إلى المسرح، سمع من
ورائهما أصوات عظيمة، أحدها كان يقول:

– انتظروا قليلاً أيها الناس عديمة الاعتبار كبشر.

وعلى الصوت والكلمات استدارت الرعوس، فأوها تصدر عن رجل يرتدى
على ما يبدو قميصاً أسود مزيناً بتطريز من الحرير الأحمر، وقد أتى متوجاً (كما
لاحظوا ساعتها) بتاج جنائزي من السرو، وفي يده حمل عكازاً طويلاً، وعند اقترابه
تعرف عليه الجميع، إنه باسيليوس الرشيق. بهت الجميع في انتظار توقف صرخاته
وكلماته، وكلهم خشية من وقوع سوء لحضوره في تلك اللحظة الحساسة.

اقترب في النهاية متعباً حامد الأنفاس، ووقف أمام العروسين، غارزا العكاز
في الأرض، حيث كانت نهايته مدببة لها غطاء من الصلب، وقد تغير لون وجهه،
واضعا عينيه على كيتيريا، وبصوت هائل ومتحشرج قال:

- تعرفين جيدًا، أيتها الجاحدة كيتريا، أنه طبقًا لقانون الكنيسة المقدس الذى نمارسه، أنه مادام أنا حى، فليس من حَقك أن تتزوجى بآخر، وفوق ذلك لا تتجاهلى أنه مع مرور الوقت ومع براعتى وسعى سوف تتحسن أحوالى المالىة، ولم أرغب فى أن أترك الانتظار لتحقيق ما يناسب عزتك، لكنك، وقد أُلقيت وراء ظهرك كل واجب فرضه عليك حسن نيتى تجاهك، ها أنت ترغبين فى منح سيد آخر ما هو حق لى، من أجل ثروته التى لا تجعله غنيًا فحسب، بل تجعله أيضًا سعيد الحظ. وحتى يبلغ حظه آخر مداه (وليس حسب ظنى لأنه يستحقه بل لأن السماء أعطته له) فإننى بيدي سوف أحطم المستحيل وأرتكب الصعب للمحافظة على هذا الحظ بأن أخرج نفسى من الوقوف بينهما^(*). يحيا كاماتشو الشرى مع الجاحدة كيتريا دهورًا طويلة وسعيدة، وليمت باسيليو الفقير، ليمت فققره قد قصّ أجنحة سعادته وحمله إلى القبر.

وبعد أن انفض من كلامه أمسك بالعكاز المغروز فى الأرض، مبقيا نصفه الأسفل مغروزًا فى الأرض، منتزعا نصفه الأعلى الذى كان قسبة تستعمل غمداً لخنجر متوسط الحجم كان يخفيه بداخلها، وفى غضب طائش وعمد صارم، غرز الخنجر فى صدره ليخرج من ظهره، وهكذا بقى باسيليو الحزين مستحماً فى دمه، ممدداً على الأرض، وقد اخترق جسمه نفس سلاحه.

هرع أصدقاؤه لمعاونته، يعصرهم ألم يؤسه ونكبته. ترك دون كيخوتى روثنانتي وهرع أيضًا لنجدته، وأخذه بين ذراعيه، ليجده لم يسلم الروح بعد. أحبوا نزع الخنجر، لكن القسيس الذى هرع هو الآخر إليه، بدا له ألا ينزعوه قبل أن

(*) أى بين كاماتشو وحظه.

يبتلى اعترافه، لأن نزع الخنجر يصاحبه في الحال إسلام الروح. أفاق باسيلييو قليلاً، وقال بصوت متألم خافت:

- إذا أحببت، كيتيريا أيتها القاسية، منحي في هذه اللحظة الحرجة والأخيرة يدك كزوجة، فإنني، رغم كل شيء، سوف أومن أن مجازفتي مبررة، فبها نلت نعيم أن أصير ملكك.

وعند سماع القسيس ذلك قال له، إن عليه أن يهتم بصحة الروح قبل لذائذ الجسد، وأن يطلب بكل صدق غفران الله لذنوبه، ولفعلته البائسة. وأجاب باسيلييو على هذا أنه لن يعترف بأى حال من الأحوال إذا لم تعطه كيتيريا يدها كزوجة أولاً؛ فإن هذه السعادة سوف تعطى حلوة لإرادة الاعتراف بجانب رفع روحه المعنوية لذلك.

عند سماع دون كيخوتي طلب الجريح قال بصوت جهورى إن باسيلييو يطلب مطلباً عادلاً ومعقولاً، وفوق ذلك ممكناً، وأن السيد كاماتشو سوف ينال شرف استقبال السيدة كيتيريا باعتبارها أرملة لباسيلييو الشجاع، كما لو كان يتزوجها من يد والدها:

- وفي هذا المقام لا شيء آخر غير قوله نعم، ولا سبيل غير نطقها، فإن مخدع هذا الزفاف لا يمكن أن يكون إلا القبر.

كان كاماتشو يسمع كل ذلك، وكل شيء كان يصيبه بالحيرة والاضطراب، دون أن يدري ماذا يفعل أو ماذا يقول، بينما يطلب منه الموافقة على أن تعطى كيتيريا يدها كزوجة لباسيلييو حتى لا تهلك روحه دون الاعتراف، مغادرة الحياة يائسة منها، حتى إنهم حفزوه وأجبروه على القول:

- ليكن إذا أحببت كيتيريا أن تفعل ذلك، مادام أن الأمر لن يؤجل زفافه عليها
سوى لحظات.

من ثم، هرع الجميع إلى كيتيريا، بعضهم بالرجاءات، والآخرين بالدموع،
وفريق آخر بمنطق بارع، يطلبون منها أن تعطي يدها للمسكين باسيليوس، وهى
ظلت أكثر صلابة من الرخام، وأكثر سكوناً من تمثال، مبرهنة على أنها لا تعرف
ولا تستطيع ولا تود، وما كانت ستجيب ولو بكلمة، ولن تجيب أبداً إذا لم يطلب
منها القسيس إجابة سريعة حول ما يجب عليها فعله، حيث إن باسيليوس، كانت روحه
قد تجاوزت الحلقوم إلى الأسنان، ولا يوجد وقت لقرار متردد. وهنا، دون النطق
بكلمة، متعكرة الصفو، حزينة، اقتربت كيتيريا الحسناء من مكان باسيليوس وهذا
بعيون زائغة، وأنفاس متقطعة، نطق مسرعاً باسمها: كيتيريا. معطياً الدلائل على
أنه يحتضر كافراً، وليس كمسيحى مؤمن. وأخيراً، طلبت منه كيتيريا راحة بجانبه
يده كزوج بالإشارات، وليس بالكلمات. فتح باسيليوس عينيه، ونظر إليها فى تحديق،
وقال لها:

- أوه كيتيريا، لقد صرت رحيمة فى الوقت المناسب، عندما صارت رحمتك مثل
السكين الذى لم يلبث أن انتزع منى الحياة، فأنا لا أملك القوة للاحتفال
بالمجد الذى هببني إياه باختياري زوجاً لك، أو تعليق الأمل الذى يتسارع فى
حجب بصرى مع الظل المفزع للموت! وما أتوسل إليك أن تفعل،ه، نجمتى
المهلكة! أن تكون يدي التى تطلبين، ويدك التى ترغين وهى لها، ليس مجرد
الواجب أو لخداعى من جديد، وإنما عليك بالاعتراف والقول، بكامل
إرادتك دون ضغط، أنك تعطينها وتسلمينها لى كزوج كامل الشرعية؛ فلا
يوجد سبب أن تخدعيني فى مثل تلك اللحظة الحرجة، أو تلجئين للتصنع مع
من كان له معك كثير من الصدق.

وخلال نطقه هذه العبارات كان يفقد الوعي، حتى إن الحضور مع كل إغماءة كانوا يظنون أنها سوف تحمل روحه معها. كيتيريا بكل الشرف والحياء، ممسكة باليد اليمنى لباسيليو، قالت له:

- لم تكن توجد قوة على الأرض قادرة على لوى إرادتي، وهكذا بكل حرية الاختيار التي أملكها أعطيك يدى زوجة كاملة الشرعية لك، وأستقبل يدك، إذا كنت تقدمها لى بكامل اختيارك، دون أن يصيبها التشوش أو التناقض بسبب الكارثة التي دار حديثك السريع خلالها.

أجاب باسيليو:

- نعم، أعطيك يدى دون تشوش أو اضطراب بكل الوعي المضىء، الذى شاءت السماء أن تمدني به، هكذا أقدم نفسي وأسلمها لك زوجًا.

أجابت كيتيريا:

- وأنا زوجة لك، والآن لتعيش سنوات طويلة، والآن أيضًا يأخذونك من بين ذراعى إلى قبرك.

قال سانشو بانثا عند ذلك:

- مع أن هذا الفتى شنيع الجرح، يتكلم كثيرًا، دعوه يغادر هذا العبث، وليهتم بخلاص روحه ويعترف للقسيس، فإنه يبدو لى أن روحه قد تجاوزت أسنانه إلى لسانه.

وفى حال إمساك باسيليو وكيتيريا بعضهما بعضًا يداً بيد، ألقى عليهما القسيس فى حنان ودموع بركاته، وهنا نهض باسيليو فى خفة فائقة، ووقف على قدميه، وفى هدوء لا نظير له سحب الخنجر الذى كان جسمه غمدًا له. ذهب كل من كان يحيط به، وبعضهم كانوا بسطاء أكثر منهم فضوليين، وقد صاحوا بأصوات عالية:

- معجزة، معجزة!

لكن باسيليو علق قائلاً:

- لا توجد "معجزة، معجزة!" بل هي "حيلة، حيلة!" .

القسيس غير مصدق ومذهول، مضى يجس الجرح بكلتا يديه، ورأى أن حد الخنجر لم يمر بلحم وضلوع باسيليو، وإنما فى ماسورة مجوفة من الحديد، مليئة بالدم، وكانت مستقرة جيداً فى المكان الذى أغمد فيه الخنجر، وقد وضع بها دمًا طازجًا حتى لا يتجمد، كما عرف بعد ذلك. أخيراً، نظر القسيس وكاماتشو وكل الحضور إلى الأمر على أنهم قد تم استغفالهم والسخرية منهم. أما الزوجة فلم يظهر عليها أنها قد ضايقتها الخدعة، وعلى الرغم من سماعها أن هذا الزواج باطل لقيامه على خدعة، قالت إنها تؤكد الزواج وتقبله من جديد، حتى إن الجميع استنتج من ذلك أنه باتفاق الاثنتين وتحايلهما تم تدبير كل هذه الخدعة، مما أصاب كاماتشو وصحبه بالعار، فقرروا أن يأخذوا بثأرهم بيدهم، واستلوا السيوف الغزيرة العدد، واتجهوا لمهاجمة باسيليو، الذى استلث للدفاع عنه سيوف كثيرة، تقدمها دون كيخوتى على جواده ممسكاً برمحه ومحكمًا درعه، ومفسحًا مكانًا للمعركة. أما سانشو الذى لا تعجبه ولا تذل له هذه المهازل فقد اتجه إلى دنان النبيذ، بجوار أوانى الطبخ التى أخذ منها "بهريزه"، وقد بدت له تلك البقعة مكانًا مقدسًا، يستحق احترام الجميع. بينما صاح دون كيخوتى بصوت عال:

- توقفوا عن هذا، أيها السادة، فليس من العقل الثأر من إهانة يصنعها الحب، واعلموا أن الحب والحرب سيان، وهكذا كما أنه من المشروع والمعتاد استعمال الحيل والاستراتيجية للتغلب على العدو، هكذا تكون الوقائع والمنافسات الغرامية، حيث تؤخذ بالحسنى الأكاذيب والخدع التى تهدف إلى

تحقيق نهاية سعيدة للرغائب، مادامت تلك الحيل لا تحط أو لا تدنس شرف الشيء المحبوب. كيتيريا كانت لباسيليو، وهو لها، عبر إرادة وإعداد-عادل ومحبوب من السماء، وكاماتشو غنى يستطيع شراء رغباته عندما وحيشما وكيفما يشاء، وباسيليو ليس له إلا تلك الغنمة، ولا ينبغي أن يجرمه منها أحد مهما كان جبروته، فالاثنان قد جمعهما الرب، مما لا يجعل أحداً يستطيع تفريقهما، ومن يحاول أن يفعل ذلك عليه أولاً أن يمر بسن هذا الرمح.

وخلال ذلك أشهر رمحه بقوة وبراعة، فبث الرعب في قلب كل من لا يعرفه، وقد حفر في خيال كاماتشو تمرد كيتيريا حتى محاها من ذاكرته في هنيهة خاطفة، وهكذا نجحت معه إجراءات القسيس، وكان رجلاً فطناً وحسن النية، حتى جنح كاماتشو وأنصاره إلى السلم والهدوء، ولتأكيد ذلك أعادوا سيوفهم إلى أغمادها، منحين باللوم على سهولة كيتيريا أكثر من خدعة باسيليو، وقد تحدث كاماتشو قائلاً إذا كانت كيتيريا قد أحببت باسيليو كثيراً وهي فتاة، فإنها كانت ستظل تحبه متروجة، وأن عليه أن يحمد الله أن نزعها منه أكثر من حمده لو كان قد أعطاها له.

وبهذا العزاء والإحساس السلمى، فإن كل أصحاب كاماتشو وأنصار باسيليو ركنوا للهدوء، وكاماتشو الثرى كى يظهر أنه لا يحس بخدعة وسخرية، بل لا يعير ما حدث انتباهاً، أحب أن تستمر الاحتفالات كما لو كان سيتزوج بالفعل، لكن لم يحب باسيليو ولا زوجته ولا أتباعهما متابعتها، وهكذا انصرفوا إلى قرية باسيليو، فأيضاً الفقراء ذوو المعدن الطيب والفتنة، يوجد من يتبعهم، ويكرمهم، ويؤويهم، كما يجد الأغنياء من يجاملهم ويصحبهم.

حملوا معهم دون كيخوتى، مقدرين له أنه رجل جسار وإقدام. فقط سانشو انفطرت نفسه حينما رأى استحالة انتظاره للمائدة العظيمة، ومتابعة احتفالات كاماتشو، والتي استمرت حتى الليل، وهكذا سار خلف سيده حزينا مضطهداً

لأنضمامه لكتيبة باسيليو، هكذا ترك وراءه أوانى مصر^(٦)، مع أنه يحملها فى أعماق الروح، مع طاسته التى أتى على كل ما كان فيها من "بهريز"، لكنها مازالت رمزاً للمجد والوفرة التى فقدها؛ وهكذا مقهوراً ومتفكراً، مع أنه لا يعانى الجوع، لم يترجل عن حماره متابعاً أثر روئينانتي.

(٦) مصطلح كثير الاستعمال فى القرن السادس عشر والسابع عشر، بمعنى "الحياة الوثيرة الطبية".

الفصل الثانی والعشرون

حيث تحكى المغامرة المهولة لكهف مونتيسينوس الذى يقع فى قلب دى
لامانشا، تلك المغامرة التى وصل بها إلى القمة الهام
دون كيخوتى دى لامانشا

كان التدليل الذى تلقاه دون كيخوتى من الزوجين غزيراً وعظيماً، مجبرين
على ذلك للبراهين التى قدمها دفاعاً عن قضيتهما، فبجانب الشجاعة، امتثالاً له
فطنته، متخذين منه بطلهما مثلما اتخذت إسبانيا "السيد"، لبراعته فى استعمال
السلاح، ولكونه فى بلاغة شيشيرون. أما سانشو الطيب فقد لاقى السلوى ثلاثة أيام
على حساب الزوجين، اللذين علم منهما أن الجرح المدعى لم يكن مؤامرة مشتركة
بينهما، وإنما حيلة من باسيلييو، على أمل أن تحقق ما تحقق، مع أن الحقيقة أنه قد
اعترف بجانب من تلك الحيلة لبعض أصدقائه، حتى يقوموا فى الوقت المناسب
بموافقة هدفه، وتدعيم خدعته. قال دون كيخوتى:

- لا يمكن، بل لا يجوز تسميتها خدعة، مادام هدفها نبيلاً كان. وزواج العاشقين
كان الهدف الأسمى، مع الاعتراف بأن النقيض الأكبر للحب هو الجوع،
والحاجة الملحة، لأن الحب كله بهجة وفرحة ورضا، ويزداد ذلك عندما يمتلك
المحب محبوبه ضد من هم أعداء معترضون وعلنيون: الحاجة والفقر.

وكان يردد كل هذا لعل السيد باسيلييو يترك ممارسة مقدراته التى يجيدها،
حتى لو كانت مصدر شهرة له، لأنها باختصار ليست مصدرًا للنقود، ويقوم بتمية

ثروة عبر طرق مشروعة وذكية، وهذه الطرق لا يعدها أبدًا من كان فطنًا وعمليًا. والفقير الشريف (إذا كان من الممكن وصف الفقير بالشرف) يملك ثروة بامتلاك امرأة حسناء، عندما يحرّمونه منها فإنهم يحرّمونه من الكرامة ويقتلونهم. والمرأة الحسنة الشريفة ذات الزوج الفقير تستحق التتويج بالغار والتصفيق لغلبتها ونصرها؛ فالحسنة لذاتها تجذب كل من ينظر إليها ويعرفها، وكطعم لذيد تتطلق وراءها النسور الملكية والصقور المحلقة، فإذا أضيف للحسن الحاجة وضيق الحال، أطلقوا بجانب ذلك عليها الغربان، وكل نوع من الحدأة والطيور الجارحة، والتي تقف أمام كل هذه المطاردة ثابتة الجنان تستحق أن يطلق عليها تاج زوجها.

أضاف دون كيخوتي:

- انظر، باسيليو أيها الفطن، هناك رأى حكيم لا أذكر من كان، أنه لا توجد في العالم إلا امرأة واحدة فاضلة، ثم أعطى نصيحة أن يعتقد كل زوج أن تلك المرأة الواحدة هي زوجته، وبهذا يعيش راضيًا مرضيًا. وأنا لست متزوجًا، وحتى الآن لم يرد إلى ذهني أن أكونه، وعلى الرغم من كل ذلك فإنني أجرؤ على تقديم النصيحة لمن يطلبها مني، والنصيحة أن الإنسان عليه أن يبحث عن المرأة التي يتزوج منها. وأول نقطة في البحث هي النظر إلى السمعة قبل المال، لأن المرأة الفاضلة لم تحقق السمعة فقط بالفضيلة، لكن بتجسيمها لها، فكثيرًا ما يضر بسمعة المرأة انعدام الحياء والحريات العامة أكثر من فعل السوء في السر والظلام. وإذا أحضرت امرأة فاضلة إلى بيتك، فإنه من السهل المحافظة عليها، بل زيادة فضلها وفضيلتها، لكن إذا أحضرتها خضراء الدمن تحتاج لجهود جهيد لإصلاحها، فمن الصعب العبور من طرف أقصى إلى الطرف الأقصى الآخر، وأنا أقول بأن ذلك ليس مستحيلًا، لكنه صعب.

سانشو هناك يسمع ويخاطب نفسه قائلاً:

- كلما قلت شيئاً يصيب نخاع الأشياء ودميها، تعود سيدى على القول بأننى أستطيع حمل منبر، والسير فى الدنيا أعظ الناس الوعظ الجميل، وأنا أقول عنه إنه عندما يبدأ فى غزل الأحكام وإعطاء النصائح، فهو لا يستطيع فقط حمل منبر فى يده، بل منبرين فى كل إصبع من تلك اليد، وبها يسير فى الساحات والميادين. ماذا وراء هذا الفم البليغ؟ ليذهب الفارس المشاء إلى الشيطان، فما أكثر ما تعرف! لقد كنت أظن أنه يعرف فقط ما يتعلق بالفروسية المشاءة، لكن لا يوجد شيء دون أن ينقر فيه، ولا يترك وضع مغرفته فى إنائه.

عندما كان سانشو يهمس بذلك سمعه سيده فسأله:

- بماذا تتمتع سانشو؟

أجاب سانشو:

- أنا لا أقول شيئاً، ولا أتمتع بشيء، فقط أقول لنفسى كنت أود سماع ما قلته فخامتكم هنا قبل زواجى، فلعلى كنت أستطيع لو حدث ذلك، القول الآن: إن الفحل الطلوقة ماهر الجس.

قال دون كيخوتى:

- وهل تيريزا زوجتك سيئة إلى هذا الحد؟

أجاب سانشو:

- ليست سيئة جداً، وليست جيدة جداً، على الأقل إنما ليست بالجودة التى كنت أرغبها.

قال دون كيخوتي:

- إنك تسيء الفعل، سانشو، بإساءة القول عن زوجتك، فهي أم أولادك.

أجاب سانشو:

- أنا لا أدين لها بشيء، فهي أيضاً تسيء القول عني في نزواتها، وخاصة عند شعورها بالغيرة، حيث لا يستطيع الشيطان بنفسه تحملها.

في النهاية، قضيا ثلاثة أيام مع العروسين، حيث حظيا بكل تدليل وخدمة كما لو كانا أميرين. طلب دون كيخوتي من حامل الليسانس المبارز البارغ أن يرشده عن كيفية الذهاب إلى كهف مونتيسينوس، لأنه لديه رغبة عظيمة لدخوله ورؤيته عياناً للتحقق عما إذا كانت المعجزات التي يتحدثون عنها في هذه المنطقة صحيحة. الجامعي أخبره أنه سوف يجعل ابن عم له يرافقه، وهو تلميذ نابه ومغرم جداً بقراءة كتب الفروسية، من ثم فإنه بنفس رضية سوف يحمله إلى فوهة الكهف، وسوف يريه "بحيرات رويديرا"، المشهورة جداً في لامانشا نفس شهرتها في كل إسبانيا، وأضاف الجامعي أن ابن العم سلوى للعليل، فهو فتى يؤلف كتباً للنشر يهدئها للأمرء. أخيراً، حضر ابن العم على حمارة حامل، لها بردعة مغطاة بمفرش أخضر لمائدة أو ما شابه ذلك. أسرج سانشو روئينانتي وأعد حمارته، وملاً خرجه بالزوادة، مثل خرج ابن العم حسن الزوادة، وهكذا توكلوا على الله، وودعوا الجميع، وأخذوا طريقهم، في منحدر يحملهم نحو كهف مونتيسينوس المشهور.

في الطريق سأل دون كيخوتي ابن العم عن أي جنس تنتمي إليه ممارساته ومهنته ودراسته، فأجابته بأنه دارس للإنسانيات، وأن مهنته تأليف كتب ودفعها للطبع، وكلها مفيدة جداً، وليست أقل تسليية للعباد، أحدها اسمه كتاب الحلال، حيث رسم به سبعمائة وثلاث حلال بألوانها وشعاراتها وأسرار صنعتها، حيث يستطيع كل من شاء صنعها لنفسه وقت الأعياد وحفلات فرسان البلاط، دون السعي لاقتراضها شحادة من كل من هب ودب، أو قل استجداؤها حسب قولهم، والعقل أن يصنعوها طبقاً لرغباتهم ومقاصدهم.

وواصل ابن العم:

- لأننى أقدم للغيور وللمتكبر وللمنسى وللغائب ... كل حسب ما يناسبه، حتى تخرج الحلة أكثر مناسبة وضبطاً دون عيوب، ولى كتاب آخر على أن أعطيه عنوان "المسخ أو أوفيديو الإسباني"، وهو إبداع جديد وغريب، حيث أحاكى أوفيديو بطريقة ساخرة، وأرسم فيه ماهية لاخيرالدا ياشبيلية وملاك مادالينا بكنيسة سلمنقة، وبركة بيسنغراً بقرطبة، وماهية ثيران غيساندو، ولاسييرا مورينا، وينايع ليجانيتوس، ومغسل القدمين بمدريد، دون أن أنسى مغسل القدمين في بيوخو والآخر في البركة المذهبة، ثم مغسل القدمين في بريورا، وكل هذا مع كناياته واستعاراته وتورياته، وكل ذلك يبهج ويحير ويعلم في نفس الوقت. ولى كتاب ثالث أطلق عليه ملحق "فيرخيليو بوليدورو"^(١)، وهذا الكتاب يعالج موضوع اختراع الأشياء التى لم يذكرها "بوليدورو"، حيث أتخرى جوهرها وما وراءها من عبقرية، بأسلوب يعتمد على الطرافة. فقد نسى فيرخيليو ذكر أول من أصيب بالإنفلونزا في العالم، وأول من استخدم المرهم لعلاج السفلس، وكل هذا أوضحه بدقة مستخدماً خمسة وعشرين مصدراً لكل موضوع، حتى ترى فخامتكم كم من الجهد بذلت، وحتى يصبح الكتاب مفيداً لجميع الناس.

سانشو الذى بقى ملقياً اهتمامه لحكايات ابن العم، قال له:

- قل لى يا سيدى، أفسح الله لك فى حظ طبع الكتب! هل تعرف أن تقول لى، وأنت قطعاً ستعرف، فأنت تعرف كل شىء، من كان أول من هرش رأسه، فحسب رأي أظن أنه ينبغي أن يكون أبونا آدم؟

(١) مؤرخ إيطالى عاش فى أول القرن السادس عشر، له مؤلفات كثيرة.

أجاب ابن العم:

- أظن أن هذا صحيح، لأنه مما لاشك فيه أن آدم كانت له رأس وشعر، ولكونه كذلك سيكون أول رجل قد هرش رأسه على الأرجح.

رد سانشو:

- وهذا ما أعتقد، لكن قل لي الآن من هو أول بملوان في العالم؟

أجاب ابن العم:

- في الحقيقة لن أعرف تقرير ذلك الآن حتى أدرس الأمر، وسوف أدرسه عند عودتي حيث تكون كتيبي بين يدي، وسوف أشبع فضولك عندما نرى بعضنا في المستقبل، فلا ينبغي أن يكون لقاءنا هذا هو الأخير.

أجاب سانشو:

- انظر سيدي، لا تجهد نفسك في هذا، فالآن وقع في خاطري إجابة سؤال، فلتعلم أن أول بملوان هو إبليس فعندما طرده رموه من السماء نحو الأرض فأتى متشقلبًا حتى هاوية الهاوية.

قال ابن العم:

- معك حق.

وهنا قال دون كيخوتي:

- هذا السؤال وإجابته ليست لك، فلعلك سمعته من أحد.

علق سانشو:

- اسكت يا سيدى، فأنا أقسم أنى إذا انطلقت فى طرح أسئلة وإجابتها فلن أنتهى من ذلك حتى الغد، إذا كان الأمر طرح أسئلة بلهاء ثم إجابتها بترهات لا توجد حاجة للسعى طلباً لعون الجيران.

قال دون كيخوتى:

- لقد نطقت بأكثر مما تعرف، مع أن هناك كثيرين يجتهدون لمعرفة الأشياء وتحريكها، ثم بعد أن يتم التحرى وتصيح الأشياء معروفة، فإنها لا تفيد الفهم أو الذاكرة قلامه ظفر.

فى هذه وغيرها من الدردشة الممتعة مر عليهم اليوم، وقد قضوا ليلتهم فى قرية صغيرة، حيث قال ابن العم لدون كيخوتى بأنه من تلك القرية حتى كهف مونتيسينوس لا تزيد المسافة عن فرسخين، وأنه إذا كان عاقداً العزم على دخوله فلا بد من التزود بحبال كي يربط نفسه بها للتعلق فى أعماق الكهف. قال دون كيخوتى إنه لو وصل إلى الهاوية فهو يعرف أين يتوقف. وهكذا، اشترىوا مائة قامة(*) من الحبال، وفى اليوم التالى فى الثانية مساء وصلوا إلى الكهف، وكانت فوهته واسعة وعريضة لكنها كانت مليئة بنباتات إهليجية، وشجيرات تين برى وعليق، بجانب الحشائش البرية الكثيفة المتشابكة، التى تغطى الفوهة وتغطى النظر، وعند رؤيتها ربطوه بقوة محكمة فى الحبال، وخلال ذلك قال له سانشو:

- انظر فخامتكم، سيدى، ليكن ما تفعله ليس الدفن بالحياة، ولا تضع نفسك فى موضع تبدو فيه إناء مما يضعون للتبريد فى الآبار. نعم، فأنت لا يحصك ولست مسئولاً عن فحص هذا البئر، لأنه يجب أن يكون أسوأ من ظلام سجن مطبق.

(*) القامة = ١,٦٧ متر.

أجاب دون كيخوتي:

- اربطني وأنت ساكت، فمثل هذه المهمة مثل غيرها مكتوبة لي وكانت في انتظار قدومي.

من ثم قال المرشد:

- أرجوك، سيدي دون كيخوتي، أن تنظر جيداً، وأن تتروى بمائة عين فيما يوجد هناك بالداخل، فلعلك تجد أشياء أضعها في كتابي "التحولات".

أجاب سانشو بانثا:

- إن الدف في يد من يجيد العزف.

عند الانتهاء من قول ذلك وربط دون كيخوتي من الأمام وليس من الخلف حسب طلبه، قال:

- لم ندرك ضرورة تزودنا بجرس صغير يربط في الحبل الذي يجزمني، حتى تفهموا من صوته أنني مازلت أهبط وأنى حى، ولكن هذا غير ممكن الآن، فعناية الله سوف ترشدني.

وهنا ركع على ركبتيه، وأدى صلاة هامسة للسماء، طالباً من الله العون، وأن يجعل ما يقع له سعيداً في هذه المغامرة الجديدة الخطرة، وفي صوت مرتفع قال:

- أوه، سيدة أفعالي وتحركاتي، أيتها الشفافة عديمة النظر، دولثينيا دل توبوسو! إذا كان ممكناً أن تصل إلى مسامعك هذه التوسلات والرجاءات من عاشقك المحظوظ بجبك، وبجياة جمالك غير المسبوق، أرجوك أن تسمعها، وهي ليست إلا التوسل إليك بالألا تنكرى على عونك وحمایتك مما أنا في أشد الحاجة إليه.

إنني سوف أندفع في تركيز مثيراً نفسي وغائصاً في هذه الهاوية التي تمثل أمام ناظري، ويعرف العالم أنه إذا أنعمت عليّ فلن يكون مستحيلاً عليّ القتال والإنجاز.

عند قوله هذا اقترب من الذروة، ورأى أنه ليس من الممكن التذلي، أو الدخول إذا لم يكن بقوة عضلات الذراعين أو بالسيف لإزالة الحشائش من الطريق، وهكذا قبض على السيف، وبدأ يسقط ويقطع تلك الحشائش البرية التي كانت تسد فوهة الكهف، وفجأة أحدثت ضجة ودويًا، وخرج منها عدد لا حصر له من الغربان العظيمة الحجم، في كثافة وسرعة فائقة، فألقت بدون كيخوتى على الأرض، وهو إذا كان متشائمًا كمسيحي كاثوليكي يؤمن بالفال، لأخذ ذلك على أنه نذير سوء، وتراجع عن سجن نفسه في مكان كهذا.

أخيرًا نهض عندما رأى عدم خروج مزيد من الغربان، ولا غيرها من طيور تفضل الظلام، مثل الخفافيش التي خرج منها الكثير في نفس الوقت مع الغربان، ومد له الحبل ابن العم، وتركه يتقدم في تطهير الطريق حتى آخره في الكهف، وعند دخوله باركه سانشو، راسمًا فوق صدره ألف صليب، وقال:

- هدى الله لك الطريق وعذراء فرنسًا^(*)، وبركات ثالث جاييتا^(**)، يا زهرة وزبدة الفرسان المشائين، بل زبدها. أنت ذاهب إلى هناك يا أشجع رجل في الدنيا، وصاحب القلب الحديدي الصلب، والذراعين البرونزيتين. مرة أخرى هدى الله لك طريقك، وأعادك حرًا، سليمًا، دون أذى، إلى نور هذه الحياة التي تتركها لتجس نفسك في هذه الظلمة التي عنها بحث.

تقريبًا أدى نفس الصلوات والابتهالات ابن العم.

(*) إحدى القديسات المعظّمات في جنوب سلمنقة.

(**) والثالث اسم دير بجاييتا.

ومضى دون كيخوتى يصرخ بأن يمدوا له الحبل، ثم المزيد من الحبل، وهم كانوا يمدونه شيئاً فشيئاً، وعندما توقفوا عن سماع الأصوات التى كانت تخرج مخرفشة من الكهف، كانوا بالفعل قد انتهوا من إلقاء المائة قامة من الحبل، وصار رأيهم شد الحبل ليرفعوا به دون كيخوتى إلى الخارج، حيث ما عاد هناك مزيد من الحبل لتدليته. ومع كل هذا توقفوا عن فعل شيء حوالى نصف ساعة تقريباً، وفى نهايتها بدأوا يشدون الحبل بسهولة شديدة ودون الإحساس بأى ثقل، فاعتراهم الإحساس بأن دون كيخوتى بقى بالداخل، وعند استقرار ذلك فى يقين سانشو بكى فى مرارة، ومضى يشد الحبل فى سرعة متزايدة حتى يتحقق من إحباطه، لكن عند شدهم أكثر من ثمانين قامة بقليل على ما يبدو، عادوا يحسون ثقلاً، مما أبهجهم كثيراً. أخيراً رأوا دون كيخوتى على مسافة عشر قامات من الحبل رأى العين، وصاح به سانشو:

- اللهم اجعله عوداً حميداً لفخامتكم، لقد ظننا أنك ستبقى هناك أبداً.

لم يجب دون كيخوتى بأى كلمة، وكانت عيناه مغلقتين، إشارة إلى نومه. مددوه على الأرض، وحلوا الحبل عن خصره، ومع كل هذا لم يستيقظ، وقد هزوه، وأعادوا الهز والرج والوخز، وفى نهاية برهة طويلة عاد إلى وعيه كما لو كان يستيقظ بعد حلم جاد وعميق، ونظر يسرة ويمنة كما لو كان فزعاً، وقال:

- سامحك الله يا صديقى، لقد انتزعتما من الحياة والمناظر الأكثر لذة ورفاهية مما لم يسبق لإنسى أن رأى أو مر بمثل هذا الفعل، الآن وشيكاً أعرف أن كل ملذات هذه الحياة تمضى مثل خيال وحلم، أو تذبل مثل زهرة الحقل. أوه مونتيسينوس التعيس! أوه، دوراندارتى، خطير الجروح! أوه، بيليرما عديمة

الحظ! أوه، جواديانا المنتحب! وأنتن دون سعد يا بنات روبديرا، اللائى
تظهرن فى مياهنكى التى تذرفها عيونكن الجميلة!

أنصت ابن العم وسانشو إلى الكلمات التى كان يقولها دون كيخوتى، كما لو
كانت تصدر عن ألم مكثف من أعماق أحشائه. رجوه أن يفهمهما ما يقول، وأن
يذكر لهما ما رأى فى جهنم تلك.

قال دون كيخوتى:

– إذن، لا تسميها بهذا الاسم، لأنها لا تستحق ذلك كما ستريان بعد.

طلب أن يعطياه شيئاً يأكله فهو يعود بجوع أعظم، ففرشوا مفرش ابن العم
على الحشيش الأخضر، وهرعوا إلى الزوادة فى خرعى سانشو وابن العم، وجلس
الثلاثة جميعاً فى حب ووثام، جامعين بين أكلة العصارى والعشاء، وعندما انتهوا
رفعوا المفرش، وعندها قال دون كيخوتى دى لامانشا:

– لا ينهض أحد منكما، وكونا، أيها الابنان، كلكما آذاناً صاغية لى.

الفصل الثالث والعشرون

عن الأشياء العجيبة التي حكاها دون كيخوتى (الصلب العود)
عما رآه فى الكهف العميق مونتيسينوس من أشياء مستحيلة
ومهولة تجعلنا نأخذ هذه المغامرة على أنها مختلفة

كانت الرابعة مساءً عندما أتاحت الشمس بأشعتها الضعيفة والسحب التى تغطيها لدون كيخوتى دون حر أو مضايقة أن يحكى إلى مستمعيه الاثنين النقيين ما رآه فى كهف مونتيسينوس، وبدأ بهذه الطريقة:

- على مسافة اثنتى عشرة قامة أو أربع عشرة من عمق هذا السجن المطبق تكون تجويف على الجانب الأيمن يتسع لعربة ببغالها، وبه شروخ أو فتحات تؤدى إلى سطح الأرض، وتدخل له بصيصاً من النور هذا التجويف أو الفضاء رأيتَه فى الوقت المناسب، عندما كنت أمضى متعباً كنيماً من رؤيتى معلقاً مشعلقاً فى الحبل، متحركاً فى هذه البقعة المظلمة السحيقة، دون أخذ طريق يقينى أو محدد، وهكذا قررت البقاء فيها للاستراحة بعض الوقت، صرخت فيكما ألا تلقيا الحبل أكثر حتى أقول لكم. لكن من المؤكد أنكما لم تسمعاني، وهكذا مضيت التقط الحبل الذى كنتما تدليانه، صانعاً منه لفة أو حزمة جلست عليها متفكراً فى عمق، معتبراً ومتأملاً فيما يجب عمله حتى أصل إلى العمق، دون وجود من يشدنى دافعاً الحبل، وخلال ذلك التفكير وتلك الخيرة، فجأة هجم على النوم العميق دون أن أحاول النوم، بل

وعندما كان آخر شيء يخطر على بالي، وحدث ذلك دون أن أعرف كيف حدث وكيف لم يحدث، واستيقظت من هذا النوم ووجدتني في وسط مرج هو الأجل والأهدأ والألذ بين المروج التي يمكن للطبيعة تنشئتها، ويتجاوز خيال أصحاب الخيال، فركت عيني منظرًا لهما، ورأيت أنني لم أكن نائمًا إنما حقيقة كنت مستيقظًا، ومع كل هذا لمست رأسي وصدرى لأشهد نفسي عما إذا كنت أنا نفس نفسي من يكون هناك في تلك اللحظة، أو أنه مجرد شيخ زائل مزور، لكن اللمس والشعور والحديث الذي كنت أحدث به نفسي شهد أنني من أنا معكم هنا هو من كان هناك لحظتها. وظهر لبصرى بعد ذلك قصر مهول أو تحصينات قلعة، بدت جدرانها شفافة، ومصنوعة من كريستال صاف، ومفتوح فيها بابان عظيمان، يخرج منهما ويتجه إلى شيخ هرم جليل المظهر، يرتدى إهابًا فضفاضًا من صوف خشن بنى اللون، مضى يجر أطرافه وراءه على الأرض، وعلى كتفيه تمنطق مثل طلاب الجامعات بنطاق امتد إلى الصدر من قماش بيكه من الأطلس الأخضر، وقد غطت رأسه قبة سوداء على طراز قبعات ميلانو، ولحيته شديدة البياض تتدلى تحت خصره، ولم يكن يحمل أى سلاح، وإنما مسبحة من الخرز في يده، كل خرزة فيها أكبر من البندق متوسط الحجم، أما خرز الفواصل العشرية^(١) فمثل بيض النعام المتوسط الحجم. وأما الهيئة والخطوة والجديّة، والحضور القوى، فكل صفة من هذه الصفات وجميعها معًا جعلتني حائرًا مندهشًا. اقترب مني، وأول ما فعل احتضني بقوة ثم قال لي:

(١) كما هو معروف أن هناك خرزة كبيرة تفصل بين كل عشر خرزات صغيرة.

- "أزمان طويلة، أيها الفارس الهمام دون كيخوتي دى لامانشا، ونحن هنا في تلك الوحشة والوحدة ننتظر مسحورين رؤيتك، حتى تعطى أخباراً للعالم حول ما يوجد في ظلمات الكهف العميق الذى دخلته، والمسمى كهف مونتيسينوس؛ وهو مجد كان في انتظار أن يقتحمه قلبك الذى لا يهزم، وروحك العظيمة. تعال معي، أيها السيد التقى، فأنا أحب أن أريك العجائب التى يخفيها هذا القصر الشفاف، وهو قصر نفس مونتيسينوس، ومونتيسينوس هو أنا الذى أعطى الكهف اسمه.

- ومجرد أن ذكر لى أنه مونتيسينوس سألته عما إذا كان صحيحاً ما يحكونه في العالم العلوى خارج الكهف، أنه قد أخرج بسكين صغير قلب صديقة الكبير "دوراندارتى"، وحمله إلى السيدة بيليرما، مثلما أمره الصديق نفسه في لحظة موته. أجاب أن كل ما يقولونه حقيقى ما عدا موضوع السكين، لأنها لم تكن سكيناً ولا صغيراً، إنما كان خنجراً مثلث الطرف، أحداً من سن المخرز.

قال عند ذلك سانشو:

- ينبغي أن يكون ذلك الخنجر هو خنجر رامون دى أويس الإشبلى.

واصل دون كيخوتي:

- لا أدرى؛ لكن قد لا يكون، لأن هذا الإشبلى ابن الأمس، بينما خنجر "رونثيسبايس" مكان وقوع هذه النكبة ينتمى إلى أعوام طويلة من قبل، عموماً تحرى هذا الأمر لا أهمية له ولا يعوق أو يغير حقيقة سياق القصة.

أجاب ابن العم:

- هو كذلك، واصل فخامتكم أيها السيد دون كيخوتي، فأنا أسمعك بأعلى تلذذ في العالم.

أجاب دون كихوتى:

- وحاكيًا له لا أشعر بأقل مما تشعر من تلذذ، وهكذا أقول أن المجل مونتيسينوس أدخلنى فى القصر الكريستالى، حيث فى صالة أرضية، شديدة الطراوة وكلها من الرخام، كان يوجد قبر من المرمز، مقام فى إبداع أستاذى فوقه رأيت فارسًا ممددًا من رأس القبر لآخره، وليس تماثلاً (كالعتاد) للميت من المرمز أو من البرونز أو من الیصب، وإنما عظم ولحم حقيقيين. وكانت يده الیمنى (والتى، حسب رأى، مشعرة بعض الشىء ومتوترة، إشارة للقوة التى كان يتمتع بها صاحبها) موضوعة على جانب القلب، وقبل أن أسأل مونتيسينوس عن أى شىء، ناظرًا إلى نفسى فى حيرة وأنا أرى القبر، قال لى: هذا صديقى دوراندارتى، مرآة وزهرة الفرسان العشاق والشجعان فى عصره، مأسور هنا تحت قيد السحر، كما يأسرنى وبأسر الكثيرين والكثيرات، ميرلين، ذلك الساحر الفرنسى الذى يقولون عنه أنه كان ابنًا للشيطان؛ وما أعتقد أنه لم يكن ابن الشيطان، إنما عرف، كما يقولون، أنه كان له مقدرة شريرة أبعد بنقطة من مقدرة الشيطان. لا أحد يعرف كيف ولأى سبب يسحرنا، لكن الأمر سوف يذاع مع مضى الزمن القادم، وحسبما أتخيل فقد اقترب ذلك الزمان، وأنه ليس بعيد. لكن ما يدهشنى هو أنى أعرف، يقينًا مثل يقين أنى الآن بالنهار، أن أمر حياة دوراندارتى قد انتهى، فقد أسلم الروح بين ذراعى، وبعد موته أخرجت قلبه بيدي هاتين، وفى الحقيقة أنى أتذكر أنه كان لا يزن أقل من رطلين، لأنه طبقًا لخصائص الجسم، أن من يملك قلبًا أكبر يوهب شجاعة أكثر من صغار القلوب. إذن مادام الأمر كذلك، وأن هذا الفارس قد مات موتًا حقيقيًا، كيف يتهد

ويشكو الآن بين الفينة والفينة؟ وعند قول هذا دوراندارتى المسكين فى صوت مرتفع، قال:

آه، مونتيسينوس يا ابن العم
آخر ما أطلبه منك بل أتوسل
أنه عندما أكون ميتاً
وتم نزع روحي من بين جنبي
احمل قلبي
حيث تكون بيليرما
سواء أخرجته بسكين أو خنجر

عند سماعه، المبجل مونتيسينوس ركع على ركبتيه أمام الفارس المنتحِب،
وبدموع فى عينه، قال له:

- " لقد تم كل شيء يا ابن العم الغالى، ولقد نفذت ما طلبته منى فى ذلك اليوم
القديم لهلاكنا، لقد استخرجت قلبك بأفضل ما استطعت دون أن أترك منه
ذرة فى صدرك، ونظفته بمنديل بكل عناية، وغادرت حاملاً له أسبق الطريق
إلى فرنسا بعد أن أودعتكم حجر الأرض بكثير من الدموع التى كانت كافية
لغسل يدي، وتنظيفى من الدم الذى أغرقنى لاختراقى لأحشائك، وحتى
أعطيك علامات أكثر، يا ابن العم، الروح فى المقام الأول، وأنا مسرع
للذهاب إلى رونسفال ألقيت بعض الملح على قلبك حتى لا يخرج منه رائحة
قييحة، وحتى إن لم يصل طازجاً يصل مملحاً فى حضرة الأنسة بيليرما، والتى

هي معكم ومعى ومع جواديانا حامل دروعكم، ومع القهرمانانة رويديرا
 وبناتها السبع وابنتى أخيها الاثنتين، ومع كثيرين آخرين من معارفكم
 وأصدقائكم، تحت سطوة سحر الساحر ميرلين منذ سنين طويلة، ومع أن
 تلك السنين تجاوزت الخمسمائة فإن أحدًا منا لم يمِت، ماعدا رويديرا وبناتها
 وبنات أخيها، واللاتى لبكائهن لا بد أن ميرلين شفقة عليهن قد حولهن إلى
 بحيرات عديدة، موجودة في دينا الأحياء، وفي إقليم لامانشا يطلقون عليها
 اسم بحيرات رويديرا، سبع منها لملك إسبانيا أما ابنتا الأخ فهما لنظام دينى
 من الفرسان اسمه دون خوان. (جواديانا) تابعكم ونائح نكتكم، تحول إلى
 نهر يحمل اسمه، والذي وصل إلى سطح الأرض، ورأى شمس السماء
 الأخرى، فقد كان حزنه عظيمًا لفراقكم، حتى إنه انغمس في أحشاء الأرض،
 ولأنه ليس ممكناً أن يهجر طبيعته المألوفة، فإنه بين الحين والحين يخرج ويظهر
 حيث يراه الناس وتراه الشمس. وتمضى مديرة مياهه البحيرات الأنفة
 الذكر، وبها وبغيرها من الكثير من البحيرات يدخل البرتغال مزهواً وعظيمًا.
 ولكن، مع كل هذا، حيثما سار يظهر حزنه وآلام نفسه، ولا يرغب في
 تنشئة أسماك مدللة وذات قدر، إنما هي الأسماك الحشنة عديمة القدر، على
 خلاف أسماك نهر تاخو الذهبى. وهذا الذى أقوله لكم الآن، أوه يا ابن عمى!
 قد قلته لكم مرارا وتكرارا، وكما أنكم لا تجيبني، أتصور أنكم لاتصدقني،
 أو لا تسمعونى، مما يملأنى أسى يعلم الله مدها. وأخبار جديدة أحب أن أبلغك
 بها الآن، إذا لم تخفف أملك فإنها لن تزيد، اعلم أنك تحظى الآن في
 حضرتكم، وافتح عينيك لتراه، بذلك الفارس العظيم، والذي تنبأ بأشياء
 كثيرة بشأنه الساحر ميرلين، ذلك هو دون كيخوتى دى لامانشا، الذى أحيأ
 الفروسية المشاة المندثرة منذ قرون متفوقاً كثيراً على فرسانها القدماء، وعلى

يديه وبفضله قد يتم فك سحرنا، فإن الأجداد العظيمة تنتظر حتى يأتى لإنجازها الرجال العظماء".

أجاب المنكوب دوراندارتى بصوت خافت لإغماءة:

— "وإذا لم يحدث، يا ابن العم! وإذا لم يحدث فصبر جميل وانتظار للحظ، بترتيب ورق اللعب"^(*) ومتحركاً قليلاً متخذاً جانباً، عاد إلى صمته المعتاد، دون أن ينطق بأى كلمة أخرى. وخلال ذلك استمعت إلى نحيب عظيم ونشيج، مصحوب بأهات حزينة وحشرجات، فأدرت رأسى عبر الجدران الكريستال نحو صالة أخرى لأرى صفين من الوصيفات بعيدات الجمال، كلهن فى موكبهن بملابس الحداد، وعلى رأس كل وصيفة عمامة على الطريقة التركية، وفى نهاية الصفين ظهرت سيدة، تبدو فى جدية وجلال، ومثل الباقيات فى ثياب سوداء، وعلى رأسها خمار أبيض يتدلى حتى يقبل الأرض، وعمامتها كانت أكبر مرتين من أكبر عمامة للوصيفات. كانت قرناء الحاجبين، خنساء الأنفين قليلاً، وفمها عظيم، وردى الشفتين، والأسنان التى كادت تبين، مفصلة تظهر غير جيدة النظام مع أظفارها فى بياض اللوز المقشر، وعلى يديها انفرد نسيج من التيل يعلوه - على ما استطعت لمح - قلب من لحم موميائى، جاف ومملح.

قال لى مونتيسينوس:

— "إن كل هؤلاء كُنَّ فى خدمة دوراندارتى وبيليرما، وقد سُحرن مع سيديهن، وإن تلك الأخيرة التى تحمل القلب فوق النسيج التيلى هى السيدة بيليرما، التى تقوم بهذا الموكب مع وصيفاتها أربع مرات فى الأسبوع، وخلالها يتغنين

(*) ستستخدم هذه العبارة فى الفصل التالى لإثبات قدم لعب الورق (الكوتشينة).

أو قل ييكن مرثيات حول جسم ابن عمى المنكوب وقلبه، وإذا كانت بيليرما تبدو لك بعض الشىء قبيحة أو ليست بذلك الجمال الذى اشتهرت به، فذلك بسبب الليالى طويلة الحزن والأيام الأسوأ التى قضتها فى أسر السحر، كما يمكن أن ترى فى الهالات التى تحيط بعينيها، والشحوب الذى يغطى لوئها وتلك الهالات مع صفار الوجه ليست نتيجة العادة الشهرية التى تعتاد النساء، لأنه منذ شهور طويلة وسنين متطاولة لم تطل تلك العادة ببأها، وإنما كانت للألم الذى يغمر قلبها بسبب القلب الذى تحمله دائماً فى يديها، والذى به تستعيد وتجدد ذكرى نكبة عاشقها المنحوس الحظ، وإذا لم يكن ذلك قد أصابها، فما كانت تعادها فى الحسن والجمال والبهاء الحسناء دولثينيا دل توبوسو، عظيمة الشهرة فى كل هذه الأنحاء".

تمت أنا حينذاك محدثاً مونتيسينوس:

- "عفوًا، أيها السيد مونتيسينوس، قص حكايتك كما يجب عليك قصها، فأنت تعرف أن أى مقارنة فيها شىء من الحقد، من ثم لا يوجد سبب لمقارنة أحد بأحد، فإن عديمة النظر دولثينيا دل توبوسو هى ما كانت عليه، والسيدة بيليرما هى ما كانت عليه، وما تكون عليه الآن، وقف عند ذلك".

أجاب على هذا مونتيسينوس:

- "أيها السيد دون كيخوتى، فلتسامحنى فخامتكم، وأعترف بأننى أخطأت الطريق، ولم أحسن القول حين قلت أن تكاد تتساوى السيدة دولثينيا مع السيدة بيليرما، وكان حسبى مع فهمى، ولا أدرى كيف وبأى تخمين، أن فخامتكم هو فارس السيدة دولثينيا، أن أعض لسانى قبل مقارنتها بأحد إلا بجمال السماء نفسها".

وبهذه الترضية التي قدمها لى مونتيسينوس الجليل هدأ قلبي من الفرعة التي أصابتنى عند سماعى أنهم يقارنون سيدتى مع بيليرما.

قال سانشو:

- إننى أعجب من أن فخامتكم لم تصعد فوق هذا العجوز وتطحنه بالركلات حتى دشدشة العظام منه، ونف لحيته حتى لا تبقى بها شعرة.

أجاب دون كيخوتى:

- لا، سانشو أيها الصديق، لم يكن يحسن بى صنع ذلك، لأننا جميعاً مجبرون على حفظ الاحترام لكبار السن، حتى لو لم يكونوا فرساناً، وخاصة من كان منهم مسحوراً، وأنا أعلم جيداً أنه لم يبق فيما حدث بينى وبينه ديون فى دعاوى كثيرة وردود.

وهنا قال ابن العم:

- أنا لا أدرى، أيها السيد دون كيخوتى، كيف فخامتكم فى مثل ذلك الوقت الضيق، هناك تحت، قد رأيت أشياء كثيرة، وتكلمت وأجبت على الكثير.

سأل دون كيخوتى:

- كم من الوقت قضيت تحت؟

أجاب سانشو:

- أكثر من ساعة بقليل.

أجاب دون كيخوتى:

- هذا لا يمكن أن يكون، لأنى هناك أصبحت وألّيت، ومر على الإصباح والإليال ثلاث مرات، بمعنى أنه طبقاً لحسابى فإنى قضيت ثلاثة أيام بلياليها فى تلك الأنحاء البعيدة والخفية عن أنظارنا.

قال سانشو:

- إن ما يقوله سيدى ينبغي أن يكون صحيحًا، كما أن كل ما حدث له واقع في ظل السحر، فإنه ربما الساعة عندنا ثلاثة أيام هناك.

أجاب دون كيخوتى:

- لعله كذلك.

أجاب ابن العم:

- وهل أكلت فخامتكم خلال تلك الأيام.

أجاب دون كيخوتى:

- لم أكل ولو لقمة، كما لم أحس بالجوع بل حتى لم يخطر على بالى.

قال ابن العم:

- وهل المسحورون يأكلون؟

أجاب دون كيخوتى:

- لا يأكلون، ولا ينمو سوى الأظافر واللحية والشعر، حيث يحدث فيها نمو.

سأل سانشو:

- وبالصدفة، هل ينامون؟

أجاب دون كيخوتى:

- يقينًا لا، على الأقل في تلك الأيام الثلاثة التى قضيتها هناك لم يغمض أحد جفنيه، وأنا أيضًا.

قال سانشو:

— على هذا يصدق جيداً المثل: "قل مع من تسير، أقول لك من أنت" مرحى مع هذا الصوم المسحور لفخامتكم وذلك السهر، انظر فخامتكم كم هو مكلف ذلك الجوع والسهر مادامت تصاحب هؤلاء. لكن سامحنى فخامتكم، يا سيدى، إذا قلت لكم وليأخذنى الله (كنت على وشك أن أقول الشيطان) إن صدقت شيئاً من كل هذا.

قال ابن العم:

— كيف لا تصدق؟ إذن، هل كان السيد دون كيخوتى يكذب، الذى حتى لو أحب الكذب، فلم يكن لديه وقت لتأليف وتحويل عدة ملايين من الأكاذيب؟

أجاب سانشو:

— أنا لا أعتقد أن سيدى يكذب.

سأله دون كيخوتى:

— وماذا تعتقد؟

أجاب سانشو:

— أعتقد أن ذلك الميرلين أو هؤلاء السحرة الذين سحروا كل تلك الزمرة، التى تحكى عنها فخامتكم وحدث أن رأيتها واتصلت بها هناك تحت، قد وضع فى خيالك أو فى ذاكرتك كل تلك الأحداث التى حكيتها لنا، وكل ما بقى ولم تحكه.

أجاب دون كيخوتى:

— كل ذلك ممكن أن يكون سانشو، لكن الأمر ليس كذلك، لأن ما حكيته رأيته بعينى هاتين، ولمسته بهاتين اليدين، لكن ماذا يمكن أن تقول الآن؟ كيف، بين

الأشياء والعجائب دون إحصاء التي أراى إياها مونتيسينوس (والتي بالتدريج وكل في وقته سأوالى حكايته خلال رحلتنا، لعدم كونها كلها مرتبطة بهذا المكان)، عرض لى ثلاث فلاحات، كن فى هذه الحقول المبهجة يتقافرن ويلعبن كما لو كن نعاى ماعز، وبمجرد أن وقع بصرى عليهن، تعرفت على التى لا نظير لها دولثينيا دل توبوسو، وعلى الفلاحتين الاثنتين اللتين كانتا تصاحبانها، الثلاث اللاتى تكلمنا معهن عند خروجنا من التوبوسو؟ سألت مونتيسينوس هل يعرفهن، فأجابنى أن لا، لكنه كان يتصور أنهن ينبغى أن يكن سيدات رفيات الشأن مسحورات، ظهرن فى المرج من أيام قليلة، وهو لا يستغرب ذلك؛ فهناك أخريات كثيرات أعطاهن السحر صوراً متعددة وغريبة، ومن بين من تعرف هو عليهن الملكة خيرىا، وصديقتها القهرمانة كيتتانوينا يسقيان لانتاروتى النيذ "عند عودته من بريتانيا".

وعندما سمع ذلك سانشو بانثا من سيده، كاد يفقد العقل، وإلا عليه أن يموت على روجه من الضحك، حيث إنه يعرف حقيقة السحر المزيف لدولثينيا، والذى قام فيه هو بدور الساحر، وعند ظهور هذه القرينة لديه، لم يلبث أن عرف أن سيده دون شك خارج الوعى، وأنه مجنون كامل الجنون، وهكذا، قال:

- فى لحظة سيئة بل فى أسوأ وقت وأنخس يوم هبطت فنخامتكم، يا معلمى العزيز، إلى العالم الآخر، وفى وقت مشنوم قابلت السيد مونتيسينوس، الذى أعادك لنا فى هذا الحال. لقد كنت هنا فوق فى أحسن حال، كامل العقل، دون نقص أو زيادة كما وهبه الله إياك، وكنت تصدر الأحكام، وتعطى النصائح فى كل خطوة، وليس كما الآن حاكياً لنا أعظم الترهات التى يمكن تخيلها.

أجاب دون كيخوتى:

- لأنى أعرفك، سانشو، فإنى لن أعير كلماتك التفاتاً.

أجاب سانشو:

- وسأفعل أنا نفس الشيء مع كلمات فخامتك، حتى لو جرحتنى، وحتى لو قتلتنى، وذلك مقابل ما قلته لك، أو مقابل ما أفكر فى قوله (ولن أفعل) فى حالة حاجة ما تقول لتصحيح أو تعديل. لكن قل لى، فخامتك، والآن وقد أصبحنا فى سلام مشترك، كيف وبأى طريق تعرفت على سيدتنا؟ وإذا كنت كلمتها، ماذا قالت؟

أجاب دون كيخوتى:

- عرفتها، لأنها كانت ترتدى نفس الملابس التى كانت ترتديها يوم أريتنى إياها، كلمتها فلم تجبى بكلمة، بل أدارت لى ظهرها، وأسرعت بالانصراف هاربة بسرعة لا تدركها النبلة. أحببت أن أتبعها، وكنت سأفعل ما لم ينصحنى مونتيسينوس بالأأ أتعب نفسى فى ذلك، لأنه سيكون دون فائدة، وأيضاً اقتربت الساعة التى يناسبنى فيها الصعود إلى أعلى الأرض. وقال لى أنه بمضى الوقت أنه سوف يخطر لى كيف تم فك سحرهم هو وبيليز ما ودوراندارتى، مع جميع من كانوا هناك. لكن ما آلتى أكثر، هو أنه أثناء سماعى تلك العبارات من مونتيسينوس، اقتربت منى على جانب، دون أن أراها خلال قدمها، واحدة من صاحبتى التى لا نظير لسوء حظها دولثينيا، وعيناها تغمرهما الدموع، بصوت متعكر وخفيض قالت لى: "سيدتى دولثينيا دل توبوسو تقبل يدى فخامتكم، وتتوسل إلى فخامتكم أن تعلمها كيف حالك، ولأنها فى حاجة ماسة، فهى أيضاً تتوسل إلى فخامتكم حفظك الله أن تقرضها مقابل هذه التنورة التى أهلها نصف دستة ريالات، أو ما تحمله من

نقود، وهى تعطيك كلمة بأنها سوف تردّها في أقرب فرصة". حيرنى وأدهشنى ذلك الطلب، وملتفتاً إلى السيد مونتيسينوس، سألته: "هل من الممكن أن يعانى المسحورون رفيعو الشأن الحاجة؟" وعلى هذا أجبني: "صدقنى فخامتكم أيها السيد دون كيخوتى، أن ما يسمونه حاجة فى كل مكان موجود، ويغضى الجميع، ويلحق بالجميع، بما فيهم المسحورون لا تعفيهم الحاجة من معاناتها؛ من ثم، فإن السيدة دولثينيا دل توبوسو ترسل فى طلب هذه الريالات الستة، والتنورة عالية، وفيما يبدو لى ليس أمامك إلا إعطاؤها ما تطلب، فبدون شك لا بد أنما فى ضيق عظيم". أجبته: "هذه القطعة من الملابس لن آخذها، أيضاً لن أعطى ما تطلب، حيث لا أملك غير أربعة ريالات". وقد أعطيتها لها (وكانت تلك الريالات التى أعطيتها أنت، سانشو، لى لإعطائها صدقة لن نصادفهم فى الطريق)، وقلت لها: "قولى، صديقتى، لسيدتك، بأنه يثقل على نفسى ما تعانیه، وأننى كنت أود أن أكون أحد أفراد أسرة فوكر البنكية حتى أعالج معاناتها، وأعلميها أننى لا أستطيع، بل لا يجوز أن يكون، بل لا يجوز، بخير مادامت تنقصنى مشاهدتها اللطيفة، ومحادثتها الذكية، وأتوسل إليها حفظها الله، أن تترك أسيرها وخادمها، وفارسها المجد يراها ويتعامل معها، وقولى لها أيضاً، أنها سوف تسمع بفك سحرها عندما يكون ذلك أقل ما يمكن أن يرد على بالها، فقد أقسمت وتعهدت بنفس طريقة الماركيز دى مانتوا حينما أقسم وتعهد بالثأر لابن أخيه بالدوينوس، حينما وجده يحتضر وسط الجبال، وكان قسمه ألا يأكل على مائدة وألا يمارس ترف الحياة حتى يثأر له، وهكذا سأفعل أنا بالأهدأ، وأن أطوف بأقاليم العالم السبعة بأكثر من انضباط الأمير دون بدرو ولى عهد

البرتغال الذى طاف بأركان العالم الأربعة، حتى أفك سحرها". أجابت الوصيصة: " أنت تدين لسيدتى بكل هذا وأكثر". وعندما أخذت الريالات الأربعة، بدلاً من التعبير عن احترامها، قامت بجرعة واثبة أبانت عن عصوين أعجفين فى الهواء لساقبها.

قال سانشو عند ذلك الوقت مطلقاً صرخة عظيمة:

- إلهى العظيم! هل من الممكن أن يوجد مثل هذا فى العالم، وأن السحرة والسحر يملكون فيه مثل تلك القوى الهائلة التى قابضت بعقل سيدى الراجح، هذا الجنون الجامح الترهات. أوه، سيدى، سيدى، بحق الله أن تتأمل فخامتكم فى داخلك، وعد إلى زهوك، ولا تصدق هذه التخاريف التى انتقصت من قدرات حواسك وعقلك!

قال دون كىخوتى:

- كما أنك تحببى كثيراً، فإنك، سانشو، تتكلم بهذه الطريقة، وكما أنك لست مجرباً فى شئون الدنيا، فكل شىء يعترض فهمه صعوبة يبدو لك مستحيلاً. لكن الوقت سوف يمضى، كما قلت لك فى مرة أخرى، وهناك سأحكى لك عن بعض الأشياء التى رأيتها فى العالم التحتى، ستجعلك تعتقد فيما حكيتاه الآن من حقائق، مصداقيتها لا تقبل الرد أو الجدال.

الفصل الرابع والعشرون

حيث يحكى ألف تفاهة سفيهة باعتبارها ضرورة لفهم هذه القصة العظيمة

يقول من ترجم هذه القصة العظيمة عن الأصل الذى كتبه مؤلفها الأول سيدى حامدى بن إنجيلين، بأنه عند الوصول إلى مغامرة كهف مونتيسينوس، كان مكتوباً فى الهامش بيد نفس حامدى هذه العبارات:

- "لا أستطيع أن أفهم أو أقتنع أن دون كيخوتى الهمام قد حدث له بالضبط كل ما كتب فى الفصل السابق، والسبب أن كل المغامرات حتى تلك المغامرة كانت معقولة ومحتملة الوقوع، لكن هذه الخاصة بذلك الكهف لا أرى لها مدخلاً نحو الحقيقة، لذاها بعيداً عن صنيع المعقول. من ثم التفكير فى أن دون كيخوتى يكذب، وهو أصدق الأعيان، وأنبل الفرسان فى عصره، ليس ممكناً، لن ينطق بكذبة إلا إذا رشقوه بها. من ناحية أخرى، أعتبر أنه حكاها وقالها بكل ملابساتها المذكورة، وأنه لم يستطع أن يخلق فى هذه البرهة القصيرة كل هذه المنظومة من الترهات. وإذا كانت هذه المغامرة مختلفة، فأنا لست مسئولاً عن ذلك، وهكذا دون إثبات زيفها أو صدقها، قمت بتسجيلها. وأنت، أيها القارئ، احكم بما يعنى لك، فأنا لا يمكنى ولا أستطيع أكثر مما فعلت، على الرغم من أنه من المؤكد أنه عند زمن هأيتيه وموته، تراجع عنها، وقال إنها من رسمه ومن اختراعه، عندما بدا له أن ذلك يناسب وينسجم جيداً مع المغامرات التى قرأها فى كتبه".

وبعد ذلك واصل القص قائلاً:

- "فزع ابن العم، من جرأة سانشو بانثا على سيده ومن صبر هذا السيد، وتصور أن سبب الصبر هو سعادته لرؤية سيدته دولثينيا دل توبوسو، حتى لو كانت مسحورة، من ثم ولدت فيه هذه الدفقة من الرقة، التي بدرت عنه عند سماعه سانشو، لأنه إذا لم يكن الأمر كذلك، فإن ما قاله سانشو يستحق أن يعاقب عليه بطحنه وبقرع العصا".

في الحقيقة بدا له سانشو متجرناً أكثر من اللازم على سيده، فقال له:

- أنا، أيها السيد دون كيخوتي دى لامانشا، أعد اليوم الذى قضيته مع فخامتكم يوماً جيد المحصول، لأننى اكتسبت فيه أربعة أشياء. الشيء الأول، أننى تعرفت على فخامتكم، وهذا مصدر سعادة عظيمة لى. والشيء الثانى، معرفتى بالمخبوء داخل هذا الكهف الذى يحمل اسم مونتيسينوس، مع تحولات واختلاف فخر جواديانا وسر بحيرات رويديرا، مما سوف يخدمنى فى تأليف كتاب أوفيديو الإسبانى الذى أقوم بكتابته الآن. الشيء الثالث، معرفة قدم لعبة الورق، على الأقل كانت موجودة فى عصر كارلو ماجنو، حسب ما يمكن تخمينه من كلماتك التى قلت فخامتكم أن دوراندارتى قالها، عندما ختم كلماته فى تلك البرهة الطويلة لحديثه إلى مونتيسينوس قائلاً: "... وترتيب ورق اللعب". وهذه العبارة وطريقة الكلام لم يكن قادراً على تعلمها رجل مسحور، إنما تعلمها عندما لم يكن مسحوراً، وكان ذلك زمن كارلو ماجنو المذكور. هذا التحرى سوف أحفظه من أجل كتابى القادم الذى أنا فى الطريق لتأليفه وهو "ملحق فيرخيليو بوليديورو" حول اختراعات قديمة، وأعتقد أن كتاب فيرخيليو لم يتحدث عن اختراع لعبة الورق،

وسيكون وضعي لها الآن ذا أهمية كبرى، وأكثر من ذلك ربطها بمخترع في خطورة وتاريخية رجل مثل دوراندارتي. والشيء الرابع، هو معرفتي عن يقين منبع نهر جواديانا الذي هو مجهول حتى الآن من الناس.

قال دون كيخوتي:

- فخامتكم معك كل الحق، لكنني أود أن أعرف، ولينعم عليك الله بالتصريح بطبع كتبك تلك (وهو ما أشك فيه)، لمن سوف تهديها؟

قال ابن العم:

- إسبانيا بها من العظماء الكثير ممن يمكن إهداء الكتب إليهم.

أجاب دون كيخوتي:

- لا، ليس بها الكثير، وليس ذلك لأفهم ليس لهم استحقاق الإهداء، وإنما لأفهم لا يسمعون للمؤلفين به حتى لا يجبروا على إشباع حاجتهم لتقدير الشيء الذي يبدو أن عملهم وأدبهم جدير به. لكن أنا أعرف أميراً^(*) يغنى عن النقص فيمن يقدرون، بل يزيد بإنعامات كثيرة، وإذا جرؤت على ذكرها ربما أثير الحسد في أكثر من أربعة صدور كريمة، لكن لنقف عند ذلك، ونؤجله لوقت آخر قادم، والآن علينا أن نبحث عن مكان يؤويننا هذه الليلة.

أجاب ابن العم:

- ليس بعيداً عن هنا صومعة، حيث يتخذ أحد النساك مأوى له، ويقولون إنه كان جندياً، وفي رأبي أنه مسيحي تقى وفي غاية الذكاء، وفوق هذا فهو

(*) أحياناً يشير ثرباننس إلى حياته الخاصة في الرواية، فهو يشير هنا للكونت دي ليموس راعيه.

محسن عطوف، وبجوار صومعة العبادة يوجد بيت صغير قد بناه على حسابه بيديه، لكن مع كل ذلك فهو يتسع لاستقبال الضيوف مع صغره.

سأل سانشو:

- بالمصادفة، عند هذا الناسك بعض الدجاجات؟

أجاب دون كيخوتى:

- قليل من الناسك من يعمدون الدجاج، لأن من يمارسون النسك الآن ليسوا كأولئك الناسك من نساك صحراء مصر، الذين كانوا يسترون أجسامهم بسعف النخل ويأكلون جذور الأرض. ولا يفهم من مدحى لهؤلاء عدم ثنائى على أولئك، لكنى أحب القول إن صرامة وزهد ذلك الزمان لا يصل إليه معاناة نساك اليوم، لكن ليس لهذا السبب تقل تقواهم، وعلى الأقل من ناحيتى أراهم أتقياء، وعندما تسوء الأمور، فإن الله يقدر ويلطف، لأن المنافق منهم سيتصنع التقوى دون الجمهور الآثم.

وبينما هم فى ذلك، رأوا رجلاً رجلاً يتجه إلى حيث كانوا، سريع الخطو، يلهب بعصاه بغلاً محملاً بالرماح والسنج، وعندما مرَّ بهم حياهم، وتجاوزهم سريعاً. قال له دون كيخوتى:

- أيها الرجل الطيب توقف، حيث يبدو لى أنك تمضى بأسرع من اللازم، مما لا يحتمله هذا البغل.

أجاب الرجل:

- لا أستطيع التوقف، يا سيدى، لأن الأسلحة التى ترونها فوق البغل سوف يحتاجونها غداً؛ وهكذا فأنا مجبر على عدم التوقف، وداعاً. لكن إذا أحببتم أن تعرفوا لماذا أحمّلها، فإننى أفكر فى قضاء الليلة فى النزل الواقع بعد

صومعة الناسك بقليل، فإذا كنتم تأخذون نفس الطريق فستجدونني هناك،
حيث أحكى لكم عجائب، ووداعاً مرة ثانية.

وهكذا استحث بغله بنغزة بعصاه، فلم يترك لدون كيخوتى فرصة لسؤاله
عن العجائب التى يفكر فى ذكرها لهم، وكما كان فضولياً بعض الشيء، وترهقه
الرغبة فى معرفة أشياء جديدة، أمر بأن يتحركوا فى التو واللحظة، ليقضوا الليلة
فى النزل، دون البيات فى منزل الناسك، كما أحب ابن العم لهم أن يفعلوا.

وهكذا كان، فقد ركب كل منهم دابته، وواصلوا ثلاثتهم الطريق الذى يحمل
إلى النزل، فوصلوا قبل حلول الليل بقليل إلى صومعة الناسك. قال ابن العم لدون
كيخوتى لنمر لتناول بعض النبيذ. مجرد أن سمع ذلك سانشو لوى عنق حماره
نحوها، وفعل نفس الشيء دون كيخوتى وابن العم. لكن سوء حظ سانشو شاء ألا
يوجد الناسك فى بيته، كما ذكر لهم صبى الناسك الذى وجدوه فى الصومعة. طلبوا
منه شرب نبيذهم العزيز الغالى، أجاب بأن سيده ليس لديه منه، لكن إذا أرادوا ماء
رخيصاً، فإنه سوف ينفحهم به بكل سرور.

أجاب سانشو:

— إذا كنت ظمأنا للماء، فالطريق يغص بآبار الماء، حيث روت عطشى. آه،
حفل زفاف كاماتشو، ووفرة بيت دون ديجو، كم من المرات أكرر أننى
أشاق إليكم، قد أوحشتماني!

وبهذا تركوا الصومعة، واتجهوا إلى النزل، وبعد وقت قصير صادفوا صبياً
كان يسير أمامهم ليس مسرعاً كثيراً، وهكذا لحقوا به. كان يحمل سيفاً على عاتقه،
وعلق فيه كيساً أو صرة، فيما يبدو، كانت لملابسه، التى لا بد أن تكون بنطلونات
أو سراويل، ونصف معطف، وشيئاً من القمصان، لأنه كان يرتدى ملابس خفيفة

داخلية من القطيفة عليها علامات من النسيج الأطلس، وفوقها قميص، أما الجوارب فكانت من الحرير، والحذاء مربع الشكل، مما يستعمل في البلاط، والعمر بين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، مبتهج الوجه، وفيما يبدو أنه خفيف الحركة نشيط. مضى يغنى أواراً خفيفة حتى يسلى جهد الطريق، وعندما وصلوه كان قد انفض من غناء دور حفظه ابن العم عن ظهر قلب، يقولون إنه كان يقول:

يحملني شظف الفقر إلى الحرب

وفي الحقيقة، لو كان في جيبي نقود ما صرت محارباً

أول من تكلم كان دون كيخوتي. قال له:

- إنك تسير على مدى هواك فخامتكم، أيها السيد الرشيق. إلى أي قصد طيب؟
فلنعرف إذا رغبت في ذلك.

أجاب الصبي:

- السير على مدى هواي بسبب الحر والفقر، أما إلى أين أذهب، فللحرب.

سأل دون كيخوتي:

- كيف الفقر؟ فموضوع الحر مفهوم.

أجاب الصبي:

- سيدي، أنا أحمل في هذه الصرة معطفاً قصيراً من القطيفة، يكمل هذا الصديري الذي أرتديه، فإذا استهلكته في الطريق، لن أستطيع أن أظهر به في المظهر المشرف في المدينة، وليس معي ما أشتري به معطفاً آخر، وهكذا لهذا السبب ولتهوية جسمي أسير بهذه الطريقة، حتى ألحق ببعض حملات المشاة،

ليست على أكثر من اثني عشر فرسخًا من هنا، حيث احتل مكانًا فيها، ولن ينقصني أى متاع أحمله معي حتى أصل إلى مكان إقلاعها بحرًا، الذى يقال إنه سيكون قرطاجنة، وأكثر فأنا أحب أن أتخذ من الملك سيدًا لى أفضل من اتخاذ سيد (فقائرى) فى البلاط.

سأل ابن العم:

- وهل لديك عمل آخر بالصدفة؟

أجاب الصبى:

- نعم كان من الممكن أن أخدم أحد عظماء إسبانيا أو أحد حكامها، فهذا تأمين لمن يعمل، يحصل عليه من يخدمون عليّة القوم، فهم يخرجون من غرفة طعام الخدم ليصيروا ملازمين ونقباء، أو بمعاش طيب، لكن أنا سيئ الحظ، كنت أخدم باليومية عارضًا نفسى على فقائرية البلاط، فقد خدمت دائمًا الدخلاء على البلاط، بطعامى، ومرتب ضئيل مسكين، فعند دفع قيمة تنشية ياقسة يستهلك نصف المرتب، ومع ذلك فيعد معجزة أن يجد خادم مثلى هذا الحظ غير الخارق للعادة.

سأل دون كيخوتى:

- قل لى بحياتك، أيها الصديق، هل من الممكن طوال الأعوام التى خدمتها لم تحصل على "حُلة"؟

أجاب الخادم:

- أعطونى حلتين، وهكذا مثل من يخرج من مدرسة الكهنوت قبل التخرج يسحبون منه زى القسيس، ويعيدون إليه ملبسه الأولى المدنية، هكذا أعاد

إلى أسيادى ملابسى بانتهاه مهمتهم فى البلاط، وحملوا أشياءهم ومعها
الحلتين اللتين أعطيهما لى فقط من باب التفاخر.

قال دون كيخوتى:

- أيلورشيريا (بخل)^(*) هائلة كما يقول الرجل الإيطالى، لكن مع كل هذا، اعتبر
خروجك من البلاط حظاً سعيداً، وخاصة مع قصدك الطيب الذى تحمله،
لأنه لا يوجد شىء فى هذه الأرض أكثر شرفاً وفائدة من خدمة الله أولاً، ثم
خدمة الملك وسيدك الطبيعى، ولاسيما فى القتال بالسلاح، فإن لم تحصل
عبرها على ثروة أكثر، فعلى الأقل شرفاً أكثر من شرف الاشتغال بالأدب،
كما أكرر كثيراً، رغم أن أغلبية تفضل الأدب على السلاح، متسائلين عن
أى ميزة يمكن أن يحملها أصحاب السلاح على أصحاب الأدب؟ أما أنا
فنعم، أعلم أى ميزة، إنه بريق العظمة الذى يشع منهم، فيميزهم على
الجميع. وما أود قوله لك احمله فى ذاكرتك، فسوف يكون ذا فائدة عظيمة
لك وسلوى فى عملك، وهو: أبعد خيالك عن الوقائع المضادة والمعادية التى
يمكن أن تقع لك؛ فأسوأ شىء هو الموت، وكما أن موت الجندى عظيم، فإن
أفضل شىء هو الموت. سألوا يوليوس قيصر، وهو الإمبراطور الرومانى
الشجاع، ما هو أفضل موت؟ أجاب: "إنه الموت غير المنتظر، موت المفاجأة،
أو الموت غير المتوقع وقوعه. ومع أنه أجاب باعتباره كافراً وبعيداً عن معرفة
الله الحق، فإنه أحسن القول، فذلك رصد للشعور الإنسانى، وهذا حالك،
فإن قتلوك بأول رصاصة طائشة أو فى أول اشتباك تشارك فيه أو بطلقة
مدفع أو بانفجار لغم، فماذا يهم؟ فكله موت (تعددت الأسباب والموت
واحد)، وانتهى العمل؛ وطبقاً لتيرينسيو، يبدو الجندى الميت فى المعركة حياً
مثل الجندى الحى، إلا إذا كان هذا فى حالة هرب، وأيضاً الجندى ينال

(*) هذه كلمة إيطالية، استعمالها يكشف عن كراهية الإيطالى الشديدة للبخل.

شرف الشهرة إذا أطاع قاده ومن يمكن أن يكون لهم الأمر. واعلم، أيها الابن، أن الجندي أفضل له أن تفوح منه رائحة البارود وليس رائحة العطر، وإذا نلت الشيخوخة وأنت في مقارعة السلاح المشرفة، وحتى لو كنت مليئاً بالجروح أو مشوهاً أو أعرج، فعلى الأقل لن تنالك قبل أن تنال الشرف، ولن يهون من شأنك الفقر، وبصفة خاصة حيث ينشأ الآن نظام لمواساة الجنود الهرمين، ومشوهي الحرب، لأنه ليس من اللائق أن يفعلوا معهم ما تعود على فعله البعض، حين يمررون عبيدهم السود عندما يشيخون ولا يستطيعون خدمتهم، فيطردوهم من البيت تحت لقب "أحرار"، ويحولوهم إلى عبيد للجوع، الذي لن يقيهم منه إلا الموت. والآن، لا أود أن أقول لك شيئاً أكثر، فاصعد خلفي على الجواد حتى النزول، وسوف تتناول العشاء معي، وفي الصباح تواصل طريقك، سهّله الله لك حسب نواياك.

لم يقبل الخادم الركوب خلفه، مع أنه نعم قبل العشاء في النزول، وفي هذه اللحظة يقولون إن سانشو قال لنفسه:

- "يا الله منك سيدا! هل من الممكن أن رجلاً يستطيع قول مثل هذا من أشياء جميلة كما فعل الآن، يقول بأنه رأى الترهات المستحيلة التي حكاها عن كهف مونتيسينوس؟ نعم سيدى هو ذلك الرجل!"

وهم في ذلك وصلوا إلى النزول في الوقت المناسب، حيث كانت السماء تتجه للإظلام، وبكثير من السرور لسانشو أخذ سيده النزول على أنه نزل وليس على أنه قلعة كما تعود. عندما سأل دون كيخوتي الفندقى صاحب النزول عن رجل يحمل رماحاً وسنجا، ولم يكونوا بعد قد أكملوا دخول النزول، وهذا أجابه بأنه في الحظيرة لرعاية بغلة. نفس الشيء مع دوابهم قام به ابن العم وسانشو تاركين لروثينانتي أفضل معلف وأفضل مكان في الحظيرة.

الفصل الخامس والعشرون

حيث تسجل مغامرة النهيق وطرافة لاعب العرائس مع التنبؤات الخالدة الذكر للقرء العرفاء

لم يترك دون كيخوتى الخبز ينضج فى الفرن كما تعودوا القول، قبل أن يسمع ويعرف العجائب الموعودة من سائق الأسلحة. ذهب للبحث عنه حيث قال له الفندقى إنه موجود، فوجده وقال له إن عليه أن يقول له فى الحال ما كان عليه قوله بعد، حول ما سأله عنه فى الطريق. أجابه الرجل:

- بالراحة قليلاً، دعنى فخامتكم، أيها السيد الطيب، من الانتهاء من بث رسالة إلى دابتي، من ثم سأقول لك أشياء تدهشك.

قال دون كيخوتى:

- لا تتأخر. من أجل ذلك، سأساعدك فى كل شيء.

وهكذا جعله يضع الشعير للبعل، وينظف له المعلق، وهذا التواضع أجبر الرجل على أن يحكى له بكل سرور ما كان يطلبه منه، وجالساً على مصطبة، ودون كيخوتى بجواره، والرجل متخذاً منه ومن ابن العم والخدم وسانشو بانثا والفندقى جلسة استماع ومستمعين، بدأ القول بهذه الطريقة:

- قد تعرفون فخامتكم عن وجود قرية على بعد أربعة فراسخ ونصف فرسخ من هذا النزل، قد حدث أن أحد نواب بلديتها، بالحيلة والخداع من خادمة

عنده، وهكذا تطول حكايته، قد نقص من حظيرته حمار، ومع أن هذا النائب بذل كل المساعي للعثور عليه، لم يكن ممكناً. مضت خمسة عشر يوماً، طبقاً لما شاع وانتشر، والحمار غائب، وبينما كان النائب حسيراً في ميدان القرية قال له نائب آخر من نفس القرية: "أعطني البشارة، أيها الزميل، فإن حمارك قد ظهر". قال الأول: "سأرسل لك البشارة، أيها الزميل بل زيادة لكن فلنعرف أين ظهر". أجاب الآخر الذي عثر على الحمار: "في الجبل، رأيت هذا الصباح، دون بردة أو أى قطعة من عدته، نحيفاً جداً، فأحزنتني رؤيته. حاولت التحليق عليه أمامي، وإحضاره لك، لكنه كان شديد التوحش والاستيحاء، حتى إني عندما اقتربت منه مضى هارباً، ودخل في أكثر المخابئ تعقداً في الجبل. وإذا أحببت أن نعود للبحث عنه، دعني أحمل همارتي إلى بيتي ثم أعود في الحال. قال صاحب الحمار: "إنك تقدم لي مسرة عظيمة، وسأحاول رد هذا الجميل بنفس العملة". خلال كل هذا الملابسات، وبفس الطريقة التي أحكيها بها يحكيها كل أولئك العارفين بهذا الأمر. باختصار، النائبان، على أقدامهما، ويداً بيد، ذهبا إلى الجبل، ووصلا إلى المكان والموقع الذي اعتقدا العثور على الحمار به، لكنه لم يظهر في المكان وكل ما حوله، مهما بالغا في البحث عنه. وعند رؤيتهما أنه لا يظهر، قال النائب - الذي سبق له رؤيته - للنائب الآخر: "انظر، أيها الزميل، لقد وردت فكرة على بالي، وبها دون أدنى شك، سنكتشف هذا الحيوان، حتى لو كان موجوداً في أحشاء الأرض، وليس الجبل فحسب، فأنا أعرف أن أنهق بشكل عجيب، وإذا فخامتكم تعرف التهيق بعض الشيء، فلنسمع غناءك". قال الآخر: "أعرف التهيق تقول أيها الزميل؟ بحق الله، فإنني لا أسمع لأحد بالتفوق على في هذا ولو للحمير نفسها". أجاب الثاني: "الآن سوف نسرى،

لأننى عزمت على أن تذهب لناحية من الجبل، وأنا أذهب إلى الناحية الأخرى، حتى نحاصره ونسعى إليه معاً، ومن لحظة لأخرى تهيق فخامتكم، وسأهق أنا، ولا سبيل أمام الحمار إلا الاستماع إلينا، والجواب على فهمنا، هذا إذا كان فى هذا الجبل". وعلى هذا أجاب صاحب الحمار: "أقول يا أبا الزمل إن الفكرة حيلة ممتازة، تليق بعقريتك". وهكذا افترق الاثنان وانقسما، طبقاً للاتفاق، وحدث تقريباً أن أخذنا فى النهيق فى نفس الوقت، وكل واحد تحت خداع نهيق الآخر، هرع يبحث عن زميله ظاناً أنه الحمار وقد ظهر، وعندما اصطدم أحدهما بالآخر قال فاقد الحمار: "هل من الممكن، أبا الزمل، أن من كان ينهق لم يكن حمارى؟" أجاب الآخر: "لم يكن إلا أنا". قال صاحب الحمار: "والآن أقول يا أبا الزمل، إنه لا يوجد بينك وبين الحمار أى فرق، فيما يتعلق بالنهيق، لأننى طوال حياتى لم أر شيئاً بهذه الأصالة". أجاب صاحب الحيلة: "هذا الشاء والإعلاء من شأنى ينطبق عليك أكثر منى، يا أبا الزمل، فبحق الله آمنت أنكم قادرون على تسجيل فهمتينا أكثر من أى ناهق خبير فى العالم، بهما تكسب المبارة، لأنك تمتلك صوتاً عالياً، وقرار الصوت، فى تواقى وإيقاع، ودقات اللهجة غزيرة ومتسارعة. وباختصار أعلن هزيمتى واستسلامى، وأسلمكم علم هذه المقدرة النادرة والكفاءة". أجاب صاحب الحمار: "الآن، أقول بأنى سوف آخذ نفسى وأضعها فى أعلى مقام من هذه اللحظة فصاعداً، وسوف أفكر فى أننى أتقن شيئاً، ومن ثم فى أنى أتمتع ببعض الظرف، فرغم أنى ظننت دائماً أنى أنهق جيداً، لكن لم أدرك قط وصولى إلى تلك الدرورة التى تقولها عنى. أجاب الثانى: "وقد أقول أنا الآن أيضاً، بأنه توجد مقدرات ومواهب مفقودة فى العالم، وأنها سيئة الاستخدام بين أولئك الذين لا يعرفون الاستفادة منها".

أجاب صاحب الحمار: "مواهبنا، إذا لم تكن في حالات مماثلة كتلك التي نعيشها الآن، لا يمكن أن تنفعنا في حالات أخرى، وحتى في هذه ادعُ الله أن تكون نافعة". وعندما انتهيا من ذلك عادا إلى الافتراق، واحتل كل منهما موقعه واستأنفا النهيق، وفي كل مرة يعودان إلى الانحداع ويعودان للاجتماع معاً، إلى أن وصلا للافتراق على علامة حتى يميزا بعضهما من الحمار، بأن ينهق كل واحد فيهما كل مرة نفقتين واحدة وراء الأخرى. وبهذا ازدوج كل مرة نهيقهما في حركة دارت حول كل الجبل، دون أن يجيب الحمار المفقود ولا حتى بإشارات. لكن كيف يتسنى له أن يجيب المسكين منحوس الحظ إذا كانا قد وجداه في أعماق مخابئ الجبل، وقد أكلته الذئاب؟ وعند رؤيته قال صاحبه: "لقد كان يدهشني ألا يرد إلا إذا كان ميتاً، فقد كان لابد أن يرد لو سمعنا، وإلا ما كان يكون حماراً، لكن في مقابل سماعي لكم تنهقون في غاية الظرف، فإني أعتبر أن بحثي عن الحمار جهد مشكور مع أنني وجدته ميتاً". أجاب الآخر: "وإنكم مع الصديق الخبير، فإن لم ينشد رئيس الدير جيداً، فلن يردد وراءه الرهبان". وبهذا عادا بلا عزاء بصوت أجش قد يبح من النهيق، وفي القرية حكيا لأصدقائهما وجيرانهما ومعارفهما كل ما حدث لهما أثناء البحث عن الحمار، وقد بالغ كل منهما في ظرف نهيق الآخر، وقد ذاع الأمر وعرف في كل القرى المحيطة، والشيطان الذي لا ينام، صديق زراعة الخلافات والمشاحنات في أى زمان ومكان، نافثاً في ألف ناي مع هبوب الرياح، ومشعلاً ألف حريق دون سبيل لحريق أو سبب، أمر أهالي القرى الأخرى، عند رؤيتهم بعض أبناء قريتنا ينهقون، معايير هكذا القرية وجهاً لوجه بنهيق نواهما. خاض في ذلك الصبيان من يد ليد، ومن فم لفم، بين كل شياطين جهنم، وشاع أمر النهيق من قرية إلى أخرى، حتى صار

أهل قرية النهيق ينظر إليهم بالنسبة للآخرين في تميز، كما ينظر للعبيد السود بالنسبة للسادة البيض، وقد تجاوزت المدى نكبة تلك السخرية، لدرجة خروج المسخور منه في كتائب مسلحة ضد الساخرين لحسم المعركة، دون أن يتدخل أحد من العقلاء أو السفهاء لعلاج الأمر، ودون أن يخشى أحد عاقبة أو ينجل من فعلة. وغداً أو بعد غد سوف تخرج قريتي، قرية النهيق، في حملة ضد قرية على بعد فرسخين في الجوار، وهي من أكثر القرى معايرة لنا، وحتى يخرجوا في أفضل عدة، أحمل أيها الأصدقاء هذه الرماح والسنج التي رأيتموها. وتلك هي العجائب التي وعدتكم بحكايتها، وإذا لم تظهر لكم عجيبة فإني ليس لدي غيرها.

بهذا أنهى هذا لرجل الطيب حديثه، وهنا دخل رجل من باب النزول يرتدى ملابس كاملة من الشمواة، وجوربين وسروالين، ومعطفاً وبصوت مرتفع:

- أيها الفندقى المضيف، هل لديك مأوى؟ لأنه قادم إلى هنا القرد العرّاف، وصندوق الدنيا لقصة حرية ميليسندرا.

- لعمر الله! الأسطى بدرو عندنا؟ يا مرحباً بليتنا!

ولقد أنسيت أن أقول كيف أن الأسطى بدرو ذاك كان يغطى عينه اليسرى وتقريباً نصف خده بقطعة من الحرير التفتنة الأخضر، دلالة على أن الجانب الأيسر من خده لا بد أن يكون مريضاً، وواصل الفندقى الكلام قائلاً:

- على الرحب والسعة فخامتكم أيها السيد الأسطى بدرو، أين القرد وأين صندوق الدنيا؟ فأنا لا أراها.

أجاب مغطى العين:

- شكراً، وأنا سوف أخفض السعر، وإذا قبضت التكلفة فقط سأعد ذلك مكافأة طيبة لي، والآن سوف أعود بعد دفع العربة التي بها القرد والصندوق. وفي الحال خرج من النزول. سأل عندها دون كيخوتي صاحب النزول عن كون الأسطي بدرو، وأى صندوق وأى قرد يحملها معه، وعلى هذا أجابه الفندقى:

- هذا لاعب عرائس مشهور، وهو منذ أيام طويلة يتجول في أنحاء لامانشا دى أراجون عارضاً صوراً لتحرير ميليسندرا على يد الشهرير (دون جايفيروس)، وهى واحدة من أفضل وأجمل القصص الممثلة التى رآها الناس فى هذه المملكة منذ أعوام طويلة. ويحمل معه أيضاً قرداً ذا مقدرة نادرة، لا يمكن تخيلها عند بنى الإنسان، فما بالك إذا ظهرت بين القرود، لأنه إذا سألوه شيئاً فإنه يستمع بانتباه، ثم يقفز على كتف صاحبه ويسر الإجابة، التى يعلنها الأسطي فى الحال. وهو يعرف عن الأشياء الماضية أكثر بكثير عما يعرف عن المستقبل، ومع أنه لا يصيب فى كل ما يقول، لكنه لا يخطئ فى الأغلبية، لدرجة أنه يجعلنا نعتقد أن الشيطان نفسه يسكن فى جسمه. وهو يأخذ ريالين مقابل كل سؤال، إذا أجاب عليه القرد، أود القول، إذا أجاب صاحب القرد بالنيابة عن القرد، بعد أن يسر هذا الإجابة فى أذنه، وهكذا يظنون أن هذا الأسطي ثرى، وأنه زير نساء (كما يقولون فى إيطاليا)، ونديم كريم، ويجيا مستمتعاً بالحياة، له أكثر من ستة ألسنة عند الكلام ودسته أفواه عند الشرب، وكل هذا على حساب لسانه، وقرده، وصندوق دنياه.

وهنا عاد الأسطى بدرو، وفي عربة يد جاء الصندوق والقرد، ضخم، دون ذيل، بشعر متلبد حول استه، لكن لم يكن سيئ الهيئة، وبمجرد أن رآه دون كيخوتى سأله:

- قل لى فخامتكم أيها السيد العراف، أى صيد سنقع عليه؟ وما مصيرنا؟ وانظر لما ستأخذه من ريالين.

وأمر سانشو إعطاء ريالين إلى الأسطى بدرو، والذي أجاب نيابة عن القرد، وقال:

- أيها السيد، هذا القرد لا يجيب ولا يعطى أنباء عن الأشياء القادمة، أما الأشياء الماضية فهو يعرف بعض الشيء، وعن الأشياء الحاضرة لا بأس بما يعرف.
قال سانشو:

- أقسم بالعزير الجبار، أنى لا أدفع فلساً نظير أن يقولاً لى عما مضى من حياتى، لأنه من يعرفها أفضل منى شخصياً؟ وأدفع أنا نظير أن يقولاً لى ما أعرف، سيصبح خيبة أمل كبيرة، لكن إن يعرف الأشياء الحاضرة ها هما الريالان، وليقل لى هذا القرد شديد الطرافة ماذا تفعل الآن زوجتى تيريزا بانثا، وبأى شىء تتسلى.

لم يرغب الأسطى بدرو فى أخذ الريالين، قائلاً:

- لا أحب قبض المكافأة مقدماً، وليس إلا بعد تقديم الخدمة.

ورابتاً بيده اليمنى ضربتتين على كتف القرد الأيسر، وضع القرد نفسه فى فقرة واحدة على كتفه، وعند وصول فمه إلى أذنه، أخذت أسنان القرد تلتقى ثم

تتفصل فى تسارع واضح، ومنتهياً القرد من ذلك فى طقس شعائرى ، أصبح القرد على الأرض فى قفزة أخرى، وفى الحال مضى الأسطى بدرو ليركع أمام دون كىخوتى محتضناً رجليه، وقال:

- هاتين الرجلين أحتضن، كما لو كنت أحتضن عمودى هرقل. أوه، أيها الباعث النبىه للفروسية المشاءة بعد أن سقطت فى طى النسيان! أوه، دون كىخوتى دى لامانشا الفارس الذى لا نظير لما يستحق من ثناء، يا باعث الروح فى المنهارين، والصعود لمن فى سبيلهم للسقوط، وذراع المستضعفين، ويا عكاز وعزاء كل التعساء.

بهت دون كىخوتى، وأسقط فى يد سانشو، وتحير ابن العم، وذهل الصبى الخادم، واتسعت بلاهة راوى النهيق، واضطرب الفندقى، وفى النهاية فزع كل من كانوا يسمعون لاعب العرائس، والذى استمر يقول:

- وأنت سانشو بانثا الطيب، يا أفضل حامل دروع لأفضل فارس فى العالم، ابتهج؛ فإن زوجتك الطيبة تيريزا بخير، وتلك هى الساعة التى تندف فيها الكتان، ومن أجل إشارات أكثر، يوجد على جانبها الأيسر إبرىق متسع الفوهة يتسع لقدر طيب من النييد، تتسلى به أثناء عملها.

أجاب سانشو:

- هذا ما أعتقده تماماً، لأنها صاحبة مزاج، ولأنها ليست غيورة لا أقايضها ولا حتى بالعملاقة أنداندونا، والتى طبقاً لما يقول سيدى فى قصة أماديس، إنما كانت سيدة كاملة المعانى ذات فضل، وامراتى تيريزا ممن لا يسمحن بالأوقات السيئة، حتى لو كان ذلك على حساب أبنائها أولياء عهدا.

فى هذه اللحظة قال دون كىخوتى:

- الآن أقول إن من يقرأ كثيراً، ويمشى كثيراً، يرى كثيراً ويعرف كثيراً. أقول هذا لأنه، أى حجج كانت تكفى لإقناعى أن هناك قروداً فى العالم يتبأون، كما رأيت الآن بأم عيني؟ لأننى ذلك الدون كىخوتى دى لامانشا الذى تحدث عنه الحيوان الطيب، رغم أنه جاوز الحد قليلاً فى الشناء على، ولكن كيفما كنت، أشكر السماء التى وهبتنى نفساً رقيقة وعطوفة، تميل دائماً لفعل الخير للجميع ولا تفعل سوءاً بأحد.

قال الصبى للخادم :

- لو كان معى نقود لسألت السيد القرد ماذا سيحدث لى فى المسعى الذى أقوم بالرحلة إليه.

وعلى هذا أجاب الأسطى بدرو، الذى كان قد نهض من ركوعه بين قدمى دون كىخوتى:

- لقد سبق لى القول إن هذه الدابة لا تجيب على أسئلة المستقبل، وإذا أجابت فلا تم النقود، فمن أجل خدمة السيد دون كىخوتى، الحاضر معنا، أترك كل مكاسب الدنيا. والآن مادمت قلت ذلك، فحتى أسره، سوف أركب صندوقى، وأسلى كل من فى النزل، دون قبض أى نقود. وعند سماع الفندقى ذلك ابتهج كثيراً، وأشار عليه بالمكان الذى يمكن أن يركب فيه الصندوق، الذى تم تركيبه فى لحظات.

دون كىخوتى لم يكن كثير السرور بنبوءات القرد، لما بدا له أنه ليس مناسباً بنبوءات قرد، حتى لو كانت للمستقبل أو الماضى، وهكذا أثناء تركيب الأسطى

بدرو للصندوق، انسحب دون كيخوتى مع سانشو إلى ركن فى الحظيرة، وبعيداً عن آذان الجميع، قال له:

- انظر سانشو، لقد تأملت جيداً فى مقدرة القرد، صاحب القرد، لابد أنه أقام (عهداً)^(*) مضمراً أو (معلنًا) مع الشيطان.

أجاب سانشو:

- إذا كان (العبد ملعنًا) ومع الشيطان، فمما لاشك فيه أنه (عبد شديد السواد)؛ لكن ما فائدة هذا العبد للأسطى بدرو؟

- أنت لا تفهمنى سانشو لا أريد قول أكثر من أنه ينبغي أن يكون قد أقام شيئاً من علاقة انسجام مع الشيطان، تتأسس عليها مقدرة هذا القرد، الذى يكسب من ورائه عيشه، وعندما يصير غنياً سوف يهب الشيطان روحه، وهذا ما يسعى إليه الشيطان عدو العالمين. وقد جعلنى أعتقد ذلك كون القرد لا يجيب إلا على الأشياء الماضية والحاضرة، وبراعة الشيطان لا تتجاوز ذلك، أما معرفة المستقبل فلا يمكن التوصل إليها إلا بالتخمين فى كل المراد، لأن الله انفرد بالعلم بها، لأنه رب الزمان ولا يوجد ماضٍ عنده أو مستقبل، فكل الزمان عند حضرة الله حاضر، وإذا كان الأمر كذلك، فإن القرد يتكلم بأسلوب الشيطان، وأنا مندهش كيف لم يبلغوا عنه محاكم التفتيش الكنسية لفحصه، ومعرفة سر تخمينه، لأنه من المؤكد أن هذا القرد ليس عالم فلك ولا سيده ولا...، ولا يعرفون حساب النجم، والذى يسمونه التنجيم، كثير

(*) ينطق سانشو بطريقته اللغية خطأ مع خطأ فى الفهم؛ فالعهد صار عبداً، وما ترتب على ذلك

من هراء.

الشيوع الآن في إسبانيا، ولا توجد امرأة شابة أو عاطل أو صرمامتي عجوز دون أن يدعى قراءة النجم، كما لو كانت السبعة الطيبة على الأرضية في لعب الورق، مبددين بأكاذيبهم وجهلهم الحقيقة الرائعة للعلم. وأنا أعرف سيدة سألت أحد هؤلاء المنجمين عما إذا كانت كلبتها الصغيرة ستحمل وستلد، وكم كلبًا ستلد ومن أى الألوان. وما كان من السيد المنجم بعد أن قرأ النجم إلا أن قال لها إن الكلبة ستحمل وستلد ثلاثة كلاب صغيرة، الأول أخضر، والثاني أحمر، والثالث متعدد الألوان، وتم سفاد الكلبة بين الحادية عشرة والثانية عشرة ليلاً وربما فأراً، وكان ذلك يوم الاثنين وربما كان السبت، وما حدث أنه لم يمض على السفاد يومين حتى ماتت الكلبة من التخمة، ومع ذلك فإن السيد المنجم الكذاب بقى موثقاً فيه في القرية باعتباره منجماً صادقاً، كما يحدث للجميع أو قل لكل النصابين.

قال سانتشو:

- ومع كل هذا أود أن تسأل فخامتكم الأسطى بدرو أن يسأل قرده، هل كان حقيقة ما مر على فخامتكم في كهف مونتيسينوس، لأننى، وسامحنى يا سيدى، أظن أنه كله كان وهمًا وكذبًا، أو على الأقل، أشياء حلم ومانام.

أجاب دون كيخوتى:

- كل شيء ممكن؛ لكننى سأفعل ما تنصح به، رغم أننى لا بد أن يبقى لدى شيء من الشك (في جدوى ذلك).

وبينما هم على هذا الحال وصل الأسطى بدرو، وذلك للبحث عن دون كيخوتى ليبلغه أن الصندوق جاهز للعمل، وأن على فخامته التفضل لرؤيته، لأنه

يستحق أن يرى. أبلغه دون كيخوتى عما يفكر فيه، ورجاه أن يسأل فى الحال قرده كى يقول إذا كانت الأشياء التى وقعت له فى كهف مونتيسينوس حقيقة أو حلمًا، لأنه بدا له أنها تمزج بين الحقيقة والحلم؛ الأسطى بدرو دون أن يجيب بكلمة، عاد لإحضار القرد، وواقفًا أمام سانشو ودون كيخوتى، قال:

– انظر أيها السيد القرد، هذا الفارس يريد أن يعرف عن أشياء معينة، وقعت له فى الكهف المسمى مونتيسينوس، عما إذا كانت زائفة أو حقيقية.

وصانعًا معه الإشارة المعنادة، صعد القرد على كتفه الأيسر مكلّمًا له على ما يبدو فى أذنه، بعدها قال الأسطى بدرو:

– القرد يقول إن شطرًا من أشياء فخامتكم التى رآها أو مرت بك، فى الكهف المذكور زائفة، وشطرًا آخر حقيقى، وأن هذا ما يعرفه، ولا شىء آخر يتعلق بهذا السؤال يمكن معرفته الآن، وإذا رغبت فخامتكم فى معرفة شىء أكثر، فهو سوف يجيب الجمعة القادمة على كل سؤال تسأله، لأنه الآن نفذت قدرته، ولن تعود إليه حتى الجمعة، حسب ما قاله.

قال سانشو:

– لا أقول بنفس الشىء، فلا يستقر فى يقينى أن كل ما قلته فخامتكم عن الكهف كان حقيقة، ولا حتى نصفه.

أجاب دون كيخوتى:

– ستكشف الأحداث عن كل شىء، لأن الزمان يكشف غطاء كل شىء، ولا يترك أمرًا حتى يستخرجه ليرى ضوء الشمس، حتى لو كان محتبًا فى أحشاء الأرض. والآن يكفى هذا، وهيا بنا لنرى عرض الأسطى بدرو الطيب، الذى سيحمل بالنسبة لى شيئًا من الجِدَّة.

أجاب الأسطى بدرو:

- كيف شيئاً؟ صندوقى يحوى بداخله ستين ألفاً (من الجديد)، وأقول هذا لفخامتكم، سيدى دون كيخوتى، إنه واحدة من الأشياء التى تستحق الرؤية فى العالم أكثر من غيرها، ولتعتقد فى الأعمال وليس فى الأقوال، فإلى العمل، فالوقت يتأخر، ولدينا الكثير لنعمله، ولنقله ونعرضه.

أطاع دون كيخوتى وسانشو، وحضرا حيث كان الصندوق موضوعاً ومكشوفاً، ومملوءاً من كل الجهات بشمعدانات، جعلته براقاً وساطعاً. وعند وصولهم وضع الأسطى بدرو نفسه بداخله، فهو الذى كان عليه أن يحرك صور العرائس، وفى الخارج وقف فتى هو خادم الأسطى بدرو، حتى يقوم بدور الترجمان الراوى، يعلن أسرار العرض، وكان فى يده قضيب، يشاور به على الصور التى ستخرج.

أخذ الجميع مكانه، كل من كان فى النزل بعضهم على قدميه على أطراف الصندوق، واستقر دون كيخوتى مستريحاً وسانشو والصبى الخادم وابن العم فى أفضل المقاعد، وبدأ الترجمان الراوى يقول ما يسمعه ويراه، ما كان يسمع ويرى فى الفصل القادم.

الفصل السادس والعشرون

حيث تتواصل المغامرة اللذيذة للاعب العرائس مع أشياء أخرى فى الحقيقة شديدة الطرافة

وسكت الجميع، أهل صور وأهل طروادة^(*)، أود القول بأنهم جميعاً قد تعلقت أنظارهم بالصندوق، وبفم الترجمان وعجائبه، أثناء ذلك سمعوا داخل الصندوق دوى طبل وأبواق، وإطلاق مدفعية كثيفة، اختفى هديرها سريعاً، وفى الحال ارتفع صوت الفتى، وقال:

— هذه القصة الحقيقية التى تمثل أمام فخامتكم مستخرجة حرفياً من التقارير التاريخية الفرنسية، ومن قصص الرومانث الإسبانية، التى تشيع فى أفواه الناس والفتيان فى تلك الشوارع. وتعالج الحرية التى أحرزها جايفيروس لزوجته ميليسندرا، والتى كانت أسيرة فى إسبانيا، فى يد العرب فى مدينة سانسونيا، والتى كانت تسمى هكذا حينذاك، وهى الآن تسمى سرقسطة، وانظروا فخامتكم هناك حيث يلعب دون جايفيروس النرد، طبقاً للرومانث المعنى:

لأن دون جايفيروس قد نسى

أمر ميليسندرا فإنه يلعب النرد

وتلك الشخصية التى تطل هناك بتاج على الرأس وصولجان فى اليدين هى الإمبراطور كارلو ماجنو، الأب المفترض لميليسندرا، الذى يغطيه الحزن لرؤيته البطالة والتناسى عند صهره، فيخرج لتحديه، وتنبهوا للحمىة والحماسة التى يتحداه

(*) عبارة منقولة من الترجمة الإسبانية لإنيادة هوارسيو.

بها، فيبدو أنه لن يفعل إلا قرع رأسه بالصولجان دسنة دقائق، وفوق ذلك فإن بعض المؤلفين يزعمون أنه فعلها، وأنها كانت ضربات محكمة موجعة، وبعد أن ذكر له أشياء كثيرة عن الخطر الذي يتهدد شرفه لعدم سعيه لتحرير زوجته، يقولون إنه قال له:

- " أكثر من الكثير قلت لك أنظر في الأمر "

انظروا أيضًا كيف أدار الإمبراطور ظهره، تاركًا دون جايفيروس مع حفيظته، وها هو يلقي نافذ الصبر من الغضب بلوحة النرد ويقول به بعيدًا عنه، ويطلب مسرعا السلاح، وحضور دون رودان ابن عمه، وها هو يطلب من دوريندانا سيفه، وكيف أن دون رودان لا يرغب في إقراضه له، عارضًا صحبته في المهمة الصعبة التي يقتحمها، لكن الشجاع الغاضب لا يقبل العرض، بل يقول بأنه وحده كاف لإخراج زوجته مما هي فيه، حتى لو كانت مخبأة في أعرق مركز للأرض؛ وبهذا يدخل للتسلح كي يبدأ طريقه نحوها. أنيروا فخامتكم عيونكم للبرج الذي يبدو هناك، حيث نتوقع أنه أحد أبراج قلعة القصر في سرقسطة، والتي يطلق عليها الآن الجعفرية، ولتلك السيدة التي تطل من البلكون، مرتدية زيًا عربيًا، إنها التي لا نظير لها ميليسندرا، التي تطل من هناك مرارًا مراقبة الطريق إلى فرنسا، واضعة خيالها في باريس، وفي زوجها، معزية بذلك أسرها. وانظروا أمرًا جديدًا يحدث الآن، ربما لم ير مثله مطلقًا. ألا ترون ذلك العربي الصامت بطيء الخطوة، واضعًا إصبعه في فمه، يقترب من ظهر ميليسندرا، انظروا كيف أعطاهما قبلة في قلب شفثتها، والسرعة التي تقوم فيها ببيصق القبلة، وتتنظيف شفثتها بكم قميصها الأبيض، والانتحاب، وتنزع شعرها الجميل كما لو كان مسئولاً عن الفعلة السيئة. انظروا أيضًا كيف أن هذا العربي الخطير هو مارسيليو ملك سانسوينا، الذي، لرؤيته سفاهة العربي الذي قبل ميليسندرا، رغم أنه قريب له، أو أحد رجاله الكبار، قد أمر بالقبض عليه وجلبه مائتي جلد، حاملين إياه (في زفه) في الشوارع المعتادة للمدينة:

مع منادين من الأمام

والمحتسين من الخلف

وترون هنا حيث يخرجون لتتفيذ الحكم، لأنه عند العرب لا توجد العدالة والإجراءات القضائية مثل ما يحدث بيننا، قال دون كيخوتى عند هذا بصوت عال:

- أيها الطفل، أيها الطفل، واصل قصتك في خط مستقيم، ولا تضع نفسك في المنحنيات والمفارق، لأنه لإطلاق الحقائق لابد من البراهين بعد البراهين.

وأيضًا قال الأسطى بدرو من الداخل:

- أيها الصبى لا تغمس نفسك في الأصباغ، فقط افعل ما يأمرك به هذا السيد، فهذا الأصوب، واصل غناءك السهل، ولا تضع نفسك في أكثر من مقام موسيقى، فالمعتاد لمن يفعل ذلك تمزيق حباله الصوتية.

أجاب الصبى:

- سأفعل ما تأمرون،

وواصل قائلاً:

- وهذه الشخصية التى تظهر هنا راكبة، ومرتدية إهابًا غسكونيا^(*)، هى نفس شخصية دون جايفيروس، الذى تم أخذ الثأر لزوجته من تجرؤ العربى العاشق، وها هى بهيئة أفضل وأكثر سكينه نفس، وقد وقفت فى شرفات البرج، وتكلم مع زوجها ظنًا منها أنه أحد المسافرين، لتقول له كل تلك العبارات والأحاديث الواردة فى قصة الرومانث التى تقول:

(*) ينتمى إلى غسكونيا جنوب فرنسا.

أيها الفارس إذا كنت مسافراً

إلى فرنسا، فعن جايفيروس أسأل

- ولن أذكر باقي أقوالها الآن، لأن الناس تمل من الإطناب والتطويل؛ ويكفى ذكر أن دون جايفيروس يكشف عن شخصيته، وباللمحات المبتهجة التي تبديها ميليسندرا تجعلنا ندرك أنها تعرفت عليه، وأكثر؛ فإنها الآن تتدلى من البلكون، لتستقر على مؤخرة جواد زوجها. لكن، آه، يا لسوء الحظ، لقد تعلق ذيل ثوبها بجديد البلكون، وها هي معلقة بالهواء، دون قدرة على الوصول إلى الأرض. لكن، انظروا، كما أن السماء الرحيمة تنجد المضطر عند الضيق الأعظم، حيث يقترب دون جايفيروس ويمسكها دون الالتفات لإمكانية تمزق الثوب الثمين، ورغم صعوبة الموقف، ينجح في إنزالها إلى الأرض، ويضعها فوق فخذي جواده، برفعها وإلقائها فجأة وبسرعة خاطفة خلفه كما لو كانت رجلاً يهبط على ظهر الحصان برجلين مفتوحتين، ويأمرها أن تمسك بقوة، وهكذا تحيط ظهره بذراعيها ليعبرا ويلتقيا مشدودين على صدره، حتى لا تسقط، بسبب أن السيدة ميليسندرا لم تكن متعودة على مثل هذه الطريقة في ركوب الخيل. وانظروا أيضاً إلى رَمَح الحصان الذي يكشف عن ابتهاجه للحمولة الثمينة التي يمضي بها؛ سيده وسيدته. وانظروا كيف يستديرون ويخرجون من المدينة، وفي بهجة وحبور يسلكون الطريق المؤدى لباريس، فلتصلا في سلام أيها الزوجان الفريدان العاشقان الحقيقيان، ولتصلا في سلام إلى وطنكما المحبوب، دون أن يعرقل الحظ خطواتكما في رحلتكما السعيدة، ولتلاحظكما عيون أصدقائكما

وأقربائكما، تستمتعان في سلام هادئ بالأيام (ولتكن أيام نستور^(*)) التي تبقت من حياتكما.

وهنا تعالى مرة أخرى صوت الأسطى بدرو، وقال:

— اهدأ أيها الصبي، ولا تبالغ في العواطف، فكل انفعال سيء.

لم يعلق الفتى الترجمان بكلمة، إنما واصل حديثه، قائلاً:

— ولم يعدم وجود العيون الفضولية التي تعودت أن ترى كل شيء، والتي لن ينقصها رؤية نزول ميليسندرا من البلكون وصعودها على جواد زوجها، فأبلغوا الملك مارسيليو، الذي أمر بحمل السلاح، والمطاردة في أسرع ما يمكن، وها هي المدينة تغرق تحت صليل الأجراس التي دقت في كل أبراج المساجد.

قال في هذه اللحظة دون كيخوتي:

— هذا لا، فيما يتعلق بموضوع الأجراس فإن الأمر يتعد عن المناسبة والحقيقة كثيراً يا سيد الأسطى بدرو، لأنه بين العرب لا يستخدم أجراس، وإنما الطبل وبعض أنواع الأبواق، التي تشبه بعض آلات النفخ الإسبانية، أما صليل الأجراس في سانسونيا فهو محض لغو.

وعند سماع الأسطى بدرو لذلك أوقف دق الأجراس، وقال:

— لا تنظر أيها السيد دون كيخوتي إلى هذه الصبيانيات، ولا تفكر في إيصال الأشياء إلى الكمال، حيث لا وجود للكمال، ألا يمثلون هنا ألف كوميديا، في العادة مليئة بألف شيء غير مناسب أو غير حقيقي، بجانب اللغو، ومع

(*) نستور شخصية عاشت أيامها سعيدة في الإنيادة.

ذلك ينهون جولاتهم دون تعكير أو اعتراض، ويستمعون إليهم ليس بالتصفيق فحسب بل بكل إعجاب وما يفوق الإعجاب؟ واصل أيها الفتى، ودعه يقول؛ فما دمت أملاً كيس نقودى سأمثل سقط قول أكثر، فأشعة الشمس تعترضها ألف ذرة من الغبار.

أجاب دون كيخوتى:

– ما قلته هو الحق.

وقال الفتى:

– انظروا كم من الفرسان اللامعين يخرجون من المدينة في مطاردة العاشقين الكاثوليكين، وكم من الطبول تدق ومن الأبواق تنفر، وكم صور ينفج. وأخشى أن يلحقوا بهما، وسوف يعودون بهما مقيدين مربوطين بنفس ذيل جوادهما، وسوف يكون المنظر فظيماً.

مستمعين ومشاهدين لغطاً بالعربية كثيراً، وضجيجاً عظيماً لفرسان العرب، بدا لدون كيخوتى أن يهرع لمساعدة الهاربين، وهكذا نهض على قدميه وصاح بأعلى صوته:

– لن أوافق أنا، وفي أيامى وحضورى، على أن يؤذى مثل هذا الفارس المشهور، والمتأجج العشق دون جابيفيروس، توقفوا أيها الأوغاد، ولا تطاردوه أو تتبعوه، وإذا لم تفعلوا فأتتم في حرب معى!

ووافق القول العمل، واستل سيفه من غمده، وفي قفزة اتخذ مكانه بجوار الصندوق، وفي فوران غاضب سريع وليس له نظير، بدأ يمطر ضربات بالسيف

على عرائس العرب، مسقطاً بعضها، وقاطعاً رأس البعض الآخر، مفسدًا هذا، ومدشدشًا ذاك، ثم هبط بضربة سيف من أعلى إلى أسفل، حتى إن الأسطى بدرو إذا لم يلق بنفسه إلى أسفل، ويتوقع ويقبع كانت سوف تطيح برأسه بسهولة أكثر من الإطاحة برأس عروسة حلاوة. أطلق بدرو صرخات، قائلاً:

- توقف فخامتكم، أيها السيد دون كيخوتى، واعلم أن هؤلاء الذين تقتلهم، وتمزقهم، وتسقطهم من على خيولهم، ليسوا عربًا حقيقيين، وإنما عرائس من العجين. انظر، ويلي! إنك تحطم مالى وتقضى على كل ثروتى.

لكن مع هذا، لم يترك دون كيخوتى مضاعفة ضرباته صاعدة هابطة كالمطر. أخيرًا وفى أقل من لحظتين ألقى بكل الصندوق على الأرض وقد تحولت كل حباله وعرائسه إلى نسف وشظايا، مع جرح بليغ للملك مارسيليو، والإمبراطور كارلو ماجنو انشطر تاجه ورأسه إلى شطرين. واضطرب جمع المشاهدين، وهرب القرد معتليًا قرמיד مبنى النزل، وامتلأ ابن العم بالخوف، وكسى الجبن الصبى الخادم، وحتى سانشو بانثا أصابه رعب مهول، لأنه كما أقسم بعد هذه العاصفة بأنه لم ير سيده قط بمثل هذا الغضب المنفلت السراح. وهكذا بعد إنجاز الدشدشة العامة للصندوق، هدأ قليلاً دون كيخوتى، وقال:

- أود أن أحصل الآن أمامى فى هذه اللحظة على كل أولئك الذى لا يعتقدون أو لا يحبون أن يعتقدوا فى الفرسان المشائين، انظروا فيما إذا لم أكن موجودًا هنا، ماذا كان سيجرى لدون جايفيروس الطيب وللجميلة ميليسندرا، فمن المؤكد أنه فى هذه اللحظة نفسها، كان كلاب الصيد هؤلاء سيكونون قد لحقوا بهما، وألحقوا بهما بعض الأذى. باختصار، تحيا الفروسية المشاءة قبل أشياء كثيرة تحيا هذه الأيام على سطح الأرض.

قال فى تلك اللحظة الأسطى بدرو بصوت به رنة المرض:

— تحيا وتحيا! ميروك! ويموت أنا! لأننى فى درجة من التعاسة، تجعلنى أستطيع أن أردد مع الملك لذريق:

بالأمس لإسبانيا كنت سيداً

واليوم لا أملك برجاً مشيداً

بل لا أستطيع القول عن شىء إنه ليا

— فمئذ ما لا يزيد على نصف ساعة بلحظة قصيرة كنت سيداً لملوك وأباطرة، مملوءة حظائرى وصناديقى وأجولتى بخيول لا نهاية لعددتها، وبأجماد لا حصر لطولها، والآن أراى بلا عزاء مهزوماً فقيراً وشحاذاً، وفوق كل شىء بدون قردى، وقيئاً قبل إعادته لأحضائى سوف تعرق حتى أسنابى، وكل هذا بسبب الثورة خاطئة الاعتبار لهذا السيد الفارس، والذى يقال عنه إنه يجير الضعفاء، ويزيل العدوان، ويقوم بأفعال أخرى من البر، ومعى فقط اختفت مقاصده الطيبة، وتبارك الله وتعالى، الذى استوى على العرش. فى النهاية، الفارس صاحب الصورة الحزينة، كان المقدر لتحطيم صور ما أملك.

رق قلب سانشو مع عبارات الأسطى بدرو:

— لا تبك، يا أسطى بدرو، ولا تنتحب، لأنك تكسر قلبى، لأننى أخبرك أن سيدى دون كيخوتى كاثوليكي طيب، ومسيحي تقى، فإذا وقع فى يقينه أنه قد أوقع لك أى أذى، سيعترف لك به، وسيرغب فى دفع قيمته لك، وترضيتك وزيادة، بل أكثر من الزيادة.

- إذا دفع لي السيد دون كيخوتي شطراً من ثمن العرائس التي حطمها لي سابقى راضياً، وسيرضى ضمير فخامته عن نفسه، لأنه لا يمكن استنقاذ ما بيد الغير ضد إرادة صاحبه إن لم يعوضه.

قال دون كيخوتي:

- هو كذلك، لكني لا أعرف حتى الآن أننى اغتصبت شيئاً لك، يا أسطى بدرو. أجاب الأسطى بدرو :

- كيف لا؟ وهذا الحطام للعرائس فوق هذه الأرض القاسية العقيمة، من بددها وصفها جسدياً سوى القوة التي لا تغلب لهذا الساعد الجبار؟ ولمن كانت أجسام هذا الحطام إلا لي؟ وبأى شيء أرتزق إلا بها؟

قال عند ذلك دون كيخوتي :

- الآن وقع في اعتقادي ما اعتقدته من قبل مراراً، أن هؤلاء السحرة الذين يطاردونني يضعون في طريقي صوراً وشخصاً تبدو حقيقية أمام عيني ثم يبدلوها ويضعون مكانها مايجون. وأقول لك واقعياً وبكل حق، لقد بدا لي أن كل ما كان يمثل هنا، واقعاً حرفياً يحدث، وأن عروسة ميليسندرا هى ميليسندرا نفسها، ودون جايفيروس دون جايفيروس، ومارسيليو مارسيليو، وكارلو ماجنو كارلو ماجنو، ولهذا تغيرت واعترائى الغضب، وحتى أنجز واجب مهنتى باعتبارى فارساً مشأاً أحببت تقديم العون والنفوق لمن كان يهرب، وبهذا الغرض النبيل قمت بما رأيتم، وإذا كان قد انعكس الأمر بالنسبة لي، ليس ذنبى، وإنما هو ذنب الأشرار الذين يطاردونني، ورغم ذلك، فهذا الضرر، وإن لم يقع بسوء نية، أحب أنا شخصياً تحميله على، وانظر أيها

الأسطى بدرو كم تريد نظير عرائسك، وأنا أعرض عليك دفعه في الحال،
في نقد إسباني صحيح وقانوني!

مال عليه الأسطى بدرو وقال له :

- ما كنت أتوقع أقل من هذا الورع الفريد للهمام دون كيخوتى دى لا مانشا،
المنقذ الحقيقى لكل المضطرين والمحتاجين من الجائلين فى أرض الله، وفى هذا
سيكون الفندقى والسيد سانشو وسيطين ومثمين بين فخامتكم وبينى حول
ما تساويه العرائس المحطمة، أو ما يمكن أن كانت تساويه.

الفندقى وسانشو ذكرا أنهما سيقومان بذلك، وفى الحال نهض الأسطى بدرو
من الأرض نحو الملك مارسيليو بدون رأس، وقال:

- هكذا يبدو استحالة إعادة هذا الملك إلى حالته الأولى، ويبدو لى إذا لم يكن هناك
رأى أفضل أن يدفع لى نظير موته أربعة ريالات ونصف الريال تعويضاً هائياً.

قال دون كيخوتى :

- استمر!

واصل الأسطى بدرو ممسكاً بين يديه الإمبراطور كارلو ماجنو المشطور:

- ونظير شطره من أعلى إلى أسفل شطرين، فليس كثيراً أن أطلب خمسة ريالات
وربع الريال.

قال سانشو:

- ليس بالقليل.

قال الفندقى:

- وليس بالكثير، ولتكن خمسة ريالات فقط.

قال دون كيخوتى:

- أعطوه ما يطلبه خمسة وربع؛ فإن أمر ربع ريال أكثر أو أقل لا قيمة له في مجموع هذه النكبة الكبيرة، وأسرع، أسطى بدرو، فتلك ساعة العشاء، وعندى عواصف من الجوع تجتاحنى.

قال الأسطى بدرو:

- ونظير هذه العروسة التى طارت أنفها وعين من عينيها، وهى الجميلة ميليسندرا أطلب، وبكل عدل، ريالين واثني عشر مرابطيا.

قال دون كيخوتى:

- حتى لو اعترض الشيطان طريقهما لن تكون ميليسندرا وزوجها الآن إلا على حدود فرنسا على الأقل، لأن الجواد الذى كان يقلهما بدالى وكأنه يطير أكثر من أنه يجرى، ولهذا لن تبيع لى القطة على ألها أرنب برى، مقدماً لى الآن ميليسندرا مشطوفة الأنف، بينما هى، إذا أتيج رؤيتها، فسترى مستريحة فى فرنسا مع زوجها، وممددة رجلها. ساعد الله الجميع على أمرهم، أيها السيد الأسطى بدرو، ولنسر جميعاً فى الطريق المستقيم، بقلب سليم.

الأسطى بدرو الذى رأى أن دون كيخوتى عاد إلى خيالاته راجعاً إلى معركة التى لم تكذ تنقضى، لم يحب له أن يهرب من دفع النقود له، وهكذا قال:

- هذه لا يمكن أن تكون ميليسندرا، وإنما هى وصيفة من خدمها، وهكذا أطلب فيها ستين مرابطياً، وبهذا أكون راضياً.

بهذه الطريقة مضى يضع أسعاراً لعرائس كثيرة محطمة، وبعد أن خفض منها بعض الشئ الحكمان، وبرضا الطرفين وصلت النقود المطلوبة إلى أربعين ريالاً وثلاثة أرباع الريال، وبعد أن دفعها له سانشو، طلب الأسطى بدرو ريالين نظير عمل القرد.

قال دون كيخوتى:

- ليس عمل القرد، ولكن نظير سكر صاحبه، ومع ذلك فأنا أدفع الآن مائتي ريال لمن يقول لى ببرهان أن السيدة دونيا ميليسندرا، والسيد جايغروس قد وصلا فرنسا، وأتّهما بين أهليهما.

قال الأسطى بدرو:

- لن يستطيع أن يقول ذلك لنا أحد أفضل من قردى، لكن ولا الشيطان نفسه الآن يمكنه العثور عليه، مع أننى أتصور أن الحب والجوع سيرغمانه على البحث عنى فى آخر الليل، وصبحتنا الله على خير، وهناك سوف نرى.

باختصار انتهت عاصفة الصندوق، وتعشى الجميع فى سلام وفى أحسن صحبة، على حساب دون كيخوتى الذى كان كريماً إلى آخر المدى.

قبل الفجر انصرف حامل الرماح والسنج، وبعد استيقاظهما ذهب ابن العم والصبى الخادم لتوديع دون كيخوتى، الأول ليعود إلى قريته، والثانى ليواصل طريقه مع معونة من دون كيخوتى قدرها ستة ريالات. الأسطى بدرو لا يحب أن يدخل فى هزل أو جد أكثر مع دون كيخوتى، حيث كان يعرفه معرفة جيدة، وهكذا بكرّ حاملاً حطام صندوقه وقرده، وانصرف أيضاً للبحث عن مغامراته. الفندقى الذى لم يكن يعرف دون كيخوتى، كان معجباً بجنونه مثل كرمه. أخيراً، سانشو دفع له ما عليهما بكرم، بأمر من سيده، وعند وداعه، تقريباً عند الثامنة، تركا النزل، وأخذا الطريق، حيث سوف نسمح لهما بالانصراف والذهاب، فهكذا يكون أنسب لإتاحة الفرصة لحكى أشياء أخرى، تنتمى لكشف فصول هذه القصة المشهورة.

الفصل السابع والعشرون

حيث سندرك من كان الأسطى بدرو وقرده، مع الواقعة الحزينة التي حدثت لدون كيخوتى فى مغامرة النهيق، والتي لم تأخذ النهاية التي أحبها

يدخل سيدى حامدى، كاتب هذه القصة العظيمة، هذا الفصل بتلك الكلمات:
"أقسم كمسيحى كاثوليكي... " وهذا حدا بمت ترجمه إلى القول إن قسم سيدى حامدى
كمسيحى كاثوليكي، مع أنه مسلم، وهو، مما لاشك فيه، لم يرغب فى قول شىء
أكثر من أنه هكذا، كما أن المسيحى الكاثوليكي حين يقسم يقسم بحق أو ينبغى عليه
أن يقسم بحق، فيقولها ضمن ما يقول كما لو كان يقسم كمسيحى كاثوليكي، حول ما
أحب أن يكتب عن دون كيخوتى، بصفة خاصة، عن قوله عن كان الأسطى بدرو
ومن القرد العراف الذى أدهش تلك القرى بنبوءاته. يقول إذن، إن من قرأ جيداً
القسم الأول من هذه القصة سيتذكر جيداً خينيس باسامونتى، الذى كان أحد
مسخرى الأسطول الذين أطلق سراحهم دون كيخوتى فى سبيرا مورينا، واستفاد
من ذلك جحودهم، وأسوأ ثمن من هؤلاء الأتاس الأشرار، ومعتادة الإجرام، ذلك
الخينيس دى باسامونتى، والذى كان يسميه دون كيخوتى خينيسيو دى باربيو، كان
الذى سطا على حمار سانشو بانثا، وكما أنه لم يوضع فى القسم الأول متى أو كيف
خطفه، بسب أخطاء الطبّاعين، مما حدا بالكثير إلى إرجاع هذا النقص الطبّاعى
لذاكرة المؤلف. لكن باختصار، سطا عليه خينيس عندما كان سانشو نائماً فوقه،
مستخدمًا فكرة برونيلو عندما كان ساكريبانتى فوق جواده البراق، وسحب الجواد

من بين رجليه، ثم بعد ذلك استعاده سانشو كما حكينا من قبل. وخينيس هذا، خوفًا من أن تعثر عليه العدالة، والتي كانت تبحث عنه لمعاقبته على جرائمه التي لاحصر لها، والتي كانت كثيرة، وجرائم جرائم، حتى إنه نفسه ألف مجلدًا كبيرًا يحكيها فيه، قرر أن يدخل مملكة أراجون ويغطي عينه اليسرى، مستقرًا في مهنة لاعب العرائس، لأن هذه مع خفة اللعب باليد، كانت مما يجيده أفضل إجابة.

وقد حدث أن اشترى هذا القرد من أحد الإسبان المحررين بعد عودتهم من بلاد البربر، وقد علمه بعد إشارة معينة أن يقفز على كتفه، ويتمم في أذنه، أو يبدو للرائي أنه يتمم. وبجانب هذا، قبل دخوله أى قرية بصندوق دنياه وقرده، كان يتقصى أخبارها من القرية الأكثر قربًا منها، أو من أى أحد يستطيع أن يتحرى منه تلك الأخبار التي تتعلق بالأشياء الخاصة، التي قد تكون قد وقعت في حياة أهل تلك القرية، ثم ينقش تلك الأخبار في ذاكرته، وهكذا ظل يفعل كلما دخل قرية يعرف أبناءها من القرية السابقة لها، وكل القرى رغم ذلك يستقبلونه مبتهجين فرحين قد تعرت أسرارهم، يبدأ بعرض عرائسه مرة هذه القصة ومرة أخرى قصة مخالفة ثم يتلو ذلك عرض مقدرات قرده، ذاكرًا للقرية أنه يتبأ فقط بالماضى والحاضر، أما عن المستقبل فلا حذق له به. ونظير إجابة كل سؤال يطلب ريالين، وأحيانًا يخفض السعر طبقًا لقياسه لنبض السائل، وربما يقول أحيانًا لأناس من سكان القرية رغم عدم سؤالهم له لاستعراض قدرات القرد المزعومة، فلعدم استعدادهم للدفع والسؤال، يعمل إشارته للقرد، ثم يقول إن القرد قال له كذا وكذا، فتخرج تلك الأقوال مطابقة لتفاصيل ما حدث بالفعل. وبهذا كان ينال مصداقية فوق الوصف، ومضى الجميع يجرى وراءه ويتبعه. وفي مرات أخرى، لكونه فطنًا جدًا كان يجيب بطريقة تجعل الإجابة على قدر السؤال، وكما أن أحدًا لا يضعه في مأزق أو يضغط عليه حتى يقول كيف يصل قرده إلى النبوءات، فإنه مضى يخدع، مائلًا كيس نقوده. وهكذا عند دخوله النزل تعرف على دون كيخوتى وسانشو بانثا،

ولمعرفته بهما، أصبح سهلاً عنده استثارة إعجاب ودهشة دون كيخوتي وسانشو بانثا، وكل من كان حاضراً هناك، لكن كان سيكلفه غالباً إذا كان دون كيخوتي قد خفض يده قليلاً أثناء قطع رأس الملك مارسيليو وتدمير الصندوق (كما حكى فى الفصل السابق) لأنه كان سيزيل قطعة الحرير التى تغطى عينه ووجهه، ويكشف عن شخصيته، وربما كان سيزيل حياته نفسها.

هذا كل ما ينبغى قوله عن الأسطى بدرو وعن قرده، ونعود الآن إلى دون كيخوتي دى لامانشا، وأقول: إنه بعد أن خرج من النزل، قرر أولاً رؤية شواطئ نهر إبرو، حيث بقى لديه وقت طويل لفعل الكثير قبل مسابقات الفروسية بسرقسطة. واصل طريقه وقد وطن النفس على ذلك القصد، وقد مضى عليه يومان فى الطريق دون حدوث شىء له يستحق الكتابة، وفى اليوم الثالث عند صعوده فوق صخرة، سمع هدير طبل وأبواق وأصوات طلقات نارية. فى البداية ظن أنها وحدة عسكرية مارة فى ذلك المكان، وعند رؤية ذلك غمز روثنانتي، وصعد إلى ذروة الصخرة، وهناك رأى تحت سفحها، على ما بداله، أكثر من مائتى رجل مسلحين بأنواع مختلفة من الأسلحة، كما لو كانت رماحاً طويلة، وأقواساً، وبلطاً أيديها رماح، ورماحاً عادية، وبعض البنادق، وكثيراً من التروس. هبط من علياء صخرته واقترب من الكتبية، وكان ما رآه من أعلام غزيراً ومتنوعاً. ميز الألوان، ومنها عِلْمَ هوية المقاتلين، وخاصة علم من نسيج أطلس مرسوم عليه حمار يأخذ هيئة جحش صغير، رأسه مرفوع، وفمه مفتوح، ولسانه خارج الفم، فى وضع من ينهق، وحوله كان مكتوباً بحروف كبيرة هذان البيتان:

لم ينهقا دون إدراك

هذا العمدة أو ذاك

وبهذا الشعار استنتج دون كيخوتى أن هذا الحشد هم أهل قرية النهيق، وهكذا أخبر سانشو مفصلاً له كل ما هو مكتوب على العلم، قال له أيضاً إن من أخبرهم عن النهيق أخطأ فلم يكن الناهقان ناطبين وإنما عمدتين، وعلى هذا أجاب سانشو:

- سيدى، هذا لا يصح تصحيحه، فمن الممكن جدا أن الناطبين اللذين همّا ترقيا مع الوقت إلى عمدتين لقريتهما، وهكذا يمكن أن يطلق عليهما اللقبان، ولكن ماذا يهم أن يكون من همق عمدة أو نائبا بالنسبة للحقيقة التاريخية مادام قد تم النهيق فعلاً، فالخطر واحد بالنسبة لعمدة أو لنائب.

وفى النهاية، عرفنا أن القرية موضع السخرية تخرج لقتال قرية أخرى، سخرت منها بما تجاوز الحد، وبما تجاوز أصول حق الجوار.

كان دون كيخوتى يقترب منهم مع تناقل وضيق ليس بالقليل من جانب سانشو، الذى لم يحب قط أن يوجد فى مثل هذه الوقائع العسكرية. حشد الكتيبة حاصرهما فى وسطهم ظناً منهم أنهما من الأعداء. دون كيخوتى، وقد رفع حافة الخوذة ليظهر وجهه، فى بريق وجمال هيئة، اقترب من علم الحمار، وهناك أحاط به كل قادة الجيش وأشجع مقاتليه لرؤيته، مندهشين ذلك الاندهاش الذى كان يصيب دائماً من يرى دون كيخوتى لأول مرة. وعندما رآهم دون كيخوتى مستغرقين فى النظر إليه، دون أن يكلمه أحد بكلمة أو يوجه إليه سؤالاً، أحب أن يستفيد من هذا الصمت، فمزق صمته هو بصوت عال، وقال:

- أيها السادة الأخيار، بكل غال أتوسل إليكم ألا تقاطعوا الحديث الذى أود مخاطبتكم به، حتى إذا ظهر لكم أنه لا يسركم أو يغضبكم فإدى إشارة منكم فإن ساقفل فمى بخاتم وسأوقف لساني بكمامة.

قال له الجميع أن يقول ما يحب، فإنهم سوف يسمعونه بتشوق، وبهذا التصريح واصل دون كيخوتى الكلام قائلاً:

- أنا يا سادتى فارس مشاء، ومهنته ممارسة السلاح، ووظيفته مساعدة المضطربين بمد اليد إليهم والإسراع بنجدة من هو فى ضيق. وقد عرفت نكبتكم منذ أيام، مع السبب الذى دفعكم لحمل السلاح فى كل خطوة، وهو الثأر لأنفسكم من أعدائكم، وحيث إنى قد تأملت قضيتكم فى ذهنى مرة ومرات، فإننى أرى أنه طبقاً لقوانين المبارزة، أنكم مخدوعون بالحكم على أنفسكم بأنكم قد سخر منكم، لأنه لا يمكن لأحد أن يهين قرية كاملة، إذا لم يكن متحدياً لها من أجل صدور خيانة من أحد أبنائها دون معرفة فاعل هذه الخيانة لتحديه شخصياً. ومثال ذلك لدينا دون ديجو أوردينيث دى لارا، الذى تحدى جميع أهل القرية الثامورية لأنه جهل أن بيدو دويفوس وحده هو الذى ارتكب خيانة قتل مليكه، وهكذا تحدى الجميع، ووقع على الجميع الثأر وضرورة مواجهته، مع أنه للحقيقة قد تجاوز الحد المقبول لأى تحدى، لأنه لم يكن ملزماً بتحدى الموتى، والمياه، والخبز، ولا تحدى من هم فى طريقهم لأن يولدوا، ولا تلك الترهات التى لا تحصى فى قصته وتحداها، لكن، يا للهول! إذا أنجب من أم الغضب، فإن اللسان لن يكون له أب، ولا جامع يصححه أو أدب. وإذا كان الأمر كذلك فإن فرداً واحداً لا يستطيع أن يهين مملكة أو إقليمًا أو مدينة أو بلدًا بأكمله، كما لا يستطيع إهانة قرية بجميع أهلها. وبهذا يبقى واضحاً عدم وجود سبب للخروج للثأر المتحدى للإهانة المزعومة، فالحقيقة، الإهانة لم تقع، لأنه، على أهل قرية الساعاتية أن يقتلوا فى كل خطوة من يطلقون عليهم هذا الاسم ومثلهم الأوانجية

والبادنجانية، والحوتنجية والصابونجية^(*)، أو غيرهم ممن ينازروهم بالألقاب من المدن والقرى التي تحمل أسماء وألقاباً تطير هنا وهناك من لسان إلى لسان بين الناس والصبيان. طيب! هل بالفعل على هذه البلاد المشهّر بها أن تتحدى وتثار وتسير شاهرة سيوفها مثلما يشهر آلهته الموسيقية دائماً الموسيقى الجوّال، وذلك لأدنى مشاجرة؟! لا، ولا حتى هذا يسمح به الله أو يقبله؟ فالرجولة الفطنة، والبلد ذو اليقين لا يحمل السلاح إلا لأربعة أشياء، تستحق إشهار السيف والمغامرة بالنفس والحياة والمال. الشيء الأول الدفاع عن العقيدة، والشيء الثاني الدفاع عن الحياة طبقاً للقانون الطبيعي والسماوي، والشيء الثالث دفاعاً عن شرف الأسرة وممتلكاتها، والشيء الرابع دفاعاً عن الملك في حرب عادلة، وإذا أردنا إضافة شيء خامس (ويمكن عده الثاني)، فإنه الدفاع عن الوطن. وإلى هذه الأسباب الخمسة الكبرى يمكن إضافة أسباب أخرى على أن تكون عادلة ومنطقية، وأن ترغم المرء على حمل السلاح، لكن حمل السلاح من أجل صبيانيات، ومن أجل أشياء هي قبل كل شيء ليست إلا للإضحاح وتزجية وقت الفراغ أكثر منها للتشهير، من ثم يبدو لي أن من يفعل ذلك فإنه يعدم أي منطق معقول، وخاصة عندما يكون ذلك لثأر غير عادل (ولا يوجد ثأر عادل مطلقاً). إن ذلك يسير مباشرة ضد القوانين السماوية التي ندين بها، والتي تأمرنا بالإحسان إلى أعدائنا، وأن نحب من يسيء إلينا، بل يسير مشيراً إلى عبوديتنا للدنيا أكثر

(*) الساعاتية لقب ساخر لأهل قرية إسبرطينا، والأوانجية (صانعي الأواني) لقب وادي سوليتا، والبادنجانية لقب طليطلة، والحوتنجية (أبناء الحوت) لقب مدريد، والصابونجية لقب إشبيلية، وكلها ألقاب للسخرية.

من عبوديتنا لله، وللמادة أكثر من الروح، لأن المسيح الإله والإنسان الحقيقي، والذي لم يكذب قط، ولم يستطع ولا يستطيع الكذب، لكونه مشرّعنا، قال إن قيده يسر وأن ما يُحْمَلْنَا سهل؛ وهكذا لا يأمرنا بشيء يكون مستحيلاً لا نستطيع إنجازَه. وهكذا سادتي أصحاب الفخامة، ترون أنكم مجبرون على الهدوء طبقاً للقوانين السماوية والإنسانية.

قال سانشو لنفسه في تلك اللحظة:

- ليركبي الشيطان إذا لم يكن سيدي هذا من الفقهاء المتكلمين، وإذا لم يكن كذلك فهو يشبههم شبه البيضة نظيرتها.

أخذ دون كيخوتي أنفاسه قليلاً، وعندما رأى أنهم حتى تلك اللحظة يعطونه أذناً صاغية أحب أن يواصل الكلام، لولا أن حال بينه وبين ذلك ذكاء سانشو، والذي عندما رأى أن سيده قد توقف، أخذ الكلمة قائلاً:

- سيدي دون كيخوتي دي لامانشا، والذي أطلق عليه بعض الوقت الفارس صاحب الصورة الخزينة، والآن يطلق عليه فارس الأسود، هو من الأعيان الفطناء جداً، وهو يعرف اللاتينية^(*) والرومانية مثل حاملي البكالوريا، وفي كل ما يعالجه أو ينصح به يفعل ذلك مثل جندي، وهو يعلم كل لوائح وقوانين ما يسمونه المبارزة الصحيحة، وهكذا ليس عليكم إلا أن تسيروا وراء ما يقول، وعلى يقع الخطأ، وخاصة كما قيل فإنه من التفاهة التحدى بمجرد سماع فهميق، فإنني على ما أتذكر، عندما كنت غلاماً، كنت أهق كل مرة وفي كل وقت يحلوا لي دون أن أعمل حساباً لأحد، بل كنت أهق في ظرف وأصالة عريضة، فعند كل فهميق كانت تجاوبني ناهقة كل حمير القرية، ولم

(*) لغة الثقافة حتى عصر كتابة هذه الرواية، أما عامية اللاتينية فهي الرومانشية.

يتبرأ منى أبواى بسب هذا، وكانا والدين شرفين جدًّا، وفوق ذلك كان يحسدنى أكثر من أربعة من شيوخ القرية، دون أن أبه لذلك. وحتى ترون أنى أقول الحقيقة، انتظروا، أنصتوا، فإن علم النهيق مثل علم السباحة، ومن يتعلمها مرة لا ينساها بالمرّة!

وفى الحال، وضع يده على فتحتى أنفه وبدأ ينهق بشدة حتى إن صدى النهيق رددته كل الوديان القريبة. لكن واحدًا ممن كانوا بالقرب منه، طانا أنه يسخر منهم، رفع عصا طويلة كانت فى يده، وأسقطها عليه فى قوة ضربة لا يملك أن يضرب بأقوى منها، فألقت سانشو بانثا على الأرض. وعندما رأى دون كيخوتى سوء مآل سانشو، هاجم من ضربه برمحه فى يده، لكن حال تكاثر القوم للفصل بينهما دون قدرته على الثأر لسانشو، وفوق ذلك رأى مطرًا من الحجارة ينزل عليه، ورأى ألف رمح تهدده فوق ألف بندقية، من ثم أدار عنان روئينانتى، ورمح هاربًا بأقصى ما يمكنه من سرعة، مخترقًا جمعهم للخروج إلى الخلاء، معتمدًا على الله من كل قلبه، فى أن ينفذه من هذا الخطر، خائفًا فى كل خطوة أن تخترق ظهره إحدى الرصاصات لتخرج من صدره، وفى كل لحظة كان يأخذ أنفاسه، حتى يتأكد أنها لم تخمد. لكن الكتيبة اكتفت بأن رآته يهرب، فلم تطلق عليه الرصاص. وبالنسبة لسانشو وضعوه فوق حماره بمجرد أن عاد إلى وعيه، وتركوه يمضى خلف سيده، ليس لأنه كان يعى ما يفعل، إنما سار حماره بحكم العادة يقص أثر روئينانتى؛ ودون حماره ما استطاع به لاحقًا. انتظر دون كيخوتى فترة متطاولة من الزمن، ثم أدار رأسه ليرى سانشو قادمًا، وحيث إنه لم ير أحدًا يتبعه، توقف للعناية به.

بقيت الكتيبة هناك حتى حل الليل، ولعدم خروج خصومهم للمعركة عادوا لقريتهم سعداء مبتهجين، ولو كانوا يعرفون العادة الإغريقية لأقاموا فى ذلك المكان نصبًا تذكاريًا.

الفصل الثامن والعشرون

عن أشياء يقولها ابن إنجيلين، سوف يعرفها من يقرأ إذا قرأ بإمعان

عندما يهرب الشجاع، فإن الخدعة تتكشف، وإنه من فطن الشجعان انتظار لحظة أفضل، هذه الحقيقة تجسدت في دون كيخوتى الذى عندما ثار غضب القرية وفورانها، وتبدت النوايا السيئة لتلك الكتبية المنحطة، أثارت الأقدام سحائب الغبار فى الفرار، دون تذكر سانشو أو الخطر الذى تركه معرضاً له، ليبعد بالقدر الذى يرى نفسه به آمناً، وتبعه سانشو مجتازاً المسافة الفاصلة بحماره كما ذكر من قبل. فى النهاية، وصل وقد عاد إلى كامل ذاكرته، وعند وصوله ترك نفسه يسقط من على حماره تحت أقدام روئينانتى، بكل اللهفة، وقد اكتمل طحنه، ووصل ضرب العصيان على جسمه حد التمام. ترجل دون كيخوتى لعلاج جروح، ولكن عندما وجده سليماً من الجروح من قدميه حتى رأسه، قال له بغضب شديد:

- كانت ساعة نحس أن عرفت النهيق، سانشو! وأين وجدت أنه من الذكاء ذكر اسم الحبل فى منزل المشنوق؟ وعلى أنغام النهيق، ماذا كنت تنتظر غير دقات العُصيّ؟ أحمد الله أن باركوك برسم صلبان على جسمك بالعصى بدلاً من رسمها على وجهك بالسكاكين.

أجاب سانشو :

- لست قادراً على الرد عليك، لأننى يبدو لى أننى أتكلم من ظهري؛ فلنركب الدواب ولنبتعد عن هذا المكان، أما عن نيقى فسأجيب بالصمت، لكننى لا أستطيع منع نفسى من القول بأن الفرسان المشائين يهربون، تاركين خدمهم المخلصين مطحونين مثل الحنة أو الدريس تحت رحمة أعدائهم.

قال دون كيخوتى:

- لا يهرب من ينسحب؛ لأنك عليك أن تعرف، سانشو، أن الشجاعة التى لا تؤسس على الفطنة ليست إلا طيشاً، وأن أمجاد الطائشين تعتمد على الحظ أكثر من اعتمادها على القوة. وهكذا، فأنا أعترف أننى انسحبت، لكننى لم أهرب، وفى هذا حاكيت كثيراً من الشجعان، ممن انتظروا ظروفاً أفضل، وبهذا تمتلى القصص والتواريخ، ولولا أنها لن تفيدك الآن ولن تلذ لى لحكيتها لك.

وخلال هذا كان سانشو قد امتطى حماره، بمساعدة دون كيخوتى الذى صعد فوق روئينانتي، وشيئاً فشيئاً مضوا يختفون داخل غابة من الحور، ظهرت بعد سير لم يتجاوز ربع فرسخ. وبين الحين والحين، كان سانشو يطلق من الآهات أعمقها، ومن التآوهات المنتحبة ألمها، وعندما يسأله دون كيخوتى عن سبب تلك الأحاسيس شديدة المرارة، يجيب بأنه من أدنى نقطة فى حبله الشوكى حتى مستقر رأسه كان يؤلمه ألم يخرج عن وعيه، قال دون كيخوتى:

- ينبغى أن يكون سبب هذا الألم العصا التى ضربوك بها، لقد كانت طويلة ممتدة، حتى إنها طالت ظهرك كله، حيث يتضمن كل هذه المناطق التى تؤلمك.

- يا إلهي! إن فخامتك قد أخرجتني من شك عظيم، وقد أوضحت لي الأمر بكلمات جميلة. يا ويل جسمي! أ بهذا الشكل كان ألمي شاملاً كاملاً، حتى احتجت أن يقال لي إنه يؤلمني كل ذلك الجميع الذي طالته العصا؟ إذا ما كانت تؤلمني قسبة رجلى كنت سأمضى مخمناً سبب ألها، لكن أن يؤلمني جسمي كله المطحون، فليس صعباً تخمين السبب! أقسم يا سيدي وولي أمري، أنك قمتى بلا نهاية للآخرين أذى تنف الجلد، حتى إنى كل يوم أمضى مكتشفاً قارات جديدة من بعض ما أنتظره من صحبة فخامتكم؛ لأنه إذا كنت قد تركتني هذه المرة أجلد، فإننا سنعود مئات المرات لنفس السيرة، وغيرها من الصيانيات، والتي إن كانت هذه المرة قد انطبت على ظهري فإنها فى الآتى سوف تنزل على عيني. كم هو أفضل كثيراً، إن لم أكن همجياً، وإن لم أكن غير قادر مرة فى حياتى أن أفعل شيئاً موفقاً، وأعود للقول، كم هو أفضل كثيراً أن أعود إلى بيتى وإلى زوجتى وإلى أولادى، كى أعولهم وأربهم على قدر ما أعطانى الله تعالى من رزق، تاركاً المشى فى الأرض وراء فخامتكم لقطع طرق لا تطرق، وسبل فى سباق بلا سبل، شارباً الحنظل آكلاً المر. خذ مثلاً لك النوم! أحك لي أيها الأخ حامل الدروع عن أقدامك السبع، فى الآراضين السبع، وإن أردت أراضى أكثر خذ الكثير، ففى يديك الفضاء به تسيير حسب هواك، فاعرض حسن هيتك؛ اللهم اجعلنى أراه محروقاً أول من أخذ أول غرزة فى نسيج الفروسية المشاءة، أو على الأقل أول حامل دروع لهؤلاء البلهاء، كما ينبغى أن يكون كل أولئك الفرسان المشائين فى الماضى. أما عن الفرسان المشائين فى الحاضر لا أقول شيئاً؛ فلكون فخامتك واحداً منهم فإبى

أكن لهم الاحترام، ولأني أعرف أن فخامتكم تعرف أبعد مدى بنقطة أكثر مما يعرف الشيطان، حينما تتكلم، وحينما تفكر.

قال دون كيخوتي:

- سأقوم برهان طيب معك، سانشو، الآن حين تتكلم ولا يقف في سبيلك أحد، تزول كل آلام جسمك. تكلم يا بني، وقل كل ما يخطر على بالك، ويخرج من فمك، مقابل ألا يؤلمك شيء، وسوف يلذ لي غضبي الذي تسببه كل سفاهاتك. وإذا كنت ترغب كثيراً في العودة إلى بيتك مع زوجتك وأولادك، فلا شاء الله لي أن أحول بينك وبين ذلك، وهاهي معك نقود لي، فانظر في هذه المرة الثالثة التي خرجناها من قريتنا، وانظر بقدر ما تستطيع وفيما يجب أن تكسب كل شهر، وادفع لنفسك من يدك.

أجاب سانشو:

- عندما كنت أخدم تومي كارأسكو والد حامل البكالوريا شمشون كارأسكو، الذي تعرفه فخامتكم جيداً، كنت أكسب كل شهر دينارين، فضلاً عن طعامي، ومع فخامتكم لا أدري ما أستطيع كسبه، بفرض أن حامل دروع فارس مثلاً يقوم بعمل أكثر من خادم لمزارع، وباختصار، نحن الذين نخدم المزارعين، مهما اشتغلنا طوال اليوم، ومهما حدث من سوء، فإننا نتعشى طعاماً ساخناً وننام في فراشنا عند حلول الليل، مقابل أنني لم أتم منذ بدء خدمتي لفخامتكم. وإذا لم أنل ذلك الوقت القصير الذي عشناه في بيت دون ديجو دي ميراندا، والجولة التي حظيت بها من بهريز أواني كاماتشو، والذي أكلته وشربته وغمته في منزل باسيليو، لنمت كل الوقت على أرض خشنة تحت العراء، مقيداً بما يسمونه انعدام الرحمة من السماء، وأكلت الجبن

الجفاف وكسر الخبز، شاربًا الماء من النهرات والينابيع التي تصادفنا في هذه
المجاهل التي تمشي في أرجائها.

قال دون كيخوتى:

– أعترف أن كل ما تقوله، سانشو، قد يكون حقًا، فما يبدو لك أنى أدین به
لك أكثر مما كان يدفعه نظير عملك تومی كارأسكو؟

قال سانشو:

– فيما يبدو لي أن ريالين أكثر تصيفهما فخامتك كل شهر تكون قد أجزلت لي
الأجر، هذا فيما يتعلق بمرتب عملي، لكن فيما يخص ترصيتي مقابل كلمة
فخامتكم ووعدك المضروب لي بإعطائي حكم ولاية أو جزيرة، فمن العدل أن
تصيف فخامتكم ستة ريالات ليصل مجموع الأجر النهائي إلى ثلاثين ريالاً.

أجاب دون كيخوتى:

– لا بأس وأوافق، واحسب، سانشو، منذ خروجنا أجرك عن خمسة وعشرين
يومًا حتى آخر فلس، وادفع لنفسك ما تستحقه.

قال سانشو:

– ويلي! إن فخامتكم قد أخطأ جدًّا في هذا الحساب، لأنه فيما يخص الوعد
بالحكومة فإن علي فخامتكم أن تدفعه منذ أن ضربت لي هذا الوعد.

سأل دون كيخوتى:

– ومنذ متى، سانشو، وعدتك بذلك؟

رد سانشو:

– إذا لم تخنى الذاكرة ينبغي أن يكون منذ أكثر من عشرين سنة بحوالى ثلاثة أيام.

ضرب دون كيخوتى كفاً بكف، وضحك بمزاج منشرح، وقال:

– كيف؟ لم أمش في سيرا مورينا، ولا خلال زمن خرجاتنا، إلا شهرين، بل لم أكد أبلغهما، وأنت تقول، سانشو، إننى وعدتك منذ عشرين عاماً بالحكومة؟ الآن أقول إنك تود أن تستهلك في مرتباتك كل نقودى التى أحفظها معك، وإذا كان الأمر كذلك، وهو يسرك، منذ الآن أعطيها لك، ولتسعد بها، وذلك مقابل أن أرائى متحرراً من ذلك التابع الردىء، وسأمرح ببقائى فقيراً دون فلس. لكن قل لى، أيها الشريك المخالف لكل لوائح حمل الدرود في الفروسية المشاءة، أين رأيت أنت أو قرأت، أن حامل درود لفارس مشاء، قد واجه سيده طالبا منه كذا وكذا لأنى أخدمك، كما تفعل معى؟ اخلع برقع الحياء، اخلعه، أيها السافل والنذل والمسوخ، كل شىء خلع للحياء، عبر الشطر الأعظم من حكاياتك، وإذا وجدت أن أى خادم قد سبق له أن قال ما قلت الآن أو فكرت فيه فواجهنى به، أو خزق به عينى. فلتندر عنان أو قيد رأس حمارك، وعد إلى بيتك، لأن خطوة واحدة منذ الآن لن تخطوها معى إلى الأمام. أوه، ياخاين العيش والملح! أوه، أيها الوغد الخائب! أيها الكائن الذى يحتوى على الدابة أكثر من الإنسان! والآن فى الوقت الذى أريد أن أرفع من شأنك حتى ينادوك يا صاحب السعادة رغم أنف زوجتك تفصل نفسك من الخدمة؟ والآن ترحل، عندما أسير بنية صارمة وقادرة أن أعطيك أفضل ولاية فى الدنيا؟ وفى الختام، كما قلت أنت فى مرات أخرى، ليس العسل... الخ. حمار أنت، وهكذا ينبغى أن تكون، وعلى هيئة حمار ستكون نهايتك مع نهاية حياتك؛ وبالنسبة لى آمل قبل أن يحدث ذلك، أن تقع بلسانك، وتدرك أنك دابة.

كان سانشو ينظر إلى دون كيخوتى محملاً، بينما يصب عليه مثل هذه الإهانات، وأدركه ندم أسال دموعه، وبصوت متألم ومريض قال له:

- سيدى، إنى أعترف من حيث كوني حماراً هذا صحيح، لا ينقصنى إلا الذيل؛ وإذا أردت فخامتكم تركيبه لى فإنى سأساعد على حسن وضعه فى مكانه، وسأخدمك كحمار كل ما تبقى من حياتى. اغفر لى، فخامتكم وتجاوز عن جهلى، واعلم أنى قليل المعرفة، وإذا كنت أتكلم كثيراً فإن هذا يرجع لمرض وليس لشى، لكن الخطأ يتدبر والرب يتستر.

- سوف تدهشنى سانشو إن لم تخلط كلامك بالأمثال، والآن، خيراً، أنا أسامحك بشرط أن تصلح نفسك، وأن تكون من الآن فصاعداً أقل صداقة مع منافعك الشخصية، وعليك أن تفتح قلبك، وارفع من روحك المعنوية، منتظراً إنجاز وعدى، الذى إن تأخر فإنه لا يستحيل.

قال سانشو إنه سيتصرف هكذا وسوف يستخرج من ضعفه قوة.

وخلال هذا دخلا غابة الحور، وأراح دون كيخوتى جسده عند قدم شجرة دردار، وسانشو عند قدم شجرة زان، لأن مثل هذه الأشجار دائماً لها أقدام وليس لها يد. أمضى سانشو الليلة فى معاناة، لأن أثر ضرب العصا يُحسُّ أكثر مع الراحة، وقضاها دون كيخوتى فى ذكرياته المتواصلة، لكن مع كل هذا، غلبهما النعاس، وعند طلوع الفجر واصلا طريقهما بحثاً عن شواطئ نهر الإبرو الشهير، حيث حدث لهما ما سوف تتم حكايته فى الفصل التالى.

الفصل التاسع والعشرون

عن المغامرة المشهورة للسفينة المسجورة

بخطاهما المعدودة، وبعد يومين من خروجهما من غابة الحور، وصل دون كيخوتى وسانشو إلى نهر الإبرو، وكانت رؤيته سرورًا عظيمًا لدون كيخوتى، لأنه تأمل فى بهاء شاطئيه، وصفاء أمواجه، وهدوء مجراه، ووفرة تنفقه الكريستالى، حتى إن مشهده البهيج جدد له ألف فكرة رائقة. وبصفة خاصة راح وجاء فيما سبق له رؤيته فى كهف مونتيسينوس، ورغم أن قرد الأسطى بدرو قال له إن شطرًا من تلك الأشياء كان حقيقة، والشطر الآخر كان زائفًا، فقد عول على ما هو حقيقى أكثر مما هو زائف، وتمامًا عكس سانشو، الذى أخذ كل شىء على أنه زائف. وبينما هو فى هذا رأى سفينة صغيرة دون مجاديف أو حبال لشرع، وكانت مربوطة إلى جذع شجرة بالشاطئ. نظر دون كيخوتى فى كل اتجاه فلم يقع بصره على أى شخص هناك، وفى الحال هبط من على روثينانتى، وأمر سانشو بالترجل أيضًا عن حماره، وربط الدابتين معًا بشجرة حور أو صفصاف كانت هناك. سأله سانشو عن سبب هذا الترجل المفاجئ، وعن ربط الدابتين معًا، أجاب دون كيخوتى:

- اعلم، سانشو، أن هذه السفينة الموجودة هنا، مباشرة ودون مهرب، تنادىنى وتدعونى للدخول فيها والذهاب بها لإنقاذ فارس أو شخص آخر من كبار القوم فى حالة احتياج وضيق لا بد، لأن هذا أسلوب قصص كتب الفروسية والسحرة التى يتدخلون فيها ويتكلمون، وعندما يكون هناك فارس معمول له عمل، لا يستطيع التحرر منه إلا على يد فارس آخر، حتى لو كان أحدهما

بعيداً عن الآخر ألفى فرسخ أو ثلاثة آلاف، وحتى لو حملوه على سحابة أو هينوا له سفينة لدخولها، وفي أقل من فتحة عين وإغماضتها ينقلونه جواً أو بحراً، حيث شاءوا، وحيث تصبح مساعدته ضرورية، وهكذا، أوه سانشو! هذه السفينة موضوعة هنا لهذا الغرض؛ وهذا حق تماماً، كما أننا الآن في وضوح النهار، وقبل أن يحدث ذلك اربط الحمار وروثيناتي معاً، وسنتطلق تحت رعاية الله الذي نطلب منه الهداية، ولن أترك الإبحار حتى لو طلب ذلك مني الرهبان الحفاة.

أجاب سانشو:

- إذن، هكذا يكون، وفخامتكم يجب في كل خطوة الدخول فيما... ولا أدرى عما إذا كنت أسميه ترهات، ومع ذلك لا أملك إلا الطاعة، وإحناء رأس، مطيعاً المثل: افعَل كل ما يأمرُك به سيدك واجلس معه على المائدة. لكن مع كل ذلك، وفيما يتعلق بإرضاء ضميري، أحب إعلام فخامتكم، أنه يبدو لي أن هذه السفينة ليست من السفن المسحورة، وإنما هي لبعض الصيادين بهذا النهر، لأنهم يصطادون منه أفضل أسماك السابوجاس في العالم.

كان سانشو يقول ذلك أثناء ربط الدابتين، تاركاً إياهما تحت حماية وجوار السحرة، مع نفس يجتاحها الألم. قال له دون كيخوتي ألا يتألم لهجر الحيوانين، فإن من سوف يحملهما في طرق (شاسعة)^(*) وأقاليم لقادر على رزقهما.

قال سانشو:

- لا أفهم هذه الكلمة (شاسية)، بل لم أسمعها طول حياتي.

(*) LONGIN COUS ، نطقها هكذا باللاتينية.

قال دون كيخوتى:

- (شاسعة) ومعناها نائية جداً، وليس عجيباً ألا تفهمها، فأنت لست مجبراً على معرفة اللاتينى، مثل أولئك الذين يدعون معرفته ويجهلونّه.

قال سانشو:

- لقد انتهيت من ربط الدابتين، ماذا علينا عمله الآن؟

أجاب دون كيخوتى:

- ماذا؟ الإبحار بادئين بقطع الحبل الذى يربط السفينة.

وبقفزة دخلها وتبعه سانشو، وقطع الحبل، وأخذت السفينة تبتعد عن الشاطئ شيئاً فشيئاً، وعندما رأى سانشو نفسه وقد ابتعد حوالى مترين، بدأ يرتعد، خائفاً من غرفه، لكن لا شيء ألمه أكثر من سماع حماره يقضم حبل قيده، وروثينانتى يناضل من أجل الفكاك، قال لسبيده:

- الحمار ينهق متألماً لفراقنا، وروثينانتى تحاول فك قيودها كى تلقى بنفسها وراءنا. أوه، أيها الصديقان الغاليان، ابقيا فى سلام، والجنون الذى يبعدنا عنكما، حين يتحول إلى إحباط سوف يعيدنا إليكما.

ومع هذا بدأ فى البكاء بمرارة، حتى إن دون كيخوتى حانقاً ومغضباً قال له:

- مم تخاف، أيها الكائن الجبان؟ مم تبكى بقلب من زبدة؟ من يطاردك أو يؤذيك، يا صاحب نفسية الفأر المنزلى؟ أو ماذا ينقصك وأنت فى وسط أحشاء الخير الوفير؟ وهل بالصدفة، تسير الآن حافياً فوق أرض خشنة، ولست جالساً على بساط من الخشب مثل أمير بدوقية فوق الجرى الهادئ

لهذا النهر اللطيف، حيث سوف نخرج بعد فضاء محدود إلى البحر اللامحدود؟
لكن كان ينبغي أن نكون قد خرجنا، بعد السير على الأقل سبعمائة فرسخ
أو ثمانمائة؛ وإذا كان معي إسطرلاب أقيس به البعد عن القطب لقلت لك
كم سرنا، أو أننا بالفعل تجاوزنا الخط الاعتدالي الذي يقسم المسافة بين
القطبين مسافتين متساويتين.

سأل سانشو:

- وعندما نصل إلى هذا (الخط)^(*) الذي تقول عنه فخامتكم، كم نكون قد
قطعنا؟

أجاب دون كيخوتي:

- الكثير، لأنه من ثلاثمائة وستين درجة التي تتضمنها الأرض، ماءً ويابسة،
حسب حساب بطليموس، والذي كان أعظم فلكي في علم الكون، نكون
قد قطعنا النصف عند الوصول إلى هذا الخط، الذي ذكرته.

قال سانشو:

- بحق الإله، فخامتكم تحضر لي كشاهد عما تقول شخصاً أجزم كافرًا وداعراً
مع إضافة التبول أو البول^(**) أو ما لا أدري.

ضحك دون كيخوتي من تفسير سانشو لاسم بطليموس، ولفظة **computo**
(حساب)، ولفظة عالم كوني **cosmografo**، وقال له:

(*) الخط بطريقة نطق سانشو للغة.

(**) حساب بطليموس الكوزموغرافي (COMPUTO de PTOLOMEO) del COSMOGRAFO

يمكن تفسير هذه الكلمات الإسبانية إلى داعر وكافر وأجزم كما يرد في الفقرة التالية.

- هل تعرف، سانشو، أن الإسبان ومن يبحرون في قادش للذهاب إلى جزر الهند الشرقية، إحدى الإشارات عندهم على أنهم اجتازوا الخط الاعتدالي الذى ذكرته لك، هى موت القمل فى أجسام جميع من على السفينة، دون أن يبقى لهم منه شىء، بل يختفى من كل المركب ولا يجدونه حتى لو وزنوه لهم بالذهب، وهكذا سانشو نزّه يدك على فخذك، فإذا صادفتك عليه كائنات حية، سوف تخرج من هذا الشك، وإذا لم تجد قملة واحدة فنكون قد اجتزناه.

أجاب سانشو:

- أنا لا أعتقد فى أى شىء من هذا، ولكن مع ذلك سوف أفعل ما تأمرنى به فخامتكم، مع أننى لا أعرف من أجل ماذا ينبغى إجراء هذه التجارب، فأنا أرى بأمر عيني أننا لم نبتعد عن الشاطئ أكثر من أربعة أمتار، ولم ننحرف بعيداً عن حيوانينا بأكثر من مترين، فهنا هى هناك روئيناتى والحمار فى نفس المكان الذى تركناهما فيه، ومن يأخذ زاوية النظر التى آخذها، أقسم بأى شىء أننا لم نتحرك أو نغشى أكثر من خطوات ثملة.

- تحرّ سانشو عما طلبته، ولا تفعل شيئاً آخر، فأنت لا تعرف أى أشياء هى البروج ودوائرها، وما هى الأفلاك ولا خطوط الاعتدال والكواكب ومسالك الفضاء السماوى والأرضى. وإذا عرفت كل هذه الأشياء، أو بعضها، كنت قد رأيت كم من خطوط المدارات قطعنا، وكم من الأبراج رأينا، وكم من الصور تركناها وراء ظهورنا، ومازلنا نتركها الآن، وعد إلى القول أنك تخمن وتصطاد، وأنا أقر أن محك نظيف نظافة ورقة بيضاء وناعمة.

تحسس سانشو فخذية، رابئًا عليهما بيده فى روعة، وفى كياسة وصل إلى المنحنى الأيسر، ورفع رأسه، ونظر إلى سيده، وقال:

— إما التجربة زائفة وإما لم نصل حيث فخامتكم تقول، بل لم نقرب من هناك فرسخًا.

— إذن، ماذا؟ — سأل دون كيخوتى — هل عثرت على بعضه؟

أجاب سانشو:

— بل على (أبعاض) (*)

وهازأ أصابعه غسل كل يده فى النهر الذى تنساب السفينة على صفحته فى هدوء عند منتصف المجرى، دون أن تحركها أية قوى ذكاء سرى، ولا أى ساحر مختبئ، وإنما اتجاه تيار الماء الذى كان حينذاك لينًا ناعمًا.

خلال ذلك، اكتشفا بعض السواقي الكبيرة تعترض مجرى النهر، ولم يكد دون كيخوتى يراها حتى قال بصوت عال لسانشو:

— هل ترى؟ هناك، أوه أيها الصديق! تنكشف المدينة، والقلعة أو الحصن، حيث ينبغى أن يكون هناك فارس محصور، أو ملكة أو أميرة أسيرة، وقد حملون إلى هناك لنجدة المحصور مهما كان.

— بأى شيطان تتحدث فخامتكم عن مدينة أو قلعة أو حصن؟ ألا تلاحظ أن ما ترى ليس إلا سواقي تتصدر النهر، حيث تحرك مطحنا للقمح؟

(*) يجمع سانشو كلمة بعض algo وهى لا جمع لها، كناية عن كثرة ما وجد من قمل فى جسمه.

- اخرس، سانشو، مع أنها تبدو سواقى، فهي ليست سواقى، وقد قلت لك إن السحر يحول ويغير الكينونة الطبيعية لكل الأشياء، ولا أود القول بأن السحر يغيرها من شيء إلى شيء آخر حقيقى، وإنما يظهرها فى صورة غير صورتها، كما أثبتته تجربة تحول دولثينيا، الملاذ الوحيد لآمالى.

خلال ذلك انغمست السفينة وسط التيار، وبدأت تتحرك ليس بنفس البطء الذى تحركت به حتى تلك اللحظة. أصحاب الطاحونة التى تدفعها مياه السواقى، والذين رأوا قدوم تلك السفينة فى النهر، وأنها سوف تدخل فى قواديس التوابيت، خرج بسرعة كثير منهم مع عصى طويلة جدا لإيقافها، وكما قد خرجوا وقد غطاهم الدقيق تمامًا وجوها وملابس، فقد مثلوا منظرًا مفرعًا، صرخوا صرخات عالية قاتلين:

- أيها الرجال بل الشيطانان، أين تذهبان؟ هيا أيها اليائسان، هل تريدان إغراق نفسيكما، وتحويلكما إلى قطع من اللحم داخل تلك العجلات؟
قال دون كيخوتى:

- ألم أقل أنا لك، سانشو، ألم أقل لك عن أننا اقتربنا حيث ينبغى البرهنة على قوة ساعدى؟ انظر كم من الأشرار والأنذال يخرجون للقائى، وانظر كم مستخًا يعترضونى؟ انظر كم من الوجوه القبيحة تتغول علينا . الآن سوف ترون أيها المجرمون!

ونهض على قدميه فى السفينة، وبأصوات عالية بدأ فى تهديد الطحانين، قاتلاً لهم:

- أيها الدنيء الشرير، سيئ الرأى، أطلق السراح وأعط حرية القرار للشخص الذى تضعونه فى هذه القلعة أو ذلك السجن ظلمًا وقهراً، مهما كانت هويته

رفيعة أو ضيعة؛ فأنا دون كيخوتى دى لامانشا، فارس الأسود (وذا لقي)، وأنا الذى هياته السماء لوضع نهاية سعيدة لهذه المغامرة.

وعند قوله هذا أشهر سيفه وأخذ يلوح به فى الهواء ضد الطحانين الذين عند سماعهم ذلك دون فهم هذه السفاهات، شرعوا فى إيقاف السفينة بعصيمهم، وكانت على وشك أن تتلقاها أسنان العجلات فيما بينها.

ركع سانشو طالبًا من السماء إنفاذه من هذا الخطر المحقق، وقد فاض قلبه بالإخلاص فى الدعاء، وقد استجيب لدعائه بفضل حذق وسرعة الطحانين الذين عند اعتراضهم السفينة بعصيمهم الغليظة أوقفوها بطريقة تركتها تتقلب، وتلقى بدون كيخوتى وسانشو فى الماء؛ وقد كان ذلك فى صالح دون كيخوتى الذى كان يجيد العوم مثل إوزة، مع أنه هبط إلى قاع النهر مرتين بسبب ثقل أسلحته، وإذا لم يلق الطحانون بأنفسهم فى الماء، وسحبوها فيما بينهم من الماء، لئلا مصير قرطاجة. وعند وضعهما على البر، يقتلها البلل وليس العطش، ركع سانشو على ركبته ورفع يديه وعينيه للسماء طالبًا فى دعاء طويل وتقى أن يحرره الله معافى من هناك أمام الرغبات الجريئة والتهور لسيده.

وخلال ذلك وصل الصيادون أصحاب المركب الذى حولته عجلات السواقي إلى شطايا، وعندما رأوه محطماً هجموا على سانشو لتعريته، وطلبوا من دون كيخوتى أن يدفع لهم ثمن السفينة، وهذا بهدوء عظيم، كما لم يكن قد حدث أى شىء له، قال للطحانين والصيادين إنه سوف يدفع ثمن السفينة بكل رضا بشرط إطلاق سراح الشخص أو الأشخاص السجناء فى قلعته دون أى تحفظ.

أجاب أحد الطحانين:

- أى الأشخاص أيها الرجل الفاقد للعقل؟ هل بالصدفة تريد إنقاذ وتحرير أولئك الذين يطحنون قمحهم فى طاحونتنا؟

قال دون كيخوتي محدثاً نفسه:

- كفى! سيكون مثل الوعظ في قفر قصر هذا الخيث عن شره، فلن يرتكب
أى فضيلة بالترغيب.

وفى هذه المغامرة، لابد أنه قد وجد ساحرين قويين، أحدهما يوقف محاولات
الآخر. الأول يعد لى السفينة، والثانى يدمرها. فليصلح الله الأمر؛ فكل هذا العالم
طواحين ومؤامرات، كل منها تعاكس الأخرى، إننى لم أعد قادراً على التحمل
أكثر! ورافعاً صوته، واصل القول، ناظرًا إلى السواقي:

- أيها الأصدقاء، مهما كنتم، ستبقون فى ذلك السجن محبوسين، فغفرانكم،
فلتعاسى ونكتبكم لا أستطيع إخراجكم من محبسكم؛ فهذه المغامرة تنتظر
فارساً آخر حفظت له.

بعد قوله هذا اتفق مع الصيادين، ودفع ثمنًا للسفينة خمسين ريالاً، أخرجها
سانشو فى مزاج متعكر ودون رضا قاتلاً:

- هذا المبلغ مقابل سفيتين كهذه، هو إلقاء للنقود فى قاع النهر.

كان الصيادون والطحانون فى غاية العجب، ناظرين إلى هذين المخلوقين
الخارقين للعادة، وعلى ما يبدو أنهم ينتمون إلى جنس بشرى آخر، ولم يصلوا إلى
فهم عبارات وأسئلة دون كيخوتى التى كان ينطق بها، من ثم، نظروا إليهما
باعتبارهما اثنين من المجانين، وبهذا عاد الطحانون إلى سواقهم، والصيادون إلى
مأواهم، وعاد دون كيخوتى وسانشو إلى دابتيهما بقصد أن يصيرا دابتين تدبان فى
الطريق، وكانت تلك نهاية مغامرة المركب المسحور.

الفصل الثلاثون

ما راضت به دون كيخوتى صيادة جميلة للحيوانات البرية

وصل كلاهما فى هيئة سيئة إلى حيوانيهما واجدين فارسًا وخادمًا، وبصفة خاصة سانشو، الذى كان يجرح الروح منه الاقتراب من سيالة النقود، حيث كان يبدو له أنهم يستخرجونها من حبة عينه. أخيرًا، امتطيا الدابتين، ودون تبادل كلمة ابتعدا عن النهر المشهور، حيث دون كيخوتى دفين غرامياته وفكره فيها بينما سانشو يفكر فى ترفيته للحكومة، وفى ذلك الحين بدت له بعيدة عن آماله، لأنه، مع كونه عيبًا، فإن إدراكه لا يخفى عليه أن أفعال سيده كلها أو معظمها هى ترهات، وكان يفتش عن حجة تجعله يفلت ويعود إلى بيته دون حسابات أو وداع، لكن الحظ أمر بأشياء تخالف مخاوفه كثيرًا.

من ثم، فقد حدث فى اليوم التالى عند غروب الشمس الذى وافق الخروج من غابة، حينما مد دون كيخوتى بصره فى مرج أخضر، وفى آخره رأى بعض الناس، وعندما وصل قريبًا منهم عرف أنهم صيادون يستخدمون الحيوانات الجارحة فى صيدهم. اقترب أكثر، وبينهم رأى سيدة بهيئة الجمال على حمار مزين أو فرس رهوان شديد البياض، مكلل بأكاليل الغار الخضراء، ومقعد سرجه من الفضة. والسيدة نفسها كانت ترتدى ثوبًا أخضر، فى بهاء وثراء، بل هى البهاء نفسه. فى يدها اليسرى كانت تحمل صقرًا، إشارة فهم منها دون كيخوتى أنها سيدة عظيمة ومعظمة من كل هؤلاء الصيادين؛ وكما كان ذلك حقيقيًا، هكذا تكلم إلى سانشو:

- إجر، سانشو يا ابني، وقل لهذه السيدة ذات المهر الرهوان والصقر بأنني فارس
الأسود، وأقبل يدي حسنهما العظيم، وإذا عظمتها أعطيتني تصريحًا، سأتوجه
إليها لتقبيلهما وخدمتهما بقدر ما تسعى قوتي، وبقدر ما تأمرني سموها.
وانظر، سانشو، في طريقة كلامك، واعمل حسابك ألا تحشر أي مثل من
أمثالك خلال تلك السفارة.

أجاب سانشو:

- ترون في سانشو من يلتبس في الكلام! هل أنا من يفعل ذلك؟ هذه ليست أول
سفارة أحملها إلى سيدات عظيمات عاليات المقام في هذه الحياة!
رد دون كيخوتي:

- إذا لم تكن السفارة التي حملتها إلى السيدة دولثينيا، أنا لا أعرف أنك حملت
غيرها، على الأقل أثناء خدمتك لي.

أجاب سانشو:

- هذا حق، لكن من يدفع جيدًا لا تعز عليه الغوالي، وفي بيت عامرة مخازنه، يعد
العشاء بسرعة، أحب القول إنه بالنسبة لي لا ينبغي القول لي ولا تنبهي
لشيء، "فإنني السبع صنع في يدي، والههم جاري على".

قال دون كيخوتي:

- أثق في ذلك، سانشو، اذهب بالسعد، وليرشدك الله.

تحرك سانشو، متقدمًا بحماره، ووصل حيث الصيَّادة الجميلة، وترجل،
وواجهها جاثيًا، وقال لها:

— سيدتى الجميلة، ذلك الفارس الذى يبدو هناك، واسمه فارس الأسود، هو سيدى، وأنا خادم له، ويسمونى فى بيتى سانشوبانثا. وفارس الأسود ذاك، والذى كان منذ قليل الفارس صاحب الصورة الحزينة، يرسلنى لأبلغ عظمتكم، هل تفضلين عليه بمنحه التصريح، إذا وافق مشيئتكم، ليأتى ليضع رغبته فى خدمة سموك الأسمى، وهمالك الأعلى، موضع التنفيذ دون أى أمر آخر، وذلك كما يقول هو وأعتقد أنا، فإن أعطيت التصريح كان ذلك تفضلاً عليه ورفعة له، وسيستقبل إنعاماً يشار إليه بالبنان، ورضاً.

أجابت السيدة:

— بكل تأكيد أيها الحامل للدروع، لقد أدت السفارة كما ينبغى فى هذه السفارات. انهض من الأرض، فإن حامل دروع لفارس عظيم مثل صاحب الصورة الحزينة الذى نعرف هنا من أخباره الكثير، ليس عدلاً أن يجثو على الأرض. انهض، أيها الصديق، وقل لسيدك فليحضر على الرحب والسعة كى أخدمه ويخدمه معى الدوق زوجى، فى بيت للهو، فملكه هنا.

نهض سانشو، مذهولاً من جمال السيدة الطيبة، ومن فرط تربيتها وأدبها، وذهل أكثر مما قالته عن معرفة أخبار سيده صاحب الصورة الحزينة، وأنها إذا لم تكن أطلقت عليه فارس الأسود، فلأن هذا اللقب جديد جداً. سألته الدوقة، ولم يكن يعرف لقبها بعد:

— قل لى، أيها الأخ الحامل للدروع، سيدك هذا، أليس ذلك الذى طبعت قصته، ويسمى الشريف الهمام دون كيخوتى دى لامانشا، والذى يتخذ سيده للروح، تلك المسماة دولثينيا دل توبوسو؟

أجاب سانشو:

- هو نفسه يا سيدتي، وذلك التابع له الذى يتحرك أو ينبغى أن يتحرك فى القصة، والذى يسمونه سانشو بانثا هو أنا، إذا لم يكونوا قد بدلوا طفلاً بي فى مهدي، أقصد فى المطبعة.

قالت الدوقة:

- بكل هذا أبتهج كثيراً. اذهب، أيها الأخ بانثا، وقل لسيدك إنه نعم الزائر، ونعم المستضاف فى كل ولاياتي، ولا شيء أستطيع استقباله يعطينى سروراً أكثر من استقباله.

سانشو، بهذه الإجابة السارة فى انشراح أعظم، عاد إلى سيده، وحكى له كل ما قالت له السيدة العظيمة، مرتفعاً بجمالها العظيم، وملاحظتها وتهذيبها، إلى السماوات العلى، مستخدماً ألفاظه الريفية الخشنة. دون كيخوتى تهادى على سرجه، وثبت قدميه فى الركاب، وأراح الخوذة، واندفع بروثينانتى، وفى حماس رقيق مضى لتقبيل يدي الدوقة، التى أمرتهم بالنداء على الدوق زوجها، وحكت له، أثناء وصول دون كيخوتى، السفارة بحذافيرها، والاثتان لأنهما قد قاما بقراءة الجزء الأول من هذه القصة، وقد فهمها منها الفكاهة الترهاتية لدون كيخوتى، ومع سرور فائق ورغبة لمعرفة، انتظراه، بغرض متابعة فكاهاته ومماشاته فى كل ما يقول، ومعاملته باعتباره فارساً مشأاً الأيام التى سيقاها معهم، مع كل الشعائر والاحتفالات المعتادة فى كتب الفروسية، والتى سبق لهما قراءتها، والتى كانا مغرمين بها.

وبينما هما فى هذا، أقبل دون كيخوتى، مرفوع الخوذة، معطياً إشارات أنه بصدد الترجل، واقترب منه سانشو لمعاونته، لكنه كان بالغ التعاسة، فعند ترجله من على حماره اشتبكت قدمه بأحد حبال البردعة، بطريقة عجز فيها عن

تخليصها، وعلى العكس بقى معلقاً منها، وفمه و صدره على الأرض. ودون كيخوتى الذى لم يتعود على الترجل دون أن يمك له أحدهم الركاب، وكان يظن أن سانشو ممسكاً به، ألقى جسمه فجأة، وحمل خلفه ركاب روثينانتى الذى لا بد أنه كان قد ربط دون تثبيت للحزام، وهكذا وصل السرج معه إلى الأرض، وليس دون خجل قد غمره، ولعنات كثيرة من بين أسنانه للتعيس سانشو الذى مازالت حتى تلك اللحظة قدمه مشتبكة فى ذلك الحبل الذى يستخدم لقيد الحمار. أمر الدوق صياديه بأن يهرعوا إلى الفارس وإلى خادمه، وهؤلاء أنهضوا دون كيخوتى مضطرباً من سقطته، وفى مشية أعرج عاناها بقدر ما استطاع تقدم ليهبط بركبتيه أمام السيدين، لكن الدوق لم يقبل ذلك بأية حال، وعلى العكس ترجل عن جواده، ومضى ليحتضن دون كيخوتى، قائلاً له:

- يثقل على أيها السيد الفارس صاحب الصورة الحزينة، أن أول مرة لكم فى أرضى تخرج بهذا السوء الذى شوهد، لكن إهمال حامل الدروع يمكن أن يؤدي إلى أحداث أسوأ.

أجاب دون كيخوتى:

- ما نلته من رؤيتكم أيها الأمير الشجاع، يجعل من المستحيل أن يقع شئ سئ، حتى لو أن سقطتى لم تتوقف حتى هاوية الكون؛ لأنه لو حدث سوف تنهضنى وتخلصنى رؤيتكم. خادمى، لعنه الله، يفك لسانه أفضل من ربطه وتخزيه للسرج حتى يكون مثبتاً، لكن فى أى وضع وجدت واقعاً أو ناهضاً، راجلاً أو ركباً، سأظل دائماً فى خدمتكم وفى خدمة سيدتى الدوقة، قرينتكم الكريمة، والسيدة ذات الجدارة فى الجمال، والأميرة الكونية للدماثة.

قال الدوق:

– عفواً سيدى دون كيخوتى دى لامانشا، فما دمت وجدت سيدتى دولثينيا دل توبوسو لا ينبغي الثناء على أى جمال آخر.

فى هذه اللحظة كان قد تم تحرير قدم سانشو بانثا من العقدة، ولوجوده هناك قريباً، قبل أن يجيب سيده، قال:

– لا يمكن إنكار، بل ينبغي التأكيد أن سيدتى دولثينيا دل توبوسو جميلة جداً، ولكن حيث لا يقع الوهم، يظهر الأرنب البرى أمام الصياد، أى أود القول أن ذلك الذى يسمونه الطبيعة، حسبما سمعت، مثل صانع الفخار، الذى يصنع أكواباً من الطين، والذى يصنع كوباً جميلاً أيضاً يقدر على صنع اثنين، وثلاثة، ومائة. أقولها لأن سيدتى الدوقة لا تقل جمالاً عن سيدتى دولثينيا دل توبوسو، وأقسم على ذلك.

التفت دون كيخوتى إلى الدوقة وقال:

– عظمتكم تخيلى أنه لم يحدث أن كان لفارس مشاء حامل دروع بمثل ثرثرة وتظرف حامل دروعى، وهو سوف يفوز علىّ يقيناً، إذا شاءت عظمتكم السامية أن أكون فى خدمتها.

وعلى هذا أجابت الدوقة:

– أن يكون سانشو الطيب ظريفاً أمر أقدره كثيراً، لأن فى ذلك إشارة إلى فطنته؛ فالظرف وخفة الدم والملاحظة يا سيد دون كيخوتى، كما يعلم فخامتكم تماماً، لا تتأسس على ذكاء طائش، من ثم، فإن سانشو الطيب ظريف ومليح، ومن هذا المنطلق أراه فطناً بكل يقين.

أضآف دون كىخوتى:

- وثرثآرآ .

آال الدوق:

- كآلم كثر مآل كآلم أفضل؁ لآن كثرآ من الطرف الظرففة لا يمكن قولها بكلمآت قليلة؁ وحقى لا يضع علينا الوقت فى الكآلم؁ فلىفضل الفارس العظىم صآب الصورة آزىنة ...

قآطعه سآنشو:

- فارس الأسود؁ على سموكم تلقىبه بهذا؁ آىآ لم تعد هناك صورة آزىنة؛ لآن الصورة صآرت تنسب للأسود .

- آقول فلىفضل فارس الأسود إلى قلعة لى قرىبة من هنا؁ حتى آقوم بالترآىب اللآق بمآل شآصكم السآمى؁ والذى آعدت آنا والدوقة الترحىب فىها بكل الفرسان المشآىن الذىن يصلون إليها.

آلال ذلك قام سآنشو بتعدىل السرج وربطه آىذآ فوق روآىنآتى؁ وصعد فوقه دون كىخوتى؁ وآمتطى الدوق جواءآ جمىلآ؁ وسآر مهر الدوقة فى الوسط؁ وآآجهوا إلى القلعة. آمرت الدوقة سآنشو أن يصآبها؛ لأنها كآنت تآذ بلا آدود لطرآفه الذكىة . لم يكن عليها أن ترجو سآنشو؁ آىآ آشر نفسه آآآل الثلاثة؁ وصآر رآبعهم فى آآوار مع سرور عظيم من آآنب الدوقة وآل دوق؁ الذىن آعتبرآ الترحىب بالفارس المشآىء؁ وذلك آآآدم الممشى آظآ كبرىآ ما بعده آظ.

الفصل الحادى والثلاثون

يحكى أشياء كثيرة وعظيمة

كانت البهجة التى حملها سانشو معه فى الذروة عندما رأى نفسه منفردًا بالدوقة، فقد تصور أنه لا بد أن يجد ما سبق أن وجد فى بيت دون دييجو وبيت باسيليو، فهو دائماً مغرم بالحياة المرفهة، وكان ينتهز الفرصة كاملة فى كل مرة، ومتى يتاح له فى أمر استقبال تلك الحياة بكل تدليلها له.

وتحكى القصة أنهم وصلوا إلى بيت اللذة أو القلعة، حيث تقدمهم الدوق، وأعطى أوامر إلى كل الخدم بالطريقة التى ينبغى عليهم اللجوء إليها فى معاملة دون كيخوتى، الذى كان قادماً فى صحبة الدوقة، من ثم عند اقترابه من أبواب القلعة، خرج فى الحال منها خادما استقبل أو سائسان يرتديان ثياباً تخب فى أقدامهما، يطلقون عليها (النهضة)^(١) من حرير شديد النعومة قرمزي اللون، والتقطا ذراعى دون كيخوتى دون أن يدرى كيف من سرعة المفاجأة، وقالوا له:

- هيا عظمتكم لإنزال سيدتنا الدوقة من على مهرها.

حاول دون كيخوتى، وتبادلاً جدلاً مهذباً طويلاً، بالفعل انتصر عناد الدوقة، ولم تقبل النزول أو الترحل عن مهرها إلا بين ذراعى الدوق، قائلة بأنها ليست جديرة بتكليف مثل ذلك الفارس العظيم عناء هذه الحمولة التى لا جدوى منها. فى النهاية، خرج الدوق لإنزالها، ليدخلوا فى فناء عظيم، واقتربت وصيفتان، وألقيا

(١) النهضة levantar نوع من الثياب الطويلة التى كانوا يرتدونها فى منازل الأثرياء.

فوق كتفى دون كيخوتى عباءة وردية، من أرقى أنواع النسيج وأرقه، وفى الحال توجت كل ممرات الفناء بالخدم من حاشية الدوق والدوقة، قائلين بأصوات عالية:

- على الرحب والسعة زهرة وزبدة الفرسان المشائين!

وكلهم أو معظمهم يهرفون أمواه أوانى عطر على دون كيخوتى، وعلى الدوق والدوقة، ومن كل هذا دهش دون كيخوتى، وكان ذلك أول يوم آمن فيه من كل وبكل شيء أنه فارس مشاء حقيقى، وليس وهماً من أوهام الخيال، وذلك عندما رأى نفسه يعامل بنفس الطريقة التى سبق له قراءتها عن معاملة الفرسان المشائين فى العصور السالفة.

سانشو عند خذلانه لحماره تاركاً له قبل الدخول للقلعة ملتصقاً بالدوقة، قرصه ضميره، فاقترب من سيدة محترمة، كانت مع أخريات خرجن لاستقبال الدوقة، وبصوت خفيض قال لها:

- أيتها السيدة جونثالث، أو كما يكون ظرف سماحتكم ...

- السيدة رودريجيث دى جريغالبالبا، هذا اسمى (أجابته القهرمانه)، بماذا تأمر أيها الأخ؟

- كنت أود أن تفضلنى على بالخروج إلى باب القلعة، حيث ستجدين حماراً بنى اللون؛ وسماحتكم بورك فيك، تأمرين بوضعه فى الحظيرة؛ لأنه المسكين جبان قليلاً، ولا يمكنه البقاء وحيداً بأية حال.

أجابته القهرمانه:

- إذا كان السيد فطناً مثل صبيه^(٦)، فهذا هو لنا الفلاح! انطلق، أيها الأخ، على الطائر المنحوس، أنت ومن أتى بك، وانظر بنفسك فى شأن حمارك، فنحن سيدات هذا البيت، لسنا متعودات على مثل تلك المهمة.

(٦) السيد هنا سانشو والصبى هو الحمار.

أجاب سانشو:

- في الحقيقة إنى سمعت من سيدى يقول، وهو أبو عريف القصص، حاكياً قصة لانتاروتى:

عندما جاء من بريتانيا

كانت هناك سيدات يعالجنه

وسيدات يعالجن جواده الهزبل

ولخصوصية حمارى لا أقايضه بجواد السيد لانتاروتى.

أجابت القهرمانه:

- أيها الأخ، إذا كنت راوية فادخر طرائفك حيث ترى وحيث يدفعون لك، أما من ناحيتى فلن تقبض أكثر من وضع إصبعى فى عينك.

أجاب سانشو:

- أنت غنية بسنوات عمرك، فلن ينقصها ما تدفعين^(*).

قالت القهرمانه وقد اشتعلت تماماً من الغضب:

- يا ابن الداعرة، إذا كنت عجوزاً أو لم أكن، فإن عند الله الحساب، وليس عندك أيها الخبيس ذو الرائحة الثومية.

قالت هذا بصوت مرتفع لدرجة أن سمعتها الدوقة، فالتفتت لتراها هائجة محتقنة العينين، فسألتهما عن تتشاجر معه، فأجابت السيدة:

(*) إشارة إلى شيخوختها.

- هنا مع هذا الرجل الطيب، الذى طلب منى فى إبحاح الذهب كى أضع فى الحظيرة حماراً له عند باب القلعة، معطياً لى مثلاً لمثل هذا الأمر لا أدرى أين، من أن سيدات عاجلن لانتاروتى ما، وأخريات جواده، وفوق هذا بعبارات حسنة أطلق على لقب العجوز.

أجابت الدوقة:

- لو قيل لى كنت اعتبره إهانة، وأكثر، أى شىء أفضع يمكن أن يقال لى؟
وتكلمت إلى سانشو:

- اعترف أيها الصديق سانشو، أن السيدة رودريجيث فى غاية الشباب، وأن حمارها^(١) هذا ترتديه لمقامها وليس لمر السنين.
أجاب سانشو:

- حرمنى الله من السعادة مابقى من أيام عمرى إذا كنت بلغت هذا القول، وأن ما قلته كان بسبب ما أكنه من حب كبير لحمارى الذى لم يظهر لى أن أوصى عليه شخصاً أكثر رحمة وبراً من السيدة رودريجيث.
دون كيخوتى، الذى كان يسمع هذا، قال له:

- هذا الكلام يليق بهذا المكان؟

أجاب سانشو:

- سيدى، كل واحد عليه أن يتكلم عن ضروراته حيثما كان، هنا تذكرت الحمار، وهنا تحدثت عنه، وإذا كنت فى الحظيرة تذكرته لتكلمت هناك.

(١) الخمار هنا شعرها الأبيض.

وعلى هذا علق الدوق:

- سانشو مصيب جداً، ولا ينبغي إدانته في شيء؛ وبالنسبة للحمار سيطلب العناية به، ولا تحمل هماً سانشو، فستتم معاملته مثلك تماماً.

بهذه العبارات، كان سانشو مستظرفاً من الجميع إلا من دون كيوخوتى، وقد صعدا القلعة، وأدخلا دون كيوخوتى فى صالة مبطنة بستائر بديعة جداً، مشغولة بالذهب، فوق قماشها الإستبرقى ست وصيفات، خلعن عنه سلاحه، وقمن بخدمته، وكلهن حاذقات قد وقع تحذيرهن من الدوق والدوقة بما يجب أن يعملنه وما لا يجب، وإخطارهن بكيفية معاملة دون كيوخوتى، حتى يتخيل ويرى معاملته فارساً مشأاً، وبعد خلع عدته بقى دون كيوخوتى فى سراويل ضيقة ومعطف من الجلد، بنحافته الجافة، وطوله الممتد، وفكيه اللذين يقبل أحدهما الآخر من الداخل؛ صورة إذا لم تعمل الوصيفات حساباً لتجنب الضحك (وهذا كان من الأوامر الدقيقة التى أعطاهما لهن الدوق والدوقة) لانفجرن ضاحكات.

طلبن منه أن يستسلم للتعري بخلع ملابسه، حتى يلبسنه قميصاً، لكنه لم يوافق قط، قائلاً إن الأمانة كانت تبدو دائماً فى سموها بين الفرسان المشائين، مثلها مثل الشجاعة. ومع ذلك، قال لهن أن يعطين القميص لسانشو، واختفى عن أنظارهن معه فى غرفة، حيث وجد سريراً جميلاً، وتعري، وارتدى القميص، وعندما وجد نفسه منفرداً مع سانشو، قال له:

- قل لى أيها الوغد (المودرن)، والأحمق (القديم)، هل يبدو لك طيباً أن تمين سيدة بمثل هذه الأصلة والجدارة بالاحترام؟ هل كانت هذه أوقات تتذكر فيها الحمار؟ أو هل هؤلاء السادة يصلحون لحل مشاكل الدواب بينما

يعاملون أصحاب الدواب بكل هذه الرقة والكرامة؟ بحق الله، تمالك نفسك، ولا تكشف عيوبك الكامنة، بطريقة ترسم في الإدراك صورتك الريفية المنسوجة من خيط غليظ معيب. تأمل، أيها الآثم، في نفسك، فكلما ازدادت رفعة السيد اتخذ خدمًا ذوى شرف وأولاد ناس، وواحدة من الميزات التي يتفوق بها الأمراء عن باقي البشر، أنهم يخدمون من خدم في مثل رفعتهم. ألا تعلم، أيها المنكود لنفسك، وسوء الحظ لي، أنهم إذا رأوك ريفياً بمثل هذه الخشونة أو أحمق يستظرف نفسه، سوف يفكرون أنى صاحب مظهر خداع، وفارس زائف يبطن غير ما يظهر. لا، لا، أيها الصديق سانشو، تجنب هذه العقبات غير اللاتقة؛ فإن من يتعثر في الثرثرة أو التطرف عند أول عشرة يسقط ويؤخذ كوغد تعس. اكبح جماح لسانك، واجتر الكلمات مرات قبل أن تخرج من فمك، واعلم أننا وصلنا إلى مكان، بفضل الله وقوة ساعدي، علينا أن نخرج منه فائزين بقداح الشهرة والثروة.

وعده سانشو مخلصاً أن يخيط فمه أو بعض لسانه، قبل أن يتكلم بكلمة لا توافق الغرض، ولا تكون موضع اعتبار، تماماً مثلما يأمره، وعليه ألا يحمل همّاً من هذه الناحية؛ لأنه لن يكشف أحد عنهما حقيقة عن طريقه هو شخصياً.

ارتدى دون كيخوتي ملابسه، ووضع سيفه في حزامه، وألقى على كتفه العباءة الوردية، طرح على رأسه غطاء من الحرير الأطلس الأخضر، قدمته له الوصيفات، وبهذا التزين خرج إلى الصالة الكبرى، حيث وجد الصبايا واقفات على هيئة جناح، تساوى عددن في اتجاه مع عددن في الاتجاه الآخر، وكلهن مائلات لصب الماء على يديه، الأمر الذي يفعله بكل إجلال وتوقير شعائري. وهنا وصل

اثنا عشر خادماً ورئيس خدم لحمله لتناول الطعام، فسادة القلعة كانوا بالفعل فى انتظاره. أحاطوا به ممتلئاً بالزهو والجلال، يقودونه إلى صالة أخرى، حيث كانت منضودة مائدة ثرية بها فقط أربعة مقاعد معدة. الدوق والدوقة تقدا إلى باب الصالة لاستقباله، ومعهم قسيس خطير المكانة من هؤلاء الذين يحكمون بيوت الأمراء، من هؤلاء الذين لأنهم لم يولدوا أمراء لا يصيبون فى وعظ من هم أمراء كيف يكونون أمراء، من هؤلاء الذين يودون أن تقاس عظمة العظماء بصرامة نفوسهم، من هؤلاء الذين لرغبتهم أن يُظهروا من يحكمونهم محدودين، يحولونهم إلى يؤساء، من هؤلاء، أقول، كان يجب أن يكون رجل الدين الخطر، والذي خرج متجهماً مع الدوق والدوقة لاستقبال دون كيخوتى. قاموا بألف لمحة تهذيب، وفى النهاية، أخذوا دون كيخوتى بينهما، واتجها إلى المائدة. دعا الدوق دون كيخوتى لتصدر المائدة، ورغم أنه رفض ذلك، إلا أن إلحاح الدوق كان كبيراً، فكان لزاماً عليه أن يتصدرها، وواجهه القسيس وجلس الدوق والدوقة على الجانبين.

كان سانشو حاضراً كل ذلك مستبلاً ومذهولاً من رؤية التكريم الذى يقدمه الأميران لسيدته، وعند رؤيته كثرة الشعائر الاحتفالية، والمجاملات التى دارت بين الدوق ودون كيخوتى كى يجعله يجلس على رأس المائدة، قال:

- إذا سموكما أعطيتماني تصريحاً، فسوف أحكى لكما حكاية وقعت فى قريبتى فيما يتعلق بالجلوس هذا على المائدة.

لم يكذب يقول ذلك حتى ارتعد دون كيخوتى، معتقداً أنه سوف ينطق ببلغو وسفاهة. نظر إليه سانشو، وفهمه، وقال:

- لا تخف فخامتكم، سيدى، من أنى سوف أخالف الوصية أو أقول شيئاً لا يناسب، فلم أنس النصائح التى قدمتها لى منذ قليل، حول الكلام كثيره أو قليله، طيبه أو سيئه.

أجاب دون كيخوتى:

- أنا لا أتذكر شيئاً، سانشو. قل ما تشاء مادمت أسرعرت فى الانتهاء من قوله.

قال سانشو:

- إذن، ما أود قوله، حقيقى، فحضور سيدى دون كيخوتى لن يدع لى مجالاً للكذب.

أجاب دون كيخوتى:

- بالنسبة لى اكذب ما شئت، سانشو، فلن أتعرض لك، لكن انظر فيما سوف تقول.

- لقد نظرت جيداً وأعدت النظر، فإن ما يكرر النظر فيه يخرج دون عثرة، كما سوف يُرى فى الأداء.

قال دون كيخوتى:

- سيكون من الخير أن يأمر عظمة الدوق والدوقة بطرد هذا الأبله من هنا، حتى لا يتفوه بألف من الترهات.

قالت الدوقة:

- وحياء الدوق، لا تدعه يبعد عنى ولو لحظة، فأنا أحبه كثيراً، لأنى أعرف أنه فى غاية الفطنة.

قال سانشو:

- عاشت قداستكم أيامًا من الكياسة، من أجل المصدقية التي تحملينها نحوى، وإن كنت خالى الوفاض منها. والحكاية التي أود قولها هي: استضاف^(١) أحد أعيان قريتي، وهو غنى جدًا ومشهور، لأن أصله من لوس ألأموس دى مدينة ديل كامبو، وتزوج من دونيا مينشيا دى كينيونس، وكانت ابنة دون ألونسو دى ماريون، فارس نظام سانتياجو، الذى غرق فى لا هيِّرا دورا^(٢)، والذى بسببه كانت تلك المشاجرة منذ سنوات بقريتنا، وحسب إدراكى، شارك سيدى دون كيخوتى فيها، حيث خرج توماسيو جريِّجا، الشقى ابن بالباسترو الحداد... أليس حقيقياً كل هذا أيها المجل سيدى؟ قلها بحق حياتك، حتى لا ينظر إلى هؤلاء السادة على أنى ثرثار كذاب.

قال القسيس:

- حتى الآن أنظر إليك على أنك ثرثار أكثر منك كذابًا، لكن من الآن فصاعدًا لا أدرى كيف سأنظر إليك.

- أنت، سانشو، تعطى شواهد كثيرة وإشارات، تجعلنى لا أستطيع أن أترك الاعتراف بأنك تقول الحقيقة. استمر، واختصر الحكاية، لأنك فى طريق من لن ينتهى فى يومين.

(١) ميناء قريب من مالقة، حيث وقع غرق لعدة سفن كان ضحاياها حوالى ٤٠٠٠ شخص عام

١٥٦٢ م.

(٢) نلاحظ إطناب وإطالة سانشو، فمفعول (استضاف) سيأتى متأخرًا جدًا.

قالت الدوقة:

- ليس عليك اختصارها، لتحقيق البهجة بالنسبة إليّ، وعلى العكس عليك حكايتها بالطريقة التي تعرفها، حتى لو أفضيتها في ستة أيام، وإذا زادت أيام حكايتها ستكون أفضل أيام تمر بحياتي.

واصل سانشو:

- أقول، من ثم، سادتي، إن ذلك الرجل من الأعيان الذي أشرت إليه، والذي أعرفه كما أعرف سادتي، لأن بيته على مرمى حجر من بيتي، استضاف مزارعًا فقيرًا، لكنه شريف.

قال القسيس عند هذا:

- استمر في الحكاية أيها الأخ، فأنت تسلك طريق من لن يتوقف حتى اليوم الآخر.

أجاب سانشو:

- سأتوقف في أقل من نصف الوقت الذي تتوقعه. وهكذا، أقول: عند وصول المزارع إلى البيت عند الداعي، لترقد روحه في سلام، فقد مات، وأمارات أكثر على موته، إنهم يقولون بأنه مارس موتًا ملائكيًا ولم أكن موجودًا عند موته حيث سافرت إلى تمبليكي للحصاد...

- يا بني، بحياتك، عد سريعًا من تمبليكي، ولا تشغلنا بدفن العين الميت، إذا لم تكن تريد عمل جنازات أكثر، وضع نهاية لحكايتك.

أجاب سانشو:

- هذا ما سأفعله، حيث إن الاثنين عند الجلوس على المائدة، ذلك المنظر الذى يبدو لعيني أوضح من أى وقت مضى...

امتلاً الدوق والدوقة بالانبساط من انقباض رجل الدين من تأخير نهاية الحكاية، ومن نموذج القصة الذى يحكى به سانشو قصته، أما دون كيخوتى فكان يأكله الغضب والغیظ.

قال سانشو:

- أقول، وهكذا، عندما كان الاثنان لحظة الجلوس على المائدة، كما سبق لى القول، عاند المزارع العين فى ضرورة جلوسه على رأس المائدة، وعاند العين المزارع كى يتصدر المائدة، لأنه فى بيته عليه أن يأمر فيطاع، لكن المزارع الذى كان يدعى الأدب، لم يقبل قط إلى أن أجلسه العين بالقوة، آخذاً بيديه عنوة من فرط غيظه، قائلاً له: "اجلس أيها الدونء، فحيث أحب أن أجلس أنا، سيصير مقعدى رأس المائدة" هذه هى الحكاية، وفى الحقيقة، أعتقد أن حكايتها هنا ليست بعيدة عن المناسبة.

تقلب على وجه دون كيخوتى ألف لون، كانت تبرق على سمرة بشكل ملحوظ، والدوق والدوقة حبسا الضحكة، لأن دون كيخوتى لن يلبث أن يشتعل غضبه عندما فهم خبث سانشو، ولتغيير مجرى الحديث، وإبعاد سانشو عن مواصلة حكى ترهات أخرى، سألت الدوقة دون كيخوتى عما لديه من أخبار جديدة عن السيدة دولثينيا، وعما إذا كان قد أرسل لها مؤخرًا بعض الهدايا مع بعض المردة أو الأشقياء، فليس من المعقول ألا يكون قد هزم الكثيرين. وعلى هذا أجاب

دون كيخوتي:

- سيدتي، تعاساتي مع أن لها بداية، لكنها لن تكون لها أبداً نهاية. مردة، نعم على الكثير منهم تغلبت، وأرسلت من الأشرار والأشقياء الكثير، لكن، أين لهم أن يجذبوها، إذا كانت مسحورة، ومسخت في صورة أقبح مزارعة يمكن تخيلها؟

قال سانشو بانثا:

- لا أدري، بالنسبة لي تبدو المخلوقة الأكثر جمالاً في العالم، على الأقل في الخفة، وما أعرفه عنها في القفز لا يتيح لألعبان السيرك أن يتميز عليها، وأقسم أيتها الدوقة أنها تقفز من الأرض لتصير فوق الحمار في قفزة واحدة، كما لو كانت قطعاً.

سأل الدوق:

- هل رأيتها، سانشو، وهي مسحورة.

أجاب سانشو:

- كيف لم أرها؟ بحق الشيطان، لم أكن إلا الأول الذي وقع على سقم سحرها! إنها مسحورة جداً، لدرجة جعلتها تشبه أبي!

القسيس الذي سمع ذكر المردة، والأشرار، وأعمال السحر، أدرك أن ذلك لا بد أن يكون دون كيخوتي دي لامانشا، الذي كان الدوق قد اعتاد على قراءة قصته، وهو قد صده عن قراءتها مراراً، قائلاً له إنها ترهة قراءة أمثال تلك الترهات، وعندما تأكد إدراكه أن شكوكه حقيقية، أصابه غضب شديد أفرغه وهو يخاطب الدوق قائلاً:

- سموكم، سيدى، سوف تقدم حساباً أمام الله عما يفعل هذا الرجل الطيب.
دون كيخوتى هذا أو دون (عبيط)، أو كما يخلو لهم تسميته، أتصور أنه لا
ينبغى أن يكون أحق كما تود سموكم له من صورة الحمق، بتهيئة الفرص له
كى يواصل حماقاته وتصرفاته الفارغة.

ثم حول حديثه إلى دون كيخوتى، وقال له:

- وأنت، أيها الساذج، من أدخل فى محك أنك فارس مشاء؟ وأنتك تهزم مرده
وتبارز أشراراً؟ أهلاً وسهلاً! وحول هذا أقول لك: عد إلى بيتك، وقم بتربية
أولادك إن كان لك أولاد، وعالج خلل أرضك وثروتك، واترك التشرد فى
أنحاء العالم، ماضعاً الريح، ومثيراً ضحكات السخرية عند كل من يعرفك
ومن لا يعرفك. أين، حتى نبارك لك، وجدت أنه وجد أو يوجد الآن فرسان
مشاءون؟ وأين يوجد مرده أو أشرار فى لامانشا؟ بل أين توجد دولثينيات
مسحورات؟ وكل تلك الشرذمة من البلاهات التى تحكى عنك؟

كان دون كيخوتى فى غاية الانتباه لعبارات ذلك الذكر المقدس، وعندما رآه
قد سكت منتهياً من كلامه، دون شعائر الاحترام للدوق والدوقة، وقف على قدمه
وبوجه مغبر وهائج قال...

لكن هذه الإجابة فصل كامل لأنها تستحق.

الفصل الثانی والثلاثون

عن الإجابة التي نطق بها دون كيخوتي على من أتبه ولامه مع أحداث أخرى جادة وطريفة

إذن، ناهضًا على قدميه مرتعدًا من القدمين إلى الرأس، كما لو كانت أصابعه حمى تسمم، وبلسان متسرع ومتعكر قال:

– المكان الذي أنا به الآن، وحضور من أوجد في مواجهتهم، والاحترام الذي حملته دائمًا للمهنة التي تمارسها سماحتكم، يوقف ويقيد يدي غضبي العادل؛ وهكذا بسبب ما قلتُ وللتعريف بما يعرفه الجميع من أن سلاح رجال الكهنوت هو نفس سلاح المرأة، إنه اللسان، سأدخل بلساني في معركة متكافئة مع سماحتكم، الذي كنت أنتظر منه نصائح طيبة وليس إهانات شنيعة. إن التوبيخ المقدس وحسن النية يتطلبان ظروفًا وأوقاتًا أخرى، وعلى الأقل فإن التوبيخ الذي وجهته إلى علنًا، ويمثل هذه الخشونة قد جاوز كل الحدود التي يعرفها التأنيب الديني، الذي يجد مهديدًا أفضل بالين أكثر منه بالخشونة، ولن يكون حسنًا، دون معرفة بالإثم الذي يصدر عنه، أن تطلق على الآثم وفجأة ألقاب الأحمق والعميط. وإذا لم يكن الأمر كما أقول، قل لي أي حماقات بي قد رأيتها وعليها تدينني وقميني، وتأمري أن أعود إلى بيتي للاهتمام بإدارته، والاهتمام بزوجتي وأبنائي، دون معرفة هل لي زوجة أو

أولاد؟ وليس إلا دخولك خبط عشواء بيوت غيرك لحكم أربابها، ولكونك قد تربيت في بيت طلبية بين الفقر والصرامة لا تعرف من الدنيا إلا ما يتسع له بضعة فراسخ من الأرض، فإنك تحشر نفسك في اقتحام لوضع قوانين للفروسية، والحكم على الفرسان المشائين. وهل بالصدفة يعد شائناً بلا جدوى أو وقتاً سيئ الاستغلال، ما يستغل للتجول في الدنيا، ليس بحثاً عن عرضها الزائل، وإنما في خشونة حيث يصعد الأخيار إلى مقعد الخلود. وإذا نظر إلى على أنى (عبيط) الفرسان، الأشراف، أولاد الناس، فإننى سأخذ ذلك بصفة إهانة لا إصلاح لها، لكن أن ينظر إلى كسفيه طلاب الكهنوت، الذين لم تطأ أقدامهم قط سبل الفروسية، لن يساوى عندى شرو نكير، فارس أنا، وعلى أن أموت فارساً، إذا شاء الأعلى. البعض يمضى في الحقل العريض للطموح، والغطرسة، وآخرون يمضون في حقل المداهنة التي تشبه أسلوب الخدم في اغطاط، وفريق ثالث يسلك طريق النفاق المخادع، وغيرهم طريق الدين الحق، لكنى متجهاً كما يشير نجمى، أمضى في السبيل الضيق للفروسية المشاءة، والتي أستهن من أجلها بالثروة وليس بالشرف. لقد أصلحت ما أفسدته الانتهاكات للأعراض، وقد رفعت من المظالم، وعاقبت على الغطرسة، وتغلبت على مردق، وعثرت بأكثر من عفريت، وأنا عاشق، وليس لأى سبب سوى أنه إجبارى أن يكون الفرسان المشاءون عشاقاً، وكونهم كذلك، لست من العشاق الحسين، وإنما عاشق أفلاطونى، ونواياى دائماً رفع الإصر والمقاصد النبيلة، بأن أعمل خيراً للجميع، ولا ذرة شر لأحد، والذي يفكر هكذا، ويمارس هذا البر، ويقوم بكل ذلك، إذا استحق أن يطلق عليه أبله، قلها له يا سيدى الدوق ويا سيدتى الدوقة.

قال سانشو:

- رائع، بحق الإله! لا تقل أكثر يا سيدى ورئيسى دفاعاً عن فخامتكم، لأنه لا يوجد قول أبعد مما قلت، ولا أبعد مما فكرت، ولا أكثر مما يبقى فى الأرض. وفوق ذلك، أن ينكر هذا السيد بالطريقة التى أنكر بها الوجود فى الماضى والحاضر لفرسان مشائين فى العالم، كم هو لا يعرف الكثير من الأشياء التى قلتها؟

قال القسيس:

- بالصدفة، هل أنت أيها الأخ سانشو باننا ذلك الذى عنه يتكلمون، والذى وعده سيده بولاية إحدى الجزر أو الحكومات؟

أجاب سانشو:

- نعم هو أنا، وأنا من يستحق تلك الولاية تماماً مثل أى شخص آخر، وأنا من شعاره "انضم للأخيار، فتصير واحداً منهم"؛ وأنا من هؤلاء "لن تحسب على من معهم ولدت، ولكن مع من سرت"، وأنا من القوم الذين "من يسترح تحت شجرة طيبة، يجد ظلًا طيبًا". وأنا أستريح فى ظل سيد طيب، ومنذ شهور كثيرة أمشى فى صحبته، وصرت غيرى مثله. فلتكن تلك إرادة الله: يحيا هو، ويحيا أنا! فبالنسبة له لا تنقصه إمبراطورية كى يتوج عليها، وأنا لا تنقصنى ولاية كى أحكمها.

هنا قال الدوق:

- لا، سانشو، أيها الصديق؛ فأنا باسم السيد دون كيخوتى أعدكم بحكومة ولاية تزيد على حاجتى، وليست قليلة الشأن.

قال دون كيخوتى:

- اركع على ركبتك، وقبّل أقدام سموه من أجل ما أنعم به عليك.

صنع سانشو ما أمر به، وعندما رأى ذلك القسيس، انتفض مغادرًا المائدة، مضطربًا أكثر من اللازم، قائلًا:

- من أجل هذه الثياب الكنسيّة التي ارتديها، أود القول إن سموكم يمثل سفاهة هؤلاء الآثمين، وانظر عما إذا كانوا غير مجانين، مادام العقلاء يتدحون جنوهم! وابق سموكم معهم، فمادام هم في بيتك، سأبقى أنا في بيتي، وأعتذر عن عدم منعي ما لا أستطيع إصلاحه.

ودون كلمة أكثر، أو لقمة في فمه أكثر، ودون أن تجدى رجاءات الدوق والدوقة في منعه من المغادرة انصرف، مع أن الدوق لم يلح عليه كاتمًا الضحك بسبب غضبه الوقح، وانتهى ضاحكًا، وقال لدون كيخوتى:

- فخامتكم أيها السيد فارس الأسود، قد دافعت عن نفسك ببراعة، فلم يبق لديه شيء يشفى غليله من القول، ومع أن ما قاله يؤذى المشاعر، فإنه بأية حال ليس كذلك، لأنه كما أن النساء لا يؤذين، فإن القساوسة لا يؤذون، كما تعرف فخامتكم أفضل منى.

أجاب دون كيخوتى:

- هو كذلك، والسبب أن الذى ليس بالمستطاع إيذاؤه، لا يستطيع أن يؤذى أحدًا. النساء والأطفال والقساوسة، كما أنهم لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، حتى لو أغضبوا، يستحيل إهانتهم. وبين الأذى والإهانة يوجد هذا

الفرق: فكما أن سموكم تعرف الإهانة تأتي من طرف من يقدر عليها، ويمارسها، ويغذيها، والأذى يمكن أن يصدر من أى أحد، دون أن يجترح إهانة. ولنضرب مثلاً، أحدهم فى الشارع ليس على باله شىء، يصل عشرة أشخاص مسلحون، ويضربونه بالعصى، فيضع يده على سيفه، ويؤدى واجبه، لكن كثرة المعتدين تحول بينه وبين أدائه، ولا تسمح له بتنفيذ نيته للثأر. هذا الشخص قد أذى لكن لم يهن، لأن الإهانة يجب أن تغذى بالمواجهة. ونفس الشىء يؤكد مثال آخر: أحدهم بدير ظهره، ويقترب آخر، ويضربه بعصاه، ثم يهرب ولا ينتظر، ولا يمكن اللحاق به رغم المحاولة، هذا الشخص أذى بسبب ضربه بالعصا من الظهر، لكن لم يستقبل إهانة، لأن الإهانة لا بد من تغذيتها. فإذا الذى ضربه بالعصا، مع أنه فاجأه من الخلف، قبض على سيفه، وبقى مواجهاً له، يبقى المضروب تحت أذى وإهانة معاً. أذى بسبب الخيانة عند ضربه، وإهانة لأن الذى ضربه غذى الضرب ودعمه بأن لم يعط ظهره وبقى على قدمه مواجهاً. وهكذا طبقاً لقوانين المبارزة الملعونة، من الممكن أن أكون قد أوديت، لكن لم أتلق إهانة، لأن الأطفال لا يتأسفون، وكذلك النساء لا يفعلن، ولا يستطعن الهرب، وليس لديهن سبب للانتظار والمواجهة، ونفس الشىء عند المعينين للشعائر الدينية المقدسة، لأن هذه الأجناس الثلاثة من البشر يعدمون السلاح الهجومى والدفاعى، وهكذا، مع أنهم بالطبيعة مجبرون على الدفاع عن أنفسهم، فإنهم ليسوا فى موضع القدرة على الاعتداء على أحد. ورغم أنى منذ قليل قلت إنه من الممكن أن أكون قد أوديت، الآن أقول لا بأية حال، لأن من لا يستطيع استقبال الأذى، فإنه أعجز من أن يئته، وهذه الأسباب لا

يجوز أن آسف على ما قال لي ذلك الرجل الطيب، فقط أود أن أنتظر قليلاً،
لأفهمه الخطأ الذى يقع فيه لتفكيره وقوله إنه لم يوجد، ولا يوجد فرسان
مشاءون في العالم، ولو كان أماديس سمع منه مثل هذا الكلام، أو أحد الذين
لا يحصون من نسله، أنا أعلم ما كان سيكون الأمر طيباً بالنسبة لسماحته.

قال سانشو:

- أقسم على هذا عن علم، كان من الممكن أن ينالوه بضربة سيف، فيشطرونه
من أعلى إلى أسفل مثل رمانة أو بطيخة ناضجة جداً. هل كانوا ظرفاء حتى
يتحملوا هذه الزغرغة؟ أقسم بهذا الوجه الذى أحمله، أننى متيقن لو أن
رينالدوس دى مونتالبان كان قد سمع هذه العبارات من هذا (الرُّجُل) لحطم
فكيه، حتى لا يتكلم بعد ذلك لثلاث سنين، ليس إلا أن يقع معهم لنرى
كيف السبيل لهربه من أيديهم!

كانت الدوقة ميتة من الضحك عند سماعها سانشو وهو يتكلم، وكانت
تتظر إليه على أنه أكثر ظرفاً وجنوناً من سيده. فى ذلك الزمان كان هذا رأى
الكثير. أخيراً، هدأ دون كيوخوتى، وانتهى الطعام، وعند رفع المائدة، وصلت أربع
صبايا: الأولى معها طشت من الفضة، والثانية إبريق أيضاً من الفضة، والثالثة
على كتفها منشفتان شديدتا البياض والرفاهة، والرابعة ذراعها مكشوف حتى
منتصفه وفى يديها البياضوين (وبياض يديها دون شك كان) قالب صابون من
نابولى. اقتربت ذات الطشت، وفى ملاحه لطيفة وانغماس، مررت الطشت تحت
لحية دون كيوخوتى، الذى دون نطق كلمة، مذهولاً من مثل هذه الشعائر، معتقداً أنها
عادة هذه البلاد غسل اللحية بدلاً من اليدين، وهكذا دلى لحيته بقدر ما استطاع،
وفى نفس اللحظة بدأ الإبريق يمطر، وصبية الصابون مخضت اللحية بسرعة،

رافعة ندفاً من الثلج، ولم تكن رغاوى الصابون أقل بياضاً، ليس فقط على اللحية، لكن على كل وجه الفارس المطيع وعينيه، حتى جعلوا العينين تتغلقتان عنوة. الدوق والدوقة اللذان لم يدريا من قبل عن هذا، كانا فى انتظار أين سوف ينتهى هذا الغسيل غير العادى. الصبية الحلاقة، عندما غطتها بشبر من الصابون، ادعت نفاذ الماء، وأمرت فتاة الإبريق بالذهاب لإحضار ماء، وطلبت من السيد دون كيخوتى الانتظار. انتظر وبقى بأعرب صورة، بل صورة تضحك إلى أبعد ما يصل الخيال. كان ينظر إليه كل الحضور هناك، وكانوا كثيرين، وقد رأوه بنصف قضيب للعنق، وأكثر، صار أسمر سماراً اختلط بالبياض، والعينان مغلقتان، واللحية مغطاة بالصابون، وكان معجزة وفطنة زائدة تجنب الضحك، وصبايا اللعبة كانت عيونهن نحو الأرض، دون الجرأة على النظر إلى الدوق والدوقة، اللذين كان جسمهما يمرح بين الحمى والضحك، ولم يعرفا ماذا يصنعان: إما معاينة جرأة الصبايا، أو إعطاءهن جائزة للسرور الذى أحساه من رؤية دون كيخوتى فى هذا الموقف. أخيراً صبية الإبريق جاءت، وانتهوا من غسل دون كيخوتى، وفى الحال فتاة المناشف نظفته وجففته بكل بطة وهدوء، وأدت الصبايا الأربع له انحناء كبيرة وعميقة فى إجلال، ورغبن فى الانصراف، لكن الدوق حتى لا يدرك دون كيخوتى اللعبة الساخرة، نادى على فتاة الطشت وقال لها:

- تعالى واغسلى لى، وحاولى ألا ينفد منك الماء.

الفتاة حادة الذكاء ومجتهدة، اقتربت ووضعت الطشت للدوق مثلما فعلت مع دون كيخوتى، ومسرعة غسلته وصبنته جيداً، وتركته مجففاً نظيفاً. مقدمات جميعاً آيات الاحترام، انصرفن. بعد ذلك عُرِفَ أن الدوق أقسم أنهن إذا لم يكن قد غسلنه مثل دون كيخوتى، كان سيعاقب وقاحتهن، التى عالجنها فى نكاه بأن قمن أيضاً بتصبيبه.

كان سانشو متنبها لشعائر الغسيل تلك، وقال لنفسه:

- فليرحمني الله! هل ستكون العادة أيضًا غسيل لحي حاملي الدروع في هذه البلاد بنفس الأسلوب الذي عاملوا به الفرسان؟ لعله يكون ضروريًا بالنسبة لي، وخاصة إذا استخدمت شفرة موسى حلاقة، حتى تزداد فائدة هذه الطريقة لي.

سألت الدوقة:

- بماذا تكلم نفسك، سانشو؟

وأجاب هو:

- أقول، يا سيدتي، بأني سمعت أنه في بلاط الأمراء الآخرين، يقدمون الماء لغسيل اليدين بعد الأكل، وليس رغاوى الصابون على اللحي، ومن أجل هذا ما أجل أن يعيش الإنسان أكثر حتى يرى أكثر، مع أنهم يقولون أيضًا إن من يعيش أكثر يتعرض للأذى أكثر، رغم أن المرور بغسل مثل هذا يعد لذة أكثر منه عبثًا.

قالت الدوقة:

- لا تحمل همًا، سانشو، فسوف أعمل على أن تقوم وظيفاتي بالغسيل لك، حتى لو وضعنك في طشت إن صار ذلك ضروريًا.

أجاب سانشو:

- يكفيني غسل لحيتي فحسب، على الأقل الآن، لأنه مع مضي الوقت علينا انتظار المكتوب.

قالت الدوقة موجهة حديثها لكبير الخدم:

- انظر في كل ما يطلبه سانشو، وحققه له حرفيًا كما يطلبه.

أجاب كبير الخدم أن السيد سانشو سيتلقى كامل الخدمات، وعند انتهائه من قول هذا مضى ليأكل مصطحباً سانشو معه، ليبقى على المائدة الدوق والدوقة ودون كيخوتي، يتحدثون عن أشياء كثيرة ومتفرقة، لكنها كلها مع ذلك تتعلق بالحياة في صحبة السلاح وبالفرسية المشاءة.

رجت الدوقة دون كيخوتي معتمدة على ذاكرته القوية أن يحدد ويعدد ملامح وحسن السيدة دولثينيا دل توبوسو، حيث إن الدوقة تعرف، طبقاً لشهرة تلك السيدة، أنها ينبغي أن تكون أجمل نساء الكون، بل أجمل نساء لامانشا! تنهد دون كيخوتي عند سماعه طلب الدوقة، وقال:

- لو كنت أستطيع نزع قلبي من بين جنبي، ووضعها هنا أمام عظمتكم في طبق فوق هذه المائدة، لوفر على لساني قول ما لا يكاد يستوعبه الفكر، ولرأيتها عظمتكم مرسومة بداخله بكل حذافيرها، لكن لِمَ أشرع الآن في تحديد ووصف حسن التي لا نظير لها دولثينيا نقطة نقطة، وجزءاً جزءاً، مع أن ذلك مسئولية جدير بأن يحملها عاتق غير عاتقي، حيث ينبغي أن تشغل بها ريشة المصور بارأسيو وتيمانيس وأيبلس ومقاش النحات ليسييو، لرسمها وحفر صورتها على ألواح وفوق المرمر والبرونز، بل ينبغي أن تشغل بوصفها البلاغة الشيشيرونية والديموستينية حتى يتم الوفاء بالثناء عليها.

سألت الدوقة:

- ما معنى الديموستينية، يا سيد دون كيخوتي؟ فلم أسمع هذا اللفظ قط كل أيام حياتي.

أجاب دون كيخوتي:

- البلاغة الديموستينية هي نفس قولنا "بلاغة ديموستينس" كما تنسب الشيشيرونية إلى شيشيرون، وهما أكبر اثنين بلاغيين في العالم.

قال الدوق:

- هذا حقيقي، ولقد كان هذا السؤال محيراً في انتظار تلك الإجابة، لكن، مع هذا، سيرنا كثيراً أن ترسم صورتها لنا، فملاحظتها ووجهها كما ننتظره في تلك الصورة ينبغي أن يجلب حسد أجمل الجميلات.

أجاب دون كيخوتى:

- لو رسمتها لكان ما تقول، لكن أخشى أن النكبة التي وقعت لها قد مسحت صورتها من فكري، حتى إنى معد للبكاء عليها أكثر من استعدادى لوصفها، لأنه على عظمتي كما أن تعرفاً أنى ذهبت في الأيام الماضية لتقبيل يديها واستقبال البركات والرضا والقبول والإذن لخرجتي الثالثة هذه، فوجدت أخرى غير التي كنت أبحث عنها، حيث عثرت عليها مسحورة، متحولة من أميرة إلى مزارعة، ومن الحسن إلى القبح، ومن ملاك إلى شيطان، نتن الرائحة خشن الملائم، ومن الوقار إلى القفز مثل قرد على الحمار. لقد لف الظلام في غياهبه نورها، وأخيراً تحولت من دولثينيا دل توبوسو إلى ريفية من سيّاجو.

قال الدوق بصوت مرتفع عند سماعه هذا:

- يا لله! من كان وراء هذا الشر المستطير الذي ارتكب ضد هذا العالم؟ ومن ذلك الذي حرمكم من الجمال الذي كان يبهجكم؟ ومن الملاحظة التي كانت تسرى عنكم؟ ومن الشرف الذي كنت تثق به؟

أجاب دون كيخوتى:

- من؟ ومن يمكن أن يكون غير ساحر شرير من تلك الزمرة الحاسدة التي تطاردن؟ هذه السلالة الملعونة التي أنجبها العالم حتى تعتم على محاسن الأخيار

وتقضى عليها، وحتى تفسح في النور مكانًا لأعمال الأشرار وتنهض بها. لقد عشت مطاردًا من السحرة. نعم لقد طاردت السحرة، وسوف يستمرون في مطاردتي حتى يلقوا بي وبفروسي السامية في قاع هُوَّة النسيان، وحتى يؤذوني في تلك الأمور التي جروحها تؤلمني أكثر، لأن حرمان فارس من سيدته هو حرمان له من عينيه اللتين يرى بهما، والشمس التي يستضيء بها، والغذاء الذي يتقوت به. وقد ذكرت مرارًا في مرات سابقة، والآن أعود لقوله: إن الفارس المشاء دون سيدة مثل الشجرة دون أوراق، والمبنى دون أساس، والظل دون الجسم الذي ينتجه.

قالت الدوقة:

- لا توجد كلمات أكثر بعد الذي قلت، لكن رغم كل هذا، إذا أعطينا مصداقية للقصة أكثر من السيد دون كيخوتي، تلك القصة التي خرجت إلى النور في هذه الأثناء منذ أيام قليلة مع تصفيق عموم لناس، نستنتج منها، إذا لم تخني الذاكرة، أن فخامتكم لم تر قط السيدة دولثينيا، وأن هذه السيدة لا توجد في العالم، وإنما هي سيدة خيالية، أبدعها وولدها فخامتكم في إدراكك، ورسما بما شئت من كل هذا الطرف والكمال.

أجاب دون كيخوتي:

- حول هذا، هنا الكثير الذي يقال. والله وحده الذي يعلم إذا كانت دولثينيا في العالم أو لا توجد، وإذا كانت خيالية أو غير خيالية، فهذه أمور لا يمكن تحريها حتى النهاية. أما أنا فلم أبدع ولم ألد سيدتي، رغم أنني أتأمل فيها كما ينبغي أن تتأمل سيدة تضم في كينونها كل عناصر الجمال التي تجعلها مشهورة

في أنحاء العالم. تلك العناصر هي: حسناء دون أدنى نقص، وجادة دون
غرور، وودودة في شرف، وشكورة في أدب، ومؤدبة لحسن تربيتها، وأخيراً
سامية النسب والحسب، فالحسن يشرق من الدماء النبيلة، وبها يقيم
بدرجات أكثر في الكمال، من الحسن بين متواضعات الأصل والنشأة.

قال الدوق:

- هكذا يكون؛ لكن على السيد دون كيخوتي أن يأذن لي بقول ما تدفعني
القصة لقوله، فيها قرأت عن محاسنها، ومما قرأت يستنتج أنه حتى لو وجدت
دولثينيا في التوبوسو أو خارجها، وكانت في مثل هذا الحسن الذي تصفه لنا،
فإنه فيما يتعلق بسمو النسب والحسب، لا يتوازي مع الحسن بين كل
سيدات الفرسان المشائين اللائي تمتلئ بهن القصص التي تعرفها فخامتكم.

أجاب دون كيخوتي:

- فيما يتعلق بهذا، يمكنني القول إن دولثينيا ابنة لأعمالها، وإن الفضائل ترفع من
تواضع الدم، وينال التقدير رجل فاضل متواضع، عن آخر منحرف نبيل
الأصل، ودولثينيا فاضلة وزيادة، مما يسمح لها أن تكون ملكة بتاج
وصولجان، تلك الزيادة هي الجمال بجانب الفضل، مما يؤدي إلى معجزات،
حتى لو كانت رسمياً وواقعياً تعدم تلك الدماء النبيلة.

قالت الدوقة:

- أقول لك أيها السيد دون كيخوتي، إنك في كل ما قلت تسير بقدم ثابتة،
وكما تعودوا القول، بمجسّ في يدك، وإنني منذ الآن فصاعداً سوف أعتقد

وأجعل كل من في بيتي يعتقدون، بمن فيهم سيدى الدوق نفسه لو اضطرت لإقناعه، بأن دولثينيا موجودة في التوبوسو، وأنها تعيش هناك الآن، وأنها حسناء وأصيلة المولد، وجديرة بأن يكون في خدمتها فارس في قامة السيد دون كيخوتى، وهذا أستطيعه، ولا أعدم الوسيلة لتحقيقه. لكننى لا أستطيع أن أبعد عنى شك مع شيء لا أدريه من الحق على سانشو بانثا: الشك هو أن القصة تقول إن ذلك المدعو سانشو بانثا وجد فخامتها تغربل قمحًا، وعلامات أكثر على صدق تلك الرواية أن القمح كان من النوع الردىء الروبيون، وهو الشيء الذى يجعلنى أشك في سمو نسبها.

أجاب دون كيخوتى على هذا:

- سيدتى، قد تعرفين عظمتكم أن كل الأشياء التى تحدث لى أو معظمها تخرج عن المعتاد حدوثه للفرسان المشائين الآخرين، فإما أن تسير فى طريق لا يرغب أن يكشف عن أسرارها القدر، وإما تسير فى طريق محكوم بنجث أحد السحرة الحاسدين، ولشئء عرفت أبعاده، فإن كل الفرسان المشائين والمشهورين إما أن أحدهم محاط بعناية تحميه من أن يسحر، وإما أن يكون الآخر جسمه غير قابل للاختراق فلا يجرح، وهذا شأن رودان المشهور، وكان أحد الاثنى عشر فارسًا لفرنسا، ويحكى عنه أنه كان غير قابل لأن يجرح إلا من كعب قدمه الأيسر، ولا يتم ذلك إلا بسن دبوس غليظ، وليس بأى نوع آخر من الأسلحة، وهكذا عندما قتله برناردو ديل كاربيو فى رونسفال، كان قد لاحظ عدم قدرته على مسه بأسلحته الحديدية، فحمله بين ذراعيه وأغرقه، متذكرًا الطريقة التى قتل بها هرقل خصمه أنتيون، ذلك

المارد العنيف الذى قيل إنه ابن للأرض. أود أن أستنتج مما قلت، أنه من المحتمل أنى محاط بعناية أشبه بذلك، لكنها ليست الحماية ضد الجروح، لأن التجربة أثبتت لى أكثر من مرة أن جسمى قابل لذلك، وأنه قابل للاختراق، كما أنها ليست العناية التى تحمىنى من السحر، فقد رأيتنى موضوعاً فى قفص، رغم أن كل العالم غير قادر على حبسى فى مثل ذلك القفص، ما لم تكن قدرة السحر، لكن استطعت أن أحرر نفسى من ذلك، وأود الاعتقاد بأن لا شىء آخر يستطيع صيدى، وهكذا عند رؤية السحرة أنهم لا يستطيعون فعل شىء ضدى من شرورهم المعتادة، قاموا بالتأثر منى فى الأشياء التى أحبها أكثر، راغبين فى نزع الحياة عنى بسوء معاملة دولثينيا، التى من أجلها أعيش، وهكذا أعتقد أنه عندما ذهب خادمى فى سفارة لديها، حولها إلى ريفية تمارس تلك الأعمال الوضيعة مثل غربلة القمح، لكننى سبق لى القول إن ذلك القمح لم يكن روبيون، بل لم يكن قمحاً، وإنما كان لؤلؤ الشرق، والدليل على هذه الحقيقة أود القول لعظمتكم كما أنى مررت منذ قليل بالتوبوسو، لم أعثر خلال ذلك قط على قصور دولثينيا، وفى اليوم التالى رآها سانشو فى نفس صورتها الأكثر جمالاً فى العالم، بينما لم تظهر لى إلا فى صورة مزارعة غير متحضرة وقبيحة، وبدون أى ذكاء عاقل، مع ذكائها الفائق على أى ذكاء فى الدنيا، من ثم أنا غير مسحور وغير قابل لذلك، أما هى فقد سحرت واعتدى عليها، وتغيرت صورتها، ومقايضتها بأخرى وتبديلها، وخلالها انتقم منى أعدائى، ومن أجلها سأعيش أذرف دموعاً لا تهدأ، حتى أراها فى حالتها الأولى. أقول كل هذا حتى لا يتوقف أحد عند قول سانشو حول نخل دولثينيا وغربلتها، فإن كانوا بدلوا صورتها أمامى، فليس معجزة

أن يغيروها له. دولثينيا نبيلة، وابنة حسب ونسب، ومن السلسال الشريف الموجود في التوبوسو، وما أكثر الأشراف بها وأقدمهم وأبلهم، وليس صعباً، بكل تأكيد، أن تجد من لا نظير لها دولثينيا مكاناً بين هؤلاء، فيها مدينتها سوف تصبح مشهورة ومذكورة في القرون القادمة، كما نالت طروادة بفضل إيلينا، وإسبانيا بفضل لا كابا، مع شيء من التفوق في اللقب والشهرة لمدينة دولثينيا. ومن ناحية أخرى، أحب أن يعرف عظمتكما أن سانشو بانثا واحد من أطرف الخدم الذين حملوا دروع الفرسان المشائين، حتى إنه في بعض الأحيان يقع في سذاجات بالغة الذكاء، حتى إن التفكير في هل هو ساذج أو ذكي؟ يوقع الإنسان في عدم الرضا، وبه من الخبث ما يصنفه بين الأشرار، ومن الإهمال ما يضعه بين البلهاء، يشك في كل شيء، ويعتقد في كل شيء، وعندما أظن أنه متفرغ للبلاهة يخرج بأكثر الأفكار فطنة حتى ترفعه للسماء. وأخيراً أنا لا أستبدل به خادماً آخر، حتى لو أعطوني فوق البديل مدينة بأكملها، وهكذا، أنا في شك عما إذا كان من الخير إرساله، للتربيع على الحكومة التي أنعم بها عليه عظمتكم، مع أنني أرى فيه صلاحية ما للحكم، فعندما يزين عقله بعض الشيء سيصير في حكمة الملوك مع الشدائد، فضلاً عن أننا نعرف بالتجربة أنه ليس ضرورياً الكفاءة أو الثقافة الزائدة في الشخص ليكون حاكماً، من ثمّ فهناك مئة لا يكادون يعرفون القراءة والكتابة، ومع ذلك يحكمون مثل الصقور النبيلة في الصيد، وحجر الزاوية هو هل نواياهم طيبة؟ ويرغبون الإصابة في كل شيء؟ وهكذا لن يعدوا من يقدم لهم النصيحة، ويقودهم نحو ما ينبغي أن يعملوا، مثل الحكام الفرسان غير المثقفين، الذين يصدرون الأحكام في وجود

مساعد. وأصححه أنا بالأا يرتشى وألا يضيع حقاً، وبقي في ضميري من النصائح له ما سيخرج في مواعده، لصالح سانشو وخير الولاية التي سيحكمها.

وصل الدوق والدوقة ودون كيخوتي إلى هذه النقطة من الحديث عندما سمعوا أصواتاً كثيرة وضجة كبيرة لأناس في القصر، وفجأة دخل سانشو فسي الصالة فرعاً، وعلى صدره مريلة، وخلفه غلمان كثيرون أو بعبارة أدق، عصابة من شُطَّار المطبخ، مع أناس آخرين، وأحدهم كان يتحرك ومعه (ماجور) ماء، بلونه وعدم نظافته بدا أنه يستخدم لغسيل الأطباق، وكان يتبعه ويطارده حامل الماجور هذا، وكان يحاول بكل إلحاح حشر الماجور تحت لحية سانشو، ومرمطون مطبخ آخر أظهر أنه كان يريد غسلها له.

سألت الدوقة:

- ما هذا أيها الإخوة؟ ماذا تريدون من هذا الرجل الطيب؟ كيف؟ ألا تضعون في اعتباركم أنه اختير حاكماً؟

على هذا أجاب المرمطون الحلاق:

- هذا السيد لا يريد أن يترك نفسه لنا لنغسله كما هو معتاد، وكما اغتسل سيدي الدوق، والسيد فارسه.

أجاب سانشو في غضب شديد:

- نعم، أحب الاغتسال، لكن أحب أن يحدث ذلك بمناشف نظيفة، وبصابون أكثر صفاء، وبأيدي ليست بهذه القذارة، فلا يوجد فرق عظيم بيني وبين سيدي، الذي غسلوا له بماء الملائكة، ولي بصابون الشياطين. وعادات كل

إقليم وقصور الأمراء لا بأس بما إذا لم تكن مؤلمة، وعادة الغسيل هنا أسوأ مما يفعل رهبان الفصح من تعذيب لأنفسهم. لحيتي نظيفة، ولا أحتاج لمثل هذا الاغتسال، وإذا وصل أحدهم لغسلي أو لمس شعرة من رأسي، قصدي من لحيتي، وأنا أتكلم بما يلزم من أدب، سوف أعطيه لكمة حتى تتركه قبضة يدي مرصع الرأس بآثار أصابعي، فهذه الشعائر وعمليات التصبين تبدو لي لعبة ساخرة أكثر منها إكرامًا للضيوف.

الدوقة كانت مينة من الضحك لمشاهدة غضبة سانشو، ولسماع عباراته، لكن لم يسر دون كبخوتى كثيرًا رؤيته متغيرًا بمريئته المبقعة، ومحاطًا بكثير من المتسلين، وهكذا فى لحظة احترام للدوق والدوقة طالبًا الإذن بالكلام، من ثم قال بصوت وقور لهؤلاء الأوغاد:

- مرحى أيها الرجال! الآن فخامتكم اتركوا الصبي وعودوا من حيث أتيتم، أو إلى أى مكان يعجبكم؛ فخدأى نظيف مثل كل النظفاء، وهذا الماجور يصلح لشربكم. خذوا بنصيحتي واتركوه، لأنه لا هو ولا أنا نعرف تلك الحيل للسخرية.

التقط سانشو عبارة سيده من فمه وواصل القول:

- لا ينقصنى إلا أن تصلوا للسخرية من قليل العقل، لأنى هكذا سأكون إن تحملتُ، كما لو كنت لا أرى ما تفعلون. احضروا مشطًا أو ما شئتم وقلوا هذه اللحية، وإذا أخرجتم منها ما يغضب النظافة، احلقوا لى بعضها، وذروا البعض الآخر.

عند هذه العبارة، قالت الدوقة دون أن تترك الضحك:

- سانشو باننا عنده حق فى كل ما قال، بل فى كل ما يمكن أن يقول، وهو نظيف كما يقول، وهو لا حاجة عنده للاغتسال، وإذا كانت عادتنا لا

تسره، فهو حر، وبصفة خاصة، ياوزراء النظافة، لقد وصلتكم المدى في الإهمال والتهاون، ولا أدري إذا يلزم القول بأنكم تجرأتم أكثر من اللازم بإحضار مواجير ومعاجن، وخرق تنظيف الصوان، لهذه الشخصية المهمة، بدلاً من النوافير وأباريق الذهب الخالص والمناشف الفاخرة. في النهاية، أنتم سيئون خلقاً ومولداً، ولا تستطيعون لكونكم أشراراً أن تتخلصوا من إظهار حقدكم على حاملي دروع الفرسان المشائين .

اعتقد الوزراء المتشظرون بما فيهم رئيس الخدم الذي جاء معهم أن الدوقة تتكلم في جدية، وهكذا خلعوا عنه المريلة، وتركوه مضطربين خائفين، وهكذا عندما رأى سانشو نفسه بعيداً عما كان يراه ذروة الخطر، مضى للركوع أمام الدوقة، وقال:

- ينتظر دائماً عظيم النعم من عظماء السادة؛ إن هذه النعمة التي وهبتها لي اليوم لا يمكن شكرها، ليس بأقل من رغبتى في أن أنصب فارساً مشأء، حتى أشغل أيام حياتى في خدمتكم، أيها السيدة السامية. وأنا مزارع واسمى سانشو، ومتزوج وعندى أبناء، وأعمل بوصفى حامل دروع، فإذا كنت أقدر على خدمتكم بوحدة من هذه الأشياء، فلن أتأخر عن الطاعة بمجرد أمر عظمتكم.

أجابت الدوقة:

- يبدو جيداً، سانشو، أنك درست التهذيب في نفس مدرسة التهذيب، أريد القول إنك تربيت في أحضان السيد دون كيخوتى، الذى لا بد أن يكون زبدة التهذيب، وزهرة الشعائر في السلوك (أو الشعائر كما تقول أنت). فما أحسن هذا السيد وذاك الخادم، فالأول هو بوصلة الفروسية المشأءة،

والثانى نجم ولاء الخدم. انهض، سانشو أيها الصديق، فإننى سوف أرد على
تهذيكم بجعل الدوق زوجى يسرع كما يستطيع منحك النعمة
الموعودة بالحكومة.

بهذا توقفت الدردشة، وذهب دون كيخوتى لينام قيلولته، وطلبت الدوقة من
سانشو، إذا لم يكن لديه رغبة كبيرة فى النوم، أن يذهب لقضاء الأصيل معها ومع
وصيفاتها فى إحدى الصالات الطرية الجو. أجاب سانشو، مع أنه حقيقى تعود على
النوم أربع ساعات أو خمس ساعات القيلولة فى الصيف، لكن لخدمة فيض نعمها،
فإنه سيحاول بذل أقصى الجهد فى ألا ينام هذا اليوم دقيقة واحدة، وسوف يذهب
إليها طائعا لأمرها، وبالفعل فعل. الدوق أصدر أوامر جديدة لمعاملة دون كيخوتى
باعتباره فارسا مشاء، دون الانحراف قدر بنان عن الأسلوب الذى تحكيه القصص
عن معاملة قداماء الفرسان المشائين.

الفصل الثالث والثلاثون

عن الدردشة اللذيذة التي دارت بين الدوقة ووصيفاتها وبين سانشو بانثا، الأمر الجدير بالقراءة والتقدير

من ثمّ، تحكى القصة أن سانشو لم ينم تلك القيلولة، وإنما حتى ينجز كلمته أتى طاعماً يأكل ليرى الدوقة، التي لسرورها بسماعه جعلته يجلس بجوارها على كرسي منخفض، مع أن سانشو بسبب حسن تربيته المحض لم يحب أن يجلس هكذا، لكن الدوقة قالت له أن يجلس باعتباره حاكماً وليتكلم بوصفه خادماً، مع أنه فى الحاليتين يستحق مقعد السيد روى دياث كمبيادور^(١). هز سانشو كتفيه، وأطاع وجلس، وأحاطت به كل وصيفات وسيدات الدوقة منتبهات فى صمت عظيم، لسماع ما يمكن أن يقول، لكن الدوقة كانت من بدأ بالكلام قائلة:

- الآن ها نحن وحدنا، وهنا لا يسمعون أحد، لذا أحب أن يبدد السيد الحاكم لى بعض الشكوك التي ولدتها عندى قراءة قصة دون كيخوتى الأعظم، تلك القصة التي شاعت مطبوعة. واحدة من تلك الشكوك أن سانشو الطيب لم ير قط دولثينيا دل توبوسو، ولم يحمل إليها خطاب السيد دون كيخوتى؛ لأن الخطاب بقى ضمن أوراق دفتر المذكرات فى لا سيررا مورينا، فكيف تجرأ على تصنع رد الخطاب؟ وذلك الادعاء فى أنه وجدها تغربل القمح، مع

(١) البطل الملحى الوحيد فى إسبانيا العصور الوسطى، والمقعد المشار إليه هو مقعد الحاكم، عندما فتح السيد بلنسية العربية وحكمها بعض الوقت.

كون ذلك خداعًا وكذبًا، وإيذاءً للتي لا نظير لها دولثينيا؟ كما أنه من الأمور التي لا تتفق مع جودة وإخلاص حملة الدروع ذوى الجدارة؟

مع هذه العبارات، دون أن يجيب بكلمة واحدة، نهض سانشو من المقعد، وبخطوات متوانية، وجسم منهك، والإصبع فوق الشفاه، تجول بكل أنحاء الصالة، رافعًا ما يعترضه من ستائر، من ثم، وقد انتهى من فعل ذلك، عاد إلى الجلوس، وقال:

- الآن سيدتى، وقد رأيت ألا أحد يسمعنا من خلف الستائر، بعيدًا عن انفرادنا، ودون خوف أو مفاجأة، سوف أجيب عن ما سألتني وما سوف تسألين؛ وفي الأول أنا أعد سيدى دون كيوخوتى مجنونًا لا دواء له، رغم أنه في بعض الأحيان يقول أشياء تبدو لي ولكل من يسمعه شديدة الفطنة والتعقل، وتسير في طريق صحيح، حتى إن الشيطان نفسه لا يستطيع قولها أفضل، لكن مع هذا، حقيقة، ودون شكوك، بالنسبة لي استقر عندى أنه مجنون. وهكذا كما أننى أضع ذلك في ذاكرتى، أجرؤ على جعله يعتقد فيما لا رأس له ولا قدمين، كما حدث في ذلك الرد على الخطاب، وكما وقع منذ ستة أيام أو ثمانية، والذي لم يدون في القصة بعد، مما ينبغى قوله، من سحر سيدتى دونيا دولثينيا، فقد أوعزت إليه أنها مسحورة، وهو أمر لا علاقة له بالحقيقة إلا نفس علاقة رابع المستحيلات بها.

رجته الدوقة أن يحكى لها هذا السحر أو تلك الخدعة، وحكاها لها سانشو بنفس الطريقة التي وقعت بها، حتى إن المستمعات استمتعن بالكثير من السرور والانبساط، وفي مواصلة للحديث قالت الدوقة:

- مما حكاها لي سانشو الظريف، يشب إلى نفسى شك، ويتمتم في أذنى همس يقول: "إذن دون كيوخوتى دى لامانشا مجنون مجنون وأحق، وسانشو حامل دروعه

يعرف ذلك، ومع كل هذا يخدمه ويتبعه، ويمضى مقيداً بوعوده الخاوية، فمما لا شك فيه أنه أكثر جنوناً وبلاهة من سيده، ولكون ذلك كذلك، وهو فعلاً كذلك، فما أسوأ حساباتك أيتها الدوقة، إذا أعطيت سانشو بانثا ذاك ولاية ليحكمها، لأن من لا يعرف حكم نفسه، كيف يحكم غيره؟"

قال سانشو:

- بحق الإله، سيدتى، هذا الشك يأتى من ولادة حقّة، لكن قولى فخامتكم لهذا الشك أن يتحدث بوضوح (بدلاً من الهمس) أو كما يجب، فإنى أعرف أنه يقول الحق: إذا كنت أنا عاقلاً، كنت تركت سيدي منذ أيام طويلة. لكن هذا كان حظى، وهذا كان سوء مسيرى، وليس فى مستطاعى فعل أقل مما أفعل، من أن أتبعه، فنحن من نفس القرية، وأكلت خبزه، وأحبه كثيراً، وهو ذاكر للجميل، أعطانى كل جحوشه، وفوق كل هذا، أنا وفى، وهكذا فمن المستحيل أن يستطيع تفريقنا أى شىء إلا الموت. وإذا أردتِ سموكم ألا تعطينى الحكومة الموعودة، فالعوض على الله، ومن الممكن أن يكون ذلك فى صالح ضميرى، فعلى الرغم من أننى عيب، فإننى أرى انطباق هذا المثل على "لسوء حظها ولدت الأجنحة للنملة". وقد يكون سانشو الخادم أقرب للسماء من سانشو الحاكم، وهم هنا يصنعون خبزاً فى جودة الخبز فى فرنسا، وكل القطط بالليل سواء، وأساس نكبة الشخص ألا يكون قد أفرط حتى الثانية بعد الظهر، ولا توجد معدة أكبر من أخرى بقدر شبر، وبالتالي يمكن أن تملأ بالتبن والدريس، وصغار طيور الفضاء لها الله الرزاق والمعطى، وحوالى أربعة أمتار من نسيج كوينكا الخشن تدفى أكثر من أربعة أمتار من نسيج سيقوييا الرقيق، وعند ترك هذا العالم ووضعنا تحت التراب فى نفس

الطريق الضيق يمضى الأمير مثل الصلوك، ولا يشغل جسم البابا مساحة أكبر مما يشغله جسم الشمس، حتى لو كان أحدهما أطول من الآخر، لأنه عند دخول حفرة القبر كلنا نضغط ونكمش، أو يضغطونا ويكمشونا، ويطففون ميزاننا، ثم تصبحون على خير في ليل لا ينتهى. وأعود إلى القول إذا أحببت سعادتكم ألا تعطيني الحكومة لأنى أبله، فأنا أعرف ألا أعطي نفسى شيئاً لأنى ذكى، ولقد سمعتهم يقولون إن وراء الصليب يكمن الشيطان، وليس كل ما يلعب من ذهب، ومن بين الثيران والمخاريث استخراجوا المزارع بامبا ليكون ملكاً لإسبانيا، ومن بين الحرير واللعب والشراء استخراجوا روديجو كى تأكله الثعابين، إذا لم تكذب أغاني القصص الرومانتى القديم.

عند هذا قالت السيدة رود ريجيث وكانت تستمع:

- كيف لا تكذب! وفي إحدى تلك القصص يقولون: إنهم وضعوا الملك رودريجو حياً... حياً في قبر ملئ بالصفادع والأفاعى والسحالى، وبعد مرور يومين للملك هناك قال من داخل القبر بصوت متألم ومنخفض:

انتهى، إنهم يأكلونى، إنهم يأكلونى

لكونى الآثم الكبير

- وطبقاً لهذا فإن هذا السيد عنده حق فى أن يود أن يكون مزارعاً أكثر من حبه لأن يكون ملكاً، إذا كانت فى هذه الحالة سوف تأكله تلك الدوبيات.

لم تستطع الدوقة حبس الضحك عند سماع سذاجة قهرمانتها، كما لم تستطع التخلص من الدهشة لسماع عبارات وأمثال سانشو، الذى قالت له:

- يعرف سانشو الطيب أن ما يعد به الفارس يحاول إنجازَه حتى لو كلفه حياته، والدوق سيدى وزوجى، وإن لم يكن من المشائين، لا يعلم حق أن يكون فارسًا، وهكذا سوف ينجز كلمته بالولاية الموعودة، على الرغم من حسد العالم وشره. كن سانشو على الروح، ففيما لا تتوقع، ستصير فوق كرسى الولاية، وفي وجهتها، ممسكًا بحكومتها، مترفعًا عن استبدال كرسى آخر به/ ولو كان أعظم في ارتفاعه وديباجه. والذي أنصحك به النظر في كيفية السيطرة على أتباعك ورجالك، متأكدًا من أنهم جميعًا لديهم ولاء، وأنهم أبناء أصول.

أجاب سانشو:

- فيما يتعلق بالسيطرة عليهم جيدًا لا تحملى هما لأننى بار بأهلى، وأتعاطف مع الفقراء، وأعطى الخبز لخبازيه ولو سرقوا بعضه، وبحق من يملك نفسى، لن يغشنى أحد فى اللعب. وأنا كلب عجوز، وأفهم نباح الكلاب كله، وأعرف أن أفتح قرائحهم فى أوقاتهم المناسبة، ولا أوافق أن تحوم الذبابات أمام عيني، لأننى أعلم مكان ضغط الحذاء على قدمى. أقول هذا، إن الأخير سينالون ترحيبي وعونى، أما الأشرار فلا قدم لهم ولا مدخل، ويبدو لى أن أمر تلك الحكومات هو فحسب أن تبدأ، ويمكن خلال خمسة عشر يومًا من الحكم أن تأكلنى يدي للإمساك بزمام المهنة، وأن أعرف عنها أكثر مما أعرف عن الزراعة، التى فيها ولدت ونشأت.

قالت الدوقة:

- عندك حق، سانشو؛ فلا أحد يولد متعلمًا، ومن الرجال يصنع الأساقفة، وليس من الحجارة، لكن عاندين إلى حديثنا عن سحر السيدة دولثينيا، فإننى متأكدة، والأمر أكثر من معروف أن الخيال الذى جعل سانشو يخدم سيده، ويجعله يفهم أن الزراعة هى دولثينيا، وأن سيده إذا لم يعرفها، فلأنها مسحورة؛ كل هذا كان اختراعًا لأحد هؤلاء السحرة الذين يطاردون السيد

دون كيوخوتى؛ لأننى أعلم حقيقة وواقعاً من معلومات صحيحة أن القروية التى قفزت على الحمار كانت وتكون دولثينيا دل توبوسو، وأن سانشو الذكى الذى أراد أن يحدد، كان المخدوع، ولا ينبغى الشك من جديد فى هذه الحقيقة مثلما لا نعمل مع الأشياء التى لم نرها قط^(١)، وليعرف السيد سانشو بانثا أننا لدينا أيضاً هنا سحرة يحبونا كثيراً، ويقولون لنا ما يحدث فى العالم فى صدق وبساطة، ودون لف أو دوران أو حيل. صدقتى، سانشو بانثا، بأن القروية الوثابة كانت وتكون دولثينيا دل توبوسو، وأنها مسحورة مثل الأم التى ولدتها؛ وعندما لا يخطر على بالنا، سنراها فى صورتها، وعندئذ يخرج سانشو من الخداع الذى يعيش فيه.

قال سانشو:

— من الممكن أن يحدث كل ذلك، والآن أود الاعتقاد فيما رآه سيدى فى كهف مونتيسينوس، حيث يقول إنه رأى السيدة دولثينيا دل توبوسو فى نفس الثوب واللباس الذى ذكرت أنه رآها فيه، عندما سحرهما فقط لراحتى، وكان لا بد أن يكون على العكس، كما تقولين فخامتكم، ياسيدتى، لأنه بذكائى الخاوى لا يمكن ولا ينبغى أن يقع لى تدبير مثل هذه الخدعة الذكية فى لحظة خاطفة، ولا أظن أن سيدى يمثل هذا الجنون حتى يؤمن بشيء خارج عن كل مألوف، فقط بقدرتى الضعيفة والمسكينة على الإقناع. لكن، يا سيدتى، لا تأخذينى فقط من أجل هذا بجريرة الأشرار، فليس على بليد العقل مثلى أن يكشف تفكير أسوأ السحرة شراً وخبثه. لقد ادعيت ذلك

(١) تقصد هنا الإيمان بالله دون رؤياه.

حتى أهرب من غضب سيدى دون كيخوتى علىّ، وليس بنية إيذائه، وإذا خرج الأمر على عكس ما ظننت فالله فى السموات يعلم ما فى القلوب.

قالت الدوقة:

- هذا هو الحق، لكن قل لى الآن، سانشو، ما هذا الذى تقول عن كهف مونتيسينوس؟ حيث من دواعى سرورى معرفته.

هنا حكى لها سانشو باننا نقطة نقطة كل ما قالته القصة من قبل حول المغامرة، وعند سماع الدوقة له قالت:

- من هذه المغامرة يمكن أن نستدل على أنه مادام دون كيخوتى الأعظم يقول إنه رأى هناك نفس المزارعة التى رآها سانشو عند مخرج التوبوسو، فبدون شك هى دولثينيا، وإن السحرة موجودون هنا فى غاية المهارة والاستعداد، وإفهم فضوليون أكثر من اللازم.

قال سانشو باننا:

- هذا ما أقوله أنا؛ إذا كانت سيدتى دولثينيا دل توبوسو مسحورة، فإن ما وقع عليها من أذى ما كنت قادراً على مقاومته فى مواجهة أعداء سيدى، وهم كثيرون وأشرار. وحقيقة، من رأيت كانت مزارعة، ونظرت إليها باعتبارها كذلك، وحكمت عليها بأنها تلك المزارعة التى رأيت، فإذا كانت دولثينيا، فلم يكن فى علمى، وما كنت قادراً على الدفاع عنها. وليس إلا محاولتهم فى كل لحظة بين قل لى وأقول لك: "سانشو قاله، سانشو ارتكبه، سانشو رجع، سانشو عاد". كما لو كان سانشو إنساناً لا شأن له، وليس هو سانشو باننا الذى يجرى ذكره فى الكتب بذلك العالم وسيجرى فى القادم،

حسبما قاله لى شمشون كارآسكو، الذى هو على الأقل، شخص قد حصل على البكالوريا من سلمنقة، وأمثاله لا يمكن أن يكذبوا إلا إذا وقعوا فى الوهم، أو وافق الكذب مصالحهم، من ثم فليس لأحد أن يتحدانى حيث أحمل شهرة طيبة، وحسبما سمعت من سيدى، أن الاسم الطيب أثن من ثروات غزيرة، أدخلونى هذه الحكومة وسترون عجائب، فمن كان حامل دروع ممتازًا سيكون حاكمًا ممتازًا.

قالت الدوقة:

— كل ما قاله هنا سانشو الطيب أحكام جادة، أو على الأقل مستخرجة من أحشاء حكمة ميكائيل بيرينو فى كتابه "الموت فى زهرة الشباب". فى النهاية، للكلام بطريقته: "تحت الثوب الغلبان يختفى شرب فينان".

أجاب سانشو:

— هذا حقيقى يا سيدتى، لقد شربت فى حياتى بشراهة، ويمكن أن أشرب عندما أحس بالعطش للشراب، لأننى لا أنافق أحدًا فأخفض عطشى إذا حلأ لى، وإذا لم يحل لى، وعندما يقدمون لى الشراب حتى لا أبدو مدللًا أو سئى التربية، أشرب فى منادمة صديق يود أن أنادمه، ومن فى برود الرخام فلا يستجيب لذلك؟ ومع أنى أردتى ملابس داخلية، فإننى لا ألوثها^(١)، وبصفة خاصة أن خدم الفرسان المشائين من المعتاد، تقريبًا، فى حياتهم شرب الماء، لأنهم دائمًا يمشون فى المروج والغابات والمراعى والجبال والعراء دون أن يجدوا رحمة النيذ ولو دفعوا فى مقابلها عينًا من عيونهم.

(١) يقصد أنه يشرب دون سكر، وفوق ذلك فهو لا يجد ما يشرب فى خدمة سيده.

أجابت الدوقة:

- أعتقد فيما تقول، والآن اذهب سانشو لتستريح، فبعد ذلك نتحدث حديثاً أطول، وسوف نعطي أوامر كي تذهب سريعاً لدخول تلك الحكومة، حسب تعبيرك.

من جديد قبّل سانشو يد الدوقة، ورجاها حسن التوصية على بنيه الطيب لأنه نور عينيه. سألت الدوقة:

- أيُّ بنى ذاك؟

أجاب سانشو:

- حمارى، حتى لا أطلق عليه لقب الحمار، اعتدت أن أناديه بالبُنَى، وقد رجوت هذه السيدة القهرماننة عند دخولى القلعة أن تهتم به، ففضبت بطريقة كما لو كنت قد قلت لها إنها قبيحة أو عجوز، لكون أنه من الطبيعى أكثر للقهرمانات إضاءة الصالات أكثر من رعاية الحمير. يرحمنا الله، وكم كان شريراً أحد أعيان قريتنا مع هؤلاء السيدات!

قالت دونيا رودريجيث:

- ما كان إلا فلاحاً، ولو كان من الأعيان وابن أصل لوضعهن فوق قرن القمر.

قالت الدوقة:

- طيب، طيب، لا جدال بعد، اصمتى، دونيا رودريجيث، واهدأ يا سيد بانشا، واجعل مسئولية تدليل (البنى)، لكونه حلية سانشو، على عاتقى، وسأضعه فوق (بنى) عيني.

أجاب سانشو:

- في الحظيرة مادام هو موجوداً؛ أما فوق (نئى) عيون سموكم، فلا هو ولا أنا نستحق البقاء هناك ولو للحظة، وهكذا قد أوافق على قولك كما لو كنت أوجه إلى وجهى لكلمات، وسيدى يقول إنه فى الجمالمة ينبغى أن يفقد الإنسان فى اللعب بالورقة الكسبانية، لكن فى المسألة الجحشية أو الحميرية ينبغى السير بالبوصله فى اليد، وبلغة يتم قياسها.

قالت الدوقة:

- احمه سانشو إلى الحكومة، وهناك يمكنك تدليله كما تحب، حتى لو اعتزل العمل.

قال سانشو:

- لا تظنى فخامتكم، سيدتى الدوقة، أنك بالعت بقولك، فقد رأيت ذهاب أكثر من حمارين إلى الحكومات، وحمل حمارى لن يكون شيئاً جديداً.

عبارات سانشو جدت ضحك الدوقة ورضاها، وبارساله للراحة، ذهبت هى إلى الدوق وحتت له مادار بينهما، وبين الدوق والدوقة تم تدبير مؤامرة ونظام للقيام بخدعة لدون كيوخوتى، صارت مشهورة، وانطبقت جيداً على أسلوب الفروسية، والذى على أساسه دبرا فيما بينهما خدعاً كثيرة وأصيلة وخفية، كانت أفضل مغامرات احتوتها هذه القصة العظيمة.

الفصل الرابع والثلاثون

الذى يحكى خبراً يضم كيفية فك سحر من لا نظير لها دولثينيا دل توبوسو، وتلك واحدة من أشهر مغامرات هذا الكتاب

كان سرور الدوق والدوقة عظيمًا بحديث دون كيخوتى وحديث سانشو بانثا، واتفقا على نية كانت عندهما لعمل بعض الخدع التى لها ملامح ومظاهر المغامرات، وقد حفزهما ما كان قد حكاها لهما دون كيخوتى عن كهف مونتيسينوس، وذلك لاختراع مغامرة تصوير مشهورة (لكن ما أثار عجب الدوقة أكثر بساطة سانشو بانثا التى كانت عظيمة، لدرجة أن يصل إلى الاقتناع بأن دولثينيا دل توبوسو مسحورة باعتبارها حقيقة لا تقبل الخطأ، مع أنه هو نفسه الساحر وصاحب حيلة تلك الخدعة)؛ وهكذا، أعطيا أوامر للخدم بكل ما كان عليهم القيام به، وبمضى ستة أيام على ذلك اليوم حملوه للصيد والقنص، مع مجموعة من القناصين والصيادين لا تجتمع إلا لملك متوج. أعطوا لدون كيخوتى ملابس قناص وملابس شبيهة لسانشو خضراء اللون، وذلك من نسيج بالغ الرهافة، لكن دون كيخوتى لم يحب أن يرتديه قائلاً بأنه من يوم لآخر سوف يعود لممارسة حمل السلاح، ولا يود أن يحمل معه صواناً للملابس أو خزانة للطعام. أما سانشو فقد حمل الثوب الذى أعطوه له مع نية بيعه فى أول فرصة تتاح له لذلك.

وصل يوم الصيد الموعد، وتسلح دون كيخوتى، وارتدى سانشو الثوب، وخرج فوق حماره الذى لم يرغب فى تركه حتى لو أعطوه جوادًا، وحشر نفسه داخل زمرة القناصين. الدوقة نفسها خرجت فى ملاحه التزين، ودون كيخوتى لفرط نقاء أدبه وتهذيبه مضى أخذًا بعنان مهرها، مع أن الدوق لم يرغب فى الموافقة على ذلك، وأخيرًا وصلوا إلى إحدى الغابات، وكانت تقع بين جبلين فى غاية الارتفاع، وأخذوا أوضاعهم، وكمن من كمن، وارتقب كل فى مرتقب، وقد توزع الجمع بين مراكز مختلفة، وبدأ الصيد مع ضجيج كالرعد وصرخات وأصوات، حتى إن أحدًا لم يكن قادرًا على سماع الآخر، ولا سيما مع نباح الكلاب ونفير الأبواق.

ترجلت الدوقة، وببدها حربة حادة، وأخذت موقعًا كانت تعرف أن الخنازير البرية تعودت على ارتياده. وترجل فى نفس الوقت الدوق ودون كيخوتى، واتخذوا موقعين على جانبيها، ووقف سانشو خلف الجميع دون النزول عن حماره الذى لا يجرؤ أن يتركه منبوذًا وحيدًا، حتى لا يحدث له أى عارض يبعده عن الجماعة. ولم تكذ تستقر أقدامهم على الأرض فى شكل مجنح اكتمل بخدم كثيرين رأوا خنزيرًا جبليًا مطارذًا بالكلاب ومتبعبًا بالصيادين، يتجه إليهم هائل الحجم. يقرض على أسنانه وأنيابه فى صرير، قاذفًا بزبد من فمه. عند رؤيته احتضن دون كيخوتى درعه وأمسك بسيفه، وتقدم لاستقباله. صنع الدوق نفس الشيء مع حربته، لكن من أسرع لتقدم الجميع كانت الدوقة، لكن الدوق اعترضها. فقط سانشو عند رؤيته للحيوان الجسور تولى عن حماره، وانطلق يجرى ما استطاع، محاولاً الصعود على شجرة حور عالية، ولم يكن ممكنًا، بل لم يكذ يتسلق منتصف الجذع حتى أمسك بأحد الفروع مناضلاً للصعود، لكنه كان فى قلة من الحظ، وفى حظ من النكد، حتى إن الفرع انقلع عن الشجرة ليصير سانشو فى الهواء، وقد اشتبك به

خطاف مصنوع من بقايا فرع قديم مقروع، فلم يتمكن سانشو من الوصول إلى الأرض. وهكذا عندما رأى نفسه كذلك، وأن الشجرة تخربش ثوبه الأخضر، وحسب تهيؤاته فإن الحيوان المتوحش لو وصل إليه يمكنه إدراكه، من ثم بدأ يطلق صرخات متوالية، طالبًا النجدة في إلحاح، حتى إن كل من كانوا يسمعونه ولا يرونه ظنوا أنه كان بين أنياب أحد الوحوش. أخيرًا، تم اعتراض الخنزير الجبلي المحنك بالطعنات من حراب كثيرة أحسنت استقباله صريعًا، وعندها أدار دون كيخوتي رأسه نحو صرخات سانشو، حيث تعرفوا عليها جميعًا، وراه مشعلًا في شجرة الحور ورأسه إلى أسفل، والحمار إلى جانبه، حيث لم يهجره في الشدة، ويقول سيدى حامدى إنه فى مرات قليلة روى سانشو دون الحمار، أو روى الحمار دون سانشو، وإلى هذا الحد كانت الصداقة بينهما والإخلاص.

وصل دون كيخوتي وخلص سانشو، الذى بمجرد أن رأى نفسه محررًا وعلى الأرض، نظر إلى التمزق فى ثوب القنص، وانقبض قلبه وأحس بفقدان ابن له. خلال ذلك ألقوا بالخنزير السريع فوق دابة، وغطوه بأعشاب إكليل الجبل وبعض فروع الريحان، وحملوه دليلًا على تصفية أرض معركة منتصرة، وذلك إلى خيام كبيرة نصبوها لحملتهم فى قلب الغابة، حيث وجدوا الموائد منضودة، والطعام معدًا عليها هائلًا وعظيمًا، يشهد بروعة من يقدمه وعظمته. وكان سانشو يعرض على الدوقة ما أصابه وأصاب الثوب من خربشة، وقال:

- إذا كان هذا الصيد لأرانب برية وعصافير ما كان يصل الأمر بثوبى إلى هذه الكارثة، أنا لا أعرف أى لذة فى انتظار حيوان إن أدرككم بأنيايه استل منكم الحياة، وأنا أتذكر أننى سمعتهم يغنون رومانث قديم يقول:

لتأكلك الدببة

مثل فاييلا المشهور

قال دون كيخوتى:

– فاييلا هذا كان ملكاً قوطياً، ذهب للقنص فأكله الدب.

أجاب سانشو:

– هذا ما أقوله، فما كنت أحب أن يضع الأمراء والملوك أنفسهم في مثل هذا الخطر، مقابل لذة غير مبررة، تتحقق بقتل حيوان لم يرتكب أية جريمة.

أجاب الدوق:

– وعلى الرغم من ذلك تخدعون أنفسكم، لأن ممارسة القنص هي أنسب رياضة للأمراء والملوك؛ فالقنص صورة للحرب، فيه استراتيجيات وتدبير ودسائس للتغلب على العدو نظير النجاة من خطره، كما أن من يمارسه يعانى من برد قارس ومن حر لا يحتمل، ويهمل البطالة والنوم، وتتعزز فيه قوى الجسد، وتنشط أعضاؤه. باختصار، هو رياضة تمارس دون إضرار بأحد، ومع بهجة وسرور للكثيرين، وأفضل ما فيه أنه ليس متاحاً للجميع، مثل أنواع أخرى من الصيد، باستثناء الصيد بالطيور الجارحة، الذى هو فحسب للملوك وعظماء الرجال. وهكذا، أوه سانشو! غير رأيك، وعندما تصير حاكماً اهتم بالصيد، وسوف ترى أنك سوف تكسب أضعافاً مضاعفة.

أجاب سانشو:

– هذا لا؛ فالحاكم الصالح، ذو رجل مكسورة ويلزم بيته^(٦) هل من الخير أن يأتى إليه ذوو الحاجات فى انتظار أن يجهد من أجلهم، فيجدونه يهنأ فى قنصه؟! هكذا

(٦) يطبق سانشو المثل النسائى " امرأة شريفة، رجل مكسورة، وبقاء فى البيت!

ستسير الحكومة في طريق سيئ! قسمًا، سيدي، فإن الصيد وألعاب ترقية الفراغ خلقت أكثر للكسالى وليس للحكام، والذي أفكر في التسلي به بعض ألعاب الورق في الأعياد، ولعب البولو في الآحاد والإجازات، أما ذلك الصيد أو الصيد^(١) فلا يناسب ظروفى أو يرضى ضميرى.

- ادع الله أن يكون الأمر كذلك، سانشو، لأنه بين القول والعمل أخذود عميق.

أجاب سانشو:

- ليوجد ما يكون، فإن الحاكم الصالح يفى بكلمته، والله يساعد من يبكر في الاستيقاظ، والأقدام تحمل البطون، لكن البطون لا تحمل الأقدام. أود القول بأنه إذا ساعدنى الله، وفعلت ما على فعله بنية، فلا شك أنى سوف أحكم أفضل من البزاة المدربة، ليس عليكم إلا أن تضعوا إصبعكم فى فمى حتى تروا هل أعض؟ أو لا!؟

قال دون كيخوتى:

- لعنك الله، سانشو، ولعنك كل القديسين! متى يصل اليوم، وقد ذكرت لك ذلك مرارًا، الذى سوف أراك فيه تتكلم دون أمثال بعبارة عادية وصائبة. سموكما اتركا هذا الأبله حتى لا يطحن لكما النفس التى لا تحاصر فحسب بين رحى مثلين، إنما بين ألفين من الأمثال التى تتثال فى مواسمها وفى وقتها المناسب، مادام متمتعًا بصحته، أو مادمت مستعدًا لسماعها.

(١) لعب لغوى لا معنى له إلا تأنيث كلمة الصيد للنفى القاطع.

- أمثال سانشو بانثو مع أمثا أكثر من أمثال الراهب الإغريقي، فليس هذا سبباً لتقديرها أقل بفضل إيجاز أحكامها، بالنسبة إلى تسرى أكثر من غيرها من الأمثال، حتى لو كانت هذه جيدة الانطباق على مضرب المثل.

مع هذه وغيرها من العبارات المسلية غادروا الخيمة إلى الغابة، وفي البحث عن كمائن أخرى للصيد انقضى يومهم سريعاً، وهبط عليهم الليل، ولم يكن بهذا النور الفضى أو بالهدوء المتوقع من ليل منتصف الصيف، لكن مع شىء من الظلام والحرارة، مما ساعد مقاصد الدوق والدوقة. وهكذا حالماً دخل الليل مبتعداً عن لحظة شفق الغروب قليلاً، وفجأة ظهر في كل الغابة أن النيران تتضرم بها من الأركان الأربعة، وسمعوا من هنا ومن هناك ومن تلك الناحية ومن الناحية المضادة أبواقاً لا أول لها ولا آخر، وآلات أخرى حربية، كما لو كانت لجنود غفيرين من سلاح الفرسان يمرون بالغابة. نور النيران وأصوات الآلات الحربية تقريباً أعمت البصر وأصمت الآذان لكل الموجودين، بل لكل من كان في الغابة. وفي الحال سمعوا تهليلاً لجنود عرب غطي الآفاق، كما هي عادة هؤلاء عند الدخول في الحرب؛ ودقت طبول وأبواق من كل نوع، وأعدت طبول وانطلقت مزامير، تقريباً كل ذلك في وقت واحد، واستمر متسارعاً، وبالتالي فلا معنى لأن يبقى أحد دون أن يضطرب لكثرة الآلات. ذهل الدوق وشدهت الدوقة، واستولى التعجب على دون كيوخوتى، وارتعد سانشو بانثو، وأخيراً، حتى أولئك الذين يعلمون الملعب تولاهم الفزع، ومن الخوف أخذهم الصمت، وظهر حوذى بريد في لباس شيطان مارذ من أمامهم نافخاً بدلاً من البوق قرناً فارغاً هائل الحجم، مخلفاً وراءه صوتاً أجش مخيفاً.

قال الدوق:

- أهلا أيها الأخ البريدي، من أنت؟ وإلى أين تمضي؟ ومن هؤلاء العسكر الذين يبدو أنهم يعبرون الغابة؟

أجاب البريدي بصوت مرعب وطلق:

- أنا الشيطان، أمضى باحثاً عن دون كيخوتي دي لامانشا، أما العسكر فهم ستة جيوش لسحرة يحضرون -على عربة مظفّرة- التي لا نظير لها دولثينيا دل تويوسو، تأتي مسحورة مع الفرنسي الشجاع مونتيسينوس، كي تعطي أمراً لدون كيخوتي حول كيفية فك سحرها.

- إذا كنت شيطاناً كما تقول، وكما يظهر من صوتك، لكنك عرفت أن ذلك الفارس دون كيخوتي دي لامانشا موجود أمامك.

أجاب الشيطان:

- بالله وبوحي ضميري لم أكن أنظر إليه، لأنني أمضى وفكري مشغول بأشياء كثيرة مسلية، فنسيت الفكرة الأساسية التي جئت من أجلها.

قال سانتشو:

- دون شك، إن هذا الشيطان لا بد أن يكون رجل خير، ومسيحياً تقيّاً؛ لأنه إن لم يكن كذلك ما كان سيقسم بالله وبضميره، والآن بالنسبة لي أعتقد أن في نفس الجحيم يوجد أناس طيبون.

وفى الحال الشيطان، دون أن يترجل وجه نظره إلى دون كيخوتي، وقال:

- بالنسبة لك يا فارس الأسود (وإني أراك بين مخالبتنا)، يرسلني إليك المنكوب الفارس الشجاع مونتيسينوس، وقد أمرني أن أقول لك على لسانه أن تنتظره في نفس المكان الذي عثرت فيه عليك، بسبب أنه يحضر معه التي يطلقون عليها دولثينيا دل توبوسو، مع أمر بإعطائك ما هو ضروري كي تفك السحر عنها، ولأن حضوري هنا ليس لغير ذلك، فلا يحل البقاء أكثر، حمتك الشياطين أمثالي، ولتبق الملائكة الطيبون مع هؤلاء السادة.

ومع قوله هذا نفخ في القرن الهائل، وأدار ظهره ومضى منصرفاً دون انتظار إجابة من دون كيخوتي.

تجددت دهشة الجميع، بصفة خاصة سانشو ودون كيخوتي؛ لأن سانشو عند رؤيته أنه رغم أنف الحقيقة يودون أن تكون دولثينيا مسحورة، ودون كيخوتي لأنه لم يستطع التأكد من أن ما حدث له في كهف مونتيسينوس كان حقيقياً أو لم يكن، وبينما هو يسرح مع هذا الفكر، قال له الدوق:

- هل تفكر فخامتكم، أيها السيد دون كيخوتي، في الانتظار؟

أجاب دون كيخوتي:

- وهل ترى العكس؟ هنا سأنتظر جسوراً وقوياً، حتى لو جاء للاحتيال على كل من في جهنم.

قال سانشو:

- وأنا إذا رأيت شيطانًا آخر، وسمعت قرناً آخر مثل ما مضى، لن أتوانى عن الانتظار هنا كما لو كنت في فلانديس^(١).

خلال ذلك أظلم الليل أكثر، وبدأت أضواء كثيرة تتجول فى الغابة كما تدور الشهب الثاقبة فى السماء، التى تبدو لعيوننا مثل نجوم تجرى. وسمعوا فى نفس الوقت ضجة تشبه العجلات الصماء للعربات التى تجرها الثيران، التى يقال إنه من صزيرها الخشن والمستمر تهرب الذئاب والذبية، إذا تصادف وجودها فى مكان مرورها. وقد أضيفت لكل تلك العاصفة عاصفة أخرى، حيث بدأ بشكل حقيقى قيام أربع معارك فى الأركان الأربعة للغابة؛ حيث دوى انفجار قاس لمدفعية مخيفة هناك، وفى مكان آخر كانت رصاصات بنادق تنطلق بلا آخر، وقريب من كل هذا كانت أصوات المقاتلين ترن، وبعيداً عنها تكرر تهليل المسلمين. أخيراً، الأبواق وألف نفير مع الطبل وأصوات النفخ فى القرون والمدفعية ورصاص البنادق، وأفزع من كل هذا الأصوات المخوفة للعربات، كل هذا شكلاً إيقاعاً شديد الاضطراب والرعب، حتى صار على دون كىخوتى أن يستهلك كل الطاقة فى قلبه الجسور كى يعانيه، لكن سانشو سقط على الأرض مغشياً عليه، تحت ذيل ثوب الدوقة التى استقبلته به، وفى سرعة عظيمة أمرت برش وجهه بالماء، وعاد إلى وعيه فى الوقت المناسب، ليدرك قدوم عربة من تلك العربات المصمة.

كان يجرها أربعة ثيران كسولة، وكلها مغطاة بزخارف سوداء، وفى كل قرونها ربطت شعلة من الشمع مضاءة، وفوق العربة أعد مقعد عالٍ، جالس عليه عجوز موقر بلحية أكثر بياضاً من الشمع، وطويلة إلى أبعد من خصره، وثيابه طويلة سوداء، مزخرفة بكثير من الألوان والبريق، ولأن العربة كانت قادمة

(١) دون خوف.

مضاعة كان من الممكن تمييز كل ما كان عليها وحصره. كان يقودها زوج من الشياطين القبيحة، يرتدون مثل ثياب صاحب المقعد العالى، وجههما فى غاية القبح، حتى إن سانشو عندما رآهما أغمض عينيه كى لا يراها مرة أخرى، وعند اقتراب العربية من موقعهم، نهض صاحب المقعد وقال بصوت عظيم :

- أنا الحكيم ليرجانديو.

ومرت العربية متقدمة دون أن يضيف كلمة أكثر، وخلفها مرت عربية أخرى بنفس الطريقة، وبها عجوز آخر على عرشه، أوقفها وقال بصوت لا يقل خطورة:

- أنا الحكيم القيفى، الصديق العظيم لأورجاندا المجهولة.

وبنفس الهيئة بعد ذلك جاءت عربية أخرى، لكن من كان يشغل العرش لم يكن عجوزاً مثل الباقيين، وإنما شاب قوى، وسيئ الخلق، والذى عند وصوله نهض مثل السابقين، وقال بصوت أجش أكثر، وأبعد فى الشيطانية:

- أنا أركلاوس الساحر، والعدو المميت لأماديس دى جاولا، ولكل أقاربه.

وتقدم فى طريقه، وما إن انصرفوا عن هناك حتى توقفت هذه العربات الثلاث، وسكنت ضجة العجلات الغاضبة، وهنا سمع صوت آخر، ليس ضاجاً، وإنما هو صوت ناعم ومتدفق لموسيقى ابتهج به، سانشو وأخذة كبشرى؛ وهكذا قال للدوقة، التى لم ينفصل عنها لحظة واحدة أو خطوة:

- سيدتى، حيث توجد الموسيقى لا يمكن أن يقع شئ سيئ.

وأجابت الدوقة:

- وأيضاً حيث توجد أضواء ووضوح.

وعلى هذا علق سانشو:

- النور تعطيه النار، والوضوح تعطيه الحرائق، كما نراه فيمن يحاصروننا، ومن المحتمل أن يحرقونا، لكن الموسيقى دائماً مؤثر على البهجة والاحتفال.

قال دون كيخوتى الذى كان ينصت لكل شىء:

- الأحداث سوف تتكلم.

وقد أحسن القول كما يبرهن على ذلك الفصل التالى.

الفصل الخامس والثلاثون

حيث تتم متابعة خبر فك سحر دولثينيا الذي تلقاه دون كيخوتى، ووقائع أخرى مدهشة

على إيقاع الموسيقى رأوا عربية قادمة نحوهم من تلك التى يطلق عليها (الظافرة)، تجرها ستة بغال داكنة، على الرغم من تزيينها بغطاء من قماش أبيض، وعلى كل بغل متعبد من نور، وفي نفس الوقت مرتديًا ثوبًا أبيض مع شعلة من الشمع كبيرة مضاءة فى يده. كانت العربية أكبر مرتين أو حتى ثلاث مرات عن العربات السابقة، وفوقها اثنا عشر متعبدًا آخرون بيض مثل الثلج، وكلهم بشعلاتهم مضاءة، منظر مدهش ومخيف معًا، وعلى عرش مرتفع ظهرت حورية من حور الغاب والأموات جالسة، مرتدية ألف حجاب من الفضة التى تلمع، بفضل امتلائها بأوراق من الذهب تطرزت بها، والتى إن لم تجعل الحورية غنية تجعل رداءها ملء السمع والبصر. كان وجهها مغطى بحرير سندال شفاف ورقيق فى رهافة، يتدلى على هيئة خيوط لا تحول دون رؤية وجه شديد الحسن لصبية، وكثرة الأضواء أفسحت فضاء لتميز الجمال وسنوات الصبا التى لم تكن تفوق العشرين ولا تتدنى عن السبعة عشر، وكان بجانبها شخص يرتدى ثوبًا مما يسمى "روثا جانتيس" طويل وفخيم، يصل إلى القدمين مع حجاب أسود على الرأس، لكن لحظة وصول العربية وجهًا لوجه مع الدوق والدوقة ودون كيخوتى توقفت موسيقى المزامير، ثم موسيقى الرباب والعود التى كانت تصدر من فوق العربية، وقامت تلك الفتاة ذات الثوب الطويل، وشفته من جانبيه، وكشفت عن وجهها الحجاب، لتكشف

بوضوح أنها نفس شخص الموت مجسمًا وقبيحًا، حتى إن منظره أثقل على دون
كيخوتى، وأفزع سانشو، وعبر الدوق والدوقة عن شعور بالخوف. وهكذا ناهضًا
وممشوقًا شخص الموت الحى هذا بصوت بعض الشيء نائم، وبلسان ليس واضح
الاستيقاظ، شرع فى القول بهذه الطريقة:

– أنا ميرلين ذلك الذى عنه الحكاوى

تقول إننى لى من الشيطان أب

(كذبة أعطتها مصداقية الدهور)

أمير السحر بل ملكه

وأرشيف علم زرادشت

وصنو الأعمار والدهور

التي فى طيها تخفى المحاسن

محاسن المشائين من الفرسان الجسورين

الذين أكن لهم ودًا عظيمًا

رغم أنف الساحرين

المشعوذين، السحريين الدائمين،

ظرف قاس، خشن، قوى

وظرفى غض، طرى، ودود

وأنا صديق لفعل الخير ولكل الناس

في الكهوف المظلمات لإله الجحيم
حيث كانت روحى تتسلى
في تشكيل اتجاهات دورية وشخص
وصلنى الصوت المتألم للجميلة
والتي لا نظير لها دولثينيا دل توبوسو
عرفت سحرها ونكبتها
وتحوها من سيدة رقيقة
إلى فلاحه جلفة وثابة
وهكذا أودعت روحى فى جوف
هذا الهيكل العظمى المرعب الوحشى
بعد أن قلبت مئة ألف كتاب
من علمى هذا المشيطان المتعثر
وكان حضورى لتقديم علاج يناسب
هذا الألم الضخم، سبب الضخامة
أوه، أنت المجد والشرف لكل من يرتدى
عباءات من حديد، وجواهر،
أيها النور، والمنار، والطريق، والبوصلة، والمرشد
لكل هؤلاء الذين عند تركهم النوم المتعثر،

وأقلام البطالة، استقروا
على اعتياد ما لا حل له
من سلاح دام ثقیل
لك أقول، أيها الرجل كما يكون الرجال،
صاحب الثناء الأزلى، لك أيها الشجاع
والذكى معاً، دون كيخوتى
إشراق لامانشا، ونجم إسبانيا
حتى تستعيد سيرتها الأولى
من لا نظير لها دولثينيا دل توبوسو
ضرورى أن سانشو خادملك
ينال ثلاثة آلاف وثلاثمئة جلدة
على رد فيه الجسورتين كلتيهما
بعد تعرضهما للهواء منكشفتين
لاستخراج لبه، وتمرير عيشه، وإغضابه
بهذا تنحل جميعاً
كل أسباب نكبتها
ولهذا كان حضورى أيها السادة

هنا قال سانشو:

- أقسم على ذاك! لا أقول أنا ثلاثة آلاف سوط، لكن لو جلدت نفسي ثلاثاً ستكون مثل طعنات خنجر ثلاث. يا لشیطان طريقة فك السحر! أنا لا أدري ما علاقة أردافى بالسحر! بحق الله، إذا كان السيد ميرلين لم يجد طريقة أخرى لفك سحر السيدة دولثينيا دل توبوسو، فيمكنها الذهاب إلى قبرها مسحورة!

قال دون كيخوتى:

- على أن أرغمكم أيها السيد الفلاح، متبجح العينين، وعلى أن أربطكم إلى هذه الشجرة، عارياً كما ولدتك أمك، ولا أقول ثلاثة آلاف وثلاثمئة بل ستة آلاف وستمئة جلدة سوف أعطيك، متتاليات تسبق كل جلدة الأخرى فلا تملك إلا عد الثلاثة آلاف وثلاثمئة سحبة للوسط. ولا ترد على بكلمة وإلا نزعنا روحك من بين جنبيك.

عند سماع ميرلين ذلك قال:

- لا ينبغي أن يحدث ذلك هكذا؛ لأن الأسواط التي على السيد سانشو استقبلها لا بد أن تكون بإرادته، وليس بالقوة، وتكون في الوقت الذي يجب، فلا يوضع لها موعد فئائي، ويسمح له إذا هو أحب تلك التضحية أن يستقبل النصف من يد غير يده، حتى لو كان ذلك ثقيلاً عليه بعض الشيء.

أجاب سانشو:

- لا يد غير يده أو نفس يده ولا ثقيلة أو ستثقل، بالنسبة لي لن تمس أردافى أى يد مهما كانت. هل بالصدفة أنجبت أنا السيدة دولثينيا دل توبوسو، حتى

تدفع أردافى إثم عينيها؟ السيد سيدى نعم، فهى جزء منه، حيث يطلق عليها
(حياتى، روحى)، وهى غذاء له ونجدة، ويمكنه بل يجب عليه أن يجلد من أجلها،
وعمل كل المساعى الضرورية لفك سحرها، لكن جلدى أنا؟ ... لا الفتة!

لم يكد سانشو ينتهى من قوله حتى نهضت الحورية المذهبة على قدمها، تلك
الحورية التى جاءت بصحبة الروح ميرلين، وخلعت الحجاب الرقيق عن وجهها،
كاشفة له هكذا، لتبدو أكثر من (جذّ) جميلة، وفى طلاقة ذكورية، وصوت ملئ
بالأنوثية، متحدثة مباشرة إلى سانشو، قالت:

- أوه، أيها الخادم النكد، والنفس المتحجرة، ويا قلب شجر الفلين، ويا وجدان
الخصى والزلط. إذا أمروك، أيها اللص الفاسق، أن تلقى بنفسك من برج
عال على الأرض، وإذا طلبوا منك، يا عدو النوع الإنسانى أن تأكل دسنة
ضفادع جبلية، وسحليتين، وثلاثة ثعابين، وإذا أقنعوك أن تقتل زوجتك
وأولادك بمنجر قاطع وحاد، لن تكون معجزة أن تظهر نفسك ترفض وتنفر،
لكن أن تعطى أهمية لثلاثة آلاف وثلاثمئة جلدة، التى لا يوجد طفل يتيم،
ومهما كان ضعيفاً، إلا ويشربهم كل شهر، حتى إنك تدهش وتذهل وتفزع
كل الرحاء من أعماق روحهم بين من يسمعونك، بل بين كل من سيعرفون
الأمر فى الأزمان القادمة ضع (أيها البائس والحيوان القاسى!) أقول ضع
عينيك هاتين (اللتين يشبهان عيني أم قويق المدعورة) فى نئى عيني هاتين (التي
تشبه النجوم المترققة)، وتصور بكاءها من خيط دموع لخيط دموع آخر،
بل من (شلة) خيط إلى (شلة) أخرى، صانعة أحماديد، وطرقاً، وسبلاً، فى
الحقول الجميلة لخدودى. تحرك، أيها الداهية، والمسوخ سيئ النية، فإن عمرى

في زهرته (الذى لم يبلغ حتى الآن... وعشرة من الأعوام، فأنا عندى تسعة عشر، ولم أبلغ العشرين) يستهلك ويذبل تحت قشرة جلد فلاحه خشنة، وإذا كنت الآن لا بد أبدو كذلك، فبفضل خاص أنعم علىّ به ميرلين، الذى هو معنا، حتى يرقق جمالى قسوة القلوب، فإن دموع جمال كسير يحول الصخور إلى قطن والوحوش إلى نعاج. اقبل، اقبل هذه اللمسات التى لن تصل إلا إلى الوجه الآخر لجلدك، أيها الدابة غير الأليفة، واكشف عن هذا التلاؤؤ أفضل من أن تأكل ثم تأكل أكثر ولا ميل لك إلا ذاك، أطلق سراح نعومة بشرتى وسلسبيل حياتى وجمال وجهى، وإذا كنت لا تود أن تلين أو تخضع من أجلى، فليكن من أجل هذا الفارس المسكين الذى تعيش بجانبه باعتباره سيداً لك، وأقول، إننى أرى الآن روحه وقد وصلت الحلقوم، وليس بينها وبين الفم أكثر من عشرة أصابع، ولا تنتظر إلا إجابتك القاسية أو الحانية، حتى تخرج من الفم أو تعود إلى المعدة .

أغوى سماع دون كبحرتى موضوع الحلقوم ذاك، فالتفت للدوق، وقال:

- بحق الله، يا سيدى، إن دولثينيا قد صدقت، فهذا أنا أرى روحى فى حنجرتى مثل بندقة من الصلب تكاد تقذفها قوس.

سألت الدوقة سانشو:

- ما قولك فى هذا سانشو؟

أجاب سانشو:

- لا الفتة إلا، بالنسبة للجلد، هذا ما قلته من قبل يا سيدتى وأعود لقوله.

قال الدوق:

— عليك أن تقول، سانشو: "لا البتة" أو "بتأناً أبداً" أما الفتة تلك فلا!

أجاب سانشو:

— دعنى وشأني؛ فلست الآن صالحاً لتعلم حرف أكثر أو حرف أقل، لأن هذه الجلدات بالسوط التي عليهم ضربها لي أو على ضرب نفسي بها تتركني متعكراً مضطرباً، فلا أدرى ماذا أقول، وماذا أفعل. لكنني أود أن أعرف من سيدتي السيدة دولثينيا دل توبوسو من أين تعلمت أسلوب التوسل الذي تستعمله؛ تأتي طالبة أن أسلم جلدي للسوط، وتطلق على النفس المتحجرة والدابة غير الأليفة، في سلسلة من الهمز واللمز، لا يتحملها الشيطان نفسه. بالصدفة هل لحمى من البرونز أو سوف أكسب شيئاً من فك سحرها أو عدم فكها؟ أى سلة من الغسيل النظيف وأدوات الزينة تفرشها أمامي لتلين قلبي، ولم تكن إلا سلة إهانات، وهي تعرف ذلك المثل السائر بيننا أن حماراً يحمل حمولة ذهب تسهل عليه مهمة صعود الجبل، وأن الإنعام بالهدايا يفتت الصخر، وإلى الله متوسلاً، وبالطريقة عاملاً، وأن من اقترب منى قبراً طأ اقترب منك قبراً طين. وهذا السيد سيدي بدلاً من أن يتملكني ويربت على كفتي يقبض على ويربطني بشجرة، ويضاعف لي عدد الجلد، وكان على هؤلاء السادة النعساء أن يضعوا في اعتبارهم أنهم يطلبون جلد حاكم وليس الخادم، وكما يقول من يقول: تصدق على حتى أقبل أن أكون سيدك. تعلموا، تعلموا، بدلاً من الشر، كيف التوسل والرجاء ومعرفة طلب الأشياء وإبراز حسن التربية، فليست كل الأوقات مثل بعضها، ولا الرجال دائماً في مزاج مرح. وأنا الآن أنفجر من الألم لرؤية ثوبي الأخضر ممزقاً، وفي هذه

اللحظة بالذات، تأتون تطلبون أن أجدل يرادتي، وإرادتي صارت غريبة
بسبب الثوب، فكيف أستعيدها؟

قال الدوق:

— إذن في الحقيقة، أيها الصديق سانشو، إذا لم تكن تدين مثل شجرة بلوط
استوت على عودها، فإنكم لا ينبغي أن تقبض على زمام الحكومة. هل من
الخير أن أرسل لرعاياي في الولاية حاكماً قاسياً، ذا وجدان متحجر، لا يخنو
أمام دموع الصبايا المنكسرات، ولا لرجاءات الفطناء والملحفين والسحرة
الأقدمين والحكماء؟ باختصار، سانشو، إما عليك أن تُجلد أو تتنازل عن
الحكومة .

أجاب سانشو:

— سيدي، ألا تعطونني يومين مهلة للتفكير فيما هو أفضل لي؟

قال ميرلين:

— لا، لا بأية حال من الأحوال. هنا وفي هذه اللحظة، لا بد من الوصول إلى
قرار في هذا الشأن: إما أن تعود دولثينيا إلى كهف مونتيسينوس، على حالتها
الأصلية فلاحه، وإما أن توافق، فترسل إلى المروج الفردوسية كما هي في
انتظار إنجاز العدد كاملاً للجلد.

قالت الدوقة:

— هيه، سانشو الطيب، فلتكن أميناً على الخبز الذي أطعمه لك السيد دون
كيخوتي، الذي علينا جميعاً خدمته والعمل على سروره، لنبله ولسمو

فروسيته. قل نعم، يا ابني، واقبل هذا المهرجان السوطي، وليذهب الشيطان إلى الشيطان، والخوف إلى التعاسة، وقلب طيب يكسر صخرة الحظ غير الطيب، كما تعرف.

على هذه العبارات أجاب سانشو بتلك السفاهات محدثًا ميرلين، وسأله:

- قل لي فخامتكم، يا سيد ميرلين، عندما جاء هنا شيطان البريد، أبلغ سيدي رسالة من السيد مونتيسينوس، طالبًا من طرفه إليه أن ينتظره هنا، لأنه في الطريق إلى هنا لإعطاء أمر به يفك سحر السيدة دولثينا دل توبوسو، وحتى الآن لم يظهر السيد مونتيسينوس ولا أثر له.

على هذا أجاب ميرلين:

- أيها الصديق سانشو، الشيطان جاهل وشرير أعظم، ولقد أرسلته أنا بحثًا عن سيدك، لكن ليس برسالة من مونتيسينوس، وإنما برسالة مني، لأن السيد مونتيسينوس في كهفه ينتظر، وفي قول أدق، يترقب فك سحره، فما زال من زمن سحره بقية، وإذا كان يدين لك بشيء، أو لديك شيء من عمل معه، أنا أحضره لك وأضعه أمامك حيث شئت. والآن، انتبه من قول نعم لهذا الجلد، واعتقد فيما أقوله من أنه سيكون له نفع عظيم لكم، مادياً وروحياً، لأنني أعلم أنكم من مزاج دموي، ولن يتمكن من إحداث ضرر لك إسالة بعض دمك.

أجاب سانشو:

- ما أكثر أطباء العالم مادام بين السحرة أطباء، ومع ذلك فالكل يقول لي ذلك، وأنا لا أراه كذلك، أقصد، أقول إنني راضٍ بإعطائي ثلاثة آلاف وثلاثمائة جلدة بيدي، بشرط أن أفعل ذلك في كل مرة ومتى أحب، دون أن يوضع

لى سقف لأيام أو لزمان محدد، وسأحاول أن أقى بالدين بأسرع ما يمكن، حتى يتمتع العالم بحسن السيدة دولثينيا دل توبوسو، فطبّقاً للظاهر، وعلى عكس ما كنت أفكر، هى بالفعل حسناء. وهناك شرط آخر هو ألا أكون مجسراً لإسالة الدم مع الجلد، وأنه إذا خرجت سحبة السوط فى إحدى المرات مثل هس الذباب ينبغي مع ذلك حسابها. وفوق كل هذا، إذا أخطأت فى العد، والسيد ميرلين يعرف كل شىء، فالواجب أن يحسب لى، وإخطارى بالعدد الناقص أو الزايد.

أجاب ميرلين:

- لا ينبغي إخطارك بما يزيد على العدد، لأنه عند وصولك لإكمال العدد سينفك تلقائياً سحر السيدة دولثينيا، وستأتى إليك لشكر سانشو الطيب، وحتى لتقديم الجوائز لهذا العمل الطيب. وهكذا فلا ينبغي معاناة شكوك حول الزيادة أو النقص، ولا حتى السماء سوف تحملنى على خداع أحد ولو بقدر شعرة.

قال سانشو:

- إذن، توكلنا على الله. أوافق على سوء حظى، أقصد أقبل تعذيب النفس هذا بالشروط المذكورة.

بمجرد أن قال هذه الكلمات الأخيرة، عادت موسيقى المزامير، وعادت لإطلاق بنادق لا حصر لها، وتعلق دون كيخوتى برقبة سانشو طابعاً آلاف القبلات على جبهته وخديه. والدوقة وكل المحيطين أبدوا دلائل سرور عظيم، وبدأت العربة فى التحرك، وعند مرور دولثينيا الحسنة انحنت للدوقة والدوق، وعبرت عن عظيم احترامها لسانشو.

وخلال هذا كان الفجر يقدم بخطوات أسرع، مبتهجا ضاحكا، وزهرات المروج شمخت بأعناقها واشرأبت، وكريستال النهيرات السائل بدأ يهمس بين حصاها الأبيض والملون، معلنا إرسال مساهمات للأنهار التي تنتظر. الأرض في سرور والسماء في صفاء، والهواء في نقاء، والنور هادئ، حتى إن كل واحد في نفسه، والجميع معا أبدوا ما يشير إلى قدوم يوم هادئ شفاف، ها هو يخطو خطواته الأولى على ذيل تنورة الفجر. وفي رضا عن الصيد، وتحقيق في كياسة النهاية السعيدة للقصد، عاد الدوق والدوقة إلى القلعة، مع نية تكرار الحيل والخدع، التي بالنسبة لهما هي مصدر للسرور والحبور، لا يعادله مصدر آخر.

الفصل السادس والثلاثون

حيث تحكى المغامرة الغريبة، والتي لم يسبق لخيال تصورها عن القهرماننة المقهورة الشهيرة بالكوتتيسة تريفالدى، مع رسالة كتبها سانشو بانثا لزوجته تريزا بانثا

كان عند الدوق مدير للقصر صاحب سخرية ومزاج طلق، وهو الذى مثل صورة ميرلين، وأدار كل جهاز المغامرة الماضية، وهو الذى ألف أبيات الشعر، وعمل على أن يقوم غلام خدام بدور دولثينيا. وأخيراً بتدخل من سيديه نظم مغامرة أخرى، فيها أعرب الصنعة وأظرفها مما يمكن للخيال تصوره.

سألت الدوقة اليوم التالى سانشو عما إذا كان قد بدأ مهمة تعذيب النفس التى عليه ارتكابها من أجل فك سحر دولثينيا، قال نعم، وأنه فى تلك الليلة ضرب نفسه خمس جلدات. سألته الدوقة بم جلد نفسه؟

أجاب أنه فعل ذلك بيده.

ردت الدوقة:

- هذا كثير، تضرب نفسك بكف يدك بدلاً من السوط؟ أنا أظن أن الحكيم ميرلين لن يرضى بكل هذه الطراوة والتهاون، سيكون من الضرورى أن يصنع سانشو الأمين سوطاً من تلك الأنواع الحقيقية التى تجعل المسوط بها

يتألم ويحس، لأنه "لا يدخل الحرف إلا بالنزف"، ولا ينبغي أن يكون التحرير رخيصاً إلى هذا الحد لسيدة عظيمة مثل دولثينيا التي تستحق أكثر من هذا السعر القليل، واعلم، سانشو، أن أعمال البر التي تؤدي فائدة وبضعف لا جدارة لها ولا تساوي شيئاً.

وعلى هذا أجاب سانشو :

- أعطني عظمتكم سوطاً أو فرع شجرة مناسباً، وسوف أضرب نفسي به، بشرط ألا يؤلمني بزيادة، لأنني أعلم فخامتكم بأنه مع أنني قروى فإن لحمي به من القطن أكثر من حشائش الحلفاء، وليس من الخير أن أحمل جسمي الضئي من أجل نفع غيري.

قالت الدوقة:

- على الرحب والسعة، أنا سأعطيك غداً سوطاً، يناسب بالضبط، ويتفق مع طراوة لحمك، حتى تعامله باعتباره أخاً شقيقاً.

علق سانشو:

- اعلمي سموك سيدتي ومالكة نفسي، أنني لدى رسالة مكتوبة لزوجتي تيريزا بانثا، لإعلامها بكل ما حدث لي بعد أن غادرتها، وها هي معي ولا ينقصها إلا وضعها في مظروف، وأود لفطنتك أن تطلعي عليها لترى عما إذا كانت لغتها تناسب أسلوب الحكام.

سألت الدوقة:

- ومن وقع الرسالة؟

- ومن كان عليه أن يوقعها غيرى ... ويلي؟

- وأنت من كتبها؟

- ولا حتى يرد ذلك على فكرى، لأنى لا أعرف القراءة والكتابة، رغم أنى أعرف أن أوقع.

- لنها، ومن المؤكد أنك ترهن فيها على قيمة عبقرتك وكفاءتك.

أخرج سانشو الرسالة، وأخذتها الدوقة، ورأت أنها تقول هذا:

رسالة من سانشو بانثا إلى تيريزا بانثا زوجته

"إذا كان جلدى على ما يرام، فقد ظهرت للناس فارساً هماماً^(*)؛ وإذا كنت أملك الآن حكومة عظيمة، فقد كلفتنى جلدًا عظيمًا. هذا أنت لن تفهميه، فى اللحظة الراهنة، لكنك ستفهمينه بعد ذلك. وعليك أن تعرفى، تيريزا، أنى عزمت على أن تتحركى فى عربة، لأن هذا هو ما يثير الانتباه، وماعداه من السير هو سير أربع. امرأة الحاكم أنت، ولن يتأكل كعبك بعد اليوم من السير! وهاك أرسل إليك ثوبًا أخضر لصياد أعطته لى سيدتى الدوقة، عدليه حتى يصلح ثوبًا لابنتنا. دون كيخوتى، سيدى، حسبما سمعتهم يقولون فى هذه المنطقة، مجنون عاقل، ومحبول مستظرف، وأنا لست دونه فى ذلك، وقد كنا فى كهف مونثيسينوس، والحكيم ميرلين طلب عونى لفك سحر دولثينيا دل توبوسو، التى يطلق عليها هناك الدونثا لورنتو، وذلك بجلدى لى نفسى ثلاثة آلاف وثلاثئة جلدة إلا خمسة، وبهذا تصبح غير مسحورة كما ولدتها

(*) كان الإنسان الذى يعاقب بالجلد يرفونه فى الشوارع على حمار.

أمها. لا تذكرى عن هذا شيئاً لأحد، لأنك إن أشهرت أمورك، بعضهم سيرها بيضاء والبعض الآخر سيقول عنها إنها سوداء. بعد مضي أيام قليلة من الآن سأعادر لتولى الحكومة، حيث أذهب مع رغبة شديدة لعمل ثروة، لأنهم قالوا لي إن كل الحكام الجدد يذهبون للحكم بنفس هذه الرغبة. سأجس النبض، ثم أخطر إذا كان عليك الحضور للبقاء معي. الحمار في حالة طيبة، ويبلغك تحياته الكثيرة، ولا أفكر في هجره حتى لو عينوني إمبراطوراً للترك. سيدتى الدوقة تقبل ألف مرة يدك، فردى لها الجميل بألفين من القبل، وكما يقول سيدى ليس هناك أرخص ولا أقيم من الذوق والتهذيب. لم يشأ الله تعالى أن أعثر على حقيبة أخرى بها مئة دينار أخرى، مثل الحقيبة السابقة، لكن لا يؤلمك ذلك، تيريزا العزيزة، فإن من يدق الأجراس ينجدونه، وكل ضيق سينظفه غسيل الحكومة، اللهم إلا ما يقولونه لي إنى بمجرد تجربة لذة الحكومة سوف أعض إصبعي جرياً وراءها، وهذا يؤلمنى كثيراً، وإذا كان الأمر كذلك فإنه لن يجشمنى القليل من العناء؛ مع أن العاجزين ومقطوعى الأذرع ينالون من الصدقات التى يطلبونها مكاسب غزيرة بعمل قليل؛ وهكذا بهذا الطريق أو ذاك، أنت ستكونين غنية، وذات حظ عظيم.

رزقك الله بأكثر رزق ممكن، وحفظنى حتى أخدمك.

من هذه القلعة، فى العشرين من يولية ١٦١٤ .

زوجك الحاكم

ساتشو باتشا".

عند انتهاء الدوقة من قراءة الرسالة، قالت لسانشو:

- في أمرين انحرفت قليلاً عن الاستقامة للحاكم الصالح، الأمر الأول في قولك أو تلميحك أنهم أعطوك هذه الحكومة مقابل جلدك لنفسك، وأنت تعرف ما لا تستطيع إنكاره من أن الدوق سيدى عندما وعدك بالحكومة لم يكن يحلم بوجود الجلد في العالم، والأمر الثاني أنك تظهر في الرسالة شديد الطمع، فلا تفكر في جمع المال، لأن الطمع يثقب كيس النقود، والحاكم الطماع يجعل العدالة سائبة.

أجاب سانشو:

- لم أذهب فيما قلت بعيداً إلى هذا الحد، وإذا بدا لسموكم أن الرسالة تقول ما لا ينبغي أن يقال فليس إلا تمزيقها وكتابة رسالة أخرى جديدة، وإن يكن من الممكن أن تكون أسوأ إذا ترك أمرها لكياستى.

أجابت الدوقة:

- لا، لا فهذه جيدة، وأحب أن يراها الدوق.

وعند هذا ذهباً للحديقة لتناول طعام ذلك اليوم، وأرت الدوقة للدوق رسالة سانشو، وأطربته قراءتها كثيراً. وأكلوا ورفعت المائدة، وبعد تسامرهم وقتاً طيباً، واستمتعهم بحديث سانشو المرتجل، سمعوا فجأة صوتاً حزيناً جداً لآلة موسيقية، ولطبل أجش غير منضبط الشدة. كلهم أصابهم الاضطراب لهذه الهرمونية العسكرية المختلطة والحزينة، وخاصة دون كيخوتي، الذى دار فى مقعده حول نفسه، لفرط ما هو قلق، وعن سانشو، لا يمكن القول غير أن الخوف حمله إلى الملجأ المعتاد بجانب الدوقة أو تحت ذيل ثوبها، لأن ما يسمع كان حقيقة وواقعاً فى

غاية الحزن والسوداوية. وبينما هم جميعاً في ذهول، رأوا رجلين فى المقدمة بثياب الحداد التى كانت طويلة وممتدة تتجرجر وراءهما على الأرض، وكلاهما كان يدق طبلاً مغطى أيضاً بالأسود، وعلى جانبيهما ظهر عازف الآلة الأخرى وكانت نايًا، فى ثياب أيضاً سوداء سواد السمك، يجر ذيلها مثل الآخرين وراءه. وخلف الثلاثة ظهرت شخصية ذات جسم متعلق متدثرًا بثياب كنسية (أكثر منه مرتديًا لها)، وكان ذيل دناره أطول من ذيول الآخرين وفوق الدثار تحلى بحزام معلق به غمد أسود مزين يخفى خنجرًا هائلًا، وكان على وجه هذا حجاب شفاف يكشف عن لحية هائلة بيضاء فى لون الثلج. كان يتحرك على إيقاع الطبل فى كل جدية ووقار، وفى النهاية، فإن ضخامته، وتبخرته، وسواده، وصحبته، كان من الممكن أن تذهل كل أولئك الذين يرونه دون أن يعرفوا شأنه.

من ثم، اقترب من الدوق بالبطء والفخامة المذكورة ليركع على ركبتيه بين يديه، وكان الدوق واقفًا على قدميه مع الآخرين الذين كانوا هناك، وقد رفض الكلام معه بأية حال حتى ينهض. وهكذا فعل الشيخ الفياض، إذ نهض وخلع حجابيه فتجلى بتمامه باللحية التى لم تر عين إنسان حتى تلك اللحظة مثلها فى الإرعاب والبياض والكثافة، وهنا انتزع من صدر، عريض ممتد صوتًا جادًا ومدويًا، صابا عينيه نحو الدوق، وقال:

- أيها السيد الأسمى الجبار، يطلقون على تريفالدين صاحب اللحية البيضاء، وأنا خادم الكونتيسة تريفالدى، وتحمل لقب القهرمان المقهورة، ومن طرفها أحمل لكم سفارة، عظمتها تطلب الإذن للدخول إلى حضرتم لتذكركم لشجائكم أشجانًا، وهى أشجان جديدة فى نوعها، ومن أعجب الأشجان التى يمكن للفكر (الشَّجِن) فى العالم أن يدركها. وأولاً تريد أن تعرف إذا كان الفارس

الشجاع موجودًا في قلعتكم، والذي لا يغلب مطلقًا، دون كيخوتى دى لامانشا، وفي البحث عنه تقدم صائمة من مملكة كاندايا حتى دولتكم، وهو أمر يصل إلى حد المعجزة إذا لم يكن من السحر، وهي تنتظر على باب هذا الحصن أو البيت الريفي، وليس بينها وبين الدخول إلا سماح سموكم بذلك. لقد أنهيت كلامي.

وهنا سعل وتخلل لحيته من أعلى إلى أسفل بكلتا يديه، وفي هدوء كبير انتظر الإجابة من الدوق، وكانت:

- أنا، أيها الخادم الطيب تريفالدين صاحب اللحية البيضاء، قد بلغنى منذ أيام طويلة نكبة سيدتى الكونتيسة تريفالدى، والتي يسميها السحرة القهرمانسة المقهورة، ومن الممكن أيها الخادم العظيم أن تقول لها أن تدخل، وأنه هنا معنا الفارس الشجاع دون كيخوتى دى لامانشا، والذي بكل كرم يمكن أن يتعهد بتقديم السند والعون لها، ويمكنك أيضًا أن تبلغها من طرفي إذا كان عوني ضروريًا، فلن نعدم نواله، ويجبرني على ذلك كوني فارسًا عليه أن يخدم النساء ويساندهن بكل ما يملك، ولاسيما القهرمانات الآرامل المهجورات المقهورات، وهذه حال فخامتها.

وعندما سمع ذلك تريفالدين هذا أحنى ركبته نحو الأرض، عازفًا الناي، فدقت الطبول على نفس الإيقاع، وبنفس الخطوة التي دخل بها أخذ في الخروج من الحديقة، تاركًا الجميع في دهشة من حضوره وهيئته. التفت الدوق إلى دون كيخوتى، وقال:

- في النهاية، أيها الفارس المشهور، لا يمكن للشر أو للجهل ستر ضوء الشجاعة أو الفضيلة، أقول هذا لأنه لم يكد يعضى ستة أيام على وجود سماحتكم في هذه القلعة حتى جاء التعساء والمنكوبون يسعون بحثاً عنك من بلاد بعيدة ونائية، (وليس في عربات أو على هجانن، وإنما على الأقدام صيماً)، واثقين من أنهم سيجدون في هذا الساعد القوى لعلاج أجزائهم وخطوبهم، بفضل مآثرك العظيمة التي انتشرت في كل الأرض المعمورة .

أجاب دون كيخوتى:

- أود يا سيدى الدوق أن لو كان حاضرًا هنا الآن ذلك القسيس الذى كان معنا على مائدة الطعام منذ أيام، وأظهر ذلك الخلق السيئ والحنق ضد الفرسان المشائين، حتى يرى بأمر عينيه عما إذا كان هؤلاء الفرسان ضرورة في العالم، ويلمس على الأقل بيديه أن المنكسرين ومن فقدوا السلوى بسبب هموم كبيرة ونكبات هائلة لا يذهبون طلبًا لعلاج مشاكلهم في بيوت الأدباء، ولا في كنائس القرى، ولا إلى فارس لم يفلح في الخروج من قريته، ولا إلى الفارس الكسول في البلاط، الذى يبحث عن نعمة يحكيها وليس عن فعل ومأثرة حتى يحكيها الآخرون ويكتبونها، علاج الأحزان، ونجدة المحتاجين، وإجارة الصبايا، وعزاء الآرامل، الأمر الذى لا يوجد عند أحد إلا عند الفرسان المشائين، ولكونى منهم أقدم الحمد الذى لا ينفد للسماء، وأتحمل بصر كل بلاء وجهد يمكن أن يقع لى في هذا الميدان المشرف من العمل؛ فلتأت هذه القهرمانة، ولتطلب ما تشاء، وسوف أخرج لها دواء من قوة ساعدى، ومن العزم الجسور لروحي العالية.

الفصل السابع والثلاثون

حيث تستمر المغامرة المشهورة للقهرماننة المهورة

طرب الدوق و الدوقة أبهج الطرب من رؤية كم مضى دون كيخوتى فى إحسان معبرًا عن نواياه، وفى هذه اللحظة قال سانشو:

- لا أود أنا أن تصبح تلك القهرماننة، حجر عثرة فى سبيل الوعد بحكومتي؛ لأننى سمعت صيدليًا من طليطلة، كان طلق اللسان، يقول "تتدخل القهرمانات لا يمكن أن تقع الحسنات". يرحمنى الله، كم كان ذلك الصيدلى يسىء النية تجاهن، وما أستنتجه أنا أن كل القهرمانات غضوبات وقحات، مهما كان مقامهن، فما البال بالمهورات، كما قالت عن تلك الكونتيسة الأثواب المجررة الثلاثة أو الذبول الثلاثة؟

قال دون كيخوتى:

- اصمت، أيها الصديق سانشو، فهذه السيدة القهرماننة من بلاد بعيدة جدًّا، وقد جاءت تبحث عني، وبالتالي فلا يمكن أن تكون من ذلك النوع السذى تحدث عنه الصيدلى، وبصفة خاصة لأنها كونتيسة، فالكونتيسات إذا خدمن فى عمل قهرمانات لا يخدمن إلا إمبراطورة أو ملكة، وفى بيوتهن يخدمهن من القهرمانات أخريات.

وعلى هذا أجابت القهرماننة رودريجيث التى كانت هناك حاضرة:

- سيدتي الدوقة لها من القهرمانات ما يمكن أن يكنّ كونتيسات إذا الحظ شاء، لكن هناك قانونًا ونظامًا، ولا أحد ينطق بكلمة ضد القهرمانات، وخاصة كبار السن والعدراوات، وإن لم أكن كذلك، فقد أدركتني وزهت بي نفس ميزة القهرمانات العذراء، وأنا القهرمانات الأرملة، ومن قصصنا بقى المقص في يده. على هذا أجاب سانشو:

- ومع هذا، فقد بقى الكثير للقصص بالمقص في القهرمانات، وطبقًا لقول حلاقى، الأفضل عدم تقليب الأرز حتى لو تَعَجَّن. أجاب دونيا رودريجيث:

- دائمًا، الخدم أعداء لنا، فكما أنهم دائمًا جن في مداخل القاعات يرون كل خطوة لنا، فإنهم كل الوقت الذى لا يصلون فيه، وهو وقت متسع وطويل، يقضونه في الهمس عنا، حيث يستخرجون عظامنا من مدافنها، ويضعون سمعتنا في مدافن لها. إنى أراهم خُشْبًا مسنّدة، ومع أنه يثقل عليهم، ينبغي أن نعيش في العالم، وفي بيوت الأمراء والملوك، ولو متنا من الجوع، أو لبسنا الأسود الرهبانى فوق لحمنا الحساس أو غير الحساس، مثل تغطية تمثال مقدس ببساط في يوم الموكب الدينى، وقسمًا لو أتيح الوقت لى أن أشرح لفهم العالم كله وليس للحاضرين فقط كيف لا توجد فضيلة إلا وقد حازتها القهرمانات. قالت الدوقة:

- أنا أعتقد أن قهرمانتي الطيبة دونيا رودريجيث عندها حق، بل حق كبير، لكن من المناسب أن توفر وقتًا لكي تقوم من أجلها ومن أجل القهرمانات الأخريات بمحو الرأى السيئ لذلك الصيدلى، ونزع ما بصدر سانشو بانثا العظيم.

وأجاب سانشو:

- منذ أن نالنى من الحاكم دخان، زالت عنى نقائص الخادم، ولا يهمنى فى شىء القهرمانات مهما كثرن.

وواصلوا حديثهم القهرمانى، وكانوا سيستمرون فيه لولا أن سمعوا النساى والطبول تعود للرنين، من حيث يظنون أن القهرمانة المقهورة كانت تدخل. سألت الدوقة الدوق عما إذا كان من المستحسن التقدم لاستقبالها، فهى كونتيسة وشخصية مهمة؟ أجاب سانشو قبل الدوق:

- لكونها كونتيسة من المستحسن الذهاب لا استقبالها، ولكونها قهرمانة لا تتحركى نحوها خطوة واحدة.

قال دون كىخوتى:

- ومن حشرك فى هذا سانشو؟

أجاب سانشو:

- من، سيدى؟ أنا أحشر نفسى، حيث يمكنى باعتبارى حامل دروع تعلم أصول التهذيب فى مدرسة فخامتكم، الفارس الأكثر أدبًا الذى ظهر بين كل الفرسان؛ وهذه الأشياء طبقًا لما سمعتك تقوله عنها "أن الخسارة فى اللعب قد تكون بورقة زائدة أو بورقة ناقصة، والفتن بأقل الكلمات يزن".

قال الدوق:

- هكذا الأمر كما يقول سانشو، لئر هيئة الكونتييسة، وعلى ضوءها نقيس
المجاملة التي تستحق.

خلال ذلك دخلت الطبول والناى مثل أول مرة.

وقد أنهى المؤلف هذا الفصل المختصر بتلك الكلمات، وبدأ فصلاً آخر،
مواصلاً نفس المغامرة، وهى واحدة من أشهر مغامرات القصة.

الفصل الثامن والثلاثون

حيث يحكى عما حكته القهرمانة المقهورة

من سوء سير أمورها

بدأ يتقدم فى الحقيقة ما يقرب من اثنتى عشرة قهرمانة فى صفيين خلف الموسيقيين الحزانى، وكلهن مرتديات ثياب الراهبات الأسود، وفيما يبدو أنه كان من قماش صوف الأناسكوت المتلبد، وقد وضعت كل واحدة خمارة شفافاً من النسيج القطنى كانيكى، بالغ الطول لا يظهر من الثوب الأسود غير حاشيته. خلفهن كانت الكونتيسة تريفالدى تتقدم، والتى كان يأخذ بيدها الخادم تريفالدين صاحب اللحية البيضاء، وكانت فى ثوب من الصوف السميك الأسود البالغ الرهافة، والذى يتوتروبره، حتى تأتى متقنفة وقد انكشفت معالم كل حبة من مخزن حمص جسمها، ذلك الحمص البديع للقرية الجيانية مارتوس. وذيل ثوبها أو حاشيته كما يحلو لكم تسميته مكون من ثلاثة ألسنة يحمل كل لسان خادم، أيضاً الخدم فى لباس الحداد صانعين شكلاً هندسياً مكوناً من تلك الزوايا الثلاث الحادة، ومن أجل هذا كل من كان يرى هذا الذيل حاد الزوايا الثلاث رآه ترجمة لمعنى اسمها "الكونتيسة الثلاثية الذيل": اسم على مسمى الذيل! ويقول ابن إنجيلين إن ذلك صحيح، وإنها حملت اسمها من لقبها الثيابى، بينما كانت تسمى حسب لقب عائلتها الكونتيسة ذئبونا، حيث كانت تعيش فى ولايتها ذئاب كثيرة، ولو كان بولايتها ثعالب بدل الذئاب لسموها الكونتيسة ثعلبونا، طبقاً لعادة تلك الجهات من حمل سادتها لأسماء

شيء أو أشياء تفيض كثرة في أرضهم، ورغم ذلك، وحتى تلاحق هذه السيدة مستجدات ذيل ثوبها استبدلت بذئبونا اسم ثلاثية الذيل "تريفالدي".

تحركت القهرمانات الاثنتا عشرة وسيدتهن بخطى المواكب الدينية، مغطيات وجوههن بغطاء أسود غير شفاف بعكس غطاء وجه تريفالدي، حتى إن سمك أغطية وجوههن منع ظهور أية ملامح. وهكذا لم تكد تظهر الكتيبة القهرمانية حتى نهض على قدم الدوق والدوقة ودون كيخوتي، وكل أولئك الذين يشهدون الموكب البطيء الخطى. وفتت الاثنتا عشرة قهرمانة وشكلن شارعًا، في منتصفه تقدمت المقهورة، دون أن يترك تريفالدين يدها، وعند رؤية هذا تقدم الدوق والدوقة ودون كيخوتي اثنتي عشرة خطوة لا استقبالها، ركعت هي، وبصوت أجش وقوى قبل أن يكون كيسًا ورهيفًا، قالت:

- عظمتكم، حفظتم، لا تقدموا الكثير من الجملة لخادمكم ... أوه! أقصد لخادمتمكم؛ لأنه طبقًا لكوني مقهورة، لن أنجح في ردّ ما أدين به لكم، وبسبب نكبتى الغريبة وغير المسبوقة حملنى الفكر إلى حيث لا أدرى في مكان لا بد أن يكون بعيدًا جدًّا، فكلما بحثت عنه أكثر، نأى عنى أبعد.

أجاب الدوق:

- بدون ذلك لا يكتشف معدن شخصكم، الذى دون ترو، يستحق زبدة الترحيب وزهرة شعائر الجملة الرفيعة.

وأخذ بيدها منهضًا لها، وحملها إلى مقعد بجوار الدوقة، التى استقبلتها بدورها بكل ترحيب. دون كيخوتي كان صامتًا، وسانشو ميتًا من أجل رؤية وجه تريفالدي وقهرماناتها الكثيرات، لكن استحال ذلك حتى يكشفن الوجوه بإرادتهن ومزاجهن.

الجميع ساكنون، وخبّيم عليهم الصمت فى انتظار من يكسره، وكان من فعل ذلك القهرمانه المقهوره، بهذه الكلمات:

- واثقة أنا، أيها السيد شديد الجروت، وأيها السيدة شديدة الجمال وأيها الحضور شديدو الكرم، من أننى سوف أجد لأحزاني الشديدة ترحيباً من صدوركم شديدة الشجاعة، وهو ترحيب الكرم والألم وليس البهجة والحبور، لأن أحزاني هكذا تفجر الماء من الرخام، وتسيل الماس، وتعديل صلابه صلب القلوب الأكثر قسوة للعالم. لكن قبل أن تخرج إلى ميدان مسامعكم (حتى لا أقول آذاناً)، أريد أن تعلمونى إذا كان فى هذا الجمع والجماعة الفارس الشديد النقاء دون كيخوتى دى لا مانشا، وشديد حمل دروعه بانثا.

أجاب سانشو قبل أن يفتح غيره فمه:

- البانثا ها هنا أمامك وشديد الكيخوتية أيضاً، هكذا يا شديدة القهر وشديدة القهرمانية، يمكنك أن تقولى ما تحبين قوله شديد الحب؛ فنحن شديدو التعجل، وشديدو الترقب لنكون شديدى الخدمة!

وهنا نهض دون كيخوتى وجعل كلماته تسعى نحو المقهورة:

- إذا كانت شدتك، أيها السيدة المنكودة، تعد بأى أمل للعلاج بفضل أية شجاعة أو قوى فارس مشاء، فها هى شجاعتي وقوتي فى خدمتك. أنا دون كيخوتى دى لا مانشا، الذى شأنه أن يهرع إلى كل نوع من المضطرين، وكون ذلك كذلك، وهو بالفعل كذلك، فلا تشغلى بالك فى أخذ مباركات

أو البحث عن مقدمات، وإنما ببساطة ودون لف أو دوران قولي أو جاعك، فالمسامع تعرف الاستماع إليك، وإن لم تعالجها فسوف تشاركك الألم.

وعند سماع ذلك بدر من القهرمانة المقهورة ما يدل على أنها تحب أن ترمى نفسها تحت أقدام دون كيخوتى، وقد فعلت مصارعة لاحتضانها، وهى تقول:

- ألقى بنفسى أمام هذه الأقدام والأرجل، أيها الفارس الذى لا يقهر، والتى هى قواعد الفروسية المشاءة وأعمدتها؛ وهذه الأقدام أحب أن أقبلها، والتى على خطوها يعتمد ويتعلق كل علاج لنكبتى، أوه أيها المشاء الشجاع، الذى مآثرته تترك وراءها وتظلم مآثر أماديس وإسبلانديانس وبلينانس!

وتاركة دون كيخوتى انفتت إلى سانشو، وأمست بيده، وقالت له:

- أوه، أنت، الخادم الأكثر ولاء بين كل خدم الفرسان المشائين فى الحاضر والماضى، والأطول برأ من لحية تريفالدين، مرافقى الحاضر هنا الآن! وحسن خدمتك دون كيخوتى العظيم تخدم فى اتخاذك شفرة لكل ذمرة الفرسان الذين عاجلوا حمل السلاح فى العالم. أستحلفك بىرك الشديده الولاء، أن تكون شفيعا طبيبا لى عند سيدك، حتى يناصر هذه الكونتيسة شديده التواضع شديده النكد.

وعلى هذا أجاب سانشو:

- أن يكون برى، سيدتى، فى مثل طول وضخامة لحية خادمك أمر يهمنى بأقل من القليل، والروح منى ملتحية، وبشوارب بعدما تذهب من هذه الحياة. هذا ما يههم؛ فمن لحي الدنيا القليل أو لا شىء يفيدنى، لكن بدون هذه الحيل

للاهتمام وبدون صلوات، سأرجو سيدي (الذي أعرف أنه يحبني جيداً،
ويحبني أكثر الآن مضطراً لمصلحة معينة) أن يناصر ويدعم فخامتكم بكل ما
يستطيع. والآن فخامتكم أخرجني من الصندوق نكبتك، واحكيها لنا،
واجعلي الجميع يفهمونها.

انفجر الدوق والدوقة من الضحك، مثل أولئك الذين بدأوا يندوقون المغامرة
ويمتدحون في داخل أنفسهم ذكاء تريفالدي ومسكنها، وهي التي عادت للجلوس،
وقالت:

- في مملكة كاندايا، التي تقع بين ترابوبانا العظمى وبحر الجنوب، على بعد
فرسخين من رأس كومورين كانت تحكم الملكة دونيا ماجونثيا، أرملة الملك
أرشيبيلا، سيدها وزوجها، ونتج عن زواجهما إنجاب وترعرع الأميرة
أنتونوماسيا، وريثة العرش، وهذه الأميرة أنتونوماسيا تربت تحت إشراف
وفكري، لكوني أقدم وأهم قهرمانة لأمها. وحدث أن راحت وجاءت الأيام،
واقتربت الطفلة أنتونوماسيا من سن الرابعة عشرة، مع كمال عظيم في
الحسن، حتى إن الطبيعة لم تكن بعد هذا قادرة على الزيادة ولو بنقطة
واحدة. ما علينا، نقول الآن إن ذكاءها دونه أي ذكاء، وهكذا كانت
حسنة بقدر ما كانت ذكية، فكانت الأجل في العالم ومازالت، لو أن الأقدار
الحسودة والموت القاسي لا يقطعان فرعها من ساق شجرة الحياة. ولعلهما لا
يفعلان، لأن السماء لا ينبغي أن تسمح بارتكاب شر بهذه الضخامة ضد
الأرض، مثل قطع أجل عنقود عنب في العالم قبل أوانه من كرمته، وإلقائه
على الأرض. بهذا الحسن (الذي لم أمتدحه كما يجب بلساني المتعثر) تعلق بها

عاشقاً أمراء لا حصر لهم، من أهل المملكة وأجانب، ومن بين هؤلاء تجراً أن يرفع آماله حتى السماء نحو هذا الجمال الباهر فارس من فرسان البلاط، واثق من شبابه ووسامته، ومن مقدراته المتعددة وطرائقه، وسيولة عبقريته وبهجتها، لأنى أعلم عظمتكم، إن لم يغضبكم، أنه كان يعزف القيثارة فينطقها، وفوق هذا كان شاعراً وراقصاً ممتازاً، وكان يعرف أن يصنع قفصاً للعصافير، وبهذه الصنعة فقط كان يستطيع كسب عيشه إذا ضاقت السبل. وكل هذه العناصر والطرائف كافية لهدم جبل، وليس فحسب صبية رقيقة، لكن كل فروسيته وملاحظته، وكل طرائفه ومقدراته كانت قليلة، أو لا شيء لجعل قلعة طفلى تستسلم، إذا اللص الفاسق لم يستعمل دواء استسلا مى أولاً. أولاً أراد الشرير والشريد عديم الرحمة هدم إرادتى وحصاد رضائى، حتى أنا الراعية السيئة أكون من تسلّم له مفاتيح القلعة التى أحرسها. باختصار داهن فكرى وأخضع إرادتى ببعض الحلوى التى أعطها لى، لكن الشيء الذى ذلل صعبى وألقى بى على الأرض بعض الأدوار التى سمعته يغيها فى إحدى الليالى، من خلف نافذتى التى كانت تطل على أحد الشوارع الصغيرة، وكان هناك يقول إذا لم تخنى الذاكرة:

من عدوتى الحلوة

يولد ألم يجرح روحى

ولمزيد من العذاب تحب

أن أتألم ولا أشكو

- بدت لى رباعية من اللؤلؤ، وصوته من اللبن، وبعد، هنا أقول: منذ ذلك الحين، مشاهدة وقوع الشر من هذه الأشعار وما يشابهها من أشعار أخرى، اعتبرت أن البلاد الطيبة والموفقة عليها أن تنفى الشعراء، كما نصح أفلاطون، أو على الأقل الشبق منهم، لأنهم يكتبون بعض المقطوعات، ليست مثل شعر المركيز دى مونتوا، التى تسلى وتبكى الأطفال والنساء، وإنما فى حدة الأشواك النضرة التى تحترق منكم الروح، ومثل الأشعة تجرحها لكم، دون قطرة دم على الثياب. ومرة أخرى غنى:

تعالَ أيها الموت متخفياً

ولا تحزن على الحياء

لأن لذة أن تموت

أهنا لا تتكرر

ومن هذا النوع رباعيات أخرى وغرائب، عندما تغنى تسحر، ومكتوبة تدهش وتأسر. من ثم؛ فعندما يرقون عند نظم نوع من الشعر فى كاندايا يسمونه الدور، فماذا؟ هناك كان توثب النفوس، وتوهج البهجة، وتهيج الأجسام، وأخيراً زئبق لكل الحواس. وهكذا، أقول، سادتى، شعراء التروبادور هؤلاء، لسبب وجيه يجب نفيهم إلى جزر السحالى. لكن الذنب ليس ذنبهم، إنه ذنب البسطاء الذين يمتدحونهم، والبلهوات اللاتى يعتقدن فيهم، وإذا كنت القهرمانه الطيبة كما يجب، ما كان ينبغى أن تحركنى هذه الأسمار الليلية، أو أعتقد أن ما تقوله حقائق: "أعيش موتاً، أضرم فى الجليد، أرتعد برداً فى النار، أنتظر دون أمل، أرحل وأبقى"، مع أشياء أخرى مستحيلة من هذا النوع، التى بها تمتلئ الكتب. من ثم، ماذا ينتظر

عندما يعدون عنقاء جزيرة العرب بعرش الواق واق، وخيل الشمس بعرش جزر اللؤلؤ، وتبر الذهب وسحر البلمس؟^(*). هنا، حيث يقومون بإطالة القلم، فسوف يكلفهم القليل الوعد بما لم يفكروا فيه قط، ولا يمكنهم إنجازه. لكن بالنسبة لى، أين المفر؟ ولى من تعيسة، بغير حظ، أى جنون أو أى هذيان يحملنى أن أتكلم عن عيوب غيرى، وأنا ملزمة أكثر أن أتكلم عن عيوبى؟ ولى، مرة أخرى، امرأة من غير حظ، لم تسلمنى الأشعار إنما سذاجتى، ولم تضعفنى الموسيقى وإنما خفتى، وجهلى العظيم، وقلة معرفتى، فتحت الطريق ومهدت السبيل لخطوات دون كلايخو، وهذا اسم الفارس المشار إليه، وهكذا بتحولى إلى وسيطة، وجد نفسه مرة ومرات فى حضور المخدوعة ليس عن طريقه وإنما عن طريقى، أنتونوماسيا المخدوعة، تحت وعد الزواج، ومع أنتى آتمة، فإننى لم أكن لأوافق على أن يصل ولو إلى كعب حذائها دون أن يكون زوجاً لها. لا، لا، هذا لا، الزواج لا بد أن يمضى قُدماً مع أى شأن أعالجه. فقط بقى عيب فى ذلك الشأن، وكان عدم التكافؤ؛ لكون دون كلايخو فارساً بلا منصب، والأميرة أنتونوماسيا وريثة لعرش المملكة، كما سبق لى القول. بقيت هذه الورطة عدة أيام مستورة ومختبئة تحت ستار تحفظى، حتى ظهر لى أن الأمر مضى ينكشف مع مزيد من الوقت بما لا أدرى، بتورم فى بطن أنتونوماسيا، وخوفها جعلنا نعقد نحن الثلاثة اجتماعاً، وكان القرار قبل أن ينكشف الأمر أن يطلب دون كلايخو أمام القسيس أنتونوماسيا زوجة له، بموجب وثيقة تثبت أن الأميرة صارت زوجة له، وتم نسجها بعبقريتى حتى لا تستطيع قوة شمشون الكبيرة الطعن فيها، وتمت الإجراءات، ورأى القسيس الوثيقة، وأخذ منها الاعتراف، واعترفت بكل شىء، وأمر بإيداعها فى بيت مأمور قضائى للبلاط موثوق به جداً...

(*) إشارات فولكلورية لوعود مستحيلة.

وهنا قال سانشو:

- أيضاً في كاندايا يوجد مأمور قضائي للبلاط، وشعراء، وأدوار، مما يجعلني أقسم أنني أتصور أن جميع العالم واحد، لكن فخامتكم أسرعى، سيدتى تريفالسا، فقد تأخرنا، وأنا أموت شوقاً لمعرفة نهاية هذه القصة الطويلة.

أجابت الكونتيسة:

- حاضر! سأفعل.

الفصل التاسع والثلاثون

حيث تواصل تريفالدا قصتها الفخيمة العظيمة

من أى كلمة كان يقول سانشو يتحقق ابتهاج الدوقة، وينفذ صبر دون كيوخوتى، وأمرًا له أن يسكت واصلت المقهورة القول:

- فى النهاية، وبين كثير من الأسئلة والإجابات أصرت الأميرة على ذكر نفس الاعتراف دون أن تخرج أو تغير أول اعتراف لها. حكم القسيس لصالح دون كلايخو، وسلمها له زوجة شرعية، الأمر الذى قابلته الملكة ماجنويا، والدة الأميرة أنتونوماسيا، بغضب عظيم، حتى إهم واروها التراب خلال ثلاثة أيام.

قال سانشو:

- لا بد أنها ماتت دون شك.

أجاب تريفالدين:

- طبعًا ماتت، ففى كاندايا لا يدفنون الأشخاص الأحياء، وإنما الموتى.

أجاب سانشو:

- مفهوم، أيها السيد الخادم، يمكن دفن شخص مغمى عليه، ظنًا أنه ميت، ويبدو لى أن الملكة ماجنويا مضطرة للإغماء أكثر من اضطرارها للموت، لأن استمرار الحياة يعالج أشياء كثيرة، فلم تكن سفاهة الأميرة بهذا القدر الذى

يخزن إلى حد الموت. وإذا كانت تلك السيدة تزوجت خادماً لها، أو خادماً آخر في قصرها، كما فعل غيرها كثيرات، حسبما سمعتهم يقولون، يصبح الضرر بلا علاج، لكن كونها تزوجت فارساً وسيماً وذكياً، كما رسمت لنا صورته، في الحقيقة كل الحقيقة، مع سفاهة ذلك، لم تكن سفاهة كبيرة كما يظنون، لأنه طبقاً لقواعد سيدى، وهو حاضر الآن، ولن يتركنى أكذب، فكما يصنعون من الأدباء أساقفة، من الممكن أن يجعلوا من الفرسان وخاصة إذا كانوا مشائين، ملوكاً وأباطرة.

قال دون كيخوتى:

- معك حق، سانشو، لأن الفارس المشاء لو نال مقدار إصبعين من الحظ فهو قريب جداً أن يكون سيد العالم، لكن لتستمر السيدة المقهورة، فبالنسبة لى الملح أنه ينقصها ما تحكيه عن مر هذه القصة الحلوة.

أجابت الكونتيسة:

- وكيف بقى المر! إن بمقارنته بالقرع المر يصير هذا قرعاً عسلياً كما يصير الدفلى مستلذاً. من ثم، ميتة الملكة وليست مغمى عليها، قمنا بدفنها، وبمجرد أن غطيناها بالتراب، وقدمنا آخر مراسم الوداع، (ومن يسمع هذا عليه أن يكفكف دموعه) فوق جواد من الخشب ظهر فوق القبر المارد مالايمرونو، ابن عم شقيق للملكة ماجنوئا، والذي بجانب قسوته كان ساحراً، والذي يفتون صنعته، وللثأر لموت ابنة عمه ولعقاب جرأة كلايخو، ولتأديب أنتونوماسيا لتجاوزها الحدود، تركهما مسحورين فوق نفس القبر، هى فى صورة قردة، وهو فى صورة تمساح مخيف من معدن غير معروف،

وبينما ظهر شاهد مكتوب عليه بحروف آشورية مترجمة إلى لغة كاندايا، وها هي الآن بالإسبانية "لن يستعيد هذان العاشقان المتجرتان صورتكما الأولى حتى يأتي إلى الشجاع المانشاوى لندخل معاً في معركة فريدة، ولشجاعته العظيمة، تحفظ الأقدار هذه المغامرة التي لن يُرى لها مثيل". وبعد أن قام بهذا أخرج من غمده خنجرًا عظيمًا، وممسكًا لى من شعري، بدا من حركاته أنه يريد نحري، واستئصال رأسي. اضطربت، والتصق صوتي بجدران حنجرتي، وبقيت محطمة تمامًا، ومع ذلك قاومت بقدر استطاعتي، وبصوت مرتعد ومتألم قلت له مثل تلك الأشياء التي تقال هناك، وجعلته كلماتي يعلق تنفيذ هذه العقوبة الصارمة. وأخيرًا، أحضر أمامه كل قهرمانات القصر، وهن الحاضرات هنا الآن، وبعد أن بالغ في ذكر ذنبنا، وسب مهنة القهرمانات، وجرائمهن الشريرة، وحيلهن الأسوأ، وحملّ الجميع الذنب الذي أحمله وحدي، قال إنه لا يجب أن يعدمنا عقابًا لنا، وإنما سيوقع علينا عقابًا مؤجلًا، يحملنا إلى الموت المدين والدائم، وفي نفس اللحظة التي قال فيها ذلك منهيًا حديثه، أحسننا جميعًا بمسام الوجه تفتح، وفيها كما لو كانوا ينخزوننا بسنان إبر، هرعنا لتغطية وجوهنا بأيدينا، ووجدناها بالشكل الذي سوف ترونه الآن.

من ثم رفعت المقهورة والقهرمانات الأخريات غطاء وجوههن اللاتى جنن بها مغطاة، وكشفن عن ملامحها، وكلها مغطاة بلحي، بعضها أشقر، والأخر أسود، وذاك أبيض، وغيرها من مختلف الألوان، ومن رؤية هذا المشهد أظهر الدوق والدوقة التعجب، وذهل دون كيخوتى وسانشو، وشده كل الحضور.

وواصلت تريفالدى:

– بهذه الطريقة عاقبنا الشرير وسبى النية مالا مبرونو، محولاً طراوة وجوهنا ونضارتها إلى خشونة هذا الشعر الغليظ، فالتمسنا من السماء أن لو كان قد قتلنا بخنجره الهائل مسقطاً رعوسنا وألا يلقي بهذه الظلال فوق وضاء وجوهنا بهذه الأوبار التي تغطينا، لأنه لو دخلنا في حساب سادتنا (وهذا ما سوف أقوله الآن، كنت أود قوله وقد تحولت العيون إلى ينايع، لكن لاعتبار نكبتنا، والبحور التي حتى وصولنا هنا قد أمطرت، بقيت العيون دون مزاج للبكاء وجافة كالأحجار) ، أقول، إذن، إلى أين يمكن أن تروح قهرمانسة بلحية؟ وأي أب وأي أم سوف تتألم من أجلها؟ ومن قد يقدم العون لها؟ هذا، حتى لو كانت تملك بشرة ناعمة مع وجه ضحى بنضرتة تحت ألف طلاء للإغراء، فإنها لا تكاد تجد من يحبها حقيقة، فماذا هي فاعلة عندما يكتشفون وجهها متحولاً إلى غابة؟ أوه، أيتها القهرمانات ورفيقاتي، لقد ولدنا في لحظة تعيسة، وفي ساعة نحس أننا أنجبنا أباً ونا.

وعند قولها هذا أعطت دلائل على أنها أغمى عليها.

الفصل الأربعون

عن أشياء ترتبط وتمس هذه المغامرة والقصة العظيمة

حقيقة وواقعًا كل من تعجبهم مثل هذه القصص كقصتنا هذه، عليهم إظهار العرفان لسيدى حامدى، مؤلفها الأول، للفضول الذى كان عنده نحو حكايته لنا نمماتها الموسيقية، دون أن يترك شيئًا، مهما قل شأنه أو خوف، إلا وأخرجه إلى النور حتى يتميز ونميزه. يرسم الأفكار والظنون، يكشف الخيالات مجيبًا عن الأسئلة المحتملة، موضحًا الشكوك، حالاً عقدة الجدل، وأخيرًا يبرز ذرات الرغائب الأكثر فضولاً. أوه، أيها المؤلف الألمع! أوه، أيها السعيد الطالع دون كيخوتى! أنتما معًا، وكل واحد منكما بمفرده، سوف تعيشان دهورًا لا تحصى، لإطراب وقت فراغ عمومى وإزجائه لكل الأحياء.

من ثم، نقول القصة، كما رأى سينشو المقهورة مغمى عليها، قال:

- قسمُ رجلٍ خيرٍ أقسم، وبأيام كل أسلافى من آل بانثا البانثاوين، أننى لم أر ولم أسمع ولم يقص لى سيدى، ولم يمر بذهنه، مغامرة مثل هذه قط. ركبك ألف شيطان، لعدم لعنتك كساحر ومارد، أيها السيد مالا مبرونو. ألم تجد نوعًا آخر من العقاب هؤلاء الآثامات سوى خلق لى هن (الحائهن!)؟ كيف؟ ألم يكن الأفضل، وكان أنسب هن، إزالة نصف أنوفهن من سنامها، حتى لو تكلمن بصوت أغن؟ أراهن ليس لديهن من المال لدفعه لمن يخلقها هن.

أجابت واحدة من الاثنتى عشرة:

- هذه هي الحقيقة، أيها السيد، فليس لدينا ثروة لسكنا^(١) وهكذا بعضنا أخذن لعلاج الوبير مواد لاصقة أو لزقة نجعلها تغطي الوجه ثم نزرعها بشدة فيبقى الوجه في نعومة الساتان وفي ملمس سطح الحجر الصوان، مع أنه في كاندايا توجد نساء يمشين من بيت إلى بيت لتتف الشعر والحواجب، وإجراء بعض أعمال الزينة التي تمس النساء، ونحن قهرمانات سيدتى، لم نقبل قط التعامل معهن، لأنهن تفوح لهن رائحة الثوالث^(**) (القواديات) بعد أن هجرن شد أوتار القيثار، وإذا لم نجد الشفاء على يد السيد دون كيخوتى سنذهب إلى القبر ملتحيات.

قال دون كيخوتى:

- سوف أحلق لحيتى في أرض العرب^(***)، إذا لم أعالج لحاكم.

عند هذا أفاقت تريفالدى من إغمائها، وقالت:

- إن رنين هذا الوعد، أيها الفارس الشجاع، قد اخترق مسامعى في عزّ إغمائى، وكان سبباً في أن أعود وأستعيد كل حواسى، وهكذا، من جديد أتوسل

(١) من سك العملة وإعطائها شكلها، إشارة لحاجتهن لاستعادة صورتهم، وهذه الفقرة مليئة باللعب بالكلمات.

(**) الثوالث جمع ثالث، ويقصد به الشخص الثالث أى القوادة أو القواد الذى يكون ثالث الرجل والمرأة عندما يجمع بينهما، يقصد بها دور الفنان المزين فحسب، أما ترك شد أوتار القيثار فمعناه الشبخوخة وهجر الرجال لهن.

(***) العرب هم الأعداء التقليديون، من ثم يكون ذلك استسلاماً لعدوه، أو ربما لرمزية ذلك عند العرب.

إليكم، أيها المشاء المشهور، والسيد غير المقهور، أن يتحول وعدكم المهج إلى عمل.

أجاب دون كيخوتى:

- بالنسبة لى لا يبقى موانع، سيدتى، غير أن ترى ما على عمله، فالرغبة متعجلة لخدمتك.

أجابت المقهورة:

- المسألة، أنه للذهاب إلى كاندايا، علينا عن طريق البر قطع خمسة آلاف فرسخ يزيدون أو ينقصون ألفين، أما عن طريق الجو أو الطريق المستقيم فالمسافة ثلاثة آلاف ومنتان وسبعة وعشرون فرسخًا. أيضًا ينبغي أن تعرف أن مالابرونو قال لى إن الحظ إذا واتانى ووصلت إلى الفارس (محررنا)، فإنه سوف يرسل إليه مطية، أفضل بكثير وأقل خبثًا من البغال المؤجرة، لأنها ستكون نفس الجواد الخشبي الذى حمل عليه الشجاع بييرس ماجالونا الجميلة مسروقة، وهذا الجواد يضبط عبر مفتاح موجود فى جبهته، يستخدم كإبحاء له يوقفه، وهو يطير فى الهواء فى خفة كبيرة، ليبدو وكأن الشيطان نفسه يحمله. وهذا الجواد، طبقًا للعرف القديم صنع على يد الحكيم ميرلين، وأعاره إلى بييرس، وكان صديقه، وبه قام برحلات كبيرة، وكان ينجز الرحلة فى لحظات، يعبر فيها أجزاء عديدة فى العالم، والجميل فى هذا الجواد أنه لا يأكل ولا ينام ولا يستهلك قطع غيار، وله طرق مستقرة فى الجو، دون أن يكون له أجنحة، وراكبه يمكن أن يحمل كوب ماء مملوءًا فى يده دون أن تراق منه قطرة واحدة، لأنه يسير بسهولة وراحة، ولهذا ماجالونا الجميلة كانت تبتهج كثيرًا بالسير ممتطية له.

على هذا علق سانشو:

- للسير بسهولة وراحة، فإن حمارى مع أنه لا يسير فى الجو، إنما على الأرض فإننى أنافس به أى مطية فى سهولة السير وراحته، وذلك على مستوى العالم كله.

ضحك الجميع، وواصلت المقهورة:

- وهذا الجواد (إذا أراد مالا مبرونو وضع حد لنكبتنا) سيكون قبل دخول الليل بنصف ساعة حاضرًا أمامنا، لأنه أخبرنى بأن العلامة التى سوف يعطيها لى، وبها أفهم أننى قد وجدت الفارس الذى يبحث عنه، هى إرسال الجواد إلى، حتى يسافر فى راحة وبسرعة.

سأل سانشو:

- كم شخصًا يتسع لهم الجواد؟

أجابت المقهورة:

- شخصان، أحدهما على السرج والآخر على مؤخرته، وهذان الشخصان هما فارس وحامل دروعه عندما لا توجد صبية مسروقة.

قال سانشو:

- أحب أن أعرف، أيتها السيدة المقهورة، اسم هذا الجواد.

أجابت المقهورة:

- الاسم ليس مثل اسم فرس يليلر فونتى المسمى بيجاسو، ولا مثل اسم فرس الإسكندر الأكبر المسمى بوسيفالو، ولا مثل اسم فرس أورلاندو الغاضب المسمى (الشهاب)، ولا الفرس بيارتى الذى كان لرينالدوس دى مونتالبان،

ولا الفرس فرونتينو الخاص بروخيرو، ولا الفرسين بوتيس وبريتوا اللذين يقال إنهما للشمس، كما لا يسمى أوريليا اسم فرس آخر ملوك القوط لزريق الذى فقد مملكته وحياته فى المعركة.

قال سانشو:

– إنى أراهن، إذن، أنهم لم يعطوه أيًا من هذه الأسماء المشهورة للخيل، أيضًا لم يعطوه اسم فرس سيدى، روئيناتى، ولكونه اسمًا خاصًا به وأصيلًا لا بد أن يتجاوز كل المسميات من الخيل.

أجابت الكونتيسة الملتحية:

– هو كذلك، وفوق ذلك يضم معانى كثيرة، لأنه يسمى مفتاخشيف (كلا بيلينيو الأليخيرو)، وهو اسم على مسمى، لأن (مفتا) تشير للمفتاح الذى فى جبهته، و(خش) تشير إلى الخشب المصنوع منه، و(يف) تشير إلى أنه خفيف الحركة، وبهذا من حيث الاسم يمكن أن ينافس روئيناتى الشهير.

أجاب سانشو:

– الاسم لا يشير عدم رضى، لكن بأى كايح أو بأى شكام يتم التحكم فيه؟

أجابت تريفالدى:

– لقد قلت بالفعل ذلك، إنه المفتاح الذى يدارته من اتجاه إلى آخر يستطيع الفارس الذى يمتطيه تحويله نحو الطريق الذى يبيغه، سواء كان ذلك فى الجو أو على الأرض فى جرجرة، تقريبًا كانسًا لها فى سيره، أو بين الجو والأرض، وهذا ما يحتاج ويبحث عنه فى كل حركته جيدة التنظيم.

أجاب سانشو :

- أود أن أراه، لكن الصعود عليه في السرج أو على مؤخرته مثل طلب الكمثرى من الدردار. حسنًا، أنا لا أكاد أستطيع ضبط نفسي فوق حمارى الذى توجد عليه بردعة أكثر طراوة من نفس الحرير، وتودون الآن أن أضبط نفسي فوق أفخاذ من الخشب، دون أى حشية أو مخدة؟ بحق الله أنا لا أود طحن نفسي نظير تخليص أحد من لحيته، وكل واحد يخلق كما يعن له، فأننا لا أفكر فى مصاحبة سيدى فى مثل هذه الرحلة الطويلة، وبصفة خاصة، لأنى لم ألتزم بقضية حلق هذه اللحي مثل الترامى بفك سحر السيدة دولثينيا.

أجابت تريفالدى:

- لتعلم أيها الصديق أنه بدون حضوركم لن نفعل شيئاً.

قال سانشو:

- العدالة! العدالة! ماذا يربط الخادم بمغامرات سيده؟ السادة يحملون مجد المغامرة، وعلينا فحسب حمل العناء؟ ويلي! آه، لو قال المؤرخون "الفارس الفلانى أنجز كذا وكذا من المغامرات، لكن بمساعدة فلان خادمه، الذى لولا مساعدته لكان من المستحيل إنجازها ..."، لكن ما يكتبون فحسب: "دون باراليوميون صاحب النجوم الثلاث أنجز المغامرة ذات العفاريت الستة"، دون ذكر اسم خادمه، الذى حضر كل شىء، كما لو لم يكن له وجود فى العالم! الآن، سادتى، أعود للقول بأن سيدى بإمكانه الذهاب وحده، وهينئاً مريئاً؛ أما أنا فسأبقى هنا، فى صحبة الدوقة سيدتى، وعندما يعود قد يجد قضية السيدة دولثينيا قد تحسنت، لأننى أفكر أن أجلد نفسي فى نوبات حتى لا يعود ينبت فى جلدى شعر، خلال أوقات البطالة والفراغ.

- مع كل هذا، عليك أن ترافقه إذا كان ذلك ضروريًا، سانشو، أيها الطيب، لأنهم يتوسلون إليك، وحتى لا تبقى بسبب خوفكم غير المفيد وجوه هذه السيدات معمورة بالوبر، فيقينًا إن لم تفعل ليس ذلك بخير.

أجاب سانشو:

- العدالة! العدالة! إذا كان هذا البر من أجل بعض الصبايا اللقيطات أو الراهبات، يمكن للإنسان أن يغامر بكل جهد، لكن أن أعاني لإزالة لحى بعض القهرمانات. يا نهارا أسود! لكم أتمنى أن أراهن جميعًا بلحى من صغراهن حتى كبراهن و من أكثرهن شرًا حتى أكثرهن تصنعًا.

قالت الدوقة:

- أنت شرير مع القهرمانات؛ حتى إنك تسير خلف رأى صيدلى طليطلة كثيرًا، والحق أنك ليس عندك حق، ففي بيتي قهرمانات هن المثال للقهرمانات، وها هي قهرمانتي دونيا رودريجيث لن تدعني أقول شيئًا آخر.

قالت رودريجيث:

- لكن، لتقولها سعادتك؛ إن الله يعلم حقيقة الجميع، وسواء كنا نحن القهرمانات طبيات أو شريرات، ملتحيات أو جرداوات، فنحن أيضًا أمننا ولدتنا مثل النساء الأخريات، من ثم قذف الله بنا للعالم، وهو يعرف السبب، ولا أتكلم إلا على رحمته، دون أية لحية لأى أحد.

قال دون كيخوتى:

- الآن، يا سيدة رودريجيث، ويا سيدة تريفالدى، ويا أيها الحضور، أنا أنتظر من السماء أن تنظر بعيون طيبة لهمومكن، وسانشو سوف يفعل ما أمره، وليأت

مفتاخشيف، ولو جاء مع مالا مبرونو؛ فأنا أعلم أنه لا توجد شفرة تحلق
لفخامتكن أفضل من سيفى عندما يخلق رأس مالا مبرونو (قاطعاً لها)، فالله
يمهل الأشرار، لكن ليس يهملهم.

فى هذه اللحظة، قالت المقهورة:

- آى ! لتنظر بعيون راضية إلى فخامتكم، أيها الفارس الشجاع، كل نجوم كل
مناطق السماء، وأن تشر فى نفسك كل ازدهار وشجاعة، حتى تصير درعاً
ومأوى للجنس القهرمانى المهان والمضروب، والمظلوم من الصيادلة، والمشاع
عنه السوء من الخدم، والمبتز من الوصفاء، وما أسوأ حال الخائبة التى لا تعد
نفسها فى زهرة عمرها مبكراً لتصير راهبة وليس قهرمانة، وما أتعسنا نحن
القهرمانات، فعلى الرغم من أننا نجىء عبر خط مستقيم، من ذكر إلى ذكر، إلى
هكتور الطراودى نفسه^(*)، فإن سيداتنا يخاطبنا بإلقاء (حضرتمكم) فى النداء
علينا، وبهذا يفكرن أنهن صرن ملكات^(**). أوه، أيها المارد مالا مبرونو، فرغم
أنك ساحر، فأنت شديد الإنجاز للوعود! أرسل إلينا الذى لا نظير له
(مفتاخشيف) حتى تنتهى نكبتنا، لأنه إذا دخل علينا الحر بهذه اللحي فويل لنا!

تريفالدى قالت هذا بكل إحساس، فأسالت دموع كل الحضور حتى دموع
سانشو، وأوحت لقلبه أن يصحب سيده إلى آخر الدنيا، إذا أدى ذلك لنزع فروة هذه
الوجوه الكريمة.

(*) تشير إلى أنهن (المهانات من الرجال) جنن من ظهر رجال أباً عن أب!

(**) تعلقى السيدة من شأن قهرمانتها فحسب ليعلو مقام تلك السيدة، لأنها سيدة القهرماننة، فإذا
خوطبت هذه (بحضرتكم) يجب مخاطبة السيدة بمقام أسمى.

الفصل الحادى والأربعون

عن ضمادة مفتاخشيف (كلايلينيو) مع نهاية

هذه المغامرة المؤجلة

وخلال ذلك أقبل الليل، ومعه اللحظة الموعودة لوصول الجواد المشهور مفتاخشيف (كلايلينيو)، والذي أرهق تأخره بالفعل دون كيخوتى، متصورًا أن مالمبرونو كان قد توقف عن إرساله، أو أنه بالفعل لم يكن الفارس الذى كانت تنتظره المغامرة، أو أن مالمبرونو لم يكن يجرؤ على خوض معركة فريدة معه. لكن ها أنتم ترون الدخول المفاجئ لأربعة متوحشين مرتدين جميعًا ثيابًا من فروع النباتات المتسلقة الخضراء، وعلى أكتافهم كانوا يحملون جوادًا كبيرًا من الخشب، وضعوه على أقدامه فوق الأرض.

وقال أحد المتوحشين:

— فليصعد فوق هذه الآلة من يجرؤ على ذلك.

قال سانشو:

— هنا أنا لا أصدع لأنى لا أجرؤ، وما أنا بالفارس.

وواصل المتوحش كلامه:

— ويشغل أفخاذ الجواد حامل الدروع، إذا كان للفارس حامل لدروعه، وثق فى مالمبرونو الشجاع، الذى لن تمس من أى سيف أو ضرر سوى سيفه، وليس

أكثر من إدارة المفتاح هذا الموجود فوق رقبتة، ليحملكم في الجو، حيث ينتظركم مالا مبرونو، لكن لأن ارتفاع الطريق وفخامته قد تسبب لكم إغماءة، يجب تغطية عيونكم حتى يسهل الجواد، ليكون ذلك إشارة إلى نهاية الرحلة.

وعند قول هذا في هيئة ظريفة قفلوا راجعين من حيث أتوا، والمقهورة عندما رأت الجواد، قالت لدون كيخوتى تقريباً وهى دامعة:

- أيها الفارس الشجاع، لقد كانت وعود مالا مبرونو أكيدة، والجواد عندنا، ولحانا تكبر وتنمو، وكل واحدة منا، مع كل شعرة منها، تتوسل إليك أن تحلقها لنا وتجزها، وليس لتحقيق ذلك أكثر من الصعود على الجواد مع خادمك، لإعطاء بداية سعيدة لرحلتكم الجديدة.

- هذا ما سأفعله أنا، أيتها السيدة الكونتيسة تريفالدى برضا كبير جداً ومزاج رائق، ودون البحث عن حشية، أو مهاميز، حتى لا تعطلنى، فما أكثر رغبتى، سيدتى، فى أن أراك وكل القهرمانات الأخريات بوجوه ناعمة ومقلمة.

قال سانشو:

- هذا لن أفعله أنا، لا بمزاج رائق ولا عكر، بأية حالة من الأحوال لا، وإذا كان حلق اللحي لن يحدث إلا إذا صعدت أنا على أفخاذ الجواد، من السهل أن يبحث سيدى عن خادم آخر يرافقه، ولتبحث السيدات عن طريقة أخرى لتنعيم الوجوه، فأنا لست مشعوذاً حتى ألد بركوب الهواء. وماذا سوف يقول رعاياى عندما يعلمون أن حاكمهم يمضى متنزهاً فوق الرياح؟ وشيء آخر أكثر، كون المسافة من هنا إلى كاندايا تبلغ ثلاثة آلاف وبضع مئات من الفراسخ، يعنى أنه إذا تعب الحصان أو غضب المارد علينا قطع

طريق العودة في نصف دسة من السنوات، وعندها لن تكون هناك ولاية أو (ولى) يعرفنى، وهم يقولون بشكل عام كل تأخيرة ومعها عشرة خطيرة، وجاءت الحزينة تفرح فلم تجد مكانًا في المفرح، ولتسامحنى لحنى هذه السيدات، فإن بدرو بخير ما دام في روما، أود القول بأنى بخير في هذا البيت، حيث أتلقى كثيرًا من الإنعام، ومن صاحبه أنتظر إنعامًا أكبر بأن أراى حاكمًا.

وعلى هذا علق الدوق:

- سانشو أيها الصديق، الولاية التى وعدتك بما ليست متنقلة أو هاربة، ولها جذور عميقة، ضاربة في هاوية في الأرض، ولا يستطيع أحد خلعتها أو نقلها من حيث توجد ولو لثلاث خطى، ومن ثم، فأنت تعرف أنى أعرف أنه لا يوجد جنس من المهام تلك ذات الضخامة الكبرى دون أن تنتهى مع شىء من حصد محصول كثر أو قل، ولذا ما أوده من هذا الكلام هو أن تذهب مع سيدك دون كيخوتى لوضع نهاية لهذه المغامرة الهائلة، والآن إما أن تعودا على مفتاحشيف (كلايلينيو) بأسرع ما يمكن لحنته أن تسمح، وإما على العكس زائرين مكرمين من فندق إلى فندق ومن نزل إلى نزل عاندين على الأقدام، ومهما كانت الطريقة فعند العودة ستجد ولايتك حيث تركتها، ورعايا ولايتك مع نفس الرغبة لاستقبالك حاكمًا لهم كانوا دائمًا في انتظاره، وإرادتى ستكون هى نفسها، ولا شك في هذه الحقيقة، يا سيد سانشو، لأن شكك يعد إهانة كبرى لرغبتى فى خدمتك.

قال سانشو:

- إننى خادم مسكين، ولا أستطيع تجاهل هذا التهذيب، فليصعد سيدى، ولتغطوا عيني هاتين، واستودعوني الله، ونبهونى عندما نظير فى تلك السموات حتى أتمكن من ترك نفسى بين يدى ربنا أو أدعو الملائكة لمناصرتى.

وعلى هذا أجاب تريفالدين:

- سانشو، يمكنك الاتكال على الله أو على من شئت، إلا أن ملامبرونو، مع أنه ساحر فهو مسيحي، ويقوم بسحره في نباهة سديدة وحذر شديد، دون أن يتدخل في شئون أحد.

قال سانشو:

- إذن فليساعدني الله والثالوث المقدس.

قال دون كيخوتى:

- منذ المغامرة الهائلة لمطارق النسيح، لم أشهد في سانشو مثل هذا الخوف العظيم الذى أشهده الآن، ولو كنت ممن يتشاءمون لأحدث جنبه بعض القشعريرة فى نفسى، لكن اقترب هنا سانشو، ويأذن هؤلاء السادة أريد أن أقول لك كلمتين على جانب.

ومبتعداً مع سانشو بين بعض أشجار الحديقة، قال له ممسكاً بكلتا يديه:

- ها أنت ترى، سانشو أيها الشقيق، الرحلة الطويلة التى تنتظرنا، والله وحده يعلم متى نعود منها، وما وسائل الراحة والفضاء مما سيعطينا هذا الشأن، وهكذا أود أن تذهب إلى مخدعك الآن كما لو كنت تبحث عن شىء ضرورى للسفر، واجلد نفسك عددًا معقولاً من الجلدات من تلك الثلاثة آلاف وثلاثمئة جلدة التى التزمت بها، ولو حتى خمسمئة جلدة، فانتهاؤك من ذلك ينطبق عليه القول: "ابتداء العمل إنجاز لنصفه".

قال سانشو :

- بالله يا سيدى لا بد أنك تخلو من الصواب، وهذا مثل قولهم: "في شدة ترانى،
وتبغى فض عذريتي في ثواني". والآن على أن أجلس فوق لوح خشبي منزلق،
وتريد فخامتكم أن أمزق فخذى؟ في حقيقة الحقيقة، لقد جانبكم الحق،
فلنذهب الآن لخلق لحي هؤلاء القهرمانات؛ وعند العودة أعدك، ووعدى فعل،
أن أخرج من هذا الالتزام سريعاً جداً، حتى تكون راضياً، ولا أقول أكثر.

وأجاب على هذا دون كيخوتى:

- إذن، بهذا الوعد، سانشو الطيب، أمضى متعزياً، وأثق في إنجازك، لأنه بالفعل
رغم أنك عيبط، أنت رجل "حقاني" (*)، أبيض القلب.
- لست أبيض ولكنى أسمر، ومع أننى مولد، فإننى سأنجز كلمتى.

وعند هذا عادا لصعود الجواد الخشبي، وعند الصعود قال دون كيخوتى:

- غطّ عينيك، سانشو، واصعد، فمن يرسل في طلبنا من بلاد بعيدة، لن يكون
لخداعنا، مع المجد التافه الذى يمكن أن يسير في الآفاق بخداع من وثق فيه؛
ولو افترضنا حدوث كل شيء على عكس ما أتصور، فإن مجد الشروع في
هذه المأثرة لا يستطيع إطفاء نوره أى شر.

قال سانشو:

- هيا بنا، فإن لحي ودموع هؤلاء السيدات بقيت مزروعة في قلبي، ولن آكل
لقمة حتى أعرف جيداً أن قد عادت لوجوهن نعمتها الأولى، اصعد

(* في النص يستعمل كلمة Veridico بمعنى حقانى، فاختلفت عند سانشو بكلمة Verde أى أخضر، فقال "لست أخضر ولكنى أسمر، فاضطر المترجم إلى إضافة أبيض القلب لحل إشكالية لعب المؤلف بالكلمات.

فخامتكم، وغطّ عينيك أولاً، فلو كان دورى أن أصعد فوق أفخاذ الجواد،
على من يمتطيه فوق السرج الدور أولاً.

أجاب دون كيخوتي:

- هذه هي الحقيقة.

وأخرج من جيبه منديلاً، وطلب من المقهورة أن تغطى عينيه بأفضل ما
يمكن، وبانتهاه تضميدهما عاد لكشفهما، وقال:

- إذا لم تخنى الذاكرة، فإننى قد قرأت في فيرجيل قصة بالاديون طروادة، وكان
جوادًا من خشب قدمه الإغريق إلى الإلهة بالاس، وكان حاملاً في بطنه
فرسائاً، أصبحوا فيما بعد سبب الدمار الكامل لطروادة، من ثم، فالخير أن
أرى أولاً ما في بطن مفتاحشيف.

قالت المقهورة:

- لا يوجد سبب لذلك، فأنا أثق وأعرف أن المامبرونو لا يوجد عنده أى سوء
نية أو خيانة، فاصعد، فخامتكم يا سيد دون كيخوتي، دون حمل أى هم،
وإذا حدث شيء فسيكون ضدى أنا.

بدا لدون كيخوتي أن أى إجابة حول سلامته ليست إلا أن يلمم عزم
شجاعته، وهكذا دون مزيد من التلكؤ، صعد على الجواد الخشبي، وتحسس المفتاح
الذى كان يدور بسهولة، وحيث إن الجواد ليس له ركاب تعلقت رجلاه، ولم يظهر
إلا مثل صورة على سجادة فلامنكو مرسومة أو مطرزة داخل مشهد انتصار
رومانى. وفى هيئة سيئة، وشيئاً فشيئاً صعد سانشو، محاولاً إراحة بدنه فوق أفخاذ
الجواد بفخذه، فوجدها صلبة، وليس بها أى لين، فطلب من الدوق، لو أمكن أن

يحضروا له حشية أو مخدة، حتى لو كانت من صالون الدوقة أو من مخدع أى خادم، لأن الأفخاذ يبدو أنها من المرمر أكثر من كونها من الخشب. وعلى هذا علقت تريفالدى بأن مفتاحسيف لا يتحمل معاناة أى شيء غريب فوقه، وحتى لا يشعر سانشو بالصلابة عليه أن يركب بطريقة النساء، وهكذا فعل سانشو، قائلاً: "على بركة الله!"، تاركاً نفسه لهم يضمدون عينيه، وبعد ذلك عاد لفك الغطاء عنها ناظرًا إلى كل من كانوا فى الحديقة بعيون حنونة تبتلها الدموع، قائلاً إن عليهم مساعدتهما بالصلوات التى أمر الله بها فى وقت الشدة.

وعلق على هذا دون كيوخوتى، وقال:

- لص، هل أنت موضوع فى جبل المشنقة، أو فى حالة احتضار حتى تطلب هذه الصلوات؟ أأست أيها القاسى الجبان فى نفس المكان الذى شغلته ماجالونا، ومنه نزلت ملكة لفرنسا إن صدقت القصص؟ وأنا، من يمضى بجانبك، ألا أستطيع أن أضع نفسى فى مكان الشجاع بيرس، الذى وطأ نفس المكان الذى أطأ أنا الآن؟ غط عينيك، هيا، أيها الحيوان، كسير النفس، ولا يخرج ما بك من خوف على لسانك، على الأقل فى حضورى.

أجاب سانشو:

- غطوا عيني، مادتم لا تريدون الصلاة من أجلى، أو أن أأكل على الله، فكم أخاف أن يمر من هنا أحد جنود محاكم التفتيش الشياطين.

غطيا عيونهما، وشعر دون كيوخوتى أنه كان حيث يجب أن يكون، ولمس المفتاح، وبمجرد أن وضع أصابعه عليه، حتى رفعت كل القهرمانات والحضور أصواتهم، وقالوا:

- أرشد الله طريقك، أيها الفارس الشجاع!

- كان الله معك أيها الخادم الجسور!

- خلاص! خلاص! ها أنتم في الأجواء قاطعين لها في سرعة خاطفة، أى سهم!

- خلاص! ها أنتم تبدأون في إدهاش وإذهال، كل من ها هنا من الأرض ينظرون إليكم!

- تماسك، سانشو الشجاع، فإنك ترتعد، حاسب حتى لا تسقط؛ فستكون سقطتك أسوأ من سقطة الغلام الجسور الذى أراد أن يسيطر على عربة أبيه "الشمس".

سمع سانشو الأصوات، ممسكاً بظهر سيده في قوة، محزماً له بذراعيه، وقال له:

- سيدى، كيف يقول هؤلاء إننا نخلق في السماء بينما تدركننا أصواتهم، ولا يبدو إلا هم ها هنا يتكلمون بجوارنا؟

- لا تتوقف عند هذا، فكما أن هذه الأشياء وهذا الطيران يخرج عن مجرى المألوف، فإنك على مسافة ألف فرسخ سوف ترى وتسمع ما تشاء. ولا تضغط بذراعيك على كثيراً، فإنك تكاد تهوى بي، لأننى في الحقيقة، لا أدرى ماذا يعكر صفوك أو يفزعك، فأنا أجرؤ على القسم أنه في كل أيام حياتي لم أصعد على مطية تسير أكثر راحة، حتى إنه يبدو أننا لا نتحرك من أى مكان. انف عنك، أيها الصديق، الخوف، فالحقيقة أن الأمر يمضى كما يجب أن يمضى، والرياح هي مؤخر سفينتنا.

أجاب سانشو:

- هذا حقيقي، فمن هذه الناحية أحس بريح فظة، كما لو كانت تهب علىّ
بألف منفاخ.

وهذا كان صحيحًا، فقد كان عدد من المنافيخ القوية تصب هواءها نحوه،
لأن هذه المغامرة شديدة جودة الحيل والتفنين على يد الدوق والدوقة ومدبر القصر،
فلم ينقصها شعرة دون الكمال.

وعندما أحس دون كيخوتى بهبوبها، قال:

- دون أدنى شك، سانشو لا بد أننا قد وصلنا إلى الإقليم الثاني للجو، الذى
يتولد فيه التبرد والجليد والرعد والبرق، وتتولد الأشعة فى الإقليم الثالث،
وإذا كنا بهذه الطريقة نستمر فى الصعود سريعًا سنصل إلى إقليم النار، ولا
أدرى فى أى اتجاه أحرك هذا المفتاح حتى لا نصعد إلى حيث نحترق.

وخلال ذلك مع بعض نسالة القماش التى تشتعل وتخدم فوق غاب من بعيد،

كانت تسخن وجهيهما، وأحس سانشو بالحرارة، وقال:

- لأمت إذا لم نكن فى قرية النار، أو لعننا على مقربة منها، لأن شطرًا كبيرًا من
لحيتى قد شاط، إننى، سيدى، على وشك كشف غطاء عيني لأرى فى أى
مكان نحن.

أجاب دون كيخوتى:

- لا تفعل هذا، وتذكر جيدًا حكاية الجامعى تورالبا، الذى حملته الشياطين فى
طيران بالجو، ركبًا على عود غاب مغطى العينين، وفى اثنتى عشرة ساعة

وصل إلى روما، وهبط في برج نونا، وهو شارع بالمدينة، ورأى فشل بوربون وسطوه وموته، وفي اليوم التالي كان في مدريد، حيث أبلغ عن كل ما رأى، وقال أيضًا إنه عندما كان في الجو أمرته الشياطين بفتح عينيه، وفتحهما، فرأى نفسه قريبًا جدًا من جسم القمر حتى كان يمكنه أن يمسكه بيده حسب ما بدا له، لكنه رفض النظر إلى الأرض حتى لا يتلاشى. وهكذا، سانشو، لا يوجد سبب لكشف الغطاء، فالذي يحملنا سيدري بأمرنا، ولعلنا نتخذ اتجاهات مختلفة تهيئاً للهبوط، فصعودنا إلى أعلى عليين كى يؤدي بنا للسقوط فوق مملكة كاندايا كما تفعل صقور وبازى الصيد حين تنقض على الفريسة للإمساك بها، مع مبالغتها في الصعود، ومع أنه يبدو لنا أننا لم نغادر الحديقة بأكثر من نصف ساعة، ثق فيما أقول من أننا لا بد وأن نكون قطعنا مسافة عظيمة من الطريق.

أجاب سانشو بانثا:

- لا أدري ما هو الأمر، فقط أعرف القول إن السيدة ماجلانا أو ماجالونا، إذا كانت قد سعدت بركوب هذه الأفخاذ، فلأنها لم تكن ناعمة الجسم.

كل هذا الحديث للشجاعين الاثنتين كان يسمعه الدوق والدوقة والحضور، مما بالغ في سرورهم وطربهم، وقد أحبوا إعطاء نهاية لهذه المغامرة الغريبة وجيدة الصناعة، فأشعلوا ذيل مفتاحشيف (كلايبينيو) بنسالة القماش المشتعلة، ولأن الجواد كان مليئًا بالصواريخ الرائدة، فقد طار في الهواء مع ضجة غريبة، وألقى بدون كيخوتي وسانشو بانثا إلى الأرض نصف شائطين.

فى نفس اللحظة اختفى من الحديقة كل القهرمانات الملتحيات، وترىفالىدى، وكل أهل البيت بقوا كما لو كان مغشياً عليهم، ممددين على الأرض. دون كىخوتى وسانشو نهضا مضعضين، ناظرين فى كل اتجاه مذهبولين من رؤية أنفسهم فى نفس الحديقة التى منها ألقعوا، ومن رؤية هذا العدد الكبير من الناس الممددين على الأرض، ونما عجبهما أكثر عندما وجدا فى جانب من الحديقة رمحا كبير مغروسا فى الأرض ومعلقا به رقعة بخيوط من الحرير الأخضر. كانت الرقعة بيضاء وناعمة وفيها بحروف كبيرة كان مكتوبا ما يلى:

" الفارس المشهور دون كىخوتى دى لا مانشا أهى مغامرة الكونتيسة ترىفالىدى، (والتي تحمل لقب هو "الكونتيسة المقهورة") ومرافقاتها، فقط بمحاولة القيام بها".

" مالابرونو يعلن رضاه واقتناعه بكل إرادته، وقد أصبحت بالفعل لى القهرمانات ناعمة ونقية من الشعر، والملكين كلايخو وأتونوماسيا فى صورتهما الأولى، وعندما تنجز عملية الجلد الخادمية، ستصبح الحمامة البيضاء حرة من السحرة الذين يطاردونها، وبين ذراعى حبيها محضنة، وهذا بأمر معلم السحرة الحكيم ميرلين".

بعد أن قرأ دون كىخوتى المكتوب فى الرقعة بوضوح أدرك أنهم يتحدثون عن فك سحر دولثينيا، وقدم الشكر للسماء بإنجاز هذا العمل الكبير بذلك النذر اليسير من الخطر، معيدا البشرية الماضية لوجوه القهرمانات الجليات، وأنهن قد عدن إلى كاندايا، وهكذا ذهب إلى الدوق والدوقة اللذين لم يعودا إلى وعيها بعد، وهازا الدوق من يده، قال:

- هيا، أيها السيد الطيب، كن قوى الروح عاليها، فالأمر لا شيء! المغامرة قد فرغنا منها دون إيقاع أذى بأحد، كما يكشف عن ذلك في وضوح المكتوب والمعلق بذلك الريح.

الدوق، شيئاً فشيئاً، وكمن يتذكر مستيقظاً من نوم ثقيل، مضى يعود إلى وعيه، وبنفس الطريقة أخذت تفيق الدوقة والباقون، وكل من كان ملقى بهم فى الحديقة، مع إبداء كل دلائل التعجب والفرح، وتقريباً كانوا قادرين على إعطاء الانطباع أن قد وقع لهم بالفعل ما عرفوا أن يتقنوا تكلفه فى خدعتهم. قرأ الدوق الرقعة بعينين نصف مغمضتين، وفى الحال بأذرع مفتوحة، راح يحتضن دون كيخوتى قائلاً له إنه أطيب الفرسان الذين رأتهم كل الأزمان. سانشو مضى يبحث عن المقهورة حتى يرى أى وجه اكتسبت دون اللحية، إذا كانت بنفس الحسن الذى أوحى به هيئتها البديعة، لكن، قالوا له بمجرد أن هبط مفتاحشيف محترقاً فى الهواء، وسقط على الأرض، اختفت كل كتيبة القهرمانات مع تريفالدى، وكن بوجوه مخلوقة خالية من الغاب.

سألت الدوقة سانشو، ماذا جرى معه فى تلك الرحلة الطويلة. أجاب:

- أنا، يا سيدتى، أحسست أننا مضينا طائرين، طبقاً لما قاله لى سيدى، وحلقنا فى إقليم النار، وأحببت أن أكشف قليلاً عيني، لكن سيدى الذى طلبت منه إذناً بذلك، لم يوافق، لكن أنا وعندى شرارات من الفضول، ومن الرغبة فى معرفة ما يعترضنى ويعوقنى، بشكل جميل ودون أن يراى أحد فى جانب الأنف أزحت المنديل بقدر ما كان يغطى تلك المنطقة، ومن هذه الزاوية نظرت نحو الأرض، وبدت لى أنها ليست أكبر من حبة خردل، والناس الذين

يسرون من فوقها، أكبر بقليل من ثمار البندق، حتى تدركى كيف كنا ولا بد نخلق في علو شاهق في ذلك الحين.

وعلى هذا علقت الدوقة:

- سانشو أيها الصديق، تأمل فيما تقول، فحسبما يبدو أنك لم تر الأرض، وإنما فقط الناس الذين يمشون عليها، فبالطبع إذا ظهرت لك الأرض مثل حبة خردل، وكل إنسان بندقة، فإن إنساناً واحداً يجب أن يغطي كل الأرض.

أجاب سانشو:

- هذا حقيقي، ومع ذلك كشفت عيني من جانب، ورأيت الأرض كلها.

قالت الدوقة:

- انظر سانشو، من ينظر بجانب لا يرى جميع ما ينظر.

أجاب سانشو:

- أنا لا أعرف هذه النظرات، فقط أدرى أنه من الخير أن تدركى عظمتكم، أنه عند طيراننا طرنا بالسحر، وبالسحر يمكن لى رؤية كل الأرض، وكل البشر مهما كانت طريقة النظر إليهم، وإذا لم تعتقدى فى هذا، فإن عظمتكم لن تعتقدى أنى عند كشف جانب عيني بجانب الحواجب، رأيتنى شديد القرب من السماء، حتى لم يكن بينى وبينها شبر ونصف الشبر، وهذا ما يمكنى أن أقسم عليه، يا سيدتى، وقد كانت كبيرة جداً بزيادة. وحدث أن كنا نسير فى جزء حيث توجد الماعز السبع للشريا، وبحق الله ونفسى، كما كنت فى طفولتى راعى ماعز، فإنى عند رؤيتها، اعترتنى الرغبة فى اللعب معها بعض

الوقت! وعندما لم أحقق ذلك بدا لي أنني سأنفجر. وهنا، لآخذ وأعطى معها؛ وماذا أفعل إذن؟ ودون أن أقول شيئاً لأحد، أو لي، أو لسيدى، في رشاقة وبطء ترجلت عن الجواد، ولعبت مع الماعز السبع الصغيرة، وهى مثل زهور الخيزرى مع زهور أخرى، تقريبا أمضيت معها ثلاثة أرباع الساعة، وكلاييلينو (مفتاخشيف) لم يتحرك من مكانه، ولم يستمر في تقدمه.

قال الدوق:

- وخلال لعب السيد سانشو مع الماعز، مع من كان يلعب السيد دون كيخوتى؟

وعلى هذا أجاب دون كيخوتى:

- مثل كل تلك الأشياء والأحداث التى تحرق النظام الطبيعى، ليس بالكثير أن يقول سانشو ما يقول. وعنى، أعرف القول بأننى لم أكشف عينى لا فوق ولا تحت، ولم أر الأرض ولا السماء، ولا البحر ولا الرمال، لكن فى الحقيقة أحسست أننى كنت أمر فى إقليم الهواء، وحتى أحسست أننى كنت ألمس إقليم النار، ومع ذلك؛ كوننا مررنا هناك أمر لا أستطيع تصديقه، لأن إقليم النار بين سماء القمر وآخر أقاليم الهواء، وماكنا نستطيع أن نصل إلى السماء حيث توجد الماعز السبع، دون أن نحترق، ولأننا لم نحترق، فإما إن سانشو يكذب، أو أنه يحلم.

أجاب سانشو:

- لم أكذب ولم أحلم، وإذا لم تصدقوا اسألونى عن علامات وأمارات تلك الماعز، وبها تعرفون أننى أقول الحق أو غيره.

قال الدوق:

- قلها، إذن، سانشو.

أجاب سانشو:

- اثنتان خضراوان، واثنتان محمرتان، واثنتان زرقاوان، وواحدة من ألوان مختلطة.

قال الدوق:

- كينونة جديدة للماعز تلك، وفي إقليمنا هذا للأرض لا تعتاد تلك الألوان،
قصدي أنه لا توجد ماعز بهذه الألوان.

قال سانشو:

- هذا واضح وجلي، فلا بد من فرق بين ماعز السماء وماعز الأرض.

سأل الدوق:

- قل لي سانشو، هل رأيت هناك بين تلك الماعز جدياً؟

أجاب سانشو:

- لا يا سيدي، لكن سمعت أن لا يسمح لأي جدي بتجاوز قرون القمر.

لم يحبوا سؤاله أكثر عن رحلته، لأنه ظهر لهم أن سانشو يحمل خيط نزاهات
في كل السماء، والإخبار عما يحدث هناك، دون أن يكون قد تحرك من الحديقة.

وباختصار، تلك كانت نهاية مغامرة القهرمانّة المقهورة، التي أضحكت
الدوق والدوقة، ليس فقط في ذلك الوقت، بل في كل أوقات الحياة، وجعلتهما
يحكيان عن سانشو دهوراً لو استمرت بهما الحياة.

وباقتراب دون كىخوتى من مسامع سانشو قال له:

- سانشو، إن أردت، سانشو، أن أعتقد فيما رأيت في السماء، عليك بالاعتقاد فيما رأته في كهف مونتيسينوس، ولن أنطق بكلمة أكثر.

الفصل الثانى والأربعون

عن نصائح دون كيوخوتى لسانشو قبل ذهابه لحكم الولاية، مع أشياء أخرى ذات اعتبار كبير

مع الحديث السعيد والظريف لمغامرة المقهورة أصبح الدوق والدوقة فى غاية الطرب والسرور، حتى إنهما قررا دفع الخدع والحيل إلى الأمام، ناظرين فى الموضوع المستقر الذى طرحاه كى يتحول إلى حقيقة، وهكذا، مصدرين الأوامر وخطط التآمر إلى خدمهم وأتباعهم الذين كان عليهم تنفيذها مع سانشو فى الحكومة لتلك الولاية الموعودة، وفى اليوم الذى تلا طيران مفتاحشيف، قال الدوق لسانشو إن يعدل هيئته ويتزين للذهاب ليصير حاكماً، فإن رعاياه فى انتظاره مثل انتظارهم لأمطار مايو. انحنى أمامه سانشو، وقال له:

– بعد هبوطى من السماء، ومنذ أن رأيت من ذراها العالية الأرض، وكانت جدًّا صغيرة، خفت فى زاوية من نفسى عندى الرغبة التى كانت عظيمة لأن أكون حاكماً، لأنه، أى عظمة فى حكم حبة خردل، وأى جدارة أو إمبراطورية حكم نصف دسنة من الرجال فى حجم البندق، وإنه، حسب ما ظهر لى، لم يكن على ظهر الدنيا رجال أكثر عددًا من ذلك؟ وإذا سعادتكم، وهبتنى شريحة صغيرة من السماء، حتى لو كانت نصف فرسخ، لكانت عندى وبكل الرغبة أفضل من أكبر ولاية فى الدنيا.

قال الدوق:

– انظر، سانشو الصديق، أنا لا أستطيع إعطاء أية شريحة من السماء لأحد، حتى لو كانت أصغر من الظفر؛ فهذه الإنعامات مقصورة فحسب على الله. ما

أستطيع إعطاؤه أعطيه لك، وهي ولاية بقضها وقضيتها، ومستديرة، وذات أبعاد متناسبة، وخصبة جدًّا ومزدهرة، وإذا عرفت إدارتها بحذق، استطعت بثروات الأرض كسب ثروات السماء.

أجاب سانشو:

- هذا ممتاز، فلنكن تلك الولاية، وسوف أناضل لأكون ذاك الحاكم، الذى يصعد للسماء على الرغم من الأشرار، وهذا ليس لطمع فى أن أخرج عن حجمى أو أتفطرس على أحد، وإنما الرغبة التى تملكنى كى أختبر طعم أن يكون الإنسان حاكمًا.

قال الدوق:

- إذا ذقته، سوف تمصص إصبعك وراء الحكومة، لكون الأمر والنهى وأن تكون مطاعًا من الأمور الأكثر لذة وحلاوة. ومن المؤكد أن سيدك عندما يصير إمبراطورًا، وسوف يصير دون شك طبقًا لسير أموره، لن يخلعوه كيئما كان، وسوف يؤلمه ويثقل عليه الوقت الذى قضاه هاجرًا لأن يكون إمبراطورًا.

أجاب سانشو:

- سيدى، إننى أتخيل أنه من اللذيذ الأمر والنهى حتى لو كان على حظيرة لقطيع من المواشى.

قال الدوق:

- وافق شن طبقه، فأنت سانشو تعرف الكثير، وأتوقع أن تكون ذلك الحاكم الذى فى قامته ما تعد به حكمتك، ولنقف عند ذلك، واعلم أن غداً، فى نفس

ذلك اليوم عليك الذهاب إلى حكومة الولاية، وفي نفس هذا المساء سيعدون على مقاسك البدلة المناسبة التي ينبغي ارتداؤها، وكل الأشياء الضرورية لرحيلك.

قال سانشو:

— فلتلبسوني ما شئتم، فمهما اختلف لباسي، سأكون سانشو بانثا.

قال الدوق:

— هذا حق، لكن الحلل لا بد أن تتناسب مع المهنة أو جدارة ما تمارس من عمل، فلن يكون طيباً أن يرتدى القاضى ثياب الجندى أو يرتدى الجندى ثياب القسيس. أنت، سانشو، ستذهب مرتدياً ثياباً نصفها ثياب أديب والنصف الآخر ثياب قبطان، لأنه في الولاية التي أعطيها لكم الأسلحة والأدب ضروريان على حد سواء.

أجاب سانشو:

— عندي القليل من الأدب لأنني لا أعرف الأجدية، لكن لدى علم بالصلاة في الذاكرة، مما يؤهلني لأكون حاكماً صالحاً، أما الأسلحة فإنني أجيد ما يعطونه لي، حتى أسقط، والله على ما أقول شهيد.

قال الدوق:

— بهذه الذاكرة الطيبة، لا يمكن أن يخطئ سانشو في شيء.

خلال هذا وصل دون كيخوتي، وعند علمه بما يجري، والسرعة التي على سانشو أن يرحل بها إلى حكومته، بعد إذن الدوق، أخذه من يده، وذهب به إلى مقره،

مع نية نصحه عما لا بد أن يجد في مهنته. وعند دخولهما في مخدعه، أغلق خلفه الباب، وأجبر سانشو تقريباً بالقوة على الجلوس إلى جواره، وبصوت وقور قال له:

— ثناء لا يحصى أرفعه للسماء، سانشو أيها الصديق، عن أولاً وقبل كل شيء، أن عثرتُ على سعد كبير، من أن الحظ الطيب قد خرج لك للقائه واستقباله. أنا، لحسن حظي، تحررت من دفع خدماتك، فأرائي في بدايات التسامى الذاتى، وأنت، في وقت مبكر، ضد قانون مجرى الأحداث المعقول، أرى رغباتك قد نالت جائزتها. آخرون يعملون، ويصارعون، ويلحون، ويكفون، ويتوسلون، ولا يبلغون ما يريدون، ويصل آخر، ودون أن يدري، يجد نفسه في المنصب والمهنة التي يسعى إليها آخرون كثيرون؛ وهنا يدخل ويتلاءم القول جيداً بأنه يوجد الحظ الطيب والحظ السيئ في مساعي نيل الآمال. أنت، بالنسبة لى، دون شك، بليد لا تبكر ولا تسهر ولا تمارس أى مساع، فقط مع التشجيع الذى أعطته لك الفروسية المشاءة، لا أكثر أو أقل، تجد نفسك حاكماً لولاية، كلام مثل الهديان. كل هذا أقول، أوه سانشو! حتى لا تنسب إلى جدارتك الإنعام الذى تلقيته، وإنما تحمد الله عليه، فهو الذى يدبر الأشياء فى خفاء، ثم تحمد الفروسية المشاءة. فإذا كان قلبك مهيناً للاعتقاد فيما قلته لك، أوه يا ولدى! فكن متيقظاً إلى نصائح كاتون^(*)، الذى يرغب فى نصحك، وانتشالك إلى مرسى آمن فى هذا البحر الهائج، حيث تمضى لشق غماره، فإن المهن والمناصب العظيمة ليست شيئاً آخر إلا خليجاً عميقاً من الحيرة.

(*) مؤلف كتاب عن نصائح أخلاقية لحاملى الدروع. وكاتون هنا يقصد به دون كيخوتى شخصه هو لا شخص مؤلف الكتاب.

- أولاً، يا ولدى، عليك بمخافة الله، ففيها الحكمة، وأن تصير حكيماً لن تستطيع أن تخطئ في شيء.

- وثانياً، عليك أن تضع عينيك فيمن تكون أنت، محاولاً أن تعرف نفسك، وذلك أصعب معرفة يمكن تخيلها. بمعرفة نفسك ستكسب ألا تنتفخ وتثورم مثل الضفدع التي أرادت أن تتساوى مع الشور (فظلت تنتفخ إلى أن انفجرت) وإذا فعلت هذا سترى قبح قدميك، (مثل الديك الرومي عندما يرى قبح قدميه ناشراً دائرة ذيله)، في دائرة جنونك باعتبار أنك ربيت خنازير في أرضك.

أجاب سانشو:

- هذا حق، لكن هذا عندما كنت صبيّاً؛ و بعد ذلك، شاباً، لم تكن في أرضى خنازير، وإنما أوز. لكن هذا يبدو لي خارجاً عن الموضوع، فإن كل من يحكمون لا يأتون من سلالة ملكية.

علق دون كيخوتى:

- هذا حق؛ ولهذا من لا يحملون أصولاً نبيلة، عليهم مصاحبة جديدة المنصب الذى يمارسونه مع نعومة لينة، والتي تفوقها الفطنة، وهذا يحررهم من الهمس الخبيث، ممن يعوم على البر.

- احتفل سانشو بتواضع نسبك، ولا تقلل من شأنك قائلاً إنك من نسل فلاحين، لأنك إن لم تكرم نفسك، لن يكرمها لك أحد، و ارفع نفسك بأن تكون متواضعاً فاضلاً أكثر من أن تكون متغطرساً آتماً. لا حصر لهم أولئك الذين صعدوا من أصل متواضع إلى أعلى درجة بابوية أو إمبراطورية، وهذه الحقيقة يمكن طرح أمثلة قد ترهقك من كثرتها.

- وانظر، سانشو، إذا أخذت بالفضيلة سترفع من شأنك لأعمالك الفاضلة، ولا يوجد سبب لحسد الأمراء والنبلاء، لأن الدم يورث، أما الفضيلة فتكتسب، وهي قيمة في نفسها، والدم لا.

ولكون ذلك كذلك، وهو هكذا بالفعل، فإذا جاءك لرؤيتك متى أنت فى ولايتك، أحد أقاربك، فلا تطرده ولا تسئ إليه، إنما على العكس، عليك أن ترحب به وتطعمه وتلاطفه؛ بهذا سترضى السماء، التى يسرها ألا يهان أحد خلقته، وستجواب بهذا مع ما تدين به إلى الطبيعة الطيبة.

وإذا أحضرت زوجتك معك (لأنه ليس صالحًا لمن يقون فى الحكومة وقتًا طويلاً أن يظلوا دون نسانهم الشرعيات)، فعلمها ولقنها، وأخرجها من خشونتها الطبيعية؛ لأن كل ما اعتاد أن يكتسبه حاكم فطن تعتاد على إضاعته وإرافته زوجة خشنة وبلهاء.

وإذا حدث أن تزلت (أمر ممكن الحدوث)، ومع المنصب عليك تحسين الصنف، لا تأخذها لتساعذك باعتبارها طعمًا وسنارة للصيد، ولا ترفض الرشوة نظير قبولها هى لها، فزوجة القاضى يحاسب زوجها على ما استقبلت من هدايا عند عزله، ومن يحكم يضاعف ذنبه بعد الموت أربع مرات أكثر ممن لم يحكم فى حياته.

ولا يفودك التعسف، مما اعتاد عليه الجهلاء الذين يدعون الذكاء. ولتجد دموع الفقراء عندك الشفقة، لكن ليس أكثر من أدلة الغنى، عند تطبيق العدالة. حاول كشف الحق بين الوعود والهدايا من الغنى مثلما بين النحيب واللجاجة من الفقير.

عندما يمكن وينبغى الإنصاف، لا تنفذ كل صرامة القانون على المجرم، فإن سمعة القاضى الصارم ليست أفضل من سمعة القاضى الشفوق. عندما تتعطف عن معيار العدالة، لا يكون لوزن المجاملة، وإنما لوزن الرحمة.

عندما تحكم في دعوى لبعض أعدائك، جنّب دعاوى غضبك، واغضب للحق. لا يعميك الانفعال الشخصي في قضية تمس الآخر، لأن الجروح التي تسببها، في معظم الأحوال تبقى بلا علاج، وإذا وجدت العلاج سيكون على حساب مصداقيتك، وحتى على حساب جيبك.

وإذا جاءتك امرأة حسناء لطلب العدالة، أبعِد عينيكَ عن دموعها، ومسامعك عن أناتها، وتأمل في روية جوهر ما تطلبه منك، إذا أردت ألا تنكر عقلك أمام بكائها، وفضلك أمام تهدياتها.

الذي عليك عقابه بأفعال، لا تسمى معاملته بالكلمات، لأنه يكفي التعيس عقوبة البدن، دون إضافة العبارات القبيحة.

اعتبر، المدان الذي يقع تحت أحكامك، إنساناً مسكيناً واعتبره محكوماً بشروط طبيعتنا الفاسدة، وفي كل ما يصدر من طرفك لا تسمى إليه، وعلى العكس أظهر له أنك رجل بر ورحمة؛ لأنه مع تساوى صفات الله وأسمائه، فإن اسم الرحمن في نظرنا يشرق ويفوز على الاسم العادل.

إذا اتبعت هذه المبادئ والقواعد، سانشو، ستطول أيامك، وستصير شهرتك خالدة، وجوائزك الذروة، وسعادتك لا توصف، وزوج أبنائك كما تحب، وسوف ينالون ألقاباً هم وأحفادهم، وسوف تعيش بسلام الناس ورضاهم، وفي آخر خطوات الحياة سوف تدرك خطوة الموت في شيخوختك الناعمة الناضجة، وسوف يغلق عينيكَ عندها الأيدي الحانية والرهيفة لثالث جيل من أحفادك. وما قلته لك حتى الآن وثائق عليها أن تزين نفسك، واسمع الآن للوثائق التي سوف تصير لك زينة لجسمك.

الفصل الثالث والأربعون

حول النصائح الثانية التي قدمها دون كيخوتى لسانشو بانثا

من يسمع عبارات دون كيوخوتى ولا يرى فيه شخصاً عاقلاً جداً، وطيب المقاصد؟ لكن كما فى مرات كثيرة خلال تقدم هذه القصة، كما قيل، فقط يقول ترهات فيما يتعلق بالفروسية المشاءة؛ وفى كل الخطابات الأخرى كان يظهر تعقلاً طلقاً وواضحاً، حتى إنه فى كل خطوة يُفقد عمله عقله المصادقية، ويُفقد عقله عمله المصادقية، لكن فى هذا، تلك الوثائق الثانية التى أعطاهها لسانشو أثبتت ملاحظته الكبيرة، ووضعت عقله وجنونه فى نقطة واحدة فى الذروة. كان سانشو فى منتهى الانتباه ينصت له، محاولاً حفظ نصائحه فى الذاكرة، مثل من يفكر فى حفظها والخروج بفضلها بولادة سهلة لحمل حكومته. إذن، واصل دون كيوخوتى، وقال:

- فيما يتعلق بحكم نفسك وبيتك، سانشو، أول ما أوصيك به أن تكون نظيفاً، وأن تقص أظافرك، ولا تتركها تنمو، كما يفعل البعض، ومن وفقه جهله إلى تصور أن الأظافر الطويلة تجمل اليدين، كما لو كان هذا الملحق والإضافة الذى يدعون قصه مجرد ظفر، بينما هو مخلب صقر يصيد السحالي: هو قذارة وشطط مبالغ.

- لا تمض سانشو بغير حزام ومتخاذل، فإن الثوب المضطرب إشارة لروح ضعيفة، والترهل والضعف لا يقعان تحت النجدة، كما حكم على حال بوليوس قيصر.

- جسّ ببطنة نبض من يمكنه أن يقيم مهنتك، وإذا عانيت إعطاء صدقة لباس لخدمك، فأعطها دون من أو أذى، أكثر من إعطائها في تظاهر وخيلاء، وقسمها بين خدمك والفقراء، أود القول إذا كان عليك تقديم ملابس لستة خدامين، فألبس ثلاثة منهم فقط مع ثلاثة فقراء، وهكذا سيكون عندك خدام من أجل السماء وخدم من أجل الأرض، وهذه الطريقة للتصدق باللباس لا يدركها المغرورون.

- لا تأكل الثوم أو البصل، حتى لا يتقرز من الرائحة أتباعك. تحرك ببطء، بوقار، لكن ليس بالطريقة التي تبدو بها منصتًا لنفسك، فرد فعل ذلك كله سيئ. كل قليلاً، وتعشّ أقل، فإن صحة كل الجسم تنصهر في جوف المعدة. وكن معتدلاً في الشرب، معتبراً أن زيادة النبيذ لا تحفظ سرّاً، ولا تنجز وعداً. وحاسب، سانشو، ألا تمضغ محدثاً صوتاً أمام أحد أو تجشّواً.

قال سانشو:

- هذا التجشّو لا أفهمه.

- يأتي من الفعل تجشّأ أى (تنحج)، وهو استعمال فصيح قليل الورد على الألسنة لكنه في الطريق إلى الشيوخ.

قال سانشو:

- في الحقيقة يا سيدى، فإن إحدى النصائح والتحذيرات التي أفكر في حملها بذاكرتي هي نصيحة (ألا أتحنج) لأنني تعودت على التحنج كثيراً.

قال دون كيخوتى:

- أتجشّأ سانشو، وليس (أتحنج)، (فهذه لا تليق بحاكم).

قال سانشو:

– من الآن فصاعدًا سأقول (أتجشأ)، وأقسم ألا أنسى.

– أيضًا، سانشو، لا ينبغي أن تخلط بكلامك تلك المظاهرة من الأمثال كما هي عادتك، ورغم أن الأمثال أحكام مختصرة، فإنك في أحيان كثيرة تأتي بها خارجة عن الموضوع، حتى تظهر أنها ترهات أكثر منها أحكام.

أجاب سانشو:

– هذا الله يستطيع معالجته، لأنني أعرف أمثالا أكثر من كتاب، وتثال في جمهرة معًا من فمي عندما أتكلم، حتى إنها تتشاجر معًا للخروج، لكن اللسان يمضى ملقيًا بأول ما يقابله منها، وإن لم يناسب موضوع الحديث. وسوف أعمل حسابي من الآن فصاعدًا على قول الأمثال التي تناسب فداحة منصبى؛ ففي البيت العامر، سريعًا يطبخ عشاء وافر، ومن يقطع الورق لا يفتنطه، ومن يقرع الجرس ينجو، والأخذ والعطاء يحتاج لعقل في ذكاء.

قال دون كيخوتى:

– هذا نعم، سانشو، صل والضم واغزل الأمثال، ولن يعترضك أحد، تعاقبني أمى، وأنا أهدعها. ما أقوله لك أبعد عن الأمثال، وفي لحظة ألقيت سلسلة منها تتضاد مع الموضوع الذى نعالجه، مثل تواجه تلال أوبيدا. انظر سانشو، لا أقول لك إن مثلاً يناسب الغرض هو شيء سيئ، لكن تحميل أمثال وعقدتها خبط عشواء، يجعل الحوار متلاشيًا ومنحطًا.

وعندما تمتطى حصاناً، لا تلقى بجسمك على مؤخرته، ولا تجعل الرجلين متفرشتين ومندفعتين في انحراف عن بطن الجواد، وأيضاً لا تفعل ذلك في وهن، كما لو كنت تمتطى الحمار، فإن السير ركباً يصنع الفرسان عند البعض، وصبيان الحظيرة عند البعض الآخر.

وليكن نومك معتدلاً، فمن لا يبكر مع الشمس لا يتمتع بيومه، واعلم، أوه سانشو! بأن الاجتهاد أب للحظ السعيد، والكسل عكسه، ولم يصل به لغايته قط من يطمح إلى أمل عريض.

آخر نصيحة أود إعطاءها لك الآن، رغم أنها لا تصلح زينة للبدن، وأود أن تحفظها جيداً في ذاكرتك، وأظن أنها لن تقل فائدة عما قلته لك حتى الآن، لا تجلس قط لتجادل في أنساب، على الأقل، مقارناً لها مع بعضها، حيث سيكون بين المقارنات نسب أفضل، فإن ناهضته خسرت، وإن رفعت من شأنه لن تنال أى جائزة.

ثيابك حذاء كامل، وثوب طويل، ومعطف أطول من المعتاد قليلاً، وسراويل متسعة، غير ذلك لن تكون مقبولة للفارس أو للحاكم.

والآن هذا ما عرض لي، سانشو، أن أنصحك به، سيسير الوقت، وطبقاً للمناسبات، هكذا ستعمل بوثائقى هذه، واحرص على أن تبلغنى بالحال التى أنت عليها.

أجاب سانشو:

- سيدى، أرى جيداً أن كل الأشياء التى ذكرتها لي أشياء طيبة، ومقدسة، وصالحة لصالحى، لكن، بم تفيد إذا كنت لن أتذكر أى واحدة منها؟ حقيقة، تلك الخاصة بترك أظافرى تنمو، وبزواجى مرة أخرى، إذا أمكن، لن تذهب

عن خيالي، لكن تلك الأخرى المختلفة والمتشابكة والمتداخلة، لا أتذكرها ولن أتذكرها بعد الآن أكثر من تذكر سحب العام السابق، من ثم، من الضروري إعطاؤها لى مكتوبة، فعلى الرغم من أننى لا أعرف القراءة والكتابة، سوف أعطيها للقسيس الذى أعترف أمامه حتى يتلوها علىّ، ويعيد إليها أهليتها، كلما كان ضرورياً.

أجاب دون كيخوتى:

- آه، ويلي، كم يبدو سيئاً بين الحكام حاكم لا يعرف القراءة والكتابة! لأنه عليك أن تعرف، سانشو، أن رجلاً لا يعرف القراءة أو أن يكون أصمّ يتضمن أمرين: إما كان ابناً لآباء متواضعين للغاية ومنحطين، وإما كان شقيماً وشريراً، حتى لم تتمكن من الدخول إلى عقله العادة الطيبة للعلم المفيد، إنه نقص كبير ذلك الذى تحمله بين جنبيك، وهكذا أود حتى لو تعرف أن توقع.

أجاب سانشو:

- أعرف جيداً توقيع اسمى، فعندما كنت كبير أخوتى فى قريتي تعلمت عمل بعض الحروف علامة للحملان، وقد كانوا يقولون لى إن هذه الحروف تقول اسمى، وبصفة خاصة عندما ادعى أن يدى اليمنى عاجزة، وأجعل آخر يوقع لى، وكل شيء له علاج إلا الموت، وعندما أمسك بالأمر والصولجان سوف أفعل ما أريد، وبصفة خاصة من كان العمدة أباً له... (لا يجانبه الصواب)، وأن أصير حاكماً ذلك أعلى من العمدة "وتفضل، وسيجعلونك تراهماً(*)". يحقرون من شأنى ويحقروننى، فليأتوا بفروقتهم، وسوف يعودون مجزوزين، ومن

(*) مثل آخر عندما يتقدم شخص مهم لخطبة إحدى البنات.

أراد الله له نعمة، فإنه يعرف أين يجده، وسفاهات الغنى تمر في العالم كروائع، وأن أكون غنيًا، بأن أكون حاكمًا وكريمًا معًا، كما أفكر أن أكون، لن ينقص أحد أن ينتقدني. واجعل من نفسك عسلاً، سوف تنغمس فيه الذبابات، وأنت تساوي بقدر ما تملك، هكذا كانت تقول إحدى جداتي، ولن ترى سببًا للثأر، من رجل وطيد الجذر.

وهنا قال دون كيخوتي:

— أوه، حلّت عليك لعنة الله، سانشو! ليذهب بك وبأمثالك ستون ألف شيطان! فمنذ ساعة، وها أنت تنظمها في عقد، معطيًا لي مع كل مثل جرعات تعذيب. وأنا أؤكد لك أن أمثالك هذه سوف تحملك يومًا إلى المشنقة، ويسببها على معاونيك أن يعزلوك من الحكومة، أو أن يشيع بينهم التمرد. قل لي، أين تجدها، أيها الجاهل، أو كيف تطبقها أيها المخبول، فأنا حتى، أقول مثلاً وأحسن تطبيقه، فإني أعرق وأجهد كما لو كنت أعزق الأرض.

— بحق الله أيها السيد سيدنا، إن فخامتكم تغضبون لأشياء قليلة الأهمية، بأى شيطان يغضبون، أن تحدمني ثروتى التى لا أملك غيرها، أو ليس لدى سيولة دوغها، وهى أمثال، وأمثال أكثر؟ والآن يحظر على بالى أربعة، تناسب المقام تمامًا، أو مثل كمثرى فى سلة، لكن لن أقولها، لأنهم يطلقون على سانشو الحسن السكوت.

— لست أنت سانشو ذلك الرجل؛ لأنك لست حسن السكوت، وفوق ذلك أنت سئى الكلام، وسئى العناد، ومع كل هذا أحب أن أعرف أى أربعة أمثال تلك، التى ترد على ذاكرتك الآن، وتناسب المقام؟ فهنا أنا أمضى مفتشًا عن أمثالى، والتى هى جيدة، لكن لا يقع لى واحد.

قال سانشو:

- أى أمثال أفضل من "بين ضرسى العقل لا تضع إهامك كالتقل"، و"اخرج من بيتي، ماذا تريد من امرأتى، لا ردّ يأتى"، و"إذا ضربت الحجارة الحصى أو الحصى الحجارة، فللحصى فى الحالتين الخسارة".

وكلها تناسب المقام؟ فلا أحد يصطدم مع حاكمه أو مع من يتأمر عليه؛ لأنه سيخرج جريئاً، كمن يضع إصبعة بين ضرسى العقل، مع كونها ليست عاقلة بقدر ما هى أضراس، لا يهم، ولا راد لكلمة الحاكم مثل قولنا اخرج من بيتي، ماذا تريد من امرأتى. وأما مثل الحجر والحصوة فإن الأعمى يرى معناه. هكذا، من الضرورى على من يرى القذى فى عين غيره، يرى "الطوبى" فى عينه، حتى لا يقال له: "فرغت الميتة من مقطوعة الرأس"؛ وفخامتكم تعرف، أن الأبله يعرف عن بيته ما لا يعرفه الذكى عن بيت غيره.

أجاب دون كيخوتى:

- سانشو، هذا لا؛ لأن الأبله لا يعرف شيئاً عن بيته أو بيت غيره، بسبب أنه على أساس من البلاهة لا يستقر أى مبنى للنباهة. ولترك هذا عند ذلك، سانشو، إذا أخطأت فى الحكم ستحمل ذنب ذلك، وسأحمل أنا خزيه، ويعيزينى أنى فعلت ما يجب على من نصحك بالمعايير ومواضع الفطنة كما أمكننى، وبهذا أكون قد أديت واجبى وأنجزت وعدى. هداك الله، سانشو، وعاونك فى حكم حكومتك، وبالنسبة لى أخرجنى من الشك الذى بقى عندى، وهو أنك لا بد أن تقلب الولاية رأساً على عقب، الأمر الذى

أستطيع أن أتجنبه بأن أكشف للدوق من أنت، قائلاً له إن كل هذه السمنة والشخصية التي تتسم بها ليست إلا كيساً مليئاً بالأمثال والخبث.

أجاب سانشو:

- سيدى، إذا بدا لفخامتكم أننى غير صالح لهذه الحكومة، منذ هذه اللحظة أتنازل عنها، وأنا أحب ذرة من ظفر نفسى أكثر من كل جسمى، وهكذا سوف أقيم أود سانشو(حاف) بالخيز والبصل تماماً مثلما أقيم أود سانشو (الحاكم) بطيور البرديس والديوك، وأكثر من ذلك خلال النوم يتساوى الجميع، الكبار والصغار، والفقراء والأغنياء، وإذا تأملت فخامتكم الأمر، لوجدت أن فخامتكم هو الذى وضعنى فى أمر الحكم هذا، وأنا لا أعرف شيئاً عن حكم ولاية أكثر من نسر فى الهواء، وإذا تصور أحد أن تحولى لحاكم سوف يجعل الشيطان يحملى، فإنى أحب أكثر أن أصعد سانشو إلى السماء من حاكم فى النار.

قال دون كيخوتى:

- بحق الله، سانشو، فقط من أجل هذه العبارات الأخيرة التى قلتها، أنا أحكم أنك تستحق أن تصير حاكماً لألف ولاية؛ فأنت لك طبع طيب، وبدونه لا يساوى العلم شيئاً. توكل على الله، وحاول ألا تفلت منك البديهة الأولى أو تخطئ فيها، أريد القول إن عليك دائماً، أن يكون لديك هدف صارم ومحاوله فى كل الشئون التى تعرض لك، لأن السماء دائماً تناصر النوايا الطيبة، وهيا بنا لتناول الطعام، لأنى أظن أن هؤلاء السادة فى انتظارنا.

الفصل الرابع والأربعون

كيف تم حمل سانشو باتشا إلى الحكومة، والمغامرة الغريبة التي وقعت لدون كيخوتى فى القلعة

يقولون إنه فى النسخة الأصلية من هذه القصة، قرئ أن سيدى حامدى عند كتابة هذا الفصل، لم يترجمه مترجمه مثلما كتبه هذا المؤلف الأصلى، فالمترجم العربى أحس بأنه يشكو من نفسه لنفسه أن وضع بين يديه قصة جافة ومحدودة مثل قصة دون كيخوتى هذه، لما بدا له أنه دائماً لا بد من الحديث عن دون كيخوتى وعن سانشو، دون التجرؤ على التوسع باستطرادات وفصول أخرى أكثر جدية وتسليية. وكان يقول إن المضى دائماً مقيد الفهم واليد والقلم للكتابة عن موضوع واحد، والكلام على لسان أشخاص قليلة العدد، هو عمل لا يحتمل، وثمرته لن ترفع من شأن مؤلفه، ومن ثم، فللهرب من هذه العثرة استخدم فى القسم الأول حيلة إدخال بعض الروايات مثل رواية الفضولى الصفيق أو القبطان الأسير، وهما كما لو كانا منفصلين عن القصة، رغم أن غير ذلك مما يحكى هناك هى أمور وقعت لنفس دون كيخوتى لم يمكن ترك كتابتها عند الترجمة. أيضاً فكر كما يقول هو، أن كثيراً ممن لفتت القصة انتباههم ويطلبون مآثر دون كيخوتى لم يهتموا بتلك الروايات الدخيلة، ويمرون عليها سريعاً مرور الكرام أو مرور الغاضبين منها، دون الوقوف على الفخامة والصنعة التى يضمها مضمونها، وهو ما سوف يبدو على المكشوف، عندما تخرج إلى النور وحدها بقيمتها الذاتية دون اعتماد على جنونيات دون كيخوتى أو سفسفيّات سانشو، وهكذا فى هذا القسم الثانى من القصة لم يجب أن يستخدم هذه الوصفة بإدخال روايات متناثرة أو ملتصقة

بالقصة الأصلية ما عدا بعض الحلقات الروائية التي بدت له متولدة عن نفس الأحداث التي يقدمها الواقع الحقيقي، وحتى هذه تقدم محدودة، وبأسلوب المساواة في البلاغة، لفظ على قدر المعنى، وهكذا يغلق القص ويكتفى عند الحدود الضيقة، ممتكاً ملكة ومقدرة وفكرًا ثاقبًا لمعالجة شاملة، طالبًا ألا يقلل من شأن جهده، والثناء عليه ليس بما يكتب، ولكن بما ترك كتابته.

من ثم، تستمر القصة وتقول بأنه عند انتهاء دون كيخوتي من تناول الطعام يوم أن أعطى النصائح لسانشو، أعطاها له في مساء نفس اليوم مكتوبة، كي يبحث هو عن يقرأها له، لكن بمجرد أن أعطاها له، حتى سقطت منه، ووقعت في يد الدوق، الذي قرأها على الدوقة، والاثنتان عجا من جديد بسبب جنون دون كيخوتي وعبقريته؛ وهكذا مستمرين في دفع ألعاب الخدع والحيل، أرسلوا سانشو مع مرافقين عديدين إلى القرية التي ستكون ولاية له. وحدث أن من رافقه كان أحد مدبري قصور الدوق، وهو شديد الذكاء والظرف (حيث لا يمكن أن يوجد ظرف دون توفر الذكاء)، وهو من قام بدور الكونتيسة تريفالدي، مع الملاحظة التي رأيناها، وبهذا، وبالذهاب مشحونًا بالحيل من سيديه عن كيفية ما يكون مع سانشو، نجح في لعبته بإعجاز. وأقول، من ثم، حدث أن هكذا عندما رأى سانشو ذلك الخادم، رأى في وجهه صورة تريفالدي، وعائدًا إلى سيده، قال له:

– سيدى، إما على الشيطان أن يحملى من هذا المكان حيث أوجد على جناح السرعة، وإما فخامتكم عليك أن تعترف لى أن وجه رئيس الخدم هذا، هو نفس وجه المقهورة.

نظر دون كيخوتي فى تحديق إلى رئيس الخدم، وبعد أن تأمله قال لسانشو:

– لا داعى لأن يملك الشيطان، سانشو، لا على جناح السرعة أو على أى جناح (وإن كنت لا أدرى ماذا تريد القول حول أمر جناح السرعة)؛ إن

وجه المقهورة هو نفس وجه رئيس الخدم، لكن ليس معنى ذلك أن رئيس الخدم هو المقهورة، لأنه لو كان هو هي، سوف يستجلب تناقضًا كبيرًا جدًا، وليس هذا وقت عمل التحريات، لأن ذلك يعنى دخولنا في متاهات شديدة تعقد التشابك. وثق في، أيها الصديق، فمن الضروري التوسل إلى الله بكل صدق أن يجررنا نحن الاثنين من السحرة الأشرار، ومن المشعوذين الخبثاء.

أجاب سانشو:

- ليس خدعة سحرية، وإنما قبل ذلك سمعته يتكلم، ولم يكن إلا نفس صوت تريفالدى يرن في أذني. والآن لا بأس، سوف أسكت عن الأمر، لكن لسن أترك الوعي من الآن فصاعدًا بضرورة النظر في إمكانية اكتشاف علامة أخرى تؤكد شكوكي أو تنفيها.

قال دون كيخوتى:

- هذا ما ينبغي عليك فعله، وأخبرني بكل ما تكتشفه في هذه القضية، وبكل ما يحدث لك في الحكومة.

وخرج في النهاية سانشو مصحوبًا بأناس كثيرين، مرتديًا لباس أديب، وفوقه عباءة شقراء من الوبر، فضفاضة جدًا مع تموجات مائية لنسيجها، مع غطاء للرأس من نفس النسيج، على فرس ضامًا ركبتيه في زاوية حادة، وخلف الفرس الذكر بأمر الدوق مضى حماره مزينًا بزينة حمارية من الحرير والزرکشة البراقة، ملتفتًا سانشو برأسه من وقت لآخر للنظر إلى سيده، الذى كان سعيدًا بصحبته، ولا يبادل بها منصب إمبراطور ألمانيا. وعند توديعه الدوق والدوقة قبَّل أيديهما، واستقبل البركة من سيده، وهذا منحها له داعمًا، واستقبلها سانشو متجهماً التجهم الذى يسبق الدموع.

اترك، أيها القارئ اللطيف، سانشو يذهب على بركة الله، وانتظر كيلين من الضحك، سيدفعك إليه معرفة كيف تصرف في ممارسة منصبه، وخلال ذلك انتظر لمعرفة ما جرى لسيدة في نفس تلك الليلة. وإذا لم تضحك له، فعل الأقل ستنتفج منك الشفتان من الابتسام، لأن وقائع دون كيخوتي، إما تقابل بالتعجب، وإما بالضحك. يحكى، من ثم، أن بمجرد أن رحل سانشو أحس دون كيخوتي بوحدته، وإذا كان في إمكانه فسخ الاتفاق، وسحب الحكومة منه لفعل. عرفت الدوقة كآبته، وسألته: ما سبب حزنه؟ فإذا كان بسبب غياب سانشو، فهناك خدم وقهرمانات وصبايا وصفيات في بيتها سيكونون في خدمته وإشباع رغباته.

أجاب دون كيخوتي:

- سيدتي، الحقيقة، أنا أحس بافتقاد سانشو، لكن هذا ليس السبب الرئيسى الذى يجعلنى أبدو حزينًا جدًّا، ومن بين الهدايا والعروض الكثيرة التى تقدمينها لسعادتك لى، تجعلنى فقط أختار وأقبل الرغبة الطيبة التى بها يتم العرض، وفيما تبقى أتوسل لسعادتك أن أخدم نفسى بنفسى فقط داخل مخدعى.

قالت الدوقة:

- فى الحقيقة، أيها السيد دون كيخوتي، لا يجوز أن يكون الأمر كذلك؛ فينبغى أن يخدمك أربع وصفيات لى، حسناوات مثل أربع زهرات.

أجاب دون كيخوتي:

- بالنسبة لى لن يكن مثل زهرات وإنما مثل أشواك تنخز فى النفس، هكذا وجودهن فى مخدعى لن يكون أمرًا فى ظاهره له أية قيمة، وإذا كان فى نية عظمتكم المضى قدمًا فى الإنعام علىّ، دعيني أوجد مع نفسى، بخدمتى لنفسى

بنفسى خلف باب محددى، فأنا أضع سورًا بين رغبتى وبين أمانتى، ولا أريد فقدان هذه العادة بسبب كرم سموكم الذى ترغيبين فى إظهاره لى. وباختصار، أفضل النوم بملابسى على أن يخلع لى ثيابى أحد.

أجابت الدوقة:

- لا أكثر ولا أقل! بالنسبة لى سآمر ألا يدخل غرفتك ولا حتى ذبابة، فما بالك بوصيفة، فلست السيدة التى من أجل عاداتى أسمح بجرح تهذيب السيد دون كيخوتى، الذى طبقًا لما أراه يبدو مضيئًا، وأنه بين فضائله الكبرى تبرق فضيلة الأمانة. تعرّ فخامتكم والبس ما شئت وحدك، وبطريقتك ومتى أحببت، فلن يوجد من يعوقك، من ثم، ستجد فى مخدعك الأوانى اللازمة لضرورات من ينام داخل باب مغلق، حتى لا تضطرك أى ضرورة للطبيعة لفتح ذلك الباب. ولتحيا ألف دهر السيدة دولثينيا دل توبوسو، وليصبح اسمها مشهورًا فى كل بقاع الدنيا، إذ استحققت أن تكون محبوبة مثل هذا الفارس الأمين، ولتزرع السماء السمحاء فى قلب سانشو بانثا، حاكمنا، الرغبة فى إنجاز سريع للجلد، حتى يعود العالم لإمتاع عينيه بجمال مثل هذه السيدة العظيمة.

على هذا أجاب دون كيخوتى:

- سموكم تكلمت كلامًا يعلو لقدرك، فمن شفقتى السيدات الطيبات لا يخرج العيب، وكم هى محظوظة أكثر وستصير أشهر دولثينيا دل توبوسو إذ مدحها على لسانك يذكر، فى بلاغة لا فوقها بلاغة فى العالم.

أجابت الدوقة:

- الآن، أيها السيد دون كيخوتى، تقترب ساعة العشاء، وينبغى أن يكون الدوق منتظراً، هيا فخامتكم لتتعشى، وننام مبكراً، فإن الرحلة التى قمت بها أمس إلى كاندايا لم تكن قصيرة إلى حد ألا تسبب لكم ضعضة للجسم.

أجاب دون كيخوتى:

- لا أحس بأى ضعضة، لأننى قد أجسر على القسم لسعادتكم، أننى لم أصعد فى حياتى على دابة بمثل هذا الهدوء، ولا أفضل خطى من كلابيلينو (مفتاحشيف)، ولا أدرى ماذا يمكنه أن يكون قد دفع مالا مبرونو للتخلص من هذه المطية الخفيفة اللطيفة إلى أقصى حد، بحرقها هكذا، وهكذا فحسب.

أجابت الدوقة:

- يمكن تصور السبب، فلكونه ندم على الضرر الذى أوقعه بتريفالدى وصحبتها، وبأشخاص آخرين، ومن الشرور التى لا بد أن أرتكبها مشعوذاً وساحراً، أحب أن يتخلص من كل أدوات سحره، وكما كان مفتاحشيف يتركه قلقاً من أرض إلى أرض هائماً على وجهه، فإنه أحرقه، ومع رماده المحترق والهدية المتمثلة فى الرقعة المكتوبة صار أزلماً مجد دون كيخوتى دى لا مانشا.

من جديد أعطى دون كيخوتى شكراً جديداً للدوقة، وبعد العشاء انسحب دون كيخوتى إلى غرفته وحيداً، مع عدم موافقته على دخول أحد لخدمته. إلى هذا الحد كان يخشى أية فرصة تحركه أو تجبره على فقدان الولاء الأمين الذى كان يكنه لسيدته دولثينيا، شاغلاً خياله دائماً وفاء أماديس زهرة الفرسان المشائين ومرآتهم. أغلق خلفه الباب، وتعرى على ضوء شمعتين، وخلق حذاءه (أى نكبة لا تستحقها

تلك الشخصية!)، وانفلتت منه لا أقول تتهيدة أو أى شيء آخر يلغى مصداقية بوليس مراقبته لنفسه، وإنما دستتان من غرز فردة من فردتى جوربه، حتى صارت مشربية. تهاوت قوة السيد الطيب كثيرًا، وكان على استعداد لدفع أوقية فضة نظير النزر اليسير من أخضر الحرير؛ وأقول أخضر الحرير لأن الجورب كان أخضر.

هنا صاح سيدي حامدى بن إنجيلين، وخلال كتابته قال: "أوه، أيها الفقير، أيها الفقير! لا أدري أنا أى سبب حرك الشاعر القرطبي العظيم لمناداتك:

أيها الهبة المقدسة الجحودة!

أنا، مع أى مسلم، أعرف جيدًا، بالاتصال الذى جرى بينى وبين مسيحين، أن القداسة تتركز في البر والتواضع والطاعة والإيمان والفقير. لكن، مع كل هذا، أقول ينبغي أن يكون لديه الكثير من الله، الذى يأتي مكفياً بأن يكون فقيراً، إذا لم يكن من ذلك النوع من الفقر الذى عنه يتحدث واحد من قديسيهم الكبار: "املكوا كل الأشياء كما لو كنتم لا تملكونها". وهذا يسميه فقر الروح؛ لكن أنت الفقر الآخر (فأنت الذى عنه أتكلم)، لماذا تريد إدخال نفسك بين الأعيان، وأولاد العز أكثر من إدخال نفسك بين الناس الآخرين؟ لماذا ترغمهم على ترقية أحذيتهم؟ فبأى شيء يرقعون أزرار معافطهم، وبعضها من الحرير والبعض الآخر من الشحم، والقسم الثالث من زجاج^(*)؟ لماذا ياقات قمصانهم، في معظمها، مكرمشة لا بد دائماً،

(*) نفس صوفى، فدون كيخوتى باعتباره واحداً من الأعيان (وكانه معيار لهم مثل ثريانتس نفسه) يرقع حذاءه، وكان الفقر يرغم الأعيان غير الأثرياء على فعل لا يتفق ومكانتهم، أو يدفعهم للون من الزهد لا معنى له، أو يجعل حالهم مثل حال عزيز قوم ذل.

وليست مشدودة القلب؟" وفي هذا يلاحظ أن استعمال النشا للياقات وشدها مفتوحة عادة قديمة. وواصل: "ما أكثر بؤس ابن العز، الذى يمضى متفاخرًا بشرفة، آكلًا الكفاف وراء بابهِ المغلق، وخارجًا إلى الشارع متحولاً إلى منافق بأعواد تسليك الأسنان بعد أن لم يأكل شيئاً يرغمه على تنظيف أسنانه! بئس ذلك، أقول، الذى أجفل شرفه، والذى يظن أنهم سوف يرون من فرسخ رقع حذائه! وتقع معطفه بالعرق وتنسله، وجوع معدته!"

كل هذا (التصور) تكرر فى ذهن دون كيخوتى مع انفلات غرزه، لكن تعزى بروية أن سانشو كان قد ترك له بعض نعال الطريق التى فكر فى لبسها فى غده. وأخيراً، رقد مفكرًا ومثقلًا، بسبب الفراغ الذى تركه سانشو، وبسبب النكبة التى لا إصلاح لها فى جوربه، الذى ود لو يرقعه ولو بلبون آخر من خيوط الحرير، رغم أن ذلك واحد من إشارات البؤس التى يمكن أن تصيب أحد الأعيان فى ضيقه المتسع الخرق. أطفأ الشمعتين، وكان الجو حارًا، ولم يستطع النوم، نهض من السرير، وفتح النافذة قليلاً، فرأى وراء قضبانها حديقة غناء. وأرهف السمع، ورفع الصوت من كانوا أسفل النافذة، رفعوه جدًا حتى إنه استطاع أن يسمع هذه العبارات:

- لا تعاندينى! إمرثنيا! فلاغنى، فانت تعرفين أنه منذ اللحظة التى دخل فيها هذا الغريب القلعة، ونظرت إليه عيونى، وأنا لا أعرف الغناء، وإنما البكاء، وبصفة خاصة أن نوم سيدتى يميل إلى الخفة أكثر منه إلى الثقل، ولا تحب أن نظهر هنا ولو مقابل كل كنوز الدنيا، أما هو إذا كان نائمًا غير مستيقظ، سيصبح غنائى فى الفراغ، ولن أستطيع إسماعه هذا "إينياس" الجديد، الذى وصل إلى أقاليمى، كى يتركنى سخرية للجميع.

أجابوا:

- لا هتَمي بهذا، أيتها الصديقة ألتسيدورا، فلا شك أن الدوقة، وكل من في البيت نائمون، ماعدا سيد قلبك، ومنبه روحك! لقد أحسست أنه يفتح النافذة ذات القضبان لغرفته، ودون شك لا بد أن يكون مستيقظاً، غنى، صديقتي الجريحة، في نعمة منخفضة وناعمة، وعلى إيقاع الأرب آلتك الموسيقية، وعندما تحس الدوقة بنا سوف نلقى باللوم على حرارة الجو.

أجابت ألتسيدورا:

- ليست هذه هي المسألة، إميرنيا! إنما لا أحب أن يفضح غنائي قلبي، ويحكم على من ليس لديه خبر عن القوى الجبارة للحب بأني فتاة هوائية وخفيفة، لكن ليقع ما يكون؛ فعار في الوجه، خير من وصمة في القلب.

وهنا سمع عزف آلة الأرب في نعومة فائقة، عند سماعها بقي دون كيخوتي مشدوها، لأنه في هذه اللحظة مر على ذاكرته مغامرات لا نهائية من مثل هذه، نافذة وقضبان وموسيقى، وانكسار وإغماء، مما قرأه في كتبه المتلاشية للفروسية. وحالاً، تخيل أن إحدى وصيفات الدوقة كانت مغرمة به، وأن الشرف كان يجبرها على جعل هواها سريراً، وخاف أن يستسلم لغرامها، واقترح على نفسه ألا يترك نفسه ينهزم، ومسلماً نفسه بروحه العالية، وطبعه الطيب، إلى سيدته دولثينيا دل توبوسو، قرر أن يسمع الموسيقى، وحتى يعطى فكرة أنه كان هناك في النافذة، أعطى عطسة متصنعة، وبها ابتهجت الصبايا، اللاتي لم يكن يرغبن في شيء أكثر من أن يسمعن دون كيخوتي. مدوزنة ومعدلة الأرب ألتسيدورا شرعت في غناء هذا الرومانث:

أوه، أنت يا من ترقد في سريرك،
بين ملاءات ناعمات لهولندا
نائماً مسترخى الأرجل الممدودة
من أول الليل حتى مجيء الصباح،

*

الفارس الأشجع
الذي ولدته لا مانشا،
أكثر أمانة وأكثر بركة
من الذهب الخالص لبلاد العرب

*

انصت لحزن صبية،
حسنة التربية، سيئة الحظ،
تحترق في ضوء شمسيك
منها الروح، فتحس بنارهما

*

أنت تبحث عن مغامراتك،
وتعثر على نكبات غيرك؛

فتمنح الجروح

وتنكر علاجها

*

قل لي أيها الشاب الشجاع

راش الله أشواقك،

هل نشأت في ليبيا

أو في جبال خاكا؛

*

إذا كانت الحيات أرضعتك

وإذا كانت أسلحتك أسعدتك

وخشونة الغابات

ورعب وحشة الجبال،

*

فمن الممكن جدا لدولثينيا

صيبة مدملجة وصحتها جيدة

الاعتزاز بنفسها أن روضتها

نمرة ووحشًا ضارياً،

*

ولهذا سوف تصير مشهورة
من إنارس حتى خراما
ومن التاخو حتى مانتناريس
ومن إسرجا حتى أرلانتا،
*

بادل بها وضعنى منك مكافها
وسوف تأخذ فوق البدل علاوة
قميص زيادة من أحلى قمصانى
مطرزة حواشيه بالذهب
*

أوه، من يحظى بأن يوجد بين ذراعيك
وإن لم يمكن، فبجوار سريرك
يهersh شعرك
ويقتل نمنم القشرة!
*

أطلب الكثير وأنا به غير جديرة
بمثل هذه النعمة الغزيرة
أتمنى أن أغسل قدميك

وهكذا لمن في تواضعى يكفيها

*

أوه، من يهديك الكوفيات

والخفاف الفصيات

والسراويل الدمشقيات

والمعاطف الهولنديات!

*

والأحجار الكريمة

كل حجر مثل إحدى اللوزتين

ولعدم وجود صحبة

الوحيديات ناداهن إلى هنا الشوق!

*

ولا تنظر من علياء شرفتك في تاريا

إلى هذا الحريق الذى يحولنى إلى جمرة

يانبيرون دى لا مانشا العالمى

فلا توججه بحنقك

*

لست بعرجاء أو برجل أقصر من الأخرى

وليس لدى يد مقطوعة أو رجل
والشعر مثل الزنابق
التي عند النهوض تندفق فوق الأرض

*

ومع أن فمي ملوى الشفاه
وأنفي شيئاً ما فطساء
وأسناني من ياقوت أصفر
فإن جمالي يعطى ملاححة السماء

*

وصوتي، ها أنت تراه إن كنت تسمعي
يتساوى مع أحلى الأصوات،
مع أن استعدادي للغناء
كان أقل من المتوسط

*

انظر إلى هذه وأخريات من طرائفي
وإنها لغنيمة حلال عليك
وأنا وصيفة في هذا البيت
ويطلقون على ألتسيدورا

هنا انتهى غناء بليغة الجراح ألتسيدورا، وبدأت دهشة فارس الذكريات دون كيوخوتى، الذى مطلقاً تنهيدة عظيمة، قال لنفسه: "لا بد أننى فارس مشاء منكوب، فما أن توجد صبية ويتصادف أن تنظر إليّ إلا وتقع فى غرامى. كم هى، قليلة الحظ عديمة النظر دولثينيا دل توبوسو، فهم لا يتركونها تتمتع وحدها بثباتى الصارم على حبها، ماذا تردن منها أيتها الملكات؟ لأى غرض تطاردنها، أيتها الإمبراطورات؟ لماذا تضايقنها أيتها الصبايا بين الرابعة عشرة والخامسة عشرة؟ أتركن، اتركن البانسة حتى أسلم لها قلبى وأسلم لها روحى. انظرن، أيتها الزمرة العاشقة، أنا فقط من أجل دولثينيا، معجون ومخبوز لها، ومن أجل باقى النساء فأنا حجر صوان لهن، من أجلها أنا العسل الشهد، ومن أجلكن الصبر المر، وبالنسبة لى دولثينيا فقط هى الحسناء وأصل الذكاء، والشريفة الأنيقة، وابنة العز، بينما باقى النساء دميمات، نافهات، خفيفات العقل، وأسوأ نسل وسلسال، وحتى أكون لك، دولثينيا، أنا قذفت بى الطبيعة للعالم. أبكى أو أغنى أمثال (ألتسيدورا)، ولتياسى (ماداما)، التى من أجلها هرسونى بهراوة غليظة فى قلعة العربى المسحور، وأنا فقط على أن أكون لدولثينيا، مطبوخاً أو مشويّاً، نظيفاً، وحسن التربية، على الرغم من كل الساحرات المتسلطات فى العالم".

وعند هذا، أغلق فجأة النافذة، وغاضباً ومثقلاً، كما لومسه أعظم ضرر، رقد فى السرير، حيث سوف نتركه الآن، لأن سانشو بانثا العظيم ينادينا، حيث يجب أن يبدأ حكومته المشهورة.

الفصل الخامس والأربعون

كيف تبوأ السلطة سانشو بانثا الأكبر، والطريقة التي بدأ بها الحكم

أوه، أيها المكتشف الدائم للمتقابلات، وسراج العالم، وعين السماء، وتلج الصدور المداعب. (تيمبريو) هنا، و(فيبو) هناك، ورام هنا، وطبيب هناك، يا أبا الشعر، ومخترع الموسيقى، أنت دائماً تشرق، مع أن الظاهر أنك لا تغرب مطلقاً! إليك أقول يا قرص الشمس، بعونك الإنسان يولد الإنسان! إليك أقول لتتصرنى وتضىء ظلام ألمعيتى حتى أستطيع أن أدور بكل سنائها فى حكايتى لحكومة سانشو بانثا الأكبر، فبدونك أحس نفسى فاتراً ومتراحياً ومضطرباً.

أقول، إذن، مع كل موكبه وصل سانشو إلى قرية يصل أهلها إلى ألف ساكن، وكانت من أفضل ممتلكات الدوق. وأفهموه أنها تسمى ولاية باراتاريا، إما لأن القرية كان اسمها باراتاريو، أو إشارة لمعنى الكلمة وهو "الرخص" للكشف عن نيل سانشو هذه الحكومة رخيصة دون جهد. عند وصوله إلى أبواب القرية التى كانت مسورة، خرج نواب البلدية لاستقباله، ودقت الأجراس، وأبدى كل السكان مظاهر البهجة، وفى أبهة عظيمة حملوه إلى الكنيسة الكبرى لإعطاء الشكر لله، وبعد ذلك سلموه مفاتيح القرية فى احتفال شعائرى يثير الضحك، وأعلنوه حاكماً أبدياً لولاية باراتاريا. حلته ولحيته وسمنته وضالته أثارت عجب القرية من الحاكم الجديد، دون استثناء من يعرفون عقدة قصة هذا الحاكم وكانوا كثرة. وأخيراً، عندما أخرجوه من الكنيسة حملوه إلى مقعد الحاكم، وأجلسوه عليه، وقال له رئيس خدم الدوق:

- هنا في هذه الولاية عادة قديمة، أيها السيد الحاكم، وهي أن كل من يأتي ليتبوا
حكم هذه الولاية المشهورة مضطر أن يجيب على سؤال معقد وصعب، ومن
إجابته تلمس القرية وتعرف عبقرية حاكمها الجديد، وهكذا إما تبتهج أو تحزن.

وخلال قول رئيس الخدم ذلك لسانشو، كان هو يتأمل بعض الكلمات الكثيرة
كبيرة الخط المكتوبة على الجدار المجاور للمقعد. وكما كان لا يعرف القراءة، سأل
عن تلك الرسومات التي كانت فوق ذلك الحائط، وأجيب على سؤاله:

- سيدى، هناك مكتوب ومدون اليوم الذى تبوا سعادتكم فيه الحكم لهذه
الولاية، ويقول النص: "اليوم الموافق كذا من شهر كذا، من عام كذا تم
تنصيب السيد دون سانشو بانثا حاكماً لهذه الولاية، متعه الله بما أعواماً
طويلة".

وسأل سانشو:

- وعلى من يطلقون دون^(*) سانشو بانثا؟

أجاب كبير الخدم:

- على سعادتكم؛ لأنه لم يدخل هذه الولاية أى بانثا آخر، إلا ذلك الذى يتبوا
هذا المقعد الآن.

قال سانشو:

- إذن اعلم، أيها الأخ، أنى لا أحمل لقب (دون)، ولم يحمله أحد بين كل
أسلافي: سانشو بانثا فقط و(حاف)، وسماني أبى سانشو بانثا، وسانشو جدى،

(*) دون لقب رفيع لا يطلق إلا على النبلاء وسانشو لم يسمع اسمه قط مسبقاً بهذا اللقب ولا يحلم به.

وكلهم كانوا(بانثا) دون إضافة دون أو دونيا، وفي هذه الولاية أتصور وجود دونات أكثر من الحصى. لكن كفى، والله يدري به، وقد يمكن إذا دامت لى الحكومة أربعة أيام أن أعرف هؤلاء الدونات، الذين لكثرتهم لا بد أن يضايقوا مثل الذباب، والآن تفضل بطرح سؤالك، أيها السيد رئيس الخدم، وسوف أجيب بأفضل ما أستطيع سواء حزن أهل القرية أو لم يحزنوا.

وفى هذه اللحظة دخل دار الحكومة رجالن، الأول يرتدى ملابس مزارع، والثانى ملابس خياط، لأنه كان يحمل فى يده مقصًا، قال الخياط:

- أيها السيد الحاكم، أنا وهذا المزارع الطيب فى حضرة فخامتكم، بسبب أن هذا الرجل الطيب دخل دكانى بالأمس (حيث أنا، مع عفو الحضور، خياط مرخص، بفضل الله)، ووضع فى يدى قطعة من القماش، وسألنى: "أيها السيد، هل تحمل القطعة من القماش عمل طاقية منها". قمت بقياس القماش، وأجبتة بنعم. وكان لا بد أن تخيل ما أتخيله أنا، وقد تخيلت الشيء الصحيح، وهو أنى كنت أود اقتطاع بعض القماش الزائد لنفسى، مؤسسًا ذلك على سوء نيته، وعلى الرأى السيئ للناس فى الخياطين، من ثم رد علىّ سائلًا إن كانت تكفى لعمل طاقتين فقلت نعم، مخمّنًا ما يفكر فيه، وهو فى استمرار لنيته الأولى السيئة، مضى يضيف طواقي، وأنا أضيف نعم بعد نعم، حتى وصلنا لخمس طواقي، والآن فى هذه اللحظة لم يكده يحضر لأخذها، حتى قدمتها له، فلم يقبل دفع ثمن الخياطة، وقال لى أعد إلیّ ما تبقى من القماش قبل أن تطلب أن أدفع لك.

سأل سانشو :

- هل كل شيء كذلك أيها الأخ؟

أجاب المزارع:

- نعم، يا سيدى، لكن اجعله يظهر الطواقى الخمس التى صنعها لى.

أجاب الخياط:

- بكل سرور.

وسحب يده فى رشاقة من تحت المعطف، كاشفاً عن خمس طواق موضوعة فى أصابع اليد الخمسة، وقال :

- هاهى الطواقى الخمس، التى يطلبها منى هذا الرجل الطيب، وبحق الله وضميرى إنه لم يبق شىء من قماشه، وأنا سوف أعرض الأمر على خبراء فى المهنة.

كل الحضور ضحكوا من مظاهره الطواقى، ومن هذه القضية الجديدة، شرع سانشو فى التأمل قليلاً، وقال:

- يبدو لى فى هذه المشاجرة أن الأمر لا يحتمل تأجيلاً كبيراً، وإنما الحكم فى الحال طبقاً لصواب الرجل الحازم، وهكذا، أنا أحكم ألا يقبض الترسى ثمن صناعته، وأن يخسر المزارع قماشه، وأن تحمل الطواقى لنزلاء السجن، ولا شىء أكثر.

وإذا كان الحكم السابق^(*) الخاص بكيس الراعى أثار الإعجاب والدهشة للحضور، فإن هذا الحكم استثار الضحك، لكن، فى النهاية، تم تنفيذ ما أمر به الحاكم. وبعد ذلك مثل أمامه رجلان عجوزان، أحدهما كان يحمل فرع غاب كلخ متخذاً منه عكازاً، والآخر دون عكاز، وقد قال هذا :

(*) كان يسهو ثربانتس بين الحين والحين، فالحكم السابق فى الحقيقة هو الحكم اللاحق الذى ستذكره القصة بعد قليل وربما نتيجة أخطاء المطبعة فى الطبعة الأولى.

- سيدى، لقد أقرضت هذا الرجل الطيب عشرة دنانير ذهباً في عملات ذهبية، حتى أسعده وأبره، على شرط أن يعيدها لى حينما أطلبها، ومرت أيام طويلة دون أن أطلبها حتى لا أضعه فى موقف حاجة ماسة لو أعادها لى، مثل تلك الحاجة التى مر بها من قبل عندما أقرضتها له، ولكن لما ظهر لى أنه يتراخى فى أمر سدادها، طلبتها منه مرة ومرات، لكنه أنكر الدنانير، ويقول بأنى لم أقرضه قط هذه الدنانير العشرة، وإذا كنت قد أقرضتها له، فهو بدوره قد سددها، وأنا ليس لى شهود على القرض ولا على السداد، لأنه لم يسدها لى، وأحب من فخامتكم أن تأخذ منه القسم، فإذا أقسم أنه بالفعل قد أعاد الدنانير لى، فإنى أسامحه أمامك وأمام الله.

قال سانشو تعليقاً على ذلك :

- ماذا تقول أنت، يا صاحب العكاز، بالخصوص؟

- أنا أترف يا سيدى أنه أقرضها لى، وأنزل فخامتكم هذا الصولجان^(*)؛ حيث أنه يتنازل عن القرض إذا حلفت، وأنا سأحلف أنى أعدتها له ودفعتها يداً بيد وحقية وواقعاً.

أنزل الحاكم الصولجان، وخلال ذلك، أعطى العجوز صاحب العكاز عكازه للعجوز الآخر أثناء القسم، وكما لو كان اضطراره لترك العكاز يتقل على نفسه جداً، وفى الحال وضع يده على صليب الصولجان، قائلاً إنه كان حقيقياً أنه أقرضه عشرة الدنانير، وأنه طلب منه سدادها، وأنه سددها له من يد ليد، وبعد ذلك سوف يطلبها من جديد، بل بعد لحظات حتى لا يحدث فى قسمه، وعندما رأى الحاكم

(*) الصولجان معلق به صليب، فطلب إنزاله للقسم عليه.

العظيم ذلك سأل المقرض بماذا يجيب على ما قاله خصمه، فقال إن مدينه لا بد أنه يقول الحق، لأنه يراه رجلاً صادقاً ومسيحياً تقياً، وأنه لا بد أن قد نسي كيف أعادها له ومتى، والآن من الآن فصاعداً لن يطالبه بشيء. عاد المدين إلى استعادة عكازه، وخافضاً رأسه خرج من المحكمة، وعندما رأى سانشو ذلك، وأنه انصرف دون أن يلوى على شيء، كما رأى صبر الدائن المدعى، أسند رأسه على صدره وهلة، واضعاً سبابه يده اليمنى فوق حواجبه وأنفه، وبقي كما لو كان متفكراً بعض الوقت، وفي الحال رفع رأسه، وأمر بإعادة الرجل صاحب العكاز، والذي كان قد خرج واختفى عن الأنظار. أعادوه، وما أن رآه سانشو، بعد أن أعادوه، حتى قال:

– أعطني أيها الرجل هذا العكاز، فإن لي به حاجة.

أجاب العجوز :

– على الرحب والسعة، ها هو تفضل خذه.

وضعه في يده، وأخذه سانشو وأعطاه للرجل الآخر قائلاً له :

– مع السلامة، فها أنت تذهب وقد تم سدادك.

أجاب العجوز:

– أنا، يا سيدي؟ هل يساوي هذا العكاز عشرة دنانير من الذهب؟

أجاب الحاكم :

– نعم، وإذا لم يكن يساوي، فأنا أكبر أغني إنسان في العالم، والآن سوف

تشهدون إذا ما كنت أملك الدهاء لحكم مملكة بأكملها.

وأمر أن تكسر غابة العكاز وتفتح أمام الجميع. ونفذوا الأمر، وفي قلبها وجدوا عشرة دنانير من الذهب؛ وأصاب الجميع الذهول، ونظروا إلى حاكمهم على أنه النبي سليمان الجديد. سألوه كيف استنتج أن الدنانير كانت داخل الغاب، قال إنه

لاحظ أن العجوز صاحب العكاز، بعد أن أعطى العكاز لخصمه، أقسم أنه أعادها إليه يدًا بيد، وحقيقة وواقعة، وبانتهاء القسم عاد لطلب العكاز، وهنا ورد على خاطره أن المبلغ كان داخل العكاز، ومن هنا، يمكن استنتاج أن من يحكمون حتى لو كانوا بلهاء، فإن الله يأخذ بيدهم في أحكامهم، وأكثر من ذلك فإنه سبق له أن سمع قضية شبيهة بهذه من قسيس قريته، وهو يحظى بذاكرة عظيمة، فهو لا ينسى كل ما يجب أن يتذكره، حتى إنه لا توجد ذاكرة مثل ذاكرته في كل الولاية. وأخيرًا، العجوز المرتعد الجبان، والآخر الذي تم سداه انصرافًا، والحضور في دهشة وعجب، والكاتب الذي كان يسجل حركات سانشو وكلماته، لم يكذب يقرر هل ينظر إليه على أنه أبله أو ينظر إليه بوصفه عبقرياً.

بعد ذلك، بانتهاء هذه القضية، دخلت دار الحكومة امرأة ممسكة بقوة رجلاً يرتدى ثياب راع غنى، وكانت تطلق صرخات هائلة، قائلة:

- العدالة، أيها السيد الحاكم! العدالة، والتي إن لم أجدتها في الأرض سأذهب بحثًا عنها في السماء! أيها الحاكم العزيز، هذا الرجل الشرير افترسني في قلب الغيطان، واستغل جسمي، كما لو كنت خرقة سيئة الغسيل. ما أتعسني، ففوق ذلك، قضيت، أيها الحاكم، عمري منذ ثلاثة وعشرين عامًا مدافعة عن جسمي ضد المسلمين والمسيحيين، وضد أهالي بلدي والأغراب، وكنت دائمًا في صلابة خشب الفلين، محافظة على نفسي محتفظة بما كاملة مثل السمندل الأسطوري في النار، أو مثل الصوف بين الأشواك، إلى أن جاء هذا الرجل الطيب ليعبث به ويتلفه بيدين نظيفتين.

قال سانشو :

- لا بد من الانتظار لتحرى مدى نظافة يدي هذا المغازل.

وملتفتاً إلى الرجل قال له ماذا يقول ويجب على دعوى تلك المرأة؟ وهذا أجب وهو شديد الاضطراب:

- إنى، أيها السادة، راع فقير لقطع من خنازير، وهذا الصباح خرجت لبيع، ولا تؤاخذوني، أربعة خنازير، فبعتها بعد الضرائب والمساومة أقل بقليل من ثمنها، وأثناء عودتى لقريتي صادفت فى الطريق هذه القهرمانسة الطيبة، والشيطان الذى يدير كل خيوط الشر ويطنج كل شىء، دفعنا لأن يضاجع أحدها الآخر، ودفعت لها نظير ذلك ما يكفى، ومع هذا لم يكن كافياً فى نظرها، فأمسكت بي، ولم تتركنى حتى أحضرتنى إلى هنا لهذا الموقف العصيب. وتقول إنى اغتصبتها، وتكذب، وبحق القسم الذى أقسمت أو أنوى أن أقسم، أن هذا هو كل الحق دون نقصان أى فلس.

هنا سأل الحاكم عما إذا كان معه نقود فضية، فقال إن معه ما يبلغ فى جيبه عشرين درهماً داخل كيس جلدى. أمره بإخراج الكيس، وأن يسلمه كما هو للمدعية، ففعل ذلك مرتعداً؛ وتناولته المرأة مقدمة ألف تحية لإجلال للجميع، داعية الله أن يطيل عمر الحاكم ويمنحه الصحة، فهو يحمى النساء اليتامى المقهورات والصبايا، وبهذا خرجت من دار الحكومة، حاملة الكيس بين قبضتى يديها، على أنها قبل ذلك تأملت ما بداخله لمعرفة عما إذا كانت الدراهم من فضة حقيقية، وما إن خرجت حتى قال سانشو للراعى الذى كانت تنهمر دموعه، وتطير عيناه وقلبه وراء الكيس:

- أيها الرجل الطيب، أسرع وراءها، وانتزع منها الكيس، مهما قاومت، وعد إلى هنا معها.

ولم يصل هذا الأمر إلى أبله أو أصم، فقد طار خلفها مثل شعاع، كى ينفذ ما أمر به. كل الحضور كانوا مذهولين فى انتظار نهاية هذه القضية، وبعد هنيهة عاد الرجل والمرأة، ممسكاً أحدهما بالآخر وقابضاً عليه أكثر من المرة الأولى، هى كان قميصها مشلوخاً، وموضوعا الكيس فى حجره، والرجل يصارع لانتزاعه، لكن لم يكن ممكناً، بسبب مقاومة المرأة، التى كانت تصرخ فى ضراوة، قائلة :

- العدالة العدالة من الله ومن الناس! انظر فخامتكم أيها الحاكم، قلّة حياء وخشية هذا الرجل عديم الرحمة، والذى فى وسط العمار، وفى قلب الشارع أراد نزع الكيس الذى أمرته، فخامتكم، أن يعطيه لى.

سأل الحاكم :

- وهل انتزعه منك؟

أجابت المرأة :

- كيف ينتزعه؟ قبل أن ينتزعوا منى الكيس عليهم بانتزاع حياتى. ينتزعه؟ يا حلاوة! فقطط أخرى عليها أن تحربشنى إلا هذا التعيس المقزز! الكماشات والشواكيش، الأزاميل والمطارق لن تكون كافية أن تنتزعه من أظافرى، ولا حتى محالبه لو كانت له محالب أسد، فقبل ذلك عليه تمزيق روحى إرباً إرباً داخل لحمى.

قال الرجل:

- هى معها حق، وأعترف أن محالبى غير كافية لانتزاعه منها وأخذه، ولهذا أستسلم فاقداً قواى.

وهنا قال الحاكم للمرأة:

- أبرزى هذا الكيس، أيتها المرأة الشريفة والشجاعة.

في الحال سلمت المرأة الكيس للحاكم، فأعادته للرجل، وقال للمرأة المستتارة وغير المستسلمة :

- يا أختاه، إذا أظهرت حتى ولو نصف ما أظهرت من قوة وشجاعة دفاعًا عن الكيس في الدفاع عن جسمك، فإن جبروت هرقل ما كان يقدر عليه. اذهبي بالسلامة، ولا تتوقفي حتى تغادري هذه الولاية وإلا أعاقبك بمائتي جلدة. انصرفي حالاً، أيتها اللعينة والوقحة والاحتمالة!

فزعت المرأة، وانصرفت خفيضة الرأس، متخاذلة، وقال الحاكم للرجل :

- أيتها الرجل الطيب، مع السلامة إلى قريتك مع نقودك، ومن الآن فصاعدًا، إذا لم ترغب في فقدها، حاول أن تقاوم إرادتك في مضاجعة أى أحد.

شكره الرجل بأسوأ ما درى، ومضى، والحضور بقوا فى عجبهم مرة أخرى من الأحكام الصادرة عن الحاكم الجديد. وكل ذلك سجله الكاتب، وأرسله فى الحال للدوق، الذى كان ينتظره بفارغ الصبر.

ولنترك سانشو الطيب هنا، لأن سيده يستعجلنا جدًّا، مضطربًا بموسيقى

التسيدورا.

الفصل السادس والأربعون

عن الخوف المرعب الأجراسى والقططى الذى استقبله دون كيخوتى خلال مجرى غراميات ألتسيدورا العاشقة

تركنا دون كيخوتى العظيم ملفوفاً فى الفكر الذى سببته موسيقى الصبية العاشقة ألتسيدورا، رقد بفكره كما لو كان براغيث، لم تتركه نيام أو يهدأ لحظة، وقد اجتمع هذا الفكر بفكر مأساة جواربه، وكما أن الوقت سريع، ولا يوجد سياج لوقفه، رمح فارس فوق جواده على ساحة الساعات، وبسرعة أدركه الصباح. وعندما رأى دون كيخوتى وصوله، هجر راحة الفراش وريش النعام، وارتدى معطفه الجلدى، وحذاء الطريق، حتى يغطى نكبة الجوارب، وطرح عليه دثاره القرمزى، وعلى الرأس لبس قبعته القطنية الخضراء، المطرزة بالفضة، وعلق وشاح سيفه البتار ملتفاً بكتفيه، وأمسك بمسبحة كبيرة، كان يحملها دائماً معه، وفى فخفة وديباجة خرج إلى مدخل الصالة، حيث كان الدوق والدوقة فى ملابس الخروج، كما لو كانا فى انتظاره، وعند مروره بإحدى القاعات كانت ألتسيدورا وصديقتها فى انتظاره ورصده، وهكذا عندما رأته ألتسيدورا دون كيخوتى تصنعت الإغماء، وأمسكت الصبية صديقتها بها، وأسرعت لفتح عرى صدرها. دون كيخوتى الذى رآها، اقترب منها، وقال:

– إننى أعرف ما وراء هذه الحوادث!

أجابت الصديقة:

– أنا لا أعرف سببها، لأن ألتسيدورا هى الوصيفة الأكثر صحة فى كل هذا البيت، ولم يحدث قط أن سمعت منها كلمة (الآى) منذ عرفتها، ولعنة الله

على كل الفرسان المشائين في العالم، إذا كانوا جميعًا جاحدين للجميل،
أذهب، فخامتكم، يا سيد دون كيخوتي، فلن تفيق مادمت أنت هنا.

وعلى هذا أجاب دون كيخوتي :

- اعملى، فخامتكم يا سيدتى، على أن يضعوا عودًا هذه الليلة في غرفتى،
وسأسرى ما أمكن عن هذه الصبية المجروحة، ففي مبادئ الغرام، الإحباطات
السريعة عادة ما تمثل العلاج الناجح.

وبهذا انصرف، حتى لا يلحظ وجوده من كانوا هناك، ولم يكذب يتعد كثيرًا
عن المكان، حتى أفاقته المغشى عليها ألتسيدورا، وقالت لرفيقتها :

- من الضروري أن تضعى له العود، فمما لاشك فيه أن دون كيخوتي يريد أن
يعرف لنا بعض الموسيقى، ولن تكون سيئة إذا كانت من عزفه.

ذهبا فى الحال إلى الدوقة لإخبارها بما جرى، وعن العود الذى طلبه دون
كيخوتى، والدوقة مبتهجة كثيرًا، انفقت مع الدوق ومع الفتاتين على صنع خدعة له
تكون مضحكة أكثر منها ضارة له، وبرضا شديد انتظروا قدوم الليل، والذى جاء
مسرعا كما أسرع من قبل النهار فى القدوم، ذلك النهار الذى قضاه الدوق والدوقة
مع دون كيخوتى فى أحاديث لذیذة. وفى ذلك اليوم، أرسلت الدوقة فعلاً أحد خدمها
(الذى مثل دور دولثينيا فى الغابة) إلى تيريزا بانثا، مع خطاب زوجها سانشو بانثا،
ومع ربطة الثوب الذى طلب إرساله إليها، موكلة الخادم أن يعود بتقرير مفصل
عما يحدث مع تيريزا. بعد تمام ذلك، ووصول الساعة الحادية عشرة من الليل،
وجد دون كيخوتى الآلة الموسيقية فى مخدعه، وبعد دوزنتها بأفضل ما استطاع،
تتحنح ونظف فمه، وغنى الرومانث الآتى، والذى ألفه بنفسه:

جيوش الحب معتادة
على سحب الأرواح من بين الشفاه
مستخدمة كسلاح وآلة
البطالة في استرخاء

*

التطريز وشغل البيت
والانشغال بالعمل الدائم
هو إكسير السم
الذي تفرزه أشواق الغرام

*

الفتيات في حذرهن
يتطلعن إلى الزواج
والشرف هو الدوطة
وصوت يتغزل بهن

*

الفرسان المشاءون
الذين في البلاط يمحون

يتغزلون بالحرائر
يتزوجون بالعفيفات

*

وهناك غراميات تشرق
يعالجنها مع الضيوف
فيصل عاجلاً الغروب
لأنه برحيلهم تكون النهاية

*

الحب حديث الولادة
الذي وصل اليوم ويرحل غدًا
لا يترك من الصور
شيئاً في النفس انطبع

*

رسم على رسم
لا يبدو ولا يدل،
وحيث يوجد الجمال الأول
الجمال الثاني لا يربح

*

والجمال الأول دولثينيا دل توبوسو

على لوحة النفس منقوشة

صورة خالدة

يستحيل محوها

*

وثبات الخبين

القيمة الأكثر قيمة

بها الحب يصنع معجزاته

ويزدهر وينهض

*

إلى هذا انتهى دون كيخوتي من غنائه، الذي كانت تنصت إليه الدوقة والدوق وألتسيدورا، وتقريبًا كل سكان القلعة، وبشكل مفاجئ من قمة ممر يتعامد مع نافذة دون كيخوتي دُلُّوا حبلًا مربوطًا به أكثر من مائة جرس صغير، وبعد ذلك أراقوا كيسًا ضخماً مليئًا بالقطط المربوط بذيولها أجراس صغيرة أيضًا. كان الضجيج الصادر عن الأجراس هائلًا، وضجة القطط أكثر هولًا، ومع أن الدوق والدوقة كانا من اخترع اللعبة فإن الضجة أصابتهما بالفزع، أما دون كيخوتي المفزوع فقد بقي مشدوها، وشاء الحظ أن يدخل قطان أو ثلاثة إلى غرفته من بين قضبان النافذة، وقد انطلقوا في رعب يتحركون في المخدع من ناحية إلى أخرى كما لو كانوا كتيبة من الشياطين. أطفأوا شموع المخدع المتضرمة، واستمروا في

هرجهم ومرجهم بحثاً عن مخرج، وخلال ذلك تدلية حبل الأجرس ورفعته لم يتوقف، معظم سكان القلعة الذين لم يعرفوا بالخدعة كان مفزوعاً ومتعجباً. نهض دون كيخوتى على قدميه، وواضعاً يده على مقبض السيف، بدأ فى توجيه الطعنات عبر القضبان، قائلاً بصوت مرتفع:

- والآن أيها السحرة الملاعين، إلى الخارج أيها الدجالون الأوغاد، فأنا دون كيخوتى دى لا مانشا فى مواجهة نواياكم السيئة التى لا تساوى ولا تمتلك قوة.

والتفت إلى القلط التى تدور حول نفسها فى المخدع بطعناته فقفز أحدها إلى وجهه وأمسك بأظافره وأسنانه أنفه، فأطلق من الألم الصرخات بقدر ما يملك صوته من مدى. عند سماع الدوق والدوقة لصرخاته، وتصورهما لما يمكن أن يكون قد حدث، هرعا إلى غرفته بكل السرعة، وفتحها بمفتاح (عموم الغرف)، فوجدا الفارس المسكين يصارع لنزع القط عن وجهه. دخلا بأنوار وشاهدا المعركة غير المتكافئة، هرع الدوق لفض الاشتباك، وقال دون كيخوتى صارخاً :

- لا أحد ينتزع القط عن وجهي، دعوني وجهاً لوجه مع هذا الشيطان، مع هذا المشعوذ، مع هذا الساحر، فإنى سوف أجعله يعرف من هو دون كيخوتى دى لامانشا!

لكن القط لم يأبه لهذه التهديدات، ومضى يموء مدممًا، محكمًا قبضته، لكن فى النهاية اجتته الدوق من وجهه، وألقى به من بين قضبان النافذة.

بقى دون كيخوتى مخربش الوجه، مع أنف ليست بكاملة الصحة، ومع هذا كان مغضبًا حيث لم يتجسروا له إكمال المعركة عنيفة الاشتباك مع الساحر الشرير. أرسلوا فى طلب زيت أباريثيو^(*)، وقامت ألتسيدورا نفسها بيدها شديدة البياض

(*) أباريثيو اسم مخترع هذا الزيت الذى يداوى الجروح. وهو شخص حقيقى عاش فى القرن السادس عشر.

بوضع الضمادات على كل جروحه، وعند وضعها قالت له بصوت منخفض :

- كل هذا البؤس الذى يصيبك، أيها الفارس المتحجر، بسبب إثم قوتك وعنادك، وصلى الله أن ينسى سانشو خادمك جلد نفسه، حتى لا تخرج من سحرها محبوبتك تلك دولثينيا، وحتى لا تتمتع بها، أو تصل إلى سرير الزواج بها، على الأقل مادمت أعيش أنا التى تعبدك.

على كل هذا لم يجب دون كيخوتى بكلمة ولا بتهيدة، وبعدها تمدد فى سريريه شاكرًا للدوق والدوقة الفضل، لا ليس لأنه كان يخاف ذلك الوغد القططى، السحرى الأجراسى، وإنما لأنه يعرف النية الطيبة التى حفزتهما على المجيء لنجدته. الدوق والدوقة نجحا فى تهدئته، وانصرفا حزنين بسبب الحادث السيئ الذى وقع خلال هذه اللعبة، فلم يظنا أن تلك المغامرة كانت ستنتهى بثمن باهظ يدفعه دون كيخوتى، إذ كلفته خمسة أيام فى سريريه بغرفته، خلالها وقعت له مغامرة ألد من سابقتها، لا يحب مؤلف القصة حكايتها الآن، كى يهرع إلى سانشو بانثا الذى مضى فى حكومته بكل اجتهاد، وبكل ظرف ولطافة.

الفصل السابع والأربعون

حيث تتم حكاية كيف كان سانشو باتشا يتصرف فى حكومته

تحكى القصة أنهم حملوه من دار الحكومة إلى قصر هائل، حيث وضعت فى صالة هائلة مائدة ملكية وشديدة النظافة، وهكذا عند دخوله إلى الصالة دقت الموسيقى، وخرج أربعة خدم لغسل يديه بالماء، واستقبل سانشو ذلك فى وقار. توقفت الموسيقى وجلس سانشو على رأس المائدة، لأنه لم يكن يوجد غير ذلك المقعد، كما لم توجد ملاعق وسكاكين غير ملعقة وسكينة أمامه. وقف بجواره على قدميه شخص، ثبت بعد ذلك أنه طبيب، بعضا من عظم الحوت فى يده. رفعوا منشفة فارهة بيضاء كانت تغطى الفواكه، وتتويجة ثرية من أطباق مليئة بأنواع الطعام، وكان هناك شخص بدا كما لو كان دارسًا كهنوئيًا بارك الطعام، ووضع أحد الخدم (فوطية) على صدر سانشو رابطًا لها حول رقبته، وآخر كان يلعب دور خادم المائدة وضع طبق فاكهة أمامه ليكون طبقه الأول الذى يفتتح به الطعام، لكن لم يكده يقضم واحدة، حتى تقدم حامل العصا، وطرق بها الطبق فرفعه فى سرعة خاطفة، لكن خادم المائدة أحضر مكانه طبقًا آخر من طعام مختلف. اتجه سانشو لتذوقه، لكن قبل وصول يده له أو تذوقه، كانت العصا قد طرقت الطبق، فرفعه أحد الخدم بنفس سرعة رفع طبق الفاكهة. وما أن رأى سانشو ذلك حتى أصابه العجب، وسأل خادم المائدة عما إذا كان عليه أن يتناول طعامه أم أنه يشارك فى لعبة يديرها (قرداتى)؟ أجاب عليه حامل العصا:

- لا يجوز تناول الطعام، أيها السيد الحاكم، إلا بنفس العادة والاعتیاد في كل الولايات التي لها حكام. أنا، يا سيدي، طبيب، وأقبض راتبًا في هذه الولاية بوصفي طبيبًا خاصًا لحكامها، وأهتم بصحة الحاكم أكثر من اهتمامي بصحتي، دارسًا ليل نهار، وفاحصًا طبع الحاكم المركب من العناصر الأربعة، حتى أنجح في علاجه عندما يسقط مريضًا، والعمل الرئيسي لي حضور وجباته وعشاءه، وتركه يأكل ما يبدو لي مناسبًا لهذا الطبع، ومنعه من أكل ما أتصور أنه يضره أو يؤدي معدته، وهكذا أمرت بسحب طبق الفاكهة، لكونها رطبة أكثر من اللازم، أما طبق الطعام الآخر، أيضًا أمرت بسحبه، لكونه ساخنًا أكثر من المعتاد، ولأن به مهارات كثيرة تقوى الإحساس بالعطش، مما يؤدي إلى كثرة الشرب، وكثرة الشرب تستهلك وتقضى على الرطوبة الطبيعية للجسم، حيث جوهر الحياة*).

- بهذه الطريقة فإن طبق طيور البرديس المشوية الموجودة هناك، حسب ظنّي عن أكل الطيور في مواسمها، لن يسبب لي أى ضرر.

أجاب الطبيب:

- هذا الطبق لن يأكله السيد الحاكم بينما أنا على قيد الحياة.

قال سانشو :

- ولماذا؟

أجاب الطبيب:

- لأن عميدنا أبيقراط، بوصلة ونور الطب، قال في قاعدة طبية ذهبية:

(*) في الطب القديم كانوا يعتقدون بوجود هذه الرطوبة التي تعطي أعضاء الجسم مرونتها.

" إن كل تخمة ضارة والأكثر ضرراً هي تخمة البرديس(*)"

قال سانشو :

- إذا كان ذلك كذلك، فلينظر السيد الطبيب في كل الطعام فوق المائدة، ويحدد ما هو أكثر نفعاً لى وأقل ضرراً، ويتركنى آكله دون استعمال ضربات عصاه، لأنه بحياة الحاكم، وحق الله اتركنى أمتنع بطعامى، فأنا ميت من الجوع، وحجز الطعام عنى، حتى لو ضايق ذلك السيد الدكتور(**)، ومهما أكثر من القول، ينزع عنى الحياة أكثر من إطالتها لى.

أجاب الطبيب :

- عندك حق، أيها الحاكم، وهكذا، فإنى أرى ألا تأكل فخامتكم من هذه الأرانب المطبوخة فى الطبق هناك لأنها صعبة الهضم! وذلك اللحم البقرى إذا لم يكن مشويّاً وفى مرقة، يمكن تذوقه مع أنه لا يوجد ما يدعو لذلك.

وقال سانشو :

- ذلك الطبق الذى ينساب منه البخار فى المقدمة، يبدو أنه تشكيلة لحوم، ولتنوع محتوياته، لن أعدم مصادفة قطعة لحم تكون لذيدة وصحية .

قال الطبيب:

- بعد الشر عليك من أكله! اللهم أبعد عنا هذه الأفكار السيئة، فلا يوجد فى العالم أكلة أكثر ضرراً من تشكيلة اللحوم. فهى من أجل القساوسة أو

(*) قاعدة أيوقراط تنص على الخبز وليس البرديس..

(**) يقصد أيوقراط.

مديرى الكليات أو من أجل أفراح المزارعين، لكن يجب أن تخلو منها موائد الحكام، التى ينبغى أن تعد بكل أناقة وإتقان، والسبب لأنه دائماً، وحيثما كان، ومهما كان، الفضل الأكبر يكون للأدوية البسيطة دون الأدوية المركبة، لأن أى خطأ فى كميات عناصر المركب ممكن بينما لا يهتمل أى خطأ فى الأدوية البسيطة، لكن ما أرى أن يأكله السيد الحاكم هو بعض رقائق البسكويت، وبعض شرائح من السفرجل، حيث تهدئ المعدة وتساعد على الهضم.

عند سماع ذلك استند سانشو على مسند كرسيه، وأخذ ينظر فى حملقة إلى الطبيب ذاك، وبصوت رزين سأله عن اسمه وعن المكان الذى درس فيه.

- أنا، يا سيدى، اسمى الدكتور بدرو ريشو الفأل، وأنا من أهل تيراتى فويرا (ألق نفسك فى الخارج)، وهى بين كاراكويل ومدور الريف، على اليد اليمنى فى الموقع، وعندى درجة دكتور من جامعة أوسونا.

وعلى هذا علق سانشو:

- إذن، أيها الدكتور بدرو ريشو الفأل (السيئ) يا من أنت من (ألق نفسك فى الخارج)، فى الموقع على يدك اليمنى بنفس طريقة الذهاب من كاراكويل إلى الريف، ويا خريج جامعة أوسونا، اسحب نفسك فى الحال من أمامى، وإذا لم تفعل، أقسم بالشمس أن آتى بهراوة، وأشبع بها ضرباً كل أطباء الولاية بادناً بك، على الأقل كل طبيب منهم أدرك أنه جاهل، فبالنسبة للأطباء الحكماء ذوى الكياسة والذكاء سوف أضعهم فوق رأسى، وسوف أكرمهم بوصفهم أشخاصاً ملائكية وأعود للقول فليذهب عنى بدرو ريشو؛ وإذا لا، سأحمل هذا المقعد الذى أجلس عليه، وسوف أحطمه فوق رأسه، وابق قابلى لطلب

إعادة رأسك خارج الحكومة، وسوف يرتاح ضميري بالقول إننى قمت
بخدمة الله بقتل طبيب جاهل، جلاد للبلاد، وقدموا لى الطعام، فإن مهنة لا
تطمع صاحبها لا تساوى حبتين من الفول.

اضطرب الطبيب عند رؤية الحاكم فى مثل هذا الغضب، وأراد أن يلقى
بنفسه فى الخارج منسحباً من الصالة، لولا أنه فى هذه اللحظة سمعت أصوات بوق
مع طاقم جياد فى الشارع، فأطل خادم المائدة من النافذة، وعاد يقول :

- بريد يأتى من طرف الدوق، لابد أنها رسالة مهمة.

دخل عامل البريد يعرق فى فزع، وأخرج من حزامه لفة، ووضعها فى يد
الحاكم، فوضعها سانشو فى يد مدير الخدم، وأمره بقراءة ما على المظروف، وكان
يقول: "إلى دون سانشو بانثا، حاكم ولاية باراتاريا، خاص ليدته أو ليد سكرتيره."

عند سماع سانشو هذا، قال :

- من منكم هنا سكرتيرى؟

أجاب أحد الحاضرين :

- أنا يا سيدى، لأنى أعرف القراءة والكتابة، كما أنى من بيثكايا.

قال سانشو :

- بهذه الإضافة (للقراءة والكتابة)، من الممكن بسهولة أن تكون سكرتيراً.
لنفس الإمبراطور، افتح هذا المظروف وانظر ماذا يقول.

وهكذا فعل السكرتير حديث الولادة، وبعد قراءته الرسالة، قال إنه شأن
ينبغى معالجته على انفراد. أمر سانشو بإخلاء الصالة، ولا يبقى فيها إلا رئيس
الخدم وخادم المائدة، أما الطبيب والباقون فقد انصرفوا، وهنا قرأ السكرتير
الخطاب بصوت مسموع، وكان يقول:

"وصلت إلى مسامعي أخبار، أيها السيد دون سانشو بانثا، أن بعض أعدائي وأعداء هذه الولاية، سوف يقومون بعملية هجوم عنيفة، لا أدري في أية ليلة، والمناسب السهر والبقاء في حالة طوارئ، حتى لا يهاجموك دون توقع. وأعرف أيضاً عن طريق جواسيس صادقين أنه قد دخل القرية أربعة أشخاص متنكرين لقتلك، لأنهم يخافون من ذكائك، افتح عينيك، وانظر فيمن يأتي للكلام معك، ولا تأكل من شيء يقدم إليك، وسأهتم بنجدتك إن رأيت نفسك في مأزق، وعلى أية حال سوف تقوم بما ينتظر من حكمتك. من هذه القلعة، ١٦ أغسطس، الرابعة فجراً.

صديقكم

"الدوق".

بقى سانشو مشدوهمًا، وتظاهر الآخرون أيضًا بالذهول، وملتفتًا إلى رئيس الخدم، قال له :

- الذي ينبغي عمله الآن، وما ينبغي عمله في الحال، هو وضع الدكتور ريشيو في القيود؛ لأنه إذا كان على أحد أن يقتلني، فإنه يجب أن يكون هو، وطريقته تحقق ذلك بالموت البطيء والفظيع، مثل الموت من الجوع.

قال خادم المائدة :

- أيضًا، في رأيي، ألا تأكل، فخامتكم، من كل الطعام الموجود على المائدة، لأن من قدمه عدد من الراهبات، وكما اعتادوا القول "إن الشيطان وراء الصليب".

أجاب سانشو :

- لا أنكر ذلك، والآن أعطى قطعة خبز، وبعض حبات العنب، فيها لا يستطيع أن يوجد السم، لأنه بالفعل، لا أستطيع الاستمرار دون طعام، وإذا كنا

بصدد الدخول العاجل في هذه المعارك التي تهددنا، فعلى الإنسان أن يحافظ على لياقته جيداً، فالأمعاء تسند القلب، ولا يستطيع القلب حمل الأمعاء. وأنت أيها السكرتير رد على خطاب الدوق سيدى، وقل له بأنه سوف يتم إنجاز ما أمر به كما أمر به، دون التهاون في شيء، وقدم من طرفي قبلات ليد سيدتى الدوقة، وقل لها إني أرجوها ألا تنسى إرسال الخطاب واللفة المرفقة به لزوجتى تيريزا بانثا، فبذلك تتلقى إنعاماً كبيراً، من ناحيتى سأعتنى بخدمة الدوق بقدر ما تبلغ طاقتى، وعلى الهامش يمكن أن ترسل قبلات ليد سيدى دون كيخوتى دى لا مانشا، حتى يرى أنى أصون خبزه، وأنت بوصفك سكرتيراً طيباً، وابناً لبيشكايا، يمكنك إضافة ما تشاء، وما يرد على خاطرك مناسباً، وارفعوا هذه المائدة، ثم أعطوني آكل، وسوف أتسابق مع كل الجواسيس والقتلة والسحرة الذين يمكن أن يأتوا إلى ولايتى".

وهنا دخل خادم وقال :

- هنا يوجد مزارع له حاجة، ويريد أن يتكلم معك في شأن يخصه، وحسبما يقول هو، الأمر مهم جداً.

قال سانشو:

- تلك حالة غريبة، حالة أصحاب الحاجة هؤلاء. هل من الممكن أن يكونوا مغفلين إلى هذا الحد، فلا يلاحظون أن مثل هذه الساعات ليست وقت مناقشة الحاجات؟ بالصدفة، هل نحن من نحكم، والذين نحن قضاة، ألسنا من لحم وعظم، وأنه من الضروري أن يتركونا نستريح الوقت الذى تفرضه الضرورة، أم أن هؤلاء يودون أن نكون من الحجر المرمر؟ بالله وبحق نفسى،

إذا استمرت لى الحكومة (ولن تدوم حسبما تترجم عن نفسها لى الأحداث)، سوف أضع فى القيود أكثر من صاحب حاجة. والآن قل لهذا الرجل الطيب أن يدخل، لكن أقر أولاً أنه ليس من أولئك الجواسيس أو القتلة الذين يريدونى.

- لا، يا سيدى، لأنه يبدو إنساناً بسيطاً، فإما أن معرفتى قليلة، وإما أنه فى حسن طية الخبز الجيد.

قال رئيس الخدم :

- لا يوجد ما نخافه؛ فنحن عصابة.

قال سانشو :

- هل من الممكن، يا خادم المائدة، ألا يكون هنا الدكتور بدرو ريشو، ولا آكل شيئاً له وزن ويسند البدن، حتى لو كان قطعة خبز وبصلة؟

قال خادم المائدة :

- فى هذه الليلة سوف تأكل فى العشاء فترضى ونسد هذا النقص، وهكذا سينتهى اليوم وأنت شعبان وسابغ الأجر.

أجاب سانشو :

- الله يسمع منك!

وخلال هذا، دخل الرجل، وكان حسن الهيئة كثيراً، ومن ألف فرسخ يمكن ملاحظة طبيته وحسن طويته. أول ما قال كان :

- من يكون هنا السيد الحاكم؟

أجاب السكرتير:

- ومن يمكن أن يكون غير ذلك الجالس على الكرسي؟

قال المزارع:

- أحنى نفسى احتراماً لحضرته.

وركع طالباً يد سانشو لتقبيلها، رفض سانشو تقديم يده، وأمر الرجل أن ينهض وأن يقول ما يريد. وهكذا فعل المزارع، قال :

- أنا يا سيدى مزارع، من أهل ميغيلتورا، قرية على بعد فرسخين من المدينة الملكية.

- لدينا (ألق نفسك في الخارج) (*) آخر؟! أيها الأخ، استمر في كلامك، وما أدري قوله الآن هو أنى أعرف ميغيلتورا جيداً، فهى ليست بعيدة عن قريتي.

واصل المزارع:

- والمسألة، هى أنى، لرحمة الله بى، متزوج فى سلام وعلى ملاء الأَشهاد من الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، ولدى ابنان يدرسان، الأصغر يدرس البكالوريا والأكبر الليسانس، وأنا أرمل؛ لأن زوجتى ماتت، وبعبارة أدق، قتلها طبيب، حيث أعطاه دواءً مسهلاً عندما كانت فى حالة حمل، ولو كان

(*) المدينة الملكية قريبة من بلد الدكتور.

الحمل تم وتمت الولادة وكان المولود ولدًا جعلته دكتورًا (هذا لو كان قد أراد الله)، حتى لا يقع حسد بينه وبين أخيه دارس البكالوريا أو الآخر دارس الليسانس.

قال سانشو:

- ومعنى ذلك أن زوجتك إذا لم تمت أو إذا لم يقتلوها، ما كنت قد صرت أرملاً الآن؟

أجاب المزارع:

- لا يا سيدى، بالقطع لا!

قال سانشو:

- يا للبهجة! واصل يا أخى فهذه ساعة نوم أكثر منها ساعة نظر في الأعمال.

قال المزارع:

- أقول، إذن، إن ابني هذا الذى سوف يحمل البكالوريا أغرم في نفس القرية بصيبة اسمها كلارا بيرلرينا، ابنة أندرس بيرلرينو، مزارع شديد الثراء، واسم بيرلرينا هذا لم يأقم عن الجدود، ولا عن أى نسب آخر، وإنما هذا السلسال أصله بيرلاتيكو^(*)، ولتحسين الاسم يطلقون عليهم (بيرلرينو)، وإذا أردنا

(*) لعب بالكلمات الاسم بيرلرينو وبيرلاتيكو جذرهما برلا أى لؤلؤ، لكن صيغة بيرلاتيكو تعنى مريضاً مرضاً مزمناً (مشلول، مسلول)، أما الصيغة الأخرى فتشير للؤلؤ، أما الفتاة فقد استخدم مؤنث اللقب وجعله صفة تنسبها للعائلة، فالرجل منها موصوفاً (بيرلرينو) والمرأة (بيرلرينا).

الحق، فالصبية مثل لؤلؤة شرقية (فهى اسم على مسمى)، وإذا نظر إليها من الجانب الأيمن فهى زهرة برية، ومن الجانب الأيسر، ليست كذلك، لأنها تنقصها تلك العين، حيث قضى عليها الجدرى، ومع أن فتحات الوجه كثيرة وكبيرة، يقول من يحبونها كثيراً إنها ليست فتحات وإنما قبور حيث تدفن نفوس عاشقها. وهى نظيفة جداً، حتى إنها كى لا تلوث وجهها حملت الأنف عليه، كما يقولون، وهى خنساء ذلك الأنف، حتى لا تكاد تظهر إلا كما لو كانت شيئاً يهرب من الفم، ومع كل هذا تبدو جميلة حتى المدى، لأن فمها واسع، وحيث إنه لا يفتقد عشرة أو اثني عشر ضرساً وستة، فإنه يمكن أن يكون مقبولاً وبراقاً مع أى فم لفتاة حسناء. وعن الشفاه فليس ما أستطيع قوله غير أنه إذا أمكن لف خيوط فى شلّة فالشفاه شلتان، لهذا فهى رقيقة رقيقة، لكن لكونها تحمل ألواناً مختلفة تخرج على المألوف فى كل شفاه فهى معجزة حيث ترى خلطة الأزرق مع الأخضر امتزجا بلون الباذنجان، وسامحى، أيها الحاكم، لفرط رسمى أعضاء التى فى النهاية ستصير ابنة لى، وأنا أحبها كثيراً، ولا تبدو لى سيئة.

قال سانشو :

- ارسم ما شاء لك الرسم، استجمم بالرسم، وإذا كنت قد أكلت شيئاً، لما وجدت (حلو) بعد الطعام أفضل من صورتك.

أجاب المزارع :

- ستظل الصورة تحت أمرك، وإن لم تُحلَّ بها اليوم، فسيأتى وقتها. وأقول، يا سيدى، إذا استطعت وصف قوتها وطول جسمها، كان الأمر مثيراً للعجب؛

لكن ليس ممكناً، بسبب أنها ثقيلة الأرداف ومتقلصة، وركبتها لصق فمها، ومع كل هذا يلاحظ جيداً أنها إذا استطاعت النهوض تصطدم رأسها في السقف، وبالفعل قد أعطت يدها زوجةً لابني الذي يدرس البكالوريا، ولا يبقى إلا أنه لا يستطيع فهمها، فهي مستاءة، وفي كل شيء تبرز أظافر طويلة مخددة دليلاً على برها وحسن عملها.

- طيب! طيب! اعمل حسابك أنك قد رسمتها من قدمها لرأسها. ماذا تريد الآن؟ وهات من الآخر دون لف أو دوران، أو استطرادات أو إضافات.

أجاب المزارع :

- أحب، سيدي الحاكم، وأريد من فخامتكم إعطائي خطاب توصية إلى والد الفتاة كي يتم هذا الزواج، حيث إننا لسنا أقل منه في الثروة، ولا فيما وهبتنا الطبيعة، لأنه حتى أقول الحق، أيها السيد الحاكم، فإن ابني مسكون تركبه الشياطين، فلا يمر يوم دون أن تعصف به الأرواح الشريرة ثلاث أو أربع مرات، ولكونه قد احترق في إحدى المرات فإن وجهه مجمد مثل رقعة جلد قديمة، وعينييه بكاءتان قليلاً، بل هما عينا ينبوع، ومع ذلك فهو مثل ملاك، ولو لم يجلد نفسه بعنف، ويوجه يديه اللكمات إلى كل جسمه لكان بركة من السماء.

أجاب سانشو:

- وهل تريد شيئاً آخر أيها الرجل الطيب؟

قال المزارع:

- نعم لي حاجة أخرى لكن لا أجرؤ على قولها، وفي النهاية، حتى لا تتعفن في صدري ليحدث ما يكون. أقول، يا سيدي، أحب أن يقوم فخامتكم

باعطائي ثلاثمئة أو ستمئة درهم للمساعدة في دوطة ابني تلميذ البكالوريا،
أقول، مساعدة^(١) لتأسيس بيته، حتى يعيش في النهاية دون أن يكون مشدودًا
لصفاقة حيه.

قال سانشو:

- انظر إذا كنت تريد شيئاً ثالثاً، ولا تتردد في قوله لحياء أو خجل.

أجاب المزارع:

- لا، بالتأكيد.

ولم يكذب ينطق بهذا، حتى نهض الحاكم على قدميه، وأمسك بالكرسی الذي
كان جالساً عليه، وقال:

- أقسم بهذا، أيها القروي الفظ، وسيئ المنظر، إذا لم تتعد محتفياً عن ناظري في
الحال فهذا الكرسي سوف أحطم به وأفتح لك رأسك! يا ابن الداعرة يا
خيث، رسام الشيطان نفسه. أفي هذه الساعات تأتي لتطلب مني ستمئة
درهم؟ ولماذا ينبغي علي إعطاؤها لك لو كنت أملكها أيها المخبول اللعين؟
وما علاقتي بميجيلتوراً أو بكل سلسال بيرلرين؟ اذهب عني، هذا ما أقول،
وإذا لا، فبحياة الدوق سيدي لأفعلن ما وعدتك به. أنت لا بد لست من
ميجيلتوراً، وإنما مكار ساخر، أرسلتك جهنم إلى هنا كي تغويني بالقتل. قل
لي، يا عديم الرحمة، من أين أملك ستمئة درهم وأنا لي في الحكومة ما لا يزيد
على يوم ونصف اليوم؟

(١) عدل كلامه سريعاً لأن الدوطة تدفعها الفتاة !

أشار خادم الصلاة للمزارع بأن ينصرف من الصلاة، وقد خرج فعلاً منكس الرأس، وفيما يبدو خائفاً من أن ينفذ الحاكم ما دفعه إليه الغضب، فهذا الخبيث قد أحسن جيداً تمثيل دوره!

لكن لنترك سانشو في حمى غضبه، وليدركه هدوء السلام، وعلينا بالعودة إلى دون كيخوتي، وقد تركناه مضمداً في الوجه ومعالجاً من الجروح القططية، والتي لم يشف منها في ثمانية أيام، وقد حدث له في يوم من تلك الأيام الثمانية ما يعد سيدي حامدي بحكايته في دقة وصدق اعتاد عليهما في حكايته لهذه القصة.

الفصل الثامن والأربعون

ما وقع لدون كيخوتي مع دونيا رودريجيث، قهرمانة الدوقة، مع أحداث أخرى تستحق كتابتها، وتخليدها إلى أبد الأبدین

بجانب أنه كان مطحوناً وحزيناً، وسيئ الجروح، غطت الضمادات وجهه الذى امتلأ بالعلامات، ولم يحدث هذا لدون كيخوتي بيد الله، وإنما بأظافر قط، نكبة من النكبات اللصيقة بالفروسية المشاءة. أمضى ستة أيام محتجباً لا يظهر لأحد، وفى ليلة من لياليها وكان مستيقظاً ساهراً، مفكراً فى تعاسته، وفى مطاردة التسيديورا، أحس بأنهم يفتحون مخدعه بمفتاح، وفى الحال، فكر فى أن الصبية العاشقة كانت قادمة للسطو على شرفه، وإعدام ولائه الواجب لسيدته دولثينيا دل توبوسو. قال: "لا، مصدقاً تخيلاته، وهذا بصوت مسموع-، حتى لو كانت شطراً من أعظم جمال فى الدنيا لن تجعلنى أترك عبادة التى أملكها منحوتة ومطبوعة فى سويداء قلبى، وفى الكامن المخبأ فى أعماق أعماقى، فأنت سيدتى سواء تحولت إلى فلاحه بصلية العطر أو جنية بنهر التاخو المذهب، تنسجين النسيج من ذهب وحرير يختلطان، أو تحت قبضة ميرلين أو مونتيسينوس أينما أحبا أن يكونا، فحيثما كنت أنت محبوبتى، وأينما كنتُ أو أكون فإنى ملكك.

الانتهاء من هذه العبارات وفتح الباب كانا مترامين، وقف على قدميه فوق السرير، ملفوفاً كله فى ملاءة من حرير أصفر، وطرطور على رأسه، ووجهه وشاربه

وخدوشه مضمدة جميعاً حتى لا تتهاوى وتقع الضمادات، وفي هذا المشهد بدا أغرب شبح تقع عليه العين. زرع عينيه في الباب، وبدلاً من دخول من انتظر دخولها، المستسلمة والجريحة ألتسيدورا، دخلت قهرمانة جليلة، مع ملاءة بيضاء وطويلة، حتى أنها غطتها من الرأس حتى القدمين، وبين أصابع يدها اليسرى كانت تحمل نصف شمعة مشتعلة، وأظلت وجهها بيدها اليمنى حتى لا يسقط النور في عينيها، التي كانت تغطيها غمامات كبيرة، دخلت تخطو بهدوء محركاً قدميها برقة.

نظر إليها دون كيخوتى من عليائه، ورأى لباسها، ولاحظ صمتها، فكر أن إحدى الساحرات أو المشعوذات قد أتت بهذه الثياب كي تصنع له عملاً (سحرياً) شريراً، وبدأ في الصلاة راسماً الصليب بيديه في سرعة خاطفة. مضى المشهد يقترب حتى توسط المخدع، ورفعت عينيها ورأت السرعة التي كان يرسم بها دون كيخوتى الصلبان، وإذا كان قد ركبه الخوف من رؤية هذه الصورة، فقد أفرغتها أيضاً صورته، لأنها مجرد أن رأته هكذا طويلاً جداً، أصفر جداً مع الضمادات تشوهه، صرخت قائلة :

- يسوع! ما هذا الذى أراه؟

ومع الفزع سقطت الشمعة من يدها، وعندما رأت نفسها في الظلام أدارت ظهرها للانصراف، ومع الخوف تعثرت في ذيل ثوبها، وسقطت سقطة عظيمة، وخائفاً، بدأ دون كيخوتى يقول :

- أستحلفك أيها الشبح أو أيًا كنت، قل لى من أنت، وقل لى ماذا تريد منى؟ إذا كنت روحاً تتعذب، قلها، وسوف أصنع من أجلك كل ما يمكن أن تستطيعه قواى، لأنى كاثوليكي مسيحي، وصديق لفعل الخير لكل الناس، ومن أجل هذا أخذت نظام الفروسية المشاءة، التي أمارسها، وممارستها تقدم الخير حتى للأرواح التي تعيش في الأعراف (أو المطهر).

القهرمانة المرتعبة، والتي سمعت استحلاف دون كيخوتي، استدلّت بخوفها على خوف دون كيخوتي، فأجابته بصوت واهن وخفيض:

- يا سيدى دون كيخوتي (إذا كنت بالفعل دون كيخوتي)، أنا لست شيخاً أو رؤياً، ولا روح الأعراف، كما لا بد أن فخامتكم قد ظن، وإنما أنا دونيا رودريجيث قهرمانة الدوقة، وبى ضرورة من تلك الضرورات التى تعودت فخامتكم على علاجها، ومن أجلها أجيء لفخامتكم.

قال دون كيخوتي:

- قولى لى دونيا رودريجيث، بالصدفة هل جئت للقيام بمهمة قوادة؟ لأنى أقول لك بأنى لست صالحاً لحب أحد، بفضل جمال سيدتى دولثينيا دل توبوسو. وأقول فى النهاية، يا سيدة رودريجيث، اتركى أى رسالة غرامية جانباً، ويمكنك العودة لإشعال شمعتك، ولنبتعد عن كل رسالة أكثر أو ما يتصل بذلك، منحين كل شرور الإغواء بعيداً.

أجابت القهرمانة :

- أنا، يا سيدى، لا أحمل رسائل من أحد، فخامتكم لا تعرفنى جيداً، كما أنى بعد مازلت فى سن مبكرة، لأسعى بهذه الصبيانيات، التى تحترفها القهرمانة العجوز، وأنا بحمد الله ما زالت روحى فى لحمى، ومازالت أسنانى وضروسى فى فمى، إلا بعضها اغتصبها منى إصابتى المتكررة بالبرد، وهو أمر معتاد فى أرض أراجون هذه، لكن انتظرنى فخامتكم قليلاً، فسوف أخرج لإشعال الشمعة وأعود فى لحظة لأحكى لك عن شدتى وضيقى، باعتبارك طبيباً لكل شدة وضيق فى العالم.

ودون انتظار إجابة خرجت من المخدع، حيث بقي دون كيخوتي، هادئاً ومفكراً في انتظارها، لكن في الحال مر به ألف خاطر حول هذه المغامرة الجديدة، وبدا له من سوء عمله وفكره ظنه أن من دخل الغرفة كان يضع ولاءه لسيدته في خطر، وكان يخاطب نفسه:

"من يعرف عما إذا كان الشيطان بفطنته وبراعته لم يجب أن يخدعني الآن مع مثل هذه القهرمانه، وهو ما لم يستطعه مع إمبراطورات وملكات ودوقات وماركيزات، ولا حتى مع كونتيسات؟ فقد سمعت مرات عديدة من أشخاص ذوى فطنة، أنه إذا أمكن له سوف يدمركم قبل أن يغويكم. ومن يعرف عما إذا كانت هذه الوحده، والفرصة المتاحة، وذلك الصمت، لن توظف الرغبة النائمة، وتجعلني في نهاية تلك السنين أسقط، أنا من لم يتعثر قط؟ وفي حالة مشاهدة الهرب أفضل من انتظار المعركة. لكن لا بد أنني فقدت صوابي، فها أنا أفكر في مثل هذه الترهات وأرددها، فليس ممكناً لقهرمانه بيضاء الثياب، فارغة، ذات شهوة، قدرة على حفز واستثارة أفكار شقية في الصدر الأكثر قسوة في العالم. بالصدفة، هل توجد قهرمانه في العالم كله طرية اللحم؟ بالصدفة، هل توجد قهرمانه في الكون يمكن ألا تكون صفيقة، ومتجهمة ومتكلفة؟ إلى الخارج، إذن، أيتها الزمرة القهرمانية، هدية غير مفيدة لأي كائن إنساني! أوه! أي خير صنعت تلك السيدة، التي يقال عنها أنها كان لديها قهرمانتان تماثلان بترواتهما وحشياتهما في آخر غرفة استقبالها، كما لوكن يقمن بعملهن حتى تبدو السلطة والجاه في القاعة بفضل هذين التمثالين كما لو كانا قهرمانتين حقيقتين!"

وعند قوله هذا ألقى نفسه من السرير نحو الأرض بنية إغلاق الباب، وعدم السماح للسيدة رودريجيث بالدخول، ولكن عند وصوله إليه لإغلاقه ظهرت السيدة

رودريجيث مع شمعتها البيضاء، وعندما رأته دون كيوخوتى على مسافة أقرب، ملفوفاً فى الملاءة مع الضمادات والطرطور، خافت من جديد وانسحبت خطوتين للوراء، وقالت :

- هل نحن فى أمان، أيتها السيد الفارس؟ لأننى لا أراها علامة طيبة مغادرة فخامتكم للفراس.

أجاب دون كيوخوتى :

- أنا أسأل عن نفس الشىء يا سيدتى، وهكذا أسأل: هل أنا آمن ضد أن أهاجم وأن أعتصب.

أجابت القهرمانه :

- ممن تطلب هذا الأمان، أيتها السيد الفارس، وضد من ؟

أجاب دون كيوخوتى :

- أطلبه منك وضدك؛ لأننى لست من حجر المرمر، ولا أنت من البرونز، وليست الساعة هى العاشرة صباحاً، لكننا فى منتصف الليل بل أكثر، وفوق ذلك، طبقاً لما أتصوره؛ فى غرفة وفى سرية، ومثلما كان ينبغى أن يكون الكهف الذى تمتع فيه إينياس من الحسنة والنقية ديدو. لكن أعطنى، يا سيدتى، يدك فأنا لا أطلب أماناً أكثر من جهاد النفس وعفتى، وما تمثله هذا الملابس الوقورة.

وعند قول هذا قبل يدها اليمنى، وأمسك بها بيده اليمنى، وقد شاركتة هى تلك الشعائر.

هنا يضع سيدى حامدى الكلام بين قوسين ويقول : بحياة النبى محمد أنه
رأهما الاثنين هكذا يداهما تمسك إحداهما الأخرى وتتشابك معها من موقفه عند
الباب، وأنها اتجها معاً نحو السرير ملفوفين فى خير لفافات يلتحف بها اثنان.

دخل أخيراً دون كيخوتى فى سريره، وبقيت دونيا رودريجيث على كرسى،
منحرف بعض الشيء عن السرير، ودون أن ترفع الغمامة عن عينيها، أو تترك
الشمعة من يديها، وبينما تكور دون كيخوتى وغطى نفسه جميعاً، دون أن يترك
أكثر من الوجه مكشوفاً، وما إن هدأ الاثنان، حتى كان أول من كسر الصمت كان
دون كيخوتى قائلاً :

- يمكنك الآن، سيدتى دونيا رودريجيث، أن تفضفضى وتفرغى كل ذلك الذى
يثقل على قلبك، ويجزن وجدانك، فستكونين مسموعة بآذان صافية،
مشفوعة بأعمال نجدة باردة.

أجابت القهرمانه:

- هذا ما أظنه أنا، فلا يمكن أن ينتظر من حضورك الشجاع واللطيف إلا
الاستجابة التقية. والقضية، إذن، أيها السيد دون كيخوتى، هى أنه مع أنك
تجدنى جالسة فى هذا المقعد، وفى قلب مملكة أراجون، وفى ثياب القهرمانه
الضائعة المنهكة، فأنا من أبناء لاس أستورياس دى أوبييدو، ومن نسل تعتبره
أفضل عائلات المنطقة، لكن لقله حظى وفقر والذى قبل الأوان لإهمالهما،
فقد حملانى، دون روية، إلى البلاط فى مدريد، ولتجنب تعاسات كثيرة
ولسلامى أقرؤى باعتبارى صبية خادمة عند سيدة عظيمة هناك، وأحب أن
أعرفك أنى منذ ذلك الحين لم يعلمنى أحد شيئاً فيما أقوم به من عمل. تركنى

والداى فى الخدمة، وعادا إلى أرضهما، وبعد سنوات قليلة صعدت روحهما إلى السماء لا بد، فقد كان تقاهما زائداً. وبقيت يتيمة، معلقة بالمرتب البائس، وبالإنعامات البائسة التى تعودوا على منحها لمثل هؤلاء الخادما فى القصر، وفى ذلك الوقت، ودون أن أتيح الفرصة لأن يحدث، وقع فى غرامى خادم بالبيت، رجل عجوز، ملتج، وله شخصية، وفوق ذلك ابن عز مثل الملك، لأنه كان جبلياً^(*). لم نعالج غرامياتنا بكل سرية، حتى لا تعلم بها السيدة، وللخروج من القيل والقال تزوجنا فى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، ومن هذا الزواج أنجبت بنتاً حتى تجهز على حظى، لو كان لى أى حظ، ليس لموتى فى الولادة، فقد ولدت فى موعدها صحيحة، وإنما لموت زوجى لفرع محدد أصابه، ولا يوجد وقت الآن لحكايته، فإنى أعلم أن فخامتكم سوف تعجب.

وهنا بدأت فى البكاء الحنون، وقالت :

- سامحنى، فخامتكم، أيها السيد دون كينخوتى، فليس بيدى منع احتراق عيى بالدموع فى كل مرة أتذكر سوء ما حدث لى. فليرحمنى الله، وبأى حق كان يحمل سيدتى على فخذى بغلة جبارة، وسوداء مثل الغراب الأسود نفسه! ففى ذلك الحين لم تكن تستعمل العربات أو مقاعد السرج، كما يقولون، أنهم الآن يستعملونها، والسيدات حينذاك كن يتحركن على فخذى مطية خدمهن. هذا على الأقل لا أستطيع أن أتوقف عن حكايته، لأن فى قصته يلاحظ حسن تربية ودقة زوجى. فعند دخوله بالبعلة فى الشارع سانتياجو،

(*) من جبال سانتاندير، وهم رعاة، أفواى أعزاء النفس.

في مدريد، وهو ضيق إلى حد ما، كان خارجاً منه عمدة البلاط مع مساعدين له أمامه، وهكذا فزوجي باعتباره خادماً مخلصاً، عندما رآه حول عنان البغلة، معطياً إشارة بأنه سيعود لصحبة العمدة. سيدتي التي كانت وراءه على فخذي البغلة، كانت تقول له بصوت منخفض: "ماذا تفعل أيها التمس؟ ألا ترى أننا هنا؟ العمدة في تهذيب، أوقف عنان جواده، وقال له: "واصل أيها السيد طريقك، فأنا من ينبغي عليه أن يصحب زوجتي دونيا كاسيلدا". وهذا كان اسم سيدتي. ومع ذلك عاند زوجي بالقبعة في يده، راعباً في العودة لمرافقة العمدة، وعندما شاهدت سيدتي ذلك في غضب شديد وانفعال أخرجت دبوساً غليظاً أو شيئاً شبيهاً ينخز من صندوق مجوهراتها، وغرسته في ظهره، حتى إن زوجي صرخ صرخة عظيمة والتوى جسمه وسقط مع سيدته على الأرض. أقبل خادمان لإفهاضها، ومعهما العمدة ومساعدوه، واضطرب باب وادى الحجارة، والناس الذين يقضون وقت البطالة هناك. أتت سيدتي على قدميها، وهرع زوجي لمنزل حلاق، حيث كان يحس أن أحشائه كان تتحرك من طرف إلى طرف آخر. انتشر خبر تأدب زوجي، حتى إن الصبيان كانوا يحكونه في الشوارع، ولهذا السبب، ولضعف نظره، فصلته سيدتي من العمل، ومن حزنه لهذا، حسبما أعتقد أنا، نجم سبب موته. وبقيت أرملة دون ملجأ، ومع ابنة تنمو، في حسن مثل زبد البحر. وأخيراً، كما كانت لي شهرة بأني مجتهدة في عملي، سيدتي الدوقة، والتي كانت حديثة الزواج باليدوق سيدي، أحبت أن تحضرنى معها هنا إلى أرض أراجون، ومعى ابنتي، وراحت الأيام وجاءت الأيام، وكبرت ابنتي، وكبرت معها كل ملامح العالم، تغنى مثل قلندرة،

وترقص في خفاء الأفكار، وتعبّر بالرقص كما لو كانت فاقدة للوعي، وتقرأ وتكتب مثل أستاذ مدرسة، وتحسب مثل البخيل . وعن نظافتها لا أقول شيئاً، فالماء الجارى ليس أنظف منها، وهى الآن عندها ، إذا لم تخنى الذاكرة، ستة عشر عاماً وخمسة شهور وثلاثة أيام، يوم زائد أو ناقص. باختصار صبيتي هذه وقع في غرامها ابن مزارع واسع الثراء، يعيش في إحدى قرى الدوق سيدى، وهى ليست ببعيدة عن القلعة. وبالفعل لا أعرف كيف وبأى طريقة اجتمعاً معاً، وتحت كلمة الزواج ووعده خدع ابنتى، ولا يريد أن ينجز كلمته، ومع أن الدوق سيدى يعرف بالأمر، إذ شكوت إليه، ليس مرة بل مرات، وطلبت منه أن يأمر ابن المزارع هذا بالزواج من ابنتى إلا أنه لا يجب الاستماع إلىّ، والسبب لأن الأب غنى، ويقرض الدوق نقوداً، ويظهر ضامناً لحيله في لحظات، من ثم فإنه لا يجب أن يغضبه أو يثقل عليه في شيء، بأية حال من الأحوال. وأحب، يا سيدى، أن تأخذ على عاتقكم التخلص من هذا العار، إما بالرجاء، وإما بالسلاح، فطبقاً لما يقوله العالم بأجمعه، من أنك ولدت فيه نحو العدوان، وعدل المائل، وإجارة البؤساء، وضع فخامتكم أمامكم يتم ابنتى، وظروفها وشبابها، مع كل المحاسن التى تمتلكها، فبحق الله ودخيلة نفسى، إنه مع كثرة الصبايا في خدمة سيدتى لا توجد واحدة منهن ترقى إلى كعب حذائها، وهناك واحدة يطلقون عليها ألتسيدورا، التى يرون فيها الأجل والآتى، وهذه لو قارناها معها لا تقترب من ابنتى ولا بفرسخين. ولأنى أحب أن تعرف، فخامتكم، سيدى، أن ليس كل ما يلمع من الذهب، لأن هذه الألتسيدورا، لديها من التكلف أكثر من الحسن، ومن عدم الحياء أكثر من الحياء، بجانب أن صحتها ليست جيدة جداً؛ فلها نفس رائح، حتى

إن أحدًا لا يحتمل القرب منها لحظة! وحتى سيدتى الدوقة أحب أن أصمت، فهم يقولون إن الجدران لها آذان.

سأل دون كيخوتى:

— ماذا عند سيدتى الدوقة، بحياتى قولى يا سيدة رودريجيث.

أجابت القهرمانه:

— أقسم على أنى لا أستطيع ألا أن أجيبك على ما تسأل وبكل صدق. هل ترى،

يا سيد دون كيخوتى، حسن سيدتى الدوقة، تلك البشرة لوجه لا يشبهه إلا

السيف المصقول فى جلاء والأملس فى صفاء، وذينك الحدين من اللبن، ومن

الورد المتضرم، فى أحدهما القمر وفى الآخر الشمس، وذلك التبخر الذى

تنظم به خطواتها، وتزدرى خلاله الأرض، مريقة فوق سطحها الصحة أينما

سارت؟ إذن، اعرف فخامتكم، أنها عليها أن تشكر الله لهذا أولاً ثم

الينوعين^(*) اللذين لها فى الرجلين الاثنتين، حيث يتم عن طريقهما صرف

كل المزاج السيئ الذى يقول الأطباء إنها به مليئة.

قال دون كيخوتى:

— سانتا ماريا يا عدرا! هل من الممكن أن سيدتى الدوقة بما هذه المصارف؟ ما

كنت لأعتقده حتى لو قاله لى الرهبان الحفاة، لكن إذا قالته السيدة دونيا

رودريجيث، يجب أن يكون ذلك كذلك. لكن هذه الينابيع وفى هذه الأماكن

(*) نوع من الدمامل، والقروح (نواسير)، وربما فتحات دائمة يحدثها الأطباء باعتباره نوعاً من

أنواع الفصد، للتخلص من المزاج السيئ.

لا ينبغي أن يتدفق منها المزاج، وإنما العبر السائل. وحقيقة، والآن فقط بدأت أعتقد أن موضوع فصد الينابيع يجب أن يكون شيئاً مهماً للصحة.

ولم يكد دون كيخوتى ينتهى من هذه العبارة، حتى فتحوا أبواب المخدع بضربة عظيمة، ومع فزع الضربة سقطت الشمعة من يد دونيا رودريجيث، وبقيت الغرفة مثل فم ذئب، كما تعودوا وصف الظلام. أحست القهرمانة المسكينة أنهم يقبضون على حنجرتها بيدين قويتين لم تتركا لها فرصة التأوه، وشخص آخر، بسرعة خاطفة ودون نطق كلمة واحدة، رفع ذيل ثوبها، وفيما يبدو بفرودة حذاء بدأ يسوطها كثيراً، وكانت مَحْرَنَة؛ ومع أن دون كيخوتى كان صاحب المحزنة فإنه لم يتحرك من السرير، ولم يعرف ما يمكن أن يكون ذلك، وبقي ساكناً وصامتاً، وحتى خائفاً أن ينتقل إليه الجلد ويأتى دوره. ولم يكن خوفه عبثاً، لأنه بعد أن تركوا القهرمانة مطحونة (ولم تجرؤ على الشكوى)، توجه الجلادون الصامتون مسرعين إلى دون كيخوتى وفكوا عنه ملاءته الملفوف بها، ورفعوا عنه غطاء السرير الذى يغطيه و قرصوه و خمشوه بوفرة وبقوة، فلم يستطع أن يدافع عن نفسه بقبضته، وكل هذا فى صمت مدهش. دامت المعركة تقريباً نصف ساعة؛ وخرجت الأشباح، لملمت دونيا رودريجيث ثوبها، وفى عواء لنكبتها خرجت من الباب خارج المخدع، دون أن تقول كلمة لدون كيخوتى، والذى من الألم والضرب، ظل محتاراً متفكراً، وبقي وحده، حيث سوف نتركة نقتله الرغبة فى معرفة من الساحر المعادى، الذى دبر له هذا، لكن ذلك سوف يقال فى وقته، فسانشو بانثا ينادينا، وإيقاع القصة يتطلبه.

الفصل التاسع والأربعون

ما حدث لسانشو بانثا فى جولة ليلية لتفقد ولايته.

تركنا الحاكم العظيم غاضبًا ومكتئبًا بسبب المزارع الرسام، والمكار الساخر، والذي تمت صنعته بإيحاء من رئيس الخدم، للعبث مع سانشو، لكنه صمد أمام الجميع، رغم أنه عبيط، وسمين وأجش، وقال لمن كانوا معه، وللدكتور بدرو ريثيو، الذى عاد بعد نهاية سر خطاب الدوق إلى الصالة:

- الآن بحق، أعرف أن القضاة والحكام عليهم أن يكونوا من برونز، حتى لا يحسوا بلحاجة أصحاب الحاجات، الذين يودون أن ينصتوا إليهم فى كل ساعة، وفى كل الأوقات، مهتمين فقط بحاجاتهم، وليحدث ما يحدث، وإذا القاضى المسكين لم يستمع إليهم ويقضى بينهم، إما لأنه لا يستطيع، أو لأن ذلك الوقت ليس وقت التفويض لعمل جلسات استماع، فى الحال يلعنونه ويطلقون الشائعات، ويقضون عظامه ويسبون أجداده. يا صاحب الحاجة لتقديم دعواك، لا تحضر فى ساعة الطعام، ولا فى ساعة النوم، فإن القضاة من لحم وعظم، وعليهم أن يهبوا الطبيعة ما تطلبه منهم بشكل طبيعى، وإذا أنا لم أعط طبيعتى الطعام، بفضل السيد الدكتور بدرو ريثيو (ألق بنفسك إلى الخارج)، والذي هو أمامى، فإنه يجب أن أموت من الجوع، ويؤكد أن ذلك

الموت حياة. ليعطه الله نفس هذه الحياة، ولكل من لهم مهنته، أقول فقط للأطباء الجهلة، أما الأطباء الممتازون فالتصفيق والغار.

كل من كانوا يعرفون سانشو بانثا اندهشوا مستمعين إليه، وهو يتكلم بكل هذه الأنفة، ولم يعرفوا إلى ماذا يرجعون ذلك؟ أو اللهم إلا إلى حيرتهم طارحين السؤال: هل المهن والمناصب الخطيرة تشخذ الذكاء أم تتعثر به؟ أخيراً، الدكتور بدرو ريثيو الفأل دى (ألق بنفسك إلى الخارج) وعد أن يعطيه عشاء تلك الليلة حتى لو كسر كل وصفات أيوبقراط. وبهذا بقى الحاكم مسروراً، ينتظر الليل بشوق عظيم، كى تصل ساعة العشاء، لكن على ما ظهر كان الوقت ساكناً لا يتحرك من مكانه، ومع ذلك وصلت الساعة الموعودة، وأعطوه العشاء لحمًا بقرًا متبلاً بالبصل، ولحم بقر عجاليًا مطبوخًا شديد الطراوة. أسلم نفسه للطعام بكل اللذة التى كانت أعظم من لذة إعطائه أجود لحوم الحيوان والطيور المشهورة بها ميلانو وروما وسورنتو ومورون ولاباخوس. وخلال العشاء التقت إلى الدكتور، وقال له:

- انظر أيها السيد الطبيب، من الآن فصاعدًا، لا تحاول إعطائى لأكل أشياء فيها تدليل أو أطعمة لذيذة، لأن معنى ذلك إخراج معدتى من مخطمها، فالمتعود على لحم الماعز والبقر، واللحم المقدد، والشحم، وشحم الخنزير والبصل، هل من المعقول أن يقدم له أطعمة القصور، فيستقبلها بتدلل، ومرات بتقزز؟ الذى يستطيعه خادم المائدة هو أن يقدم له (الحلّة) المشكلة من كل اللحوم، وكلما زادت بها الأنواع، تفوح لها رائحة أفضل، وفيها يمكن ضم كل ما يحبه هو، فكما أنها أشياء تؤكل، فإنى سأشكر له تقديمها، وسوف أسدده له يوماً من الأيام، ولا يلعب أحد معى، لأنه إما نكون أو لا نكون، لنعيش جميعًا ولناكل فى سلام وفى صحبة، لأن الله عندما يأتى بالصباح يأتى به من

أجل الجميع وأنا سوف أحكم هذه الولاية دون أن أضيع حقًا أو أقبل رشوة، وعلى الجميع، أن يفتح عينيه، ويهتم بما يعنيه، لأننى أريد أن أعلمكم أن الشيطان لا يعدم وسيلة لإيجاد الشغب في مكان ما، وإذا أعطوني فرصة لا بد أن تروا عجائب.

قال خادم المائدة :

- يقينًا، أيها السيد الحاكم، فإن سيادتكم معك أكبر الحق في كل ما قلت، وإنى أقدم نفسى باسم كل سكان الولاية الذين عليهم خدمة فخامتكم بكل الانضباط والحب والرضا، لأن الطريقة الناعمة للحكم التى أظهرها فخامتكم في هذه الأيام تدل على أنه لا مكان لهم لعمل، ولا حتى التفكير في عمل يتحول ضد فخامتكم.

أجاب سانشو:

- هذا ما اعتقده، وسيكونون حقى إن عملوا أو فكروا في شيء آخر. وأعود للقول، يجب الاهتمام بغدائي وبغذاء هارى، الذى هو في كل هذا الأمر يهمنى، ويستحق وضعه في الاعتبار، ولكونها ساعة الدورية الليلية، فإن نيتي تنظيف هذه الولاية من كل دنس، ومن الناس الضالة والكسالى، وسيئة اللهو، حيث أود أن تعرفوا، أيها الأصدقاء، أن الناس العاطلة والكسلانة هم في البلد مثل ذكور النحل في الخلية، تأكل عسل العاملات من شغالة النحل. وأفكر في مناصرة المجتهدين، وحفظ أفضليتهم على الأعيان، ومكافأة الفضلاء، وقبل كل شيء تقديم الاحترام، والتكريم للمتدينين. كيف يسدو لكم ذلك، يا أصدقائي؟

قال رئيس الخدم:

- تقول، فخامتكم، أيها السيد الحاكم، الكثير، وإنني لمندھش أن أرى رجلاً غير متعلم، على ما أعتقد، مثل فخامتكم، يقول أشياء كثيرة مليئة بالأحكام والتحذيرات، تخرج تمامًا عما تصوره عن ذكائك وتوقعوه، وما تصورنا نحن من جننا معك. في كل يوم نشهد أشياء جديدة في العالم، والخدم تتحول إلى واقع، والمخادعون يجدون أنفسهم مخدوعين.

وصل الليل ودخل، وتعشى الحاكم وأكل، مع موافقة السيد الدكتور ريثيو الفأل. اتجهوا لجولة تفقد الأحوال، وخرج الحاكم مع رئيس الخدم، وخادم الصلاة، وكاتب الأحكام والتقارير الذى حرص على تسجيل أعماله، والمأمير القضائيين، والكتبة، والكثيرين، حتى إنهم جميعاً يمكنهم تشكيل نصف كتيبة. سار سانشو فى الوسطة، بصولجانه، وليس بعد رؤية أبته أبته، ولم يبتعدوا إلا بعدة شوارع حين سمعوا ضجيج طعنات، فهرعوا إلى مصدر الصوت، ليجدوا رجلين فحسب يتشاجران، وهذان عند رؤية العدالة قادمة، أصابهما التجمد، قال أحدهما:

- ها قد جاء قانون السماء والأرض! كيف يمكن معاناة أن يسرقوا الواحد فى قلب العمار، ويخرجوا للسطو فى عرض الشارع؟

قال سانشو:

- اهدأ أيها البار، واحك لى سبب هذه المشاجرة، فأنا الحاكم.

فأجابه الخصم الآخر، وقال:

- أيها السيد الحاكم، سأقول لك ذلك بكل اختصار. لتعلم فخامتكم أن هذا الرجل الشجاع قد انتهى حالاً من تحقيق مكسب كبير فى هذه الدار التى

تدار للقمار، وقد بلغ مكسبه ألف ريال، والله يعلم كيف كسبها، إذ كنت حاضراً، وحكمت لصالحه في أكثر من مرة لحظة المشكوك فيه، ضد كل ما عليه على الضمير، وخرج بمكسبه، حيث كنت أنتظر أن يعطيني ديناراً، على الأقل، ثمناً رخيصاً لعملى، وهى عادة وعرف أن يدفعوا مثل ذلك للرجال الرئيسيين مثلى، فنحن نحضر في مواجهة الأحداث الطيبة والسيئة، وحتى نؤيد الظلم والتعسف، ونحول دون المشاجرات، وهو قد دس نقوده في جيبه، وخرج من دار القمار. وخرجت مغضباً وراءه، وبكلمات طيبة ومؤدبة طلبت أن يعطينى ولو حتى ثمانية ريالات، وهو يعلم أنى رجل شريف، وليس لى شغلة أو مشغلة، لأن والدئى لم يعلمانى، ولم يتركالى مهنة، والداهية الساخر، الذى هو لص أكثر من كاكو، ومحتال أكثر من أندرادئى، لم يقبل إعطائى أكثر من أربعة ريالات. فانظر فخامتكم، أيها السيد الحاكم، أى قلة (حيّاً)، وأى انعدام ضمير! لكن يميناً إذا لم تكن فخامتكم قد وصلت، كنت سأجعله يتقياً مكسبه.

سأل سانشو الأول:

- وماذا تقول أنت عن هذا؟

أجاب الآخر أن كل ما قاله حقيقى، وأنه لم يحب إعطاه أكثر من أربعة ريالات، لأنه تعود على إعطائه هذا المبلغ مرات كثيرة، والذين ينتظرون الكسب الرخيص عليهم أن يكونوا مهذبين، وأن يقبلوا بوجه سمح ما يعطونهم، دون أن يحاسبوا من يكسبون، إذا لم يتيقنوا أن هؤلاء محتالون وأن مكسبهم حقه الغش، وعلامة على أننى رجل غير غشاش، وأننى لست لصاً، كما يقول هو، أقول، بل

أكبر علامة عدم رغبتى فى إعطائه شيئاً، لأن الغشاشين دافعو ضرائب دائماً لللباصين الذين يعرفونهم.

قال كبير الخدم:

— هذا هو الأمر، انظر فخامتكم، أيها السيد الحاكم، ماذا ينبغي عمله مع هذين الرجلين.

أجاب سانشو:

— ما ينبغي عمله هو هذا، أنت أيها الراجح، سواء كنت طيباً أو غشاشاً، أو حتى غير مبال بالأمرين، أعط في الحال لخصمك هذا مائة ريال، كما أنه عليك بدفع ثلاثين ريالاً لفقراء السجن، وأنت يا من ليس لك شغل أو مشغلة، وجودك هنا فائض عن الحاجة، خذ هذه الريالات المائة، وغداً اخرج خلال النهار منفياً من هذه الولاية، وإذا كسرت هذا الأمر، سوف تنفذه في الحياة الأخرى معلقاً لرقبتك في المشنقة، وهذا الحكم على الأقل طوال مدة حكمى، ومن يعترض له عقاب موجه.

دفع الأول، وتسلم المبلغ الثانى، وهكذا خرج من الولاية، وذلك ذهب إلى

بيته، ومضى الحاكم يقول :

— الآن ما أستطيعه قليل، أو أغلق دور القمار هذه، حيث ألح أنها شديدة الضرر.

قال الكاتب:

— هذه الدار، على الأقل، قد لا تستطيع فخامتكم إغلاقها، لأنها ملك شخصية مهمة جداً، فضلاً عن أنه دون مقارنة، فإن ما يخسره فى العام أكثر مما يستخرجه من لعب الورق. لكن فخامتكم يمكنكم إبراز سلطنتكم ضد دور

قمار أخرى أقل أهمية، وهي الدور التي تحقق أضرارًا أكبر، وتغطي مصائب أكثر؛ فإن في دور قمار الشخصيات المهمة، لا يستطيع المختالون ممارسة حيلهم ولا يجرءون، ولتعلم أن اللعب قد أصبح ممارسة عامة، وبالتالي فاللعب في دار محكمة خير من اللعب في منازل الأشرار، حيث يقبضون على أى تعيس في منتصف الليل ويسلخونه حيًّا.

قال سانشو:

– الآن أيها الكاتب أنا أعلم أن هناك الكثير الذى ينبغي قوله بهذا الصدد.

وهنا وصل أحد الخفراء، محضرًا شابًا من تلابيبه، وقال :

– أيها السيد الحاكم، هذا الصبي كان قادمًا نحونا، وهكذا عندما لاحظ العدالة في مواجهته، أدار ظهره، وشرع يجرى مثل غزال شارذ، دليلاً على أنه لا بد أحد المجرمين؛ وأنا لحقت به، ولولا تعثره لما أدركته.

سأل سانشو:

– لماذا كنت تهرب أيها الشاب؟

أجاب الشاب:

– سيدي، للتخلص من الإجابة على الأسئلة الكثيرة التي توجهها العدالة.

– أى عمل تقوم به؟

– نسّاج.

– وماذا تنسج؟

- حديد للرماح، برخصة من فخامتكم!

- هل تريد القول: "أنا ظريف!"؟ أو هل تتعابث بالبذاءة؟ هذا طيب! إلى أين كنت تسير الآن؟

- سيدى، أشم الهواء.

- وأين يُشم الهواء في هذه الولاية؟

- حيث يهب.

- جيد، ها أنتم تجيئون بما يناسب، أنت ذكى أيها الشاب، لكن اعمل حسابك أنفى الهواء، وأننى أهب خلفك، وأدفعك نحو السجن! اقبضوا عليه على الرحب، واحملوه حتى أعمل على أن ينام هناك دون هواء هذه الليلة.

- بحق الله! فخامتكم غير قادر على جعلى أنام في السجن لأنك لو فعلت فأنت قادر على جعلى ملكاً.

- إذن، لماذا لا أقدر على جعلك تنام في السجن، أليست لدى السلطة للقبض عليك أو الإفراج عنك كل مرة أريد ومتى أريد؟

قال الشاب:

- مهما زادت سلطتك لن تكون كافية لجعلى أنام في السجن.

أجاب سانشو:

- وكيف لا؟ احملوه في الحال حتى يرى بعينه الإحباط، وحتى لو أراد قائد السجن إطلاقه لكرمه المنفعى، فإن ساعاقبه بألفى جلدة.

أجاب الشاب:

- كل هذا أمر يضحك، المسألة أنه لن يستطيع جعلى أنام في السجن كل من هم أحياء اليوم على وجه الأرض.

قال سانشو:

- قل لي أيها الشيطان، هل لديك ملاك حارس سوف يخرجك ويفك قيودك التي أفكر في إرسالك لربطك بها؟

أجاب الشاب في ملاحظة شديدة:

- الآن، سيدي الحاكم، لنعقل الأمر، ولنضع أيدينا على حجر الزاوية، حكم فخامتكم يارسالي إلى السجن، وفيه يلقون إلى بالقيود والسلاسل، ويضعوني في زنزانة مغلقة، وسوف يفرض على القائد عقوبات صارمة إذا تركني أخرج، وهو سوف ينفذ كل ما تأمر، ومع كل هذا إذا أنا لم أرد أن أنام، وأردت البقاء مستيقظاً طول الليل دون أن أغمض رمشاً، فهل ستصبح فخامتكم مع كل سلطتكم قادراً على جعلي أنام إذا لم أرد؟

قال السكرتير:

- لا، يقيناً، ولقد خرج الصبي بما يريد!

قال سانشو:

- ولن تترك النوم لأي سبب غير إرادتك عدم النوم، وليس لمعارضة إرادتي.

- ولا حتى يخطر على بالي معارضة إرادتكم، هذا لا، يا سيدي.

- إذن، اذهب سالماً، ونم في بيتك، وأحلام سعيدة، ونوم هانئ لا أحب أنا حرمانك منه، لكن انصح نفسك ألا تمزح بعد ذلك مع العدالة، لأنك قد تتعثر ذات مرة فتودى مزحتك برأسك.

وذهب الشاب، وواصل الحاكم جولته، وبعد قليل ظهر خفيران، يحضران

رجلاً مقبوضاً عليه، وقالوا:

- أيها السيد الحاكم، هذا الذي يبدو رجلاً ليس كذلك، وإنما هو امرأة، وليست قبيحة، وإن كانت ترتدي ثياب رجل.

سقط على وجهها ضوء ثلاثة أو أربعة فوانيس، وعلى ضوءها اكتشفوا وجه امرأة، حول السادسة عشرة من عمرها على ما يبدو، وشعرها ململم بشبكة من ذهب وحرير أخضر، وحلوة مثل ألف لؤلؤة. نظروا إليها من أعلى إلى أسفل، ورأوا أنها ترتدي جوارب من الحرير الأحمر، مربوطة بأشرطة بيضاء ممتزجة بخيوط من الذهب وسقط اللؤلؤ، والسرابيل كانت خضراء من نسيج مذهب، وغطاء للرأس أو قبعة من نفس النسيج، وصديري من نسيج رقيق من الذهب والقطن، والحذاء كان أبيض، وهو رجالي. لم تكن تتحزم بسيف، وإنما بخنجر فخيم، وفي الأصابع خواتم كثيرة وثرية. وأخيراً الصبية ملأت عيون كل الحضور، ولا أحد منهم تعرف عليها، وأهل القرية قالوا إنهم لا يستطيعون الحدس بمن هي، أما العارفون بالخدعة التي يعيشها سانشو فقد كانوا أكثر المتعجبين، لأن هذه الواقعة ليست مرتبة على أيديهم، ولهذا اعترتهم الشكوك منتظرين كيف سينتهي هذا الأمر. بقى سانشو مخلوب اللب بجمال الفتاة، وسألها من تكون وإلى أين تذهب، وأي مناسبة دفعتها لارتداء ثياب الرجال، وهي زرعت عينها في الأرض معبرة عن خجل رفيع الشرف:

- لا أستطيع يا سيدي الكلام أمام الجميع عما حاولت كثيراً جعله سرّاً، والآن شيء أحب أن تفهموه، لست لصة أو من الأشرار، وإنما صبية تيمسة، بسبب قوة الغيرة كان عليها أن تكسر بعض المظاهر التي تقتضيها الأمانة.

عند سماع رئيس الخدم ذلك قال لسانشو:

- اعمل أيها السيد الحاكم على إبعاد الناس عنا، لأن هذه السيدة مع زحام أقل يمكنها أن تقول ما تريد.

أمر الحاكم بذلك، وابتعد الجميع ما عدا رئيس الخدم، وخادم صالة الحاكم، وسكرتيره، وعند رؤيتها منفردة معهم، واصلت الصبية كلامها:

- أنا أيها السادة ابنة لبدرو بريث موثاركا، تاجر الصوف في هذه القرية، وهو يعتاد الذهاب إلى بيت أبي مرات عديدة ...

قال رئيس الخدم:

- هذا غير مستقيم، سيدتى، لأننى أعرف ببدرو بريث جيداً، وأعرف أنه ليس له أى أولاد، وتقولين إنه أبوك ثم تضيفين أنه أعتاد الذهاب مرات عديدة إلى بيت أهلك؟

قال سانشو:

- لقد أدركت نفس الشيء.

- الآن أيها السادة أنا مضطربة ولا أدرى ما أقول؟ ولكن الحقيقة أننى ابنة دييجو دى يانا، الذى لا بد أن يعرفه معظم فخاماتكم

أجاب رئيس الخدم :

- وهذا، حتى الآن غير مستقيم؛ فأنا أعرف دييجو دى يانا، وأعرف أنه من الأعيان المهمين، وغنى، وأنه لديه ابن وابنة، وبعد أن ترملا لا يستطيع أحد فى هذه القرية أن يزعم أنه رأى ابنته، التى يحتجزها وراء أستار، حتى إن الشمس لا تستطيع أن تراها، ومع ذلك فالمشهور أنهما ذات جمال وصل المدى.

أجابت الصبية :

- هذه هى الحقيقة، وتلك الابنة هى أنا، وإذا كانت الشهرة صحيحة أو غير صحيحة حول جمالى، فهذا أنتم قد نالكم الإحباط إذ قد رأيتمونى.

وهنا بدأت في البكاء في نهضة رقيقة، وعند رؤية السكرتير لذلك، وصل إلى أذن خادم الصلاة، وقال له في ببطء شديد:

- لا شك أن هذه الصبية المسكينة، لا بد أن وقع لها حادث خطير، وإلا... تلك الثياب، وهذه الساعة المتأخرة، وخارج البيت تسعى، وهي بنت ناس!
أجاب خادم الصلاة :

- لاشك في هذا، ويؤيد هذا الشك دموعها.

سرّى عنها سانشو بأفضل ما استطاع من عبارات، وقال لها أن تحكى له كل ما حدث لها دون أدنى خوف، فإن الجميع سوف يعالجون الأمر بكل صدق، وعبر كل السبل المتاحة.
وهي أجابت:

- القضية، أن أبي تركنى وراء باب مغلق منذ عشر سنوات، وهي السنوات التي كانت الأرض تأكل فيها جسم أمى، وفي البيت تتم الصلاة في مصلى فخم. وخلال كل هذا الوقت لم أر إلا شمس السماء نهاراً، والقمر والنجوم ليلاً، لا أعرف ما هي الشوارع ولا الميادين ولا المعابد، ولا حتى رجال غير أبي أو أخي، أو بيدرو بيريث تاجر الصوف، بسبب دخوله المعتاد في بيتنا. هذا الإغلاق واستنكار خروجي إلى الشارع، ولو حتى إلى الكنيسة، منذ شهرين وأيام أوصلني إلى فقدان الراحة، فقد أحببت أن أرى العالم، أو على الأقل القرية التي ولدت فيها، فهذه الرغبة ليست ضد الحشمة المحترمة التي ينبغي أن تتمسك بها الصبايا أولاد الناس للمحافظة على أنفسهم. وعندما سمعت أن هناك مصارعة ثيران ولعب العصا للفرسان ويمثلون كوميديات، سألت

أخى، وعمره أقل من عمرى بسنة، أن يقول لى ما هى تلك الأشياء؟ وما هى الأشياء الأخرى الكثيرة التى لم أرها؟ وكان يجيبني بأفضل ما يستطيع، وكان ذلك سبباً فى إشعال الرغبة داخلى لرؤية ما سمعت عنه، وأخيراً، حتى أختصر القصة، أقول بأننى رجوت أخى، الذى لم أرجه أو أطلب منه شيئاً قط ...

وعاد النقيب من جديد، قال لها رئيس الخدم:

- واصلى، فخامتك، أيتها السيدة، وانتهى من حكاية ما حدث لك، فإن كلماتك تركنا جميعاً معلقين بها مثل دموعك.

أجابت الصبية:

- ما بقى قوله قليل، مع أن البكاء، نعم، طويل، لأن الرغبات سيئة الترتيب لن تحمل معها إلا الخسارة.

استقر جمال الصبية فى وجدان خادم الصالة، وأسقط عليها نور فانوسه كى يراها من جديد، وبدا له بكاءها لم يكن دموعاً بل حبات لؤلؤ أو قطرات ندى المروج، بل تفوق هذه وتلك بنقطة لترقى إلى لؤلؤ الشرق، وتمنى ألا تكون تعاستها كبيرة كما يشير نحيبها وتنهاداتها. يئس الحاكم من تباطؤ الفتاة فى ذكر حكايتها، وطلب منها أن تنهى حالة الإنصات المعلق للجميع، وقد تأخر الوقت، وبقى الكثير من الجولة الليلية. هى بين الشنفة والنهفة، والتنهدات المشوهة التشكيل، قالت:

- ليست مأساتى أكثر من أنى رجوت أخى أن يلبسنى ثوب رجل مستخدماً ثيابه، وأن يخرج بي فى إحدى الليالى لأرى كل القرية خلال نوم والدى، وهو خاضعاً لإلحاح رجاءاتى، لبست ثوبه ولبس ثوبى، الذى لاق عليه كما لو

كان قد ولد به، لأنه ليس له شعر لحية ولا يبدو عليه إلا أنه صبية شديدة الحسن، وخرجنا من البيت هذه الليلة منذ حوالي ساعة يقودنا شابنا وتيار المزاح، ودرنا بكل القرية، وحينما أحببنا العودة إلى البيت، رأينا زمرة كبيرة من الناس، وهكذا قال لي أخي: "أختاه، هذه لا بد أنها الدورية الليلية، خفسي قدميك وضعي فيهما أجنحة، واتبعيني جرياً، حتى لا يعرفونا. وعند قوله هذا أدار ظهره وشرع، لا أقول، في الجرى، وإنما في الطيران، وأنا في أقل من ست خطوات وقعت من الفزع، وهنا وصل ممثل العدالة، الذى أحضرني بين أيديكم، حيث أراني لسوء سلوكي خجلانة أمام كل هذه الجمهرة من الناس.

قال سانشو:

- بالفعل، سيدتى، ألم يحدث لك أى ضرر آخر أو أذى كما ذكرت في بداية قصتك، وأهم لم ينتزعوك من بيتك؟
- لم يحدث لي شيء ولم يصبنى أذى، فقط الرغبة في رؤية العالم الذى لا يتسع وراء شوارع هذه القرية.

وقد أكد صدق ما قالت الصبية وصول خفير آخر بأخيها مقبوضاً عليه، عندما أدركه وهو يهرب سابقاً أخته. لم يكن يلبس سوى ثوب نسائي فاره، وخمار من الحرير الدمشقى الأزرق مثبت بقياطين من الذهب الخالص، والرأس دون تزين يتجاوز شعره الذى كان حلياً ذهبياً، حيث كان خالص الشقرة أجعد. أخذته على جانب الحاكم ورئيس الخدم وخادم الصلاة، ودون أن تسمعه أخته سألوه كيف ارتدى هذا الثوب؟ وكيف فعلت أخته العكس؟ أجاب ليس بخجل وحياء بأقل من أخته، مردداً نفس ما قالته أخته، مما أثلج صدر خادم الصلاة الذى غرق فى

عشقها. لكن الحاكم قال لهم :

- يقيئًا، أيها السادة، لقد كنا أمام صبيانيات، ولحكاية هذه السفاهة لم يكن هناك حاجة لهذه الدموع الغزيرة والتنهيدات، فإنه بقول "نحن فلان وفلانة، خرجنا للتنزه من بيت والدنا، بهذا الاختراع، فقط من أجل الفضول، دون أى قصد آخر". وتنتهى القصة، دون البكبة والنهنية، وهات وخذ.

أجابت الصبية:

- هذا حق، لكن لتعلم فخامتكم أن الاضطراب الذى أصابنى كان عظيمًا، فلم يسمح بوضع الأمور فى مكانها .

أجاب سانشو:

- لم نخسر شيئًا، وهيا بنا وسترككما فى بيت أبيكما، ولعله لم يدرك غيابكما. ومن الآن فصاعدًا، لا تكونا بمثل هذه الصبيانية، ولا بمثل هذه الرغبة لرؤية العالم، فالصبية الشريفة، مكسورة الرجل، لا تغادر البيت^(٦)، والمرأة والدجاجة عند الخروج يتوهان بسهولة فى المروج، والتي ترغب فى أن ترى، أيضًا ترغب فى أن يروها، ولن أتكلم أكثر.

شكر الصبى الحاكم إنعام إعادتهما إلى البيت، وهكذا اتجهوا نحوه، ولم يكن بعيدًا. وحين وصولهم ألقى الأخ حصوة من القضبان، وفى الحال هبطت خادمة كانت تنتظرهما، وفتحت لهما الباب، وهما دخلا تاركين الجميع مندهشين من ظرفهما، مثلما تعجبوا من رغبتهما فى رؤية العالم ليلاً، ودون الخروج من القرية،

(٦) يشير لمثل تكرر فى هذه القصة، ويتلوه مثل آخر.

لكن نسبوا كل هذا لعمرهما الغض. تم الاستيلاء على قلب خادم الصلاة، واقتراح طلب يدها فى اليوم التالى على زوجة أبيه، متأكدًا أنهم لن يرفضوه لكونه أحد خدم الدوق، أما بالنسبة لسانشو فقد مرت بخاطره رغبة وخيالات بأن يزوج الصبى أختا الصبية لسانشيكيا، ابنته، وقرر أن يناقش الأمر فى وقته، متصورًا أن أى زوج لن يستطيع أن يرفض ابنة الحاكم.

بهذا انتهت دورية هذه الليلة، ومن ذلك اليوم حتى مرور يومين انتهت الحكومة ذاتها، ومعها ستنتزع وتُمحى كل مقاصده، كما سنرى فيما هو قادم.

الفصل الخمسون

حيث يعلن عن السحرة والجلاد الذين جلدوا القهرمانه، وقرصوا وخمّسوا دون كيخوتى، مع الواقعة التى شهدها الخدام الذى حمل الخطاب إلى تيريزا سانشا زوجة سانشو بانثا

يقول سيدى حامدى، وهو حارس دقيق على ذرات هذه القصة الحقيقية، إنه فى لحظة خروج دونيا رودريجيث من غرفتها للذهاب لغرفة دون كيخوتى، أحست بها قهرمانه أخرى تشاركها غرفتها، وكما أن كل القهرمانات صديقات للمعرفة والفهم والتشمم، ذهبت وراءها فى صمت تام، حتى إن رودريجيث الخالية البال لم تلاحظها، وهكذا كما رأتها القهرمانه تدخل غرفة دون كيخوتى، وحتى لا تفقد العادة العامة لكل القهرمانات اللائى لا بد أن يكن نامات، فى الحال ذهبت لحكاية الأمر للدوقة، وكيف أن دونيا رودريجيث موجودة فى غرفة دون كيخوتى. نقلت الدوقة الخبر للدوق، وطلبت منه إذناً حتى تذهب هى مع ألتسيدورا لرؤية ماذا تريد تلك القهرمانه من دون كيخوتى. أعطاهما الدوق الإذن، والاثنتان، على أطراف أقدامهما وهدوء خطوة بعد خطوة، وصلا لاتخاذ موقع بجانب مخدع دون كيخوتى، وقريب؛ حتى إنهما سمعا كل الكلام بالداخل، وعندما سمعت الدوقة أن رودريجيث ألفت إلى نور الشارع سر ينجبها، لم تستطع التحمل، ومثلها ألتسيدورا، وهكذا دخلتا فجأة المخدع مليئتين بالغضب، وراغبين فى الانتقام، لنقربص دون كيخوتى وتخميشه، مع جلد القهرمانه بالطريقة التى تمت حكايتها؛ لأن الإهانات التى تلحق مباشرة ضد حسن النساء وادعاءتهن توظف فيهن الغضب بوحشية، وتشعل شهوة النار.

حكّت الدوقة للدوق ما جرى، وأبهجه ما سمع، أما الدوقة فى مواصلة لنيّتها للعب الخدع وتزجية وقت الفراغ مع دون كىخوتى، أرسلت الخادم، الذى قام بدور دولثينيا فى حفلة السعى لفك سحرها (الأمر الذى نسيه سانشو بانثا بتقلد الحكومة)، إلى تيريزا بانثا، مع خطاب زوجها وخطاب آخر من طرفها مع عقد عظيم من المرجان الثمين هدية لها.

تقول القصة إن الخادم كان شديد الكياسة والذكاء، وبه رغبة لخدمة سيديده، ولهذا رحل بمزاج شديد الانتسراح إلى قرية سانشو، وقبل دخولها رأى عددًا من النساء يغسلن فى نهر صغير، فسألهن عما إذا كن يستطعن أن يقلن له عما إذا كانت تعيش فى هذه القرية سيده اسمها تيريزا بانثا، زوجة سيد معين اسمه سانشو بانثا، خادم لفارس يسمى دون كىخوتى دى لامانشا، وعلى سؤاله نهضت على قدميها صبية تغسل، وقالت:

- تيريزا بانثا هذه هى أمى؛ وسانشو ذاك هو السيد أبى، وذلك الفارس هو سيدنا.

قال الخادم:

- إذن، أيتها الصبية تعالى وقدمي لأمك، أحمل لها خطابًا وهدية من أبك ذاك.

أجابت الصبية، التى كان يبدو عمرها حول الرابعة عشرة:

- على الرحب والسعة، سيدى.

تاركة الملابس التى تغسلها إلى رفيقة لها، ودون ارتداء حذاء أو خمار، (وكانت حافية سافرة) مضت تتقافز أمام مطية الخادم، وقالت:

- هيا فخامتكم، فيبتنا فى مدخل القرية، وأمى به، حزينه جدًا لعدم معرفة شىء عن السيد أبى منذ أيام طويلة.

قال الخادم:

- إذن، ها أنا أحمل أخبارًا طيبة جدًّا، عليها أن تحمد الله عليها.

أخيرًا متواشبة متقافزة راقصة، وصلت الصبية إلى القرية، وقبل دخول البيت زاعقة من على الباب:

- أخرجى يا أمى، اخرجى تيريزا، فها هنا سيد يحمل خطابات وأشياء أخرى من أبى الطيب.

وعلى زعيقها خرجت تيريزا بانثا أمها غازلة ندفاً من نسيج تتسلل، مرتدية ثوبًا بنيًّا، وحسبما يظهر بدا قصيرًا قد تم تفصيله عند خياط لا حياء عنده، وفوقه صديرى أيضًا بنى فوق قميص قصير. لم تكن عجوزًا بشكل ظاهر، أظهر شكلها أنها فى الأربعين، لكن قوية، صلبة العود نافرة العروق، فى لون البنديق. ما إن رأت ابنتها والخادم فوق مطيته حتى قالت لها:

- ما هذا يابنت؟ أى سيد هذا؟

أجاب الخادم:

- إنه خادم لسيدتى تيريزا بانثا.

كى يطابق القول الفعل، وثب من على مطيته، وذهب بتواضع كبير ليركع أمام السيدة تيريزا، قائلاً:

- أعطنى يديك، سيدتى دونيا تيريزا، تمامًا بوصفك زوجة شرعية وخاصة للسيد دون سانشو بانثا، حاكم ولاية باراتاريا.

أجابت تيريزا:

- آى، أيها السيد، ابتعد عنى، ولا تفعل هذا، فأنا لست فى شىء من سيدات القصور، وإنما مزارعة مسكينة ابنة لفلاح قروى، وزوجة لحامل دروع مشاء، وليس لأى حاكم!

أجاب الخادم:

- فخامتكم زوجة مبدلة لحاكم عظيم؛ وبرهاناً على هذه الحقيقة تقبلنى فخامتكم هذا الخطاب، وهذه الهدية.

وسحب فى الحال من جيبه عقدًا من المرجان فى سلسلة من الذهب، ووضعها حول عنقها، وقال:

- هذا الخطاب من السيد الحاكم، والخطاب الآخر مع العقد من سيدتى الدوقة، التى أرسلتنى لفخامتكم.

بقيت تيريزا دون حراك، وابنتها لا تقبل عنها ذهولاً، قالت الصبية:

- ليقبلونى إذا لم يكن وراء ذلك سيدنا دون كىخوتى، الذى لا بد وأن أعطى لأبى الحكومة أو المقاطعة التى وعده بها مرات عديدة.

أجاب الخادم:

- تلك هى الحقيقة؛ فتقديرًا للسيد دون كىخوتى صار السيد سانشو الآن حاكمًا لولاية باراتاريا، كما سوف ترون فى هذا الخطاب.

قالت تيريزا:

- اقرأها لى أيتها السيد الظريف، فإننى رغم معرفتى الغزل لا أعرف القراءة ولو بصيصاً منها.

أضافت سانشيكا:

- ولا أنا أيضاً؛ لكن انتظرونى هنا؛ فسوف أذهب لأنادى من يقرأها، إما أن يكون القسيس بنفسه أو حامل البكالوريا شمشون كاراسكو، فأى منهما سوف يأتى طرباً لمعرفة أخبار عن أبى.

- لا يوجد سبب لمناداة أحد، فأنا لا أعرف الغزل، لكن أعرف القراءة، وسوف أقرأها.

وهكذا قرأها كاملة، حسبما رأيناها من قبل فلا نوردها هنا الآن. من ثم أخرج الرسالة الأخرى من الدوقة، وكانت تقول:

"صديقتي تيريزا: الصفات الطيبة لسماحة وذكاء زوجك سانشو، حركت مشاعري، وأجبرتني على أن أطلب من زوجي الدوق أن يعطيه حكومة ولاية من الولايات الكثيرة التي يملكها. وعندى أخبار أنه يحكم في روعة؛ الأمر الذي سررتي وسر الدوق سيدي بالتالي، ولهذا أقدم الشكر للسماء لعدم خداعها لي في اختياري له لتولى تلك الحكومة؛ لأنني أحب أن تعرف السيدة تيريزا أنه من الصعب وجود حاكم مخلص في العالم، وليكافئني الله على حسن حكومة سانشو.

أرسل إليك مع هذا عقدًا من المرجان في سلسلة من ذهب، وكان يسعدني أن يكون من لؤلؤ الشرق؛ لكن العين بصيرة واليد قصيرة، سيأتي الوقت كي نتعارف ونتواصل، والله يعلم الغيب. تحياتي لسانشيكَا، ابنتك، وقولي لها من طرفي أن تستعد، فعلى تزويجها أحسن زواج، في مفاجأة تسبق توقعاتها.

يقولون لي إن في قرابتكما أبو فروة غليظ، أرسلني لي حتى دستتين، فسوف أقدرها كثيرًا لكونها من يدك، واكتبي لي خطابًا طويلًا عن صحتك وعن رفاهيتك؛ وعمًا إذا كنت تحتاجين شيئًا، فليس عليك أكثر أن تفتحي فمك، وسيصير فمك المقياس، حفظك الله لي، من هذه القلعة.

صديقتك التي تحبك كثيرًا

"الدوقة"

قالت تيريزا عند الاستماع إلى هذا الخطاب:

- آى، أى سيدة طيبة ومتواضعة وبسيطة! فليدفتونى مع مثل هذه السيدات، وليس مع زوجات أعيان هذه القرية، اللاتى يعترهين الظن لكونهن من الأعيان أن الريح لا ينبغى أن تمسهن، ويذهبن إلى الكنيسة فى جو من الفنتازيا والعُجب كما لو كن نفس الملكات، ويعد ثلماً لشرفهن أن يرين إحدى الفلاحات، وانظروا هنا حيث سيدة عظيمة لكونها دوقة، تطلق على الصديقة، وتعاملنى كما لو كنا متساويتين، وإنى لأراها مساوية لأعلى برج أجراس كنيسة فى لا مانشا. وفيما يتعلق بأمر (أبو فروة)، سيدى، سوف أرسل إلى سعادتها (نصف كيلة)، من الضخامة حتى تصبح عجبة الناظر والرئى. والآن، سانشيكا، انتبهى إلى تدليل هذا السيد؛ قدمى العناية للجواد، والتقطى بيضاً من الحظيرة، وقطعى شرائح كافية من اللحم المقدد، وقدمى كل هذا الطعام، فإن الأخبار الطيبة التى أحضرها لنا، ووجهه السمع، يستحق كل شىء، وخلال ذلك سوف أخرج لنقل الأخبار الطيبة لجاراتى وللأب القسيس والأسطى نيكولاس الحلاق، فهم أصدقاء جداً، قد كانوا ويكونون لأبيك.

أجابت سانشيكا:

- نعم، سوف أفعل يا أمى، لكن انظرى فى إعطائى نصف هذا العقد؛ فأننا لا أرى سيدتى الدوقة بلهاء حتى ترسله كله لك.

أجابت تيريزا:

- كل شىء من أجلك، يا ابنتى، لكن دعينى فقط أحمله عدة أيام فى عنقى، لأنه حقيقة يبدو بهجة لقلبى.

قال الخادم:

- أيضاً ستزداد بهجة الاثنتين، عندما تريان اللفة التي في هذه الحقيبة، فيها ثوب من قماش بالغ الرقة، لبسه الحاكم يوماً واحداً فقط للصيد، ويرسله بأكمله للسيدة سانشيكا^(١).

أجابت سانشيكا:

- عاش لي (أبي) ألف عام، و(يجيب لي)، وحتى ألفى عام، إذا كان ذلك ضرورياً.

خرجت تيريزا من بيتها مع الخطابين، وبالعقد في صدرها، ومضت تلقى بالخطابات في الهواء عمل الخباز برقائق عجين الخبز، وما إن صادفها القسيس وشمشون كارأسكو، حتى بدأت في الرقص قائلة:

- يميناً لم يعد لدينا فقير في العائلة! الحكومة وأصبحت لدينا! ليس هذا فقط، ولكن انظروا فيّ، المرأة المرسومة أفضل من كل نساء الأعيان، ولسوف أعمل من تيريزا مخلوقاً جديداً!

- ما هذا، تيريزا بانثا؟ أى جنون أصابك، وأى أوراق في يدك؟

- ليس أقل من جنون ألما خطابات من دوقة، ومن حكام، وما في صدري مرجان كريم، عين الحسودا، وسلسلة من ذهب رنان، وأنا حاكمة زوجة حاكم!

- فلينزل إلينا الله، لا نفهم منك شيئاً، تيريزا، لا نعرف ماذا تقولين.

أجابت تيريزا:

- بهذه تستطيعون معرفة كل شيء.

(١) هذا من سهو ثريانتس، فسانشو ذكر قصة الثوب في خطابه الذي قرأه الخادم على تيريزا وابنتها، وبالتالي فلا محل للمفاجأة هنا أو للحوار الذي دار بين الخادم وسانشيكا.

وسلمتهما الخطابين، قرأهما القسيس بصوت مسموع وصل إلى أذنى شمشون كارأسكو، وأخذ شمشون ينظر للقسيس والقسيس ينظر إلى شمشون، فى دهشة مما سمعا من الخطابين. سألهما شمشون عن أحضر هذين الخطابين، أجابت تيريزا أنه يمكنهما صحبتها إلى بيتها حتى يريا الرسول، وهو صبى مثل حلية على صدر امرأة، وقد أحضر هدية أخرى تساوى أكثر من ثروة. نزع القسيس المرجان من رقبتها، ونظر إليه وأرجع النظر وأعاد، وشهد أنها أحجار كريمة، وعاد إلى التعجب من جديد، وقال:

- بحق ثياب الكهنوت التى ارتديها لا أدرى ما أقول أو أفكر، حول هذين الخطابين، وهذه الهدايا، ومن ناحية فإني ألمس وأرى ثمانية هذا المرجان، ومن ناحية أخرى أقرأ دوقة ترسل طالبة دستتين من (أبو فروة).
هنا قال كارأسكو:

- ننحى جانباً هذه التفصيلات، والآن لنذهب لنرى حامل هذه الأشياء؛ ومنه نستعلم عن الصعوبات التى تعوق فهمنا.

وهكذا كان، وعادت تيريزا معهما، وجدوه يغربل قليلاً من الشعير لجواده، كما وجدوا سانشيكا تقطع بعض شحم الخنزير لقلبه مع بعض البيض لتقدم الطعام لهذا الغلام الخادم. مظهره وزينة لباسه وحسن محضره سر الرجلين كثيراً؛ وبعد أن قدما له التحية فى أدب، ورد عليهما بمثلها، سأله شمشون عن أخبار دون كيخوتى وسانشو بانثا، فإنهما رغم قراءتهما خطاب سانشو، وخطاب السيدة الدوقة، فإنهما مازالا فى حيرة من أمرهما، ولم يفهما ذلك الشأن الخاص بالحكومة، وخاصة أنها حكومة ولاية، مع أن كل الولايات أو معظمها فى حوض المتوسط ملك لجلالة الملك، وعلى هذا أجاب الخادم:

- كون السيد سانشو بانثا حاكمًا، فهذا مما لا شك فيه، أما إن ما يحكمه ولاية أو لا، في هذا لا أدخل نفسي، لكن يكفي أنها قرية بها أكثر من ألف نسمة، أما موضوع (أبو فروة)، أقول بأن سيدتى الدوقة متواضعة جدًا وبسيطة جدًا، حتى إنها تطلب بعض ثمار (أبو فروة) من فلاحه، بل حدث أن أرسلت تستعير مشطًا من إحدى جارقاتها، وأنا أحب أن تعرفا فخامتكما أن سيدات أراجون، مع أنهن من علية القوم، لسن في تصنع وغطرسة سيدات قشتالة، فهن يعاملن أتباعهن في غاية النعومة والبساطة.

وفى وسط هذا الحديث خرجت سانشيكا وفى حجرها بعض البيض، وسألت الخادم:

- قل أيها السيد والدى بالصدفة، يرتدى حذاء بعنق^(٦) بعد أن صار حاكمًا؟
أجاب الخادم:

- لم أنظر إلى حذائه، لكن نعم لا بد أنه يرتدى ذلك الحذاء.
أجابت سانشيكا:

- آى، يا إلهى، كيف يكون مشهد أبى مزروعًا فى هذا الحذاء؟! إنه ليس مشهدًا جميلًا فحسب، بل منذ ميلادى وأنا تقتلنى الرغبة لرؤية أبى فى حذاء بعنق!
أجاب الخادم:

- إذا عشت سوف ترينه بمثل هذه الأشياء، وبحق الإله، فقط شهران فى الحكومة وسوف يسير بقناع على الوجه، يقيه الحر والبرد.

(٦) بداية مثل، ونهايته: " فلم يعرف رفيقه".

لاحظ القسيس وشمشون أن الخادم يتحدث بدهاء وسخرية، لكن ثمانية مرجان العقد، وثوب الصيد الذي أرسله سانشو حطم كل الشكوك (تيريزا أرتهم منذ قليل الثوب)، ولم يستطيعا تجنب الضحك من رغبة سانشيك، وخاصة عندما قالت تيريزا :

- أيها السيد القسيس، اجث عما إذا كان أحدهم مسافراً إلى مدريد أو طليطلة حتى يشتري لي قميصاً مستدير الصدر، جاهزاً وناجزاً، ويكون على اللبس مباشرة، ومن أحسن ما يوجد، لأنه في الحقيقة، أود أن أشرف حكومة زوجي كما أستطيع، وحتى حين أغضب وأجدني مجبرة على الذهاب إلى ذلك البلاط، راكبة عربة مثل كل زوجات الحكام، فإن هذا القميص يمكن أن يكون ضرورياً.

قالت سانشيك:

- كيف يا أماه! صلى لله أن يكون هذا اليوم قبل الغد، حتى لو قال عنى كل من يراني جالسة مع السيدة والدتي في تلك العربة: "انظروا فلانة وعلانة، ابنة محط الأنظار، وكيف أنها جالسة وممددة في العربة كما لو كانت بابوية الفخامة!" لكن ليخوضوا هم في الوحل، ولأمضى أنا في عربتي، مرفوعة أقدامي عن الأرض، (يا سنة سودا ويا شهر أغبر) على عدد السنة السوء والحسد في العالم، وأمشى أنا تلتهب خدودي، ويضحك الناس على ورودي! هل أحسنت القول، يا أماه؟

أجابت تيريزا:

- كيف تقولين، يا بنتي! وكل هذا الخير، وما تنبأ به لي سانشو الطيب يفوقه بكثير، وسوف ترين يا ابنتي وكيف لا، أني سأصير كونتيسة، والمسألة

فحسب أن يبدأ الحظ في الضحك، وكما سمعت أبوك يردد مرات كثيرة (وهو أب لك وللأمثال أيضاً): "عندما يهدونك بقرة اسحبها واجر"، وعندما يعطونك حكومة التقطها، وعندما يهدونك مقاطعة اقبط عليها بقوة، وعندما يخاطبونك بحضرتك مع بعض الجمالة، لف هذا ولا تهمله، وليس النوم ولا مجيب للحظ عندما يطرق الباب.

وأضافت سانشيكا:

- ماذا يهمني من يقول ما يحلو له أن يقوله عندما يراني متغطسة ومغرورة: "رأى الكلب نفسه في حجم التل...^(٦) وغير هذا مما يقال.

وعند سماع القسيس ذلك، قال:

- لا أستطيع أن أعتقد إلا أن نسل بانثا، يولدون جميعاً ومع كل منهم كيس من الأمثال داخل جسمه، فلا أحد منهم إلا ويريق الأمثال في كل حديث يشارك فيه وفي كل ساعة من عمره.

قال الخادم:

- هذا حق، فإن السيد سانشو ينثر الأمثال مع كل خطوة، ومع أنها كثيرة ولا توافق القصد، فإنها في غاية الظرف، ويتهج بما جدًّا سيدى الدوق وسيدتى الدوقة.

قال شمشون:

- حتى الآن تؤكد فخامتكم أن حكومة سانشو حقيقية، وأن هناك دوقة في هذا العالم ترسل له هدايا وتكتب له؟ لأننا، مع لمس الهدايا وقراءة الخطابين لا

(٦) هي التي تسمى تدليلاً سانشيكا.

نصدق، ونظن أن هذا من نزوات دون كيخوتي بلدياتنا، الذى يظن أن كل شىء مسحور، ولهذا أقول أنى أود أن ألمس فخامتكم وأربت على رأسك، لأرى إذا كنت رسولاً لا شبحاً أو رجلاً من لحم وعظم.

أجاب الخادم:

– أيها السادة أنا لا أعرف شيئاً عنى أكثر من أننى سفير حقيقى، وأن السيد سانشو بانثا حاكم فعلى، وأن سيدى الدوق والدوقة فى قدرتهما إعطاء، وأعطيا بالفعل تلك الحكومة، وأنى سمعتهم يقولون إن السيد سانشو يحكم فى شجاعة عظيمة وهمة. إذا كان فى هذا سحر أو لا، فهذا أمر يناقشه كلاكما معاً، فأنا لا أعرف شيئاً أكثر من ذلك بحياة أبوى اللذين يعيشان حتى الآن، وأعزهما وأحبهما كثيراً.

أجاب شمشون حامل البكالوريا:

– يمكن أن يكون ذلك كذلك، لكن القديس أوغسطين يشك فيه.

أجاب الخادم :

– ليشك من يشك، والحقيقة هى ما قلت، والحقيقة دائماً تعلو الكذب، مثلما يعلو الزيت الماء، وإذا لم يكن كذلك: "اعتقد فى الأعمال وليس فى الكلمات". فليحضر أحدكما معى ليرى بعينه ما لا يصدقه بأذنه.

قالت سانشيكاً:

– الذهاب إليه يتعلق بى أنا، احملنى أيها السيد خلفك على أفخاذ جوادك، فإنى سوف أصحبك بكل السعادة لأرى السيد أبى.

- بنات الحكام لا ينبغي أن يذهبن وحدهن عبر الطرق، وإنما في عربات ومحفات،
وأعداد غفيرة من الخدم.

أجابت سانشا:

- بحق الله، أيضاً سوف أصل سواء أكانت عربة أم جحشاً الذي أركبه، لقد
عشرتم على المدللة! (*)

قالت تيريزا:

- اخرسى أيتها الصبية، أنت لا تعرفين ما تقولين، وهذا السيد مصيب،
فالكياسة، عندما كان سانشو، فأنت سانشا، وعندما صار الحاكم، فأنت
السيدة، ولا أدري إذا كنت تفهمين.

قال الخادم:

- لتمضي فخامتكم في قول ما تظنين، أعطوني آكل، وردود الخطابات حالاً لأني
أفكر في العودة هذا المساء.

وعلق القسيس:

- فخامتكم سوف تأتي لتأكل معي، فالسيدة تيريزا مع إرادة الكرم لا تملك
خدمة طعام ضيف مهم مثلك.

رفض الخادم، لكن كان عليه التنازل عن رفضه من أجل طعام أفضل،
وحمله القسيس معه سعيداً، حتى يتسع له المجال لسؤاله عن دون كихوتى ومآثره.

(*) مثل يقصد عكسه، أى أنها ليست مدللة إلى حد أنها لا تذهب إلى أبيها على أفخاذ جواد الخادم!

عرض شمشون كتابة رد الخطابين، لكنها لم تحب أن تضع أنف حامل
البكالوريا في شئونها، فكانت ترى في عينيه بعض السخرية والخداع، وهكذا
أعطت فطيرة وبيضتين لأحد صبيان خدمة القداس، وكان يعرف الكتابة، فكتب لها
الخطابين، خطابًا إلى زوجها وخطابًا إلى الدوقة، وقد أملت هما من ألمعيتها، وفي
الحقيقة ليسا من أسوأ ما في هذه القصة كما سنرى بعد.

الفصل الجادى والخمسون

تطور حكومة سانشو بانثا، مع أحداث أخرى متنوعة

أصبح الصباح فى اليوم التالى لجولة الوردية الليلية للحاكم، وقد قضى خادم الصالة ليلته دون نوم مفكرًا فى الوجه والبريق والجمال لتلك الصبية المتكثرة فى ثياب رجل، ورئيس الخدم قضى بقية الليلة فى الكتابة إلى سيديه عما يفعل سانشو ويقول، معجبًا بأفعاله وأقواله ومندهِشًا، فقد توالى مختلطة بسمات ذكية وسفيهة. نهض السيد الحاكم، فى النهاية، وبأمر من الدكتور بدرو ريثو جعلوه يفطر ببعض النبيذ وأربع جرعات من ماء بارد، شىء تمنى سانشو أن يقايضه بكسرة خبز وحنقود عنب، لكن ما إن رأى أنه أمر إجبار وليس باختيار، تجاوز عنه مع ألم فى النفس، وإرهاق فى المعدة، عندما جعله يعتقد بدرو ريثو أن قلة الطعام تنشط الذكاء، وهو ما يناسب أكثر الأشخاص الذين يشكلون السلطة، ويمارسون المهن الخطيرة، ممن لا يستثمرون قواهم البدنية بقدر استثمارهم لقواهم العقلية.

ومع هذه السفسطة كان سانشو يعانى الجوع، وأيضًا فى سره، كان يلعن الحكومة، بل من أعطاه الحكم، لكن مع جوعه ومع نبيذه جلس للأحكام فى ذلك اليوم، وأول ما عرض له سؤال وجهه إليه أحد الغرباء، فى وجود رئيس الخدم وباقى المعية، وكان:

- يقسم مقاطعة إلى قسمين فمر متدفق سيال، وانته فحامتكم فالتقضية مهمة وبعض الشىء صعبة. أقول، إذن، وكان على هذا النهر قنطرة، وفى نهايتها مشنقة، وشىء مثل دار بها أربعة قضاة ينفذون القانون الذى وضعه صاحب النهر والقنطرة والمقاطعة: "كل من يعبر القنطرة من جهة إلى أخرى عليه أن

يقسم على أين يذهب ولأى غرض؟ فإن صدق في قسمه تركوه يمر، وإذا كذب يموت مشوقاً في المشنقة هناك، دون استئناف." عرف الجميع هذا القانون وشرطه الصارم، عبر القنطرة الكثير، ورؤى الصدق في قسمهم، فكان القضاة يتركونهم أحراراً. وحدث أثناء أخذهم القسم من رجل، أن أقسم على أنه جاء كى يموت بالمشنقة المقامة هناك. تداول القضاة في القسم، وقالوا: "إذا تركنا هذا الرجل يمر حرّاً، كذب في قسمه، وطبقاً للقانون يجب أن يموت، وإذا شتقناه صدق، ولهذا، وطبقاً لنفس القانون لصدق قسمه يجب أن يمر حرّاً." مطلوب من فخامتكم، أيها السيد الحاكم القول: ماذا يفعل القضاة مع هذا الرجل، حيث وصل إلى مسامعهم أخبار عقلك الراجح الذكي، وأرسلوني إليك للتوسل لفخامتكم إبداء الرأي في هذه القضية المعقدة والمخاطة بالشك.

وعلى هذا أجاب سانشو:

- يقيناً كان على هؤلاء القضاة الذين أرسلوك أن يعفون من هذا، لأنى رجل أقرب إلى البدانة منى إلى الذكاء، لكن على أية حال كرر لى حكاية القضية حتى أفهمها، فلعلى أجد مخرجاً.

كرر السائل الحكاية مرة ومرة، وقال سانشو بعدها:

- على ما يبدو أننى سأحل القضية سريعاً، كالاتى: ذاك الرجل يقسم أنه سوف يموت بالمشنقة، وإن مات بها أقسم الصدق، وطبقاً للقانون الموضوع يستحق أن يطلق سراحه وأن يعبر القنطرة، وإذا لم يعدموه فيكون قد كذب في قسمه، ولهذا ينبغى شنتقه.

قال السائل الرسول:

— تمامًا كما يقول السيد الحاكم، فيما يتعلق بفهم القضية.

أجاب سانشو :

— أقول الآن، إن ذلك الشطر من الرجل الذى صدق فى القسم عليهم أن يتركوه يمر، والشطر الآخر الذى كذب يشنقوه، وبهذا ينفذ القانون حرفيًا!

أجاب السائل:

— وبهذا أيها السيد الحاكم يصبح من الضرورى أن يقسم ذلك الرجل إلى قسمين، قسم صادق وقسم كاذب، وإذا تم تقسيمه، بالقوة لا بد أن يموت، وهكذا لا يتم الحصول على أى شىء من متطلبات القانون، والضرورة الماسة أن ينجز القانون.

— اسمع، أيها الرجل الطيب، هذا العابر الذى تتحدث عنه، إما أنا غبي، وإما أن له نفس الحق فى الموت وفى الحياة مع عبور القنطرة، وبالتساوى بين الحقين، لأنه إذا أنقذه الصدق أدانه الكذب بنفس القدر، وإذا كان الأمر كذلك، فإن رأي أن تقول لهؤلاء القضاة الذين أرسلوك إلى، إن كفتى ميزان إدانته ونجاته متوازنتان، وعليه فواجبهم أن يتركوه يمر بجرية، لأن الشئ دائمًا على الفعل الطيب أكثر من فعل السوء، وهذا كنت أعطيه لك مكتوبًا بخطى لو كنت أعرف الكتابة، وفى هذه القضية ليس الحكم لى، وإنما مر على ذاكرتى وصية بين وصايا أخرى كثيرة أعطها لى سيدى دون كيوخوتى الليلة السابقة لحضورى حاكمًا لهذه الولاية، وكانت الوصية هى عندما تكون العدالة فى

شك، فإني على أن أنحرف لطريق الرحمة، وقد شاء الله أن أتذكر ذلك الآن،
كى يصير أفضل ما يوافق هذه القضية.

أجاب رئيس الخدم:

- هذا صحيح، وأعتقد أن ليكورجو مشروع إسبرطة ما كان يستطيع الوصول
إلى حكم أفضل من حكم بانثا العظيم، وتغلق هنا جلسة الصباح، وسوف
أعطي أمراً أن يأكل الحاكم ما شاء من طعام.

قال سانشو:

- هذا ما أطلبه، وعسى أن تصدق، أعطوني آكل ثم أمطروا على القضايا
والشكوك، وأنا سوف أبدو غموضها في الهواء.

أنجز رئيس الخدم كلمته، وبدا له إنقالاً للضمير قتل هذا الحاكم الذكى من
الجوع، وأكثر، فقد كان يفكر فى ختام حكومته هذه الليلة، لآعباً معه الخدع الأخيرة
التي كلف بها. وحدث أن عند نهاية الطعام فى ذلك اليوم ضد قواعد وتعليمات
الدكتور (ألق بنفسك فى الخارج)، وعند رفع المائدة دخل البريد بخطاب من دون
كيخوتى للحاكم. أمر سانشو السكرتير أن يقرأه فى سره، وإن لم يكن به سر له
شأن، فليقرأه بصوت عال، وهكذا فعل السكرتير مراجعاً الخطاب وقال:

- يمكن قراءته جيداً بصوت عال، لأن ما يكتبه السيد دون كيوخوتى لك
يستحق أن يطبع، وأن يكتب بحروف من ذهب، ويقول الآتى:

خطاب من دون كيوخوتى دى لا مانشا إلى سانشو بانثا

حاكم ولاية باراتاريا

"عندما كنت أتوقع سماع أخبار عن إهمالك و صفاقتك، سانشو، أيها الصديق، سمعت أخبار ذكائك و فطنتك، و من أجل هذا قدمت شكرًا خالصًا للسماء، التي تعرف أن ترفع من الروث الفقراء، و أن تبدع من عطهم ذكاء. يقولون لى إنك تحكم كما لو كنت إنسانًا، و أنت إنسان كما لو كان دابة بسبب التواضع البذى تتعامل به مع نفسك، و أحب أن تعلم، سانشو، أنه مرات عديدة، من المناسب، بل من الضرورى بحكم سلطات المهنة، الذهاب ضد تواضع القلب، لأن أكبر زينة للشخص الذى يشغل منصبًا خطيرًا هو أن يكون وفق متطلبات المنصب، وليس وفق المعايير التي يميل إليها ظرفه المتواضع. البس جيدًا، فإن عكازًا مزركشًا ليس بعكاز، لا أطلب مبالغة فى التزين، ولا لبس جندى و أنت قاض، و إنما تزين بالثياب التي تتطلبها المهنة فحسب، بشرط أن تكون نظيفة و حسنة الهندام.

"وحتى تكسب حب الشعب الذى تحكمه، بين أشياء أخرى: أولاً، كن حسن التربية مع الجميع، مع أنى سبق أن قلت لك هذا. و ثانياً، حاول أن توفر الغذاء لهم، فلا شيء يتعب القلب أكثر من الجوع و الغلاء.

"لا تكثر من الأوامر العليا، و إذا أصدرت بعضها لتكن طيبة، و فوق كل شيء لابد من المحافظة عليها و تنفيذها، لأنه إن لم يحدث ذلك، سوف تترك انطباعًا عكسيًا، فالأمير الذى كان لديه التأمر و السلطة لإصدارها لم يمتلك الشجاعة أن يجعلها محافظًا عليها، و القوانين التي تخيف و لا تنفذ تصل إلى أن تصير مثل السلحفاة التي صارت ملكًا، للضفادع فى الأول أفرعتهم ثم فقدوا احترامهم لها ثم بدأوا يمتطونها.

"كن أبًا للفضائل، و معاديًا للذائل، لا تكن دائمًا شديدًا، و لا تكن لينًا، و اختر الوسط بين هذين الطرفين، فهنا تكمن ذروة الإدارة و محورها. زر السجون،

ومحلات الجزارة والميادين، فإن حضور الحاكم في مثل هذه الأماكن بالغ الأهمية. قدم العزاء للسجناء، الذين ينتظرون اختصار وقت إطلاق سراحهم، ووجودك في السوق يرفع الجزائريين والبقالين فيقسطون في الميزان. لا تظهر نفسك، حتى لو كنت كذلك (ولا أعتقد) طماعاً ولا أكولاً، لأن الناس ومن يتعاملون معك إن عرفوا هذا الشرط المحدد فيك، سيهاجمونك، حتى يوقعونك في الخسران المبين. انظر وأعد النظر، ومر ثم راجع المرور، على النصائح والوثائق التي أعطيتها لك مكتوبة قبل مغادرتك إلى حكومتك، وسترى كيف تجد فيها، إن حفظتها، مساعدة ثمينة، تعينك في وقت الجهد والصعوبة، مما يعرض في كل خطوة للحكام. اكتب لسيدك الدوق والدوقة، وأظهر لهما أنك شاكر للجميل، فإن الجحود ابن الدناءة، وواحد من أكبر الآثام المعروفة، ومن يذكر جميلاً صنع له، يعطى مؤشراً أيضاً أنه شاكر لله، صاحب النعم عليه في الماضي والحاضر وعلى الدوام.

"السيدة الدوقة أرسلت شخصاً مع ثوبك وهدية أخرى إلى زوجتك تيريزا بانثا، ومنتظر الرد بين لحظة وأخرى، وأنا كنت سيئ الأحوال بعض الوقت لهجوم قطني معين، حدث لي، ليس بعيداً عن أنفي، لكن لم يكن شيئاً ذا بال، لأنه إذا كان هناك سحرة يسيئون معاملتي، فهناك سحرة آخرون يدافعون عني.

"أخبرني عما إذا كان رئيس الخدم الذي يرافقك له علاقة بأحداث تريفالدي، كما اعترت الشكوك، واستمر في إخباري بكل ما يحدث لك، فالطريق قصير إلى هنا، وبصفة خاصة أنني أفكر في المغادرة سريعاً، فأنا لم أولد لحياة البطالة تلك التي أحيها هنا.

"اعترضني شأن، أظن أنه سوف يضعني في موقف سيئ أمام هذين السيدين الدوق والدوقة، ومع أن ذلك يهمني كثيراً، فإنه لا يهمني في شيء، لأنه في النهاية

على أن أنجز قبل كل شيء تعاليم مهنتي، والتي من أجل خاطرها اعتادوا القول:
"Amicus Plato Sed Magis Amica Veritas". "أنا صديق لأفلاطون لكني صديق
أكثر للحق". أقول لك ذلك باللاتينية، لأنني أفهم أنك تعلمتها بعد أن صرت حاكمًا.
وأستودعك الله، راجيًا أن يحفظك من كل من أرادك بشراً".

صديقك

دون كيخوتي دي لامانشا

استمع سانشو للرسالة باهتمام شديد، وقد نظر إليها كل من سمعها في احتفال
وإشادة بفضيلة كاتبها؛ وفي الحال نهض سانشو من المائدة منادياً على سكرتيره،
وأغلق عليهما باب مخدعه، وأحب أن يرد على سيده دون كيخوتي في الحال،
وقال له أن يكتب ما يمليه دون إضافة أو حذف أي شيء، وهكذا فعل، وكان رد
الخطاب هكذا:

خطاب من سانشو بانثا إلى دون كيخوتي دي لامانشا

"انشغالي بالأمر هنا كبير جدًّا، فلا توجد مساحة لهرش رأسي، ولا حتى لقص
أظافري، ولهذا طالت نامية أكثر من اللازم، وبالله الشفاء. أقول هذا، سيدي العزيز،
حتى لا تفزع فخامتكم لعدم إخباري لكم حتى الآن بجلو حياتي ومرها خلال
وجودي في هذه الحكومة، التي أجوع في أيامها أكثر من جوعي خلال جولاتنا في
الغابات، وفي المناطق غير المعمورة.

كتب لي الدوق سيدي منذ أيام محذراً لي أنه قد دخل هذه الولاية بعض
الجواسيس لقتلي، وحتى الآن لم اكتشف شيئاً، غير أن هناك طبيياً محمداً في هذا
القصر يقبض راتباً لقتل أي حاكم يأتي هنا، يسمى الدكتور بدرو ريثيو، وهو من

أهل تيرا فويرا (ألق بنفسك في الخارج) حتى ترى فخامتكم أى اسم هو حتى لا يعتريني إلا الخوف من الموت على يديه! هذا الطبيب نفسه يقول بنفسه عن نفسه أنه لا يشفى الأمراض إذ توجد، وإنما يتقيها حتى لا تأتي، والعلاج الذى يعمله هو (الرجيم)، و(الرجيم) بزيادة، حتى يصبح الأشخاص (جلدًا على عظم)، كما لو لم يكن الهزال أخطر من المرض. أخيرًا، إنه يواصل قتلى بالجوع، فضلًا عن أنى أموت لهذا من الغم، فقد حدث أن ظننت عند قدومى للحكومة أنى سأكل وجبات ساخنة، وأشرب شرابًا باردًا، وتحقيق الاستجمام للجسم بين ملاءات هولندا الناعمة، وحشيات من الريش، وما وقع أنى هنا لتعذيب البدن، كما لو كنت ناسكًا، ولأنى لا أفعل ذلك بإرادتى، فإننى أفكر فى نهاية الأمر أن على الشيطان أن يحملنى.

وحتى الآن لم أقبض أبيض ولا أسود، ولا أستطيع التفكير إلى أين هذا الأمر يسير، لأنهم هنا قالوا لى إن الحكام الذى اعتادوا أن يأتوا إلى هذه الولاية، قبل دخولهم إليها، إما أن يكون قد أعطاهم أهل القرية أو أقرضوهم أموالًا كثيرة، وأن هذا عادة متبعة عند كل الآخرين الذين يذهبون لتولى الحكومات، وليس فقط هنا.

بالأمس خلال دورية ليلية صادفت فتاة فى غاية الجمال فى ثياب رجل، وأخًا لها فى ثياب امرأة، وقد أغرم بالفتاة خادم صالتي، واختارها فى خياله زوجة له، حسب قوله، وأنا اخترت الفتى صهرًا لى، واليوم نحن الاثنان سوف نتحاور حول هذه الأفكار مع والد الفتى والفتاة، واسمه دييجو دى لايانا، من الأعيان ومسيحي قديم حتى النخاع.

أنا أزور الميادين، كما تنصحنى فخامتكم، وبالأمس وجدت بائعة بندق طازج، وبالتحرى اتضح أنهما تخلطه بالبندق القديم الفاسد، صادرت البندق لصالح أطفال الكنيسة، وسوف يعرفون التمييز بين الصالح والطالح، وحكمت على البائعة بألا تدخل الميدان لمدة خمسة عشر يومًا. قالوا لى إننى صنعت ذلك بشجاعة، وقد قالوا لى إن المشهور فى هذه القرية أنه لا يوجد فيها أسوأ من باعة المواد الغذائية، لأنهم كلهم

لا حياء عندهم ولا رحمة، وفي غاية الصفاقة، وأنا أظن أن الأمر كذلك، لأنى رأيت نفس الشىء فى قرى أخرى.

حول أن سيدتى الدوقة كتبت لزوجتى تيريزا بانثا، وأرسلت لها الهدية التى تذكرها فخامتكم، فأنا فى غاية الرضا، وسأحاول أن أعبر لها عن عرفانى فى الوقت المناسب: قَبْل فخامتكم يديها من طرفى، وقل لها إننى لم أنس فضلها، كما سترى بالفعل لا بالكلام.

لا أود أن يقع جدل غير سار مع سيدى وسيدتى الدوقة، لأنه لو غضبت فخامتكم معهم، فبالطبع سوف يدور حتى يصلنى أذى، ولن يكون طيباً أن تنصحنى بأن أكون عارفاً بالجميل وألا تكون فخامتكم كذلك مع من قدم لك إنعاماً كثيراً، وأحسن معاملتك فى قلعتة.

أود أن أرسل لك أى شىء، لكن لا أدرى ما أرسل، إذا لم تكن بعض أنابيب الحقن التى يصنعونها من أجل الحقن الشرجية فى هذه الولاية بطريقة بديعة جداً، ولو دامت لى الحكومة هنا سأبحث عما أرسله، سواء من أموال يعطيها لى الناس أو من راتبى.

إذا كتبت لى زوجتى تيريزا بانثا، ادفع فخامتكم التكاليف وأرسل لى الخطاب، فعندى رغبة كبيرة لمعرفة أحوال بيتى وزوجتى وأولادى. هنا، أدعو الله أن يحرك من السحرة سيئى النية، وأن يرفعنى الله إليه بخير وفى سلام من هذه الحكومة، وإن كنت أشك فى ذلك، لأننى أفكر فى تركها وأنا على قيد الحياة، والأمر يتوقف على معاملة الدكتور بدرو ريشو".

" خادم فخامتكم "

" سانشو بانثا، الحاكم "

أقفل السكرتير الخطاب، وأرسله في الحال للبريد، وفي اجتماع لمجموعة الخادعين الساخرين من سانشو، اتفقوا على نظام فيما بينهم عن كيفية إبعاده من الحكم وقذفه خارج الحكومة، وفي ذلك المساء، قضى سانشو وقته في إعداد لوائح تمس حسن سير حكومة ما تخيله ولاية، وأمر ألا يكون هناك وسطاء في بيع المواد الغذائية في البلاد، ويمكنهم بيع النبيذ المستورد من كل الجهات مع إعلان مكان إنتاجه، حتى يضعوا له سعراً طبعاً لدرجته وسموه وشهرته، ومن يخلطه بالماء أو يغير اسمه، سيفقد حياته نظير ذلك، وخفض أسعار كل لباس القدم وخاصة الأحذية التي بدا له أنها باهظة الأسعار، وفرض ضريبة على الخدم، الذي يسرون على حل شعرهم في طريق النسيمة، ووضع عقوبات شديدة جداً على من يغنون أغاني شبقية ومنحلة ليلاً أو نهاراً، وأمر ألا يغنى أى أعمى (للسحاذة) عن المعجزات في كوبليها، إذا لم يثبت صحة تلك المعجزات، لما بدا له أن معظم الأكفاء الذين يغنون مدعون ضد الحقيقة، عمل وخلق مأمور للفقراء، ليس لمطاردتهم بل لفحص عما إذا كانوا فقراء، لأنه تمتد في ظل تصنيع الأعضاء المقطوعة والقروح المصنوعة أذرعاً لصوص وصحة برميل نبيذ. في اختصار نظم أشياء طيبة جداً محفوظة حتى اليوم، ومذكورة في تلك القرية تحت اسم "دستوريات الحاكم العظيم سانشو باننا".

الفصل الثانى والخمسون

حيث تحكى مغامرة القهرمانه المقهوره الثانيه، أو القهرمانه

(المتعوسه)، باسم آخر، هو دونيا رودريجيث

يحكى سيدى حامدى، ما إن صار دون كىخوتى معافى من خدوشه، بدا له أن الحياة التى يحيهاها فى تلك القلعة ضد كل أنظمة الفروسية المشاءة التى ينتمى إليها، وهكذا طلب إننا من الدوق والدوقة للرحيل إلى سرقسطه، حيث اقتربت احتفالاتها، وحيث يفكر فى كسب الدرع الذى يتم انتزاعه فى مثل هذه الأعياد. وحال وجوده فى أحد الأيام مع الدوق والدوقة على مائدة الطعام، بدأ ينفذ نيته ويطلب الإذن، لكن ها أنتم ترون فى مفاجأة على باب الصالة الفسيحة امرأتين تدخلان (كما ظهر بعد ذلك) تغطيهما ثياب الحداد من القدم إلى الرأس، وأولاهما عند وصولها إلى دون كىخوتى، ألقت بنفسها على قدميه ممددة عرضاً وطولاً، لاصقة فمها بقدمى دون كىخوتى، مطلقه تأوهات فى غاية الحزن والعمق والألم، حتى أصابت بالاضطراب كل من كان يراها ويسمعها. ومع أن الدوق والدوقة قد خامرهما الظن أنها إحدى ألعاب خدمهما، فقد دام انهيار المرأة على القدمين متأوهة وباكية، فبدأ الشك يتسرب إليهما والذهول، إلى أن أنهضها دون كىخوتى من الأرض فى إشفاق، وعمل على أن تكشف وتزيح الخمار من على الوجه الباكى. وقد قامت بذلك فعلاً، وهكذا ظهر أنها من لم تكن قط يتوقع ذلك منها، لأنها كشفت عن وجه دونيا رودريجيث، قهرمانه البيت، والأخرى ذات ثياب الحداد كانت ابنتها، التى

خدعها ابن المزارع الغنى. اندهش كل من كانوا يعرفونها وأكثر من كل هؤلاء الدوق والدوقة؛ فرغم أنهما يعتبرانها بلهاء، ومن عجيبة طيبة، لكن ليس إلى حد ارتكاب الجنون. أخيراً، التفتت دونيا رودريجيث للدوق والدوقة، وقالت لهما:

- حفظتما، اسمحا لى أن أتحدث قليلاً مع هذا الفارس، لأن ذلك يتناسب مع توفيقى فى الشأن الذى ورطنى فيه ذلك الجامعى الوغد!

قال الدوق إنه يأذن لها بأن تتكلم مع السيد دون كيوخوتى كما يحلو لها. وهى محولة وجهها وصوتها نحو دون كيوخوتى، قالت:

- منذ أيام، أيها الفارس الهمام، تركتك عارفاً بأمر الظلم والغدر الذى أوقعه مزارع بابنتى، وهى تلك التعيسة الحاضرة هنا الآن، وفخامتكم وعدتني بمعالجة أمرها، معدلاً الظلم الذى وقع عليها، وقد وصل الآن إلى مسامعى أن فخامتكم تحب مغادرة هذه القلعة بحثاً عن الحظوظ الطيبة التى أرجو أن يرزقك الله بها، وهكذا أحب قبل أن يتلعلك ظلام تلك الطرق أن تتحدى ذلك القروى الخشن غير المروض، واجعله يتزوج ابنتى، فى إنجاز للكلمة التى أعطاها لها قبل أن يضاجعها، بأن يكون زوجاً لها، لأن التفكير فى أن الدوق سيدى سوف يحقق العدالة هو طلب ثمار كمثرى من شجرة حور، ولأنك فى عجلة فقد وكلتكم أمرى، وبهذا، أدعو الرب أن يمتع فخامتكم بالصحة، وألا يتخلى عنى ولا عن ابنتى.

وعلى عبارتها أجاب دون كيوخوتى فى جدية وبلاغة:

- أيتها القهرمانه الطيبة، خففى من دموعك، أو بعبارة أخرى، جففها، ووفرى تنهداتك؛ فأنا آخذ على عاتقى علاجاً لبنتك، التى كان من الأفضل لها ألا

تكون سهلة الاعتقاد في وعود العاشقين، التي هي واهية في معظمها، وثقيلة الإنجاز إلى أكبر حد؛ وهكذا، بإذن من الدوق سيدي، سوف أرحل بحثاً عن هذا الصبي القاسي، وسوف أجده، وسوف أتحداه، وسأقتله متى اعتذر عن إنجاز كلمته، فالهدف الرئيسي من مهنتي أن أسامح المتواضعين، وأن أعاقب المغرورين، وأنجد البؤساء، وأدمر القساة المتعسفين.

قال الدوق:

- ليس ضرورياً أن تكلف فخامتكم جهد البحث عن القروى الذى تشكو منه هذه القهرمانة الطيبة، وكذلك ليس ضرورياً أن تطلب منى إذناً لتحديه، فأنا باسمه أقبل التحدى، وسأحمل على عاتقى أن يعرف بهذا التحدى، وسوف أضرب له موعداً للحضور إلى هذه القلعة، حيث فيما بينكما سوف أقدم ميداناً آمناً، محافظاً على كل الشروط التى اعتادوا، بل وجب عليهم، المحافظة عليها فى مثل هذه المبارزات، مع العدالة المتساوية لكل واحد منكما، كما يجبر على المحافظة عليها كل أولئك الأمراء، الذين يفسحون ميداناً نظيفاً للذين يتقاتلون تحت معايير مقاطعاتهم.

رد دون كيخوتى :

- إذن، مع هذا التأكيد، ومع إذن صريح من عظمتكم، من هذه اللحظة أقول فى هذه المرة بأننى أتنازل عن مكانتى باعتبارى شريفاً من الأعيان، وأضع نفسى بسيطاً فى مقام الذى ألحق الضرر بالفتاة، معطياً له الأهلية حتى يستطيع أن يبارزنى، وهكذا، مع أنه غائب، فإنى أتحداه، وأواجهه بسبب

ارتكابه شرًا بغش هذه المسكينة، والتي كانت صبية عذراء، وياثمه هي ليست كذلك الآن، وعليه أن ينجز كلمته التي أعطاها بأن يصير زوجها الشرعي، أو يموت في إقامة الدعوى ضده.

وفي الحال خلع جوانتي، وألقى به في وسط الصالة، ورفع الدوق، قائلاً، كما سبق له القول، إنه يقبل ذلك التحدى باسم تابعه، ويحدد فترة التنفيذ خلال ستة أيام، والميدان في ساحة تلك القلعة، والأسلحة، هي المعتادة عند الفرسان: رمح وترس ومجن لكل الجسم، مع باقى قطع السلاح الأخرى، دون خداع أو غش أو أى هاجس، وسيفحص كل شىء قضاة الميدان. لكن قبل كل شىء، من الضروري أن تعطى هذه القهرمانه الطيبة وتلك الصبية السيئة حق عدالتهما فى يد السيد دون كيخوتى، ودون ذلك لن يحدث شىء، ولن نصل إلى تنفيذ ذلك التحدى.

أجابت القهرمانه :

– أنا أعطيه الحق.

وأضافت الابنه مجهشة بالبكاء، مغمورة بالخجل، وسوء الهيئة:

– وأنا أيضاً.

وبعد أخذ هذه التعهدات، التى كان الدوق قد سبقها بخياله بما عليه أن يفعله فى هذه القضية، انصرفت سيدتا الحداد، وأمرت الدوقة ألا تعاملنا من الآن فصاعداً معاملة خدمها، وإنما باعتبارهما سيدتين مغامرتين، حضرا إلى بيتها طلباً للعدالة، وهكذا أعطياهما غرفة منفصلة، وخدموهما باعتبارهما غريبتين، وليس دون فزع من باقى الخدم الذين لا يعرفون المحطة النهائية لسفاهة عقل القهرمانه رودريجيث ونزقها، وسفاهة سوء سيرة ابنتها وسلوكها. وبينما هم فى هذا، وحتى تتم بهجة

الحفلة، وإعطاء نهاية سعيدة للطعام، ترون هنا الخادم الذى حمل الخطابين والهديتين إلى تيريزا بانثا، زوجة الحاكم سانشو بانثا. إنه يدخل الصالة، وبوصوله استقبال الدوق والدوقة رضاً عظيماً، متحرقين شوقاً لمعرفة ما حدث فى رحلته، وعند سؤاله عنها، أجاب بأنه لا يستطيع أن يقول كل شيء على الملأ هكذا، ولا حتى بكلمات مختصرة. وسعادتهما، دام عمرهما، يمكن أن يتيحا له الانفراد بهما، وحتى يتم ذلك يمكنهما التسلى بهذين الخطابين، وهكذا أخرج خطابين، ووضعهما فى يد الدوقة. الأول يقول على المظروف: "خطاب لسيدتى الدوقة فلانة، للدوقية التى لا أدرى أين هى". والثانى: "إلى زوجى سانشو بانثا، حاكم ولاية باراتاريا، أحياء الله فى رفاهية سنوات أكثر منى". لم تترك خبزها ينضج، كما اعتادوا القول، الدوقة فارغة الصبر، حتى تقرأ الخطاب الموجه إليها، وفتحته، ثم قرأته فى سرها، وعندما رأت أن لا بأس من قراءته بصوت مسموع، حتى يصل إلى آذان الدوق والمحيطين قرأت بهذه الطريقة:

خطاب من تيريزا بانثا إلى الدوقة

"سيدتى، إن الخطاب الذى كتبتة عظمتكم لى منحنى سروراً عظيماً، والحقيقة أنه كان محط رغباتى استقباله. عقد المرجان هائل، وثوب صيد زوجى لا يقل عنه جمالاً، وكون عظمتكم قد صنعت من سانشو حاكماً، سانشو زوجى، أعطى بهجة لكل هذه القرية، حيث لا يوجد من يصدقه، وخاصة القسيس والأسطى نيكولاس الحلاق، وشمسون كارأسكو حامل البكالوريا، لكن لا يهمنى عدم تصديقهم، فكما أنه كذلك، وهو فعلاً كذلك، فليقل كل واحد ما يحلو له، ومع أن الواحد لو قال الحق، فأنا أيضاً لم أكن لأصدق لولا عقد المرجان والثوب، لأن كل من فى هذه القرية يرون فى زوجى بليد القرية، وسحب راعى ماعز من كوخه إلى منصب الحاكم لا يمكنهم تصوره، فلأى حكومة يصلح مثله؟ هداه الله إلى الرشد فهو يعرف كم يحتاجه أبناؤه.

أنا، يا سيدتي العزيزة، عازمة، بعد إذن فخامتكم، على حفظ هذا اليوم الطيب في بيتي، بالذهاب إلى البلاط ممتطية في عربة، حتى أكسر ألف عين لحسود تترصدني؛ وهكذا أتوسل لسعادتكم أن تأمرى زوجي أن يرسل لي بعض النقود، لكن أن تكون وفيرة؛ لأن التكاليف في البلاط عالية، فرغيف الخبز بريال، وكيلو اللحم بثلاثين (مرابطي)، وهو أمر عجيب، وإذا لم يجب أن أذهب، عليه أن يخطرني مع فسحة من الوقت، لأن أقدامى تغلى لوضعها على الطريق؛ حيث تقول لي صديقاتي وجاراتي، أني لو ذهبت مع ابنتي في زهو وفخفخة إلى البلاط، سوف يصبح زوجي معروفاً عن طريقى أكثر مما سأصير معروفة عن طريقه، حيث يجبر الجميع على الإلحاح في الأسئلة: "من هاتان السيدتان بتلك العربة؟"، وأحد خدمي يرد: زوجة سانشو بانثا حاكم ولاية باراتاريا وابنته. وبهذه الطريقة يصبح سانشو معروفاً، وأصبح أنا موضع التقدير، وفي روما تجد كل شيء!

يثقل على بقدر ما يمكن أن يثقل على أن هذا العام لم يجنوا أى محصول من (أبو فروة) في هذه القرية، ومع ذلك أرسل لفخامتكم حتى نصف (ربع)، وقد ذهبت بنفسى لجمعها واحدة واحدة، واختيارها من الجبل، ولم أجد أكبر مما أرسلت، وكنت أود أن يكون حجم كل واحدة منها مثل بيضة النعامة.

لا تنسى سموكم أن تكتبي لي، وسأهتم بالرد، متحدثة عن صحتي وعن كل شيء يستحق الذكر في هذه القرية، حيث أبقى ضارعة لربنا أن يحفظ عظمتكم، ولا أنسى أن أذكر أن ابني وابنتي يقبلان يدي عظمتكم.

التي تزداد رغبتها لرؤية سعادتكم ، وأن تكتبي إليها،

خادمتك

تيريزا بانثا

كان سرور الجميع عظيمًا لسماع خطاب تيريزا بانثا، وخاصة الدوقين، ثم سألت الدوقة عن رأى دون كيخوتى إذا كان طيبًا إيمان فتح الخطاب القادم للحاكم، حيث تتخيل أنه لا بد أن يكون فى غاية الطرافة، قال دون كيخوتى بأنه سوف يفتحه حتى يرضيها، هكذا حدث، وكان الخطاب يتكلم بهذه الطريقة:

خطاب من تيريزا بانثا إلى سانشو بانثا زوجها

" تسلمت خطابك، سانشو يا عزيز روحى، وأنا أعدك وأحلف، لأنى مسيحية كاثوليكية، أننى أبعد عن الجنون من السرور مسافة إصبعين. انظر، أخسى، عندما وصل مسامعى أنك حاكم، فكرت لحظتها فى أننى سأقع ميتة من فرط السرور؛ فأنت تعرف أنهم يقولون إن كليهما يقتل، السرور المفاجئ والألم الكبير. سانشيكا ابتستك عملتها على روحها، وغرقت فى المياه دون أن تحس، فقط من السرور. والثوب الذى أرسلته ها هو أمامى، والمرجان الذى أرسلته لى سيدتى الدوقة ها هو حول عنقى، والخطابان فى يدي، وحاملها ها هو هناك حاضر، ومع كل هذا اعتقدت وفكرت أن كل ما أرى وألمس ليس إلا حلمًا، لأنه من يستطيع أن يفكر أن راعى الماعز كان سيصير حاكمًا لولايات؟ وأنت بالفعل تعرف يا صديقى، أن أمى كانت تقول من الضرورى العيش كثيرًا حتى نرى كثيرًا، أقول هذا لأنى أفكر فى أن أرى أكثر إذا عشت أكثر، ولأنى أفكر فى ألا أتوقف حتى أراك تاجرًا أو محصل ضرائب^(٢)! وتلك مهن، حتى لو حمل الشيطان من يسىء استعمالها، فى نهاية الأمر، هم دائمًا لديهم المال. سيدتى الدوقة سوف تخبرك عن رغبتى فى الذهاب إلى البلاط. انظر فى الأمر، أعلمنى عن رأيك، حيث سأحاول تكريمك هناك متزهة فى عربة.

(٢) مهن أقل بكثير من مهنة الحاكم!

القسيس، والحلاق، وحامل البكالوريا، وحتى الشمس، لا يمكنهم التصديق أنك حاكم، ويقولون أن كله غش أو أشياء من السحر، مثل كل أشياء دون كيخوتي سيدك، ويقول شمشون إنه سوف يذهب للبحث عنك، وإخراج الحكومة من رأسك، والجنون من مخ دون كيخوتي، وأنا لا أعلق سوى بالضحك، والنظر إلى عقدي المرجان، وعمل حيلة لتحويل الثوب من مقاسك إلى مقاس ابنتنا.

أرسلت بعض حبات (أبو فروة) لسيدتي الدوقة، وكنت أود أن تكون من الذهب. أرسل أنت إلى بعض الحلوى من اللؤلؤ؛ إذا وجدت في ولايتك.

وأخبار هذه القرية أن لا بارويكا زوجت ابنتها من رسام خائب اليد، وصل إلى هنا لرسم ما يعن له، وطلبت منه البلدية رسم أسلحة جلاله الملك الموجودة على باب البلدية، وطلب دينارين، وأعطوها له مقدماً، واشتغل ثمانية أيام، وفي آخرها لم يرسم شيئاً، وقال إنه لم يفلح في رسم هذا الكم الهائل من الخردة، وأعاد النقود، ورغم كل ذلك تزوج تحت اسم الرسام الفنان، والحقيقة أنه قد ترك ريشته، وحمل فأساً وإلى الغيط، باعتباره رجلاً هماماً. وابن بدرودى لوبو تم تعميده بخطواته الأولى نحو عمله قسيساً، وعرفت ذلك منجيا حفيده سيلباتو، ورفعت عليه دعوى، لأنه أعطها كلمة للزواج منها^(١)، وألسنة السوء تقول إنها حملت منه، لكنه ينكر ذلك تماماً.

وهذا المحصول لم يجمعوا زيتوناً ولا توجد قطرة خل في هذه القرية، وقد مرت بنا حملة من الجنود، وحملوا معهم في طريقهم ثلاث صبايا من بنات هذه القرية، لا أحب أن أقول لك من هن، فربما يعدن، ولن يعدمن من يتزوج منهن، مع ما عليهن من بقع طيبة أو مشينة.

(١) عمله الكنسى سيحول بينه وبين الزواج!

سانشिका الآن تعرف التطريز، وتكسب كل يوم ثمانية قطع نقود (مرايطى) صافية، تلقى بها فى حصاله للمساعدة فى شوارها. لكن الآن ابنة لحاكم، أنت سوف تعطىها الدوطة، دون أن تضطر لأن تعمل لجمعها. يبنوع الميدان جف؛ حيث سقطت صاعقة فوق نصب الينوع، وهذا كل شىء، فلا يخفون عنى أمراً.

انتظر رداً على هذا الخطاب، وقراراً حول ذهابى إلى البلاط، وهنا أدعو الله أن يحفظك لى سنوات أكثر من سنواتى أو مثلها، لأنى لا أحب أن أتركك وحيداً دونى فى هذه الدنيا".

زوجتك

"تيريزا بانثا"

تم الاحتفال البهيج بالخطابين، والضحك معهما، والتقدير لهما، والإعجاب والدهشه بهما، وبعد انتهاء إعادتهما إلى المظروفين، وصل البريد الذى يحمل خطاب سانشو لدون كىخوتى، وقرئ علناً، مما وضع غفلة الحاكم محل شك! انسحبت الدوقة لتعرف من الخادم ما حدث له فى قرية سانشو، والذى حكاها فى تفصيل، دون ترك مناسبة دون إشارة إليها، حتى الجبن الذى أهدته إليه تيريزا لجودته لأنه من قرية ترونشون. سرت الدوقة كثيراً، وسوف نتركها لنحكى نهائىة حكومة سانشو الأكبر، زهرة ومرآة كل حكام الولايات.

الفصل الثالث والخمسون

عن النهاية المرهقة والختام لحكومة سانشو بانثا

التفكير فى أن أشياء هذه الحياة تدوم لأصحابها، هو التفكير فى خروجها، فكل شىء يسير دائرياً، أقول فى دائرة: الربيع يتبع الشتاء، ويتبعه الصيف، ويتبع الجفاف الصيف^(*)، ويتبع الخريف الجفاف، والخريف يتبعه الشتاء، وهذا يتبعه الربيع، وهكذا يدور الزمن فى تلك العجلة الدائمة، ووحدها الحياة الإنسانية تجرى لنهايتها العاجلة أكثر من جريان الوقت، دون انتظار تجدد إلا فى الحياة الأخرى التى ليس لها نهايات تحدها. هذا ما يقوله سيدى حامدى، فيلسوف محمدانى، وعبر فلسفته نفهم وهن الحياة الدنيا وعدم استقرارها، وخلود الأخرى التى ننتظرها، والكثيرون (حتى) دون إيمان، ما عدا النور الطبيعى، قد فهموا هذا، لكن هنا مؤلفنا يذكر ذلك بسبب السرعة التى بها انتهت، واستهلكت، وتفككت، وذهبت إلى الظل والدخان، حكومة سانشو.

والذى بينما هو فى الليلة السابعة من أيام حكومته^(**)، ممدداً فى سريره. دون وفرة فى النبيذ والخبز، وإنما وفرة فى الأحكام وإبداء الآراء، وعمل اللوائح وإصدار أوامر عليا، وعندما، رغم أنف الجوع، بدأت تغمض منه جفون النوم، سمع ضجة عظيمة لأجراس، وأصوات، لم تظهر له، إلا أن الولاية كانت تغرق.

(*) استخدام كلمة الجفاف اجتهاد من المترجم لترجمة فصل El Estio، وهو قديماً يعتبر فصلاً مستقلاً بين الصيف والخريف، ولعل هذا الفصل الجاف يعكس فى مصر القديمة فهو فصل الفيضان.

(**) تكاد تكون عبارة "الليلة السابعة" مفتاحاً لتأثر ثرانتس بألف ليلة وليلة.

جلس في السرير، وصار متيقظاً ينصت، لعله يعرف سبب هذا الضجيج العظيم، لكن ليس فقط فاته أن يعرف، بل أضيف للأصوات والأجراس قرع الطبول الهائل الاتساع مع نغير الأبواق، وهذا تركه مضطرباً، مليئاً بالخوف والفرع، ونهض على قدميه، وارتدى خفاً في القدمين بسبب رطوبة الأرض، دون أن يتلفع بملابس النهوض، ولم يظهر له شيء، فخرج إلى باب مخدعه في الوقت المناسب ليرى آتياً في بعض الممرات أكثر من عشرين شخصاً، بمشاعل مضيئة في أيديهم، وبالسيوف مشهرة، صارخين جميعاً في زعيق عظيم:

- إلى السلاح، إلى السلاح، سيدي الحاكم! السلاح، فقد دخل عدد لا فئائي من الأعداء إلى الولاية؛ ونحن ضائعون إذا لم تنقذنا حيلتك وشجاعتك!

وصلوا إلى حيث كان سانشو بكل هذه الضجة والانفعال والاضطراب، وهو مذهول فرع مما يسمع ويرى، قال له أحدهم:

- سلح نفسك في الحال، فخامتكم، إذا لم تحب أن تضع نفسك، وتضيع كل تلك الولاية.

أجاب سانشو:

- كيف أسلح نفسي، أنا لا أعرف شيئاً عن التسلح أو عن الإنقاذ؟ هذه الأشياء سيكون أفضل تركها لسيدي دون كيخوتي، الذي في الحال كان سيطردهم، ويحل الإشكال، أما أنا وإن كنت آثماً في حق الله، لا يصل إلى فهمي شيء من تلك العجلة.

قال آخر:

- آه، أيها السيد الحاكم! أي تباطؤ هذا؟ سلح نفسك فخامتكم، وها هنا معنا لك أسلحة هجومية ودفاعية، واخرج إلى ذلك الميدان، وكن قائداً وقبطاناً، فقانوناً هذا واجبك، لكونك حاكماً.

أجاب سانشو:

- سلحوى على الرحب والسعة.

وفى التو واللحظة أحضروا له درعين يغطيان كل الجسم، من إمدادهم، ووضعوهما له فوق القميص، دون تركه لارتداء ثوب آخر، درعًا من الأمام وآخر من الخلف، وبأنبوبين مدرعين غطيا كل ذراعيه وثبتهما بحبال، بطريقة جعلته محبوسًا داخل دروعه، ومتخشبًا مثل قرن أيل، دون أن يستطيع أن يثنى الركبتين أو التحرك خطوة واحدة، ووضعوا فى يده رمحًا، ارتكز عليه حتى يستطيع أن يمسك نفسه على قدميه. وهنا عندما صار فى هذا الوضع طلبوا منه السير لقيادتهم وتشجيعهم جميعًا، فهو بوصلتهم وفانوسهم، ومصباحهم، وبه يصلون إلى النصر.

أجاب سانشو :

- ويلي! كيف على أن أسير، وأنا لا أستطيع تحريك مفاصل الركب، حيث تعوقى تلك الصفائح المتصلة تمامًا بجلدى؟ الذى عليكم فعله هو حملى من يدى ورجلى، أو حملى منتصبًا على قدمى، أو فى أى وضع فإننى سأحافظ عليه، أو من رمحى أو كل جسمى.

قال آخر :

- تحرك أيها الحاكم، فما يعوقك هو الخوف وليس الصفائح، هيا انته من هذا، وهز نفسك، فالوقت يتأخر، والأعداء يتكاثرون، والأصوات تتزايد، والخطر يثقل.

ومع إقناعهم وإهاناتهم جرب الحاكم المسكين التحرك، ليسقط على وجهه فوق الأرض سقطة عظيمة، حتى ظن أنها مزقته. بقى مثل سلحفاة محبوسة ومغطاة بدرع غطائها المحارى، أو نصف قالب من اللحم المقدد بين ضلقتى لِفَتَّة،

أو قارب جانح في الرمل، وما إن رآه هؤلاء القوم المحتالون في خدعهم واقعا حتى خلا قلبهم من أى شفقة، وأطفأوا مشاعرهم، وعادوا لرفع أصواتهم وتكرار: السلاح! وبسرعة عبروا فوق جسم المسكين سانشو، منزلين به طعنات لا نهاية لها فوق درعيه، وهو إن لم ينكمش ويخفض رأسه داخل الدروع، لنال الحاكم المسكين شر مستطير، وفي هذا الضيق والانكماش سال عرقه وتدفق، ومن كل قلبه أوكل أمره لله أن ينجيه من هذا الخطر. كان البعض يتعثر به، وآخرون يسقطون فوقه، وهكذا صار أمره وقتاً طال، مع أصوات هائلة تبث هذا وذاك المقال:

- هنا جنودنا وأتباعنا، في تلك الجهة يضغط الأعداء أكثر! تلك البوابة عليها حراسة! أغلقوا ذلك الباب! تلك السلام تنزع! أحضروا أواني القطران المشتعل! سمك وراتينج في أقساط الزيت المشتعل! اعملوا حواجز في الشارع بالمراتب (المشتعلة)!

في النهاية، ذكرت بكل إلحاح كل أنواع الخردة والآلات والعتاد المستعملة في الحرب، والتي يدفع بها هجوماً على مدينة، وسانشو المطحون الجسم، والذي كان يسمع هذا، ويعانى كل شيء، كان يردد في سره: "أوه، تعاليت يارب، فلتقف الأمور عند فقدان الولاية، وأراني ميتاً أو خارج هذه الأحزان!" سمعت السماء طلبه، حيث لم يكن يتوقع، إذ سمع أصواتاً تقول:

- النصر! النصر! هزم الأعداء! آه أيها السيد الحاكم، انهض فخامتكم، وتعال، تعال للتمتع بالنصر، وشارك في فرحة إخلاء الولاية من الأعداء، بفضل ساعدك الذى لا يهزم!

قال بصوت أليم الحاكم المتألم:

- أهضوني!

ساعده على النهوض، وما إن وقف على قدميه حتى قال:

- العدو الذى قد أكون هزمته أحب أن تغرزوه فى جبهتى! أنا لا أحب مشاركة أحد فرحة إخلاء الأعداء، وإنما أطلب وألتمس من أى صديق، إن وجد صديق، أن تعطونى جرعة نبيذ، فإني أجف، وجففوا عرقى فقد تحولت إلى بركة مياه.

جففوه، وأحضروا النبيذ، وخلصوا عنه صفائح الدروع، وجلس على سريره، وأغمى عليه من الخوف والفرع والجهد، وكان بالفعل يحزن لاعبى الخدعة أن أوصلوها إلى هذا الحد من الحزن. لكن عندما عاد سانشو إلى وعيه خف ألمهم الذى سببه إغماؤه. سأل عن الساعة، أجابوا أنها ساعة الإصباح. صمت دون إضافة كلمة، وبدأ فى ارتداء ملابسه، والجميع مقبور فى صمت، ينظرون إليه منتظرين نهاية تعجله بارتداء ملابسه. وفى النهاية ارتدى ملابسه، ورويدا رويدا، لأنه كان كامل الطحن والضعفة لم يستطع التحرك سريعا سريعا، لكنه وصل إلى الحظيرة، متابعا خطواته كل من كانوا هناك، ومقتربا من حماره، احتضنه وقبله فى رأسه قبلة سلام، وليس دون دموع فى العين، قال له:

- تعال، حضرتكم هنا، أيها الرفيق والصديق، والصابر على متاعى وبؤسى، عندما كنت متواضعا معك، ولم أكن أفكر فى شيء سوى تعديل عدتك أو تغذية معدتك، كانت ساعاتى سعيدة ومثلها أيامى وأعوامى، لكن بعد أن هجرت حضرتكم، وامتطيت أبراج الطموح والغرور، دخل نفسى فى أعماقها ألوان البؤس، وألف جهد جهيد، وأربعة آلاف لون من القلق.

وخلال نطقه بهذه العبارات مضى يركب البردعة ويعد الحمار، دون أن يقول له أحد شيئا، وما إن انتهى من ذلك وثب عليه وامتطاه، ووجه كلماته إلى رئيس الخدم، وإلى السكرتير وخدام الصالة، وللدكتور بدرو ريثيو، وإلى آخرين كانوا حاضرين هناك:

- افتحوا الطريق، سادتي، واتركوني أعود إلى حريقي القديمة، دعوني أذهب للبحث عن حياتي الماضية، حتى أبعث من هذا الحاضر الميت. لم أولد لأكون حاكمًا، ولا للدفاع عن ولايات ولا مدن ضد الأعداء الراغبين في مهاجمتها. والأفضل لفهمي أن أحرث وأحفر، وأن أقلم وأشذب الكروم، وليس لإصدار القوانين والدفاع عن الأقاليم أو الممالك، فإن بدرو بخير مادام بقي في روما، أقول إنه من الأفضل أن يبقى كل واحد ممتهنًا المهنة التي من أجلها ولد، وفأس في يدي خير من صولجان حاكم. أفضل أن أملاً بطني بالحمص من أن أظل مربوطاً إلى بؤس طبيب صفيق يقتلني من الجوع، وأفضل أكثر أن أرقد تحت ظل شجرة بلوط أخضر في الصيف، وأرتدى ثوبًا خشبًا من الشعر في الشتاء مصحوبًا بحريقي، من أن أنام مربوطاً بحكومة بين ملاءات هولندا مرتدياً ناعم الثياب. استودعكم الله، وقولوا للدوق سيدي، أننى عاريًا ولدت، وعاريًا أوجد الآن، لاخسارة ولا مكسب، أود القول، إننى دخلت هذه الحكومة دون فلس، ودون فلس منها أخرج، على عكس ما اعتاده حكام الولايات الأخرى عندما عنها يخرجون، هيا ابتعدوا، ودعوني أذهب، وأعالج نفسي، حيث يبدو لي حسب اعتقادي أن ضلوعي مهروسة بفضل الأعداء الذين تنزهوا هذه الليلة فوقى.

قال الدكتور ريثيو:

- لا ينبغي أن تكون الأمور هكذا، سوف أعطيك مشروبًا ضد السقطات والضعضة، وفي الحال سيعيدك إلى سيرتك الأولى وسلامة جسمك. وفيما يتعلق بالأكل، أعد فخامتكم بإصلاح أمرى، تاركًا لكم حق الأكل بوفرة من كل ما تبغى.

أجاب سانشو :

- كان زمان وجبر! هكذا تظنون أننى سأتنازل عن الرحيل، إن ذلك يشبه تحولى إلى تُركى، هذه الخدع والحيل لا تتكرر مرتين، ولا يلدغ المؤمن من جحر لدغتين. بحق الإله لن أبقى فى هذا، ولا يسمح لى الله بحكومة أخرى، ولسو أعطوها لى بين طبقيين مثل من يطير فى السماء دون جناحين. أنا من نسل بانثا، وكلهم معاندون، إذا قالوا مرة لا، لا بد أن تكون لا، وإن قالوا مرة (فرد) لا بد من (فرد) ولو كانت الأمور من أزواج، على رغم كل العالم. ولتمكث فى هذه الحظيرة أجنحة النملة التى رفعتنى فى السماء حتى تأكلنى جوارح الصيد والطيور الأخرى، ولنعد للسير على الأرض بأقدام حافية، لا تزينها أحذية ذات ثقوب مليئة بالأربطة، ولا تنقصها الخفاف الخشنة المصنوعة من حبال التيل، كل نعجة مع رفيقتها، وكل يمدد أرجله على قدر ملاءته، واطركونى أمر، فالوقت يتأخر.

وعلى هذا علق رئيس الخدم :

- أيها السيد الحاكم، على الرحب والسعة ستترك فخامتكم تذهب، مع أنه سيحزننا جدًا افتقارك، فعبقريتك وسلوكك التقى يجعلنا نرغب فى بقائك، لكن من المعروف أن كل حاكم قبل أن يغادر المكان الذى حكمه عليه أن يقيم عشرة أيام قبل المغادرة، وعندها اذهب فى سلامة الله.

أجاب سانشو :

- لا أحد يستطيع أن يطلب منى ذلك، إذا لم يأمر به سيدى الدوق. سوف أتقابل معه، وسأوضح له كل شىء، وخاصة عند خروجى عارياً مثلما أفعل الآن، وليس من الضرورى إشارة أخرى على أنى حكمت مثل ملاك!

قال، الدكتور ريثيو :

– بحق الله، سانشو الأكبر معه كل الحق، ورأي أن تتركه يمشى، لأن الدوق سيسعد كثيراً برؤيته.

وكلهم وافقوه، وتركوه يمشى، عارضين عليه مرافقته، وكل ما يساعد على تدليله والراحة في رحلته. قال سانشو إنه لا يريد أكثر من قليل من الشعير من أجل الحمار، وقطعة من الجبن ونصف رغيف من أجله، فالطريق ليس طويلاً، ولا ينقص الزاد كثير أو قل. احتضنه الجميع، وهو باكيًا احتضن الجميع، وتركهم متعجبين، هكذا من كلامه مثل عزمه الصارم وبالغ الذكاء على الرحيل.

الفصل الرابع والخمسون

عبارة عن أمور تتعلق بهذه القصة، وليس بأية قصة أخرى

قرر الدوق والدوقة أن يأخذ تحدى دون كيخوتى لتابعهما طريقه للتمام، ورغم أن الفتى كان فى فلندرة، حيث مضى هاربًا حتى لا تصير دونيا رودريجيث حماة له، فإنهما أمرا أن يوضع فى مكانه خادم أشكونى، كان يسمى توسيلوس مدربين له أولاً عما عليه أن يفعل. وبعد مضى يومين قال الدوق لدون كيخوتى إن خصمه سيصل خلال أربعة أيام، وسوف يتقدم إلى ميدان المبارزة مسلحًا باعتباره فارسًا، وسوف يقسم بنصف لحيته أن الفتاة كاذبة، بل سيتسع قسمه لكامل لحيته أنه لم يعطها كلمة الزواج. فرح دون كيخوتى بهذه الأخبار، ووعد نفسه بتحقيق العجائب فى هذه القضية، واعتبر أنه حظ عظيم أن أتيح له أن يتمكن هؤلاء السادة من رؤية إلى أى مدى تمتد قوة ساعده الجبار، وهكذا مع ابتهاج الأيام الأربعة وسورها، والتي صارت تمضى بالنسبة له كما لو كانت أربعمئة دهر.

دعونا نتركها تمر (مثلما نترك أشياء كثيرة تمر)، وهيا لمصاحبة سانشو سائرا بين البهجة والحزن فوق حماره، باحثًا عن سيده ليلتحق به، فصحبته تسره أكثر من أن يكون حاكمًا لكل ولايات العالم. وحدث أن قبل أن يبتعد كثيرًا عن الولاية وحكومتها (مع أنه لم يحاول قط التحرى عما إذا كانت ولاية أو مدينة أو مركزًا أو قرية، ذلك الذى كان يحكمه) أن رأى فى الطريق ستة حجّاح بتلك العصى التى يحملها الأجانب الذين يطلبون الصدقات بالغناء، وهؤلاء عند وصولهم

إليه تحلقوا به وبدأوا جميعاً في الغناء رافعين أصواتهم، بلغتهم التى لم يستطع فهمها، إلا كلمة واحدة نطقوها بلغته "صدقة"، ولأنهم نطقوها بوضوح فهم أن غناءهم لطلب الصدقة، وكما كان رجل بر، كما يقول سيدى حامدى، أخرج من خرجه نصف رغيف وقطعة جبن مما كان فى زاده، وقال لهم بالإشارة إنه ليس معه شيء آخر لإعطائه لهم. استقبلوا صدقته بسرور، وقالوا:

- جلته! جلته! (*)

أجاب سانشو :

- لا أفهم ما تطلبونه أيها الناس الطيبون.

وهنا أخرج أحدهم من جيبه كيس نقود، وأظهره لسانشو، حيث فهم أنهم يريدون نقوداً، وهنا حتى يفهمهم أنه ليس معه نقود، وضع إبهامه على حنجرته ثم رفع يده إلى أعلى، وبعدها همز حماره وفرق حلقتهم وتجاوزهم. كان واحد منهم ينظر له طول الوقت فى اهتمام شديد، ولحق به ووضع يده على خصره، وبصوت عال وبلغة قشتالية جداً، قال :

- بحق الله! ماذا أرى؟ هل من الممكن أن أحتضن بين ذراعى صديقى الغالى،

وجارى الطيب، سانشو بانثا؟ نعم هو، لأننى الآن لست نائماً ولا سكراناً.

اندهش سانشو من أن يعرفه بالاسم، وأن يحتضنه ذلك الجوال الأجنبى، وبعد النظر إليه طويلاً، دون كلمة، وبانتباه شديد لم يصل أبداً للتعرف عليه، وما أن رأى دهشته الأجنبى الجوال حتى قال :

(*) الكلمة ألمانية Geld ومعناها نقود.

- كيف يمكن، أيها الأخ سانشو بانثا، ألا تتعرف على جارك ريكوتى الموريسكو
بقال قريتك؟

وحينئذ نظر له سانشو بانثا أكثر، وبدأ يتذكر صورته، وأخيراً وصل إلى
التعرف عليه بأكمله، ودون أن ينزل عن حماره ألقى بذراعيه حول رقبتة، وقال:

- بأى شيطان، ريكوتى، كان علىّ أن أتعرف عليك بملابس مضحك المسرح
هذه؟ قل لى من جعلك صعلوكاً فرنسيّاً؟ وكيف تجرأت للعودة إلى إسبانيا،
حيث إذا أمسكوك وعرفوك، فحظك أسود من الليل؟

أجاب الجوّال :

إذا أنت لم تكشفنى سانشو، فأنا آمن فى هذه الملابس، ولن يعرفنى أحد،
ولنأخذ جانباً تحت شجرة الحور هناك، حيث يود رفقائى أن يأكلوا ويستريحوا،
وهناك ستأكل معهم، وهم أناس مسالمة، وسأنال فرصة أن أحكى لك كل ما حدث
لى بعد أن رحلت عن قريتنا، طاعة لمرسوم جلالة الملك، الذى كان يهدد فى صرامة
تعاء أمتى كما سمعت.

وهكذا فعل سانشو، وفى خلال ذلك تحدث ريكوتى مع باقى الحُجَّاج، فانتحوا
عند الشجرة الظاهرة للنظر فى مكان منحرف بما يكفى عن الطريق الملكى الذى
كانوا يسلكونه، وألقوا بعصبيهم، وخلعوا معاطفهم أو ما كانوا يتدثرون به، وبقوا
عرايا عن التكر، وكانوا جميعاً شباناً، ورجالاً ظرفاء، ما عدا ريكوتى الذى كان
رجلاً هاجمته السنون. كان مع كل منهم خرج، وكل خرج كان حسن التموين،
وعلى أقل تقدير بأشياء مثيرة للشهية وتنادى على الظمأ من بعد فرسخين. افترشوا
الأرض، وكان غطاء مائدتهم الحشائش، ووضعوا فوقها الخبز والملح والسكاكين،

والمكسرات وشرائح الجبن وفخذة خنزير مدخن ومملح، لا تصعب على المضغ، ولا تقاوم المصمصمة. وضعوا أيضًا طعامًا أسود كانوا يسمونه الكافيار، مصنوع من بيض السمك، ويحث على الشرب. ولم ينقصهم الزيتون، حتى لو كان جافًا ودون أى تمليح، فإن له طعمًا لذيذًا وفي قزقرته تسلية. لكن الشيء المميز فى ميدان هذه الوليمة كان ست زقاق من النبيذ، حيث سحب كل واحد منه زقه من خرجه؛ حتى ريكوتى الطيب الذى تحول من موريسكى إلى ألمانى أو جرمانى، فقد سحب أيضًا زقه، الذى كان فى عظمته ينافس الزقاق الخمسة الأخرى.

بدأوا يأكلون فى لذة عظمى، وفى تباطؤ شديد متذوقين كل قضة يقضمها الفم، مع صغر القضامات من كل صنف، وعند وصولهم للذروة، كلهم فى نفس واحد، رفعوا سواعدهم، والزقاق فى الهواء، ولم يظهر إلا أنهم كانوا يصوبون بأن سقطت أفواه الزقاق فى أفواههم، وانغرزت فى السماء عيونهم، بينما تهتز الرعوس من جانب إلى جانب، علامة على مصداقية طعم النبيذ، بقوا هكذا زمنًا طيبًا، ممطرين معدتهم بأحشاء الزقاق. كان سانشو ينظر إلى كل هذا دون ألم، وإنما منتظرًا إنجاز المثل "عندما تذهب إلى روما، افعل مثلما يفعلون". وبدأ تصويبه مثل الآخرين طالبًا زق ريكوتى، ولم تكن لذته بأقل من لذة الآخرين.

مالت على أفواههم الزقاق أربع مرات، لكن الخامسة كانت غير ممكنة لأن الزقاق أصبحت أكثر هشاشة وجفافًا من عود حلفاء، الأمر الذى أصاب ما أظهره من بهجة حتى الآن بالكآبة. ومن لحظة لأخرى كان أحدهم يضع يده اليمنى فى يد سانشو ويقول: إسبانى وألمانى كُنَّا واحد، رفيك طيب^(٢)، وسانشو يرد: رفيك طيب

(٢) لغتهم مكسرة يريدون القول: الإسبانى والألمانى واحد، رفيق طيب، ويحاكيهم سانشو فى مياطة بنفس اللغة، ويقول ما معناه: رفيق طيب، أكلت بالله!

أحنف بالله! ثم يطلق ضحكة تستمر ساعة، دون أن يتذكر شيئاً مما حدث له فى حكومته، خلال الوقت الذى كان يأكل ويشرب فيه، لا قليل من الجد يمكن أن يعنيه. وأخيراً، نهاية النبيذ كانت بداية لنوم سيطر على الجميع، وبقوا نائمين على نفس المائدة التى أكلوا عليها، فقط ريكوتى وسانشو بقيا فى حال يقظة، لأنهما أكلا أكثر وشربا أقل، وابتعدا عن النائمين، وجلسا عند أقدام شجرة زان تاركين هؤلاء الحجاج مدفونين فى نوم لذيذ، وريكوتى دون تعثر فى لغته الموريسكية، قال العبارات الآتية فى لغة قشتالية صافية^(١):

- تعرف جيداً، أوه، سانشو باننا، صديقى وجارى! إن الإعلان والمرسوم الذى أصدره صاحب الجلالة ضد أمتى أشاع الرعب والفرع بيننا جميعاً؛ وعلى الأقل خوفاً كان جسيماً، حتى تصورت أنه قبل المهلة المعطاة للرحيل سوف تنفذ العقوبات على وعلى أولادى. ونظمت الأمر حسبما تراءى لى باعتبارى شخصاً واعياً يعرف فى ذلك الوقت، أنهم لابد أن ينتزعوا بيته الذى فيه يعيش، ويمدونه بيت آخر حيث يجبر على الانتقال إليه، أقول نظمت أمرى بأن أخرج وحدى من قريتي دون صحة أسرتى، والذهاب للبحث عن مكان يمكن براحة أن أحملها إليه، ودون السرعة التى خرج بها الآخرون، لأننى رأيت ورأى الجميع من شيوخنا أن تلك الإعلانات ضدنا لم تكن مجرد تهديدات كما كان يقول البعض، إنما هى قوانين حقيقية يجب تنفيذها فى وقتها المحدد، وكان يجبرنى على الاعتقاد فى هذه الحقيقة معرفتى باخوات السفهية والمدمرة التى يقوم بها أهلنا، وكانت هذه الأحداث أشبه بالإلهام السماوى الذى حرك جلالته لتنفيذ قراره الشجاع، ليس لأننا كلنا

(١) اللغة الموريسكية هى فى الحقيقة نفس اللغة القشتالية، وهى هى بالضبط التى صارت الإسبانية.

كنا مدانين، فبعضنا كان مسيحياً ثابت اليقين، لكنهم كانوا قليلين، ولم يستطيعوا اعتراض من لم يكونوا كذلك، ولم يكن من الطيب تنشئة الأفعى في الحجر، تاركين العدو داخل البيت. لكن حيثما ذهبنا بكينا من حب إسبانيا، ففي النهاية ولدنا فيها، وهى وطننا الطبيعي، ولا نجد في أى مكان الترحيب الذى تتمناه تعاستنا، وفي بلاد البربر وفي كل أجزاء تونس، كنا ننتظر أن نستقبل ويرحب بنا وندلل، هناك حيث نقابل بالعداء أكثر وسوء المعاملة. لم نعرف السعادة حتى فقدناها، والرغبة الكبرى عند كل واحد منا هى العودة إلى إسبانيا، وأغلب هؤلاء الذين يعرفون الإسبانية (وهم كثير) يعودون إليها، ويتركون هناك زوجاتهم وأولادهم دون ملجأ. كثير ذلك الحب الذى يكونه لإسبانيا، والآن أعرف وأجرب ما اعتادوا على قوله، إنه حلو حب الوطن. خرجت، كما أقول، من قريننا، ودخلت فرنسا، ومع أنهم هناك استقبلونا بترحاب طيب، فإننى أحببت أن أرى كل البلاد، وعبرت إلى إيطاليا ثم وصلت إلى ألمانيا، وهنا بدا لى أنه يمكن العيش فى حرية أكثر، لأن سكانها لا ينظرون بحساسيات كثيرة. كل واحد يعيش كما يجب؛ لأنه فى معظم أجزائها يعيشون متحررين من الدين، وتركت بيتاً اشتريته بالقرب من أوغسطا، واختلطت بهؤلاء الحجاج، الذين تعودوا الحضور إلى إسبانيا (كثير منهم) كل سنة لزيارة معابدها، وهى محط أنظارهم، باعتبارها أمريكا بالنسبة للإسبان، وبسبب مكاسب مؤكدة وأرباح معروفة. يسرون فى كل ربوعها، ولا يمرون بقرية دون أن يخرجوا ببطون شعبانة وشراب هنىء، كما اعتادوا القول، وأيضاً على الأقل بريال نقداً، وفى نهاية رحلتهم يخرجون بأكثر من مئة دينار زائدة عن الحاجة، يقايضونها بالذهب، ويضعونه فى تجويف العكاكيز أو المعطف، أو بالحيل التى يمتلكونها، ويخرجونه من المملكة، ويحملونه إلى بلدهم، على الرغم من حرس الحدود والموانئ حيث يتم

تفتيشهم. والآن نيتي، سانشو، إخراج الكنز الذي تركته مدفونًا، وحيث إنه خارج القرية يمكنني فعل ذلك دون خطر، ثم أكتب أو أمر من بلنسية إلى ابنتي وزوجتي، اللتين أعرف أنهما في الجزائر، وعمل حيلة لنقلهما إلى أحد موانئ فرنسا، ومن هناك أحملهما إلى ألمانيا، حيث ننتظر ما شاء الله أن يفعله بنا، وباختصار، سانشو، أنا أعرف يقينًا "أن لا ريكوتا ابنتي وفرنسيسكا ريكوتا زوجتي مسيحيان كاثوليكيان"، ومع أنني كذلك إلى حد كبير، فإنني حتى الآن لدى من المسيحية أكثر مما أدين به من الإسلام، وأرجو الله دائمًا أن يفتح عيون بصيرتي، وأن يرشدني كيف أقف على خدمته. وما يدهشني عدم معرفتي لماذا ذهبت زوجتي وابنتي إلى بلاد البربر وليس إلى فرنسا، حيث يمكن عيشهما بوصفهما مسيحتين.

وعلى هذا أجاب سانشو :

- انظر، ريكوتي، هذا لا بد أنه خرج عن أيديهما، لأن من حملهما هو خوان تيبو، شقيق زوجتك، وحيث إنه ينبغي أن يكون مسلمًا نقيًا، فقد ذهب إلى أفضل منزل لمسلم، وأعرف أن أقول لك شيئًا آخر، أعتقد أنك تذهب عبثًا للبحث عما تركته في غلق، لأن لدينا أخبارًا أنهم انتزعوا من صهرك ومن زوجتك لآلئ كثيرة، ونقودًا كثيرة من الذهب، والتي كانوا يحملونها لتسجيلها.

أجاب ريكوتي :

- هذا من الممكن، لكنني أعرف سانشو، أنهم لم يمسا ما خبأته، لأنني لم أكشف لزوجتي عن مكانه تحسبًا لأي كارثة، وهكذا، إذا أحببت أنت، سانشو، الحضور معي ومساعدتي على إخراجهم، وعدم الكشف عنه، سأعطيك مئتي دينار، بما تستطيع معالجة احتياجاتك، فأنت تعرف أنني أعرف أنها كبيرة.

أجاب سانشو :

- قد أعملها، لكنني لست طماعًا في شيء، ولكوني كذلك تركت هذا الصباح مهنة تضيع من يدي حيث كانت تمكنني من طلاء جدران بيتي بالذهب، واكل قبل مضي ستة أشهر في أطباق من ذهب، وهكذا لهذا، ولما يبدو لي أن في ذلك خيانة للملكي حيث أساعد أعداءه، فلن أذهب معك، حتى لو أعطيتني نقدًا هنا أربعمئة دينار، وليس فحسب وعدًا بمبتين.

- وأي مهنة تلك التي تركتها سانشو ؟

- تركت منصب حاكم ولاية، ويمينا لا توجد ولاية مثلها، ولو اقترحوا ثلاث مرات.

- وأين تلك الولاية؟

- أين؟ على بعد فرسخين من هنا، وتسمى (جزيرة) باراتاريا .

- اخرس سانشو، الجزر هناك في البحر؛ ولا توجد جزر في اليابسة الثانية.

- كيف لا؟ أقول ريكوتي يا صديقي، إنني غادرتهما هذا الصباح، وبالأمس كنت أحكمها على هواي، مثل قاذف السهام، لكن مع كل هذا تركتها، لما بدا لي الحكم مهنة خطيرة.

- وماذا كسبت من الحكومة؟

- كسبت معرفتي أنني لا أصلح للحكم، إلا إذا كان حكم كوخ مواشي، وأن الثروات التي تكتسب في هذه الحكومات تكون على حساب فقدان الراحة

والنوم بل الغذاء؛ لأنه في الولايات يجب أن يأكل الحكام قليلاً، وخاصة إذا كان لديهم أطباء يهتمون بصحتهم.

- لا أفهمك، سانشو، لكن يبدو لي أن كل ما تقوله ترهات، فمن كان عليه أن يعطيك ولايات لتحكمها؟ هل اختفى في العالم الرجال الأكثر كفاءة؟ اخرس، سانشو، وعد إلى وعيك، وانظر لو كنت تحب أن تأتي معي، كما قلت لك، لمساعدتي لاستخراج الكنز الذي تركته مدفوناً، (والذي في الحقيقة هو ثروة تستحق أن يطلق عليها كنز)، وسوف أعطيك ما تتعیش به كما قلت لك.

- انتهى، لقد قلت لك، ريكوتى، إني لا أحب، واسعد بأني لن أكشف أمرك، وواصل موفقاً طريقك، ودعني أواصل طريقى؛ فأنا أعلم جيداً أن الكسب السهل يضيع، والأسوأ أنه يضيع، ويضيع معه صاحبه.

- لا أحب أن أعاند، سانشو، لكن قل لي: هل كنت في قرينتا يوم رحلت زوجتى وابنتى وصهرى؟

- نعم كنت هناك، وأعرف أن أقول لك، أن ابنتك خرجت في جهالها البديع، حتى إن كل القرية خرجت لرؤيتها، وكلهم قالوا إنها أجمل مخلوقة في العالم، سارت في طريقها باكية، وأخذت تحتضن كل صديقاتها ومعارفها، وكل من جاء لرؤيتها، والكل دعا ربنا المسيح وسيدتنا والدته أن يرعها، وهذا مع حزن غامر، جعلنى أجهش بالبكاء، رغم أنه ليس من عادتى البكاء بسهولة وبتلك القوة، ويميّناً أن الكثيرين كانت لديهم الرغبة لإخفائها، والخروج لانتزاعها من طريق الرحيل، لكن الخوف في العمل ضد أوامر الملك أوقفهم.

وبشكل رئيسي الذى أظهر عظيم الانفعال هو دون بدرو جريجوريو، ذلك الفتى الوارث الغنى الذى تعرفه أنت، ويقولون إنه كان يحبها كثيراً، وبعد رحيلها لم يره أحد قط في قرينتا، وكلنا نظن أنه ذهب وراءها، لكن حتى الآن لم يعرف شيء.

- كان لدى دائماً الشك المدمر أن ذلك الفارس كان يجب ابنتى، لكن واثقاً من قوة ريكوتا، لم أحزن قط لمعرفة أنه يحبها حباً طيباً؛ وقد سمعهم يقولون، سانشو، إن الموريسكيات قليلاً (وربما لم يحدث قط) أن تورطن في حب المسيحيين القدماء، وابنتى، حسبما أعتقد، كانت تميل إلى أن تصير مسيحية أكثر منها عاشقة، ولن تسلم من مطاردة هذا السيد الوارث.

- سلمها الله منه، والآن، ريكوتى صديقى، دعنى أرحل من هنا، فأنا أحب أن أصل هذه الليلة، حيث يقيم سيدى دون كيخوتى.

- صحبتك سلامة الله، سانشو أيها الأخ، وما هم رفقائى يتقلبون، وأيضاً إنها ساعة مواصلة طريقنا.

وفى الحال احتضن الاثنان أحدهما الآخر، وصعد سانشو على حماره، وارتكز ريكوتى على عكازه، وانفصلا كل فى طريق.

الفصل الخامس والخمسون

عن أشياء حدثت لسانشو فى الطريق، وأحداث أخرى ليس علينا إلا مشاهدتها

توقف سانشومع ريكوتى لم يسمح له أن يصل فى ذلك اليوم إلى قلعة الدوق، رغم أنه كان على بعد نصف فرسخ منها، حيث أدركه الليل بظلام وانغلاق للسماء، لكن كان الزمن صيفاً فلم يزعجه ذلك، وهكذا تجنب الطريق بنية انتظار الصباح، وشاء حظه العائر والتعيس، خلال بحثه عن مكان يريحه أفضل فى نومه، أن يسقط هو والحمار فى حفرة، وكانت هوة شديدة الظلام بين عدد من المباني شديدة القدم، ولحظة السقوط سلم أمره الله من كل قلبه، وظن أن سقوطه لن يتوقف حتى قاع الجحيم، ولم يكن الأمر كذلك، لأن الحمارة على بعد ثلاث قامات أدرك الأرض الصلبة، وكان هو مازال فوقه دون أن يحدث له أى تمزق أو جرح. تحسس كل جسمه وسحب نفسه، ليرى هل كان سليماً، أو متقوياً من أى جزء من جسمه، وعندما رأى نفسه بخير، وكامل الأجزاء، وصحته تمام التمام، لم يشبع من تقديم الشكر لله ربنا، لما أنعم عليه، لأنه دون أن يعتريه شك فكر فى أنه ممزق إرباً إرباً. وتحسس بيده جدران الهوة، ليرى عما إذا كان ممكناً الخروج منها دون مساعدة أحد، لكنه وجد كل الجدران ملساء ودون أى بروز يمكن الإمساك به، مما أحنزن سانشو كثيراً، وخاصة عند سماع حمارة يشكو فى ضعف وألم، ولم يكن هذا بالكثير، ولم يكن يئن بسبب الدلال، فالحقيقة أنه لم يكن حاله أحسن الأحوال.

قال لحظتها سانشو بانثا:

- آى، الحوادث غير المتوقعة تعناد أن تقع فى كل خطوة لمن يعيشون فى هذا العالم البائس! من يقول بأن من كان بالأمس متوجًا حاكمًا لولاية، أمرًا خدمه وأتباعه، يرى نفسه اليوم مقبورًا فى حفرة، دون وجود أى شخص ينجده أو خادم أو تابع يهرع لمساعدته؟ هنا سوف نموت من الجوع أنا وحمارى، وذلك إذا لم يميت هو من طحن جسمه وتمزقه، وأمت أنا من الأحزان قبل أن نموت من الجوع. على الأقل، أأن أكون أكثر حظًا من سيدى دون كيخوتى دى لامانشا عندما نزل وسقط فى كهف مونتيسينوس؟ حيث وجد من يؤانسه أفضل مما لو كان فى بيته، حتى إن سقطته لم تكن تبدو أكثر من الذهاب إلى مائدة معدة، وسرير مرتب؟ هناك شاهد رؤى حلوة سلسلة، وأنا هنا حسبما أعتقد سأرى ضفادع برية وأفاعي. وىلى، فى أى منزل انتهت خيالاتى وأوهام جنونى! من هنا سوف يستخرجون عظامى، عندما تشاء السماء اكتشاف بقاياى نظيفة من اللحم، بيضاء، بالية، وعظام حمارى الطيب معها. من أى علامة حينذاك سوف يتعرفون علينا؟ ربما بفضل من لديهم أخبار أن سانشو بانثا لم يفصل قط عن حماره، ولا حماره عن سانشو بانثا. مرة أخرى أقول: "ما أبأسنا أنا وحمارى، فلم يشأ حظنا العائر أن نموت فى وطننا، بين أهلىنا حيث نكتبنا لا علاج لها، ولا ينقص غيرهم يتألمون لها، وفى آخر ساعة لفكرنا^(١) يغلقون لنا عيوننا! أوه، يا رفيقى وصدىقى، ما أسوأ أجر ما دفعته لخدمتك المخلصة! سامحنى، واطلب من

(١) لحظة الموت.

الحظ أن يخرجنا من هذا الجهد الذى وقعنا فيه معًا، بأفضل أسلوب يستطيعه،
وإن أعدك بأن أضع تاجًا من الغار على رأسك، حتى لا تبدو إلا شاعرًا
مكرمًا، وبأن أضعف اهتمامى بك.

بهذه الطريقة أخذ يندب سانشو بانثا، وحماره يسمعه دون أن يجيب عليه
بأى كلمة، وهكذا وصل الضيق والحزن به إلى هذه الحدود. وأخيرًا، بعد قضاء
تلك الليلة فى شكاوى بانسة وتعدد، جاء النهار، ومع شفافيته وإشراقه رأى سانشو
أنه مستحيل كل الاستحالة الخروج من ذلك البئر دون عون، عاد للندب وإصدار
الصرخات، ففعل أحدًا يسمعه، لكن كل صرخاته تبددت فى صحراء، ففى كل هذه
الأنحاء لا يمكن أن يوجد شخص يسمعه، وهنا استسلم للموت. كان الحمار منقلبًا
على ظهره، أراحه سانشو وأوقفه على أرجله، ولم يكذب يفعل ذلك حتى استخرج من
الخرج (وقد سقط أيضًا معهما) قطعة خبز، وأعطاهما لحماره، الذى لم يسئ التعرف
على الخبز، وقال له سانشو، كما لو كان يفهمه:

– كلُّ ألم لا يعدم الخبز طيب.

خلال ذلك اكتشف ثقبًا فى جانب من الهوة، يتسع لدخول شخص به إذا
ضغط نفسه وانكمش. هرع إليه سانشو بانثا، وحول نفسه إلى حزمة قمح وحشرها
فى الثقب، فدخل فيه، ورأى بداخله امتدادًا متسعًا طويلاً، واستطاع أن يراه، لأن ما
يمكن أن يسمى سقفًا لهذا الامتداد كان يتسرب منه شعاع شمس يكشف عن كل
شئ. ورأى أيضًا أن الامتداد يطول بتجويف آخر متسع، وعندما رآه عاد إلى
حيث الحمار، وبحجر بدأ يوسع الثقب ساحبًا التراب من الثقب، حتى إنه فى وقت
قليل أصبح يتسع لدخول الحمار بسهولة، وهذا ما فعله، أخذًا له من شكامه استطاع
السير فى ذلك النفق متقدمًا لعله يجد مخرجًا من ناحية أخرى. ومرات تحرك فى

ظلام، ومرات أخرى دون نور، لكن لم يتحرك في أى مرة دون خوف. قال لنفسه: "يرحمنى الله العزيز الجبار! ذلك الحظ السيئ لى كان سيكون مغامرة لسيدي دون كيخوتى، كان سيرى فى هذه الأعماق وذلك السجن المطبق حدائق غناء لجاليانا^(*)، وكان سيتوقع الخروج من هذه الظلمات والضيق إلى مرج مزدهر، لكننى أنا دون حظ أو نصاحة، وبروح متدنية، أفكر أنه تحت كل خطوة سوف تفتح هوة أخرى مفاجئة، تبتلعنى. إذن، (تعال متعثرًا إذا أتيت وحدك)^(**) بهذه الطريقة، ومع تفكير أخرى، بدا له أنه سار أكثر من نصف فرسخ، فى نهايته اكتشف نورًا مضطربًا، يبدو مثل نهار، وفى منطقة هناك كان يدخل مع تباشير وجود نهاية مفتوحة لذلك الطريق، الذى كان بالنسبة له يقود إلى العالم الآخر.

وهنا يتركه سيدي حامدى بن إنجيلين، ونعود لثئون دون كيخوتى، الذى كان فى سرور وبهجة ينتظر المهلة لقدم المعركة التى كان عليه أن يخوضها مع سارق شرف ابنة دونيا رودريجيث، التى كان يفكر فى إزالة العدوان والإساءة التى أوقعوها عليها. وحدث، من ثم، أنه عند خروجه ذات صباح، للتدريب والتجريب فيما عليه أن يفعل فى معركة الغد دافعًا روثنانتي للركض، ليصل إلى أن تجتمع أرجله معًا على حافة كهف، ولو لم يشد العنان بقوة لاستحال ألا يسقط فيه، فى النهاية أوقفه، وتجنب السقوط، وباقترابه أكثر قليلاً، سمع أصواتًا عظيمة بالداخل، وبالإنصات المتيقظ استطاع إدراك وفهم ما كان يقال :

- آه، من فوق! هل يوجد تقى يسمعى، أو فارس أو فاعل خير، يتألم لمذنب مدفون بالحياة، أو لحاكم منزوع التاج تعيس!

(*) أميرة مسلمة دخلت قصورها المسحورة آفاق الأسطورة فى طليطلة.

(**) مثل من أمثال سانشو، مشيرًا إلى عجزه دون صحبة سيده الهمام.

بدا لدون كيخوتى أنه يسمع صوت سانشو بانثا، مما جعله مشدوهاً ومندهشاً،
ورافعاً صوته بقدر ما يستطيع، قال:

– من هناك، تحت؟ من يشكو؟

أجابوا:

– من يمكن أن يكون هنا، أو من لا بد أن يشكو، سوى المقهور سانشوبانثا،
حاكم، بسبب آثامه، ولسوء سلوكه، لولاية باراتاريا، وحامل دروع، كان،
للفارس المشهور دون كيخوتى دى لمانشا؟

وعند سماع هذا تضاعف ذهول دون كيخوتى، وتزايد عنده الاندهاش،
عندما مر على خاطره أن سانشو لا بد أن يكون ميتاً؛ وأنه هناك فى الموت كانت
روحه تتعذب، وعند وصوله إلى هذه الفكرة، قال :

– أستحلفك بكل مقدس، وانت كاثوليكي مسيحي، أن تقول لى من أنت؟ وإذا
كنت روحاً تتعذب، قل لى ماذا تحب أن أعمل من أجلك؟ ففى مهنتى مناصرة
المضطرين ونجدتهم فى هذا العالم، وأيضاً سأصبح مناصراً ومنجداً لمن فى حاجة
بالعالم الآخر، ولاسيما أنهم لا يستطيعون أن يساعدوا أنفسهم بأنفسهم.

أجابوا:

– بهذه الطريقة، فخامتكم من تكلمنى ينبغى أن تكون سيدى دون كيخوتى دى
لامانشا، وأيضاً من هزة أوتارك الصوتية أعرف أنك لا يمكن أن تكون غيره،
لا شك.

أجاب دون كيخوتي:

- أنا دون كيخوتي، ومهنتي إنقاذ المحتاجين ومساعدتهم، الأحياء منهم والأموات، ولهذا قل لي من أنت؟ فإنك تتركني في دهشة، لأنك لو أنت خادمي سانشو بانثا، وأصابك الموت، ولم تحملك الشياطين، برحمة الله أنت في الأعراف أو في المطهر، وأنا الكنيسة الكاثوليكية الرومانية لديها صلوات لانتشالك من الآلام التي أنت فيها، وأنا من سيطلب منها ذلك، على حسابي، وبكل ما يمكن أن تدركه ثروتى، لكن قل لي من أنت؟

أجابوا:

- أقسم بما طلبت، وبميلاد من شئت فخامتكم، أيها السيد دون كيخوتي دى لامانشا، أننى خادمك سانشو بانثا، ولم يحدث في أى يوم من أيام حياتى بتأتا أبداً أن مت، فقط بعد أن تركت الحكومة لأشياء وأسباب، تحتاج لوقت أطول لقولها، سقطت أمس في هذه الحفرة حيث أرقد، والحمار معى، ولن يسمح لى بالكذب وعلامة على حياتى أنه هنا حى معى.

ولم يمض هنيهة، إلا ويبدو أن الحمار فهم ما قاله سانشو، لأنه شرع ينهق فى قوة وسلاسة، حتى إن كل الكهف كان يتوهج بترديد نهيقه، قال دون كيخوتي:

- شاهد مشهور! أعرف النهيق كما لو كنت أنجته، وصوتك أسمعته، سانشو عزيزى. انتظرى، سوف أذهب إلى القلعة عند الدوق، وهى قريبة هنا، وسأحضر من يخرجك من هذه الهوة، حيث ينبغى أن تكون آتامك قد وضعتك فيها.

قال سانشو:

- اذهب فحامتكم، وعد سريعاً، من أجل الله الواحد، فإنني لا أستطيع تحمل البقاء هنا مدفوناً بالحياة، فضلاً عن أنني أموت من الخوف.

كان يقول ذلك بينما يتوجه دون كيخوتي إلى القلعة كي يحكى للدوق والدوقة عن حادث سانشو بانثا، ولم يكن قليلاً تعجبهما له، مع أنهما فهما أنه لا بد أن يكون قد وقع عند مروره بفتحة تلك المغارة، والتي حفرت هنا منذ زمن طويل، لكن لم يستطيعا فهم كيف أنه ترك الحكومة دون أن يحاطا علمًا بقدمه. وأخيراً، على حد قولهم، حملوا حبلاً ألواناً، وبجهد عدد غفير من الناس، ومحاولات عديدة أخرجوا الحمار وسانشو بانثا من تلك الغياهب إلى نور الشمس، نظر إليه أحد الطلبة وقال:

- بهذه الطريقة يجب أن يخرجوا من حكوماتهم كل الحكام السيئين، تماماً كما يخرج هذا الآثم من الهاوية العميقة، ميتاً من الجوع، باهت اللون، ودون فلس واحد، حسبما أعتقد.

قال سانشو:

- منذ ثمانية أيام أو عشرة، أيها اللّمّاز الهمّاز، دخلت حكم الولاية التي أعطوها لي، وخلالها لم أرى ممتلئاً بالخبز ولو لساعة، وخلالها طاردني أطباء، وأعداء هرسوا عظامي، ولم يكن لدى وقت لارتكاب آثام أو كسب مال، وكون ذلك كذلك، وهو بالفعل هكذا، لا أستحق، حسبما أفكر، الخروج بهذه الطريقة، لكن العبد في التفكير والرب في التدبير، والله يعرف الأفضل لنا، وما هو في صالح كل إنسان، ولكل زمان مقال، ولا يقول أحد "أنا لن أشرب من نفس هذا الماء"، ومن لديه شحم الخنزير لا يحتاج لتسليك الأسنان، والله يعلم ما في نفسي، وهذا يكفي ولن أقول أكثر، وإن كان لدى ما أقول.

- لا تغضب، سانشو، ولا تحزن مما تسمع، فالكلام لا ينتهى أبداً. عش بضمير مستريح وليقولوا ما يقولون، وإن إرادة ربط ألسنة اللاعين، مثل الرغبة في تركيب أبواب للحقول. إذا خرج الحاكم غنياً قالوا عنه أنه كان لصباً، وإذا خرج فقيراً فقد كان لا يستحق المنصب ومخبولاً.

أجاب سانشو:

— يقيناً، وهذه المرة أفضل أن ينظروا إلى باعتبارى عيباً من أن أكون لصباً.

خلال هذا الحديث وصلوا محاطين بصبية وأناس آخرين كثيرين وذلك إلى القلعة، حيث كان الدوق والدوقة فى انتظارهم فى بعض الممرات. سانشو لم يحسب الصعود قبل الذهاب إلى الحظيرة وتهئية سبل الراحة للحمار، حيث قال عنه بأنه قد مر بليلة سيئة جداً، وبعدها صعد لرؤية سيديه، وأمامهما ركع على ركبته، وقال:

- أنا، سيدى، ذهبت لحكم ولاية باراتاريا، دون أى جدارة لشخصى، فقط لأن عظمتكما أراداه، ودخلت الحكومة عرياناً وخرجت منها عرياناً، لم أخسر ولم أكسب. وإذا كنت حكمت جيداً أو ساء حكمتى، عندى شهود يقولون ما شاءوا. بددت شكوكاً، وحكمت فى قضايا، ودائماً وأنا ميت من الجوع، لأنه هكذا أراد طبيى بدرو ريشو من سكان (ألق بنفسك فى الخارج)، طيب الولاية المختص بالحاكم. هاجمنا أعداء بالأمس، وقد وضعونا فى ضيق شديد، ويقول موظفو الولاية أنهم خرجوا أحراراً ومنتصرين بفضل قوة ساعدى، منحهم الله نفس صحتى، إذا صدقوا. باختصار فى تلك الأيام حاولت تحمل كل الأعباء والواجبات التى يلزم بها الحاكم، ووجدت بتفكيرى الشخصى أن كفى لن يتحملا هذه الأعباء، كما لن تتحمل ضلوعى ثقلاً لا تكافئه،

ولن أجد في جمعتي السهام، وهكذا قبل أن تقلب لي الحكومة ظهر الجمن، أردت أنا أن أقلب لها ظهر الجمن، فتركت صباح أمس الولاية كما دخلتها. لم أطلب قرضًا من أحد، ولم أتورط في أرباح أو مكاسب من أى نوع، ومع أننى كنت أفكر في إعداد بعض اللوائح المثمرة، لم أصنع منها شيئًا، خوفًا من ألا ينفذوها؛ فصار متساويًا عملها أو عدم عملها. وخرجت كما أقول من الولاية دون مرافقة أحد غير حمارى، وسقطت في هاوية، وتحركت في نفق لها، حتى صباح اليوم مع نور النهار، رأيت المخرج، لكن لم يكن سهلًا، ولولا أن أرسلت لي السماء سيدى دون كيوخوتى، لبقيت هناك حتى نهاية العالم. وهكذا سيدى الدوق، سيدتى الدوقة، هاهو أمامكم حاكمكم سانشو بانشا، الذى كسب خلال عشرة أيام من الحكومة معرفة أن تحوله إلى حاكم لن يفيدته فى شيء، ليس فقط حاكم ولاية، بل حاكم العالم كله، وبهذا أقبل أقدامكم، مقلدًا الصبيان فى لعبتهم "ألق أنت، أعطى أنت" وهأنذا ألقى بالحكومة، وأعود لخدمة سيدى دون كيوخوتى، التى فى النهاية خلاها، وإن كنت أكل الخبز فى فرع فإننى على الأقل أشبع، وبالنسبة لى، إذا كنت شعبانًا، فلا يهم إن كان شعبى من الجزر أو من طيور البرديس.

هنا أنهى حديثه الطويل سانشو، وكان خلاله دائمًا دون كيوخوتى خائفًا من أن ينقوه سانشو بالآلاف الترهات، ولما رآه ينتهى دون أن يكتر منها، شكر الله فى أعماقه، واحتضن الدوق سانشو، وقال له إنه يحزن نفسه أن قد ترك الحكومة بهذه السرعة، لكنه فى الوقت المناسب سيعطيه وظيفة فى دولته تكون ذات أعباء أقل، ومكاسب أكثر. واحتضنته الدوقة أيضًا، وأمرت أن يدللوه، لأن شكله كان يسوحى أنه جاء مطحون الجسم، وسيئ الحال والمآل.

الفصل السادس والخمسون

عن المعركة الهائلة التي لم يشهد لها مثيل، والتي دارت بين دون كيخوتى دى لمانشا والخادم توسيلوس، فى الدفاع عن ابنة القهرماننة دونيا رودريجيث

لم يندم الدوق والدوقة على الملعب الذى خدعا به سانشو بانثا بالحكومة التى أعطياها له، وخاصة فقد عاد فى نفس اليوم رئيس الخدم وحكى لهما نقطة نقطة تقريباً كل كلمات سانشو بانثا وأفعاله التى قالها وعملها خلال تلك الأيام، وأخيراً أتى على الهجوم على الولاية، وخوف سانشو، وخروجه، وقد استقبلا ذلك بسرور ليس بالقليل. وبعد هذا تحكى القصة أنه قد جاء يوم المعركة المؤجلة، وكان الدوق قد أعلم الخادم توسيلوس مرة ومرات، كيف يناور مع دون كيخوتى حتى يهزمه دون أن يقتله أو يجرحه، وأمر بإزالة السن الحديد للرمح قائلاً لدون كيخوتى بأن المسيحية لا تسمح أن يهتّم بأن تكون تلك المعركة ذات مجازفة ومخاطرة إلى هذا الحد ضد الحياة، وعليه أن يكون سعيداً لأنه أعطى ميداناً مفتوحاً فى أرضه للمعركة رغم أن ذلك ضد مرسوم المجمع المقدس، الذى يمنع أمثال هذه المبارزات، من ثم هو لا يحب أن يتم هذا القتال بمثل هذه الشراسة، قال دون كيخوتى إن سعادته يمكنه أن يأمر بما يرى للإعداد لهذا الشأن كما يرى لخدمه، وأنه سوف يطيعه فى كل شىء. من ثم، وها قد وصل اليوم المخيف، أمر فيه الدوق أن تقام منصة أمام ساحة القلعة، حيث يجلس القضاة حكام المبارزة والقهرمانتان، أم وابنة، المدعيتان، ووجد جمهور ليرى مستجدات تلك المعركة،

التي مثلها لم تر عيون من كانوا يعيشون على أرض ذلك الإقليم أو مسامعهم، ولا حتى الذين ماتوا ودفنوا تحت ترابه.

أول من دخل الميدان بما حوله من سياج خشبي كان مايسترو شعائر المبارزة، الذي اختبر الميدان وتفرج عليه كله، حتى لا تكون به أية حيلة خداع أو شيء خفي يتعرّض فيه أحد أو يسقط، ثم دخلت القهرمانتان، وجلستا في مقعديهما، وقد غطتهما طرحة رقيقة حتى العينين، بل حتى الصدر، مع مظاهر ليست بالقليلة للحزن، وكان دون كيخوتي لحظتها موجودًا في المنصة. وبعد قليل، مصحوبًا بطبول، أطل من إحدى نواحي الساحة فوق فرس جبار زلزل أركان المكان الخادم الهائل توسيلوس بقلنسوة مصفحة بالحديد تمامًا، ومغطى تمامًا بدروع وأسلحة تشل حركة رأسه، وكان الفرس من فصيلة فريسون القوية عريضة الأرجل، جسيم وبني اللون، في كل يد ورجل منه رقعة من الصوف. جاء المحارب الشجاع حسن الإعلام من سيده الدوق عن كيفية تصرفه مع الهمام دون كيخوتي دي لامانشا، محذرًا له ألا يقتله بأية حال من الأحوال، وإنما عليه أن يحاول الفر في أول كر، حتى يتجنب خطر قتله، والذي كان مؤكدًا لو استمر احتكاكه به عند كرهه عليه ضاربًا من ضربة لأخرى في المليان.

تجول في الساحة، ومقتربًا حيث كانت القهرمانتان، شرع وقتًا في النظر لمن تطلبه زوجًا. نادى مايسترو الميدان على دون كيخوتي، الذي كان عليه أن يكون قد نزل إلى أرض الساحة من قبل. ذهب المايسترو مصاحبًا توسيلوس، وكلم القهرمانتين، سائلًا لهما إذا كانتا توافقان أن يأخذ حقهما دون كيخوتي دي لامانشا. قالتا هما نعم، وكل ما يبديه هو في هذه القضية يعتبرانه موافقًا لهما، وصالحًا وقينيًا. وخلال هذا الوقت كان الدوق والدوقة قد اتخذتا مجلسهما في قاعة تطل من فوق المنصة، وكانت تلك القاعة قد زينت ببشر لا عداد لهم، في انتظار تلك

اللحظة الحرجة التي لم يروا مثلها في البلاد. كان شروط المتقاتلين، إذا كسب دون كيخوتي، على خصمه أن يتزوج ابنة دونيا رودريجيث، وإذا هزم صار الخصم متحرراً من أى التزام أو كلمة تطلب منه الابنة إنجازها، وليس عليه دفع أى تعويض آخر. رتب موقفهما مايسترو الميدان حتى لا يكون أحدهما مواجهاً للشمس، وحتى يكون فى الموضع الذى عليه أن يتخذه. رنّت الأبواق، وملاً الجو دقّ الطبول، واهترت الأرض تحت الأقدام، وكانت مائلة قلوب زمرة النظارة والمشاهدين، بعضهم فى خوف، والبعض الآخر يترقب الحدث الطيب أو السيئ لهذه القضية. وأخيراً، دون كيخوتى متوكلاً على الله ربنا من كل قلبه وطالباً الدعم من سيده دولثينيا دل توبوسو، وقف منتظراً أن يعطوه إشارة دقيقة للهجوم، وعلى عكسه خادمنا توسيلوس كانت لديه أفكار أخرى، لم يكن يفكر فى شىء غير ما سأقوله الآن.

يبدو أنه عندما كان ينظر إلى عدوته بدت له أجمل امرأة رآها فى حياته، والطفل الأعمى الذى تعودوا فى تلك الشوارع على تسميته الحب، لم يحب أن يفقد فرصته المتاحة لغزو نفس (خدامية)، ليضعها فى قائمة تذكاراته؛ وهكذا وصل إلى الخادم صاحب تلك النفس فى اختيال دون أن يراه أحد، وأصاب المسكين بسهم مزدوج من الجانب الأيسر، فانشطر قلبه شطرين، وفعل ذلك فى نجاح أكيد، لأن الحب غير مرئى، ويدخل ويخرج حيثما شاء، دون أن يحاسبه أحد على أفعاله. أقول، إذن، عندما أعطوا إشارة الهجوم، كان خادمنا قد انتقل (بخياله) مفكراً فى حسن التى صارت سيدة لحريته، وهكذا لم ينتبه لصوت الطبل، مثلما فعل دون كيخوتى، الذى بمجرد سماعه الإشارة هجم، بكل قدرة روثنانتي على الركض، فى اتجاه عدوه؛ وعندما رآه يهاجم، خادمه الطيب سانشو قال بأصوات عالية:

- أرشدك الله، يا زبدة وزهرة الفرسان المشائين! أيدك الله بالنصر، فأنت تقف في جانب الحق!

ومع أن توسيلوس رأى دون كيوخوتى يتجه إليه، لم يتحرك خطوة عن موضعه، وعلى العكس نادى بأصوات عالية على مايسترو ميدان المبارزة، والذي جاء ليرى ماذا يريد، فقال له:

- سيدى، أليست هذه المعركة من أجل أن أتزوج أو لا أتزوج من هذه السيدة؟
أجابه:

- هذا هو.

قال الخادم:

- إذن، أنا خائف من ضميرى، وسأحمله ما لا يستطيع أن يحمل إذا مضيت قُدماً في هذه المعركة، وهكذا أقول إننى أعلن هزيمتى، وأريد الزواج في الحال من هذه السيدة.

بقى المايسترو مذهولاً من عبارات توسيلوس، ولأنه كان يعلم أسرار الملعوب لم يعرف أن يجيب بكلمة، توقف دون كيوخوتى فى وسط الميدان عندما رأى خصمه لا يهاجم. الدوق لم يعرف سبب توقف المبارزة، لكن المايسترو ذهب إليه ليخطر به بما قال توسيلوس، وسبب ذلك ذهوله وغضبه المفرط، وخلال حدوث هذا اقترب توسيلوس من مكان دونيا رودريجيث، وقال بأصوات عالية:

- أنا، يا سيدتى، أود الزواج من ابنتك، ولا أحب أن أحقق بمعارك أو قتال ما أستطيع تحقيقه بالسلام، ودون خطر الموت.

سمع هذا دون كيوخوتى الشجاع، وقال:

- إذن، هذا يكون هكذا، وأنا أصبح حرّاً، وطيلاً من وعدى، تزوجا ومبروك،
والله ربنا يبارك الزواج والقديس سان بدرو.

نزل الدوق إلى ميدان القلعة، وعندما وصل إلى توسيلوس، قال له:

- حقيقي، أيها الفارس، أنك أعلنت هزيمتك، وبدافع من ضميرك الخائف، تريد
الزواج من هذه الفتاة؟

أجاب توسيلوس:

- نعم يا سيدى.

قال فى هذه اللحظة سانشو بانثا:

- إنه يحسن السلوك؛ لأن ما تعطيه للفأر، أفضل تعطيه للقط؛ وأخرج نفسك من
الهم.

ومضى توسيلوس يفكك الخوذة، وتوسل أن يسرعوا لمساعدته، لأنه تدريجياً
تنتقع أنفاسه، ولم يعد يرى محبوس الوجه والرأس وقتاً طويلاً داخل هذا المخدع
الضيق. خلعوها له مسرعين، وبقي وجهه مكشوفاً، واتضح وجه خادم، وما إن
رأت هذا دونيا رودريجيث وابنتها، حتى صرختا فى أصوات مدوية:

- هذا خداع! خداع هذا. لقد وضعوا توسيلوس، خادم الدوق سيدى مكان
الزوج الحقيقى! عدالة الله والمملك من كل هذا المكر، حتى لا أقول السفالة!

قال دون كىخوتى:

- لا تخزنا، أيتها السيدتان؛ فهذا ليس مكرّاً ولا سفالة، وإذا كان الأمر كذلك،
فالدوق ليس السبب، وإنما السحرة الأشرار الذين يطاردوننى، والذين

لحسدھم من إدراکی مجد هذا الانتصار، حولوا وجه الزوج الحقیقی إلى الوجه، الذی تقولان إنه لخدام الدوق. خذا بنصیحتی، وعلى الرغم من خبت أعدائی، زوجی ابنتک منه، فمما لاشک فیہ هو نفس من ترغب فی إدراکه زوجًا.

الدوق، الذی سمع ذلك، کان على وشک أن یفجر کل غضبه المشتعل إلى ضحك، وقال:

- إن الأشياء التی تحدث لدون کیخوتی غیر معتادة، وإنی أكاد أؤمن أن خادمی هذا هو لیس هو، لكن لنجرب هذه الحيلة والکید، نؤجل الزواج خمسة عشر یومًا، ونترك ذلك الشخص خلالها محبوسًا، مادام مشکوکًا فی هویته، وخلال ذلك من الممكن أن یعود إلى صورته الأولى، فلن یدوم طویلاً کید السحرة ضد السید دون کیخوتی، وخاصة أن هذه الخدیعة وتلك التحولات لا تفیدهم فی شیء ینکر.

قال سانشو:

- أوه، سیدی، إن هؤلاء الملاعین صارت عادة لهم تحویل الأشياء التی تمس سیدی. فهناک فارس هزمه سیدی الأيام الماضية یسمى فارس المرایا، حولوه إلى صورة حامل البکالوریا شمشون کارآسکو، أحد أبناء قریتنا، وصدیق کبیر لنا، والسیدة دولینیا دل توبوسو حولوها إلى مزارعة خشنة؛ وهكذا أتخیل أن هذا الخادم لابد أن یموت ویعیش خادماً طویلاً.

على هذا علقت ابنة دونیارودریجیث:

- لیکن من یكون ذلك الذی یطلبنی زوجة (وإنی لأشکره)، فأنا أود أن أکون زوجة شرعیة لخدام أكثر من أن أصیر عدوة ومخدوعة من فارس، على الرغم من أن الخادم لیس من خدعنی.

باختصار، كل هذه الأحداث والحكايات انتهت بحبس توسيلوس حتى يروا إلى أى شأن ستصير تحولاته، هتف الجميع بنصر دون كيوخوتى، والأغلبية بقيت حزينة، ومستاءة من عدم رؤية المقاتلين يمزق كل منهما الآخر إلى قطع، مثلما يحزن الصبية عندما لا يخرج المشنوق الذى ينتظرون، لأنه قد عفا عنه، إما الحظ، وإما العدالة. (*) انصرف الناس وصعد الدوق والدوقة إلى القلعة ومعهما دون كيوخوتى، وحبس توسيلوس، وبقيت دونيا رودريجيث وابنتها فى غاية الرضا من رؤية أنه بطريق أو بأخر تلك القضية سوف تنتهى بزواج، ولم يكن توسيلوس يرجو غير ذلك.

(*) يشير إلى لعبة صبيان كانت معروفة فى عصره! هكذا أظن لغموض العبارة رغم أن السياق يقلل من هذا الغموض.

الفصل السابع والخمسون

عبارة عن كيف ودع دون كيخوتى الدوق، والذي حدث مع التسيدورا الذكية هادئة الخاطر، وصيفة الدوقة

بدا، بالفعل، لدون كيخوتى الخروج من هذه البطالة الزائدة التى يحيهاها فى تلك القلعة، وكان يتصور جسامة الخطأ الذى يرتكبه شخصه، تاركًا لنفسه بين جدران أربعة كسولاً، فى خضم التذليل واللذات التى يهيئها له الدوق والدوقة باعتبارهم فارسًا مشاء، وبدا له أيضًا أن عليه أن يواجه حسابًا صارمًا من السماء بسبب هذه البطالة والانغلاق فى القلعة، وهكذا طلب يومًا إذنا من الدوقة حتى يرحل. أعطياه الإذن مع مظاهر حزنهما لتتركه لهما، وأعطت الدوقة إلى سانشو بانثا خطابات زوجته، التى بكى بسببها، وقال:

- من كان يفكر أن آمالاً عريضة مثل تلك التى تولدت فى صدر زوجتى تيريزا بانثا من أخبار حكومتى سوف تتوقف عند عودتى الآن إلى المغامرات المفنية لسيدى دون كيخوتى دى لامانشا؟ ومع كل هذا يرضينى رؤية تيريزا وقد تصادف أنها من أرسلت (أبو فروة) إلى الدوقة، لأنها لو لم تفعل لبقيت حزينة، بأن تبدو جاحدة، وما يعزىنى أن هذه الهدية لا يمكن إعطاؤها اسم الرشوة، لأنى بالفعل كنت استلمت الحكومة قبل أن ترسلها، ومن المستقر أن من يستقبلون منفعة، ولو حتى فى مزاج، عليهم أن يظهروا العرفان. بالفعل أنا دخلت عريانًا إلى الحكومة، وأخرج عريانًا منها؛ وهكذا قد يمكن القول: "عريان ولدت، وعريان أوجد، لا مكسب ولا خسارة".

كان هذا يحدث فى نفس سانشو يوم الرحيل، وعند خروج دون كيخوتى، وقد انتهى من توديع الدوق والدوقة بالأمس، فى صباح ذات يوم استقبله بالظهور كامل التسليح فى ساحة القلعة. كان ينظر إليه من الممرات كل سكان القلعة، وكذلك خرج الدوق والدوقة لرؤيته، وكان سانشو فوق حماره، مع خرجه، والحقيبة والتموين، شديد الطرب والسرور، لأن رئيس الخدم الذى مثل دور تريفالدى، أعطاه كيسًا به مائتا دينار ذهبًا، لإمداد حاجات الطريق، وهذا حتى الآن لا يعرفه دون كيخوتى، وبينما كان الجميع، كما سبق القول، ينظرون، فجأة ارتفع صوت ألتسيديورا الخالية البال الفطنة، وفى نغمة حزينة قالت:

أنصت أيها الفارس الجلمود

أوقف هنيهة عنان فرسك

لا ترهق ما يزينك من شكيمة

دابتك الطليقة غير حكيمة

*

تلفت، أيها الزائف، لا تقرب

من أفعى برية تسغب

بل غزالة جبلية تشرذ

عن نعاها الرفيقة تبعد

*

غررت مستخًا يرعب بغريرة

أحلى صبية كانت قريرة

رأها ديانا في تلاها

رأها فينوس في غاباتها

*

فيرينو القاسي، إينياس الهارب

صحبك باراباس، وهناك يثار منك

*

تحمل أنت حملاً صافياً

في مخالب يديك

أحشاء مسكينة

كعاشقة حنونة

*

تحمل أنت ثلاثة جوارب

ورباطها لسيقان

تتساوى مع المرمر النقي

ناعمة وبيضاء وسوداء

*

حملت ألقى تنهيدة
يمكن أن تكون من نار
تحرق ألقى طروادة
إن وجد من طروادة ألفتان

*

فيرينو القاسى، إينياس الهارب
صحبك بارآباس، وهناك يثار منك

*

ولهذا سانشو حامل دروعك
أحشاء من جلمود
صلدة قاسية، ولن تخرج
من سحرها دولثينيا

*

من آثام تحملها
تحمل الحزينة العقاب
والآثمون مع العدالة
قد يدفعون الثمن فى أرضى

*

مغامرتك الأكثر نقاء

إلى تعاسة تصير

إلى أحلام وقت فراغك

إلى نسيان عزمك

*

فيرينو القاسى، إينياس الهارب

صحبك بارأباس، وهناك يثار منك

*

ليروك الفارس الزائف

من أشبيلية إلى مارشينا

ومن غرناطة حتى لوخا

ومن لندن حتى إنجلترا!

*

إذا لعبت الورق

هذه اللعبة أو تلك

ستهرب الأولاد منك

ولن ترى بصرة أو آس

*

إذا فتحوا كرشك
سوف تريق الجروح دمًا
وستبقى الجذور
لو خلعوا أضراسك

*

فيرينو القاسى، إينياس الهارب
صحبك بارأباس، وهناك يثأر منك

خلال شكوى المجروحة ألتسيدورا من الحظ، كان دون كيخوتى ينظر إليها،
ودون أن يجيب بكلمة، أدار وجهه لسانشو، وقال له:
- (وتربة أجدادك)، سانشو عزيزى، أستحلفك أن تقول الحق، قل لى، بالصدفة،
هل تحمل ثلاثة الجوارب وأربطتها التى تتكلم عنها هذه العاشقة؟
وعلى هذا أجاب سانشو:

- ثلاثة الجوارب، نعم أحملها، أما الأربطة فلا وجود لها.
بقيت الدوقة مندهشة من عبث ألتسيدورا، ومع أنها رأتها جريئة، وظريفة
وعابثة، لم يكن مرضيًا لها مثل هذا التعايب، وكما أنها لم تكن تعلم
بخدعتها تلك، زاد أكثر اندهاشها أن الدوق أحب تقوية الاستملاح، فقال:

- لا يبدو لي خلقياً، أيها السيد الفارس، بعد أن استقبلت في قلعتي هذه ترحيباً حاراً، أن تحمل ثلاثة جوارب (على الأقل!)، والأفطع أن تحمل معها أربطة جوارب وصيفتنا، مؤشرات على سوء النية، ولاتتفق مع سمعتك. أعد الأربطة، وإلا فإنني أتحداكم في معركة قاتلة، دون أى خوف من أن يحول أو يغير وجهى السحرة الأشرار، مثلما فعلوه مع توسيلوس خادمي، الذى دخل مع فخامتكم في معركة.

أجاب دون كيخوتى:

- لا أراد الله أن أستل سيفى ضد شخصكم البارز، والذى منه تلقيت إنعامات كثيرة. الجوارب سأعيدها، لأن سانشو يقول إنها في حوزته، أما الأربطة فذلك مستحيل، لأنى لم آخذها كما لم يأخذها سانشو، وإذا حاولت وصيفتكم هذه أن تبحث في مخابنها، من المؤكد أنها ستجدها. أنا، أيها السيد الدوق، لم أكن لماً قط، ولا أفكر أن أكون لماً طول العمر، مادام أحيانى الله. هذه الوصيفة وقعت في الغرام (كما تقول هي)، ولا ذنب لي في ذلك، ولهذا ليس على أن أعتذر لكم، ولا لها، أرجوك أن تحسن الرأى فى، وسعادتكم الآن أعطنى الإذن لأواصل طريقى.

قالت الدوقة:

- سهّل الله لك الطريق، أيها السيد دون كيخوتى، وأبلغنا دائماً بأخبارك وأخبار مآثرك، وسر على بركة الله؛ فكلما كثر توقفك، زدت أكثر النار في قلوب الصبايا اللاتى ينظرن إليك، وبالنسبة لوصيفتى سوف أعاقبها، حتى تعرف من الآن فصاعداً ألا تتجاوز حدودها بالنظر والكلمات.

وعندئذ قالت الوصيفة ألتسيدورا:

- مرة واحدة لا أكثر أحب أن تسمعني، أوه أيها الشجاع دون كيخوتي،
والمسألة أني أطلب غفرانك لأمر سرقة الأربطة، لأنني أمام الله ونفسي أشهد
أنني أحملها ممسكة بجواربي، وقد وقعت في الخطأ، فمن كنت أقصد هو ذلك
السائر فوق الحمار.

قال سانشو:

- لم أقلها أنا؟ ما أمهري حتى أخبي المسروق! إذا كنت راغبًا في السرقة، في
الحال كنت فعلتها عندما جاءتني الفرصة في حكومتي.

خفض دون كيخوتي رأسه احترامًا للدوق والدوقة ومن حولهما جميعًا،
وأدار عنان روئينانتي، لاحقًا به سانشو فوق الحمار، وخرج من القلعة متخذًا
الطريق نحو سرقسطة.

الفصل الثامن والخمسون

عبارة عن كيفية هطول مغامرات غزيرة على دون كихوتى،
حتى إن عددا منها لم يكن يسمح بفراغ للعدد الآخر

عندما وجد دون كихوتى نفسه فى أرض جرداء ملساء، حرًا وخاليًا من هموم غزل ألتسيدورا، أحس أنه فى أرض ملعبه، وأن روحه تتجدد كى يواصل من جديد تحمل مسئولية فروسياته، وملنفقًا لسانشو، قال له:

- إن الحرية، سانشو، واحدة من أكثر الهبات التى منحها السماء للإنسان، ثمانيه وسموًا، ولا تتساوى معها كل الكنوز التى تخفيها الأرض أو يغمرها البحر، وهكذا من أجل الحرية مثلها مثل الشرف، يمكن المجازفة بالحياة، وعلى العكس، الأسر هو أسوأ شر يمكن أن يهبط على الإنسان. أقول هذا، سانشو، لأنك رأيت التبدليل والوفرة التى نلناها فى القلعة وتركانها، لأنه رغم الموائد والولائم فى مواقيتها، والمشاريب كأنها من الجليد، بدا لى أننى كنت موضوعًا فى ضيق الجوع، لأننى لم أتمتع بهذا مثلما أتمتع بالحرية لو كانت فى يدي، فإن جبر تعويض المنافع والانعامات التى نلناها، كان قيدًا لا يدع الإنسان يمرح بنفس حرة. سعيد من أعطته السماء قطعة من الخبز دون أن يجبر على شكر أحد آخر غير السماء نفسها!

قال سانشو:

– مع كل هذا الذى قلته فخامتكم، ليس طيباً أن يبقى دون شكر من طرفنا متنا دينار ذهباً أعطاني إياها في كيس رئيس خدم الدوق، وهى مثل حجاب سعادة وتفريج أحمله فوق قلبي، من أجل ما يعرض في الطريق، فلن نجد دائماً قلاعاً نتدلل فيها، بل بعض الفنادق حيث نلاقى ضرب النبايت.

فى هذا وغيره من الدردشة سار المشاءان فارساً وخداماً، وقبل تجاوزهما الفرنسخ إلا بقليل، لاح لهما فوق حشائش مرج صغير ما يصل إلى دسنة من الرجال يأكلون فوق عبااتهم المفروشة، فبدوا فى ملابس مزارعين. بجوارهم كانت هناك بعض المفارش تغطى شيئاً غير واضح المعالم تحتها، مسدلة ومشدودة من طرفيها. وصل دون كيخوتى قرب من يأكلون، وحياهم أولاً بأدب ثم سألهم عما تغطيه تلك المفارش.

أحدهم أجابه:

– سيدى، تحت هذه المفارش توجد تماثيل بارزة المعالم ومنصة عرضها، سوف تستخدم لعمل تابلوه قصصى للعرائس فى قريتنا، ونحملها بغطاة حتى لا تفقد زهو لوئها، ونرفعها طول الطريق على الأكتاف حتى لا تتكسر.

أجاب دون كيخوتى:

– سيكون لكم الفضل إذا أسعدتمونى برؤيتها، ولأنكم تحملونها مع كل هذا الحذر لا بد أن تكون جميلة.

– هى كذلك! وإذا لم تصدق، قل كم كلفت، فلا توجد واحدة منها أقل من خمسين ديناراً، انتظر فخامتكم حتى تراها بعينيك.

ونهض هذا المتحدث، تاركًا الطعام، وذهب لكشف غطاء التمثال الأول، وظهر أنه للقديس خورخي فوق جواد، بأفعى تلتف على قدميه والرمح فى فمها، بكل الضراوة التى تعودوا بها رسم الأفاعى. كل الصورة كانت مثل جذوة من الذهب، كما جرت العادة فى القول، وما إن رآها دون كيوخوتى، حتى قال:

- هذا الفارس كان أحد أفضل الفرسان المشائين ممن امتلكتهم الميليشيا الإلهية، وكان يسمى دون القديس خورخي، وكان أيضًا نصير الصبايا.

لنرى ذلك التمثال الآخر، كشفه الرجل، وبدا أنه تمثال القديس مارتين فوق فرس، يتقاسم عبائه مع رجل فقير، وما إن رآه دون كيوخوتى حتى قال:

- وهذا الفارس أيضًا من المغامرين المسيحيين، لكنه كان كريمًا أكثر منه شجاعًا، كما يمكنك ملاحظته، سانشو، فهو يشق عبائه ليعطى الفقير نصفها، ويبقى له النصف الآخر؛ ولاشك أن ذلك كان لا بد فى الشتاء، لأنه لم يعطها له كلها لقرط بره.

قال سانشو:

- ما كان يجب أن يعطيها كلها، لأنه لا بد كان يعمل بالمثل "حتى تعطى وتأخذ، فالعقل ضرورى ومنقذ".

ضحك دون كيوخوتى، وطلب كشف مفرش آخر، ليظهر تحته على جواد قديس إسبانيا، بسيف دام، يتعثر بعرب، ويعبر فوق رعوسهم، وعند رؤيته قال:

- هذا نعم فارس، ومن كتائب المسيح، وهو يسمى دون القديس ديبجو محارب العرب، قد كان أحد أشجع الفرسان والقديسين على الأرض، وهو الآن كذلك فى السماء.

ثم كشفوا مفرشاً آخر، ورؤى أنه كان يغطى مشهد سقوط القديس بابلو تحت أقدام جواده، مع كل الظروف المحيطة بتحوّله عن المسيحية التي تعودوا رسمها في التابلوهات. وعندما رآه دون كيخوتى فى كل واقعية حية، عندما كان المسيح يكلمه وهو يجيبه، قال دون كيخوتى:

- هذا كان أكبر عدو شهادته كنيسة الله ربنا فى عصره، وأكبر مدافع عنها فى كل تاريخها؛ فارس مثاء خلال حياته وقديس راجل على قدميه خلال الموت، مجاهد لا يكل فى كرامة الرب، وطبيب للناس التى كانت مدرستها السماء، كما كان أستاذاً ومعلماً علمه يسوع نفسه.

لم تكن هناك صور أكثر، وهكذا أوصى دون كيخوتى بأن يعودوا لتغطيتها، وقال لمن كانوا يحملونها:

- بشرى خير، يا إخوتى، أن رأيت ما رأيت، لأن هؤلاء الفرسان والقديسين كانوا يمارسون ما أمارس، إنما مقارعة السلاح بالسلاح، والفرق بينى وبينهم أنهم كانوا قديسين حاربوا للسماوى، وأنا أحارب للإنسانى، وهم غزوا السماء بقوة سواعدهم، لأن السماء باها القوة، وأنا حتى الآن لا أدرى ما أغزوه بقوة ساعدى، لكن سيدتى دولثينيا دل توبوسو إذا خرجت مما تعانیه، رافعة أسهم حظى، معيدة إلى صوابى، من الممكن لى أن تدب خطواتى عبر طريق أفضل من الطريق الذى الآن أنا سالكه.

قال سانشو فى ذلك:

- سمع الله منك، وأسكن عنك الشيطان.

عجب الرجال من عبارات دون كيخوتى ومن صورته، ولم يفهموا نصف مقال. انتهوا من طعامهم، وحملوا تماثيلهم وودعوا دون كيخوتى، وواصلوا طريقهم.

بقى سانشو من جديد مع فكرة أنه كما لو كان لم يعرف قط سيده، متعجبًا من فرط معرفته، وبدا له أنه لا توجد قصة فى العالم ولا حدث، دون أن يكون مرقمًا على أظافره ومغروسًا فى ذاكرته، قال له:

- فى الحقيقة، يا سيدنا، إذا كان ما قد حدث لنا اليوم يمكن تسميته مغامرة، فهى من أنعم المغامرات وأكثرها حلاوة بين كل ما وقع لنا من أحداث خلال كل مجرى تجوالنا؛ فمنها خرجنا دون أذى النبايت، ودون أى فرع، ولم نعد يدًا للسيوف، ولم نمرغ الأرض بالأجسام، ولم نعانى جوعًا، تبارك الله الذى جعلنى أرى مثل ذلك بعينى.

قال دون كيخوتى:

- ما أحسن ما تتكلم، سانشو؛ لكن عليك أن تعلم أن كل الأوقات واحدة، ولا تجرى بنفس الطريقة، وهذا ما اعتاد العامة على تسميته بالفأل، الذى لا يتأسس على أى أساس طبيعى، فى فطنة يفسرون به الأحداث الطيبة. ينهض فال من هذا فى الصباح، يخرج أحدهم من بيته، يقابل راهبًا من نظام القديس سان فرانسيسكو السعيد، وكما لو أن قد قابل مسخًا أسطوريًا مخيفًا، فيعود إلى بيته. وآخر يسقط الملح منه فوق المائدة، فتسقط التهاويل فى قلبه، كما لو كانت الطبيعة مجبرة على إعطاء إشارات عن القادم من النكبات بأشياء لا تستغرق لحظات مثل المشار إليها. الذكى والتقى ليس عليه أن يسر على أطراف أصابعه حذرًا، مع ما تود صنعه السماء. يصل أسثيون لإفريقيا،

ويعثر حلال قفزه على الأرض، فيأخذه جنوده على أنه فال سوء، لكنه محتضنا الأرض يقول: "لن تستطيعي الهروب مني، يا إفريقييا، لأنني قابض عليك، وبين ذراعي". وهكذا، سانشو، مقابلتى مع هذه الصور كان بالنسبة لى حدثاً بالغ السعادة.

أجاب سانشو:

— هذا ما أعتقد، وأود أن تقول لى فخامتكم سبب قول الإسبان عندما يدخلون داعين لهذا القديس سان دييجو محارب العرب: "سانتياجو، واقفل إسبانيا!"، هل بالصدفة إسبانيا مفتوحة، حتى يصبح من الضروري إغلاقها؟ أو أن هذه شعيرة أخرى؟

أجاب دون كيخوتى:

— كم أنت شديد السذاجة، سانشو، وانظر إلى ذلك الفارس العظيم ذى الصليب الأحمر بشقرة. لقد أعطاه الله لإسبانيا حارساً لها، وملاًذاً، وخاصة فى اللحظات الحرجة التى مر بها الإسبان مع العرب، وهكذا يدعونه وينادونه باعتباره مدافعاً عنهم فى المعارك التى يخوضونها، ومرات كثيرة قد شاهدوه بأعينهم معهم فى تلك المعارك، مجندلاً ومسقطاً ومدمرّاً وقتلاً كتائب أبناء هاجر(أم إسماعيل)، وعن هذه الحقيقة يمكن تقديم أمثلة كثيرة من القصص الحقيقية التى يحكونها.

غير سانشو الحديث، وقال لسيدة:

— متعجب أنا من جرأة وصيفة الدوقة، وينبغى أن تكون جريحة بضراوة، وشديدة الإصابة بيد ذلك الذى يطلقون عليه الحب، ويقولون إنه طفل أعمى، ولكونه مغمض العينين، ويقول أدق، دون نظر، إذا أخذ هدفاً له أحد

القلوب، مهما كان صغيراً، يصيبه ويخترقه من طرف إلى طرف بسهامه. وسمعت أيضاً أنه بفضل خجل الصبايا وحذرهن تثلم سهام الحب وتتكسر، لكن ألتسيدورا تلك يبدو أكثر أنها ترهف أكثر من كونها تثلم.

قال دون كيخوتى:

- اعلم، سانشو، أن الحب لا يكن احتراماً ولا يحترم عقلاً خلال سريانه، وله نفس ظرف الموت، وهكذا يهاجم القلاع العالية للملوك مثلما يهاجم أكواخ الرعاة، وعندما يمتلك بالتمام نفساً، أول شيء يفعله نزع الخوف والحجل منها، وهكذا دون خوف أو خجل أعلنت ألتسيدورا عن مشاعرها، التي ولدت في صدرى اضطراباً أكثر من الحزن.

قال سانشو:

- قسوة هائلة! جحود لم يسبق مشاهدته! أنا، عنى، أعرف القول إننى كنت سأستسلم وأتبعها من أول عبارة غرامية لها. ابن داعرة، أى قلب من المرمر، وأى وجدان من البرونز، وأى نفس من الملاط! لكن لا أستطيع أن أفكر فيما رأته هذه الصبية فى فخامتكم حتى تسقط هكذا وتنهار، أى مجسد وأى بريق، وأى ملاحه، وأى وجه، فلكل شيء وحده من هذه الأشياء، أو كلها مجتمعة عشقتك، وفى الحقيقة أننى مرات كثيرة أنظر لفخامتكم من كعب القدم حتى آخر شعرة من الرأس، فأرى أشياء للإفراع أكثر مما يبقى ليقوع فى الغرام؛ ولأنى سمعت قولهم أن الحسن هو العلة الأولى، من ثم لا أدرى ماذا عشقت تلك المسكينة.

أجاب دون كيخوتى:

- اعلم أن هناك صورتين من الحسن، الأولى للروح والثانية للجسد؛ وأن حسن الروح يبرز ويظهر فى العقل وفى الشرف وحسن التصرف والكرم وحسن

التربية، وكل هذه العناصر يمكن أن توجد في رجل قبيح الشكل، وعندما تقع النظرة على هذا الحسن فيه، وليس على حسن الجسم، يعتاد أن يولد الحب بقوة وتميز. أنا، سانشو، أعرف جيداً أنني لست وسيماً؛ لكن أيضاً أعرف أنني لست مشوهاً، ويكفى لرجل خير ألا يكون مسخاً حتى يصبح محبوباً أشد الحب، وخاصة إذا حظى بما أحظى به من هبات الروح التي ذكرها لك.

خلال هذا الكلام والدردشة، كانا يواصلان الدخول في غابة خارج الطريق، وفجأة، ودون أن يفكرا فيه، وجد دون كيخوتي نفسه متورطاً في شباك من الخيط الأخضر، كانت مدلاة من بعض الأشجار هنا أو هناك، ودون أن يتمكن من تخيل أي شيء يمكن أن يكون ذلك، قال لسانشو:

- يبدو لي، سانشو، أن ذلك الشيء الخاص بالشباك لا بد أن يكون واحدة من أجده المغامرات التي يمكن تصورها. وليقتلوني، إذا لم يكن السحرة يطاردونني حتى أقع في شركهم، ويوقفون مسيرى باعتباره انتقاماً من قسوتي مع ألتسيدورا! لكن أعدهم أنني حتى لو كانت تلك الشباك من الماس أو أقوى من الخيوط التي ربط بها الإله الغيور للبراكين على شكل شباك فينوس ومارتى، وليست من الخيط الأخضر، سوف أمزقها كما لو كانت من ثنج البحر أو ندف القطن.

وعندما أراد التقدم وتمزيق كل الخيوط، ظهرت أمامه راعيتان في غاية الحسن والجمال خرجتا من بين الأشجار، وعلى الأقل ملبسهما ملابس راعيتين ماعدا سترتيهما فكانتا من الحرير الموشى، أقول، والتتورة من حرير يتموج بتموج الماء. كان شعرهما طليفاً على ظهريهما، ولشقرة الشعر كان قادراً على أن ينافس نفس أشعة

الشمس، وكان الرأس متوجاً بغار أخضر لكل منهما، منسوج مع ديسم أحمر. والعمر، فيما يبدو، لم يكن أقل من الخامسة عشرة ولا يتجاوز الثامنة عشرة.

مشهد أذهل سانشو، وأفقد دون كيخوتي صوابه، بل أوقف الشمس في عدوها كي تراهما، وأحاط بالأربعة صمت عجيب الروعة، في النهاية، كان من يتكلم أولاً هي واحدة من هاتين الصبيتين، التي قالت لدون كيخوتي:

– قف، أيها السيد الفارس، ولا تمزق الشباك، لأنها ليست ضدك، لكنها من أجل تزجية وقت فراغنا، قد أسقطناها مدلاة من الشجر؛ ولأننا نعرف أنك كنت ستسألنا لماذا وضعناها ومن نحن، أحب أن أجيبك باختصار. في قرية على بعد فرسخين من هنا، حيث يعيش كثير من النبلاء والأثرياء، وأعيان كثير من أغنياء، وبين كثير من الأصدقاء والأقارب تم الاتفاق بين آبائهم وزوجاتهم وبناتهم، أن نأتى هنا ونهيمى هذا المكان، وهو من أجمل مواقع هذه المناطق، مشكلين من الجميع "أركاديا" جديدة رعوية، مرتدين شباناً وشابات لبس الرعاة. وحفظنا قصيدتين رعويتين، واحدة للشاعر المشهور جارتيلاسو والأخرى للرائع كامويس بنفس لغته البرتغالية، ولم تمثل القصيدتين حتى الآن. وأمس كان أول يوم لوصولنا، وعندنا بين هذه الفروع المزروعة بعض الخيام، التي يقولون عنها للعسكرة على هامش نهر بديع بيت الخصب في كل تلك المروج، ودلينا الليلة الماضية هذه الشباك من تلك الأشجار شراكاً للعصافير الساذجة، المرعوبة من ضجيجنا، لاجئة إليها فتقع فيها. إذا أردت أيها السيد أن تكون ضيفنا، فأنت على الرحب وسعة كل الكرم وأكثره تهنئاً؛ لأنه الآن في هذا المكان لا ينبغي أن يدخل الحزن أو الألم.

سكنت ولم تتطرق بكلمة أخرى، وعليها أجاب دون كيخوتي:

- يقيناً، أيتها السيدة كاملة الحسن، لا ينبغي أن يبقى أنتيون أكثر مذهولاً مندهشاً، عندما رأى ديانا تستحم بين الأمواه، كما بقيت أنا مشدوها أمام جمالك. أمتدح أمر تسليتك، وأشكر لك عرضك، وإذا استطعت خدمتكما سترياني مطيعاً إن أمرتما، لأن مهنتي ليست إلا أن أبدي العرفان، وطيب الفعل مع كل جنس من الناس، ولا سيما النبيل منهم مثلما يبدو عليكما. وإذا كانت هذه الشباك التي كان ينبغي أن تشغل فضاء محدوداً، قد شغلت كل كروية العالم، سأبحث عن عوالم أخرى حيث أعبّر منها إليها دون تمزيقها، وحتى تضعنا مصداقية في هذه المبالغة، أعدكمما ليس بأقل من تنفيذ ذلك، وعداً من دون كيخوتي دى لامانشا، إذا كان قد ورد على مسامعكما هذا الاسم.

هنا قالت الراحية الأخرى:

- آى، يا صديق الروح، وأى حظ في غاية السعادة يصادفنا! هل ترين هذا السيد الذى يقف أماننا؟ إذن، أعلمك أنه الرجل الأكثر شجاعة والأكثر عشقاً والأكثر تهديباً في هذا العالم، إذا كانت تلك القصة التي تسير مطبوعة بين الناس لا تكذب علينا وتخدعنا بماآثره حسبما قرأتما فيها، وأنا أراهن أن هذا الرجل الطيب الذى يرافقتك هو سانشو بانثا، حامل دروعك، الذى لا يساويه أحد في لطفه.

قال سانشو:

- هذا هو، أنا سانشو، أنا هذا الظريف، وهذا الحامل للدروع الذى تتكلمين فخامتكم عليه، وهذا السيد هو سيدى، نفس دون كيخوتي دى لامانشا المحكى قصته والمشار إليه بالبنان.

قالت الأخرى:

- آى! نوسل إليك أن تبقى مع آبائنا وإخوتنا، سوف يسعدون كثيراً لهذا، وأنا أيضاً سمعت الحديث عن شجاعتك وظرفك، نفس ما قلت، وفوق كل شيء عن سيدك أنه الأكثر ثباتاً وولاء بين العاشقين، وأن سيدته هي سيدة اسمها دولثينا دل توبوسو، التي تمتدح في كل إسبانيا لحسنها.

قال دون كيخوتى:

- بحق يمتدحوها، إذا لم يضع ذلك موضع شك جمالك الذى ليس له مثال، لا تتعبا أنفسكما أيتها السيدتان في إيقافى لأن الواجبات السامية لمهنتى لا تتركى أخط فى أى قرار.

وصل حيث كان الأربعة شقيق لإحدى الراعيتين، مرتدياً أيضاً ثياب راع، بمظاهر الثراء والأناقة التي تناسب مظهر الفتاتين، وحكى له أن من معهما الآن هو الهمام دون كيخوتى دى لا مانشا، والآخر خادمه سانشو، اللذان يعرفان عنهما لقراءتهما قصة الرجلين. قدم الراعى الأنيق نفس العرض وطلب منه صحبته إلى خيمته، وأجبر دون كيخوتى على التنازل وصحبه حيث طلب. خلال هذا وصل المطاردون، وامتألت الشباك بالعصافير المتعددة الأنواع، وقد وقعت من الخطر الذى تهرب منه مخدوعة بلون الشباك. اجتمع فى ذلك المكان أكثر من ثلاثين شخصاً، وكلهم فى رشاقة وحسن رعاة. وفى لحظة أبلغوا من هما دون كيخوتى وخادمه، ولم يكن طربهم قليلاً، لأنهم لديهم عنهما أخبار من القصة. هرعوا إلى الخيام، ووجدوا الموائد معدة، فارهة ووفيرة ونظيفة، وكرموا دون كيخوتى بإعطائه مكان الصدارة. كان الجميع ينظر إليه فى عجب واندھاش. وفى النهاية رفعت الموائد، وفى وقار عظيم رفع دون كيخوتى صوته، وقال:

- بين الآثام الكبرى التي يرتكها الإنسان يقولون الغرور، وأنا أقول عدم العرفان والجهود، ومتكئاً على ما تعودوا على قوله: بالجهودين تمتلئ الجحيم. ومن أول ما أمكنني حاولت الهروب عند أول لحظة امتلكت فيها استعمال العقل من هذا الإثم. وإذا لم أستطع رد الأعمال الكريمة بأعمال مثلها، أضع مكان ذلك أشواقى لعملها، وعندما لا تكفى تلك الأشواق، أعلنها وأنشرها، لأن من يقول وينشر العمل الكريم الذى قدم له، أيضاً يعرضها بمثلها إن أمكن، لأنه فى معظم الأحوال من يستقبلون الجميل أدنى من يقدمونه، وهكذا فإن الله فوق الجميع، لأنه المعطى فوق كل معط، ولا تقف هدايا الإنسان مع عطايا الله على قدم المساواة، بل المسافة لا نهائية بينهما، وهذا الضيق والتضاؤل يهب عليه فيشعله الشكر. وأنا، من ثم، شاكراً للإنعام الذى حظيت به منكم غير قادر على الرد بنفس المقياس، مكتفياً بالحدود الضيقة لقدرتى، أقدم ما أستطيع، وما أملك من محصولى، وهكذا أقول بأننى سوف أعلن التحدى لكل طارق سبيل لمدة يومين طبيعيين على قارعة الطريق الملكى الذى يمر من هنا فى اتجاه سرقسطة، وأحتم عليه الاعتراف بأن السيدات الشابات المتخفيات فى ثياب راعيات، هن أجمل الصبايا وأكثرهن تهديباً فى العالم، باستثناء من لا نظير لها دولثينيا دل توبوسو، مالكة أفكارى الوحيدة، والسلام على من سمعنى ذكراً كان أم أنثى.

عند سماع سانشو ما قال سيده، فقد مضى ينصت إليه فى انتباه كبير، أطلق عقيرة صوته قائلاً:

- هل من الممكن أن يوجد شخص في العالم يجروء على أن يقول ويقسم أن سيدى هذا مجنون؟ قولوا لى فخامتكم، أيها السادة الرعاة، هل يوجد قسيس قرية مهما كان ذكأؤه ومذاكرته قادر على قول ما قاله سيدى؟ وهل هناك فارس مَشَاء، مهما سارت سمعة شجاعته قادر على هذا القول؟

التفت دون كيخوتى إلى سانشو، بوجه مشتعل وغاضب، وقال له:

- هل من الممكن، أوه سانشو! أن يوجد أحد في كل الأفلاك دون أن يقول عنك أنك أبله، فخم بالبلاهة، ومع ما لا أدريه من حواشى الخبث والشر؟ من أدخلك في أشياء، وفي التحرى عما إذا كنت عاقلاً أم مخولاً؟ اخرس ولا ترد على بكلمة، فقط أسرج روثينانتى إذا لم يكن مسرجاً، وهيا لننفذ عرضى، وطبقاً لمنطقى، يمكنك اعتبار الجميع ممن يعترضون قد أجبروا على الرضوخ.

وفى غضب شديد ومظاهر الاستياء نهض عن مقعده، تاركاً الدهشة على وجوه المحيطين، مألئاً لهم بالشك، ماذا يرون فيه: مجنون أو عاقل؟ حاولوا، أخيراً، إقناعه بالتخلى عن هذا العرض، فإنهم قد عرفوا جيداً مدى شكره لهم بكل إرادته، فليس من الضرورى مظاهر جديدة للتعرف على نفسه الأبية، ويكفى أعماله التى تذكرها القصة، وعلى الرغم من هذا خرج دون كيخوتى بنصر تحقيق نيته، وما إن وضع نفسه فوق روثينانتى، مربكاً خادمه، مشرعاً رمحه، حتى زرع نفسه على قارعة الطريق الملكى فى منتصفه، غير بعيد عن المرج الأخضر. تبعه على حماره سانشو، مع كل أناس السرب الرعوى، ليعرفوا إلى أين ستنتهى محاولته المتغترسة، والتى لم يسبق رؤية نظير لها.

زرع نفسه، من ثم، دون كيخوتى فى منتصف الطريق (كما قلت لكم)، وجرح الهواء بمثل هذه الكلمات:

- أوه، أيها المسافرون وأبناء السبيل، أيها الفرسان والخدم، أيها المشاة والركبان، يا كل من تعبرون هذا الطريق، أو من عليكم عبوره في اليومين التاليين، اعلموا أن دون كيخوتي دى لامانشا، فارس مشاء، ها هو مزروع لكم هنا حتى يدافع عن أن صيرورة كل الحسن والعطاء في العالم لم تتجاوز حسن وعطاء عرائس الجن الساكنة في هذه المروج والغابات، في استثناء لسيدة الروح دولثينيا دل توبوسو، ولهذا كل من خالفني في الرأي فليهرع فإني انتظره!

كرر هذه العبارات مرتين، ومرتين لم يسمعها أى مغامر، لكن الحظ وأشياءه تسير من حسن إلى حسن، أمر أن يكشف هناك ليس بعيدًا، عن مظاهرة من الرجال تسير في الطريق نحوه فوق جياذ وكثير منهم شارع رماحًا في الأيدي، كلهم في تراحم مع جلبية وسرعة عظيمة. لم يروه جيدًا، من كانوا مع دون كيخوتي، لكنهم عندما أداروا ظهورهم ابتعدوا كثيرًا عن الطريق، لأنهم أدركوا إن انتظروا قد يحدث لهم مكروه خطر، فقط دون كيخوتي بقلب جسور بقى في مكانه، وسانشو بانثًا معه متدرعًا بروثينانتي. وصل الحشد من حاملي الرماح، وأحدهم كان يتقدم الآخرين بدأ يصرخ ليقول لدون كيخوتي:

- إيه، أيها الوغد، يا رجل الشيطان، ابعده عن الطريق، فسوف تمزقك إلى قطع هذه الثيران!

أجاب دون كيخوتي:

- إيه يا أيها الوغد، بالنسبة لى لا توجد ثيران تستحق الخوف منها، حتى لو كانت من أخطر الثيران جسارة مما كانت تربي (خاراما) على شواطئها،

اعترف أيها الشرير، هكذا، خبط عشواء، أن ما أذعته بأعلى صوتي بهذا الطريق صحيح، وإذا لم تفعل، فبيننا السيف.

لم يجد راعي الثيران وقتاً لإجابته، كذلك دون كيخوتي لم يجده لينحرف عن الطريق حتى لو أحب، وهكذا حشد ثيران هائجة، وحشد الرعاة الألوفين، مع مظاهره رعاة الثيران، وأناس آخرين كانوا يحملون تلك الحيوانات لمصارعة ثيران في اليوم التالي، كلهم عبروا فوق دون كيخوتي، وفوق سانشو وروثينانتي والحمار، ملقين الجميع في قرار الأرض. دغدغوا جسم سانشو، وأفزعوا دون كيخوتي، وضعضوا الحمار، ولم يبق في خير روثينانتي، لكن في النهاية نهض الجميع، ودون كيخوتي بسرعة هائلة، متعثراً هنا واقعاً هناك، بدأ يجرى وراء حشد الثيران وسواسهم، صارخاً يقول:

- توقفوا وانتظروا، أيها الحشد الوغد الشرير، ففقط فارس واحد يتظركم، وليس في لياقته أو مع القول بأن العدو الذي يهرب انصب له قطرة من الفضة.

لكن لم يتوقفوا على الرغم من هذا، ولم يعيروا تهديداته أي انتباه أكثر من اهتمامهم بسحابات العام الماضي. أوقف التعب دون كيخوتي، وكان غاضباً أكثر منه راغباً في الثأر، من ثم، جلس في الطريق، منتظراً وصول سانشو وروثينانتي والحمار، وعاد السيد وصبيه لصعود دابتيهما، ودون عودة لتوديع أهل أركاديا المصطنعة أو الوهمية، رجعاً لمواصله طريقيهما في خجل وليس في انبساط.

الفصل التاسع والخمسون

حيث يحكى الحدث غير العادى، الذى يمكن اعتباره مغامرة، وقعت لدون كيخوتى

أنقذ دون كيخوتى وسانشو من التراب والإرهاق الذى سببه لهما قلة أدب الثيران عين ماء صاف ونظيف، حيث وجدا أيكة مظلة على حافتها تركا فى حرية دون شكيمة أو قيد، روئينانتي والحمار، وهبط الاثنان سيذاً وصبيّاً وجلسا تحتها. وهرع سانشو إلى تموين خرجه، ومنه استخرج ما اعتاد أن يطلق عليه الثريد، ومضمض فمه، وغسل دون كيخوتى وجهه، ومع هذا الإنعاش استعادت النفوس الهابطة الروح المعنوية بعض العزاء. لم يأكل دون كيخوتى من فرط النكد، ولا حتى سانشو مس الطعام الذى كان أمامه من فرط الأدب، منتظراً سيده أن يبدأ الأكل، لكن ما إن رآه محمولاً على جناح خيالاته حتى لم يعد يتذكر حمل الخبز إلى فمه، من ثم، لم يفتح سانشو فمه، ومتعثراً مع كل نوع من التهذيب بدأ يعبئ فى معدته الخبز والجبن الذى أمامه.

قال دون كيخوتى:

– كل، سانشو أيها الصديق، واسند نفسك، فهذا كما أرى هو ما يهملك أكثر، ودعنى أموت على يدي بأفكارى، وبقوة تعاسى. أنا، سانشو، ولدت كى أعيش وأنا أموت، وأنت كى تموت وأنت تأكل، وحتى ترى أنى أقول لك الحقيقة فى هذا، اعتبر مطبوعاً فى قصص، مشهوراً فى مقارعة السلاح، مهذباً

في أفعالي، موقراً من أمراء، مطلوباً من الصبايا، وفي نهاية النهاية عندما أنتظر التصفيق والنصر والتهيجان أجدني مهروساً وموطوءاً بأقدام تلك الحيوانات القذرة النجسة. اعتبار كل هذا يزلزل أسناني، ويقلقل ضروسي، ومن ثم، يدي، وينزع مني تماماً تماماً الرغبة في الأكل، حتى إنني أفكر في أن تتركني أموت من الجوع، الموت الأقسى من أي موت.

قال سانشو دون أن يترك مضغه المتسارع:

- بهذه الطريقة لن تختبر فخامتكم هذا المثل الذي يقول: "موتى يامارتا، لكن بشرط أن تكوني شعبانه". أنا على الأقل لا أفكر في قتل نفسي بنفسى؛ وعلى العكس، أفكر أن أكون مثل "الجزمجي" الذي يشد الجلد بأسنانه مرغماً له على التمثيط إلى المدى الذي يجب، وأنا سوف أشد حياتي أكلاً ممططاً لها حتى وصول النهاية التي كتبها السماء، واعلم، سيدي، ولا يوجد جنون أعظم من ذلك الذي يتعلق في التعلق باليأس مثلما تفعل فخامتكم، وصدقني، بعد الأكل ثم قليلاً على هذه الحشيات الخضراء هذه الحشائش، وسترى عندما تستيقظ كيف أن المهم قد خف بعض الشيء.

وهكذا فعل دون كيخوتي، معتقداً أن عبارات سانشو تصدر عن فيلسوف، وليس عن مخبول، فقال له:

- إذا كنت، أوه سانشو!، تحب أن تفعل من أجلي ما سأقوله لك الآن فإن التخفيف عني سيكون أكثر يقيناً، ولن تصير أحزاني جسيمة. بينما أنا نائم، طبقاً لنصيحتك، سوف تنعطف عن هذا المكان قليلاً، وبعنان روئيناتي،

سوف تجلد نفسك ثلاثمئة جلدة أو أربعمئة بعد تعرية جسمك من الثلاثة آلاف وثلاثمئة جلدة التي عليك أن تعطيتها لنفسك لفك سحر دولثينيا، فإنه يؤس ليس بالقليل أن تظل هذه السيدة مسحورة بسب غفلتك وتجاهلك.

قال سانشو:

- هناك الكثير الذى ينبغي قوله حول هذا الشأن، لكن لننم الآن سوياً، وبعد ذلك فإن الله قد قدر ماسيكون. اعلم فخامتكم أن أمر أن يجلد إنسان نفسه هكذا دون رحمة يعد أمراً خشناً وغلظاً، وخاصة إذا وقعت الجلادات فوق جسم سيئ التغذية ردىء الطعام، فلتصبر سيدتى دولثينيا، لأنه عندما يصير تحملها ممكناً فإنى سأجعل نفسى غربالاً من الجلد، وحتى الموت يصير حياة كله، أقصد القول عندما أنجز مع الرغبة فى إنجاز ما وعدت به.

شكر له ذلك دون كيخوتى، وأكل قليلاً، أما سانشو فكثيراً، وشرعا فى النوم تاركين الرفيقين والصديقين الدائمين الحمار وروثينانتى يرتعيان العشب السوفير على هواهما ودون أى قيود. استيقظا متأخرين بعض الشيء، عادا للركوب ومواصلة الطريق، مسرعين للوصول إلى نزل كان يلمح على بعد فرسخ من هناك. وأقول بأنه كان (نزلاً) لأن دون كيخوتى سماه نزلاً، بعيداً عن عادته فى تسمية كل الفنادق قلاعاً.

وصل الرجلان إلى النزل، وسألا صاحبه عما إذا كان لديه مكان، أجبيا بأن نعم، بكل الراحة والتدليل الذى يمكن أن يوجد فى سرقسطة. ترجلا، وحمل سانشو تموينه إلى مخدع أعطاه الفندقى مفتاحه؛ حمل الدابتين إلى الحظيرة، وقدم لهما طعامهما، خرج ليرى عما يأمره به دون كيخوتى الذى كان جالساً على مصطبة، وحمد الله حمداً خاصاً لأن النزل لم يظهر لسيدته على أنه قلعة. دخلت ساعة

العشاء، ودخلا غرفتيهما وسأل سانشو الفندقى عما لديه للعشاء، أجاب الفندقى بأن فمه سوف يؤخذ مفاسه، من ثم فليطلب ما يشاء، من طيور السماء إلى طيور الأرض وأسماك البحر، فكله عنده.

أجاب سانشو:

- ليس إلى هذا الحد، فدجاجتان مشويتان سنرى فيهما الكفاية، لأن سيدى رهيف ويأكل قليلاً، وأنا لست همماً إلى هذا الحد.

أجاب الفندقى أنه ليس لديه دجاج، لأن الحدأة أتت على الدجاج.

قال سانشو:

- إذن أيها السيد الفندقى، لتأمرهم بشواء حمامتين لحمهما طرى.

أجاب الفندقى:

- حمام! أبناه! فى الحقيقة إنى أرسلت إلى المدينة لشراء أكثر من خمسين حمامة... لكن بعيداً عن الحمام اطلب ماشئت.

قال سانشو:

- بهذه الطريقة لن تعدم وجود لحم عجالى أو لحم ماعز.

- فى النزول الآن لا يوجد لأنه نفذ، لكن الأسبوع القادم سيكون لدينا منهما ما يزيد على الحاجة.

أجاب سانشو:

- ما أبدع ذلك! أراهن على أن تلخص كل هذا النقص فى وفرة شحم الخنزير والبيض.

أجاب الفندقى:

- يا الله! أى بطء فى الفهم، يتمتع به ضيفى! لقد قلت لك إننى ليس لدى حمام أو دجاج، وتود أن يكون لدى بيض؟ اطلب شيئاً آخر، واترك طلب الدجاج.

قال سانشو :

- فلنحسم الأمر، ويلى! قل لى فى النهاية ماذا لديك؟ ولا تفكر فيما أطلب أيها السيد الفندقى.

قال الفندقى:

- ما لدى حقيقة وواقعاً هما ظفرا بقرة كأهما يدا عجل، أو قل، يدا عجل يشبهان ظفرى بقرة، وهما مطبوخان مع حمص وبصل وشحم خنزير، وفى ساعة هذه اللحظة يقولان: "كلنا!، كلنا!"

- من هذه اللحظة احجزهما لى، ولا يمسهما أحد، وسأدفع لك نظيرهما أفضل من غيرى، لأنه بالنسبة لى لا شىء عندى كنت أنتظر ألد من ذلك، ولا يعينى فى شىء أن يكونا يدى عجل مثلما هما ظفرا بقرة.

قال الفندقى:

- لن يمسهما أحد، لأن لدى ضيوفا آخرين من علية القوم، ومعهم طباخ وكل ما يمكن طبخه، خزانة طعام وتوينها.

- مهما كانوا من العلية، فلن يوجد منهم من هو فى علو سيدى، لكن مهنته لا تسمح له بحمل خزائن طعام أو شراب، فهناك نتمدد فى قلب مرج، ونتخم من (أبو فروة) أو (الشحور).

كان ذلك هو الحديث الذى دار بين سانشو والفندقى، دون أن يود سانشو التورط فى إجابات لأسئلته؛ فقد سأله بالفعل أى مهنة أو ماذا يعمل سيده. ووصلت ساعة العشاء، أوى دون كيخوتى إلى غرفته، وأحضر الفندقى (حلة الطبخ)، هكذا بكامل هيئتها، وجلس إليها يتعشى فى رضا. سمع دون كيخوتى، فى غرفة مجاورة لغرفته لا يفصلها عنه سوى حاجز رقيق، من يقول:

– بحياة فخامتكم، أيها السيد دون خيرونيمو، لنقرأ فصلاً من القسم الثانى لقصة دون كيخوتى دى لامانشا، وذلك أثناء انتظارنا إحضار العشاء.

مجرد أن سمع دون كيخوتى اسمه، نهض على قدميه، وبأذن حادة أنصت ما يتحدثون به عنه، وسمع أن ذلك الدون خيرونيمو، المشار إليه، أجاب:

– من أجل ماذا تود، دون خوان، أن نقرأ هذه الترهات، لأن من قرأ القسم الأول من قصة دون كيخوتى دى لامانشا، ليس ممكناً أن يلذ له قراءة القسم الثانى.

قال دون خوان:

– مع كل هذا، سيكون جميلاً أن نقرأه، حيث لا يوجد كتاب بهذا السوء، مادام ليس لدى شىء آخر طيب يسلينى، وبالنسبة لى ما يسرنى أكثر فى هذا القسم رسمه لدون كيخوتى، وقد هجر حب دولثينيا ونسيها.

عندما سمع دون كيخوتى ذلك رفع صوته مليئاً بالغيرة والغضب، وقال:

– من يقول إن دون كيخوتى قد نسى أو يمكن له أن ينسى من لا نظير لها دولثينيا دل توبوسو، أنا سأجعله يفهم بالسلاح نظير أن ذهب بعيداً عن الحقيقة؛ لأن التى لا نظير لها دولثينيا دل توبوسو، لا يمكن أن تنسى، ولا فى

عالم دون كيخوتي يناسب النسيان، ففخره الثبات، ومهنته أن يحافظ على
حبها في نعومة دون أى إجبار.

أجابوا من الغرفة الأخرى:

- من الذى يحدثنا؟

أجاب سانشو:

- من يمكن أن يكون، إلا دون كيخوتي دى لامانشا بنفسه، وخيراً قال، وخيراً
كل ما يقول، فإن من يدفع جيداً لا يغلو عليه غالٍ.

ما إن انتهى سانشو من قول ذلك، حتى دخل مخدعهما فارسان، كما يبدو
على مظهرهما، وواحد منهما ألقى بذراعيه حول رقبة دون كيخوتي، وقال له:

- لا حضوركم يستطيع أن يكذب اسمكم، ولا اسمكم يستطيع إلا أن يعطى
مصادقية لحضوركم؛ لا شك أنت السيد دون كيخوتي الحقيقى، بوصلة
ونور الفروسية المشاءة، على الرغم وضد من أحب أن ينتحل اسمك،
ويصفى مآثرك، مثلما فعل مؤلف هذا الكتاب الذى أقدمه لك.

وأسلمه كتاباً فى يديه، كان يحمله رفيقه، أخذه دون كيخوتي، ودون أن
يجيب بكلمة مضى يتصفحه، وبعد قليل أعاده، قائلاً:

- مع قلة ما تصفحت من هذا، وجدت ثلاثة أشياء ضد هذا المؤلف جديرة
بالرفض. الشئ الأول، بعض كلمات قرأتها فى المقدمة. والشئ الثانى، اللغة
أراجونية، لأنه يكتب أحياناً دون أدوات التعريف والتكثير. والشئ الثالث،
الذى يؤكد أنه جاهل، هو أنه يخطئ وينحرف عن الحقيقة فيما هو رئيسى
فى القصة؛ لأنه يقول هنا إن زوجة سانشو بانثا، خادمى تسمى ماريا

جوتيريث، ولا تسمى هكذا، وإنما تيريزا بانثا، وإذا كان يخطيء في هذا
العنصر الرئيسي، فمن السهل أن يخطيء في كل ما بقي من القصة.
وعلى هذا أجاب سانشو:

- ما أملح هذا القصص! من المؤكد، بل لا بد أن يخطئ أحداث قصتنا، حيث
يطلق على تيريزا بانثا زوجتي، ماري جوتيريث! عد لتناول الكتاب، سيدي،
وانظر عما إذا كنت موجوداً هناك، وعما إذا كان قد غير اسمي.
قال خيرونيمو:

- طبقاً لما سمعت من كلامك، أيها الصديق، فلاشك أنك سانشو بانثا حامل
دروع دون كيخوتي.
أجاب سانشو:

- نعم، هو أنا، وأعتز بنفسى لذلك.
قال الفارس:

- إذن، أقسم أن هذا الكاتب الحديث لا يعاملك بنظافة، كما يبدو من مظهر
شخصك، فهو يرسمكم في شخص أكل وساذج، ولا تتسم بخفة الدم،
ومختلف كثيراً عن سانشو الذي يصفه القسم الأول من قصة سيدك.
قال سانشو:

- الله يساعده، فليتركني في ركن دون أن يذكرني، فمن يعرف يعزف، ويخبر سان
بدرو مادام في روما.

طلب الفارسان من دون كيخوتى أن يصحبهما إلى غرفتهما للعشاء معهما، فهما يعرفان جيداً أن ذلك النزل ليس فيه طعام يتناسب مع مقامه. دون كيخوتى الذى كان دائماً مهذباً، نزل عند رغبتهما وتعالى معهما. وبقي سانشو مع (حلة الطبخ) مسيطراً على الموقف وحده دون شريك. جلس على رأس المائدة، ومعه صاحب النزل الذى لم يكن أقل من سانشو شوقاً إلى يديه أو ظفريه.

وخلال العشاء سأل دون خوان عما عند دون كيخوتى من أخبار عن دولثينيا دل توبوسو: هل تزوجت؟ هل ولدت؟ أو هى حامل؟ أو مازالت على عذريتها؟ وتذاكر (محافظة على الشرف والاحترام) الأفكار الغرامية للسيد دون كيخوتى، وعليه أجاب:

- مازالت دولثينيا عذراء، ومشاعرى تجاهها أثبت من أى وقت مضى، المراسلات فى جفافها القديم، وحسنها راح لتحولها إلى فلاحه خشنة.

من ثم، مضى يحكى لهما تفصيلات سحر السيدة دولثينيا دل توبوسو، وما وقع فى كهف مونتيسينوس، مع الأمر الذى أعطاه الحكيم ميرلين لفك سحرها، وكان جلد سانشو. كان طرب الفارسين عظيماً لسماع دون كيخوتى وهو يحكى الوقائع الغريبة لقصته، وهكذا بقوا فى غاية التعجب من ترهاته، تماماً مثل تعجبهم من أناقة أسلوبه فى حكايتها؛ وبهذا رأوا فيه الذكاء، وبذلك كان يظهر المخبول، دون تحديد مدى كل من الذكاء والخبل فى اختلاطهما عنده. أنهى سانشو عشاءه، وتاركاً الفندقى سكراناً، عبر إلى الغرفة التى يوجد بها سيده، وعند دخوله قال:

- أَدفع حياتى، أيها السادة، إذا كان مؤلف هذا الكتاب الذى مع فخامتكم لا يجب لنا أن نأكل جيداً معاً، وأنا أحب أن يسمنى أكولاً، كما تقول فخامتكم، إذا لم يسمنى أيضاً سكيراً.

قال خير وينمو :

- نعم هكذا يطلق عليك، لكن لا أتذكر بأى طريقة، وإن كنت أذكر أنه يقول ذلك بعبارات سيئة الرنين على الأذن، فضلاً عن كونها كاذبة، حسبما ألاحظ من ملامح سانشو الطيب، الحاضر أمامنا.

قال سانشو:

- صدقني فخامتكم أن السانشو والدون كيخوتي بهذه القصة لا بد أنهما غير من ورد ذكرهما في القصة التي ألفها سيدي حامدى بن إنجيلين، وهما نحن بالفعل، سيدي الشجاع الذكي العاشق، وأنا البسيط الظريف، وليس الأكل أو السكر.

قال دون خوان:

- هذا ما أعتقده، ولو كان ممكناً عليهم أن يأمرؤا ألا يجروا أحد على معالجة أشياء دون كيخوتي الأكبر، إذا لم يكن سيدي حامدى بن إنجيلين، مؤلفه الأول، تماماً مثلما أمر الإسكندر الأكبر ألا يتجرأ أحد على رسمه إن لم يكن (أبيلس).

قال دون كيخوتي:

- ليرسمنى من يشاء، لكن عليه ألا يسىء معاملتى؛ ففي أحيان كثيرة ينفد الصبر، عندما يقصم ظهره الشر.

قال دون خوان:

- لا أحد يمكنه أن يفعل ذلك مع السيد دون كيخوتي دون أن يدركه انتقامه، إذا لم ينقذه حماؤه وراء درع صبره الذى هو قوى وعظيم حسب رأيي.

فى هذا الحديث وغيره مر الشطر الأكبر من الليل، ومع رغبة دون خوان أن يقرأ دون كيخوتى الكتاب أكثر، ليرى وقاحات هذا الكاتب، لم يحقق له ذلك، قائلاً إنه يعتبر نفسه كأنه قرأه، ويؤكد أنه كله سفيه، ولا يود أن يصل لمسامع مؤلفه أن الكتاب وقع بين يديه، لأنه سيبتهج بظنه أن دون كيخوتى قرأه، وعلى العقل ومع العين بصفة خاصة الابتعاد عن الأشياء المنحطة والمتعثرة. سألاه عن وجهته فى رحلته، أجاب إنها سرقسطة، للدخول فى مبارزات الدرع التى تعودوا على إقامتها بهذه المدينة كل عام. قال له دون خوان إن هذه القصة الجديدة تقص حكاية دون كيخوتى فى سرقسطة كما تريد أن يكون، ليس إلا هدفاً لرماح الفرسان، دون إبداع بلغتها الفقيرة، وبزيها الأفقر المنحط، مع ثرائها بكل السذاجات.

أجاب دون كيخوتى:

- ولهذا نفسه لن أضع قدمى فى سرقسطة، وهكذا أخرج مؤلف هذه القصة الجديد من ميدان العالم، وسيلاحظ الناس أنى لست دون كيخوتى الذى يتحدث عنه.

قال دون خيرونيمو:

- خيراً تفعل، وهناك مسابقات للفرسان أخرى فى برشلونة، حيث يستطيع السيد دون كيخوتى إظهار شجاعته.

قال دون كيخوتى:

- هذا ما أفكر فى عمله، وبعد إذن فخامتكم سأذهب إلى سريرى، فقد تأخر الوقت، وخذوا منى وضعونى ضمن قائمة أصدقائكم الكبار وخدمكم.

قال سانشو:

- وأنا أيضاً، فقد أصلح لشىء.

عند هذا ودع بعضهم بعضاً، وانسحب دون كيخوتى وسانشو إلى غرفتيهما، تاركين لدون خوان ودون خيرونيمو فى عجبهما من الخلطة بين الذكاء والخبل، معتقدين أن هذين هما دون كيخوتى وسانشو الحقيقيين، وليسا من يصفهما المؤلف الأراجونى.

بكر دون كيخوتى فى استيقاظه، ودق الحاجز الذى يفصله عن المخدع الآخر، وودع النزيلين. دفع سانشو أجر الفندقى، ونصحه أن يقلل من ثنائه على طعام فندقه، أو يحسن منه ومن تعدد أنواعه.

الفصل الستون

ما حدث لدون كيخوتى فى طريقه لبرشلونة

كان الصباح منعشاً، وهناك أدلة أن يستمر اليوم بنفس الإيقاع، وذلك عند خروج دون كيخوتى من النزل، بعد استعلامه عن الطريق الأقصر لبرشلونة، دون المرور بسرقسطة، هكذا كان حجم رغبته لإثبات كذب هذا القصاص الجديد الذى قالوا عنه إنه يكثر من إهانته. وحدث أن، فى أكثر من ستة أيام، لم يقع له شىء جدير بكتابته، وفى نهاية هذه الأيام خلال انحرافه عن الطريق، دخل عليه الليل داخل غابة كثيفة من أشجار الحور أو الفلين، فحول هذا لا يتحرى سيدى حامدى الدقة التى يتحراها فى بقية الأشياء.

ترجل عن الدابتين السيد والصبى، وأراحا ظهرهما على جذوع الشجر، وسانشو الذى كان قد تناول وجبة العصرية ترك نفسه يدخل بجرأة أبواب النوم، لكن دون كيخوتى الذى حملته خيالاته إلى السهر أكثر مما حمله عليه الجوع، لم يستطع أن يغمض عينيه، وإنما راح وجاء مع أفكاره بين ألف جنس من الأماكن. لقد بدا له أنه يوجد فى كهف مونتيسينوس، ولقد رأى المتحولة إلى فلاحه دولثينيا تقفز فوق حمارتها، ورنّت فى أذنه كلمات الحكيم ميرلين، التى كانت تشير إلى مساعى فك سحر دولثينيا وشروطه. أصابه اليأس من رؤية تخاذل سانشو خادمه وقلة رحمته، لأنه حسبما يعتقد أنه جلد نفسه فقط خمس جلدات، رقم غير مناسب وضئيل بالنسبة للرقم اللانهائى الذى ينقصه، ومن هذا تولى عند حزن كبير وغضب، حتى إنه حدث نفسه بهذا الخطاب: "إذا كان الإسكندر الأكبر قد حل

معضلة قائلاً: "لا فرق بين قص العقد وفكها". ولم يعدم بذلك أن يكون سيدًا كونيًا لآسيا، ولا أقل ولا أكثر من ذلك يمكن أن يحدث الآن في فك سحر دولثينيا، إذا أنا جلدت سانشو رغم أنفه، وإذا كان شرط هذا العلاج في أن يستقبل سانشو الثلاثة آلاف وثلاثمئة جلدة، فماذا يعينني إذا هو جلد نفسه أو جلده آخر، فالجوهر هو أن يستقبل الجلد، تأتيه الجلادات من حيث جاءت؟"

بهذا الخيال اقترب من سانشو، بعد أن نزع أولاً عنان روثنانتى، وعدل من وضعه حتى يتمكن من استخدامه في جلده، وبدأ في نزع أحزمته، متصورًا عدم وجود سوى الحزام الأمامى الذى يثبت سراويله، لكن بمجرد وصوله إليه، استيقظ سانشو في كل وعيه، وقال:

– ما هذا؟ من يلمسني ويفك أحزمتي؟

أجاب دون كيخوتى:

– إنه أنا، أتى لكى أعوض نقصك، وأعالج معاداتي، أتى كى أجلك، سانشو، وأقلل من حجم الدين الذى أخذت على عاتقك سداده. دولثينيا تموت، وأنت تعيش لاهياً، وأنا أموت شوقاً، وهكذا استسلم يارادتك، فإن إرادتى إعطاؤك في هذا المكان المنعزل، على الأقل ألفى جلدة.

قال سانشو:

– هذا لا، فخامتكم قف في مكانك، وإذا لا فبحق الله سوف يسمعنا الصم. الجلادات التى أخذتها على عاتقى لا بد أن تكون اختيارية، وليس بالقوة، والآن ليس لدى الرغبة في جلدى، ويكفى أن أعطى لفخامتكم الكلمة بأن أجلد نفسى وأسوطها عندما تتحقق إرادتى في ذلك.

قال دون كيخوتى:

- لا ينبغي ترك ذلك حسب رغبتك، لأنك صلب القلب، ومع أنك فلاح فإنك
طرى اللحم.

وهكذا كان يحاول ويصارع حتى يعريه. وعندما رأى سانشو بانثا ذلك،
نهض على قدمين، وهاجم سيده، واحتضنه دون أن يلتصق به وضربه مقصاً
برجله، فأسقطه على الأرض على ظهره، ووضع ركبته اليمنى فوق صدره،
ويديه قيد يديه، حتى إنه لم يتركه يفرك أو يتنفس، ومضى دون كيخوتى يقول له:

- كيف أيها الخائن؟ ضد سيديك، ومالك أمرك الطبيعي تتمرّد؟ تتجرأ على من
يعطيك عيشك؟

أجاب سانشو:

- أنا لا أنزع ملكاً، ولا أتوج آخر، وإنما أساعد نفسى، وأنا سيد نفسى،
فخامتكم عدنى أن تمداً، وألا تحاول جلدى الآن، فإن فعلت تركتك حرّاً بلا
قيود، وإذا لا،

- هنا سوف تموت أيها الخائن

- عدو دونيا سانشا^(١)

وعده دون كيخوتى، وأقسم بحياة سيده أفكاره ألا يمس شعرة من ملبسه،
وأن يترك أمر جلده لكامل إرادته واختياره وعندما يحب؛ نهض عنه سانشو،
وانحرف مسافة عن ذلك المكان، ومضى ليستند على شجرة أخرى، فأحس بأن

(١) شعر من رومانث "أمراء لارا".

شيئاً يلمس رأسه، فرفع يده فاصطدمت بقدمين لشخص يرتدى حذاء. ارتعد من الخوف، وهرع إلى شجرة أخرى فحدث له نفس الشيء، فصرخ منادياً على دون كيخوتي حتى ينجده. وهرع إليه دون كيخوتي، وسأله ماذا وقع له، ومن أى شيء يخاف، وأجابته سانتشو أن كل هذه الأشجار مليئة بأقدام وأرجل بشرية، لمسها دون كيخوتي، وأدرك كنه الأمر، وقال لسانشو:

- لا يوجد سبب للخوف، لأن هذه الأقدام والأرجل التي تتحسسها ولا تراها، هي دون شك لبعض قطاع الطرق واللصوص المشنوقين بتعليقهم في فروع هذه الأشجار، فقد اعتادت العدالة عند القبض عليهم شنقهم هنا جماعياً عشرين أو ثلاثين بعد ثلاثين، ومن هذا أستنتج أننا في غاية القرب من برشلونة.

وهكذا كان ما تخيله حقيقياً، وعند تفتح الظلام، نظرا فوجدا عناقيد تلك الأشجار عبارة عن أجسام لصوص. وبينما هما فى هذا، جاء الصباح، وإذا كان الموتى أفزعوهما، فلا أقل أن يرهبهما أكثر من أربعين لصاً أحياء حاصروهما فجأة، قائلين لهما فى لغة قطالونية أن يهدأوا ويتوقفوا حتى يأتى قبطانهم.

كان دون كيخوتي على قدميه، وجواده بغير عنان، ورمحه مسند إلى إحدى الأشجار، وأخيراً دون أى دفاع، وهكذا وجد من الخير أن يضم يديه وأن يخفض رأسه، منتظراً فرصة أو مخرجاً. وأسرع بعض اللصوص بتفتيش الحمار، ولم يتركوا فى المخرج الذى عليه أى شيء، وأيضاً نفس الشيء مع الحقيبة، وفى حزام من النسيج وضع الدنانير التى أخذها من الدوق وما حملاه معها من قريتهما، ثم ربطها حول خصره، وبهذا أحسن الصنع، ولكن هؤلاء الناس الطيبون كانوا يفعلون به ما يفعله الفلاح مع الحشائش الضارة مفتشاً عنها بين عيدان المحصول

وكانوا ينظرون المخبأ بين جلده ولحمه، لولا أن حضر قبطانهم فى الوقت المناسب، وكان مظهره يوحى بأربعة وثلاثين عامًا من العمر، قوى البنية متوسط القامة، ذا نظرة جادة، ولونًا أسمر. قدم فوق جواد جبار، وملايسه مدرعة بالصلب، ومعه أربعة مسدسات صغيرة (كانت تسمى فى تلك المنطقة الحجريات) على جانبيه. رأى أن حاملى دروعه، (وهكذا كانوا يسمون من يسعون فى هذا العمل) يقومون بتنظيف سانشو بانثا. أمرهم ألا يقوموا بذلك، وفى الحال أطاعوه، وهكذا تم إنقاذ حزام نقوده. أدهشه وجود رمح مسند إلى شجرة، ودرع على الأرض، ودون كيوخوتى مسلحًا ومتفكرًا وعارم الحزن، وصورة للأسى حتى إنها تجسم الحزن نفسه. اقترب منه، وقال له:

- لا تحزن هكذا، أيها الرجل الطيب لأنك لم تقع بين يدي فرعون قاس، وإنما فى يدي روكي غينارت، الذى يحمل من الشفقة أكثر مما يحمل من العنف.

أجاب دون كيوخوتى:

- ليس حزني لأنى وقعت فى قبضتك، أوه، روكي الشجاع، الذى لم يوجد مكان فى الأرض لا يضم شهرته، وإنما لما صرت إليه من غفلة، فقد فاجأني جنودك، بدون عنان لِنفسي فى حال كوني مجبرًا، طبقًا لنظام الفروسية المشاءة التى أمارسها، أن أعيش فى تيقظ مستمر، باقيا كل الوقت حارسًا على نفسى، ولأنى أعلمك، أوه روكي، أنهم إذا ما كانوا وجدوني فوق جوادى، ومعى رمحى مرتديًا درعى، ما كان سهلاً عليهم بهذه الطريقة إخضاعى، فأنا دون كيوخوتى دى لامانشا، الذى تملأ مآثره الكون كله.

وفى الحال عرف روكي أن مرض دون كيوخوتى يتركز فى الجنون أكثر من الشجاعة، ومع أنه سمعهم يذكرونه فى بعض الأحيان، فلم يأخذ أمره قط على

أنه حقيقى، ولم يستطع أن يقنع نفسه أن مثل هذا المزاج يمكن أن يسيطر على قلب رجل، من ثم، طرب من أن يلمس عن قرب ما سمعه عن بعد، وهكذا قال له:

– أيها الفارس الشجاع، لا تحزن ولا تأخذ أمرك الآن على أنه حظ كوارثى، فمن الممكن أن يعتدل هذا الحظ الملتوى ويتغير، فإن السماء فى لف ودوران غريب ولم يشهد مثله (ولا يتخيله الناس)، وقد تعودت أن تأخذ بيد من سقط، وأن تغنى من افتقر.

وعندما حاول دون كيخوتى توجيه الشكر له، أحسوا وراء ظهرهم ضجة مثل ضجة رمح الخيل، ولم يكن إلا فرساً واحداً، فوّه يقدم مليئاً بالغضب فتى، على ما يبدو عمره عشرون عاماً، مرتدياً حريراً أخضر، مع خيوط من الذهب، وسراويل وزعبوط مفتوح فوق الرأس، وعليه قبعة ذات تلابيب عريضة وحذاء مشمع ملتصق بالقدم، ومهاميز وخنجر وسيف مذهبة، وبندقية صغيرة فى اليد، ومسدسان على الجانبين. وعلى الضجة، التفت روكى، ورأى هذه الصورة الجميلة، التى عند إدراكها له، قالت:

– لقد جئت بحثاً عنك، أوه روكى الشجاع!، حتى أجد عندك إن لم يكن العلاج لتعاستى، سيكون تخفيفها، وحتى لا أتركك مع دهشتك، لأنى أعلم أنك لم تتعرف علىّ، أحب أن أقول من أنا: أنا كلاوديا خيرونيمّا، ابنة سيمون فورتى، صديقك الفريد، والعدو الخاص لكلاوكيل توررياس، والذى هو أيضاً عدوك، لكونه واحداً من الجانب المضاد لك، وأنت تعرف فعلاً أن توررياس هذا له ابن، ويسمى دون توررياس بيثنى، وعلى الأقل كان يحمل هذا الاسم من ساعتين. هذا الابن، حتى أختصر عليك قصة سوء حظى، سأقول لك فى كلمات قليلة ما سببه لى. رآنى، وغازلنى، أنصتُ إليه، وعشقتُ عدو أبى،

لأنه لا توجد امرأة مهما كانت وراء أستار ومحصنة، لا يفيض وقتها ويتسع لكي تضع موضع التنفيذ والفعل رغباتها المتعثرة. أخيراً، وعدني بأن يصير زوجي، وأنا أعطيته كلمتي أن أصير زوجته، دون أن يحدث ذلك على أرض الواقع. وعلمت بالأمس، أنه نسي ما يدين به لي، وسوف يتزوج من أخرى، وأنه هذا الصباح ستم دخلته، خبر عكر صفوي، وقضى على صبري، ولعدم وجود أبي في القرية، ارتديت الملابس التي تراها، ومسرعة فوق هذا الجواد، لحقت بدون بيثنتي على بعد فرسخ من هنا، ودون أن أشعر في الشكوى والاستماع إلى أعدار أطلقت عليه نار هذه البندقية، وأيضاً رصاص هذين المسدسين، والذي اعتقده أنني أصبته بأكثر من رصاصتين في جسمه، فاتحة فيه أبواباً منها خرج شرفي ملفوفاً بالدم. وهناك تركته بين خدمه، الذين لم يجرءوا ولم يستطيعوا الدفاع عنه، وجئت بحثاً عنك لتساعدني على العبور إلى فرنسا، فعندى هناك أقارب يمكن أن أعيش معهم، وأيضاً للتوسل إليك بالدفاع عن والدي، حتى لا تستطيع (عزوة) دون بيثنتي أن تمتد يدها بشأراً شنيع منه.

دهش روكي لشجاعة الجميلة كلاوديا وحسنها وامتشاق قامتها، وواقعتها، وقال لها:

- تعالى يا سيدتي، وهيا بنا نرى، إذا كان عدوك ميتاً، وبعد ذلك نرى ما يهملك أكثر من أمور.

دون كيخوتي، الذي كان يستمع في اهتمام إلى قصة كلاوديا، وما أجابها به روكي، قال:

- لا ينبغي أن يجهد أحد نفسه في الدفاع عن هذه السيدة، فإنني سأحمله أنا على عاتقي، وسأذهب للبحث عن هذا الفارس، وسوف أجعله ميتًا أو حيًا ينجز كلمته الموعودة لكل هذا الجمال.

قال سانشو:

- لا أحد يشك في ذلك، لأن يد سيدي خبيرة في شئون الزواج، فمنذ أيام ليست بالطويلة زوّج آخر، والذي كان أيضًا ينكر كلمته لصبية أخرى، وإذا لم يكن بسبب السحرة الذين يطاردون سيدي قد تحولت صورته الحقيقية إلى صورة خادم، فإن هذه هي ساعة أن تكون مثل تلك الصبية هي ليست نفسها.

روكى الذى كان يهتم أكثر بحادثة كلاوديا الجميلة، لم يصل إلى مسامعه كلام السيد وخادمه، واكتفى بأن أمر أتباعه بأن يعيدوا كل ما انتزعه من الحمار إلى سانشو، وأن ينسحبوا إلى المكان الذى أقاموا فيه فى تلك الليلة، وفى الحال انطلق مع كلاوديا بكل السرعة للبحث عن الجريح أو الميت دون بيثنتى. وصلا إلى المكان الذى تعرفت عليه كلاوديا، فلم يجدوا سوى دم حديث الإراقة، لكن بمد نظرهم فى كل اتجاه شاهدا فى منحدر بأعلى بعض الناس، وفهما، وكان ذلك حقيقياً، أنه لا بد أن يكون بيثنتى، الذى حمله خدمه إما ميتاً أو حيًا، إما لعلاجه أو لدفنه، وأسرعاً لإدراكهم، وكما كانوا يتحركون ببطء، فقد وصلا إليهم بسهولة. وجدا دون بيثنتى بين ذراعى خدمه، والذى كان يرجو بصوت باهت وضعيف أن يتركوه يموت هناك، لأن آلام الجروح لا تسمح بالتحرك إلى الأمام أكثر من ذلك.

هبط من على جواديهما كلاوديا وروكى، ووصلا إليه، وفزع الخدم من وجود روكى، وتكدت كلاوديا من مظهر بيثتى، وهكذا بين الحنان والصرامة اقتربت منه، وأمسكت بيديه، وقالت :

- إذا أنت كنت أعطيتى هاتين، طبقاً لاتفاقنا، ما كنت رأيت نفسك فى هذا الموقف.

فتتح عينيه المغلقتين تقريباً الفارس الجريح، ومتعرفاً على كلاوديا، قال لها:

- أرى جيداً، أيها السيدة الجميلة والمخدوعة، أنك كنت من قتلنى، وهى عقوبة لا أستحقها، ولا تتفق وحيى لك، الذى بفضلته لم أحب، بل لم أعرف أن أغضبك بأفعالى.

قالت كلاوديا:

- إذن، أليس حقيقياً أنك هذا الصباح كنت ستدخل بليونورا، ابنة الثرى بلبا سترو؟

أجاب دون بيثتى:

- لا، بالطبع، ولعل حظى السئى لابد أنه حملك بهذه الأخبار إلى الغيرة التى انتزعت منى الحياة، والتى أغادرها بين يديك وذراعيك، مما يعوض سوء حظى. وحتى تتأكدى من هذه الحقيقة، اضغطى يدي، واقبلينى زوجاً، إذا أحببت، فلا شئ أعظم من ذلك لإرضائك، مقابل العدوان الذى حملك ظنك إلى أنى ارتكبته ضدك.

ضغظت كلاوديا على يده، وضغظ قلبها أيضًا عليها ذلك القلب الذى بقى مغميًا عليه فوق صدر دون بيثنتى ودمها، أما هو فقد أخذته نوبة غياب قاتل عن الوعى. مضطربًا كان روكى ولم يعرف ماذا يصنع، هرع الخدم لإحضار ماء لرش وجهيهما، وأحضره وأغرقوهما بالماء، عادت كلاوديا من إغمائها أما دون بيثنتى فلم يعد من نوبة غيابه لأنه قد انتهت حياته. وشاهدت كلاوديا ذلك، وأن زوجها ذا الحلاوة والطلاوة لم يعد يعيش، فجرت الهواء بالتهديدات، وجرحت السماء بالشكوى، وأساعت معاملة شعرها، مسلمة له للريح، وملأت بالقبح وجهها ببديها، مع كل مظاهر الألم والحزن الذى يمكن تخيله من صدر مكلوم.

كانت تقول:

– أيتها المرأة القاسية عديمة الاعتبار، بأى سهولة وضعت سوء ظنونك موضع التنفيذ. أوه، أيتها القرة المسعورة للغيرة، أى نهاية يائسة لمن رحب بك فى صدره! أوه، يا زوجى، يا من حمله حظه التعيس من سرير الزوجية إلى القبرا!

كان هذا التعديد الحزين الذى وصل إلى هذا الحد من الشكوى والصادر من كلاوديا قد استخرج من عيون روكى الدموع غير المعتادة الإهراق بأية حال. وبكى الخدم، وكانت تسقط كلاوديا فى كل خطوة مغشيًا عليها، وصار هذا المكان حقلًا للحزن ودائرة للنكبات. وأخيرًا، روكى غينارت أمر الخدم أن يحملوا جسد دون بيثنتى إلى حيث أبوه، والذى كان يعيش قريبًا من هناك، حتى يتم دفنه، وقالت كلاوديا لدون روكى أنها تحب الذهاب إلى دير رئيسته عمه لها، وفيه تفكر فى قضاء كل حياتها، مع زوج أفضل (إلهى)، وصحبته أبدية. أثنى روكى على فكرتها، عارضًا مصاحبته إلى حيث تريد، وواعدًا بالدفاع عن أبيها من أقارب بيثنتى، بل من العالم، إذا أراد أن يعتدى عليه. لم ترغب كلاوديا فى صحبتته بأية

حال من الأحوال، وشكرت له عرضه بأفضل ما تعرفه من العبارات، وودعته باكية، وحمل خدم دون بيثنتى جسمه، وعاد روكى إلى رجاله، وتلك كانت نهاية غراميات كلاوديا خيرونيمًا. لكن، كيف نسجت قصتها المأسوفة القوي التي لا تقهر والصارمة للغيرة؟

وجد روكى غينارت رجاله فى المكان الذى أمرهم به، وكان معهم دون كيخوتى فوق روئينانتى، متحدثًا معهم لإقناعهم بترك هذه الطريقة للعيش الخاطر على الروح مثلها مثل الجسم، لكن كما كان أغلبهم غاسكونيين (من جنوب فرنسا)، ومن نوع الناس الخشن والقروى المسرف، فإن لا شىء مما قال دون كيخوتى وصل جيدًا إلى أفهامهم. وعند وصول روكى سأل سانشو بانثا عما إذا كانوا أعادوا إليه كل شىء، أجاب سانشو بنعم إلا ثلاثة جوارب تساوى ثلاث مدن. قال أحد اللصوص:

— ماذا تقول يارجل؟ إنما معى وهى لا تساوى ثلاثة ريالات.

قال دون كيخوتى:

— هذا صحيح، لكن خادمى يقدرها فيما قال بقدر من أعطاها لى.

أمر روكى غينارت بإعادتها فى الحال، وأمر أن يقف رجاله على هيئة جناح، وأمرهم أيضًا بإحضار كل الملابس والجواهر والنقود، وكل ما سرقوه منذ توزيع الغنائم الأخير، وبسرعة عمل الحسابات، محولًا ما لا يمكن تقسيمه إلى قيمة نقدية، ووزع ما هناك على الجميع فى مساواة شرعية، وفطنة، حتى إنه لم يفتنه أصغر شىء، ولم يخن العدالة فى شىء أثناء التوزيع، وعندما انتهى من هذا الذى به صار الجميع راضيًا، قال لدون كيخوتى:

- إذا لم نحافظ على هذا الانضباط الدقيق في هذا مع هؤلاء، فلن يمكننا العيش معهم.

قال سانشو:

- طبقاً لما رأيت هنا فإن العدالة رائعة، حتى إنه من الضروري اللجوء إليها بين نفس اللصوص.

سمع هذا أحد اللصوص، فصبوب بندقيته، والتي كان يستطيع بها دون شك فتح رأس سانشو إذا لم يصرخ فيه روكي غينارت كي يتوقف. تصلب وجه سانشو، وقرر عدم فك خياطة شفتيه مادام هو بين هؤلاء الناس.

وهنا وصل واحد وربما أكثر من رجال روكي الذين يتخذون مواقع حراسة على الطرق، لرؤية الذهاب والرائح على الطرق، وتنبيه رئيسه بما يجرى، وقد قال هذا:

- سيدى ليس بعيداً عن هنا، في الطريق المتجه لبرشلونة يأتي عجيح من الناس عظيم.

وعلى هذا أجاب روكي:

- هل لاحظت عما إذا كانوا ممن يبحثون عنا؟ أم هم مما نبحث نحن عنهم؟

أجاب الحارس:

- لا، ليسوا إلا ممن نبحث عنهم.

أجاب روكي

- إذن اخرجوا، وإيتوني بهم حالاً، دون أن يهرب منهم أحد.

وفعلوا ما أمروا به، وبقي فقط دون كيخوتى وسانشو وروكى، منتظرين ما يحضره حاملو دروع روكى، وخلال ذلك قال روكى لدون كيخوتى:

- لا بد أن يرى السيد دون كيخوتى فى حياتنا طريقة جديدة للعيش، ومغامرات جديدة ووقائع جديدة، وكل هذا خطير، ولا يدهشنى أن يبدو لك كذلك، لأننى فى الحقيقة أعتزف أنه لا توجد طريقة للعيش أكثر خطراً وإفراعاً من حياتنا. وعنى فقد ألقى بى إلى هذه الحياة مما لا أدريه من الرغبة فى الانتقام، التى تملك من القوة لتعكير القلوب الساكنة، وأنا بطبعى شفوق، وحسن النية، ولكنها كما قلت، الرغبة فى الثأر من إهانة وقعت ضدى، وهذا دمر كل ميولى الطيبة، والتى أحتفظ بها فى تلك الحالة، على الرغم مما أفهمه، من أن هاوية إثم تنادى على هاوية إثم آخر، ومضت تتسلل حلقات الانتقام، ليست فقط التى تخصنى، بل التى تخص الآخرين، من ثم تتراكم على عاتقى، ومع أنى أراى فى قلب تيه الاضطراب، فإننى بفضل الله لم أفقد الأمل فى الوصول إلى مرفأ آمن.

اندهش دون كيخوتى من بلاغة روكى، لأنه كان يتصور أن بين أمثال هذه المهن كالسرقة واحتراف القتل والسطو، لا يوجد من يستطيع تدبيح خطاب بمثل هذه البلاغة، أجابه:

- يا سيد روكى، إن أول الصحة هو التعرف على المرض، وفى حب المريض تناول الدواء الذى يأمره به الطبيب، وفخامتكم مريض، وتعرف أملك، والسماء أو الله، بقول أدق، هو طبيينا، سوف يطبق عليك من الأدوية ما يشفيك، وتلك الأدوية اعتادت أن تشفى شيئاً فشيئاً، وليس فجأة، أو بمعجزة، وأكثر من ذلك، فإن الآثمين الأذكياء أقرب إلى الشفاء من الأغبياء،

من ثمّ، فإن فخامتكم أظهر عباراته ذكاهه، فليس إلا التمتع بالروح العالية، وانتظار التحسن من مرض الضمير، وإذا رغبت فخامتكم في اختصار الطريق، ووضع أمر نجاتك على طريق سهل، تعال معي، وسوف أعلمك كيف تصير فارساً مشأء، حيث يقع جهاد كثير ونكبات، يمكنك أخذها باعتبارها تكفيراً، سوف يرفعك سريعاً إلى السماء.

ضحك روكى من نصيحة دون كيخوتى، ولتغيير مجرى الحديث قص الحادث المأساوى لكلاوديا خيرونيميا، والذي أحزن سانشو إلى آخر المدى، فلم يكن فى رأيه أن جمال الصبية كان هيناً أو جرأتها وبريقها.

وأثناء هذا حضر رجال روكى ومعهم الفريسة، وهى فارسان على جوادين، واثنان من الحجاج دون مطية، وعربة بها نساء مع ما يصل إلى ستة خدامين منهم الراكب ومنهم الرّاجل، مع آخرين من صبيان البغال الذين فى رفقة الراكبين من الفرسان.

حاصرهم اللصوص فى وسط حلقتهم، واحتفظ الغالب والمغلوب بالصمت العظيم، فى انتظار أن يتكلم روكى غينارت الأكبر، والذي سأل الفارسين، عمّن هما، وإلى أين يتجهان، وأى نقود يحملان. أجابه أحدهما:

- سيدى نحن قبطانان فى سلاح المشاة الإسبانى، ومعسكراتنا فى نابولى، وسوف نبحر فى أربع سفن، يقولون إنهما فى برشلونة، بأمر أن تذهب إلى صقلية، معنا بين مئتي دينار أو ثلاثمئة، وبها حسب رأينا سوف نذهب أغنياء وراضين، فالضيق المعتاد للجندية لا يتيح كنوزاً كبيرة.

سأل روكى نفس السؤال إلى الحجاج، وأجيب بأنهم سوف يبحرون إلى روما، وفيما بينهم يقترب ما يحملون إلى ستين ريالاً. أحب أيضاً أن يعرف من كان فى العربة، وإلى أين وما معه من نقود، قال أحد الخدم الراكبين:

- سيدى دونيا غيومار دى كينيونس، زوجة مدير دائرة نابولى، مع ابنة صغيرة،
وخادمة وقهرمانة، وهن من يوجد فى العربة، ونصحبن نحن الخدم الستة،
والنقود ستمئة دينار.

قال روكى:

- هذا معناه أنه لدينا تسعمئة دينار وستين ريالاً، وجنودى حوالى الستين، انظر
كم يكون نصيب كل واحد، لأنى محاسب ردىء.

وعندما سمع ذلك اللصوص رفعوا أصواتهم، قائلين:

- عاش روكى غينارت سنوات طويلة على الرغم من كل العصابات الأخرى
التي تبغى تدميره.

أظهر القبطانان الضعف والحزن، وتكررت السيدة المديرية، ولم يبتهج فى
شئ الحجاج، مشاهدين مصادرة ممتلكاتهم. تركهم هكذا فى ذهولهم روكى بعض
الوقت؛ لكنه لم يحب أن تستمر أحزانهم، التي كان يمكن مشاهدتها من مدى مرمى
رصاصة بندقية، من ثم، التفت إلى القبطانين، وقال:

- فخامتكما، أيها القبطانان، تتفضلان بإقراضى ستين ديناراً فى كل
تهذيب، والسيدة المديرية ثمانين ديناراً كى تسعد، هذه الكتيبة التى تصحبنى، لأن
رئيس الدير الذى يغنى لا بد أن يجد غداءه، وبعدها يمكنكم مواصلة طريقكم
أحراراً دون هم، وبتصريح مرور سأعطيكم لكم حتى إذا صادفكم مجموعات أخرى
من رجالى المنتشرين هنا وهناك لا تمسكم بسوء، وليس فى نيتى الإساءة إلى جنود
ولا لآى امرأة، ولاسيما النساء الساميات المقام.

كانت العبارات اللانهاية ورقيقة التلفظ تتدفق من القبطانيين في شكر روكى لأدبه وكرمه حسبما تركهم مع نفس ما كانوا يحملون من نقود. السيدة دونيا غيومار أرادت أن تنزل من العربة كى تقبل أقدام روكى الأكبر وبديه، لكنه لم يوافق بأية حال من الأحوال، وعلى العكس طلب منها الغفران للإساءة التى وجهها إليها، مجبراً لإنجاز الواجبات الماسة لمهنته. أمرت السيدة فى الحال إعطاء الدنانير الثمانين التى كان عليها دفعها، وكان القبطانان بالفعل قد انتهىا من دفع الستين ديناراً، وأخذ الحجاج فى إخراج كل ثروتهم البائسة؛ فأمرهم روكى بالتوقف، وملتفتاً إلى رجاله، قال لهم:

- من هذه الدنانير يخص كل واحد منكم ديناران، وسيتبقى عشرون، عشرة منها هؤلاء الحجاج، والعشرة الأخرى إلى الحامل للدرع^(*) حتى يتكلم بخير عن هذه المغامرة.

وأحضروا له عدة الكتابة التى يصحبها دائماً معه، أعطاهم روكى تصريح مرور مكتوباً وموجهاً لرؤساء فصائله، ومودعاً لهم، تركهم مطلقى السراح، مستغربين لنبله ومروءته وسلوكه العجيب، ناظرين إليه كإسكندر أكبر أكثر من اعتباره لصاً مشهوراً. أحد رجاله قال بلغة مختلطة بين الفرنسية والقطا لونية:

- قبطانا هذا يعد (راهباً) أكثر منه (لصاً)، ومن الآن فصاعداً إذا أراد أن يظهر كرمه، فليفعل من جيبه، وليس من جيوبنا.

لم ينته التعيس من نطق هذه العبارة فى ببطء، والتى لا يفوت روكى سماعها، حتى اسئل سيفه، وفتح به رأس المسكين فشطرها إلى شطرين، قائلاً:

(*) يقصد سانشو.

– بهذه الطريقة أحاسب المسحوبين من لسانهم المتجرئين.

تجمد الجميع، ولم يجرؤ أحد أن ينطق بكلمة؛ فكم كانت هائلة طاعتهم له. اعتزل روكى فى جانب، وكتب خطابًا إلى أحد أصدقائه فى برشلونة، مخطرًا له كيف كان فى صحبته دون كيوخوتى دى لامانشا الشهير، ذلك الفارس المشاء، الذى تقال عنه أشياء كثيرة، وأنه يعلمه بمدى ظرف هذا الرجل وذكائه الأكبر من أى ظرف وذكاء فى العالم، وأنه من الآن وحتى مرور أربعة أيام، تبدأ أعياد سان خوان باوتيسستا، عليه أن يقدمه فى شاطيء المدينة، مسلحًا بكامل سلاحه فوق روثينانتي جواده، وأن يقدم معه حامل دروع له اسمه سانشو فوق حمار، وعليه أن يعطى خبرًا بهذا إلى أصدقائه (النياروس)، حتى يتمالحوامعه، وأنه كان يود أن يحرم الطائفة المضادة (الكادليين) من هذه اللذة، إلا أن ذلك سوف يصبح مستحيلًا، لأن جنون دون كيوخوتى وألمعيته، وطرائف خادمه سانشو بانثا، ليس فى إمكانها أن تترك بث اللذة والسعادة العامة بين كل العالمين. أرسل الخطاب مع أحد رجاله الذى خلع ثوب قاطع الطريق، وارتدى ثياب مزارع.

الفصل الحادى والستون

عما حدث لدون كيخوتى عند دخول برشلونة، مع أشياء أخرى صدقها أكثر من المعبته

أمضى دون كيخوتى مع روكى ثلاثة أيام بلباليها، ولو قضى معه ثلاثمئة عام ما ترك التأمل والتعجب من طريقة حياته. هنا يصبحون، وهناك يأكلون؛ ومرات يهربون دون معرفة ممن يهربون، ومرات أخرى ينتظرون دون معرفة من ينتظرون. وكان كل شىء هو تجنيد جواسيس، والاستماع إلى حراس المراقبة، ونفخ أوتار البنادق، مع حملهم القليل منها، لأن الجميع كانوا يستخدمون مسدسات الحجريات. روكى كان يقضى ليلاليه مجتنبًا رجاله، فى أماكن ونواح تحول دون معرفتهم أين كان، لأن كل الجماعات التى بثها نائب الملك فى برشلونة مقابل رأسه كانت تجعله قلقًا وخائفًا، ولم يجرؤ على الثقة فى أحد، مترقبًا خوفًا من نفس رجاله، فقد يقتلونه أو يسلمونه للعدالة؛ إنها حياة، يقينًا بائسة، ومثيرة للأعصاب.

وفى النهاية، عبر طرق مهجورة، وعبر سبل مستحيلة، ومدقات خفية، انطلق دون كيخوتى وسانشو مع ستة من رجال روكى. وصلوا إلى شاطئ المدينة فى عشية أعياد سان خوان، وكان الوقت ليلاً. احتضن روكى، كلاً من دون كيخوتى وسانشو، الذى استلم عشرة الدنانير الموعودة، والتى لم يسلموها له حتى تلك اللحظة، وتركهما روكى مع ألف عرض كريم، وكان يتم إنجازها من وقت لآخر.

عاد روكى، وبقي دون كيخوتى فى انتظار قدوم النهار، هكذا فوق جواده، ولم يتأخر كثيرًا لحظة سفور بلكونات الشرق عن وجه الفجر الأبيض، ناشرًا

البهجة بين الحشائش والأزهار، بدلاً من نشرها بين المسامع، وإن كان أبهج تلك المسامع أيضاً ألوان عديدة من الموسيقى والطبول، ورنين الأجراس، "الرهبان، الرهبان، أفسح الطريق، أفسح الطريق!"، وفيما يبدو أن كل ذلك كان قادمًا من دروب المدينة، ومعه أفسح الفجر مكانًا للشمس، التي هي وجه أكبر يشبه عجلة.

مد دون كيخوتى وسانشو النظر فى كل اتجاه، رأيا البحر الذى لم يسبق لهما رؤيته قط، أكثر اتساعًا من بحيرات رويديرا، التى شاهدها فى (لامانشا)، ورأيا السفن التى كانت على الشاطئ، تفوق الخيام، وتكشف مليئة بالبيارق المثلثة والأعلام المستطيلة، والتى أشبهت دوامة فى الرياح، مقبلة المياه، كانسة سطحها، وبداخلها كان يرن صوت أبواق وطبول وموسيقى، تملأ الهواء القريب والبعيد، فى نبر ناعم، وشبه عسكرى. بدأت فى التحرك وإحداث أسلوب من الهدير المائج فى المياه الهادئة، ووافق ذلك فى استجابة له، وبنفس الطريق فرسان لا يحصى عددهم يخرجون من المدينة على خيل حسناء وبملايس مزهوة. جنود السفن كانوا يطلقون مدفعية لا نهائية السريان، وجاوبها جنود أسوار المدينة وقلاعها، ومضت المدفعية الغليظة بانفجارات مفزعة تفجر الرياح، فتعود لمجاوبتها مدفعية ترن أصداؤها من بين ممرات السفن؛ البحر مبتهج والأرض تتلاعب سرورًا، والهواء شفاف ما عدا بعض دخان المدفعية، وبدا أن كل هذا مضى بيث ويولد لذة مفاجئة بين كل الناس، ولم يستطع سانشو تخيل عدد أقدام تلك الأشباح التى تتحرك فى البحر.

وخلال هذا، وصل جريًا، فى جلبة وتهليل وصرخات، أولئك الفرسان ذوو الملابس الزاهية إلى حيث كان دون كيخوتى مبهوتًا فى اندهاش، وقال أحدهم، الذى تلقى خطاب روكى، بصوت عال لدون كيخوتى:

- على الرحب والسعة في مدينتنا، مرآة الفروسية المشاة، ومنارتها ونجمها وبوصلتها، وهذا قسم عظيم أنك كذلك. مرعى مرعى، أقول، بالهام دون كيخوتى دى لامانشا، وغير الزائف، وغير الخيالى، وغير المصطنع، والذى أظهرته لنا هذه الأيام بعض القصص المزيفة، إنما الحقيقى، الشرعى، الخالص، الذى كتبه لنا سيدى حامدى بن إنجيلين، زهرة الكتاب.

لم يجب دون كيخوتى بكلمة، ولم ينتظر الفرسان إجابته، وإنما داروا وعادوا، مع الآخرين الذين يتبعونهم، لصنع قوقعة متقلبة من حوله، فالتفت إلى سانشو، وقال:

- هؤلاء قد تعرفوا علينا جيداً، إنى أراهن أنهم قرأوا قصتنا، بل القصة حديثة الطبع التى كتبها المؤلف الأراجونى. استدار مرة أخرى الفارس الذى تكلم مع دون كيخوتى، وقال:

- فخامتكم، أيها السيد دون كيخوتى ستأتى معنا، فكلنا خدم روكى غينارت وأصدقائه الحميمون.

وعلى هذا أجاب دون كيخوتى:

- إذا كانت المجاملات المهذبة تولد مثلها، أيها الفارس، فإنها جميعاً ابنة لروكى الأكبر، أو قرية من نفس دمه وسلساله، احملونى حيث شئتم، فلن تكون لى إرادة غير إرادتكم، وأكثر إرادتى ملككم إن أردتم شغلها فى خدمتكم.

وبكلمات ليست أقل تهديباً أجابه الفارس، ومتحلقين جميعاً حوله، على صوت المزامير والطبول، ساروا معه نحو المدينة؛ وعند "دخولها"، الشيطان الذى يأمر بكل شر، والصبيان الذين هم أكثر شيطنة من الشيطان، أشقياء وجسورون،

تسللوا داخل كل هؤلاء البشر، ورفع أحدهم ذيل الحمار والآخر ذيل روئينانتي، وحشروا في كل واحد من الدابتين حزمة من نبات شوكي ذى أسنان. أحس الحيوانان المسكينان بهذه المهاميز الجديدة، فمضيا يضربان بذيلهما، ويعلو تيرمهما، بطريقة جعلتهما يهيجان بين ألف وثبة حتى أسقطا على الأرض من كان عليهما. دون كيخوتى هيابًا، ومهانًا، هرع إلى ذيل جواده الشرير، وسانشو إلى ذيل حماره، لينزعا الشوك. أحب من يصحبون دون كيخوتى عقاب جسارة هؤلاء الصبيان، فاستحال، لأنهم تسللوا داخل سياح من ألف آخرين من أمثالهم كانوا يتبعونهم.

عاد دون كيخوتى وسانشو للركوب، مع نفس التصفيق والموسيقى، إلى أن وصلا إلى بيت من كان يقودهما فى الطريق، وكان بيتًا كبيرًا ورفيع المستوى، وفى النهاية، كان صاحبه فارسًا غنيًا، وهناك سنترك دون كيخوتى الآن؛ لأن هذا ما يريده سيدي حامدى.

الفصل الثانى والستون

عبارة عن مغامرة الرأس المسحور، وصبيانيات أخرى

ليس من الممكن التوقف عن أن تحكى

دون أنتونيو مورينو، كان هذا اسم مضيف دون كيخوتى، فارس غنى وذكى، وصديق للمرح فى أمانة وبشاشة، والذى عندما رأى دون كيخوتى فى بيته شرع يبحث عن أساليب كيفية، ودون ضرر، إخراج جنونيات دون كيخوتى إلى النور، لأنها ليست مباحات تلك التى تؤلم، ولا يوجد تزجية للفراغ تساوى شيئاً إذا صاحبها ألم لآخر. أول ما فعل كان نزع سلاح دون كيخوتى، وإخراجه بذلك الثوب الضيق والجلدى (الذى وصفناه ورسمناه فى مرات أخرى) للأنظار من بلكون كان يطل على شارع رئيسى من أهم شوارع المدينة، فيراه الناس والصبيان، الذين اتسمت نظراتهم إلى مظهره بالابتهاج الخبيث. رمح من جديد أمامه فرسان الملابس الزاهية، كما لو كانوا يفعلون ذلك له وحده، وليس لبعث البهجة فى الأعياد، وسانشو كان فى غاية السرور لأنه رأى، دون معرفة كيف، أن أفراح كاماتشو تتكرر، أو أنه مرة أخرى فى بيت دون ديبجو دى ميراندا، أو فى قلعة الدوق.

أكل فى ذلك اليوم مع دون أنطونيو بعض أصدقائه، مكرمين جميعاً دون كيخوتى، معاملين له معاملة الفارس المشاء، الذى مزهواً لم يبق به فراغ دون أن يمتلئ بالرضا والسرور. طرائف سانشو كانت عديدة، حتى إن كل خدم البيت وكل من كان يسمعه يسعى كما لو كان معلقاً بفمه، وبينما هم فى المائدة قال دون أنتونيو لسانشو:

- هنا وصلنا خبر، أيها الطيب سانشو، أنك صديق حميم للطعام الأبيض^(*)،
والكفتة، حتى إنهما إذا فاضت في وجبة، تدخرها في حجرك للغد.

قال سانشو:

- لا يا سيدي، ليس الأمر كذلك، لأن النظافة تعينني أكثر من اشتها أطيب
الطعام، وهاهو سيدي دون كيخوتي أمامكم يعرف جيدًا أننا بمحنة من (أبو
فروة) أو (البندق) تعودنا أن نملأ بطنينا خلال أيام ثمانية. صحيح أنه أحيانًا
يحدث عندما "يعطونني البقرة أسرع بشراء جبل لها"، أود القول، أني أستثمر
ما يعطونه لي كيفما أجده، وأي شخص يقول إنني أأكل أحسن التمييز أما
أنى لست نظيفًا، فقول له ليس صحيحًا، وكنت أود قول ذلك بطريقة أخرى
لولا اللحي المكرمة التي تجلس على هذه المائدة.

قال دون كيخوتي:

- يقينًا، إن اعتدال سانشو ونظافته تستحق أن تكتب على صفائح من البرونز
لتصير في الذاكرة الخالدة للأزمان القادمة. حقيقة، أنه عندما يحس بالجوع يبدو
بعض الشيء ملتهمًا للطعام بسبب السرعة الفائقة، والمضغ من جهتي الفكين،
لكن النظافة دائمًا يضعها في اعتباره، وفي الزمن الذي كان فيه حاكمًا، تدرب
على أكل المتدليلين، فكثيرًا ما يأكل العنب بالشوكة بل حبات الرمان.

قال دون أنتونيو:

- كيف؟ حاكمًا كان سانشو؟

(*) طبق من اللبن والسكر وصدور الدجاج.

أجاب سانشو:

- نعم، ولولاية اسمها باراتاريا، حكمتها عشرة أيام أنهى وأمر، وخلالها فقدت السكينة، وتعلمت ازدراء كل حكومات العالم، وخرجت هارباً منها، ووقعت في كهف، حيث استسلمت للموت، وخرجت حياً بمعجزة.

حكى دون كيخوتى كل تفاصيل واقعة حكومة سانشو، فامتلاً كل السامعين بالطرب. رفعت المائدة، وأخذ دون أنتونيو بيد دون كيخوتى، ودخل به غرفة ليس بها من زينة سوى مائدة فيما يبدو من اليشب، كانت تقف على قدم من نفس المادة، وفوقها تمثال نصفى من البرونز، رأس فوق صدر، تشبه رعوس الأباطرة الرومان، والصدر مثل صدورهم ناهض إلى أعلى، تجول دون أنتونيو مع دون كيخوتى فى الغرفة، دائراً مرات عديدة حول المائدة، بعدها قال لدون كيخوتى:

- الآن أيها السيد دون كيخوتى، إننى أعرف أن لا أحد يسمنا أو ينصت إلينا، والباب مغلق علينا، من ثم، أود أن أحكى لك مغامرة من أندر المغامرات، أو بقول أفضل، أشياء جديدة لا يمكن تخيلها، على شرط أن يبقى ما أحكيه لك سرّاً فى أقصى خزائن الأسرار.

أجاب دون كيخوتى:

- أقسم على ذلك، ولزيد من التأكد سوف أضع السر فى قدر مغلقة، لأنى أود أن تعرف فخامتكم، أيها السيد دون أنتونيو (كان قد عرف دون كيخوتى اسم المضيف) أنك تتكلم مع من ليس له لسان للكلام، وإن تمتع بالأذن ليسمع، وهكذا بكل أمان فخامتكم انقل ما فى صدركم لصدرى، معتبراً أنك ألقىت بالسر فى الدرك الأسفل من الصمت.

أجاب دون أنتونيو:

- على الثقة في هذا الوعد، أحب أن أثير دهشة فخامتكم أمام ما ستري وتسمع، كما أحب أن أخفف من ألمي، لعدم وجود من أبته أسراري التي ليست للنشر.

كان دون كيخوتي معلقاً في انتظار ما ستنتهي إليه كل هذه التحفظات. وخلال هذا، ممسكاً دون أنتونيو بيد دون كيخوتي جعلها تمر متحسنة رأس البرونز وكل المائدة، وقدمها، الذي عليه تنكئ، ثم قال:

- هذا الرأس، يا سيد دون كيخوتي صنع على يد واحد من أكبر السحرة والمشعوذين في العالم، وأظن أنه كان بولندي الوطن، وتلميذاً للشهير إسكوت^(*)، والذي تحكى عنه عجائب كثيرة، وقد أقام هنا في بيتي، وبثمن وصل إلى ألف دينار أعطيتها له صنع هذا الرأس، وهو يستطيع أن يجيب على كل الأشياء لمن يسأله في أذنه، وقد صنع وردة الرياح، ورسم شخصاً، ولاحظ بروجاً، وتأمل أزماناً، وأخيراً أخرجها بالكمال الذي سنراه غداً، لأنها أيام الجمعة تكون خرساء، ولأن اليوم الجمعة علينا الانتظار حتى الغد، وخلال هذا الوقت فخامتكم يمكنه إعداد ما تود السؤال عنه، وبالخبرة أعرف أنها تقول الصدق في كل ما تنطق به.

تعجب دون كيخوتي من فضيلة وصفات الرأس، وكان على وشك ألا يصدق دون أنتونيو، ولكن لصغر الوقت الذي ينتظره لعمل التجربة، لم يجب أن يقول له

(*) إسكوت أو اسكوتو أو اسكوتيو، وجد عدد كبير من المشاهير الذي يحملون هذا الاسم، وشهرتهم التنجيم والشعوذة والسحر الأسود.

شيئاً آخر سوى شكره لكشف هذا السر الكبير له. خرجا من الغرفة، وتوجها للصلاة، حيث كان باقى الفرسان، وخلال هذا الوقت كان سانشو يحكى لهم كثيراً من المغامرات والوقائع التى حدثت لسيدته.

فى ذلك اليوم صحبوا دون كيخوتى للتتزه دون أسلحة، وإنما بثوب الخروج، وعليه معطف شبه كهنوتى أشقر مائل للسواد، يجعل نفس الثلج يعرق فى ذلك الوقت من السنة، أمروا خدمهم بالتسرية عن سانشو وتسليته حتى لا يخرج من البيت. سار دون كيخوتى ليس فوق روثينانتى، وإنما فوق فرس ذكر ضخم، لين الخطى، ومعد العدة، وطرحوا عليه المعطف، وعلى ظهره دون أن يلمح ألصقوا رقعة مكتوباً عليها: "هذا هو دون كيخوتى دى لمانشا". اندهش دون كيخوتى من أن كل من كان يراه كان يعرفه بعد أن ينظر إليه ذاكراً اسمه، فالتفت إلى دون أنتونيو الذى كان بجانبه، وقال:

- عظمة صلاحية الفروسية المشاءة، فهى تجعل من يمارسها مشهوراً ومعروفاً من الجميع، وإذا لم يكن كذلك انظر دون أنتونيو، كيف يعرفنى شبان هذه المدينة دون أن يرونى قبل ذلك قط.

أجاب دون أنتونيو:

- هو هذا، أيها السيد دون كيخوتى، فكما أن النار لا يمكن إخفاؤها أو حبسها، فالفضل لا يمكن أن يعدم الشهرة، وما يدرك بمقارعة السلاح يشرق ويضىء فوق كل الأشياء الأخرى.

وحدث أنه أثناء تحرك دون كيخوتى وسط هذا الترحيب والتحية المذكورة، أن قرأ أحد أهل قشتالة اللافتة على ظهره، فصرخ قائلاً:

- ليذهب إلى الشيطان ذلك المدعو دون كيخوتي دى لامانشا كيف وصلت إلى هنا دون أن يدركك الموت بضربات النبايت اللانهاية التي أهالت عليك؟ أنت مجنون، ولكن لو اقتصر جنونك عليك، ووراء أبواب بيتك، كان الأمر أقل سوءاً، ولكن لديك طبيعة تحويل كل من يتعامل معك أو يتصل بك إلى مجنون ومخبول، وإذا لم يكن كذلك، فماذا ترى في أولئك الفرسان الذين يصحبونك؟ عد، أيها المخبول، إلى بيتك، وأدر ممتلكاتك، وزوجتك وأولادك، واترك هذا الكلام الفارغ الذي به يتآكل مخك، ويعتصر فكرك.

قال دون أنتونيو:

- أحمى، واصل طريقك، ولا تعط نصائح لمن لم يطلبها منك. السيد دون كيخوتي دى لامانشا عاقل جداً، ونحن الذين نصحبه لسنا سفهاء، والفضيلة يجب تكريمها حيث وجدت، واذهب ملعوناً، ولا تحشر نفسك حيث لم يستدعك أحد.

أجاب القشتالي:

- بحق الله، فخامتكم معك الحق؛ فنصح هذا الرجل هو مثل رفس سن الإبرة، لكن، مع كل هذا، يحزنني كثيراً أن العبقرية الكبيرة التي يتمتع بها، حسبما يقولون، في كل شيء هذا المخبول يتم صرفها في قناة فروسيته المشاءة، واللعنة التي دعوت سيادتكم بنزولها على، وعلى كل نسلي، أدعو الله اليوم أن يستجيب لكم إذا أعطيت نصيحة لأحد طوال حياتي حتى لو عشت أكثر من المعمر (موتا سالين)، وذلك دون أن يطلبها مني أحد.

وابتعد الناصح، واستمرت النزهة، لكن ازداد ضغط الفتيان وكل الناس لقراءة اللافتة، حتى أجبر دون أنتوني على نزعها، كما لو كان ينزع عن ظهره شيئاً من الغبار.

ودخل الليل، وعادوا إلى البيت، وكان به حفل رقص نسائي، لأن زوجة دون أنتوني، وكانت سيدة راقية ومرحة، وذكية وحسنة، دعت عددًا من صديقاتها حتى يكرمن ضيفها، والاستمتاع بجنونياته التي لم ير مثلها في البلاد. وجاء بعضهم، وكان العشاء فاخرًا، وبدأ الحفل الراقص عند العاشرة ليلاً، بين السيدات كانت هناك اثنتان بمزاج حريّف وساخر، ولكونهما في غاية الشرف، كانتا بعض الشيء منحلتين، حتى تمتع السخرية ولأتغضب. هاتان أسرعتا لسحب دون كيخوتي للرقص معهما، واستطاعتا تكسيه، ليس فحسب جسمًا بل روحًا، لقد كان مشهدًا يستحق الرؤية، مشهد صورة دون كيخوتي، طويل، وممتد، ونحيف، وأصفر، وضيق الملابس، وعصبي، وفوق كل هذا، لم يكن خفيًا في شيء. غالزنه كما لو كان عدوًا للنساء المهذبات، وهو كان يرفضهن مثل عدو، لكن ما إن رأى ضغط الغزل ينهال عليه حتى صاح:

— اهرين أيتها العذوات اتركني في هدوئي، بعيدًا عن الأفكار ملعونة الورد.
انصرفن أيتها السيدات للتصالح مع رغباتكن، لأن من هي ملكة رغباتي، هي من لا نظير لها دولثينيا دل توبوسو، وهي لا توافق على أن تخضعني وتسيطر على رغبات أية سيدة أخرى منكن.

وعند انتهاء هذا التصريح جلس في وسط الصالة على الأرض، مطحونًا ومهروسًا من ممارسة الرقص، أمر دون أنتوني أن يحملوه حملًا إلى سريره، وأول من شارك في رفعه كان سانشو، قائلًا له:

- مبروك، أيها السيد سيدنا، فقد رقصت، هل فكرت أن كل الشجعان يرقصون بسهولة، وأن الفرسان المشائين، أيضاً، هم فرسان راقصون؟ أقول إذا فكرت هكذا فأنت مخدوع؛ لأنك قد تجسر على مراقصة امرأة، وإذا ظننت أن المسألة هي دق الأرض بالأرجل، فإني أفعل ذلك ببراعة لكني لا أعرف عن الرقص شيئاً.

أضحكت عبارات سانشو كل نساء الحفلة ومن في صحبتهن، ووضع سيده فى السرير، وأحسن لفة فى الأغطية حتى يفرز فى العرق البرد الذى أصابه فى الرقص.

وفى اليوم التالى بدا طيباً لدون أنتونيو عمل تجربة الرأس المسحور، وفى وجود دون كيخوتى وسانشو، وصديقين، مع السيدتين اللتين طحنتا دون كيخوتى فى الرقص فى الليلة السابقة، وخلال هذه الليلة نفسها صحبتها إلى غرفة الرأس المسحور، وباحت لهما زوجة دون أنتونيو بسرهما، وقالت لهما بأن التجربة هي الأولى فى اختبار الرأس، وبخلاف صديقى دون أنتونيو لا يوجد أى شخص آخر يعرف خدعة هذا السر، فلو لم يكشف لهما الأمر دون أنتونيو أولاً لوقعا فى التعجب الذى وقع فيه الجميع، دون أى احتمال آخر لهذه الحيلة، وذلك النظام الجيد الصنع.

أول من وصل إلى سمع الرأس كان دون أنتونيو نفسه، وقال له بصوت حقيقى لكن يمكن سماعه من الجميع:

- قل لى أيها الرأس، بفضل مقدرتك، أى شيء أفكر فيه الآن؟

والرأس أجابه دون تحريك الشفاه بصوت واضح ومميز، حتى إن الجميع فهم عبارته:

- أنا لا أحكم على أفكار.

عند سماع هذا، بقى الجميع مشدوهاً، وخاصة أنهم لم يروا فى كل الغرفة أو بالقرب من المائدة أى شخص يمكن أن يكون وراء الإجابة، عاد للسؤال دون أنتونيو:

- من نحن الموجودون هنا؟

وأجيب بنفس الصوت البطيء:

- أنتم أنت وزوجتك، مع صديقين لك، وصديقتين لزوجتك، وفارس مشهور اسمه دون كихوتي دى لامانشا، وخادم له هو سانشو بانشا.

هنا كان التعجب من نوع جديد، هنا نعم كانت لحظة وقف فيها الشعر عند الجميع من فزع خالص! وابتعد دون أنتونيو عن الرأس، وقال:

- هذا يكفينى لأدرك أننى لم أهدع من باعها لى، فهى رأس حكيم، ورأس متكلم، ورأس مجيب، ورأس يثير الإعجاب، فليقترب أحد آخر وليسأل عما يجب.

وكما أن النساء فى المعتاد عجولوات، وصديقات المعرفة، فإن الأولى التى اقتربت كانت إحدى صديقتى زوجة دون أنتونيو، وما سألته كان:

- قُل لى، أيها الرأس، ماذا أفعل لأصير جميلة جداً؟

وأجيب:

- كوني أمينة.

قالت السائلة:

- لا، أسألك أكثر.

ووصلت فى الحال رفيقتها، وقالت:

- أريد أن أعرف، أيها الرأس، إذا كان زوجى يحنى يا خلاص؟ أم لا؟ وأجابها:

- انظرى تصرفاته وأفعاله تجاهك، وسوف تعرفين.

وابتعدت المتزوجة فائلة:

- هذه الإجابة لم تكن في حاجة للسؤال عنها؛ لأنه بالفعل الأفعال تعلن عن عاطفة من يقوم بها وإرادته.

وفى الحال وصل أحد صديقي دون أنتونيو، وسأله:

- من أنا؟

وأجيب:

- أنت تعرف.

أجاب الفارس:

- لا، لا أسألك عن هذا، وإنما أود أن تقول عما إذا كنت تعرفني.

أجابه:

- نعم أعرف أنك دون بدرو نوريث.

- لا أريد معرفة شيء أكثر، فهذا يكفي كي أفهم، أوه أيها الرأس!

وانسحب ليصل الصديق الآخر، ويسأل:

- أي رغبات يعيشها ابني الأكبر؟

وأجابه:

- لقد سبق لي القول إنني لا أحكم على الرغبات، لكن رغم كل ذلك، يمكنني

أن أقول لك إن رغبات ابنك هي دفنك.

قال الفارس:

- هذا صحيح، فإن ما أراه بعيني أشير إليه يا صبعي.

ولم يسأل أكثر، واقتربت زوجة دون أنتونيو، وقالت:

- أنا لا أعرف، أيها الرأس، أى شىء أسألك عنه، فقط كنت أود أن أعرف هل

سأمتنع سنوات طويلة بزوجي الطيب؟

أجابها:

- نعم، ستمتعين، لأن صحته واعتداله في العيش يعدان بسنوات طويلة من

العمر، الذى يقصره الكثير منهم بعدم الاعتدال.

وفى الحال اقترب دون كيخوتى، وقال :

- قل لى أنت، يا من تجيب، هل كان حقيقة أو حلمًا الذى أحكيه عما جرى لى

فى كهف مونتيسينوس؟ وهل حقيقة جلد خادمى سانشو؟ وهل سيكون له

تأثير على فك سحر دولثينيا؟

أجابها:

- فيما يتعلق بكهف مونتيسينوس، هناك الكثير مما يقال، وفيه الحقيقة وفيه الحلم،

جلد سانشو سيتم ببطء، وفك سحر دولثينيا سيصل فى ساعته الموعودة.

قال دون كيخوتى:

- لا أريد معرفة شىء أكثر، فعندما أرى دولثينيا متحررة من السحر، سأشاهد

كل الحظوظ التى أصبو إليها دفعة واحدة.

كان آخر من سأل هو سانشو، وكان سؤاله:

- بالصدفة، أيها الرأس، هل سوف أنال حكومة أخرى؟ وهل سأخرج من بؤس حمل الدروع؟ وهل سأعود لأرى زوجتي وأولادي؟

وعلى هذا أجابه:

- سوف تحكم في بيتك، وإذا عدت إليه، ستري زوجتك وأولادك، وعندما تترك الخدمة سوف تترك حمل الدروع.

قال سانشو بانثا:

- ما أحلى هذا بحق الإله! إن ما قاله لي ليس أكثر مما كان يمكن أن يقوله النبي (بيروجرويو).

قال دون كيخوتي:

- أيتها الدابة، ماذا كنت تريد من إجابة؟ ألا يكفي أن الإجابات التي أعطاها هذا الرأس تناسب الأسئلة التي وجهت إليه؟

أجاب سانشو:

- نعم يكفي؛ لكن كنت أود أن توضح أكثر، وتقول لي أكثر.

بهذا انتهت الإجابات وانتهت الأسئلة، لكن لم ينته التعجب الذي بقى عليه الجميع ماعدا صديقَي دون أنتونيو اللذين يعرفان السر، والذي ود سيدى حامدى بن إنجيلين أن يعلنه فى الحال، حتى لا يترك العالم فى تعجبه، مؤمناً بمشعوذ معين أو بسر غير عادى كامن فى ذلك الرأس، وهكذا، يقول إن دون أنتونيو مورينو، فى تقليد لرأس آخر رآه فى مدريد، صنعه بائع صور، قام بتصنيع هذا الرأس فى بيته،

للتسلية وإدهاش الجاهلين بأمره، والصناعة كانت هكذا: لوح وجه المائدة من الخشب، مطلية (ومورنشة) لتشبه اليشب، والقدم التي تستقر عليها بنفس النظام، مع أربعة مخالب لنسر تخرج منها، وتثبتها كامل الثبات متحملة الثقل، والرأس الذى يشبه تمثال إمبراطور رومانى، وله لون البرونز كانت كلها مفرغة، ومثله كانت صفحة وجه المائدة، وكانت أجزاءه مركبة بطريقة التعشيق، حتى لا يرى اتصال جزء بالآخر، من تلك الأجزاء التي تشكل صندوقاً كأنه من قطعة واحدة. أيضاً القدم كان مجوفاً، حتى يردد صدى الحجرة وصدى الرأس، وكل هذا يتردد صدها فى حجرة تحت غرفة الرأس. وعبر كل هذا التجويف فى القدم وفى وجه المائدة والحجرة والصدر للتمثال كانت تتسرب أنبوبة من الصفيح شديدة التثبيت حتى لا يمكن رؤيتها. وفى الحجرة السفلى والتي تقابل فى انطباق الغرفة العليا، يكمن الذى كان عليه أن يجيب، ملصقاً فمه بنفس الأنبوبة ليكون امتداداً لها، وهكذا كان يسير الصوت من أعلى إلى أسفل ومن أسفل إلى أعلى فى كلمات منبورة وواضحة، وبهذه الطريقة لم يكن ممكناً معرفة الملعب. وكان المجيب ابن أخ لدون أنتونيو، طالباً، حاد الذكاء، فطناً، وقد أعلم من السيد عمه عن كانوا فى الغرفة معه فى ذلك اليوم، وكان سهلاً عليه الإجابة بالتكهن، وكما أنه فطن بالإجابة فيها كياسة. ويقول سيدى حامدى: وحتى عشرة أو اثنى عشر أيام يوماً من تاريخه استمرت هذه الآلة العجيبة، لكن بعد أن شاع فى المدينة أن دون أنتونيو لديه رأس مسحور يجيب على كل من يسأله وخشية ألا تصل المسألة إلى مسامع حراس إيماننا، أبلغوا بها مفتشى المحاكم الكنسية! وهؤلاء أمروا دون أنتونيو بتدميره، حتى لا يضل به العامة ويشهرونه، لكن فى رأى دون كيخوتى وسانشو بانثا بقي الرأس مسحوراً ومجيباً، بشكل مقنع لدون كيخوتى أكثر من سانشو.

فرسان المدينة حتى يجاملوا دون أنتونيو، ومن أجل تكريم دون كيخوتى، وفتح فرصة له للكشف عن سفاهاته، أمروا بعمل سباق تصويب الرماح خلال ستة أيام، وهو السباق الذى لم ينعقد للأسباب التى ستقال بعد قليل. امتلاً دون كيخوتى بالرغبة فى التنزه فى المدينة دون سلاح وعلى قدميه، خوفاً من أن يطارده الصبيان لو فعل ذلك راكباً جواداً، وهكذا هو وسانشو مع خادمين آخرين قدمهما له دون أنتونيو خرجوا للنزهة. وحدث، أنه بينما كان يقطع أحد الشوارع، رفع دون كيخوتى عينيه ورأى مكتوباً فوق أحد الأبواب بخط كبير، هنا تطبع كتب، الأمر الذى سره كثيراً، لأنه حتى تلك اللحظة لم يكن رأى المطبعة، وكان يرغب فى معرفة كيف يكون. ودخل من الباب مع كل مرافقيه، ورأى قذف الورق فى ناحية، والتصحيح فى ناحية أخرى، التأليف فى هذا، والتعديل فى ذلك، وأخيراً، كل تلك الآلية والمعدات التى توجد فى المطابع الكبيرة. اقترب دون كيخوتى من أحد الأدرج، وسأل عما يتم فعله هناك، فأخبره الفنيون. تعجب واستمر فى طريقه، ووصل إلى أحدهم وسأله عما يفعل، وأجاب الفتى:

سيدى، هذا الفارس الذى يوجد هنا... وأشار له على رجل له هيئة وسيمة، مع شىء من الجدية .

— قد ترجم من التوسكانية^(*) كتاباً إلى لغتنا القشتالية، وأنا أقوم بتجميعه لتقديمه للطبع.

سأل دون كيخوتى:

— أى عنوان للكتاب؟

(*) الإيطالية.

أجابه المترجم:

- أيها السيد، بالتوسكانية يسمى Le Bagatele .

- وما مقابل le Bagatele في لغتنا؟

- Le Bagatele كما لو كان في لغتنا "اللَّعب"؛ ومع أن هذا الكتاب متواضع الاسم، فإنه يحوى بداخله أشياء طيبة جداً وجوهرية.

قال دون كيخوتى:

- أنا أعرف التوسكانية بشكل متوسط، وأقدر على غناء بعض مقاطع (الأريوستو)، لكن قل لى يا سيدى (ولا أقول هذا برغبة اختبار ذكاء فخامتكم، وإنما للفضول، لا أكثر)، هل وجدت فيما تكتب مرة يذكرون piñata؟

أجاب المترجم :

- نعم، مرات كثيرة.

سأل دون كيخوتى:

- وكيف تترجمها فخامتكم إلى لغتنا؟

- كيف تترجم إلا بقولنا "حلّة طبيخ"؟

قال دون كيخوتى:

- يا للهول، كم أن فخامتكم متقدم في التوسكانية؟! إنى أراهن رهائاً عاليًا أنه حيث يقال بالتوسكاني piace ستقول فخامتكم بلغتنا يسر، وحيث يقال Piu ستقول أكثر، وال su تفسرها بأعلى، وتفسر giu بكلمة تحت.

قال المترجم:

- نعم، أفعل يقينًا، لأن تلك هي الكلمات التي تقابل في لغتنا نظيرتها التوسكانية.

قال دون كيخوتى:

- أجرؤ على القسم أن فخامتكم غير معروف في العالم، المعادى دائمًا لمكافأة العبقريات، والأعمال المحمودة. أى كفاءات ضائعة هناك! وكم من العبقريات المركونة! وأى فضائل مزدراة! لكن مع كل هذا يبدو لى أن الترجمة من لغة إلى أخرى، إذا لم تكن من ملكتى اللغات: الإغريقية واللاتينية، ستكون كمن يرى السجاد الفلمنكى من وجهه العكسى؛ فمع ظهور الرسومات، فإنها مليئة بالخيوط التى تظل عليها، ولا ترى مع ذلك من وجهها ذى البشرة الناعمة. والترجمة بين اللغات السهلة لا يبرهن على عبقرية ولا بلاغة، مثلما لا يبرهن عليهما نسخ ورقة من ورقة أخرى، ولا يعنى ذلك رغبتى فى الإشارة إلى أن هذا العمل ليس محمودًا، فالإنسان يمكن أن يشغل نفس الوقت الذى تشغله تلك الترجمة فى أمور أسوأ. وخارج هذه الحسابات يبرز المترجمان المشهوران: الأول، هو الدكتور كريستوبال دى فيجيروا فى ترجمته (راعى فيدو)، والثانى، هو خوان دى خاوريجى فى (أمينتا)، حيث يضعون موضع شك أى العاملين المترجم وأيهما هو الأصل. لكن قل لى فخامتكم: هذا الكتاب، يتم طبعه على حسابك، أو أن حقوق الطبع مباحة لأحد أصحاب المكتبات؟

أجاب المترجم:

- على حسابى، وأفكر أن أكسب ألف دينار، على الأقل، فى هذه الطبعة الأولى، وستكون من ألفى نسخة، وسوف تباع كل نسخة بستة ريالات سعرًا للغلاف.

أجاب دون كيخوتى :

- ممتاز فخامتكم فى الحساب، يبدو جيداً أنك لا تعرف مداخل الطابعين ومخارجهم، والمكاتب بين بعضهم بعضاً، وأنا أعدك عندما ترى نفسك محملاً بالنسخ الألفين، سوف ترى جسمك مطحوناً، حتى الرعب، ولا سيما إذا كان الكتاب هابطاً بعض الشيء، وليس حريفاً حرقاً.

قال المترجم:

- إذن، ماذا؟ هل تحب فخامتكم أن أعطيه لتاجر كتب يعطى مقابل حقى ثلاث قطع نقود مرابطة، ومع هذا يفكر فى أنه ينعم على إعطائها لى؟ أنا لا أطبع كنى لتحقيق أى شهرة فى العالم، الذى أنا معروف فيه بأفعالى: أريد الريح، فبدونه الواحد لا يساوى فلساً على الرغم من شهرته.

أجاب دون كيخوتى:

- مد الله لك يد العون!

وتقدم نحو درج آخر، حيث رآهم يصححون ملزمة من كتاب معنون (نور النفس)، وعند رؤيته له قال:

- مثل هذا الكتاب، مع وجود وفرة من جنسه بين الكتب، إلا إنها هى التى تستحق الطبع، والآثمون كثرة، ومن الضرورى أنوار لانهائية لهذه الجمهرة ممن أظلمت نفوسهم.

واستمر فى تقدمه، أيضاً رآهم يصححون كتاباً، وعندما سأل عن عنوانه قالوا له (الجزء الثانى من قصة دون كيخوتى دى لمانشا) مؤلفها فلان، من أهل تورديسياس.

قال دون كيخوتي:

- عندى أخبار قديمة عن هذا الكتاب، وفي الحقيقة، وفي ظني، أننى تصورت أنهم قد أحرقوه، وحولوه إلى تراب بسبب صفاقته، قديسه مارتين سوف يبلغه، مثلما يبلغ كل خنزير، لأن القصص المصطنعة تحتوى على أشياء كثيرة طيبة ولذيذة كل مرة تمس فيها الصدق أو ما يشبه الصدق، وبالنسبة للقصص الصادقة فإنها أفضل دائماً كلما كانت أكثر صدقاً.

وما إن قال ذلك، مع بعض مظاهر الغضب، خرج من المطبعة، وفي نفس ذلك اليوم أمر دون أنتونيو بحمله إلى السفن التي كانت على الشاطئ، مما سر سانشو كثيراً، لأنه لم يرها في حياته. أخطر دون أنتونيو بالأمر قائد الرباعى(*) للمراكب، أنه هذا المساء يحمل لرؤيتها ضيفه المشهور دون كيخوتي دى لامانشا، الذى يعرف عنه قائد الرباعى وكل سكان المدينة بعض الأخبار، وما حدث له فوق السفن سيقال فى الفصل التالى.

(*) قائد قافلة من أربع سفن.

الفصل الثالث والستون

عما أصاب سانشو باتشا من سوء عند زيارة المراكب، والمغامرة الجديدة للموريسكية الجميلة

كانت الخطابات والأحاديث التي يتفوه بها دون كيخوتى حول إجابة الرأس المسحورة غزيرة، دون أن يقع خاطره أو خاطر خادمه على الخدعة، وكانت الأحاديث تقف جميعاً عند الوعد بفك سحر دولثينيا. ومع هذا الوعد صال وجال، وابتهج في داخله، معتقداً أنه لا بد أن يرى سريعاً إنجاز ذلك الوعد، وسانشو مع أنه كدره منصب الحاكم كما قيل من قبل، فإنه إلى الآن يود أن يأمر وأن يطاع، وإن هذا الحظ السيئ يجلبه معه الحكم حتى لو كان مجرد ملعوب.

باختصار، في ذلك المساء دون أنتونيو مورينو مضيفهما وصديقاه، مع دون كيخوتى وسانشو، ذهبوا إلى المراكب. قائد الرباعي، الذي كان قد تم إخطاره بهذه الزيارة الميمونة كى يرى الشهيرين دون كيخوتى وسانشو، أمر السفن برفع الغطاء القماشى الغليظ الذى يحمى السفن من الشمس والمطر، وذلك بمجرد وصولهم إلى مقر البحرية، وصاحب ذلك صوت المزامير، وفى الحال ألقوا زورقاً فى الماء مغطى ببساط فاخر وحشايها من القطيفة القرمزية. وما إن وضع فيه قدميه دون كيخوتى، أطلقت السفينة القبطانية^(*) مدفعتها البارز، وفعلت باقى المراكب نفس الشيء، وعندما سعد دون كيخوتى السلم الأيمن، حياه طاقم السفينة بنفس الطريقة

(*) سفينة القيادة.

المعتادة عند استقبال الشخصيات المهمة، قائلين: "هُو، هو، هو!" ثلاث مرات. أخذ بيده الجنرال الذى كانوا ينادونه بهذا اللقب، وكان فارساً من بلنسية، وقام الجنرال باحتضانه، قائلاً له:

- سأشير إلى هذا اليوم باعتباره حجراً أبيض، لكونه يوماً من أفضل الأيام التى أفكر بعيشها فى الحياة، لأنى أرى السيد دون كيخوتى دى لامانشا زمناً ورمزاً يضم فى حناياه ويعدد كل شجاعة الفروسية المشاءة. وبعبارة ليست أقل تمهيداً أجابه دون كيخوتى مبتهجاً حتى المدى من رؤية التعامل معه فى تمجيد لسمو مقامه. دخلوا جميعاً إلى مؤخرة السفينة؛ التى كانت تأخذ وضعاً حسن التوجيه تماماً، وجلسوا على كراسى جوانب المؤخرة، ومر رئيس طاقم التجديف فى الممر، وأعطى إشارة بالصفارة كى يأخذ الطاقم وضع الاستعداد مع صرخة (فليشم الطاقم عن ساعديه)^(*)؛ ونفذوا الأمر فى لحظة. سانشو ما إن رأى أناساً كثيرين عرايا، بقى فى ذهول، وخاصة عندما رآهم يظلمون السفينة بالغطاء مرة أخرى فى سرعة فائقة، حتى بدا له أن كل الشياطين كانت هناك تعمل، لكن كل ذلك كان تورتة وخبزاً مطلياً بالألوان بالنسبة لما سأقوله الآن. كان سانشو جالساً على إحدى دعائم مظلة السفينة، بجوار قائد إيقاع التجديف^(**)، على يده اليمنى. وهذا قد أعلم بما عليه عمله. أمسك بسانشو ورفعه بذراعيه. كل الطاقم نهض على قدمين فى حالة طوارئ، بادئين من فريق الجانب الأيمن بتقاذف سانشو وتقليبه بين أذرع

(*) النداء يعنى خلع الملابس، فالتجديف عادة يقوم به بحارة بأجسام عارية، ومعظمهم يقضون خلاله عقوبة عمل إجرامى ارتكبهوه.

(**) يجلس فى آخر مؤخرة السفينة وظهره نحوها لإدارة رجال التجديف.

المجدفين من بنك إلى بنك في سرعة خاطفة، حتى إن سانشو المسكين فقد
بصر عينيه، وفكر دون شك أن نفس الأبالسة هي التي تحمله، ولم يتوقفوا
عن ذلك حتى مر بفريق الجانب الأيسر حتى مؤخرة السفينة من جديد حيث
أجلسوه في مكانه السابق. صار المسكين مطحونًا، تتدافع أنفاسه، ويتدفق
عرقه، دون أن يعرف تخيل ما حدث له. دون كيخوتي حين رأى طيران
سانشو دون أجنحة، سأل الجنرال عما إذا كان ذلك شعائر تمارس مع من
يدخل السفينة لأول مرة، لأنه لعله ينطبق عليه ذلك، وهو ليس لديه النية
للاستجابة لتلك الشعائر وأمثالها، وأنه يقسم بالله أنه إذا اقترب أحد للإمساك
به فإنه سوف ينزع روحه بطعناته، وعند قوله هذا نهض وأشهر سيفه.

في هذه اللحظة أزالوا غطاء السفينة، وبضجة عظيمة تركوا الصارى
الأساسى يسقط من أعلى إلى أسفل. ظن سانشو أن السماء تتخلع من أشداقها،
وتأتى لتدق رأسه، فأسقط رأسه خوفاً ووضعها بين رجليه. أيضاً دون كيخوتي لم
يتحمل كل هذا، فتدبب كتفاه، وتبدد اللون عن وجهه. أقام الطاقم الصارى بنفس
السرعة والخفة، مع سكوت تام، حتى كأنهم يفتقدون الصوت والنفس. أعطى رئيس
الطاقم إشارة بفك الهلب، وقفز إلى منتصف سطح السفينة بالكرباج أو السوط، وبدأ
يجلد ظهر أفراد الطاقم، مع اندفاع السفينة شيئاً فشيئاً إلى البحر، وعندما رأى
سانشو فى اتفاق تحرك أقدام كثيرة حمراء، ظن أنها المجاديف، قال لنفسه:

- هذه حقيقة أشياء مسحورة، وليست الأشياء التي يتحدث عنها سيدى. ماذا
فعل هؤلاء التعماء حتى يجلدوهم هكذا؟ وكيف أن هذا الرجل وحده الذى
يتحرك هنا بصفارة له لديه الجرأة لجلد كل هؤلاء الناس؟ أقول إن هذه هي
الجحيم، أو على الأقل المظهر.

عندما رأى دون كихوتى الانتباه الذى يشاهد به سانشو ما يجرى، قال له:

– آه، سانشو صديقى، بأى اختصار وبأقل الأسعار يمكنك تشذيب نفسك، إذا أحببت أن تتعري حتى منتصف جسمك الأعلى، وتضع نفسك بين هذه الناس، ومرة واحدة، سوف تقضى على سحر دولثينيا. من ثم، فإنه مع بؤس الكثيرين وآلامهم، فإنك لن تحس ببؤسك وألمك، وخاصة أنه من الممكن أن الحكيم ميرلين قد يستطيع أن يحسب كل جلدة، من يد هذا الرجل الخبيرة بعشرة جلدات من تلك التى لا بد فى نهاية الأمر أن تسوط نفسك بها.

أحب الجنرال أن يسأل أى جلدات تلك؟ وأى فك لسحر دولثينيا؟ عندما قال البحار:

– قلعة (مونجوى) تعطينا إشارات عن وجود مركب تجدف قرب الشاطئ، على الشريط الغربى.

عند سماعه هذا، قفز الجنرال إلى سطح السفينة، وقال:

– هناك مركب شرعى بساريتين لقرصان من الجزائر، حسب إشارة قلعة الاستطلاع.

اقتربت السفن الثلاث من السفينة القبطانية، لمعرفة ما يأمر به، أمر الجنرال بأن تخرج سفينتان إلى عرض البحر، وهو مع الأخرى سوف يتحركان بحذاء الشاطئ. السفينتان اللتان خرجتا إلى عرض البحر، بعد ميلين اكتشفتا المركب الشرعى، وبالنظر إليه رأوا أنه مركب ذو أربعة عشر بنكا أو خمسة عشر، وهكذا بالفعل كان. هذا المركب عندما اكتشف السفينتين الحربيتين، شرع فى الهرب، مع أمل أن يفلح فى ذلك بفضل خفته، لكنه لم يكن صادق التخمين، لأن

السفينة القبطانية كانت من أخف السفن التي تبحر في المياه، وهكذا كانت تقترب منه، حتى تأكد هؤلاء أصحاب المركب الشراعى أن لا مهرب، وهكذا أراد الرئيس أن يتركوا المجاديف ويستسلموا، حتى لا يحملوا قبطان السفن الإسبانية على الغضب، لكن الحظ كان يوجه الأمور بطريقة أخرى، فقد اقتربت القبطانية جدًا، حتى سمع من على المركب الشراعى أصواتًا تصدر منها تطلب منهم الاستسلام، لكن اثنين من الأتراك السكارى من بحارة المركب الشراعى مع اثني عشر بحارًا آخر أطلقوا بنادقهم فقتلوا جنديين من جنود مقدمة السفن الإسبانية. وعندما رأى الجنرال ذلك أقسم ألا يترك أحدًا حيًّا فوق المركب الشراعى، وعندما شرع فى الهجوم بكل ضراوة هرب منه المركب مارًا من تحت منظومة مجاديف القبطانية. تقدمت القبطانية من جديد وراه، وبينما كانت تستدير لهذه المطاردة كان المركب الشراعى قد نشر الأشرعة، وهكذا من جديد بكل دفع الأشرعة والمجاديف حاول الهرب، لكن لم تنفعهم مساعيهم بقدر ما ضررتهم جسارتهم، لأن القبطانية أدركتهم بعد نصف ميل بقليل، وألقت بمجاديفها فوق المركب وتم القبض على كل من فيه أحياء. خلال هذا وصلت السفينتان الأخريان، والجميع مع الفريسة عادوا إلى الشاطئ، حيث جماهير لا حصر لها كانت تنتظر ما يعودون به. رسا الجنرال قريبًا من البر وعلم أن نائب الملك بالمدينة كان فى مقر البحرية، فأمر بالقاء زورق لإحضاره، وأمر ب نصب السارى حتى يعلق عليه الرئيس ليشنقه مع باقى الأتراك الذين قبض عليهم من فوق المركب، وعددهم حوالى ستة وثلاثين فردًا، كلهم شجعان ومن أفضل مطلقى البنادق الأتراك. سأل القبطان عن ريس المركب، وأجابه أحد الأسرى فى لغة إسبانية، وظهر بعد ذلك أنه إسباني مرتد عن المسيحية إلى الإسلام:

– هذا الفتى يا سيدى الذى تراه ها هنا هو ريسنا.

وأشار إلى فتى من الأكثر جمالاً وفتوة، مما لا يستطيع الخيال الإنساني رسمه. العمر لا يكاد يبلغ العشرين، سأل الجنرال:

- قل لي، يا أيها الكلب عديم النصح، من أمرك أن تقتل جنودي مع معرفتك أن الهرب كان مستحيلاً؟ هل هذا هو الاحترام الواجب لسفن القيادة؟ ألا تعرف أن التهور ليس شجاعة؟ إن الآمال المشكوك فيها قد تمنح الإنسان جسارة وليس قهوراً.

أراد أن يجيبه الرئيس، لكن الجنرال لحظتها لم يستطع سماع الإجابة، كى يسرع لاستقبال نائب الملك، الذي كان يدخل إلى السفينة بالفعل، ومعه عدد من خدمه وبعض أعيان المدينة، قال نائب الملك:

- لقد كان الصيد جيداً!

قال الجنرال:

- جيداً جداً، وسوف تراه سعادتك معلقاً على هذا الصاري.

أجاب نائب الملك:

- وكيف يكون هكذا؟

أجاب الجنرال:

- لأهّم قتلوا لي، ضد كل قانون أو عقل أو عادة للحرب، جنديين من أحسن جنود هذه السفن، وأقسمت أن أشنق كل من أسرته، خاصة هذا الفتى، وهو رئيس المركب.

وأشار إليه، وكان مقيد اليدين وقد وضع حبل المشنقة حول رقبته، منتظرًا الموت. نظر إليه نائب الملك، وعندما رآه بكل هذا الحسن والشجاعة، وفي غاية التواضع، تسلم منه خطاب توصية في الحال، قد كتبه حسنه، من ثم أراد أن يعفيه من الموت، وهكذا سأله:

- قل لي، أيها الرئيس، هل أنت من أمة الترك؟ أو العرب؟ أو أنك إسباني مرتد؟
أجابه الفتى:

- لست من أمة الترك أو العرب أو من الإسبان المرتدين.

أجاب نائب الملك :

- إذن، ماذا تكون؟

أجاب الفتى:

- أنا امرأة مسيحية.

- امرأة ومسيحية؟ إنه أمر يثير التعجب أكثر من التصديق.

قال الفتى:

- أجلوا، أوه أيها السادة! تنفيذ موتي، فلن تخسروا شيئًا بتأخير انتقامكم قليلًا حتى أحكي لكم قصة حياتي.

من كان يكون قلبه بهذه القسوة حتى لا تلينه هذه العبارات، أو على الأقل تجعله يسمع ما يود الفتى الحزين المكلم قوله؟ الجنرال قال له أن يقول ما يشاء، لكن لا ينتظر عفوًا لذنبه المعترف به، وبهذا الإذن بدأ الفتى يتكلم بالطريقة الآتية:

- ولدت بين تلك الأمة التي زادت تعاستها عن فطنتها، وفوقها أمطرت هذه الأيام النكبات، إنها أمة الموريسكيين ومنهم أنجني والدى. وفي مجرى سوء حظهم حملني اثنان من أخوالي إلى بلاد البربر، دون أن ينفعني الإقرار بأنني مسيحية، كما أنا عليه بالفعل، فلست من المتصنعات أو المتظاهرات بالمسيحية، أنا من المسيحيات الحقيقيات والكاثوليكيات. لم يفد مع من حملوا على عاتقهم أمر نفيًا البائس قول هذه الحقيقة، ولا أخوالي أحبوا تصديقي، بل اعتبروها كذبة واختراع حتى أبقى في الأرض التي بها ولدت، وهكذا بالقوة وليس بالرضا أخذوني معهم. كان لي أم مسيحية، وأب فظن ومسيحي حقيقة. رضعت الإيمان الكاثوليكي من ثدى أمي، وتربيت على أفضل العادات، فلا اللغة ولا غيرها كان يشير إلى أنني موريسكية، فيما أظن، ومع هذه الفضائل (التي اعتقد امتلاكها حقًا) نما حسنى، إذا كان بي حسن، ومع أن عفتى وسترى كان كبيرًا، لم يكن كافيًا لمنعى من رؤية فتى فارس اسمه دون جاسبار جريجوريو، الابن الوارث لفارس كان يعيش بقرية بجوار قرينتا، وما إن رآنى وتكلمنا حتى صار هائمًا فى غرامى، وكما أنى لم أكن شديدة الميل إليه، أمر تطول حكايته، بل كنت خائفة مثل خوفى من عبور هذا الجبل، الذى يهددنى الآن، بين حنجرتى ولسانى، وهكذا أكتفى بحكاية كيف أحب دون جريجوريو مرافقتى فى منفانا. اختلط بالموريسكيين الذى أخرجوا من قرى أخرى، حيث كان يعرف اللغة جيدًا، وفى الرحلة صار صديقًا لاثنين من أخوالي كانا يحملاننى، لأن أبى فى صدره وفطنته، عندما سمع أول بيان عن نفيانا، خرج من القرية وذهب للبحث عن مكان يرحب بنا فى الممالك الأجنبية. ترك فى أحد الأماكن جواهر كثيرة ولآلى ذات قيمة عظيمة محفوظة ومدفونة، لم يكن أحد يعرف سبيلًا إليها غيرى وغيره، ودفن معها بعض النقود الذهبية، وأمرنى ألا أمس الكنز المدفون

بأية طريقة إذا حدث ونفونا قبل أن يعود. وأطعته، ومع أخوالى وأقاربنا الأقربين ذهبنا إلى بلاد البربر، واستقر بنا المقام فى مدينة الجزائر، كما لو كان استقر بنا المقام فى نفس جهنم. علم ملك المدينة بخبر حسنى الفائق، وشهرة ثرائى، وهذا كان من حسن حظى، استدعانى أمامه، وسألنى من أى مكان من إسبانيا جئت؟ وأى أموال وجواهر أحضرت؟ كلمته عن قرينتنا وكيف أننا دفنا فيها كنوزنا، لكن بسهولة يمكن استعادتها إذا ذهبت لإحضارها. قلت كل هذا خائفة أن يعميه جمالى أكثر من طمعه. وبينما هو معى فى هذا الحوار، أبلغوه أنه كان يصحبنى فتى من أجمل الفتيان وآنفهم الذين يمكن تخيلهم. وفى الحال أدركت أنهم يحدثونه عن دون جاسبار جريجوريو، الذى كان جماله يترك وراءه كل جمال يغفلون تقديره. تعكر صفوى، واضعة فى اعتبارى الخطر الذى يتعرض له دون جريجوريو، لأنه بين هؤلاء الأتراك البرابرة يقدرون كثيراً شاباً أو فتى وسيماً أكثر من أى امرأة مهما كان جمالها. أمر الملك بإحضاره أمامه حتى يراه، وسألنى عما إذا كان ما يقولونه عن هذا الفتى حقيقياً. وأنا تقريباً كما لو كنت ملهمة من السماء، قلت له نعم هو كذلك، لكنى أعلمه أنه لم يكن ذكراً، إنما امرأة مثلى، وإنى أرجوه أن يسمح لها بأن تذهب وترتدى لباسها النسائى حتى تعرض أمامه كل جمالها فى تمامه، وبوجه أقل ارتباكاً. قال لى أن أذهب بتشجيع منه إلى إسبانيا لاستخراج الكنز المخبوء. تكلمت مع دون جاسبار، وحدثته عن الخطر الذى يتعرض له إذا أظهر أنه رجل، وألبسته ثياب امرأة عربية، وفى نفس المساء أحضرتهما فى مجلس الملك، والذى ما إن رآها حتى بقى مندهشاً من جمالها، وأمر بالحفاظة عليها حتى يقدمها إلى الإمبراطور، وحتى يهرب من الخطر التى يمكن أن تتعرض له من نساء السراى لو وضعها بينهن، بل خطره هو شخصياً فى تلك الحالة، أمر بإيداعها فى بيت عائلة عربية من علية القوم

كى تحافظ عليها وتحسن خدمتها حتى يرسلها للسلطان. وما شعرنا به من حزن (لا أستطيع إنكار أنى أحبه) هو ما يشعر به حبيبان حقيقيان ساعة الفراق. دبر الملك فى الحال حيلة عودتى إلى إسبانيا بهذه المركب الشراعية، وأن يصحبنى تركيان، وهما من قتلا الجنديين، وأنى أيضاً معى هذا المرتد الإيبانى - مشيرة لمن كان أول من تكلم - والذى أعرف عنه أنه مسيحى متخفّ، وقد أتى بالرغبة فى البقاء بإسبانيا أكثر من رغبته فى العودة إلى بلاد البربر، وباقى طاقم التجديف هم عرب وأتراك، ولا يصلحون لشيء إلا للتجديف. التركيان، طامعان ومتغطسان، ودون محافظة على النظام الذى جننا على أساسه، وهو نزولى أولاً مع هذا المرتد إلى أول شاطئ إسباني، فى ثياب مسيحية (نحملها معنا)، قررا كنس الشاطئ قبل إلقاءنا على البر، لعلهما يجدان فريسة من أسرى إسبان، خوفاً من إبلاغنا عنهما أى سفينة حربية إسبانية فى حالة إنزالنا دون رهائن. وبالأمس اكتشفنا هذا الشاطئ، دون معرفتنا بوجود هذه السفن الأربع، وهكذا حدث ما حدث مما رأيتموه. باختصار، دون جريجوريو بقى فى ثياب امرأة بين نساء مع خطر شديد بالضياح، وها أنا أرائى مقيدة اليدين فى انتظار، أو بقول أفضل، فى خوف من فقدان الحياة، التى بالفعل قد أرهقتنى. هذه، أيها السادة، فى آخر الأمر، قصتى المؤسفة، والتى فيها من الصدق بقدر ما بها من التعاسة، كل ما أرجوه أن تتركوبى أموت مسيحية، فكما قلت إننى لم أكن مذنبه فى أى شيء من الذنوب التى تكون قد وقعت فيها أمتى.

وفى الحال سكتت، مغرورة منها العيون بدموع حانية، صاحبها طويلاً أكثر من صحبتها لها الآن. نائب الملك، رقيق وشفوق، دون أن يكلمها بكلمة، اقترب منها، ونزع بيديه حبل المشنقة من عنقها الجميل جمال هذه العربية.

وخلال حكاية الموريسكية المسيحية لقصتها الرحّالة، زرع فى وجهها نظراته عجوز رحّال دخل السفينة مع دخول نائب الملك، وما كادت تنهى الموريسكية حديثها حتى ألقى بنفسه بين قدميها محتضنا لهما، مع كلمات منقطعة وألف نشيج باك وتنهّدات، قال لها:

- أوه أنا فيلكس، يا ابنتى العيسة! أنا أبوكِ ريكوتى، الذى عاد بحثًا عنك؛ لعدم مقدرتى العيش بدونك، فأنت منى بمنزلة النفس من الجسد.

وعلى كلماته فتح سانشو عيونته، ورفع رأسه (التي كان يضعها مائلة، مفكرًا فى نكبة هذه النزهة)، وناظرًا إلى الرجال، تعرف على نفس ريكوتى الذى صادفه يوم خروجه من الحكومة، وتأكّد أن هذه بالفعل ابنته، والتي ما إن فكوا قيودها حتى احتضنت أباه، خالطة دموعها بدموعه، وهذا قال للجنرال ولنائب الملك:

- هذه، أيها السادة، ابنتى، التى تتساوى تعاسة وقائع حياتها بتعاسة اسمها، تسمى أنا فيلكس، مع لقب ريكوتى، مشهورة بجمالها نفس شهرتها ببراء أبيها، وأنا خرجت من وطنى للبحث عن ممالك غريبة وعمن يقدم لنا الملاذ ويؤويننا، وقد وجدت الملاذ فى ألمانيا، وبعدها عدت فى ثياب حاج رحال فى صحبة ألمان آخرين للبحث عن ابنتى، وإخراج كنزى المدفون، لم أجد ابنتى ووجدت كنزى، الذى أحمله معى. والآن يغينى كل الغنى، إنّها ابنتى المحبوبة، وإذا كان إثنا الصغير، ودموعها مع دموعى يمكن أن تفتح أبوابًا للرحمة داخل جماع عدالتكم، فافتحوها لنا، فلم نفكر قط فى إغضابكم، ولم نوافق مرة واحدة على نوايا أهلنا، الذين تم نفيهم على أساس عادل.

عندئذ قال سانشو:

- أنا أعرف ريكوتى جيدًا، وأعرف أنه صادق فيما يقوله من أن (أنا فيلكس) هى ابنته، أما الترهات الأخرى من الذهب والإياب، وعمّا إذا كانت بحسن نية أو سوء نية، فأنا لا أحشر نفسى.

- بالفعل دموعكما لن تدعني أنجز قسمي، عيشي أيتها الحسناء (أنا فيليكس) كل السنوات التي كتبتها لك السماء، وسوف يحمل الإثم التركيان المغروران المتهوران.

وأمر في الحال بإعدام التركيين اللذين قتلوا جندييه الاثنين، لكن نائب الملك رجاه في قوة ألا يعدمهما، فإن ما اقتراه كان جنوناً أكثر منه شجاعة. ونفذ الجنرال ما طلبه منه نائب الملك، لأن الثأر بسكينة باردة ليس ثأراً، وحاولوا بعدها تدبير حيلة لإنقاذ دون جاسبار جريجوريو من الخطر الذي يعيشه، عرض ريكوتى لذلك أكثر من ألفي دينار مما معه من حلى ولآلىء. فكروا في وسائل كثيرة، لكن لم يكن منها أفضل مما عرضه الإسباني المرتد الذي قدم نفسه للعودة إلى الجزائر في إحدى المراكب الصغيرة، لا تزيد بنوكها على ستة بنوك، معتمداً على مجدفين إسبان، لأنه يعرف أين وكيف ومتى يمكن الرسو، وفي نفس الوقت لا يجهل البيت الذي يوجد به دون جاسبار. شك الجنرال ونائب الملك في الثقة بالمرتد، وخافوا على المسيحيين الذي سيجدسون له، ضمنته أنا فيليكس، أما أبوها فقال إنه سوف يدفع فدية المسيحيين صحبتته لو تم أسرهم.

وعلى هذا تم الاتفاق، وهبط من السفينة نائب الملك، ودون أنتونيو مورينو حمل معه الموريسكية وأباها، وكلفه نائب الملك بتدليلهما والحنو عليهما بقدر إمكانه، وأنه سوف يقدم له ما يهيبه حسن ضيافتهما في منزله. هكذا كانت الأريحية والبر الذي سكبته حلاوة (أنا فيليكس) وحسنها في صدره.

الفصل الرابع والستون

عبارة عن المغامرة التي أحزنت دون كيخوتي أكثر من كل حزن أصابه في كل ما وقع له قبل ذلك من مغامرات

تحكى القصة أن زوجة أنتونيو مورينو أصابها طرب عظيم لاستضافة الموريسكية فى بيتها، قابلتها ببشاشة كبيرة، مغرمة بجمالها مثل غرامها بذكائها، وقد كانت فى الأمرين قد بلغت الموريسكية المدى، وكل أهل المدينة كانوا يأتون لرؤيتها كتجمعهم حول جرس يقرع.

قال دون كيخوتي لدون أنتونيو إن ما اتخذوه لتحريير دون جريجوريو لم يكن جيداً، لأنه كان يتضمن من الخطر أكثر من السلامة، وكان الأفضل أن يحملوه إلى بلاد البربر بكل أسلحته فوق جواد، وأنه فى هذه الحالة سوف ينقذه على الرغم من العرب، كما فعل دون جايفيروس مع زوجته ميليسندرا.

قال سانشو مستمعاً لهذا:

— أعلم فخامتكم أن السيد دون جايفيروس أنقذ زوجته من فوق أرض ثابتة، وحملها إلى فرنسا على أرض ثابتة، لكن هنا، إذا أخرجنا دون جريجوريو، فليس لدينا وسيلة لإحضاره إلى إسبانيا، فالبحر فى الوسط يحول دون ذلك.

قال دون كيخوتي:

— لكل شىء علاج ماعدا الموت، من ثم عند وصول المركب (التي سوف تحمل المرتد) إلى البحر، سوف نضع أنفسنا فيها، حتى لو اعترضنا العالم كله.

قال سانشو :

- أنت ترسم وتسهل كل شيء، لكن بين القول والفعل أخدود، وأنا أدعم المرتد، فظاهرة أنه رجل خير، نظيف الوجدان.

قال دون أنتونيو إن المرتد إذا لم يفلح في مسعاه، فإنه سيحمل على عاتقه ذهاب دون كيخوتي الأكبر إلى بلاد البربر.

وبعد ذلك بيومين رحل المرتد في مركب خفيف مع ستة من المجدفين، مدعماً هكذا بطاقم شديد الشجاعة، وبعد رحيله بيومين رحلت السفن الحربية إلى ليبانتي، بعد أن طلب الجنرال من نائب الملك أن يخطره بأخبار تحرير جريجوريو، وأخبار أنا فيلكس، ووعدته نائب الملك بتنفيذ ما طلب.

وفي صباح أحد الأيام خرج دون كيخوتي للتنزه على الشاطئ مدججاً بكل سلاحه، لأنه كما كان يقول في مرات عديدة، إن سلاحه هو رحله أو سرجه، والقتال هو راحته، ولا يوجد دونهما لحظة واحدة. رأى قادمًا نحوه فارساً مدججاً بالسلاح مثله، ومرسوماً على درعه قمر مزدهر الإشراق، والذي ما إن اقترب بمسافة من دون كيخوتي تسمح لهذا بسماعه، حتى قال:

- تصور، أيها الفارس، والذي لا توجد الكلمات للشناء عليه، دون كيخوتي دى لامانشا، أننى فارس القمر الأبيض، الذى ربما وصلت إلى مسامعك مآثره التى لم يسبق لها مثيل، وآتى للقتال معك، واختبار قوة ساعدك لجعلك تقر وتعترف أن سيدتى، كانت من كانت دون مقارنة، هى أجمل من سيدتك دولثينيا دل توبوسو، وإن اعترفت بذلك فى سهولة ويسر، فإنى سأعفيك من الموت، ومن الجهد الذى سأجبرك على بذله فى قتالى، وإذا رغبت فى القتال

وهزمتك، لا أريد منك أكثر من ترك السلاح، وامتناعك عن البحث عن المغامرات، وتنسحب إلى قريتك وبيتك لمدة عام، حيث تعيش دون أن تمد يدك على سيف، في سلام هادئ وسكون مريح، لأن هذا يناسب زيادة ثروتك، ونجاة روحك، وإذا هزمتني، ستصبح رأسى تحت أمر كياستك، وسيظل من حقك تنظيفى من سلاحى ومن فرسى، وستصبح شهرة مآثرى بعض مآثرك. انظر فيما هو أفضل لك وأجبنى في الحال، لأننى خصصت هذا اليوم للانتهاء من هذا الشأن.

بقى دون كيخوتى مشدوفاً فى ذهول، من غطرسة فارس القمر الأبيض ومن سبب التحدى، وفى هدوء ولهجة شديدة قال:

— يا فارس القمر الأبيض، إن مآثرك حتى الآن لم تصل إلى مسامعى، وسوف أجرؤ على القول إنك لم تر دولثينيا، وإذا كنت قد رأيتها فإننى واثق أنك ما كنت ستطرح هذا التحدى، لأن رؤيتها ستحبط غطرسك، فلا يمكن أن يوجد جمال يقارن بجمالها، ولهذا فلا أقول لك إنك تكذب، وإنما أنت لم تصب في التفكير، وفيما تقترح فإننى أقبل تحديكم، وفي الحال حتى لا يمر اليوم الذى حددته للتحدى، فقط أستثنى من الشروط مرور مآثركم لتصير بعض مآثرى، لأنى لا أعرف عنها شيئاً، وبمآثرى أنا راض بها على حالها. إذن خذ جانب ميدان القتال الذى تريده، وأنا سأخذ الجانب الآخر، وما يعطيه الله يباركه سان بدرو.

اكتشف أهل المدينة فارس القمر الأبيض، وقالوا لثائب الملك أنه يتحدث مع دون كيخوتى، ظن نائب الملك أنها مغامرة من صنع دون أنتونيو مورينو أو من صنع أى فارس آخر فى المدينة، فخرج مسرعاً للشاطئ مع دون أنتونيو وفرسان

آخرين كثيرين. وصلوا في الوقت المناسب، عندما كان دون كيخوتى يدير عنان روثينانتى ليتخذ موقفه في ميدان المبارزة، وعندما رأى نائب الملك أن الفارسين أعطيا إشارة بعودتهما للاحتكاك، اعترض طريقهما فاصلاً بينهما، وسألهما ما السبب الذى يدفعهما للقتال؟ أجابه فارس القمر الأبيض أنها مسابقة جمال، وفى عبارة مختصرة قال له ما سبق أن قاله لدون كيخوتى، وأنهما قد قبلوا الشروط المتبادلة فيما بينهما حول المعركة، اقترح نائب الملك من دون أنتونيو، وسأله عن كون فارس القمر الأبيض؟ وعما إذا كان ملعوباً منهم ضد دون كيخوتى. أجابه دون أنتونيو أنه لا يعرف من يكون، وأن ليس ثمة ملعوب. هذه الإجابة وضعت نائب الملك فى حيرة عما إذا كان يتركهما يتبارزان أم لا يتركهما يفعلان، ولكن لم يستطع أن يقتنع سوى أن الأمر لا يعدو مجرد خدعة، فابتعد عن طريقهما قائلاً:

- أيها السيدان الفارسان، إذا لم يكن هنا حل سوى الاعتراف أو الموت؛ فإن كليكما فى كامل قواه العقلية، وأعانكما الله!

شكر فارس القمر الأبيض بعبارات مهذبة وذكىة نائب الملك إذنه لهما، وفعل دون كيخوتى نفس الشيء، وأسلم نفسه لله من كل قلبه، ولسيدته دولثينيا (كما كانت عادته عند بدء المعارك التى كانت تعرض له)، عاد لتعديل موقفه فى الميدان، لأنه رأى أن خصمه يفعل نفس الشيء، ودون قرع طبول أو أى آلة أخرى حربية، أدار كل منهما عنان فرسه فى نفس اللحظة، وكما كان جواد فارس القمر الأبيض أخف، وصل إلى دون كيخوتى قاطعاً ثلثى السباق بين طرفى الميدان مصطدماً بدون كيخوتى بقوة جبارة إلى حد أنها أسقطت روثينانتى ومعه دون كيخوتى فى الأرض سقطة خطيرة، وواضعاً رمحه فوق خوذته، قال له:

- ها أنت مهزوم أيها الفارس بل ميت إذا لم تعترف بشروط مبارزتنا. دون كيخوتى مطحوناً ومصعوقاً، دون أن يرفع غطاء الوجه للخوذة، وكما لو كان يتحدث من وراء جدران القبر، وبصوت ضعيف ومريض، قال:

- دولثينيا دل توبوسو هي أجمل امرأة في العالم، وأنا أكثر فرسان الأرض تعاسة، وليس من الخير أن يغش ضعفى هذه الحقيقة، اضغط أيها الفارس رحلك، وانتزع منى الحياة، فقد انتزعت منى الشرف.

قال فارس القمر الأبيض:

- هذا لن أفعله أنا بكل يقين، يحيا، يحيا بكامل شهرته جمال السيدة دولثينيا دل توبوسو، فقط يكفينى أن ينسحب دون كيخوتى الأكبر إلى قريته لمدة عام، أو للوقت الذى أحده، كما اتفقنا قبل دخول هذه المعركة.

سمع كل هذا نائب الملك ودون أنتونيو مع كثيرين آخرين كانوا هناك، وسمعوا أيضاً أن دون كيخوتى أجابه بأنه كما لا يطلب منه شيئاً يمى دولثينيا دل توبوسو، فإنه سوف ينجز كل الشروط بوصفه فارساً منضبطاً وحقيقاً. وبعد أن أدلى بهذا الاعتراف، أدار فارس القمر الأبيض عنان جواده، وحنى رأسه احتراماً لنائب الملك، وبرمح متوسط اختفى داخل المدينة.

أمر نائب الملك دون أنتونيو أن يسرع وراءه، وبكل طريقة ممكنة، لا بد أن يعرف من هو. أنهضوا دون كيخوتى وكشفوا غطاء وجهه، ووجدوه عديم اللون، ومغطى بالعرق، روثنانتي لسوء حالته لم يستطع أن يتحرك حينذاك. سانشو، كله حزن، وكله كآبة، لم يعرف ماذا يقول، وماذا يفعل، بدا له أن كل هذا الحادث ليس إلا حلمًا، وأن كل ما يراه ليس إلا فعل السحر. كان يرى سيده مستسلمًا، ومجبرًا على عدم مقارعة السلاح لمدة عام، وتخيل انطفاء نور مجد مآثره، وآمال وعوده الجديدة قد تحولت، كما يتبدد الدخان فى الهواء. كان يخشى إن لم يتم شفاء روثنانتي أن يبقى عاجزًا، وهل سيده مخلع الجسم سوف يبقى مخلع الجسم؟ أخيرًا فى مقعد له يدان أمر بإحضاره نائب الملك، حملوه إلى المدينة، مع الرغبة فى معرفة من هو فارس القمر الأبيض، الذى ترك دون كيخوتى فى أسوأ حالة من انهيار الروح.

الفصل الخامس والستون

حيث تتم معرفة فارس القمر الأبيض مع تحرير

دون جريجوريو، ووقائع أخرى

طارد دون أنتونيو مورينو فارس القمر الأبيض، وتابعه، بل طارده صبيان كثيرون حتى أحاطوه في فندق صغير داخل المدينة. دخل الفندق دون أنتونيو وراءه على أمل معرفته. خرج خادم لاستقباله، ونزع سلاحه، وأغلق على نفسه صالة صغيرة ومعه دون أنتونيو، الذى كان نافذ الصبر لمعرفة من كان، وعندما رأى فارس القمر الأبيض، أن ذلك الفارس لن يتركه، قال له.

- اعرف جيدًا، ياسيدى، ماجئت من أجله، وهو معرفة من أكون؛ ولأنه لا يوجد سبب لإنكار شخصى عنك، فإنه خلال قيام خادمى هذا بنزع سلاحى، فإنى سأقول لك كل شيء، دون ترك أى تفصيلى. اعرف، أيها السيد، أنهم يطلقون على حامل البكالوريا شمشون كارأسكو؛ وأنا من نفس قرية دون كيخوتى دى لامايشا، الذى أثار فينا جميعًا الحزن والإشفاق، نحن كل من نعرفه، بسبب جنونه وسفاهته، وأكثر هؤلاء هو أنا، ومعتقدًا أن صحته فى أن يستريح وأن يوجد فى قريته وفى بيته، دبرت حيلة لتحقيق ذلك، وهكذا منذ ثلاثة شهور خرجت إلى الطريق باعتبارى فارسًا مشاء مسميًا نفسى فارس المريا، بنية القتال معه وهزيمته، دون أن أصيبه بأذى، واضعًا شرطًا للقتال بأن يكون المهزوم تحت أمر الغالب، وما كنت أفكر

في طلبه (لأنى اعتبرته بالفعل مهزومًا) كان العودة إلى قريته وألا يخرج منها عامًا كاملاً، الوقت الكافي لإمكانية شفائه، لكن الحظ شاء أمرًا آخر، لأنه هو الذى هزمنى وأسقط جوادى، وهكذا لم تفلح فكرتى، وواصل هو طريقه، وأنا عدت مهزومًا، جبانًا، مطحونًا من سقطتى، والتي كانت فوق ذلك خطيرة، لكن ليس بسبب ذلك تخليت عن فكرة العودة للبحث عنه، وهزيمته كما رأيت اليوم. وكما أنه شديد الدقة في تنفيذ تعليمات الفروسية المشاءة، فإنه من المؤكد سوف ينجز كلمته. هذا هو، يا سيدى، كل شيء، ملتمسًا من فخامتكم ألا تكشفوا أمرى، ولا تقولوا لدون كيوخوتى من أنا، حتى تتحقق أفكارى الطيبة، ويعود لاستعادة عقله الرائع لو خرجت منه سفاهات الفروسية.

قال دون أنتونيو :

- أوه، أيها السيد، غفر الله لك الإساءة التى اقترفتها ضد كل العالم في رغبتك أن يعود عاقلاً ألطف مجنون فيه. ألا ترى، أيها السيد، أن جدوى تعقل دون كيوخوتى لن تستطيع قط أن تبلغ السرور الذى يبته بفساد عقله؟ لكن أتخيل أن تحايل السيد بكالوريا لن يكون مجديًا فى أن يعيد إلى العقل رجلاً بلغ فى الجنون مداه. وإن لم يكن قاسيًا، فإنى أقول لك إن دون كيوخوتى لن يشفى أبدًا، لأنه ليس فقط بصحته سوف يفقد ملاحظته وظرفه، بل ملاحظة وظرف سانشو بانثا خادمه، فإن كل أملوحة له قادرة على إبهاج الحزن نفسه. مع كل هذا سأسكت، ولن أقول له شيئًا، لأرى عما إذا كنت صادقًا فى شكى فى نجاح مسعى السيد حامل البكالوريا كارأسكو.

وأجاب هذا، بأن الأمر بالفعل فى لحظة ناجحة بها ينتظر حدثاً سعيداً، عرض عليه دون أنتونيو خدماته، وودعه، وفعلاً حمل أسلحته فوق بغل، وفوق الجواد الذى دخل به المعركة خرج من المدينة فى نفس اليوم، وعاد إلى قريته دون أن يحدث له شىء يستحق الذكر فى هذه القصة الحقيقية. حكى دون أنتونيو إلى نائب الملك كل ما حكا له كاراسكو، الأمر الذى لم يسره كثيراً، لأنه باختفاء دون كيخوتى عن جنونه سيفقد كل أولئك من لديهم خبر بجنونياته ما كان يمكنهم نيّله بوجوده.

أمضى دون كيخوتى فى السرير ستة أيام ضعيفاً متهاكاً، حزيناً متفكراً، وسبى الحال متقلّباً ذاهباً آيئاً فى الواقعة التعيسة لهزيمته، وكان سانشو يعزيه، وبين عبارات أخرى كثيرة قال له:

- سيدى، ارفع فخامتكم الرأس، وابتهج، إذا أمكن، وقدم الشكر للسماء، أن أسقطكم على الأرض، وأن لم تخرج بضلع مكسور، فأنت تعرف أن ماهبونه، يأخذونه، وأنه لا يحتاج لتسليك أسنانه من لديه شحم الخنزير، واثقب عين الطبيب (حيث إنه ليس ضرورياً حتى يعالجك من مرضك هذا)، ولنعد إلى بيتنا، ولنترك مشينا فى الأرض والقرى بحثاً عن مغامرات نجهلها، وإذا اعتبرنا جيداً، فأنا هنا الخاسر الأكبر، مع أن فخامتكم المطحون أكثر. فقد هجرت مع الحكومة الرغبات فى أن أصير حاكماً مرة أخرى، ومع ذلك لم أفقد الرغبة فى أن أصير (كونت)، الأمر الذى لن يتحقق إذا لم تصر فخامتكم ملكاً، تاركاً ممارسة فروسيّتك، وهكذا تتحول آمالى إلى دخان.

- اسكت سانشو، فأنت ترى أن حبسى واعتزالى لن يتجاوز العام، بعدها أعود إلى عملى المكرم، ولن أعدم كسب مملكة، ومقاطعة كونت لأهبها لك.

قال سانشو:

- سمع الله منك، وليكن الإثم أصم، فدائمًا سمعت قولهم: "إن أملاً طيباً، خير من أملاك فانية".

كان هذا يدور بينهما عند دخول دون أنتونيو، قاتلاً في ابتهاج كبير يبدو عليه:

- بشرى طيبة أيها السيد دون كيخوتي، فإن دون جريجوريو والمرتد الذى ذهب من أجله قد وصلا الشاطئ الإسباني هنا في برشلونة. هل أقول في الميناء؟ لا، بل في بيت نائب الملك، وسيكون هنا في الحال.

ابتهاج دون كيخوتي بعض الشيء، وقال:

- في الحقيقة، إننى أود القول إنه يسعدنى أن خرج كل شيء معكوساً، لأننى لست مجبراً على الذهاب إلى بلاد البربر، حيث بفضل قوة ساعدى كنت سأحرر ليس فقط دون جريجوريو، وإنما كل المسيحيين الأسرى هناك. لكن، ماذا أقول، أنا البائس؟ أأست أنا المهزوم؟ أأست أنا من أسقط بجواده؟ إذن، ماذا أعدد؟ بأى شيء أثنى على، إذا كان على أن أستعمل آلات الفلاحة بدلاً من السيف؟

قال سانشو:

- اترك هذا، يا سيدى، تحيا الدجاجة حتى بلسان لا يصيح، فاليوم على وغداً لى، وفي هذه الأشياء الخاصة بالقتال واللقاء، لا داعى للحساسية فيها، فمن يسقط اليوم يمكن أن ينهض غداً، وإذا لم يكن الأمر سوى رغبة في البقاء في السرير، فلنترك الإغماء لاستعادة البريق من أجل معارك جديدة. انفض فخامتكم الآن لاستقبال دون جريجوريو، إذ يبدو لى أن الناس تثير زعيقاً وضجيجاً، ولا بد أنه في البيت.

وكانت هذه هي الحقيقة، لأنه بمجرد أن أعطى دون جريجوريو والمرتد تقريراً لنائب الملك عن رحلة الذهاب والإياب، جاء دون جريجوريو، وقد برح به الشوق لرؤية أنا فيلكس، ومعه المرتد إلى بيت دون أنتونيو؛ ومع أن دون جريجوريو عندما أخرجوه من مدينة الجزائر كان في ثياب امرأة، فإنه بادلها في المركب بملابس أسير خرج معه، ولكن في أي مشهد ظهر، كان شخصاً جديرًا بالتقدير والاحترام وتقديم الخدمات له والطمع فيه، لأنه كان وسيماً فوق العادة، والعمر بين السادسة عشر والثامنة عشر. خرج ريكوتى وابنته لاستقباله، الأب بالدموع والابنة في عفة. لم يتعانقا، لأن فرط الحب يورث الحياء، الجمالان معاً، جمال أنا فيلكس ودون جريجوريو أثارا عجب كل الحاضرين. الصمت هناك من تحدث على لسان العاشقين، وكانت العيون هي الألسنة التي كشفت عن أفكارهما الشريفة. حكى المرتد حيلته وصنعبته التي بها أخرج دون جريجوريو من أسرته، حكى دون جريجوريو الأخطار والضغوط التي رأى نفسه فيها مع النساء اللائى بقى معهن، لم يحتج لكلمات كثيرة، وإنما قال كل شىء باختصار يبرهن على أن ذكاهه يتقدم عمره. وأخيراً، دفع روكى فى سخاء للمرتد ومن كان معه حتى أرضاهم، عاد المرتد للانضواء تحت لواء الكنيسة، ومن ابن ضال لها عاد نقياً بفضل التوبة والندم.

ومنذ تلك اللحظة ولمدة يومين فكر دون أنتونيو ونائب الملك فى الطريقة التى تسمح لأنا فيلكس وأبيها بالبقاء فى إسبانيا، لرؤيتهما أنه ليس من المناسب ألا يبقى بها ابنة بهذا القدر من التقوى المسيحية، وأب يبدو كذلك طيب النية. عرض دون أنتونيو الذهاب إلى البلاط للتفاوض حوله، حيث عليه الذهاب بالضرورة لشئون أخرى، شارحاً أنه بفضل الهدايا والمجاملات يتم حل أشياء كثيرة متعسرة.

قال دون ريكوتى، الذى كان حاضرًا هذا الحوار :

- لا ينبغي انتظار المجاملات والهدايا، لأنه مع دون بيرناردينو دى بيلاسكو العظيم الذى وضع جلالته الملك على عاتقه أمر طردنا لا تفيد الرجاءات أو الوعود، ولا الهدايا أو الآهات، لأنه مع حقيقة أنه يخلط العدالة بالرحمة، فإنه يرى أن جسم كل أمتنا فاسد وملوث، ويستعمل معه الدواء الكاوى الذى يحرق قبل المرهم الذى يلين. وهكذا، بالفطنة والدهاء، وبالمسعى، وبالرعب الذى يبته، حمل على عاتقه القوى بالتنفيذ الواجب ثقل هذه المهمة، دون أن تستطيع حيننا، واستراتيجياتنا، وإلحاحنا، وغشنا، أن تضىء عيون أرجوس، التى يفتحها باستمرار فى تيقظ، حتى لا يبقى أو يستتر أى من أهلنا، مثل الجذر المختبئ، الذى بمرور الوقت يعود للإنبات، وإخراج ثمار سامة فى إسبانيا، التى هى الآن نظيفة وخالية من هموم أن تستولى عليها جهمرتنا. قرار بطولى من فيليب الثالث العظيم، وفطنة غير مسبوقه فى تكليف دون بيرناردينو دى بيلاسكو بتنفيذه!

قال دون أنتونيو :

- بالفعل، سأفعل المساعى الممكنة، والسماء المباركة فلتفعل ما تشاء، سيذهب معى دون جريجوريو، للتسرية عن الألم الذى سببه غيابه لوالديه؛ وأنا فيلكس ستبقى مع زوجتى فى بيتى، أو فى دير وأنا أعلم أن السيد نائب الملك سيسره استضافة دون ريكوتى الطيب فى بيته، حتى نرى كيف سأفروض.

وافق نائب الملك على كل ما اقترح؛ لكن دون جريجوريو، وقد عرف بكل ما جرى، قال إنه بأى حال من الأحوال لا يستطيع أو يود أن يترك أنا فيلكس،

لكن لنيته رؤية والديه، ثم الاحتيايال للعودة من أجلها، كان موافقاً لما اتفق عليه، وبقيت أنا فليكس مع زوجة دون أنتونيو، وريكوتى فى بيت نائب الملك.

ووصل يوم رحيل دون أنتونيو، ورحيل دون كيخوتى وسانشو، وكان بعد رحيل دون أنتونيو بيومين، فإن السقطة لم تسمح لدون كيخوتى أسرع من ذلك فى أن يشرع فى اتخاذ طريقه. كان هناك دموع وتهد وإغماء ونحيب عندما ودع دون جريجوريو (أنا فليكس). قدم دون ريكوتى ألف دينار لدون جريجوريو، إذا أراد حملها، لكنه رفض أى نقود، إلا خمسة دنانير أقرضاها له دون أنتونيو واعدًا بإعطائها له فى البلاط. وبهذا رحل الاثنان، وبعدهما دون كيخوتى منزوع السلاح، وبملايس الطريق، وفى صحبته سانشو على قدميه حيث حمل الحمار أسلحة سيده.

الفصل السادس والستون

عبارة عما سيراه من يقرأه، أو ما يسمعه من ينصت لمن يقرأه

عند خروج دون كيخوتى من برشلونة عاد لمشاهدة المكان الذى سقط فيه،

قال:

- هنا كانت طرودة! هنا تعاستى وليس جبنى، ذهب هذا المكان بأجمادى المنجزة، هنا استعمل الحظ معى دوراته وانقلاباته، هنا أظلمت مآثرى، هنا فى الآخر سقط نجمى حتى لا ينهض أبدًا.

وعند سماع سانشو له قال:

- إن القلوب الشجاعة تتحمل معاناة النكبات، وبهجة الازدهار، وهذا أراه فى نفسى، فعندما كنت حاكمًا كنت مبتهجًا، والآن أنا خادم وأسير على قدمى ولست حزينا، لأنى سمعتهم يقولون إن إلهة الحظ امرأة سكيرة هوائية، وفوق كل هذا عمياء، هكذا لا ترى ما تفعل، فهى لا تدرى من أسقطت، ومن أسعدت.

أجاب دون كيخوتى:

- أنت فيلسوف جدًّا، سانشو، تتكلم فى منتهى الذكاء، لا أدرى من علمك هذه الكياسة، وما أعرف أن أقوله لك، إنه لا يوجد الحظ فى العالم، ولا الأشياء التى تتم بأمره، سواء أكانت طيبة أو سيئة، فمهما كانت فإنها تأتى

من عناية سماوية خاصة، ومن هنا يأتي ما اعتادوا قوله، من أن كل واحد صانع لحظه. وقد كنت صانع حظي، ولكن ليس بالدهاء الضروري؛ ولهذا خرج حظي في متواليه هندسية تصاعدت مع غروري، فقد كان من واجبي أن أفكر أن الضخامة الجبارة لجواد فارس القمر الأبيض ما كان لحافة روئينانتي أن تواجهها. وهورت في النهاية، وفعلت ما استطعت، وأسقطوني، ومع أنني فقدت الشهرة، لم أفقد، ولا أستطيع أن أفقد، فضيلة إنجاز كلمتي. عندما كنت فارساً مشاءً، جسوراً وشجاعاً، فإنني كنت أنال المصداقية بأعمالى وأفعالى، والآن، حال كوني مجرد حامل دروع راجل، سأعطي مصداقية لكلماتي، منجزاً ما أعطيت من وعدى. سر، إذن، صديقي سانشو، وهيا نقضى في مسقط رأسنا عام الراهبين المستجدين، وفي سجنه سوف ننال قيمة جديدة تعيننى على العودة إلى مالا أنساه أبداً من مقارعة السلاح.

أجاب سانشو:

- سيدى، ليس شيئاً في غاية اللذة السير على القدمين، حتى يحركنى ويستثيرنى لقضاء أيام طيبة، فلنترك هذه الأسلحة معلقة في شجرة، في مكان مشنوق، فأشغل أنا ظهر حمارى، من ثم، عن الأرض سوف ترتفع أقدامى، ولنصنع أيامنا كما تطلبها فخامتكم وتقيسها، فإن التفكير في السير على القدمين، وعيش أيام طيبة في نفس الوقت هو تفكير في الفراغ.

أجاب دون كيخوتى:

- لقد أحسنت القول، سانشو، فلتعلقوا أسلحتى تذكاراً، وتحت أقدام هذا النصب التذكارى أو حوله، فلنحفر في الشجر ما كان مكتوباً على النصب التذكارى لأسلحة رودان.

أجاب سانشو:

- كل هذا يبدو لى لآلى، ولولا ما بقى لنا من طريق، كان من الخير أيضاً ترك روئيناتى معلقاً معها.

أجاب دون كيخوتى:

- إذن لا هو ولا السلاح أحب لهما أن يشنقا، حتى لا يقال مقابل الخدمة الطيبة جائزة سيئة.

أجاب سانشو:

- ما أحسن قول فخامتكم؛ لأنه حسب رأى الأذكىاء، لا ينبغي محاسبة البردعة على ذنب الحمار، ومن ثم ففخامتكم يقع عليك ذنب هذه الواقعة، فعاقب نفسك، ولا تفجر غضبك على أسلحة مدمرة ودامية، ولا على وداعة روئيناتى، ولا على طراوة قدمى، حين لا ترغبان فى السير أكثر من المعقول.

فى هذا الحديث ومع تلك العبارات انقضى كل ذلك اليوم، بل أيام أربعة أخرى، دون أن يحدث لهما شىء يعوق الطريق، وفى اليوم الخامس، عند مدخل إحدى القرى، وجدا على باب فندق صغير جمهرة من الناس، كانت تتمالح هناك لأنه يوم عيد، عندما وصل إليهم دون كيخوتى، رفع أحد الفلاحين صوته قائلاً:

- أحد هذين السيدين القادمين اللذين لا يعرفان التفاصيل، سيقول لنا ما ينبغي عمله فى هذا الرهان.

أجاب دون كيخوتى:

- بالتأكيد سأقوله، فى كل الاستقامة، إذا فهمت ما تريدون.

قال الفلاح:

- المسألة، أيها السيد الطيب، أن أحد أبناء هذه القرية، سمين إلى حد أنه يزن إحدى عشرة ربعة، تحدى أن يسبق جاراً له، لا يزن أكثر من خمس ربعات. كان شرط السباق الجرى مائة خطوة بوزن متساو، وعند سؤال من طرح التحدى كيف يمكن مساواة الوزن، قال إن الخصم الذى يزن خمس ربعات عليه أن يحمل ست ربعات من الحديد، وهكذا يتساوى وزن النحيف مع وزن السمين.

قال سانشو عند هذا قبل أن يجيب دون كихوتى:

- هذا لا، وبالنسبة لى فقد كنت منذ أيام قليلة حاكماً وقاضياً، كما يعرف العالم كله، ولهذا، فالإجابة تقع على عاتقى لتبديد الشكوك، وإبداء الرأى فى أى خلاف.

قال دون كихوتى:

- على الرحب والسعة، قدم الإجابة، سانشو صديقى؛ فأنا لست فى حالة تسمح لى باستخراج لب الخبز للقط، فعلى مضطرب ومشوش.

وبهذا الإذن قال سانشو للفلاحين، الذين تحلقوا حوله، بشفاه منفرجة فى انتظار حكمه:

- أيها الإخوة، ما يطلبه السمين ليس له مكان، ولا يحمل أى ظل للعدل، لأنه لو كان حقيقياً ما يقال إن الخصم الذى يقع عليه التحدى من حقه اختيار السلاح، فليس خيراً أن يختار من تحدى هنا طريقة المساواة، لأنها تمنع الخصم

وتعوقه ليأخذ فرصة الانتصار، ومن هنا فإنى أرى السمين المتحدى ملزماً بتقشير بعض ثقله وتشذيبه والاختيار بين هذا والوضع المهذب المشذب أو أن ينزع ست ربعات من لحمه من هنا أو هناك كما يبدو له أفضل، وبهذه الطريقة يبقى وزنه خمس ربعات ويتساوى مع وزن الآخر، وبالتالي سوف يجريان بوزن متساو.

قال أحد الفلاحين ممن استمعوا لحكم سانشو:

– أقسم على أن هذا السيد قد تكلم مثل قديس، وحكم مثل قضاة الكنيسة! لكن، يقيناً، فإن السمين لن يجب أن ينزع أوقية واحدة من لحمه فضلاً عن ست ربعات.

أجاب آخر:

– الأفضل ألا يتسابقا، حتى لا يطحن التحيف بالثقل، ولا السمين بنزع لحمه، ولنصرف نصف الرهان على النييد ولنحمل هذين السيدين إلى حانة حيث الأغلى من الأنبذة، وعلى مسئوليتي^(١)... والكأس عندما تمطر.

أجاب دون كيخوتى:

– أنا، أيها السادة، أشكركم، لكنى لا أستطيع التوقف لحظة، لأن الفكر وأحداثاً حزينة تجعلنى غير مجامل، وتدفعنى نحو السير مواصلاً الخطى.

(١) هناك عبارة ناقصة غالباً ساخرة ترك على عاتق القارئ استنتاجها، ولعلها تكمن فى دلالة (الكأس عندما تمطر)، أى يخلو الكأس عندما يكون مجاناً مثل المطر.

وهكذا همز روثيانتى، وتقدم تاركاً لهم فى عجبهم من رؤية صورته الغريبة وملاحظتها، ومن نكاء خادمه، وكان ذلك حكمهم على سانشو. وآخر من الفلاحين قال:

- إذا كان الخادم بهذا الذكاء، فكيف يكون السيد؟ إني أراهن أنهما ذاهبان للدراسة فى سلمنقة، وأنهما على وشك الحضور ليصيرا قادة فى البلاط، وكل شىء خادع ماعدا الدراسة، ومزيدياً من الدراسة، ونيل ميزة وحظ، وعندما لا يرد على خاطر الإنسان، يجد نفسه بصولجان فى اليد، وتاج أسقفى على الرأس.

تلك الليلة قضياها سيدياً وصبيياً فى عراء الريف، وفى اليوم التالى واصلا طريقهما فرأيا رجلاً مقبلاً نحوهما سيراً على الأقدام، حاملاً خرجاً على رقبته، ووسطاً أو كرابجاً فى يده، نفس هيئة عامل البريد الراجل، والذى عندما اقترب من دون كيخوتى أسرع فى خطاه وتقدم إليه واحتضنه من فخذة الأيمن حيث إن طوله لم يدرك أكثر من ذلك، وقال مع علامات بهجة كبيرة:

- أوه، سيدى دون كيخوتى دى لامانشا، وأى سرور سيدخل على قلب سيدى الدوق إذا عرف أن فخامتكم تعود إلى قلعته، التى ما زال بها مع سيدتى الدوقة.

أجاب دون كيخوتى

- لا أعرفك أيها الصديق، ولا أدرى من أنت إذا لم تقل لى.

أجاب عامل البريد:

- أنا، سيدى دون كيخوتى، توسيلوس، خادم سيدى الدوق، من لم يجب القتال معك حول زواج ابنة دونيا رودريجيث.

قال دون كيخوتى:

- ليرحمنى الله ! هل من الممكن أنك الذى حوله السحرة أعدائى إلى ذلك الخادم الذى تقول عنه، لغشى فى نيل شرف تلك المعركة.

أجاب عامل البريد:

- اسكت من فضلك، لم يكن هناك أى سحر، ولا أى تغيير للوجه، إن ذلك الخادم توسيلوس هو أنا الذى دخل المبارزة، وهو نفس الخادم توسيلوس الذى خرج منها. لقد فكرت فى الزواج دون قتال، عندما بدت لى حلاوة الصبية؛ لكن وقع لى عكس ما تمنيت، فهكذا كما أن فخامتكم قد رحلت من قلعتنا، الدوق سيدى ضربى مائة عصا، لأبى خالفت أوامره التى سبق وأعطها لى قبل دخولى المعركة، وكل شىء انتهى بأن صارت الفتاة راهبة، ودونيا رودريجيث عادت إلى قشتالة، وأنا الآن متجه لبرشلونة لحمل حزمة من الخطابات لنائب الملك، يرسلها إليه سيدى. إذا أحببت فخامتكم جرعة شراب فإن معى قرعة مليئة بالنبيذ، ومع أنه ساخن، فإنه نقى ومن الغالى الجيد، وأيضاً أهمل جيناً من لذائذ قرية ترونشون، سوف تكون مثيرة وموقظة للظماً، إذا كان فى حالة سبات ونوم.

قال سانشو:

- أحب الورقة الراجعة وألق بما تبقى من مجاملات، وابق دائماً توسيلوس الطيب رغم أنف وعلى غير رضا كل سحرة الأمريكتين.

قال دون كيخوتى:

- فى النهاية، أنت سانشو، أكبر فهم فى العالم، وأعظم جاهل على الأرض، فأنت غير مقتنع بأن هذا العامل للبريد مسحور، وأن توسيلوس ليس توسيلوس، ابق معه، املاً كرشك، وأنا سأذهب متقدماً ببطء فى انتظارك.

ضحك الخادم، واستل قرعته، وامشق شرائح جينة، وعند استخراجه رغيفاً اتجه مع سانشو للجلوس على الحشائش الخضراء، وفى صحبة حميمة أتيا على كل تموين الخرج، مع روح عالية وريحان، حتى إنهما لعقا حزمة الخطابات، فقط لأنها كانت تعبق منها رائحة الجبن.

قال توسيلوس لسانشو:

- لاشك، سانشو، أن سيدك هذا لا بد أن يكون مجنونًا، إنني أدفع بجونه!

أجاب سانشو:

- كيف لا بدّ...؟ وكيف تدفع...؟ إن سيدى هو الذى يدفع رغم أنه ليس

عليه دين لأحد، فهو يدفع لكل شيء، وخاصة عندما تكون العملة الجنون.

أننى أراه جيدًا... لا بد، وأقولها بوضوح له، لكن، ماذا يستفيد؟ وخاصة

الآن، فإنه لا دواء له، حيث يمضى مهزومًا من فارس القمر الأبيض.

رجاه توسيلوس أن يحكى له ما وقع له، لكن سانشو قال له إنها قلة أدب أن

يترك سيده منتظرًا، وإنه فى يوم آخر إذا التقيا سيكون هناك فراغ لذلك. ونهض

بعد أن نفض ثوبه، وفتافيت الخبز من لحيته، وقبض على الحمار قائلاً "وداعًا"،

وترك توسيلوس، ولحق بسيده الذى كان ينتظره تحت ظل شجرة.

الفصل السابع والستون

حول قرار دون كيخوتى بأن يصير راعياً، ليواصل حياة العراى، حتى يمر عليه الحول الذى وعد به، مع بعض الحوادث الحقيقية اللذيذة والمسلية

إذا كانت الأفكار الكثيرة ترهق دون كيخوتى قبل أن يهزم، فإنها أرهقته أكثر بعد الهزيمة. وفى ظل الشجرة كان، كما قيل من قبل، وهناك مثل تكاثر الذباب على العسل كانت تتدفق عليه الأفكار وتلدغه، بعضها حول راحة دولثينيا، والبعض الآخر حول الحياة التى عليه أن يمارسها فى انسحابه الإجبارى. وصل سانشو، وامتدح كرم توسيلوس، وقال له دون كيخوتى:

- هل من الممكن، أوه سانشو! حتى الآن أن تظنه خادماً حقيقياً؟ يبدو أن غادر عقلك أنك رأيت دولثينيا مرتدة ومتحولة إلى مزارعة، وفارس المرايا إلى البكالوريا شمشون كارأسكو، وكلها أعمال للسحرة الذين يطاردوننى. لكن قل لى الآن، هل سألت توسيلوس هذا الذى تقول عنه ماذا فعل الله بالتسيدورا؟ هل بكت غيبتى؟ أو أنها تركت بين يدي النسيان مشاعر الحب التى كانت ترهقها فى حضورى؟

أجاب سانشو:

- لم تكن أحاديثى معه حول هذا، فلم يتسع المقام للسؤال عن هذه البلاهات. يا الله! سيدى، هل أنت الآن فى ظروف تسمح بالتحرى عن مشاعر آخريين، وخاصة المشاعر الغرامية؟

قال دون كيخوتى:

- انظر سانشو، هناك فرق رحب بين أعمال تمارس من أجل الحب وبين أعمال أخرى تمارس من أجل العرفان والشكر، من الممكن ألا يكون الفارس غير عاشق، لكن لا يمكن أن يكون، متحدثين بكل دقة، جاحدًا الجميل. قد أحبتنى، فيما يبدو، كثيرًا ألسيدورا، أعطتني الجوارب الثلاثة التي تعرفها، بكت عند رحيلي، لعنتنى وسبتنى، اشتكت، على الرغم من خزى الإعلان عن كل هذا على الملأ، إشارات على أنها كانت تعبدنى، وإن غضب العاشقين اعتاد أن ينتهى إلى اللعنات، وإن لم يكن لدى أمل فى أن أهبها كنوزًا، لأن كنوزى التي أمتلكها فى حوزة دولثينيا، وكنوز الفرسان المشائين مثل كنوز العفاريت، ظاهرة و خداعة، فقط أستطيع أن أهبها الذكريات التي حملتني إياها، دون إساءة لذكرياتي عن دولثينيا، التي تسيء أنت إليها، بالتراخي عن جلدك، ومعاقبة لحمك هذا (الذي أراه وقد أكلته الذئاب)، والذي تود المحافظة عليه من أجل الديدان، وليس من أجل علاج تلك السيدة المسكينة..

أجاب سانشو:

- سيدى، إذا أردت قول الحق، إننى لا أستطيع أن أقنع نفسى أن جلد فخذى له أى علاقة بفك سحر السحرة، والأمر كما لو كنا نقول: "إذا كانت رأسك تؤلمك ادهن ركبتيك بالمرهم". على الأقل، أنا أجسر على الحلف أنك على كثرة القصص التي قرأتها، والتي تعالج الفروسية المشاءة، لم تشهد قط فك سحر بالجلد، لكن بين نعم ولا، سأجلد نفسى عندما يكون عندى مزاج لذلك، والوقت يتسع فى راحة لعقاب نفسى.

أجاب دون كيخوتى:

- ربنا يسمع منك، ولتمنحك السماء عنايتها حتى تدرك واجبك الذى يسير فى اتجاه مد يد العون لسيدتى، والتي هى سيدتك، فأنت منى.

خلال هذه الدردشة كانا يواصلان طريقهما، وإذا بهما يدركان المكان الذى وطأتهما فيه الثيران، تعرف عليه دون كيخوتى، وقال :

- هذا هو المرج الذى صادفنا فيه الراعيات الجميلات والرعاة الظرفاء، والذى فيه ودوا محاكاة الجمع الرعوى لأركاديا، وإنه لتفكير جديد وذكى، ومخاكاته، إذا بدا لك جيداً، أود، أوه سانشو! أن ننقلب إلى رعاة، ولو حتى ذلك الزمن الذى سأقضيه معتزلاً. أنا سأشتري بعض الغنم، وكل الأشياء الأخرى الضرورية التى تلزم للحياة الرعوية، وسوف أسمى نفسى الراعى كيخوتيث، وأنت الراعى بانثينو، وسوف نتجول فى الجبال، وفى الغابات والمروج، مغنين هنا، معددين بالبكائيات هناك، شاربين من السوائل الكريستالية للينابيع، أو من النهيرات الصافية، أو من الأنهار المتدفقة. ونقطف لأنفسنا بيد الوفرة من الثمر الأهلئ للبلوط، والمقعد جذوع الشجر الفليئى الصلد، وظل الصفصاف، والعطر الورود، والبساط ألف لون متميز للمروج، والتنفس الهواء الشفاف والنقى، والنور القمر والنجوم، على الرغم من ظلمة الليل، يكون طرب الغناء، وبهجة البكاء، وأشعار الإله أبولو، والحب مفاهيم بما نستطيع أن نجعل أنفسنا خالدين ومشهورين، ليس فقط فى الحاضر، وإنما فى كل دهر داهر.

قال سانشو :

- يا الله! إن مثل هذا النوع من الحياة قد طوائى طياً، بل أفلت شكيمتى إفلاناً، وخاصة أنه يجب ألا يراه بعين طيبة البكالوريا شمشون كارأسكو، والأسطى نيكولاس الحلاق، بينما عليهما أن يودًا اللحاق بنا، والعمل رعاة معنا،

ولتكن مشيئة الله، من بعد، أن يدور بخاطر القسيس الدخول أيضًا في الحظيرة، لما هو عليه من مرح وصدافة للطرب.

قال دون كيخوتى:

— ما أحسن ما قلت، ويمكن أن يسمى البكالوريا "القديس رنين"^(*)، إذا دخل نقابة الرعاة، كما سوف يفعل دون شك، ويصير السراعى سان سونينو، أو الراعى كارأسكون، أما الحلاق نيكولاس فيمكن أن يسمى "ميكولوسو"، مثل "بوسكان" القديم سمي "نيموروسو"، وأخيرًا القسيس، لا أدرى أى اسم نعطيه له، إذا لم يكن مشتقًا من اسمه، ولنسميه الراعى "كوريامبرو" أو "القسيس أمبرو". والراعيات اللاتى علينا أن نصير عشاقًا هن، يمكننا اختيار أسماء هن كما نختار بين الكمثرى، وفيما يتعلق بسيدتى ستصير كلمة راعية مثل كلمة أميرة، وليس على أن أرهق نفسى فى البحث عن اسم آخر يناسبها، وأنت سانشو يمكنك تسمية سيدتك حسبما تشاء.

أجاب سانشو:

— لا أفكر فى إعطائها اسمًا غير "تيريزونا"، وسوف يناسب سميتها جيدًا، ويشفق فى نفس الوقت من نفس اسمها، فهى ليست إلا "تيريزا"، وخاصة عندما أشيد بها فى الأشعار، سوف تدرك مشاعرى البرينة الطاهرة، حيث إننى لا أمشى أبحت عن خبز مستحيل فى بيوت غريبة. والقسيس لن يكون مناسبًا له أن يصاحب راعية، حتى يعطى المثل الطيب، أما البكالوريا إذا أحب مصاحبة راعية، فإنه "ملك نفسه"!

(*) تلاعب بالاسم (Samson) إلى (SansoN) ليحمل المعنى (القديس رنين) إشارة إلى أنه رغم عدم رضاه سيصير رنينًا لإرادتهما إن تبعهما فى الرعى، وسيوالى اللعب بالاسم بعد قليل.

قال دون كيخوتى:

- يرحمنا الله! أى حياة سنعيش، سانشو صديقى! وأى مزامير رعوية ستصل إلى آذاننا، وأى مزامير ثامورية^(*)، وأى أبواق وأى صنح سوف تصلصل، وأى ربابات ستكون! إذن، سيتميز البوق بين هذا التعدد الموسيقى، هناك تتم رؤية كل آلات الرعى الصداحة الموسيقى.

سأل سانشو:

- ما هى الأبواق؟ لقد سمعتهم يذكرونها، لكنى لم أرها طول حياتى.

أجاب دون كيخوتى:

- الأبواق هى آلات نفخ تشبه الشمعدان النحاس، حيث تردد الواحدة منها صدى الأخرى عبر تجويف مشترك، فتحدث صوتاً، وإن لم يكن فى غاية القبول والمهمونية فإنه لا يحدث عدم رضى، ويوافق جيداً بساطة المزار الريفية أو الطبل، واسم (البوق) موريسكى^(**) مثل كل تلك الكلمات التى تبدأ (أل)، ويناسب أن نعرف:

Al mohaza , Almorzar , Alhombra , Alguacil , Alhucema , Almacen .

(***)Alcancia

(*) من مدينة تامورا.

(**) يقصد (عربى).

(***) معنى هذه الكلمات بالترتيب هو: محك الخيل، الغداء، سجادة، وزير، خزامى، مخزن،

صندوق (حلى).

وكل الكلمات الشبيهة، والتي هي لا بد أكثر من هذا العدد قليلاً، و فقط لغتنا القشتالية تحتوى على ثلاث كلمات نهايتها (i) أصلها موريسكى، وهى ثلاث (i) مثل (Borcegui , zaquizami , Maravedi) وهناك كلمات تبدأ بالحرفين (أل)، وتنتهى بـ (i) مثل (Alheli , Alfagui) وتعرف بأنها كلمات عربية. أقول لك بشكل عابر لأنك حركت ذاكرتى عندما سألتنى عن البوق، ولا بد أن يساعد على تحسين هذا التدريب اللغوى كونه بعض شاعر، كما تعرف، وكون البكالوريا (القديس رنين كارأسكو) شاعرًا إلى المدى. عن القسيس لن أقول شيئاً إلا أننى أراهن على أنه لديه سمت الشاعر، ونفس السمات موجود عند الأسطى نيكولاس، لا شك، لأن كل الحلاقين أو أغلبهم عازفو جيتار، ومؤلفو أوار يغنونها. وأنا سوف أشكو من البين، وأنت سوف تفخر بنفسك لكونك عاشقاً تليد العشق، والراعى كارأسكو لكونه عاشقاً منشقاً والقسيس كورياميرو سوف يكون فى شعره ما لا يصلح لغيره^(*)؛ وهكذا سوف يسير الأمر، ولا شىء أفضل من ذلك نرغبه.

وعلى هذا أجاب سانشو:

– أنى يا سيدى متعوس إلى حد أنى أخشى عدم وصول اليوم الذى ترائى فيه أعيش هذا، أوه أيتها الملاعق المشحودة التى على أن أصنع عندما أرائى راعياً! أى لب خبز أى زبد، وأى غار، وأى ترهات رعوية، فعلى الرغم من أنهم أكسبون شهرة لأنى ذكى، فإنهم لن يتركوا تنويعى عبقرياً! سانشيكا، ابنتى، سوف تحمل الطعام حتى الكوخ. لكن، انتظري! هل يكون ذلك من

(*) أى قسيس وربما يقصد (راعى) لترادف الكلمتين (قسيس/راعى) فى الإسبانية، وربما فى العربية أيضاً، مفهوم متشابه بين الأديان الكتابية.

الصواب، وهناك رعاة خبيثاء أكثر من الرعاة البسطاء، فهل أود أن تأتي بصوفها، وتعود وقد قصوا لها الصوف؟ وأيضاً أنواع الحب وأنواع الرغبات غير النظيفة، وقد تعودت التنزه في الريف والمدن على حد سواء، وفي الأكواخ الرعوية تماماً مثل القصور الملكية، لكن إذا زال السبب زال الإثم، وعندما لا ترى العيون، لا تعشق القلوب، والهرب خير من مساعي الطيبين في إصلاح العطب.

قال دون كيخوتى:

- لا أمثال أكثر، فمثل واحد فقط مما قلت يعنى لتوضيح ما تفكر فيه، وقد نصحتك مرات كثيرة بالألا تكون كريماً جداً في سوق الأمثال، وأن تضعها في مكانها حين قولها، لكن "يبدو لى أننى أعظ في الصحراء"، و"أمسى تعاقبى وأكرر إغضابها".

أجاب سانشو:

- يبدو لى أن فخامتكم مثل الذى يقال "قالت الطاسة للغلاية يا رغبة". فأنت تنفر من قولى الأمثال ثم تنظمها فخامتكم اثنين اثنين.

قال دون كيخوتى:

- انظر، سانشو، أنا أستعملها بما يناسب المقام، وتأتى عندما أقولها مثل الخاتم في الإصبع، لكنك تستعملها خبط عشواء، تسحبها واحداً وراء الآخر دون أن توجهها، وإذا لم أكن سبب التذكر، في مرة سابقة قلت لك إن الأمثال عبارة عن أحكام مختصرة، مستخرجة من خبرة حكمائنا الأقدمين وتأملهم، والمثل الذى لا يناسب المقام هو ترهة أكثر منه حكماً. لكن دعنا من هذا، فقد جاء الليل، ولننحرف عن الطريق الملكى بعض الخطوات حيث نقضى هذه الليلة، والله يعلم ما سيكون غداً.

وأخذوا لهم مكاناً بعيداً عن الطريق، وتناولوا عشاء سيئاً ومتأخراً، مضاداً تماماً لذوق سانشو وإرادته، حيث كانت تتمثل له حياة الضيق للفروسية المشاءة داخل الغابات والجبال، في مقابل حياة الوفرة التي تبدو مظاهرها في القلاع والبيوت، مثل بيت دون ديجو دي ميراندا، وأيضاً في مثل زفاف كاماتشو الغنى وبيت دون أنتونيو، لكنه استراح إلى عبدة استحالة دوام الليل أو النهار، وهكذا مضى تلك الليلة نائماً، بينما سيده ساهراً.

الفصل الثامن والستون

عن المغامرة الخنزيرية التي وقعت لدون كيخوتي

كانت الليلة مظلمة بعض الشيء رغم وجود القمر فى السماء، لكن بشكل يحول دون رؤيته، وربما كانت السيدة ديانا فى طريقها للتنزه فى الجانب الآخر من العالم، فتركت الجبال سوداء والوديان معتمة. استجاب دون كيخوتى لرغبة الطبيعة، فراح فى النوم الأول دون أن يفسح مكاناً للنوم الثانى، على عكس سانشو تماماً الذى لم يعرف النوم الثانى قط، لأن النوم الأول كان يدوم دفعة واحدة طول الليل وحتى الصباح، وخلال ذلك النوم كان يظهر طبيعته السمحة، وخلو باله من الهموم، أما طبيعة دون كيخوتى وهمومه فقد دفعته للسهر بطريقة أيقظت سانشو، فقال له:

- كم أنا مبهور، سانشو، بالحرية التى تميز ظرفك، أنا أتخيل أنك مصنوع من المرمر، أو من البرونز الصلب، حيث لا مجال هناك يتسع لأى حركة أو شعور، أنا أسهر عندما تنام أنت، وأنا أبكى حين تغنى، وأنا يغشى علىّ من الجوع، بينما أنت كسول تراخى من فرط الشبع، والخادم المخلص يشارك آلام سيده ويحس بأحزانه، وربما يبتهج لابتهاجه. تأمل فى هدوء هذا الليل، والوحشة التى تحتوينا، وتدعونا أن نراقب متأملين قاطعين النوم بين الحين والحين. انهض، وحق حياتك، وانحرف قليلاً عن هذا المكان واجلد نفسك ثلاثئة جلدة أو أربعئة من حساب جلدات فك سحر دولثينيا، وهذا منى رجاء وتوسل، فلا أحب استعمال القوة

الأخرى، فليس هذا يسرك، وبعد أن تتم جلدك، فلنغنّ بقية الليل، أنا أغنى فراق الحبيب، وأنت تغنى ولاءك الثابت لزوجتك، وهكذا نعطي بداية طيبة لحياة الراعي، التي علينا ممارستها في قريتنا.

أجاب سانشو:

– سيدى، لست رجل دين من الرهبان حتى توقظنى فى منتصف أحلامى لتجلدى، وأفزع من ذلك كيف تتصور أن يغنى من يتألم من الجلد؟ فخامتكم دعنى أنام، ولا تضغط علىّ فى أمر الجلد، حتى لا أقسم بألا أمس جلد ثوبى فضلاً عن لحمى.

– أوه أيتها النفس المتحجرة! أوه أيها الخادم غير الرحيم! أوه يا خائن العيش والإنعامات التى منحتها لك وأفكر فى منحها! من أجلى رأيت نفسك حاكماً، وبى ترى نفسك مع آمال قريبة لتكون (كونت)، أو تنال لقباً آخر مساوياً، ولن يتأخر إنجاز ذلك أكثر من تأخر مرور هذا العام؛ فإنى أنتظر نوراً بعد هذه الغياهب.

أجاب سانشو:

– لا أفهم هذا، فقط أفهم أنه خلال النوم لا أشعر بخوف أو أمل أو عمل أو مجد، وما أحسن من اختراع النوم، ثوب يغطى كل التفكير الإنسانى، وطعام يزيل الجوع، وماء يطفىّ الظمأ، ونار تدفىّ البرد، وبرد يخفف الضرام، وأخيراً عملة عامة تشتري بها كل الأشياء، كفتى ميزان وثقل يساوى بسين الراعى والملك، وبين الغبى والذكى، فقط شىء واحد ردىء فى النوم حسبما سمعتهم يقولون إنه يشبه الموت، حيث بين النائم والميت تضيق الفروق.

قال دون كيخوتى:

- لم أرك قط، سانشو، تتكلم بكل هذه الأناقة كما تفعل الآن، ومن هذا أصل إلى فهم المثل، الذى تردده أنت أحيانا " ليست العبرة بمن ولدت معهم، وإنما بمن تصاحبهم".^(٦)
أجاب سانشو:

- يا للشؤم! سيدنا! لست أنا الآن من أنظم الأمثال، وإنما ها هي تقع من فمك اثنين فى اثنين أفضل منى، ما عدا الفرق بين أمثالى وأمثالك، إن أمثالك تأتي فى الوقت المناسب، وأمثالى بدون مناسبة، لكن بالفعل كلها أمثال.

بينما كان الرجلان فى ذلك الحديث أحسوا انفجاراً أصمّ، وضجة خشنة كانت تمتد مغطية كل تلك الوديان. نهض دون كيخوتى على قدميه، ووضع يده على السيف، وانكمش سانشو تحت الحمار، محصناً نفسه من الجانبين بربطة أسلحة سيده من ناحية وبيردعة الحمار من ناحية أخرى، وقد ارتعد من الخوف بينما سيده كان فى غاية التشويش، ومن لحظة إلى لحظة مضى الضجيج يزداد، ويقترب من الخائفين الاثنين، أو على الأقل أحدهما دون الآخر المعروف عنه شجاعته. والمسألة لم تكن إلا عدداً من الرجال يحملون للبيع ستمنة خزير، كانوا يقودونها فى تلك الساعات، وكان هائلاً ما يحدثون من ضجيج، ودمدمة الخنازير وزفيرها هى التى تصم أذنى دون كيخوتى وسانشو دون أن يدركا السبب. ودون سابق إنذار وصل القطيع الممتد، والمدمدم، ودون احترام لسلطة دون كيخوتى أو سانشو، مز من فوق الاثنين، مدمراً تحصينات سانشو، ومسقطاً ليس فحسب دون كيخوتى وإنما أضاف إليه روثينانتى.

(٦) يقصد دون كيخوتى أن سانشو تعلم منه حسن الحديث!

الضجة والدمدمة الخنزيرية، والسرعة التي وصلت بها الحيوانات النجسة، أصابت البردعة بالحيرة فوق الأرض، مثلما فعلت بأسلحة دون كيخوتى، والحمار وروثينانتى وسانشو ودون كيخوتى. نهض سانشو بأفضل ما استطاع، وطلب من سيده السيف، قائلاً إنه يود قتل على الأقل نصف دسته من هؤلاء السادة، من الخنازير غير المهذبة (وكان قد عرف أنها خنازير)، قال له دون كيخوتى:

- دعهم أحياء، فإن هذا العدوان عقوبة بسبب ذنبي، وعقاب عادل من السماء، فالأمر أن الفارس المشاء المهزوم يأكله أبناء آوى، وتلدغه الزنابير، وتتقصى أثره الخنازير.

أجاب سانشو:

- وأيضاً يجب أن يكون عقاباً من السماء أن حاملى دروع الفرسان المشائين المهزومين يلدغهم الذباب، ويأكلهم القمل، ويهاجمهم الجوع، وإذا كنا نحن حاملى الدروع أبناء للفرسان المشائين الذين نخدمهم، أو أقارب مقربين، لم يكن بالكثير أن تدركنا عقوبة ذنوبهم حتى رابع جيل، لكن ما علاقة آل بانثا بآل كيخوتى؟ والآن ندع هذا ولنعد لتريح أجسامنا، وننام القليل الذى بقى من الليل، من ثم سوف يخلق الله النهار، وسوف يدركنا الازدهار.

أجاب دون كيخوتى :

- نم أنت سانشو، فقد ولدت لتنام، وأنا ولدت لأسهر، وفي الوقت المتبقى حتى قدوم النهار سأتحول مع أفكارى التى سأطفتها فى قصيدة غزلية، قمت بتأليفها بالأمس، دون أن تعرف أنت ذلك.

أجاب سانشو:

- بالنسبة لى يظهر أن الأفكار الغرامية تفسح المجال لتأليف مقطوعات لا بد ألا تكون طويلة، فخامتكم (اشعر) كما تحب من شعر، وأنا سأنام بقدر ما أستطيع.

وفى الحال افترش من الأرض ما شاء، ثم تقوقع ونام، مطلقاً لنومه السراح، دون ضمانات أو ديون، أو أى ألم يعوقه. دون كيخوتى متكئاً على جذع شجرة دردار أو فلين (فسيدى حامدى بن إنجيلين لا يميز بين أنواع الشجر)، وعلى أنغام نفس تنهداته غنى:

أيها الحب عندما أفكر

فى الألم المخيف القوى الذى تمبى

أجرى مسرعاً نحو الموت

مفكرًا فى قتل ألى الهائل السمى

*

لكن ساعة الوصول إلى الممر

ذلك المرسى لبحر عذابى

أحس ببهجة تفيض

وبها تقوى الحياة ولا أمر

*

وهكذا العيش يقتلني

والموت يعود فيعطيني الحياة

أوه، من حالي، لم يسمع بمثلها حال

فعندى هي موت، مع أهما الحياة^(١)

كل بيت شعر من هذه كانت تصاحبه وفرة من التتهيدات، دون أن تعدم دموعاً ليست بالقليلة، مما يناسب قلباً به ثقوب ألم الهزيمة وفراق دولثينيا.

وبصحة شعره وصل النهار، وألقت الشمس بأشعتها في عيون سانشو، فاستيقظ، وتكاسل، نافضاً نفسه، ممدداً أعضاء جسمه (في تمطع)، وتأمل في الشطايا والتمزيق الذي أحدثته الخنازير في تموينه، ولعن القطيع ومن صحب القطيع. وأخيراً عاد الاثنان إلى طريقهما المستأنف، وعندما مال المساء رأيا قادمًا نحوهما حوالي عشرة رجال ركبانا، وحوالي أربعة أو خمسة على أقدامهم. ففز قلب دون كيخوتي، وتصدع قلب سانشو، لأن الركب القادم كان يحمل رماحاً ودروعاً، وفي كامل عدة الحرب، التفت دون كيخوتي إلى سانشو، وقال له :

– إذا كنت سانشو قادراً على مقارعة السلاح بالسلاح، ووعدى لا يربط ذراعى، هذه القوى التي تتجه إلينا ما كانت ستكون عندى أكثر من تورثة وخيز مطلى، وليست ذلك الشيء الذى نخافه بين أشياء أخرى.

اقترب أولاً الفرسان مشهرين رماحهم، ودون نطق كلمة، تحلقوا حول دون كيخوتي، وألقوا برماحهم نحو ظهره وصدره مهددين له بالموت. أحد الراجلين

(١) مترجم من قصيدة غزلية إيطالية للشاعر (بيترو ميمبو).

على أقدامهم، وضع إصبعه على فمه إشارة بأن يصمت، وأمسك روثينانتى من عنانه، وأخرجه عن الطريق، والآخرون الرجالون قادوا سانشو وحماره، محافظين جميعًا على الصمت بطريقة عجيبة. وصلوا خطاهم خلف من يحمل دون كيوخوتى، الذى حاول مرتين أو أكثر أن يسأل إلى أين يحملونه، أو ماذا يريدون، لكن مجرد أن حرك شفتيه، حاولوا إغلاقهما له بالسنان الحديدية للرماح، وعن سانشو فكان يحدث له نفس الأمر، لأنه لم يكده يعطى دلائل على التكلم، حتى نغزه أحد الرجلين بمنخاس، وفعل نفس الشيء مع الحمار كما لو كان أيضًا يود الكلام. انغلق الليل، وأسرعوا الخطو، ونما فى الأسيرين الخوف، وبصفة خاصة عندما كانا يسمعان من وقت لآخر، كلمات موجهة لهما:

- امشيا يا أهل الكهف!

- اصمت أيها البربر!

- إلى تنفيذ المطلوب يا من تأكلون لحوم البشر!

- لا شكوى، أيها الأشرار، لا فتح للعيون أيها الديدان القتلة، والأسود الجزارون!

وألقاب أخرى مشابهة لهذه كانت تعصف بأذان البائسين السيد والخادم، انطلق سانشو متحدًا لنفسه فى نفسه:

"هل نحن يمام؟ هل نحن حلاقون ولسنا مناشف؟ هل نحن كليات ينادونها آس، آس؟ لا تعجبني فى شىء هذه الأسماء: هذا النبات الضعيف تزلزله الرياح، كل المصائب تأتينا معًا مثل العصى تنهال على كلب، ربنا يجعل الأمور تنتهى مع تلك العصى، التى تهددنا فى هذه المغامرة التعيسة".

وسار دون كيوخوتى مسلوب العقل دون أن يستطيع أن يصيب بكل خطاب كان يتخيله ماذا تعنى تلك الأسماء التى يضعونها لهما، المليئة بالسباب، والتى

يستنتج منها في وضوح الأعلية انتظار أي خير، إنما الشر المستطير. وتقريباً بعد ساعة من الليل وصلوا على هذه الحال إلى قلعة تعرّف عليها دون كيخوتى جيداً، وكانت قلعة الدوق، التي أقاموا بها منذ أيام قليلة.

قال عندما عرف نهاية الرحلة متعجباً:

- يرحمى الله! ماذا قد يكون هذا؟ نعم، في هذا البيت يوجد الأدب والتهذيب الرفيع، لكن بالنسبة للمهزومين الخير يتحول إلى سوء، والسوء يصير أسوأ.

دخلوا فناء الساحة الرئيسية للقلعة، ووجدوه معدلاً، ومرتباً بطريقة وصلت بهم إلى تنمية الدهشة، ومضاعفة الخوف، كما سيظهر في الفصل التالي.

الفصل التاسع والستون

عن الواقعة النادرة والجديدة إلى الغاية التي خلال كل مجرى هذه القصة العظيمة لم يحدث لدون كيخوتى ما هو أندر منها وأجده

ترجل الفرسان، مع من كانوا معهم راجلين وحملوا دون كيخوتى وسانشو اختطافاً، وأدخلوهما إلى الساحة، والتي على طول محيطها كانت تتلهب من المشاعل مئة، موضوعة فى حواملها الشمعدانية، وفى ممرات الساحة أكثر من خمسمئة مصباح، وهكذا رغم أن الليل كان مظلمًا بعض الشيء، فلم يكن هناك أى حاجة للنهار. وفى وسط الساحة نهض قبر بارتفاع يقترب من الذراعين، وفوقه مظلة سرادق ضخم من القטיפه السوداء، وعلى درجات القبر المدرج كانت تشتعل شموع بيضاء فوق حوالى مئة شمعدان من الفضة. وفوق القبر كان يعرض جسم ميت لصبيبة بديعة الجمال، والتي كانت ترسم بجمالها الجميل صورة لنفس الموت. كانت رأسها فوق مخدة من وشى الحرير، ومتوجة بغار متعدد ألوان الأزهار العطرية العبق، ومنسوج، واليدان متصلبتان على الصدر، وبينهما سعف نخيل أصفر فيما يحمل من رمز النصر. وعلى جانب من الساحة نصب مسرح لمنصة، عليها مقعدان يجلس عليهما شخصيتان، يبدو عليهما أنهما ملكان حقيقيان أو مزيفان، وذلك لحملهما تاجًا على الرأس، وصولجانًا فى اليد. وعلى جانب المنصة، ويرقى إليه ببعض الدرجات، كان هناك كرسيان آخزان إليهما أحضروا الأسيرين دون كيخوتى وسانشو، وأجلسوهما عليهما. كل هذا فى صمت، والإفهام بالإشارة

للأسيرين اللذين أيضاً بقيا صامتين، لكن حتى بدون إشارات كانا سيبقيان صامتين، لأن التعجب شل منهما اللسان. صعد عند هذا على المسرح مع صحبة كبيرة شخصيتان رئيسيتان، وفي الحال تم التعرف عليهما، إنهما الدوق والدوقة، مضيفاهما، اللذان جلسا على كرسيين فاخرين بجانب الشخصيتين اللذين ظهر عليهما أنهما ملكان، من لا يعجب من ذلك إذا أضيف إليه أن دون كيخوتي تعرف على الجسم الميت، لقد كان لأكتسيدورا الجميلة. عند صعود الدوق والدوقة على المنصة نهض دون كيخوتي وسانشو، وأبديا لهما احتراماً عميقاً، ورد الدوق والدوقة بالمثل، بإحناء رأسيهما بعض الانحناء.

وأثناء كل هذا خرج وزير فجأة، واقترب من سانشو، وطرح عليه عباءة من نسيج لامع مصقول، أسود منقوش عليه ألسنة لهب نارى، وخلع قبعته ووضع مكانها (زعبوط) يخصون به المجرمين، بنفس طريقة من يتلقى عقاب محاكم التفتيش، وقال له فى أذنه ألا يفك خياطة شفتيه، لأنه فى هذه الحالة إما يتعرض لتركيب كمامة على فمه أو سحب روحه من بين جنبيه. وكان مشهد سانشو من أعلى إلى أسفل كما شاهد نفسه، عبارة عن إنسان يتضرم بالنيران، لكن كما أنها لم تكن تحرقه، فلم يحفل بها فى شىء. خلع (الزعبوط) فرآه مرسوماً عليه شياطين، وعاد لارتدائه قائلاً فى نفسه:

- ومع ذلك فتلك لا تحرقنى، وهؤلاء لا يحملونى.

كان ينظر إليه أيضاً دون كيخوتي، ومع أن الخوف كان يشل حواسه، لم يتنازل عن الضحك على ما انتهت إليه صورة سانشو، والظاهر فى ثنايا هذا، بدأ فى الخروج من تحت القبر صوت نحيب ضعيف، وسار صادراً عن نايات، ولعدم التغطية عليه بأى ضجيج، لأنه فى ذلك المكان نفس الصمت كان محافظاً على

الصمت، فقد بدا رقيقاً وِعْزَلاً. وفي الحال قدم من نفسه عينة من الغناء غير متوقعة، بجوار مخدة ما كان يظهر أنه جثة، بانشقاق الأرض عن فتى وسيم يرتدى ملابس رومانية، وعلى نغم (الأرب) الذى يعزفه بنفسه، غنى بصوت شديد النعومة والوضوح، هذين الفاصلين:

بينما تفيق ألتسيدورا

الميتة بقسوة دون كيخوتى

وبينما يقومون فى البلاط المسحور

بالباس السيدات نسيج وبر الماعز (البيقوط)

وبينما قهرمانات سيدتى

تلبسهن الخشن والناعم من ثياب

سوف أغنى لجمالها وتعاستها

بريشة عزف أفضل من المغنى تراثياً

*

ومع أننى لا أتصورنى من عليه الغناء

ولو لم يكن مهنتى الوحيدة فى الحياة

بلسان ميت وبارد فى القم

أفكر فى تحريك صوتى مجبراً ليغنى لك

ومع أن روحى محررة من حجرك الضيق

مقودة في بحيرة أستيفيا الجهنمية

في احتفال به سأذهب، وذلك الصوت

سوف يوقف مياه النسيان^(١)

*

قال أحد الاثنين اللذين بدا أنهما ملكان:

- كفى، كفى، أيها المغنى السماوى، فلا يشبع من غنائك إلى الأزل، لنمثل الآن موت التى لا نظير لها ألتسيدورا ولطائفها، ألتسيدورا التى هى ليست ميتة كما يظن العالم الجاهل، لكنها حية على لسان إله الشهرة، ولإعادة النور المهرب إليها، هناك عقوبة عليه أن يتحملها سانشو بانثا، الحاضر بيننا، وهكذا أنت (رادامانتو)، الذى تحكم معى الحانات المظلمة فى (ليتى)! حيث إنك تعرف كل ذلك المكتوب على يد الأقدار المستورة، حول إفاقة هذه الصبية، قُلْهُ وأعلنه فى الحال، حتى لا تتأخر علينا الفرحة التى ننتظرها مع عودتها الجديدة.

لم يكد (مينوس) ينتهى من قول ذلك، وهو قاضى (رادامانتو) ورفيقه حتى نهض رادامانتو وقال:

- أيا، يا وزراء هذا البيت، الكبير منكم والصغير، الهرم والشاب، التنفيذ بالترتيب التالى؛ ختم (أنف) سانشو بانثا بأربع وعشرين ضربة بالإهمام، طبقا

(١) هذه المطوعة الثمانية أشعار ثمانية المقاطع للشاعر الشهير المعاصر ثريانتس (جارثيلاسو).

للعبة المشهورة^(٦)، واثنتي عشرة قرصة، وست نغزات بالدبوس في ذراعه
وظهره، وعلى هذه الشعائر تتوقف حياة ألتسيدورا!
عند سماع سانشو بانثا هذا فجر الصمت، وقال:

- أقسم على هذا، لن أسمح لأحد ختم وجهي أو لمس خدي، فهذا عندي
سيكون مثل الارتداد عن الدين، ويلى! ما علاقة خربشة الوجه بيعث هذه
الصيبة للحياة؟ سكتنا له فدخل بحماره^(٧)! يسحرون دولثينيا، ويجلدونني
لفك سحرها، تموت ألتسيدورا من أمراض أرادها لها الله، وحتى يبعثوها
عليهم سوط أنفى بأربع وعشرين ضربة إبهام، وتنخيز جسمي بشكات
دبابيس، ورضصة ذراعي بالقرص والتنغيز! أهذه المساخر لصهر! أنا كلب
عجوز، ولا يفلح معي هو هو!
قال (رادامانتو) بصوت مرتفع:

- سوف تموت! كن ليثا أيها النمر، واخفض من جناحك، يا (نمبروت) المغرور،
وعليك أن تعانى وتصمت، فلا يطلب منك المستحيل، ولا تقحم نفسك في
التحرى عن عقبات هذا الأمر ومصاعبه، أنفك لا بد من قرعها، و ذراعك
لا بد من قرصها، ومواضع النغز لا بد من نغزها. أيا، أقول يا وزراء، أنجزوا
أوامرى، وإذا لا، فقسماً من رجل يبر بالقسم، لتعرفن حينذاك لماذا ولدتم!

(٦) اللعبة أن يواجه أحدهم وجه الآخر بقبضته مبرزاً أربعة أصابع مخفياً الإبهام خلفها، وفجأة
يبرزه فى عنف وفرقة ليضرب أنف ذلك الآخر، والأمر لعب فى لعب حتى إن استخدام كلمة
وزير يحل محل كلمة جلاذ فى الألعاب الشعبية. أما (رادامانتى) و(مينوس) فهم قضاة الجحيم،
التي يتم إنقاذ التسيديورا منها.

(٧) وضعت هذا المثل بديلاً عن آخر لكشف المعنى المطلوب.

خلال هذا، ظهرت ست قهرمانات فى الساحة قادمات فى موكب دينى، واحدة وراء الأخرى، وجوههن مغطاة بنمش، وكلهن أيديهن اليمسني مرفوعات بأربعة أصابع مشهرة إلى أعلى حتى تعلو بها الأيدي المرفوعة أكثر إلى أعلى، كما يحدث فى هذه اللعبة الآن، ولم يكذبوا يراهن سانشو حتى خار خوار الثور، وقال:

- من الممكن أن أترك كل العالم يلمسنى، لكن أن أوافق على لمس القهرمانات لى، لا، هذا لا! خربشوا وجهى خربشة القطط للوجه، كما فعلوا مع سيدى فى نفس هذه القلعة، اتقبوا جسمى بسنان الخناجر المدببة، انتزعوا لحمى بين فكى الكماشات الحمّاة، كل هذا سأتحمله فى صبر، أو فى خدمة هؤلاء السادة، لكن أن تمسنى القهرمانات، هو أمر لن أوافق عليه، ولو حملنى الشيطان.

انفجر صمت دون كيخوتى أيضاً، قائلاً لسانشو:

- اصبر، يا بنى، وأرض هؤلاء السادة، واشكر السماء شكراً كبيراً، أن وضعت فى شخصك تلك الفضيلة، فتعديك تفك سحر المسحورين، وتنشر من القبور الميتين.

وهنا كانت القهرمانات قد اقتربن من سانشو، عندما كان أكثر ليناً واقتناعاً، مستريحاً جيد الثبات فى المقعد، تاركاً وجهه ولحيته للأولى، التى ساطت أنفه فى خاتم جيد، ثم انحنت له باحترام، قال سانشو:

- قللى من الأدب، وخلى عن هذا الطلاء، أيتها السيدة القهرمانة، فبحق الله، يداك تفوح منها رائحة زيت الخل^(٦)!

(٦) زيت ربما كان يستخدم للتجميل مثل الكريم.

أخيراً، انتهت كل القهرمانات من سوّط أنفه وختمه، وأناس آخرون كثيرون من البيت قرصوه، لكن الذى لم يستطع تحمله كانت نغزات الدبابيس، وهكذا نهض من مقعده، تبدو عليه الكآبة، وممسكاً بأحد المشاعل الملتهبة التى كانت بجانبه، وألقى بها خلف القهرمانات، وفى ظهر كل جلاديه، قائلاً:

– والآن، أيها الوزراء الجحيميون، لست من البرونز حتى لا أحس بكل هذا العذاب الخارق للعادة!

وأثناء هياجه، ألتسيدورا، التى ينبغى أن تكون متعبة، للبقاء كل هذا الوقت مستلقية على ظهرها، تحركت منقلبة على جنبها، ولما رأى الحضور هذا، تقريباً جميعهم بصوت واحد صرخوا:

– حية ها هي ألتسيدورا! ألتسيدورا فيها حياة!

أمر (رادامانتو) سانشو أن يهدئ من غضبه، فقد أدركت المحاولة ما كان يسعى إليه.

وهكذا، لم يكد دون كيخوتى يرى الحياة تدب فى ألتسيدورا، حتى ذهب إلى سانشو، راکعاً أمامه، وقال:

– الآن حان الوقت، يا ابن وجدائى، فلست بعد خادمى، أن تسوط نفسك بعض الجلودات التى التزمت بها من أجل فك سحر دولثينيا. الآن أقول، إنه الوقت الذى هو موسم تلك الفضيلة فىك، وفى كفاءة الأداء يتذكر الخير الذى منك يُنتظر.

وعلى هذا أجاب سانشو:

– هذا يبدو لى تشبيك فوق تعقيد، وليس حبات العسل على وريقات الشجر، كم هو جميل بعد القرص ورفس الأنف والتدبيس، أن تأتى الآن الجلودات!

ليس أمامك أكثر من إحضار حجر وربطه في عنقي ثم إلقاني في بئر، وهذا لن يثقل عليّ كثيراً، وحتى أشفى أمراض الآخرين عليّ أن أكون بقرة الزراف (١). اتركوني، وإلا بحق الله فإنني سوف ألقى بكل شيء وأرميه في سوق الخردة وإن لم يشتره أحد!

وخلال هذا كانت التسيدورا قد جلست فوق القبر، وفي نفس اللحظة رنت الأبواق مصحوبة بالناي، وأصوات الجميع :

- حية ها هي ألتسيدورا! حية ها هي ألتسيدورا!

نهض الدوق والدوقة والملكان مينوس ورامامانتو، وكلهم معاً، صحبوا دون كيخوتي وسانشو، ومضوا لاستقبال ألتسيدورا (القادمة من الموت)، وإنزالها من فوق القبر، والتي تظاهرت ببعض الإغماء، ومالت على الدوق والدوقة والملكين، ونظرت فجأة لدون كيخوتي، وقالت له:

- ساحك الله لما فعلته بي، أيها الفارس خلىّ البال، فبسبب قسوتك رحمت إلى العالم الآخر، ويتهياً لى أنى بقيت فيه ألف عام وأكثر، وبالنسبة لك، سانشو، يا أكثر حاملى الدروع حناناً فى هذا الفلك الدوار، أشكر لك حياتى التى أعود لامتلاكها، استعد منذ اليوم أيها الصديق سانشو لامتلاك أكثر من ستة قمصان لى سأرسلها لك، حتى تدورها على مقاسك، وإذا لم تكن كلها جديدة، فعلى الأقل كلها نظيفة.

من أجل الهبة قبّل سانشو يديها، بالزعبوط فى يده، وركبتيه على الأرض. أمر الدوق بنزع الزعبوط من يده وإعطائه قبعته، وإلباسه ثوبه، وخلع ثوب ألسنة

(١) الشخص الذى يصلح لتسلية وفائدة الجميع.

الذهب عنه. التمس سانشو من الدوق أن يتركوا له تلك الملابس كي يحملها إلى قريته، إشارة وذكرى لهذا الحدث الذي لم يشهد مثله في البلاد. قالت الدوقة إنهم سيتزكونها له، ألا يعرف كم هي صديقة عظيمة له؟ أمر الدوق بإخلاء الساحة، وأن يلجأ الجميع إلى المخدع، أما دون كيخوتى وسانشو، فأمر بحملهما إلى النوم في طريق يعرفانه بالفعل جيدًا.

الفصل السابعون

الذى يواصل التاسع والستين، وهو عبارة عن أشياء لا احتجاج عليها من أجل إيضاح هذه القصة

نام سانشو تلك الليلة على سرير منخفض ذى عجلات، وفى نفس مخدع دون كيخوتى، أمر كان يريد الاعتذار عنه، لأنه كان يعرف تماماً أن سيده لم يكن ليتركه ينام دون أسئلة، ولم يكن لديه استعداد للكلام الكثير، لأن آلام التعذيب وشيك الانصرام ما زالت حاضرة فى أنحاء جسمه، ولم تترك لسانه حراً، ومر على باله أن النوم فى كوخ وحده أفضل من هذه الغرفة الثرية مع رفيق. تحققت مخاوفه، وتأكدت شكوكه، فلم يكذب سيده يدخل فى سريره حتى قال:

- كيف تبدو لك، سانشو، واقعة هذه الليلة؟ كم هى عظيمة وجبارة قوة الأنفة ضد العشق، كما رأيت بعينيك ألتسيدورا ميتة، وليس بسهام أخرى أو سيف آخر أو أى سلاح غير ذلك من أسلحة الحرب، ولا بسم قاتل، وإنما بمعانها أنفة مقاومة العشق وصرامتها، من جانبى.

أجاب سانشو:

- لئمت هى على الرحب والسعة ما شاء لها الموت، وكيفما شاءت لنفسها الموت، ولتتركنى فى بيتى، فأنا لم أقع فى غرامها، ولم أنف منها طول حياتى. أنا لا أعرف ولا أفهم كيف أن صحة ألتسيدورا، فتاة طائشة أكثر منها ذكية، يمكن أن تكون لها علاقة بتعذيب سانشو بانثا. نعم، الآن أعرف

بوضوح وبشكل مختلف أن هناك سحرة وسحراً في العالم، حررني الله منهم،
لأنى لا أعرف تحرير نفسى بنفسى، ومع كل هذا أتوسل لفخامتكم أن تدعنى
أنام ولا تسألنى أكثر، إذا لم تحب أن ألقى بنفسى من نافذة نحو الأرض.

أجاب دون كيخوتى:

- ثم سانشو صديقى، إذا أتاح لك ذلك شك الدبابيس والقرص وقرع الأنف
الذى وقع.

- لم يصل أى ألم إلى مستوى ألم مواجهة أنفى للقرع، ليس لأى سبب، وإنما لأن
من قام به كانت القهرمانات، ربنا يخرب عقولهن، وأعود للرجاء بأن تتركنى
فخامتكم أنام، لأن النوم راحة من البؤس الذى يعانيه المستيقظون.

قال دون كيخوتى:

- ليكن الأمر كذلك، والله يصحبك.

نام الاثنان، وفى هذا الوقت أراد سيدى حامدى، مؤلف هذه القصة العظيمة،
أن يكتب ويشرح ماذا حرك الدوق والدوقة لنصب مبنى هذه الآلة والملعوب،
ويقول إن البكالوريا شمشون كارأسكو لم يكن لينسى أن فارس المرايا قد انهزم
وسقط على يد دون كيخوتى، وهو سقوط كنسى قد مزق كل نواياه، من ثم أراد أن
يجرب يده، منتظراً فرصة أفضل مثل الفرصة السابقة، وهكذا لم يكذب يتلقى
معلومات من الخادم الذى حمل الخطابات إلى تيريزا بانثا عن مكان دون كيخوتى،
حتى بحث عن أسلحة جديدة وجواد، ووضع على درعه القمر الأبيض، حاملاً كل
شئ فوق بغل يقوده مزارع، وليس تومى ثيئبال خادمه القديم، حتى لا يتعرف
عليه دون كيخوتى وسانشو. ووصل، من ثم، إلى قلعة الدوق، فأخطره بطريق دون

كيخوتى واتجاهه، وأنه فى الطريق إلى مبارزات سرقسطة، وحكى له أيضاً عن الملاعب التى اخترعها له، مع حيلة فك سحر دولثينيا، التى يجب أن تكون على حساب أفاخذ سانشو. وفى النهاية شرح له عن خدعة سانشو لسيدده حين أفهمه أن دولثينيا مسحورة ومتحولة إلى مزارعة، وكيف أن الدوقة أفهمت سانشو أنه هو المخدوع، لأن دولثينيا بالفعل مسحورة، ولم يكن ضحك البكالوريا شمشون من ذلك قليلاً، متأماً فى نكاء سانشو وبساطته، وفى المدى الذى وصل إليه جنون دون كيوخوتى. طلب منه الدوق إذا وجده سواء هزمه أو لم يهزمه، أن يعود إلى القلعة ليخطره بما يحدث، وهكذا فعل شمشون، بعد أن انطلق إلى سرقسطة ولم يجده هناك، فواصل طريقه وحدث ما حدث. عاد إلى قلعة الدوق وحكى له كل شيء، وعن شروط المعركة، وأن دون كيوخوتى فى طريق العودة لإنجاز كلمته بوصفه فارساً مشأً طبيباً بالاعتزال عاماً فى قريته، وخلال هذا الوقت من الممكن أن يشفى، وهذا هو الهدف الذى جعله يتخفى متحولاً إلى فارس المرايا ثم فارس القمر، فقد أحرزه أن يكون أحد الأعيان الأذكيا مثل دون كيوخوتى فى مثل هذه الحال، وبهذا ودع الدوق، وعاد إلى قريته، منتظراً فيها عودة دون كيوخوتى الذى يقدم خلفه. ومن هنا انتهز الدوق هذه الفرصة لعمل خدعة هذا الملعب؛ فقد كانت تطربه غاية الطرب أشياء دون كيوخوتى وسانشو. وهكذا نشر الخدم فى كل الطرق القريبة والبعيدة من القلعة والمحتمل أن يعود منها دون كيوخوتى، وأمرهم بإحضاره برضاه أو عنوة إلى القلعة. أعطوا إخطاراً للدوق، والذى كان معداً سلفاً كل ما ينبغى عمله، وهكذا عندما علم بقدومه أمر بإشعال المشاعل ومصابيح الساحة، ووضع ألتسيدورا فوق هيكل القبر، مع كل التجهيزات التى حكيناها، بكل واقعيته وحسن أدائها، دون أن تفارق الحقيقة إلا بقليل. ويقول سيدى حامدى: بالنسبة له، الخادعون يتساون فى جنونهم مع المخدوعين، وأن الدوق والدوقة لم يكدا يفصلهما

عن عالم (العبط) مسافة إصبعين، وهكذا دون كيخوتى فى فكره الطليق، وسانشو فى نومه الطلق، يفاجآن بالنهار، والرغبة فى النهوض مثل ريش كسول، لا غالب ولا مغلوب، ولا يسر دون كيخوتى مطلقاً بكسله الدعوب.

التسيدورا (فى رأى دون كيخوتى عائدة من الموت إلى الحياة)، متابعة مزاج سيدتها والمزاح، متوجة بنفس الغار الذى كان على رأسها فوق اللحد، مرتدية رداء من التفتنا الأبيض، مبذوراً بزهور من الذهب، وشعرها قد أطلق سراحه على ظهرها، مرتكزة على عكاز أسود من أرقى أنواع الأبنوس، دخلت مخدع دون كيخوتى، الذى كان متعكراً ومتحيراً بسبب حضورها، فانكمش وغطى كل جسمه تقريباً بالملاءات وحشيات السرير، منخرس اللسان، دون أن يصيب فى تقديم أى مجاملة أو تحية لها. جلست ألتسيدورا فى مقعد، قرب رأس سريره، وبعد أن أطلقت تنهيدة عظيمة، قالت له بصوت متراخ رقيق:

- عندما تتعثر النساء الراقيات والصبايا العفيفات بالشرف، ويعطين تصريحاً للسان بأن يدمر كل عقبة، معلناً على الملأ أسرار قلوبهن، فإنهن يجدن أنفسهن فى مضيق حرج. أنا، أيها السيد دون كيخوتى دى لامانشا، واحدة من هؤلاء، مخنوقة، ومغلوبة، وعاشقة، لكن مع هذا، شريفة وأعاني، أعاني كثيراً، ولأنه كثير انفجرت نفسى من الصمت، وفقدت حياتى، كان منذ يومين، عند إحساسى بالأنفة الصارمة التى عاملتنى بها.

أوه، أكثر صلابة هو، من المرمر، إلى شكاتى

أيها الفارس الجلمود، لقد كنت ميتة، أو على الأقل، مظنون أننى ميتة فى حكم كل من رآنى، وإذا لم يكن إله الحب الذى ابتلانى، قد أودع علاجى فى تعذيب هذا الحامل الطيب للدروع، لكنك الآن فى العالم الآخر.

قال سانشو:

- كان أفضل لإله الحب أن يودع علاجك في حمارى، وكنت سأمتن له كثيراً، لكن قولى لى سيدتى، أراح الله قلبك فى حب مع محبوب آخر أكثر حناناً وليئاً من سيدى، ماذا رأيت فى العالم الآخى؟ وماذا يوجد فى الجحيم؟ لأن من يموت بالأس، فلا منزل له، لا بد، إلا الجحيم.

أجاب ألتسيدورا:

- فى الحقيقة، أقول لكما، لا بد أنى لم أمت تماماً، لأنى لم أدخل الجحيم، لأن من يدخل هناك بالفعل لا يستطيع الخروج منه ولو أحب. والحقيقة أنى وصلت إلى الباب، حيث كان يتعابث أكثر من ستة شياطين بلعب الكرة، وكان الجميع يرتدى أحذية تغطى كل الأرجل، وعليهم عباءات، ولهم ياقات وثنيات حول الرقبة والصدر، موشاة فى غرز تطريز هولندى، مع أساور للأكمام من نفس النوع، مع أربعة أصابع تبرز من الذراع، حتى تطول أيادهم للناظر، وبين الأصابع مضارب من النار. وما أثار تعجبى هو أن ما يستعملونه فى لعب الكرة كانت الكتب بدلاً من الكور، وكانت تبدو مليئة بالرياح ووبر الماعز، مشهد عجيب وجديد، لكن هذا لم يدهشنى كثيراً مثل رؤية عكس ما هو طبيعى من أن يفرح من يكسب ويحزن من يخسر؛ لأن الجميع كانوا يدمرون ويتشاجرون ويلعن بعضهم بعضاً.

أجاب سانشو:

- هذا ليس عجيباً؛ لأن الشياطين بين أن يلعبوا أو ألا يلعبوا دائماً، من ثم لا يمكن أن يصلوا إلى الرضا بين أن يستمتعوا أو ألا يستمتعوا.

أجابت ألتسيدورا :

- لا بد أن الأمر يتضح بهذا، لكن هناك شيئاً آخر يدهشني (أحب القول إنه أدهشني حينذاك)، وكان أن أول تطير للكرة، لم تبق معه أية كرة في الأرجل، أو لإعادة القذف مرة أخرى؛ وهكذا كانت كتب جديدة وقديمة تتدفق مكان الكتب المختفية، وكان معجزة. أحد هذه الكتب كان جديداً، وبراقاً، وجيد التجليد، في ركلة له أخرجوا أمعاه، وتبددت صحائفه. قال شيطان للآخر: "انظر أى كتاب ذاك". والشيطان أجابه: "هذا هو القسم الثاني من قصة دون كيخوتي دى لامانشا، غير المؤلف بقلم سيدى حامدى، مؤلفه الأول، وإنما بقلم مؤلف أراجونى، يقول إنه من أهل قرية (تورديسياس)". أجاب الشيطان الآخر: "أبعده عنى من هناك، وألق به فى مهاوى الدرك الأسفل من الجحيم، حتى لا تراه بعد ذلك عيني". أجاب رفيقه: "هل هو بهذا السوء؟" قال الأول: "نعم، حتى إني لو شرعت متمعداً فى كتابته أسوأ ما نجحت". وواصلوا لعبهم متقاذفين كتباً أخرى، وأنا بسبب سماعى ذكر دون كيخوتي، الذى أحبه كثيراً، وأعشقه، حاولت أن يبقى هذا المشهد فى ذاكرتى.

قال دون كيخوتي:

- مشهد صادق، لأنه لا يوجد (أنا) آخر غيرى فى العالم، وبالفعل هذه القصة تسير هنا من يد ليد، دون أن تبقى فى يد، لأن الجميع يركلها بقدمه، وأنا لم أغضب من سماعى أننى أتجول مثل جسم شحى فى غياهب الجحيم، أو فى شفافية الأرض، لأننى لست من تعالجه تلك القصة، وهى إذا كانت جيدة

ومخلصة وحقيقية، سوف تعيش على مر الدهور، لكن إذا كانت سيئة، فمن مهدها للهدم، ولن يكون الطريق طويلاً جداً.

كادت أنتسيدورا تواصل شكاوها من دون كيخوتى، عندما قال دون كيخوتى:

- قلت لك مرات عديدة، يا سيدتى، بأنه يجزئني أنك وجهت مشاعرك نحوى، حيث إن مشاعرى تدين بالعرفان دون القدرة على العلاج، فقد ولدت كى أصير ملك دولتينا دل توبوسو، والأقدار (إذا كانت موجودة) كرسنى من أجلها، والتفكير فى أن أى حسن آخر يمكن أن يحتل المكان الذى تملكه فى النفس هو أمر مستحيل، وهذا إحباط كاف حتى تنسجى إلى داخل حدود شرفك، فلا أحد يستطيع أن يلتزم بالمستحيل.

عند سماع أنتسيدورا هذا، تظاهرت بالغضب والتغير، وقالت:

- يعيش السيد (بكالو)، روح المدق، ونواة البلح، والأكثر عناداً وصلابة من القروى الخسيس، يتوسلون إليه، وهو لا يفهم إلا ما فى رأسه، وإذا هاجمك، فواجبى خلع عينيك! هل تظن بالصدفة، لأنك المهزوم المطحون بضرب النبائيت، أننى مت من أجلك؟ كل ما رأيت هذه الليلة كان مصطنعاً، فأنا لست بالمرأة التى من أجل بعير مثلك تؤلمنى ذرة من ظفر، فضلاً عن أن أموت.

قال سانشو:

- أظن أن هذا طيب جداً، لأن موت العشاق أمر مضحك، إذ يمكنهم قوله بإبداع، لكن فعله؟ فليؤم به يهوذا.

وبينما هم فى هذه الأحاديث دخل المغنى والشاعر، الذى غنى المقطوعتين خلال شعائر إعادة أنتسيدورا للحياة، قال بعد أن انحنى فى احترام كبير لدون كيخوتى:

- فخامتكم أيها السيد الفارس، احسبني وأضفني لقائمة أكبر خدمك، لأنني منذ أيام طويلة أعجبت بك سواء بشهرتك أو بمآثرك.

قال دون كيخوتي:

- قل لي فخامتكم من أنت؟ حتى أجاب مجاملاتك بقدر جدارتك.

أجاب الفتى بأنه الموسيقى والشاعر المداح الذى ظهر فى الليلة الماضية.

أجاب دون كيخوتي:

- يقيناً، إن فخامتكم لك صوت بالغ الحلاوة، لكن ما غنيته لم يكن يوافق المقام، لأنه ما صلة مقطوعة جارثيلاسو بموت هذه السيدة؟

أحاب الموسيقى:

- لا تعجب أيها الفارس من هذا، فأنا من بين الشعراء الجهلة فى عصرنا، الذين تعودوا أن يكتب كل واحد على هواه، ويتحل شعر من يشاء، ناسب أم لم يناسب المقام، ولا يوجد تسفيه لأن يكتبوا أو يغنوا ما لا ينسب لشرعية شعرية.

أراد دون كيخوتي أن يجيب لكن عاقه مجيء الدوق والدوقة، اللذين حضرا لرؤيته، وبينهم دارت دردشة طويلة وحلوة، خلالها قال سانشو طرائف كثيرة وخبائث ليست أقل، حتى إنها تركت الدوق والدوقة من جديد فى عجب جديد، سواء من بساطته أو حدة ذكائه. طلب منهما دون كيخوتي الإذن للرحيل فى نفس هذا اليوم، فالفرسان المهزومون أجدر بهم العيش فى حظائر الخنازير من العيش فى القصور، أعطياه الإذن عن رضا كبير، وسألته الدوقة إذا كانت ستبقى فى تعاستها ألتسيدورا، وهو أجابها:

- سيدتى، لتعلمى فخامتكم أن كل مشكلة هذه الصبية هى فى البطالة، وعلاجها ملء الفراغ فى شرف واجتهاد، هى قالت لى هنا إنهم يطرزون فى الجحيم، من ثم عليها معرفة أشغال التطريز، لا تتركها من يدها، فانشغالها فى تحريك الإبر الخشبية، لن يحرك فى خيالها صورة من تعشقه أو صورته؛ وتلك هى الحقيقة، وهذا رأي ونصيحتى.

أضاف سانشو :

- ونصيحتى أيضاً؛ لأنى لم أر فى حياتى فتاة تطريز تموت من الحب، وعنى أقول، ما دمت أحفر لا أذكر امرأتى، أقصد زوجتى تيريزا بانثا، التى أحبها أكثر من رموش العين.

قالت الدوقة:

- أنت تحسن القول، سانشو، وأنا سأعمل على شغل وصيفتى التسيدورا من الآن فصاعداً فى تأدية أى عمل نظيف، تحسن أداءه إلى أقصى حد.

أجابت التسيدورا:

- لا يوجد سبب لذلك من استعمال هذا العلاج؛ فإن اعتبار قساوة هذا المسخ الشرير سوف يمسه من الذاكرة، دون اللجوء إلى أية حيلة أخرى، ويأذن سموكم أريد الانصراف من هنا حتى لا أرى أمام عيني، لا أقول صورته الحزينة وإنما هيئته القبيحة الشنيعة.

قال الدوق:

- هذا يبدو لى مثل ما اعتادوا قوله:

أن من يطلق الإهانات

قريب من العفو عن المهنات

تظاهرت ألتسيدورا بمسح دموعها بمنديل، وحيث سيديها فى احترام، ثم
خرجت من المخدع.

قال سانشو:

– أشفق عليك، أيتها الصبية المسكينة، أشفق عليك، أقول، يا ذات الحظ السيئ،
فقد وقعت مع نفس من حلفاء، وقلب من خشب البلوط، أقسم لو كنت
فعلت هذا معى لكنت سمعت صياح ديك آخر!

انتهى الحديث، ارتدى دون كيخوتي ملابسسه، وتغدى مع الدوق والدوقة
ورحل فى ذلك المساء.

الفصل الحادى والسبعون

ما حدث لدون كيوخوتى مع خادمه سانشو باتشا فى الطريق لقريتهما

مضى المهزوم والكنيب دون كيوخوتى وقد استبد به الفكر من ناحية، كما ابتهج من ناحية أخرى، سبب كآبته الهزيمة، وبهجته اعتبار فضيلة سانشو، التى أظهرها فى بعث ألتسيدورا، مع بعض الشك فى اقتناعه بأن ألتسيدورا الصبية كانت ميتة بحق. ولم يمض سانشو مبتهجاً فى شىء، لأنه رأى أن ألتسيدورا لم تتجز كلمتها بإعطائه القمصان، ورائحا وآيبا فى هذا قال لسيدة:

- هل فى الحقيقة، يا سيدى أننى أكثر الأطباء تعاسة فى العالم، الذى يحتوى على بعض الأطباء الذين بعد قتل المريض يصرون على قبض أجر عملهم، وهو ليس أكثر من توقيع وصفة مكتوبة لبعض الأدوية، التى لا يعملها هو إنما (الطار)، ثم يتذوق أجره فى الخذاب إلى طعمه؟ وبالنسبة لى، فإن صحة المريض تكلفنى قطرات من دمي، وقرعاً لأنفى، وقرصاً وشكاً بالدبابيس، وجلدًا، ولا أكسب من ورائها شيئاً. من ثم، أقسم أن لو أحضروا بين يديّ أى مريض آخر، فإننى قبل أن أجرى الجراحة له عليهم أولاً مداواة جروحي؛ فالراهب الذى يغنى يجد غداءه، ولا أحب الاعتقاد بأن السماء أعطنى هذه الفضيلة التى أملك، كى أهديها للآخرين مجاًناً! مجاًناً!

أجاب دون كيخوتى:

- معك حق، سانشو صديقى، وقد أخطأت ألتسيدورا كثيراً في أنها لم تعطك القمصان الموعودة، على الرغم من أن فضيلتك من باب العلم الموهوب، فلم تكلفك جهد الدراسة، أكثر من تعلم استقبال تعذيب شخصك. وعنى، أعرف القول لك إذا كنت قد رغبت في دفع جلدك لنفسك لفك سحر دولثينيا، كنت دفعته لك كما تطلبه راضياً، لكنى لا أدرى إذا كان الدفع يناسب العلاج من عدمه، لأنى لا أحب أن تعطل الجائزة الدواء. ومع هذا، يبدو لى، أننا لن نفقد شيئاً في تجريبه، انظر سانشو، لك ما تحب، واجلد نفسك في الحال، وأدفع لك نقداً وبنفس يدك، فمعك نقودى.

ومع هذا العرض فتح سانشو عينيه وأذنيه شبراً كاملاً، وقدم موافقة داخل قلبه لأن يجلد نفسه بكل رضا، وقال لسيدته:

- الآن طيب، يا سيدى، أود وضع نفسى لإرضاء فخامتكم فيما ترغب، لمصلحتى، ثم إن حى لأولادى ولزوجتى يجعلنى راغباً في ذلك، قل لى فخامتكم كم ستدفع مقابل كل جلدة أسوط بها نفسى؟

أجاب دون كيخوتى:

- إذا كان على أن أدفع لك، سانشو، طبقاً لما تساويه عظمة هذا الدواء وقوته، فإن كنز فينسيا، ومناجم بوتوسى، ستكون قليلة لتعويضك، تحسس أنت ما لديك من نقودى، وضع سعر كل جلدة.

أجاب سانشو:

- هى ثلاثة آلاف وثلاثئة جلدة، وقد جلدت نفسى حتى خمس جلدات، ويبقى ما تبقى، ويدخل في هذا الرقم هذه الجلدات الخمس، ولنتحدث، إذن، عن

ثلاثة الآلاف وثلاثمئة؛ كل واحدة منها مقابل ربع ريال (ولن أقبل بأقل، حتى لو وصّاني كل العالم بذلك)، فيكون المجموع ثلاثة آلاف وثلاثمئة ربع ريال، وثلاثة الآلاف تجمع ألفًا وخمسمئة نصف ريال، وهذه تعمل سبعمئة وخمسين ريالاً، والثلاثمئة تعمل مئة وخمسين نصف ريال، وهذه تعمل خمس وسبعين ريالاً، وبجمع سبعمئة وخمسين مع خمسة وسبعين، تصبح ثمانمئة وخمسة وعشرين ريالاً. سأخصم هذه الكمية مما أحمله من نقود فخامتكم، وسأدخل بيتي غنياً وراضياً، حتى لو كنت مجلوداً جلدًا حسنًا؛ لأنه لن يصيد السمك من لم يدلّ الشبك، ولا أقول أكثر!

أجاب دون كيخوتي:

- أوه، سانشو المبارك! أوه سانشو الودود، وكم نحن مجبرون على إنقاذ دولشينا، وأنا على خدمتك كل الأيام التي ستمنحني إياها السماء في الحياة! إذا هي عادت إلى كينونتها المفقودة (وليس ممكناً إلا أن تعود) سيتحول بؤسها إلى سعادة، وهزيمتي إلى انتصار بهيج وسعيد، وانظر، سانشو، متى تحب أن تبدأ العقاب، لأنه إذا تعجلت تنفيذه أضفت لك مئة ريال.

أجاب سانشو:

- في هذه الليلة نفسها دون تأخير، وحاول فخامتكم أن نفعل ذلك في العراء، تحت سماء مفتوحة أفتح لها لحمي.

وصل الليل المنتظر بأعلى الأشواق في قلب دون كيخوتي، وخلال النهار بدا له أن عجلات عربة (أبولو) قد أصابها العطب، وأن اليوم يطول أكثر من المعتاد، وهذا يحدث تمامًا مع العشاق الذين لا يستطيعون أن يضبطوا حسابهم أبدًا على إيقاع مشاعرهم وרגائبهم. وأخيرًا دخلوا وسط أشجار فينانة، كانت منحرفة

قليلاً عن الطريق، حيث تركا بردعة الحمار وسرجه وروثينانتي مهجورين؛ افترشا الحشائش الخضراء وتعيشيا من تموين سانشو، الذى صنع من شكيمة رأس الحمار سوطاً جباراً مرناً؛ وهكذا ابتعد حوالى عشرين خطوة عن سيده، داخل أكمة من أشجار الدردار. دون كيخوتى، الذى رآه يذهب فى شجاعة وبريق، قال له:

- انظر، صديقى، لا تمزق نفسك، أعط مكاناً أن تنتظر بعض الجلدات أخواتها الأخرى، ولا ترغب فى الإسراع بالسباق، حتى لا تتوقف أنفاسك فى منتصفه، أحب القول، لا تضرب نفسك فى غلظة، حتى لا تعدم الحياة قبل إدراك الرقم المرغوب. وحتى لا نضل فى العدد سواء بالنقص أو الزيادة، فإني سأقف جانباً أعد الجلدات التى تسوط بها نفسك مستعملاً هذه المسبحة، ناصرتك السماء طبقاً لحسن نيتك.

أجاب سانشو:

- المشتري الجيد لا يغلو عليه الغالى، أحب أن أجلد نفسي دون قتلى، بطريقة تؤلنى، وفى هذا لا بد أن يتركز حكم هذه المعجزة.

تعرى سانشو على ملاً من فراغ الريف، كاشفاً عن النصف الأعلى من جسمه، وتلقف الحبل، وبدأ يضرب نفسه، وبدأ دون كيخوتى فى العد. وما إن ضرب نفسه ست جلدات أو ثمان، حتى أحس بوطأة الخدعة وضائلة شعر الجلدة، ومتوقفاً قليلاً قال لسيدته إن هذا يسمى خداعاً، لأن كل جلدة من هذه تستحق نصف ريال، وليس ربعاً. قال دون كيخوتى:

- واصل سانشو صديقى، ولا يغم عليك، فإني أضعف قيمة السعر.

لكن الخبيث توقف عن ضرب نفسه، وبدأ فى سوط الشجر مع بعض التهديدات بين الحين والحين، حتى بدا أنه مع كل تنهيد أن الروح تنتزع من بدنه،

وكانت نفس دون كيخوتى حنونة، خائفاً من أن تنتهى حياته قبل أن ينجز
المرغوب، بسبب انعدام فطنة سانشو، قال له:

– بحق حياتك، صديقى، ليقف هذا الشأن عند هذا، ويبدو لى أن هذا العلاج فى
غاية الخشونة، ومن الطيب إعطاء وقت للوقت، فلم تكسب ثامورا (كل
البضاعة) فى ساعة. أكثر من ألف جلدة، إذا لم أكن قد أخطأت فى العدد، قد
أنزلتها على جسمك، وهى تكفى الآن، فإن الحمار (ولتكلم بالبلدى) الذى
يعانى من الحمولة، تقطم ظهره قشة.

أجاب سانشو:

– لا، لا، يا سيدى، لا تتكلم بالنيابة عنى، لأن "مقابل المال المدفوع فلا بأس من
ساعد مقطوع". ابتعد فخامتكم قليلاً بعيداً، واتركنى أضرب نفسى ولو حتى
الألف الثانية، فنوبتين فوق هذه النوبة نكون قد أكملنا دور اللعب،
وسيفيض بعض الملابس.

قال دون كيخوتى:

– إذن، أنت تجمد نفسك جيد الاستعداد، ساعدك الله، واضرب نفسك، وأنا
سأبتعد.

عاد سانشو إلى مهمته مع حماس كبير، حتى إنه قد سلخ قلف أشجار عديدة،
وكانت صرامة جلده لنفسه قد بلغت هذا الحد، ورافعاً مرة الصوت، منزلاً جلدة
هائلة على شجرة دردار، قال :

- هنا سوف تموت (أيها القديس الرنين)^(٦)، وكل من معك من المرثين!

هرع دون كيخوتى فى الحال على رنين الصوت الجريح، ولضربة السوط المحكمة، وأمسك قيد الحمار المتحول إلى سوط معقود، وقال لسانشو:

- لن يسمح القدر، سانشو صديقى، أن تفقد حياتك لإسعادى، فهى لا بد أن تدوم من أجل زوجتك وأولادك، فلتنتظر دولثينيا فرصة أفضل؛ وأنا أكتفى بالأمل القريب، وسأنتظر حتى تستعيد قوى جديدة، حتى ينتهى هذا الشأن بسعادة الجميع.

أجاب سانشو:

- إذن، يا سيدى، ما تحبه سيكون، وعلى الرحب والسعة، وغطنى بعباءتك، ملقياً بها على هذا الظهر، فإنى أعرق، ولا أحب أن آخذ برد؛ فالمعذبون المستجدون يرون بهذا الخطر.

وهكذا فعل دون كيخوتى، وأحكم لباس سانشو العريان وغطاءه، والذى نام حتى أيقظته الشمس، وبعدها مضيا يتقدمان فى طريقهما، والذى قطعاه بوصولهما إلى قرية كانت على بعد ثلاثة فراسخ من مكان الجلد. وترجلا فى فندق صغير، وقد تعرف دون كيخوتى على أنه فندق، وليس قلعة ذات كهف عميق أو سلم متحرك يرفع وينصب؛ فبعد أن هزموه، كان عقله أرجح فى كل الأشياء التى يراها، كما سيقال الآن. أسكنوه فى صالة أرضية، كان معلقاً على جدرانها أنواع من البساط، مليئة بالرسومات كعادة أهل الريف، وعلى بساط منها كان مرسوماً بيد رسام ردىء واقعة اختطاف إيلينا، عندما حملها الضيف الجرىء إلى (مينيلاو)،

(٦) الاسم الذى أطلقاه على البكالوريا شمشون!

وعلى آخر كان مرسومًا قصة (ديدو) وقصة (إينياس)، هي فوق برج عال، كما لو كانت تعطى إشارات بما يشبه نصف ملاءة فراش إلى الضيف الهارب، الذى واصل هروبه بحرًا فى فرقاطة أو مركب شراعية. لاحظ فى القصتين، أن (إيلينا) لم تكن مخطوفة بمزاج متعكر كثيرًا؛ لأنها كانت تضحك مخفية شيئًا، وفى دهاء ساخر، لكن الجميلة (ديدو)، ظهرت بدموع فى حجم البندق فى عينيها، وعندما رأى هذا دون كيوخوتى، قال:

- هاتان السيدتان كانتا فى غاية التعاسة لولادتهما فى زمانهما، وأنا فى غاية التعاسة لعدم ميلادى فيه، فلو لاقيت هؤلاء السادة ما احترقت طرودة وما دمرت قرطاجنة، فقط بقتلى باريس كانت اختفت نكبات كثيرة.

قال سانشو:

- أنا أراهن أن فى تلك الأزمان القديمة لم تكن هناك حانات، ولا شىء مثل النزل والفندق اليوم، أيضًا لم تكن هناك دكاكين للحلاقين، حيث لا تنتشر قصة مآثرنا مرسومة، ولكنى أود أن ترسم بيد فنان أفضل من الرسام الذى رسم تلك القصص.

قال دون كيوخوتى:

- معك حق، سانشو، لأن هذا الرسام مثل (أوربانيخا)، وهو رسام كان فى (أوبيدا)، عندما سألوه ماذا يرسم، أجاب: "ما يخرج"، وإذا كان يرسم بالصدفة ديكًا كان يكتب تحته: "هذا ديك"؛ حتى لا يفكروا أنه أنثى ثعلب. بهذه الطريقة، يبدو لى سانشو، أن الرسام أو الكاتب (وكلاهما شىء واحد) الذى أخرج إلى النور قصة هذا الدون كيوخوتى الجديد، قد رسم "ما يخرج"، أو قد يكون مثل الشاعر الذى كان فى البلاط واسمه (ماوليون)، الذى كان يجب فجأة على كل ما يسألونه، وعندما سأله أحدهم ماذا يعنى Deum de

Deo أجاب (من أين يعطى). لكن لنترك هذا جانباً، قل إذا كنت تفكر في جلد نفسك سانشو، في نوبة جديدة، وهل تحب أن يكون ذلك تحت سقف أو في العراء؟

أجاب سانشو:

– بحق الله، سيدي، هذا أفضل في البيت عنه في العراء، ورغم كل ذلك فإني أحب أن يكون بين الشجر، حيث يبدو لي إن الأشجار ترافقني وتساعدني على أداء عملي بشكل عجيب.

أجاب دون كيخوتي:

– إذن، لا ينبغي أن يكون الأمر كذلك، وإنما، من أجل أن تستعيد القوة، علينا تأجيل الباقي لإنجازه في قريتنا، التي سنصل إليها بعد غد على أكثر تأخير.

قال سانشو إنه سيستجيب لهوى سيده، لكنه يود أن ينهي في وقت قصير ذلك الشأن، بتأكيد حر وقبل أن تبرد أحجار الطاحونة، لأن في التأخير اعتاد أن يكمن في أحيان كثيرة الخطر، أدعو الله أن يوفق وأنت بالمطرقة تطرق، ويساوي أكثر "أخذ واحد" من "سوف أعطيك اثنين"، وعصفور في اليد خير من نسر في الجو.

قال دون كيخوتي:

– لا أمثال أكثر، سانشو، لأنه يبدو لي أنك تعود كما كنت من قبل، فتكلم كلاماً سهلاً ناعم الانزلاق، دون تعقيد وتشبيك، كما قلت لك مرات كثيرة؛ وسوف ترى أن رغيماً واحداً سوف يساوي مئة.

أجاب سانشو:

– لا أدرى أى حظ مائل كان حظي، لا أستطيع أن أقول عبارة دون مثل، ولا أرى مثلاً وإلا ويبدو عبارة، لكني سأصلح من شأني لو أستطيع.

وعند هذا توقف حديثهما في ذلك الحين.

الفصل الثانی والسبعون

عن كيف وصل دون كيوخوتى وسانشو إلى القرية

خلال كل ذلك اليوم، انتظر دون كيوخوتى وسانشو الليل فى ذلك الفندق الصغير، أحدهما كى ينهى فى العراء تحت سقف السماء نوبة تعذيب نفسه، والآخر كى يرى نهايتها، التى تتركز حولها مشاعره. وصل خلال الانتظار إلى الفندق أحد المسافرين فوق جواد، مع ثلاثة خدم أو أربعة، قال أحدهم لمن كان يبدو عليه أنه سيدهم:

- هنا يمكن لفخامتكم، أيها السيد دون أبارو تارفي، أن تقضى فترة القيلولة، فالفندق يبدو نظيفاً ومنعشاً.

وعند سماع دون كيوخوتى هذا قال لسانشو:

- عندما تصفحت ذلك الكتاب الخاص بالقسم الثانى من قصتى، يبدو لى أن عيني عبرت هذا الاسم.

أجاب سانشو:

- من الممكن تمامًا أن يكون هو هو، لندعه يترجل ثم نسأله.

ترجل الفارس، وفى مواجهة مخدع دون كيوخوتى أعطاه الفندقى صالة أرضية مزينة بأبسطة أخرى مرسومة مثل غرفة دون كيوخوتى. بقى القادم الجديد بملابس صيفية، وخرج إلى بوابة الفندق، وكان المدخل متسعاً ومنعشاً، حيث كان دون كيوخوتى يتمشى، فسأل الفارس دون كيوخوتى:

- إلى أين تقصد أيها السيد المهذب؟

أجاب دون كيخوتي:

- إلى قرية قريبة جداً، أنا أحد أبنائها، وإلى أين تقصد فخامتكم؟

أجاب الفارس:

- أنا يا سيدي ذاهب لغرناطة، فهي موطني.

أجاب دون كيخوتي:

- أحسن بما من موطن، لكن قل لي فخامتكم، قديماً منكم، اسمك؛ لأنه يبدو لي

أنه سيهمني معرفته أكثر مما تقدر الكلمات على إيضاحه.

أجاب الضيف:

- اسمي دون ألبارو تارفي.

وعلى هذا أجاب دون كيخوتي:

- يقيناً إن فخامتكم لا بد أن تكون دون ألبارو تارفي الذي يمضي مطبوعاً في

الجزء الثاني لقصة دون كيخوتي دي لامانشا، الحديثة الطبع والخروج للنور

على يد مؤلف حديث.

أجاب الفارس:

- إنني نفس الشخص، وذلك الدون كيخوتي الشخصية الرئيسية في تلك

القصة، كان صديقاً حميماً جداً لي، وكنت أنا من أخرجه من قريته، أو على

الأقل، حفزته على حضور بعض المبارزات في سرقسطة، حيث كنت في

طريق السفر إليها، وفي الحقيقة لقد صنعت من أجله الكثير مما يصنعونه لأصدقائهم، ولقد أنقذته من يد جلاد كان سينفذ حكمًا بجلده على ظهره، بسبب قهوره الزائد عن حد المعقول.

– قل لي، دون البارو هل أشبهه في شيء ذلك الدون كيخوتى الذى تحكى عنه؟

أجاب الضيف :

– لا، بكل تأكيد.

قال دون كيخوتى (صاحبنا):

– وهذا الدون كيخوتى، كان يحمل معه حامل دروع اسمه سانشو بانثا؟

أجاب دون ألبارو:

– نعم؛ ومع أنه مشهور بالملاحه، لم أسمع من فمه أملوحة واحده قط.

هنا قال سانشو بانثا:

– هذا ما أعتقده أنا كثيرا؛ لأن قول كلام ظريف ومليح ليس في مقدرة الجميع،

وذلك السانشو الذى تتحدث عنه فخامتكم، أيها السيد المهذب، يجب أن

يكون محتالاً عظيماً، وبارداً سمجاً، ولصاً في نفس الوقت، فسانشو بانثا

الحقيقى هو أنا، ولطفى وملاحتى مثل المطر، وإذا لم تصدق جرب بنفسك

وامش ورائى، على الأقل لمدة عام، وسترى أن طرائفى تتساقط منى في كل

خطوة، وهذه الطرائف، والكثيرة، ودون أن أعرف أنا في أغلب الأحيان ما

أقول، تجعلنى أجعل الناس يضحكون في كل مرة يسمعونى، ودون كيخوتى

دى لامانشا الحقيقى، والمشهور، والشجاع، والذكى، والعاشق، والمزبل

العدوان، وحمى الطلاب واليتامى، ومأوى الآرامل، وقاتل الصبايا، والذى لا يخلص إلا لسيدة وحيدة هي دولثينيا دل توبوسو، هو هذا السيد الموجود الآن، والذى هو سيدى، وأى دون كيوخوتى آخر أو سانشو باننا آخر هو مسخرة، وأوهام أحلام.

أجاب دون ألبارو:

- بحق الله، هذا أصدق، لأنك فى أربع عبارات خرجت منك طرائف أكثر مما سمعت طول أمد بعيد من كلام سانشو الآخر، وكان كلامه كثيرًا، وكنت أرى فيه أكلًا أكثر منه متحدًا ظريفًا، وسفيها أكثر منه مليحًا، وأيضًا لا أشك أن السحرة الذين يطاردون دون كيوخوتى الطيب، قد طاردوني مع دون كيوخوتى الشرير. لكن لا أدري ماذا أقول، وأجسر على القسم أننى تركته مودعًا فى بيت للمجانين بطليطة، حتى يشفونه، والآن ينشق دون كيوخوتى آخر، وإن كان مختلفًا كثيرًا عن دون كيوخوتى الخاص بى.

قال دون كيوخوتى:

- أنا لا أعرف إذا كنت طيبًا، لكن أعرف أن أقول بأننى لست الشرير، والدليل على ذلك أحب أن تعرف فخامتكم، سيدى دون ألبارو، أننى فى كل أيام حياتى لم أذهب إلى سرقسطة، وذلك قبل أن تقول لى إن ذلك الدون كيوخوتى الشبح قد وجد فى مسابقات المبارزة فى تلك المدينة، فلم أرغب دخولها حتى أعرض جهارًا أمام لى العالم كذبتة، وهكذا توجهت مباشرة إلى برشلونة، أرشيف الذوق والتهذيب، وملاذ الغرباء، ومضيقة الفقراء، ووطن الشجعان، وثأر المقهورين، والتجاوب اللطيف للصدقات، أما فى الموقع

والجمال فهي وحيدة. ومع أن الحوادث التي وقعت لي فيها لم تكن سارة كثيراً، وإنما ذات أحزان ثقيلة، فإنني أتحمّلها بعيداً عنها مقابل أنني رأيتها. أخيراً، أيها السيد دون (ألبارو تارفي)، أنا دون كيخوتي دي لامانشا، نفس الذي تحكيه الشهرة، وليس ذلك الشقى الذي أراد انتحال اسمي، والتشرف بالمعيتي، وأنا أتوسل لفخامتكم، مع كل احترامي، أن تعمل إقراراً أمام عمدة هذه القرية، أن فخامتكم لم يسبق لكم رؤيتي طول أيام حياتكم، قبل الآن، وأني لست الدون كيخوتي المطبوع في القسم الثاني، ولا سانشو بانثا هذا خادمي هو نفس سانشو الذي عرفته فخامتكم.

أجاب دون ألبارو:

– سأقوم بهذا في ترحيب وسرور، مع أنه من المدهش وجود اثنين دون كيخوتي، واثنين سانشو في نفس الوقت، وبكل هذا التوافق في الأسماء والتخالف في الأفعال، وأعود للقول وأؤكد أنني لم أر ما رأيت، وأني لم يجز لي ما جرى لي.

قال سانشو:

– بدون شك إن فخامتكم لا بد أن يكون مسحوراً مثل السيدة دولثينيا دل توبوسو، وأصلي للسما أن يكون فك سحر فخامتكم بجلدي مرة أخرى ثلاثة آلاف وثلاثمئة جلدة، التي أقوم الآن بإنجازها بنفسى من أجلها، وهذا أفعله دون أي غرض شخصي.

قال دون ألبارو:

– أنا لا أفهم الجلد هذا.

أجابه سانشو إنه تطول حكايته، لكنه سيحكىه إذا تشاركوا في نفس الطريق بعد ترك الفندق. وخلال هذا حانت ساعة الغداء؛ فأكل دون كيخوتى ودون ألبارو معاً، وتصادف الطعام مع قدوم عمدة القرية إلى الفندق مع كاتب رسمي، وأمام هذا العمدة طلب دون كيخوتى بناء على بلاغ منه أن حقه يستدعى أن دون ألبارو تارفى ذلك الفارس الذى كان مائلاً هناك أمامه، يقر فى حضرته أنه لم يعرف دون كيخوتى دى لامانشا والذى كان مائلاً هناك أيضاً، وأنه لم يكن ذلك الذى يسير مطبوعاً فى قصة عنوانها "القسم الثاني من دون كيخوتى دى لامانشا"، والمؤلفة على يد شخص اسمه إيبانيدا، من سكان قرية تورديسياس. أخيراً اعتمد العمدة الإقرار بالطريقة القانونية، حتى ينال كل صلاحيات مثل هذه الوثيقة، وبهذا بقى دون كيخوتى وسانشو فى غاية الابتهاج، كما لو كان يههما كثيراً مثل هذا الإقرار، وعدم الخلط بين الاثنين دون كيخوتى والاثنين سانشو أعمالاً وأقوالاً. تبادل كل من دون كيخوتى ودون ألبارو كثيراً من المجاملات، أبرز خلالها الفارس المانشاوى فطنته وذكائه، حتى أحبط دون ألبارو تارفى من الخطأ الذى كان واقعاً فيه، مما جعله يظن أنه كان مسحوراً دون جدال، حيث كان يلمس بيده اثنين من الكيخوتات بكل هذا التقابل والتناقض.

وصل المساء، ورحلوا عن تلك القرية، وعلى بعد نصف فرسخ اختلف اتجاههما فانفصلا فى طريقين، أحدهما يقود إلى قرية دون كيخوتى، والآخر الطريق الذى كان لا بد أن يسلكه دون ألبارو، وخلال هذه المسافة القصيرة حكى دون كيخوتى نكبة هزيمته، وسحر دولثينيا وعلاجها، وكل هذا أعاد دون ألبارو إلى التعجب من جديد. عند المفترق، احتضن دون ألبارو كلاً من دون كيخوتى وسانشو، وواصل طريقه، كما فعل دون كيخوتى. قضيا هذه الليلة فى العراء وسط بعض الأشجار، لإفساح الفرصة لسانشو لإنجاز عقوبته، وأكملها بالفعل بنفس

طريقته الليلة الماضية على حساب قشور جذوع شجر الدردار، والتي فاض بها العذاب دون ظهر سانشو، الذي حافظ عليه كثيرًا، فلم تتل الجلدات منه حجم ذبابة، حتى لو وقعت عليه. لم يفت المخدوع دون كيخوتى عدُّ ضربة واحدة خلال حسابها؛ فوجد بجمع حصيلة الليلة مع الليلة الماضية يصير المجلود ثلاثة آلاف وتسعًا وعشرين. ويبدو أن الشمس قد استيقظت مبكرة لترى التضحية والضحية، وعلى ضوئها واصلا الطريق، متحدثين عن خداع دون ألبارو، وعن حسن تصرفهما بالحصول على إقرار أمام العدالة وبكل تلك الأصالة.

ذلك اليوم وتلك الليلة واصلا الطريق دون أن يحدث لهما شيء جدير بالحكاية، سوى إكمال سانشو لمهمته، مما جعل دون كيخوتى فى غاية السرور، منتظرًا قدوم النهار، فلعله يعثر فى الطريق على دولثينيا التى تم فك سحرها، ومع مواصلة الطريق لم يصادف أى امرأة، يحاول أن يتعرف فى وجهها على دولثينيا دل توبوسو، واثقًا دون شك أن ميرلين لا يمكن أن يكذب، وبهذه الأفكار وغيرها صعدا طريقًا يعلو تلاً، من فوقه اكتشفا قريتهما، ولم يكد سانشو يراها حتى ركع على ركبتيه وقال:

– أيها الوطن المحبوب، افتح عينيك، وانظر سانشو بانثا ابنك يعود إليك، وإن لم يكن غنيًا جدًّا، فهو قد تم جلده جدًّا. افتح أيضًا أيها الوطن ذراعيك واستقبل ابنك دون كيخوتى، وإن كان يأتى مهزومًا على يد غريب، فهو أيضًا يأتى منتصرًا على نفسه، حسبما قال لى هو بنفسه، وهذا أكبر انتصار يمكن الطموح إليه. نقود، نعم، أحمل، لأنهم "وإن كانوا جلدوني جيدًا، فإنى الفارس المغوار يعود فوق الحمار"^(٦).

(٦) أصل هذه العبارة أن من تنفذ عليهم عقوبة الجلد كان يزفونهم على حمار للتشهير بهم، وسانشو، فى شيء من الخبث يريد بها حرفية العبارة، التى ترجمناها فى صياغة مختلفة عن نفس ترجمتها فى الفصل (٣٦) من هذا القسم للسباق!

قال دون كيخوتي:

- دعك من هذه السفاهات، وهيا ندخل قريتنا بالقدم اليمنى، حيث نحول خيالنا إلى أرض حرام، ومعها تدبير أمر ممارسة حياتنا الرعوية. وبهذا هبطا المنحدر (بعد صعود التل من الناحية المقابلة) وذهبا إلى قريتهما.

الفصل الثالث والسبعون

التطير الذى أصاب دون كيوخوتى عند دخول القرية، مع حوادث أخرى تزين وتعطى مصداقية لهذه القصة العظيمة

حسبما يقول سيدي حامدى، عند دخول القرية وجدا طفلين يتشاجران عند
أجران القرية، قال أحدهما للآخر:

- لا تتعب نفسك، بيريكيو، فلن تراها طول أيام حياتك.

سمعه دون كيوخوتى، وقال:

- سانشو ألا تدرك، أيها الصديق، ما قاله هذا الطفل: "لن تراها طول أيام
حياتك"؟

أجاب سانشو:

- وماذا يهم ما قاله هذا الطفل؟

أجاب دون كيوخوتى:

- ألا ترى أنه بتطبيق هذه العبارة على مقصودى، فإنها تعنى أنى لن أرى دولثينيا
أبدًا بعد ذلك؟

أراد سانشو أن يجيبه، عندما عاقلته رؤية أرنب برى يأتى فى هذا الفضاء العراء، مطارداً بكلاب صيد كثيرة وصيادين، والذي من خوفه جاء للانكماش تحت أقدام حمار سانشو. التقطه سانشو بهدوء، وقدمه لدون كيخوتى الذى كان يردد:

، أرنب برى يهرب، كلب صيد يطارده، دولثينيا لا تظهر.

Malum (*) - Signum, Malum Signum

قال سانشو:

- أمر فخامتكم غريب، لنفترض أن هذا الأرنب هو دولثينيا دل توبوسو، وكلاب الصيد هذه التى تطاردها هم السحرة الأشرار الذين حولوها إلى فلاحه، وهى قُرب، وأنا ألتقطها، وأضعها بين يديك، وهى أنت تأخذها بين ذراعيك، وتدللها، أى بشرى شر وفأل سوء فى هذا؟

اقترب الطفلان المتشاجران ليريا الأرنب، وسأل سانشو أحدهما لماذا يتشاجران؟ أجيب عن طريق من قال "لن تراها طوال أيام حياتك"، إنه أخذ من الطفل الآخر شبكة صيد الجندج^(*)، ويفكر فى ألا يعيدها إليه طول أيام الحياة. أخرج سانشو من كيسه أربعة أرباع ريال، وأعطاهما للطفل نظير الشبكة، ووضع الشبكة فى يد دون كيخوتى، وقال له:

- هاهى يا سيدى التطيرات ممزقة ومدمرة، ولا علاقة لها الآن أكثر من ذلك بحياتنا، وذلك حسبما أتصور، مع أننى عبيط، أمّا راحت مع سحابات العام

(*) لا تبنى يريد القول: بشرى سوء، بشرى سوء.

(**) النص الأصلي يقول (قفص جد جد)، ولأن القفص منكر ويفسد السياق فقد تم التصرف.

الماضى. وإذا لم أسى التذكر، فإنى سمعت قسيس قريتنا يقول إنه ليس من شأن الأشخاص المؤمنين والعقلاء إعطاء اعتبار لهذه الصبيانيات، وحتى فخامتكم بنفسك قلت لى نفس الشىء فى الأيام الماضىة، إن كل مسيحي يعتد بالتطير يعد عيباً، وبالتالي فليس علينا اللجاج فى هذا، وإنما علينا التقدم ودخول قريتنا.

وصل الصيادون، وطلبوا أرنهيم، وأعطاه لهم دون كيخوتى، وتقدما، وعند مدخل القرية صادفوا القسيس فى مرج صغير مع البكالوريا كارأسكو يصليان. وجدير بنا معرفة أن سانشو باننا طرح فوق الحمار، وفوق لفة الأسلحة، العبادة المزيئة بألسنة اللهب، والنى لبسها فى قلعة الدوق الليلة التى عادت ألتسيدورا فيها للحياة، كى يستخدمها مخزناً لتموينه. أيضاً أراح الزعبوط فوق رأس الحمار، وكان هذا تحولاً جديداً وزينة، لم ير فى مثلها قط أى حمار فى العالم.

وفى الحال تعرف القسيس والبكالوريا كارأسكو عليهما، واتجها نحوهما بذراعين مفتوحين. ترجل دون كيخوتى واحتضنهما فى حرارة، والصبيان بحدة بصرهم النى لا علاج لها لمحووا زعبوط الحمار، فتجمعوا لمشاهدته، وكان أحدهم يقول للأخر:

- تعال، وسوف ترى حمار سانشو باننا "أكثر أناقة من منجو"، ودابة دون كيخوتى أكثر نخافة اليوم عن أيامها الأولى.

وأخيراً، محاطين بالصبيية ومصحوبين بالقسيس والبكالوريا، دخلا القرية، واتجه الجميع إلى بيت دون كيخوتى، فوجدوا على بابه الأمة وابنة الأخت، اللتين قد وصل إلى مسامعها خبر وصولهما، أيضاً وصلت الأخبار إلى تيريزا باننا زوجة سانشو، والنى شعثناء الشعر نصف عارية ممسكة فى يدها سانشيكا ابنتها

هرعت إلى بيت دون كيخوتى لرؤية زوجها، ولما رأته ليس حسن الهمد كما ظنت ما تكون عليه صورة الحكام، قالت له:

- كيف تحضر هكذا، يا زوجى، فالظاهر أنك قادم على قدميك ومترجلاً، وهيتك هيئة المخلوع من الحكم أكثر من هيئة حاكم.

أجاب سانشو:

- اسكتى، تيريزا، فمرات كثيرة يسلكون أسنهم دون امتلاك اللحم والشحم، وهيا إلى بيتنا، وهناك سأسمعك عجائب. النقود، نعم، أحمل منها الكثير، وهذا ما يهم، وقد كسبتها بجيلى، دون أذى لأحد.

قالت تيريزا:

- هات نقوداً، ولنكن كسبتها من هنا أو من هناك، أو بأى شكل كان كسبتها، فليس فى هذا اختراع لعادة جديدة فى العالم.

احتضنت سانشيكا أباهما، وسألته عما إذا كان قد حمل لها شيئاً، فكد كانت تنتظر قدومه انتظارهم لأمطار مايو، وممسكاً لها من حزامها، وزوجته من يدها، ساحبة الابنة الحمار خلفها، ذهبوا لبيتهم، تاركين دون كيخوتى فى بيته، تحت سلطة الأمة وابنة الأخت، وفى صحبة القسيس والبيكالوريا كارأسكو.

دون كيخوتى، دون نظر للساعة أو الظروف، انفرد فى تلك اللحظة بالاثنين، وفى عبارات قليلة حكى لهما عن هزيمته، والواجب الذى التزم به من عدم الخروج من القرية عامًا كاملاً، وهو أمر سوف ينفذه حرفياً، دون انتقاص ذرة، بوصفه فارساً مشاء، مجبراً طبقاً لانبضباط نظام الفروسية المشاءة، وقد فكر فى أن يصير راعياً ذلك العام، والتسلى بالوحدة فى فضاء الريف، حيث إن وجوده

مطلق السراح يمكن أن ينتشله من مشاعره الغرامية وأفكارها، ممارسًا ذلك العمل الرعوى وفضائله، وأنه يتوسل إليهما، إن لم يكن لديهما الكثير لعمله، ومقيدين بأعمال أكثر أهمية، أن يرغب في أن يكونا رفيقيه، فهو سيشتري ناعجًا، وقطيعةً كافيةً، ويعطيها أسماء رعاة، وأن عليهما أن يعرفا أن الشيء الأكثر جوهرياً في هذا الشأن قد أنجز بالفعل، لأنه لديه أسماؤهم موضوعة على يديه، وهى على المقاس. طلب منه القسيس أن يقول لهما الأسماء، أجاب دون كيخوتى إنه عليه أن يحمل اسم كيخوتيث، والبيكالوريا، الراعى كارأسكون، والقسيس الراعى كورامبرو (قسيسامبرو)؛ وسانشو بانثا الراعى بانثينو. ذهلوا جميعاً عند رؤية الجنون الجديد لدون كيخوتى، ولكن حيث إنه لن يرحل عنهم مرة أخرى من القرية لممارسة فروسيته، أملين شفاؤه خلال ذلك العام، وافقوا على مقاصده الجديدة، وأجازوا جنونه فى ثوبه الذكى، عارضين مرافقته فى هذا العمل الجديد.

قال شمشون كارأسكو:

- وأكثر، كما يعرف الجميع، فأنا شاعر مشهور، وفى كل خطوة سوف أنظم شعراً رعوياً أو بلاطياً أو كما يمر بخاطرى، حتى نتسلى فى هذه المجاهل التى سوف نتحرك فيها، والذى هو أكثر ضرورة، سادتى، هو أن يختار كل واحد فينا اسم الراعية التى يفكر فى الاحتفاظ بها فى شعره، وألا نترك جذع شجرة، مهما بلغت صلابته، إلا ونعنونه، ونحفر عليه اسمها، كما هى العادة والعرف بين الرعاة العشاق.

أجاب دون كيخوتى :

- هذا كلام فى مكانه، رغم أننى متحرر من البحث عن اسم راعية مصطنعة، فهى هى هناك من لا نظير لها دولثينيا دل توبوسو، مجد هذه الشيطان، وزينة هذه

المروج ذات الألوان، وغذاء الجمال في إحسان، وزبدة الملاحظة على مر الزمان،
وفي الآخر، هي مدار الشاء مهما كان فيه من مبالغة، ولو في عنفوان.

قال القسيس :

- هذا حق، لكننا سوف نبحث هناك عن راعيات أليفات، إذا لم يوافقونا لن
يخذلونا.

وأضاف شمشون كاراسكو لهذا:

- وإذا افتقدناهن نعطينهن أسماء الراعيات المطبوعة في الصور، والتي يمتلئ بهن
العالم: فيلداس، وإستوريليس، وديانا، وفييريداس، وجالتياس، وبيليارداس،
واللاتي يتم بيعهن في الميادين، ومن السهل علينا سراًؤهن، واعتبارهن
معشوقاتنا. وإذا، سيدتي، وبعبارة أفضل، راعيتي، تسمى بالصدفة (أنا)،
سوف أحفى بها تحت اسم (أناردا)، وإذا كانت (فرانيسكا) سأسميها أنا
(فرانثينيا)، ولو كانت (لوثيا) ستصير (لوثيندا)، فكل شيء يجوز هناك،
وسانشو بانثا، إذا أراد الدخول في هذه (الأخوة الصوفية)، يد تطيع الاحتفاء
بزوجته تيريزا بانثا تحت اسم (تيريزيانا).

ضحك دون كихوتى من تطبيق الاسم وامتدح القسيس قراره الشريف
والأمين امتداحاً لا نهاية له، وعرض من جديد صحبته كل الوقت الذى ليس عليه
فيه رعاية واجباته الإجبارية، وبهذا قاما بتوديعه، فى رجاء ونصح أن يعتنى
بصحته، وأن يريح نفسه بكل وسيلة ممكنة.

أراد الحظ أن تستمع أمته وابنة أخته حديثهم الثلاثى، وهكذا لم يرحل
القسيس وكاراسكو حتى دخلت المرأتان على دون كихوتى، وقالت ابنة الأخت:

- ما هذا، أيها السيد الخال، الآن ونحن نفكر أن فحامتكم قد عدت للبقاء في
البيت، وقضاء حياة هادئة ووقورة فيها، تفكر أنت أن تضع نفسك في
مناهاة جديدة، وتصير:

أيها الراعى الحبيب القادم

أنت الراعى الحبيب الراحل

والحقيقة، أن أعواد الشعير أصبحت أصلب من أن تصلح لعمل ناى صغير^(*).
أضافت الأمة:

- وهل تستطيع فخامتكم قضاء القيلولة فى قيظ الريف، وليالى الشتاء الرطبة،
وساعات عواء الذناب؟ بالتأكيد، هذا عمل رجال أقوياء دبغتهم الشمس،
وتربوا من أجل هذه المهمة تقريبا وهم فى المهد، وحتى لو اخترنا بين السيئ،
فالأفضل أن تكون فارساً مشاء من أن تكون راعياً. انظر سيدى، خذ
بنصيحتى، ولا أعطيها لك وأنا متخمة بالخبز والنبيد، وإنما أنا صوامة فوق
الخمسين من عمرى. ابق فى بيتك، وأدر ممتلكاتك، واعترف فى الكنيسة
كثيراً، وساعد الفقير، وعلى مسئولية أهلها، إذا خرج لك هذا الأمر بسوء.
أجابهما دون كيخوتى:

- اسكتا، يا ابنتى، أنا أعرف جيداً ما أفعل. احملاى للسري، يبدو لى أننى لست
فى حالة طيبة جداً، وتأكد، سواء كنت فارساً مشاء أو راعياً يسير فى
الريف، فلن أترك دائماً الاهتمام بما هو ضرورى لحياتكما، كما سوف تريانه
فى أفعالى.

والابنتان الطبيتان (الأمة وابنة الأخت هكذا كانتا لا شك) حملتاها لفراسه،
وقدمتا له الطعام، وما أمكن من وسائل الراحة والسكينة.

(*) يستخرج الأطفال فى الريف السوق اللدنة المجوفة لعمل ناى بدائى صغير فى طول إصبع
بشرط أن تكون السوق خضراء لأنها عند جفافها ينهدم تجويقها ولا تصلح للصغير، وتريد
القول إن صحته لم تعد تسمح بخروجه للرعى .

الفصل الرابع والسبعون

عن كيف سقط دون كيخوتى مريضاً، والوصية التي عملها، وموته

كما أن الأشياء الإنسانية ليست خالدة، ماضية دائماً للانحدار من بدايتها حتى تصل لغايتها الأخيرة، وخاصة حيوات بنى آدم، وكما أن حياة دون كيخوتى لا تتصف بتميز سماوى حتى توقف مجرى انحدارها، وصلت نهايتها وتامها عندما كان هو عن ذلك خلىّ البال، وربما كان سبب هذا أحزانه التي يسببها له رؤية نفسه مهزوماً، أو أمر السماء، والتي هكذا أرادت، فقد انزعت في جسمه سخونة، أبقته في السرير ستة أيام، زاره خلالها القسيس مرات عديدة، ومثله فعل كارأسكو والحلاق، أصدقاؤه، ولم يغادر موقعه عند رأس سريريه سانتشو بانثا، حامل دروعه الطيب. وهؤلاء، لاعتقادهم أن ذلك بسبب حزن هزيمته، وعدم تحقق رغبته فى تحرير دولثينيا من سحرها، حاولوا بكل السبل الممكنة إدخال البهجة على نفسه، قائلاً له كارأسكو بأن يرفع من روحه، وأن ينهض حتى يبدأ مهمته الرعوية، والتي من أجلها قد انتهى من تأليف قصيدة رعاة، تضرب كل قصائد (سانثارو)، وأنه قد اشترى بالفعل من حرّ ماله كليين مشهورين للصيد لرعاية القطيع، أحدهما يسمى (بارثينو) والآخر (بوترون)، باعهما له مربى المواشي (كينتانار)، لكن مع كل هذا لم يغادر دون كيخوتى حزنه.

استدعى أصدقاؤه الطبيب، قاس النبض، لم يسره كثيراً، وقال إنه بين احتمال قرب الساعة بين لا ونعم، عليه تقبل الرعاية الدينية لخلص الروح، لأن

الجسم فى خطر. استمع دون كىخوتى هذا بنفس فىها سكىنة، لكن لم يستمع إلیه هكذا أمته وابنة أخته، وحامل دروعه، الذین بدأوا فى البكاء الحنون، كما لو كان میتاً بین أیدیهم. وكان رأى الطیب، أن الأسى والانغلاق على الذات یقضیان علیه، رجا دون كىخوتى الجمیع أن یتركوه وحده، لأنه كان یرید أن ینام قلیلاً. وتركوه، ونام دفعة واحدة، كما یقولون، ست ساعات، ولطول نومه فكرت الأمة وابنة الأخت أنه سیبقى هناك فى النوم، واستیقف فى نهاية الساعات الست، ورافعاً صوته عالیاً قال :

– تعالى الله القادر الجبار الذى أنعم علیّ إنعاماً كبیراً! فى النهاية، فإن رحمته لیس لها حدود، ولا یقلل منها أو یعوقها ذنوب البشر.

كانت ابنة الأخت كلها أذان لعبارات الخال، وبدا لها أنها أكثر اتساقاً مما تعود قوله من عبارات، على الأقل فى ذلك المرض، سألته:

– ما الذى تقوله یا سیدی؟ هل لدينا جدید؟ أى رحمة هذه، أو أى ذنوب للبشر؟
أجاب دون كىخوتى:

– الرحمة هى ما فعله الله بى فى هذه اللحظة، وهى رحمة لا تعوقها ذنوبى، لى الآن عقل حر وشفاف، دون ظلال مظلمة من الجهل، تلك التى غطته بما قراءتى المریرة والمستمرة لكتب الفروسية الكریهة، وها أنا أعرف على ترهاقها وغشها، ولا یثقل علیّ إلا أن هذا الانكشاف لخداعها وصل متأخراً كثیراً، ولا یترك لى وقتاً للتعویض بقراءة كتب أخرى تكون نوراً للنفس، وأنا أحس، یا ابنة أحتى، أنى على وشك الموت، وأود عمل شىء مقابل ما یفوتنى من قدرة على التعویض، بأن أشرح للجمیع أن حیاتی لم تكن بذلك السوء، حتى تترك لى لقب المجنون، وعلى الرغم من أنى كنته، لا أرید تأکید

هذه الحقيقة في موتى. نادى، يا صديقتى، أصدقائى القسيس وشمشون كارأسكو البكالوريا، والأسطى نيكولاس الحلاق، لأنى أود الاعتراف، وعمل وصيتى.

لكن أعفت ابنة الأخت من هذا العمل بدخول الثلاثة، ولم يكد دون كيخوتى يراهم، حتى قال :

- باركوا لى، أيها السادة، فأنا لم أعد دون كيخوتى دى لامانشا، وإنما أنا (ألونسو كيخانا)، الذى منحتنى عاداتى لقب (الطيب)، وأنا الآن عدو لأماديس دى جاولا، ولكل العشيرة التى لا تحصى من نسله، والآن كل القمص الفاسدة للفروسية المشاءة هى عدوة لى ، وأنا أعترف بسفاهتى، والخطر الذى وضعنى فيه أننى قرأها، وأنا بفضل رحمة الله تم تقويم عقلى، وأنا الآن أستكرها.

عندما سمع الثلاثة هذا اعتقدوا، دون شك، أن جنوناً جديداً قد تملكه، قال له شمشون:

- والآن يا سيد دون كيخوتى، لدينا خبر أن السيدة دولثينيا قد انفك سحرها، فهل يخرجك هذا من السرير؟ والآن ونحن على وشك أن نصير رعاة حتى نقضى الحياة فى غناء، كأمرء، هل تود أن تصبح ناسكاً؟ اسكت وحياتك! عد إلى نفسك واترك هذه الحكايات.

أجاب دون كيخوتى:

- ما كان (من حكايات) حتى الآن كانت لضررى، أما التى توجد متخللة موتى، فبعون السماء هى فى صالحى. أنا، أيها السادة أحس أننى أموت مسرعاً حتى المدى. اتركوا المزاح جانباً، وأحضروا لى كاهناً لأعترف أمامه، وكتباً رسمياً

لعمل وصيتي؛ ففي مثل هذه اللحظات الحرجة الإنسان لا يمزح مع الروح، وهكذا، أتوسل، أنه خلال استقبال السيد القسيس لاعترافي، اذهبوا لإحضار الكاتب الرسمي.

نظر كل منهم للآخر متعجبين من عبارات دون كيخوتي، ومع أنهم في شك، أحبوا أن يعتقدوا فيما يقول، وكانت إحدى الإشارات من أنه يموت كانت السهولة الشديدة التي انتقل بها من الجنون إلى العقل، لأن ما أضافه للعبارات السابقة، من عبارات أخرى كثيرة، حسنة القول واضحة الإيمان، مصيبة للقصد، بدد كل شك، وأدى للاعتقاد في عقله.

جعل القسيس الجميع يخرجون، وبقي وحيداً معه، واعترف له. والبكالوريا شمشون كارأسكو ذهب لإحضار الكاتب الرسمي، وبعد قليل عاد معه، ومع سانشو بانثا، هذا السانشو (الذي عرف بالأخبار من شمشون عن حال سيده)، فما أن وجد الأمة وابنة الأخت بيكيان حتى تحول إلى مرجل يريق الدموع. انتهى الاعتراف، وخرج القسيس يقول:

- حقيقة إنه يموت، وحقيقة إنه عاقل، إنه ألونسو كيخانا الطيب، نستطيع الدخول حتى يعمل وصيته.

هذه الأخبار صنعت دفعة مرعبة لعيون أمته وابنة أخته وسانشو بانثا حامل دروعه الطيب، فانفجرت دموعهم مع ألف تنهيدة ونحيب من أعماق الصدور، لأنه حقيقة كما قيل في إحدى المرات، إنه عندما كان دون كيخوتي (ألونسو كيخانا الطيب) دون ألقاب، وأنه عندما كان دون كيخوتي دي لاما نشا، في الزميين كان هادئ السلوك، طيب المعشر، ليس لهذا فقط كان محبوباً جداً من أهل منزله، بل أحبه هكذا كل من عرفوه. دخل الكاتب الرسمي مع الباقيين، وبعد أن دبح الكاتب مقدمة الوصية، ونظم دون كيخوتي شئون الروح مع القسيس بكل تلك الهالات

الدينية المناسبة، كان الوصول إلى الوصايا، فقال:

- بند، إرادتى فيما يتعلق ببعض النقود التى لى مع سانشو بانثا الذى اتخذته خادمًا أيام جنوى، ولأنه كان هناك بينى وبينه بعض الحسابات، وأخذ وعطاء، أحب ألا يكون مدينًا لى بها وألا يطلب منه أى حساب، فقط إذا تبقى بعضها بعد أن يدفع لنفسه ما أدين له به، فالباقى له، والذى قد يكون قليلاً، هنيئاً مريئاً له، وإذا كنت وأنا مجنون قد وعدته بحكومة ولاية، فإنى وأنا عاقل أود أن أمنحه مملكة، فبسبب بساطة معاملته وإخلاصها يستحق ذلك.

وملتفتاً إلى سانشو، قال له:

- ساحنى، يا صديقى، من إتاحة فرصة لأن تبدو مجنوناً مثلى، جاعلاً إياك تقع فى الخطأ الذى وقعت فيه، من أنه وجدت وتوجد فروسية مشاءة فى العالم.

أجاب سانشو باكياً:

- آى! لا تمت فخامتكم، سيدى، وإنما خذ بنصيحتى، وعش سنوات طويلة، لأن أعظم جنون يرتكبه الإنسان أن يترك نفسه يموت دون سبب، ودون أن يقتله أحد، ودون أن تقضى عليه أيد غريبة، باستثناء أيدى الحزن. انظر، لا تكن كسولاً، وإنما اهض من هذا السرير، وهيا بنا إلى فضاء الريف الفسيح مرتدين لبس الرعاة، كما اتفقنا، فلعلنا وراء شجرة نجد السيدة دونيا دولثينيا دل توبوسو متحررة من سحرها، فلا شىء أفضل يستحق أن نراه. وإذا كنت تموت من حزن أنك هزمت، فألق الذنب على قائللاً بأننى لأنى لم أحسن ربط السرج على روئيناتى أسقطوك، وبخاصة أن فخامتكم قد تكون رأيت فى كتبك للفروسية أنه شىء عادى أن يسقط بعض الفرسان فرسائناً آخرين، والمهزوم اليوم منتصر غداً.

قال شمشون:

– هكذا هو الأمر، وسانشو في غاية الصدق فيما يتعلق بمثل هذه الحالات.

قال دون كيخوتي:

– أيها السادة، مهلاً، ففي أوكار العام السابق لا توجد عصافير هذا العام، أنا كنت مجنوناً، وأنا الآن عاقل، كنت دون كيخوتي دى لاما نشا، وأنا الآن ألونسو كيخانا الطيب، كما سبق أن قلت. هل يمكن أن يفلح ندمي وحقيقتي مع فخامتكم في إعادة ما كان منكم لي من تقدير وليواصل السيد الكاتب عمله:

بند، أترك كل ممتلكاتي، بباب مغلق^(*)، لأنتونيا كيخانا، ابنة أختي، والتي هي حاضرة، بعد أن تستخرج منها أولاً ومن أطايبها، ما يكفي لسداد ما أوصى به. وأول ما يرضيني أن عمله هو دفع مرتب أمتي عن كل الوقت الذي خدمتني فيه، مع زيادة عشرين ديناراً نظيراً ثوب لها. أترك أوصياء لتنفيذ الوصية السيد القسيس والسيد البكالوريا شمشون كارأسكو، وهما حاضران.

– بند، إرادتي، إذا أنتونيا كيخانا ابنة أختي أحبت الزواج، تتزوج من رجل يتم أولاً الحصول على معلومات عنه تؤكد أنه لا يعرف شيئاً اسمه كتب الفروسية، وفي حال التحرى عن أنه يعرف هذه الكتب، ومع ذلك تحب ابنة أختي الزواج منه، وتتزوج منه، تفقد كل ما أوصيت به، ويقوم أوصيائي بتوزيعه على أعمال خيرية حسب إرادتهم.

(*) بعد تصفية أي ديون عليها أو متطلبات.

- بند، أتوسل إلى أوصيائي المذكورين إذا أتاح لهم الحظ الطيب معرفة المؤلف الذى يقولون إنه ألف قصة منشورة عنوانها (القسم الثانى من مآثر دون كيخوتى دى لاما نشا)، أن تطلبوا منه بكل رجاء ممكن، أن يعفو عني، لأنى أعطيته الفرصة لكتابة ترهات كبرى وكثيرة، مثل ما هو مكتوب فى القصة؛ لأننى أرحل من هذه الحياة بشك فى أنى أعطيته دافعاً لكتابتها.

أغلق بهذا وصيته، ودخل فى إغماء، وتمدد طويلاً وعرضاً فى السرير. اضطرب الجميع، وهرعوا لعلاجه، وفى ثلاثة أيام بعد هذا اليوم الذى كتب فيه الوصية، كان يغشى عليه معظم الوقت، كان البيت فى ضجيج وعجيج، لكن رغم هذا كانت ابنة الأخت تأكل والأمة تعاقرها الكأس، وسانشو بانثا يبتهج، فإن أمر الميراث ذاك يمسح بعض الشيء أو به يعتدل فى ذاكرة الوريث الألم، الذى من المعقول أن يخلفه الميت، فى النهاية وصل اليوم الأخير لدون كيخوتى، بعد أن أدى الشعائر الدينية واستتكر بعبارات قادرة وكثيرة كتب الفروسية.

كان الكاتب حاضرًا، وقال إنه لم يقرأ قط فى أى كتاب للفروسية أن فارسًا مشاء مات فى سريره بكل هذه السكينة، مع استقبال الشعائر الدينية، كما فعل دون كيخوتى الذى بين المشاعر والدموع ممن كانوا موجودين أسلم روحه أريد القول أنه مات.

وما إن رأى ذلك القسيس طلب من الكاتب أن يعطيه شهادة بأن ألونسو كيخانا الطيب، المشهور بين العامة باسم دون كيخوتى دى لاما نشا، قد اجتاز هذه الحياة الدنيا، ومات موتاً طبيعياً، وأن طلب هذه الشهادة لعدم إتاحة الفرصة لأى كاتب آخر غير سيدى حامدى بن إنجيلين أن يبعثه من الموت بشكل زائف، ويعمل قصصاً لا تنتهى عن مآثره. هذه النهاية نالها شريف (لامانشا)، والذى لم يحب أن يذكر قرينه بدقة سيدى حامدى حتى يترك كل المدن والقرى فى (لامانشا) تتقاتل

فيما بينها لنيل بنوته لها، وادعائه لنفسها، كما تقاثلت مدن اليونان من أجل (هوميروس).

الكتابة الجديدة على قبره، لا تتضمن رثاء سانشو وابنة أخت دون كيخوتي وأمه، على الرغم من ذلك وضع له شمشون كارأسكو هذا:

يرقد هنا الشريف القوي

من وصل إلى المدى

من شجاعته حتى يعلم

أن الموت لم ينكسر

في حياته إلا عندما أماته

قل العالم في عينيه

كان شبح وغول

العالم في تلك البرهة

وقد نال قدرة المصدقية

بأن عاش مجنوناً ومات عاقلاً

وسيدى حامدى لعظيم فطنته قال لريشة كتابته: هنا ستبقين معلقة في مكانك العلى، بهذا السلك، ولا حتى سأعرف، ريشتى الحميمة، إذا ما كنت جيدة التقليم والسن. في مكانك ستعيشين دهوراً طويلة إذا لم يأت مؤرخون قصاصون مُدعون وأشرار ينزلونك كى يدنسوك، لكن قبل أن يصلوا إليك، يمكنك أن تتحدثى وتقولى:

" رويدكم أيها المحتالون الصغار

لن يمسنى أحد منكم

فأنا تلك الريشة

التي فكت رصد كنز كان

محفوظًا لي: كنز الملك الطيب

دون كيخوتى ولد لى وحدى، وأنا ولدت له وحده، هو عرف تحقيق الأمجاد، وأنا عرفت الكتابة، اثنان فى واحد وحدنا، على الرغم من الكاتب المزيف (التورديسكو)^(٢)، والذى تجاسر أو قد يتجاسر، على الكتابة بريشة نعام خشنة وسيئة المنظر مآثر فارسي الهمام، فهذا الحمل ليس لكتفيه وهذا الشأن ليس لذكائه البارد، والذى سوف تحذرينه لو عرفته بأن يترك عظام دون كيخوتى المتعبة مستريحة فى قبرها، والتي هى الآن بالفعل قد تهرأت، وألا يحمله، ضد كل قوانين الموت إلى قشتالة القديمة، جاعلاً له يخرج من مدفنه، حيث فعلاً وحقاً يرقد ممدد اليدين والرجلين، مستحياً عليه إنجاز اليوم الثالث^(٣)، وخرجة جديدة ليخدع كثيرات، كما فعل فرسان كثيرون من المشائين، ويكفى أن فعل ذلك مرتين، معطياً سروراً وطرباً لكل الناس الذين وصل خبره إليهم. وبهذا سوف تنجزين وظيفتك التقية، ناصحة جيداً من لا يحبك جيداً، وأنا سابقى راضياً ومتفخراً أن كنت أول من تمتع

(٢) نفس الكاتب المشار إليه من قبل من قرية تورديسياس (أراجون).

(٣) ينظر ثربانتنس إلى المسرح معتبراً القسمين الأول والثانى مسرحية من يومين (فصلين)، ليوم ثالث لهما، مغلقاً الطريق بموت بطله أمام مجئ مؤلف مجهول آخر ليكتب قسماً ثالثاً (اليوم الثالث).

بثمار مكتوبك كاملاً، وحسبما يرغب، من ثم، فلم تكن لى رغبة أخرى سوى
استثارة حفيظة الناس ضد القصص المصطنع، والملىء بالترهات فى كتب
الفروسية المشاءة التى تتعثر بقصص رفيقى دون كيوخوتى الحقيقى، هذا القصص
المزيف لابد أن يسقط دون شك.

وأخيراً، أسعد الله أوقاتك أيها القارئ العزيز ...

المؤلف في سطور

ميجيل دى ثربانتس سابيدار، وشهرته ثربانتس

ولد في قرية بجوار مدريد " ألكال دى إنارس " ٢٩ سبتمبر ١٥٤٧، درس في مدريد. انتقل إلى إيطاليا ليشارك جنديًا في معركة ليبانتو عام ١٥٧١ الشهيرة التي هزم فيها الأسطول التركي الذي لا يقهر. أظهر شجاعة منقطعة النظير، وجرحت يده اليسرى جرحًا أصابها بالشلل، وظل هذا الجرح مثل وسام فخر به طوال حياته المليئة بالبوأس وسوء الحظ، ابتداء من الميلاد في أسرة فقيرة، والصدف التي أوقعته في ورطة الاتهام بارتكاب جرائم لم يرتكبها، أدخلته السجن مرة، وأرغمته قبلها على مغادرة إسبانيا إلى إيطاليا، وعند عودته من إيطاليا أوقعته في الأسر في يد الأتراك بالجزائر ليقتضى خمس سنين قاسية هناك. عند عودته إلى مدريد اشتغل بالأدب كاتبًا للقصة والرواية والمسرح والشعر الغنائي دون تفرغ، حيث اضطر للعمل بجمع المكوس للأسطول الإسباني على هيئة محاصيل زراعية. وعام ١٦٠٥ يفاجى العالم بنشر القسم الأول من العمل الأدبي العمدة على مستوى الأدب الإسباني والأوروبي والعالمي، إنه رواية " الشريف العبقري دون كيخوتى دى لامانشا" واعدًا بنشر القسم الثانى، الذى لم ينشره إلا تحت ضغط الغضب بسبب قيام كاتب ردى بنشر القسم الثانى فى مدينة سرقسطة . ينشر القسم الثانى عام ١٦١٥ قبل موته بشهور، حيث رحل عن هذا العالم فى ٢٣ أبريل عام ١٦١٦ فى نفس اليوم والساعة التى رحل فيها شكسبير، والرجلان المؤسسان، ثربانتس المؤسس الأول للرواية الحديثة فى عمله هذا "دون كيخوتى" وشكسبير المؤسس الثانى بعد الإغريق للتراجيديا.

المترجم فى سطور :

سليمان العطار

أستاذ الأدب الأندلسى فى قسم اللغة العربية وآدابها بكلية آداب القاهرة، له بجانب أعماله العلمية فى تخصصه دراسات حول الأدب الإشبانى وترجمات لأعمال من الأدب الإشبانى والأمريكى اللاتينى أشهرها "مائة عام من العزلة" لغارثيا ماركيز (نوبل ١٩٨٢)، و"خلية النحل" لإميليو ثيلا (نوبل ١٩٨٨).

التصحيح اللغوى: ياسر مكى
الإشراف الفنى: حسن كامل



مكتبة بغداد

يعرف دون كيخوت كل شيء عن ثقافة عصره والعصور الماضية، فيختلط في عقله الخيال بالواقع، ويخرج من قريته بحثاً عن المغامرة ليعيش حياة الفرسان المشائين بكل ما فيها من خيال جامح قدمته كتب الفروسية.

إنه إنسان يريد أن يعيش الشعر في الواقع فيعترضه الواقع، ويسقط عليه تحولات سحرية تزول بعد قليل لتكشف وجه الواقع، ولتصبح المغامرات الوهمية خطأ وهمياً بين الواقع والخيال، تستمد منها شخصية دون كيخوت أبعادها النفسية، وأدوات تعرفها على ذاتها وذوات الآخرين.

نقدم لكم إذن السيد الشريف العبرى دون كيخوت الشهير بين العرب باسم دون كيشوت.